



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة الملك فيصل

كلية الآداب

الخطابُ النَّثْرِيُّ النَّسْوِيُّ فِي سِيَاقِ الْحَرْبِ بَيْنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ ﴿دراسةُ أسلوبيَّةٌ﴾

إعداد الباحثة

وفاء بنت علي بن أحمد العبدى

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في تخصص
الأدب والنقد - قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الملك فيصل

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

اعتماد لجنة المناقشة والحكم

الخطابُ التُّرِّيُّ النَّسْوِيُّ فِي سِيَاقِ الْحَرْبِ

بَيْنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ

﴿ دِرَاسَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ ﴾

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ : ٢٦/٧/١٤٣٥ هـ، الموافق : ٢٥/٥/٢٠١٤ م ،

وتم بحمد الله إجازتها.

أعضاء لجنة المناقشة والحكم :

التوقيع:	مشرفاً ومقرراً.	أستاذ الأدب والنقد المشارك	د. شهير أحمد دكروري.
التوقيع:	ممتحناً داخلياً.	أستاذ البلاغة والنقد	أ.د. فايز عارف القرعان.
التوقيع:	ممتحنة داخلية.	أستاذة البلاغة والنقد	أ.د. عزة محمد جدوع.

السيرة الذاتية

وفاء علي أحمد العبدى .

المؤهلات العلمية :

ماجستير في اللغة العربية.

التخصص: الأدب والنقد.

جامعة الملك فيصل، كلية الآداب، بالأحساء .

بكالوريوس لغة عربية. من جامعة الملك فيصل بالأحساء .

الخبرة العملية :

الوظيفة الرسمية : معلمة، في إدارة التربية والتعليم، بنات، الأحساء .

تم إنجاز بعض الأبحاث التي منها:

- أوليّة الشعر الجاهلي (قراءة تأصيلية).
- التصوير الفني للناقة في شعر المعلقات .
- الاستفهام المجازي في شعر المتنبي .
- المعارضات في الأدب الأندلسي .
- الأسطورة ، شعر السياب نموذجاً.
- سينية شوقي (قراءة موضوعية موازنة بين سينيتي البحتري وشوقي) .
- قصيدة الخنساء (قذى بعينيك ...) دراسة أسلوبية .
- المكان في الرواية (عائد إلى حيفا)لفسان كنفاني نموذجاً .
- مسرحية شوقي (قمبيز) التاريخ.. الفن.. الأسطورة (دراسة في التشكيل الدرامي).
- (إنسان) مسرحية شعريّة لسليمان العيسى ، قراءة في البناء الدرامي .

- تحقيق مخطوطة بعنوان : هذه رسالت لطيفة جامعته للأمثال السائرة من شعر المتنبي "جمعها صاحب بن عباد لمخدومه فخر الدولة رحمه الله"
- المشترك اللفظي .
- ابن عصفور (النحوي الفريد).

بعض الدورات التدريبية من مركز التدريب التربوي والابتعاث التابع لوزارة التربية والتعليم بالأحساء :

- طرق وأساليب معالجة الدروس لمادة (النحو والصرف للمرحلة الثانوية).
- التدريس الفعال.
- إدارة الصف.
- تأهيل المدرسات.
- تحديد الاحتياجات التدريبية وقياس أثر التدريب.
- هندسة عمليات التدريب، الأسس والمهارات.
- كيف نكون مبدعين.
- ورشة التطبيق والتميز في اختبار القدرات .
- دبلوم هندسة النجاح (NPL).من مركز شمس للتدريب .

إهداء

إِلَى ظِلِّ أَبِي عَلَى الْأَرْضِ ..

إِلَى رُوحِ أُمِّي ..

شُكْرٌ وَعِرْفَانٌ

لِلرَّبِّ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين الذي تطوّل و تفضّل، فأعطى وأجزّل، فله الشكر على ما منح، وما أسبغ واستفتح، فكان من ذلك أن قدر ظهور هذا البحث إلى عوالم النور، بعد صراع مع الظلمة والديجور، والله الشكر أولاً وآخرًا، بعد أن يسّر العسير، وذلل الصعب، وفرّج الهم، حمدًا يليق بجلاله وعظّمته، والصلاة والسلام على خير أنبيائه أجمعين سيدنا محمد معلم البشرية الأول، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الهداة المهديين.

وبعد..

فالشكر لله أن هيا لي والدا صالحا، حسن السيرة، كريم النفس، عظيم اليقين، مستقر الإيمان رغم الشدائد والمحن، رجلا اضطر أن يكون أبا وأمّا في وقت مبكر جدا حين فقد زوجته وأمّ أبنائه في شبابه، هذا الأب الذي رافقتني في سهر الليالي مع هذه الدراسة، أحكي له حكايا هاته النسوة، وأقص له قصصهن، فيستنكر تارة، ويتعاطف تارة، ويعجب في كل تارة، ويقول في ختام كل سهرة: هذا مركب صعب.. وأنت له..!! فإلى سنوات الصبر والعطاء محفورة كفسيفساء على وجهه الطيب، إلى ظل والدي متعه الله بالصحة والعافية، وإلى روح أمي التي فارقتني في المهدي، ترفّ من عوالمها، ترنو تارة، وتدمع عيناها تارة، وتحن في كل تارة، أستشعر ذلك وشيجة تشدني إليها وتشدها إليّ كل حين..!! إلى والدي الكريمين.. فبين يديهما ينخفض جناح الشكر ذليلا..!

للنجاح آباء كثر، ولكن إن كان لنجاح هذا البحث من أب شرعي فهو هذا الأستاذ المتفاني إخلاصًا، المتألق إنسانيّةً، والمخضّل علمًا، والمشرب عطاءً، والمتدفق احتواءً، الأستاذ الدكتور: شهير أحمد دكروري، الذي أمدّ هذا البحث من شرايين صبره، فآمن بأهميته وبقدرة الباحثة على إنجازه وإن كان بعد لأي، حيث يئس الناس، فأعذر حيث لاموا، وصبر حين سئموا، وتسلىح بالأمل حين فقدوا الرجاء، وأبصر النور في نهاية النفق حينما استحكمت الظلمة.. فإليه الشكر متواضعا.. إنسانا.. وأخا.. وأستاذًا مُعلما..!!

ويكثير من الامتتان أشكر أيضًا هذه اللجنة الكريمة التي قبلت مناقشة هذا البحث، فكان ذلك وساما يشرف به البحث والباحثة، فالشكر للعلمين العالمين: الأستاذة الدكتورة/ عزة جدوع، أستاذة البلاغة والنقد، والأستاذ الدكتور: فايز القرعان، أستاذ البلاغة والنقد، فجزاهما الله عني خير الجزاء، فقد ضحيا تضحية كبيرة وصبرا صبرا محمودا، فحفظهما الله ونفع بهما، وزادهما رفعةً وألقًا وعطاءً..!

أجزّل الشكر هنا لكل من علمني، أو وضع لبنة في بنيتي المعرفية، أخصّ أساتذتي في مرحلة الدراسات العليا الذين تبنوا وجودنا إنسانيا ومعرفيا، الدكتور: إبراهيم كايد، والدكتور: ظافر الشهري، الدكتور: ربيع عبد العزيز، والدكتور: الحسين النور، والدكتور: محمد عباس، حفظهم الله جميعا وأمدهم بالصحة والعافية.

الشكر لجامعة الملك فيصل، ولعمادة الدراسات العليا، ولرئيس قسم اللغة العربية، الأستاذ الدكتور: عصام العصام المحترم، لمواقفه النبيلة وحرصه على إتمام هذا البحث وتقديمه، والشكر موصول للدكتور: أسامة عطية، الذي لم يدخر جهدا بدعمه وتشجيعه وتذليله الصعوبات، فلهما خالص الامتتان والتقدير..!

وإن كان من دعامة حقيقية لهذا الإنجاز فهما أخوي اللذان كانا سنداً راسخاً، وقد تحملاً مؤونة كبيرة ليخرج هذا البحث للنور، فقدمنا له كل ما يلزم لنجاحه وفق استطاعتهما، وهما الأخ الدكتور: عبد الإله المرزوق، والأخ الدكتور: عبد الله المرزوق، حفظهما الله وسددهما وأتار بصيرتيهما وقضى حوائجهما دنيا وآخرة..!!

أما جناحي اللذان بهما أحلق وأرف، فأبدع وأشف، فهما ابنتا أخي: الأستاذة الحنون الرؤوم: فاطمة إبراهيم العبدى، والدكتورة الواعدة: زينب إبراهيم العبدى، كللهما الله بعنايته، وجعلهما من أهل طاعته، وسددهما إلى مرضاته..!

الشكر إلى أختي وإخواني، الذين آمنوا بي جميعاً، وأختي.. أمي الثانية التي ما فتئ لسانها يلهج بالدعاء، وروحها بالرجاء حتى جاء هذا اليوم..!!

الشكر لكل من ساندني بدعوة صادقة في ظهر الغيب، أو ابتساماً مشجعة، أو بأي نوع من المدد، هو هين عند الناس عظيم عند رب الناس، أذكر منهم السيد الدكتور: أحمد العبيد، حفظه الله، زميلات الدراسة، وبنات أختي وأخص الأستاذة مريم المكي، وأبناء إخواني، الأحبة والأصدقاء، ولا سيما الجنود المجهولين لكل نجاح.. يتمددون فضاء القلب، و يفتشون مواطن الامتنان..!!

مُلَخَّصُ البَحْثِ

لقد حاولت هذه الدراسة التي جاءت بعنوان: (الخطاب النثري النسوي في سياق الحرب بين الجاهلية وصدر الإسلام. "دراسة أسلوبية") مقارنة خطاب المرأة النثري في سياق الحرب وفق المنهج الأسلوبي، وذلك بناءً على الفرضية التي تبناها البحث بدايةً، وهي خصوصية وضع المرأة (في الجاهلية وصدر الإسلام) في ظل سياق متفجر كالحرب، وخصوصية خطابها الذي يفرزه هذا السياق، وفي سبيل ذلك جاءت هذه الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول:

أما التمهيد، فيشتمل على:

- ١- مفهوم الخطاب النثري.
- ٢- أنماط الخطاب النثري ودوره في سياق الحرب.
- ٣- مصادر الخطاب النثري في سياق الحرب.
- ٤- متغيرات العصر وخصوصية الرسالة.

أما صلب البحث فقد قسم إلى:

➤ الفصل الأول: البنية التركيبية وتشكيل الدلالة:

➤ المبحث الأول: التقديم والتأخير. المبحث الثاني: الخبر. المبحث الثالث: الإنشاء

➤ الفصل الثاني: البنية الإيقاعية وتأکید الدلالة:

➤ المبحث الأول: الجناس. المبحث الثاني: السجع. المبحث الثالث: الطباق والمقابلة.

➤ الفصل الثالث: البنية التصويرية وإبداع الدلالة:

➤ المبحث الأول: الصورة التشبيهية. المبحث الثاني: الصورة الاستعارية.

المبحث الثالث: الصورة الكنائية.

➤ وأخيراً الخاتمة، ثم ثبت المصادر والمراجع والفهارس.

وفي هذه النماذج المنتقاة من خطاب المرأة (الجاهلية/المسلمة) في سياق الحرب، يتضح أن هذا الخطاب تولّد استجابة لطاقة الموقف الاتصالي، وما تفرضه ضرورات السياق المصاحب، وأن هذه الخطابات كانت إفراساً حقيقياً لسياق الحرب، أفضت فيه المرأة بطاقة شعورية مضاعفة في سياق لغوي

معبر...!!

وَقَدْ أَظْهَرَ هَذَا الْخِطَابُ الْلُغَوِيَّ أَنَّ الْمَرْأَةَ فِي كِلَا الْعَصْرَيْنِ (الْجَاهِلِيِّ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ) اسْتَجَابَتْ بِكُلِّ عَفْوِيَّةٍ لِمَتَطَلِبَاتِ عَصْرِهَا وَكَانَتْ ابْنَةً بَيْنْتَهَا، مَنْسُجَمَةٌ مَعَ مَفَاهِيمِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَعَادَاتِهَا الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ تَعَالِيمِ دِينِهَا الْجَدِيدِ، كِلْتَاهُمَا كَانَتَا مُسْتَعِدَّتَيْنِ لِلتَّضْحِيَّةِ وَالْفِدَاءِ فِي سَبِيلِ مَا تَوَمَّنَانِ بِهِ، وَتَذَهَبَانِ فِي مَسَانِدَتِهِ إِلَى آخِرِ رَمَقٍ..!!

ورصد هذا البحث أن هناك نسبة وتناسبا في الكم، من حيث اشتغال المرأة ببعض أساليب الخطاب، وليس في نوع اللغة، التي تنحاز نوعيا لصالح المرأة الجاهلية، فهناك توجهات نحو الأسلوب الخبري بعامة في الخطابين، بل وحتى في الميل إلى الخبر الإنكاري على حساب أغراض الخبر الأخرى، وهذا ما نجده في باقي تفاصيل الخطاب الموزعة على فصول الدراسة الثلاثة، وبتفاصيلها، فمثلا هناك انحسار أسلوب التمني عند المرأتين، تراجع النهي، وكذا في باقي التفاصيل الأخرى، نلاحظ هذا التوازن الكمي في الخطاب الحربي..!!

هذا كله وغيره يدل على هذا الحضور المميز والفاعل الذي سجلته المرأة في تاريخ الإنسانية، وأحدثت به انعطافات تاريخية في سير المعارك التي شاركت فيها، كانت في كثير منها سيدة الموقف والقرار، وخواتيم الأحداث تعطيها ميزة القدرة على إدارة الأزمات بمفهوم العصر الحالي، شخصية واضحة قوية، نابضة، لا نملك إلا أن نحترم هذه المشاركة، سواء اقتنعنا ببعض جوانبها، أو اختلفنا معها، يبقى وجهها مشرقا، وعبيرها متضوعا، وراية حروبها مرفوعة في أحلك الأزمنة، أهدتنا شموسا نستضيئها بعد كل تلك السنوات، وتعاقب الأجيال وتغيرات الأحوال..!

Abstract

The study entitled "Feminist discourse prose in the context of war covering the era before and the beginning of Islam", Stylistic study, tried to approach the feminine discourse prose in the context of war. According to the stylistic approach, it presumed that there was a privacy of the Status of Women (in the era before and at the beginning of Islam). That time was an explosive era full of war .To shed some light on the privacy of her speech, produced by such environment and circumstances, the research conducted in an introduction and in three chapters.

The introduction included

- 1- The Concept of discourse prose.
- 2- The patterns of discourse prose and its role in the context of war.
- 3- Resources of discourse prose in the context of war.
- 4- The Era changes and the privacy of the mission.

The main topic of the research was divided into:-

The first chapter: The compositional Structure and The Foundation of the Semantics

The first section: Anastrophe. The second section: Report. The third: Composition.

The second chapter: Rhythmic Structure and the Semantic Confirmation

The first section: Paronomasia. The second section: Rhyme. The third: Diacritics and Chiasmus.

The third chapter: Pictorial Structure and Semantic Creativity

The first section: Image Simulation. The second section: Metaphoric image.

The third section: Metonymic image.

Finally, the conclusion followed by the sources, references and indexes.

In these models selected from the speech of women (Muslim\ non-Muslim) in the context of war, it was clear that such speech generated in response to the energy of communication. In addition, it was imposed by the necessities of context associated with it. That discourse was something genuine evolved from the context of war. It led the woman to express her emotional powers in an expressive linguistic context.

Such speech has shown that the linguistic discourse of woman in both eras, responded spontaneously to the requirements of her era. It affirmed that the woman was the daughter of her environment. In addition, she was Consistent with the concepts of her society, customs, and the rules of the new religion. Both of two women (non-Muslim\ Muslim) were willing to sacrifice and support what they believe in for the rest of their lives.

The research monitored that there was a proportion and fit in in the quantity, in terms of the manipulation of the woman in some of the methods of discourse, but not the type of the language which impulse some bios toward the woman in the era before Islam. In general, there were some trends to the report style in both speeches and even more tendency to the denial purposes at the expense of other speeches. That what we would find in the rest of the details of the speech distributed to the three chapters. As an example, There were receding in the wishful thinking style with both women, Decline of

Prevention , as well as in the rest of the other details. We noted quantitative balance in the combat-speech.

All of that and other things showed the distinguished and featured appearance and actor recorded by woman in the history of humanity. Moreover, the historic detours caused by woman in the battles of which she was involved in. In many of them, she was the master of the situation and the decision maker. The outcome of events gave her an advantage, which was the ability to manage crises.

As it is taken for granted in the current era, woman is a direct and a strong, live personality. However, we have nothing to do except to respect her participation. Whether convinced with some of its aspects or disagreed with them. Her participation keeps her face brightened, her smell evolving. Her banner of war in the darkest times is raised. She gives us lights to follow all of these years and the succession of generations and changes in circumstances.

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
أ	إهداء
ب	شكر وعرّفان
I	ملخص الرسالة (باللغة العربية)
III	ملخص الرسالة (باللغة الانجليزية)
VI	<u>فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ</u>
١	<u>المُقدِّمةُ:</u>
٥	الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ
٧	مَنْهَجُ البَحْثِ
٧	أَهْدَافُ الدِّرَاسَةِ
٩	إِجْرَاءَاتُ البَحْثِ
١٠	صُعُوبَاتُ وَمَزَالِقُ
١١	تَنْوِيهَاتُ
١٣	<u>التَّمْهِيدُ:</u>
١٤	أولاً: مَفْهُومُ الخِطَابِ
١٦	أولاً: مَفْهُومُ الخِطَابِ عِنْدَ العَرَبِ
٢١	ثانياً: مَفْهُومُ الخِطَابِ عِنْدَ العَرَبِ
٢٣	ثالثاً: بَيْنَ النِّصِّ وَالخِطَابِ
٢٣	مَفْهُومُ النِّصِّ فِي المَعْجَمِ العَرَبِيِّ
٢٤	مَفْهُومُ النِّصِّ فِي المَعْجَمِ العَرَبِيِّ
٢٥	الأول: النِّصُّ مُمَايِزٌ للخِطَابِ
٢٦	الثاني: تَرَادُفُ النِّصِّ وَالخِطَابِ
٢٧	عَنَاصِرُ الخِطَابِ
٢٨	مَفْهُومُ السِّيَاقِ
٢٨	أ- السِّيَاقُ اللُّغَوِيُّ
٢٩	ب- سِّيَاقُ التَّلَفُّظِ
٢٩	عَنَاصِرُ السِّيَاقِ

٣٠	الغصُرُ الذَّاتِي
٣٠	الغصُرُ الموضوعِي
٣٠	المعرفةُ المُشتركةُ
٣٣	<u>استراتيجيَّةُ الخطَابِ</u>
٣٣	مفهُومُ الاستراتيجيةِّ العامَّةِ
٣٥	مفهُومُ الاستراتيجيةِّ في الخطَابِ
٣٧	الكَفَاءَةُ التَّدَاوُلِيَّةُ
٤٤	ثانيًا: مَصَادِرُ الخِطَابِ النَّثْرِيِّ فِي سِيَاقِ الحَرْبِ
٤٩	ثالثًا: أنمَاطُ الخِطَابِ النَّثْرِيِّ ودَوْرُهُ فِي سِيَاقِ الحَرْبِ
٥٣	رابعًا: مُتَعَيِّرَاتُ العَصْرِ وَخُصُوصِيَّةُ الرِّسَالَةِ
٥٨	الفصل الأول: البنية التركيبية وتشكيل الدلالة
٥٩	أهميَّةُ دراسةِ التراكيبِ في النصِّ الأدبيِّ
٦٠	<u>المبحثُ الأولُ: أسلُوبُ التَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ (العصرُ الجاهليُّ)</u>
٦١	مدخلٌ
٦٣	أولًا / تقديمُ المُسندِ إليه
٦٤	ثانيًا / تقديمُ المُسندِ
٦٤	- تقديمُ الفِعْلِ التَّامِّ
٦٦	- تقديمُ شِبهِ الجُمْلَةِ (الخبر) على المُبتدأ
٦٩	- تقديمُ المُسندِ (خبر الحرفِ النَّاسِخِ / الفِعْلِ النَّاسِخِ) على المُسندِ إليه
٧١	ثالثًا: تقديمُ المُتعلِّقاتِ
٧١	- تقديمُ الجَارِ والمَجْرُورِ على المفعولِ بهِ
٧٦	- تقديمُ الجَارِ والمَجْرُورِ على الفاعِلِ
٧٩	- تقديمُ الجَارِ والمَجْرُورِ على نائبِ الفاعِلِ
٨٠	- تقديمُ الجَارِ والمَجْرُورِ نائبِ الفاعِلِ على الفعلِ المبني للمجهولِ
٨١	- تقديمُ الجَارِ والمَجْرُورِ على المفعولِ المطلقِ أو المصدرِ
٨١	- تقديمُ الجَارِ والمَجْرُورِ على خبرِ الفِعْلِ النَّاسِخِ
٨٢	- تقديمُ الظَّرْفِ على المفعولِ بهِ
٨٢	- تقديمُ الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ على المنادى
٨٣	- تقديمُ الموصُوفِ على الصِّفَةِ

- ٨٤ - تَقْدِيمُ الْمَقْسَمِ بِهِ عَلَى جُمْلَةٍ خَبَرِ الْحَرْفِ النَّاسِخِ (إِنَّ)
- ٨٥ - أُسْلُوبُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ فِي (عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)
- ٨٦ أولاً / تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ
- ٨٦ ١. تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ الْأِسْمِيَّةِ
- ٩٣ ٢. تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ
- ٩٤ ثانياً / تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ
- ٩٤ - الْفِعْلِ التَّامِّ الْمُثَبَّتِ وَالْمَنْفِيِّ
- ٩٩ - تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ فِي الْجُمْلَةِ الْأِسْمِيَّةِ
- ٩٩ - تَقْدِيمُ شِبْهِ الْجُمْلَةِ (الْخَبَرِ) عَلَى الْمُبْتَدَأِ
- ١٠٢ - تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ (خَبَرِ الْحَرْفِ النَّاسِخِ / الْفِعْلِ النَّاسِخِ) عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ
- ١٠٢ ثالثاً: تَقْدِيمُ الْمُتَعَلِّقَاتِ
- ١٠٢ - تَقْدِيمُ الظَّرْفِ وَالنِّدَاءِ عَلَى خَبَرِ الْمُبْتَدَأِ
- ١٠٣ - تَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ عَلَى خَبَرِ الْمُبْتَدَأِ
- ١٠٣ - تَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ
- ١٠٥ - تَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الْفَاعِلِ
- ١٠٦ - تَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ عَلَى خَبَرِ الْحَرْفِ النَّاسِخِ (إِنَّ)
- ١٠٧ - تَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الصِّفَةِ الْمَنْصُوبَةِ
- ١٠٧ - تَقْدِيمُ الْمَفْعُولِ بِهِ عَلَى الْفَاعِلِ
- ١٠٨ - تَقْدِيمُ الْمَفْعُولِ بِهِ الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ عَلَى الْفَاعِلِ الْمَصْدَرِ الْمُؤَوَّلِ
- ١٠٨ - تَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الصِّفَةِ
- ١١٠ - تَقْدِيمُ النَّدَاءِ عَلَى جُمْلَةِ جَوَابِ الْقَسَمِ
- ١١٠ - تَقْدِيمُ جُمْلَةِ الصِّلَةِ الْوَاقِعَةِ صِفَةً عَلَى جُمْلَةِ جَوَابِ الْقَسَمِ
- ١١٣ الْمَبْحَثُ الثَّانِي: الْأُسْلُوبُ الْخَبْرِيُّ (العَصْرُ الْجَاهِلِيُّ)
- ١١٤ - مَدْخَلٌ
- ١١٤ - تَعْرِيفُ الْخَبَرِ
- ١١٥ - أَعْرَاضُ الْخَبَرِ
- ١١٦ - أَضْرُبُ الْخَبَرِ
- ١١٧ - الْخَبَرُ الْإِبْتِدَائِيُّ
- ١٢٢ - الْخَبَرُ الطَّلْبِيُّ

١٢٣	- الخبرُ الإنكاريّ
١٣١	- خُرُوجُ الخبرِ عَنْ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ
١٣٢	- إنزالُ المنكِرِ منزلةَ خاليِ الذَّهْنِ مِنَ الخَبْرِ
١٣٢	- إنزالُ المخاطَبِ منزلةَ المنكِرِ
١٣٥	- الخِطَابُ بِالْجُمْلَةِ الاسميَّةِ وبِالجُمْلَةِ الفعليَّةِ
١٣٥	- الفرقُ بينَ الإخبارِ بِالْجُمْلَةِ الاسميَّةِ والجُمْلَةِ الفعليَّةِ
١٣٥	- الخِطَابُ بِالْجُمْلَةِ الاسميَّةِ
١٣٨	- الخِطَابُ بِالْجُمْلَةِ الفعليَّةِ
١٥٢	- <u>الأسلوبُ الخَبْرِيُّ (عصرُ صدرِ الإسلامِ)</u>
١٥٣	- الخبرُ الابتدائيّ
١٥٩	- الخبرُ الطَّلبيّ
١٦٤	- الخبرُ الإنكاريّ
١٧٢	- خُرُوجُ الخبرِ عن مُقْتَضَى الظَّاهِرِ
١٧٢	- إنزالُ المنكِرِ منزلةَ خاليِ الذَّهْنِ مِنَ الخَبْرِ
١٧٥	- إنزالُ المخاطَبِ منزلةَ المنكِرِ
١٧٩	- الخِطَابُ بِالْجُمْلَةِ الاسميَّةِ وبِالجُمْلَةِ الفعليَّةِ
١٧٩	- الخِطَابُ بِالْجُمْلَةِ الاسميَّةِ
١٨٢	- الخِطَابُ بِالْجُمْلَةِ الفعليَّةِ
١٩١	- <u>المَبْحَثُ الثَّالِثُ: الأسلوبُ الإنشائيّ</u>
١٩٢	- الإنشاءُ الطَّلبيّ (الأمرُ، النَّهْيُ، التَّمَنِّي، الاستيفاهُ، النِّداءُ)
١٩٣	- مدخلُ الإنشاءِ الطَّلبيّ
١٩٥	- <u>الأمرُ (العصرُ الجاهليّ)</u>
١٩٦	- مدخلُ
١٩٧	- النصُّحُ والإرشادُ
١٩٨	- الإلتِماسُ
١٩٨	- التَّنشِيفُ والانتقامُ
١٩٩	- إظهارُ النُّفورِ والغدَاءِ
٢٠٠	- الإسترحامُ والعطفُ
٢٠٠	- التَّحذِيرُ

٢٠١	التَّخْطِيطُ وَالتَّدْبِيرُ
٢٠٣	التَّفْوِيزُ وَالتَّسْلِيمُ
٢٠٤	الإِسْتِغَاثَةُ
٢٠٥	الْوَصِيَّةُ
٢٠٥	التَّحْقِيرُ
٢٠٦	الإِسْتِعْلَاءُ
٢٠٧	التَّعْزِيَةُ وَالمُؤَاَسَاةُ
٢٠٧	الإِجَارَةُ (العَفْوُ وَالسَّمَاخُ)
٢٠٧	التَّحْدِي
٢٠٨	الحِضُّ وَالتَّرْغِيبُ
٢٠٨	التَّطْمِينُ
٢٠٩	اسْمُ فِعْلِ الأَمْرِ
٢٠٩	اللُّؤْمُ وَالتَّوْبِيخُ
٢١٠	المَصْدَرُ النَّائِبُ عَنِ فِعْلِهِ
٢١١	الأَمْرُ (عَصْرُ صَدْرِ الإِسْلَامِ) -
٢١٢	النُّصْرَةُ وَالمَنْعَةُ
٢١٣	الإِخْرَاقُ وَالتَّحْقِيرُ
٢١٤	التُّمَأْنِينَةُ
٢١٤	الحَثُّ عَلَى المُبَادَرَةِ إِلَى الجِهَادِ
٢١٥	الإِسْتِعَانَةُ وَالإِسْتِغَاثَةُ
٢١٦	الإِزْهَابُ وَالتَّخْوِيفُ
٢١٧	التَّخْطِيطُ وَالتَّدْبِيرُ
٢١٨	التَّحْرِيزُ
٢١٩	التَّفْوِيزُ وَالتَّسْلِيمُ
٢٢٠	الإِسْتِنْبَاعُ وَالتَّرْدُ وَالتَّوْبِيخُ
٢٢١	الْوَصِيَّةُ
٢٢٤	الرَّجَاءُ وَالتَّمَنَّى
٢٢٥	الإِسْتِنصَاخُ وَالإِسْتِشَادُ
٢٢٦	اسْمُ فِعْلِ الأَمْرِ

٢٢٦	التَّحْفِيرُ
٢٢٧	التَّحْذِيرُ وَالِاسْتِعَانَةُ
٢٢٩	- <u>النَّهْيُ (العصرُ الجاهليُّ)</u>
٢٣٠	مَدْخَلٌ
١٣٠	النُّصْحُ وَالِإِشْرَادُ
١٣٠	التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ
١٣١	الِاسْتِعَانَةُ
١٣١	الِاسْتِعْلَاءُ وَالتَّدَلُّلُ
١٣٢	التَّحْذِيرُ
٢٣٣	- <u>النَّهْيُ (عصرُ صدرِ الإسلام)</u>
٢٣٤	الِاسْتِجَارَةُ وَالِاسْتِعَانَةُ
٢٣٥	الْحِصْنُ عَلَى التَّلَاحِمِ وَالتَّأَزُّرِ
٢٣٦	التَّحْرِيسُ عَلَى الْقِتَالِ
٢٣٨	التَّحْرِيسُ عَلَى أَنْزَالِ الْغُفُوبَةِ وَعَدَمِ الصَّفْحِ
٢٣٩	- <u>الِاسْتِنْفَاهُ (العصرُ الجاهليُّ)</u>
٢٤٠	مَدْخَلٌ
٢٤٠	الِاسْتِنكَارُ وَالتَّوْبِيخُ
٢٤٢	تَعْظِيمٌ وَتَخَوُّفٌ
٢٤٤	التَّعْجِبُ
٢٤٦	التَّحْسُرُ
٢٤٦	التَّوْبِيخُ
٢٤٧	الشُّكُوفُ
٢٤٨	التَّعْجِيزُ
٢٤٨	التَّرْغِيبُ
٢٤٩	التَّلَهُّفُ
٢٥٠	الِاسْتِعَانَةُ
٢٥٠	التَّقْرِيرُ
٢٥١	السُّخْرِيَّةُ
٢٥١	التَّخْيِيرُ

٢٥٢ التَّيْبِسُ
٢٥٣ - <u>الاستفهام (عصر صدر الإسلام)</u>
٢٥٤ التَّهْفُ
٢٥٥ التَّحْضِيضُ
٢٥٦ المنعَةُ والإِغَاثَةُ
٢٥٧ الإِسْتِنكَازُ
٢٥٨ الشُّكْوَى
٢٥٩ التَّحْقِيرُ
٢٥٩ التَّوْبِيحُ
٢٦١ التَّفَجُّعُ والتَّحَسُّرُ
٢٦٢ القِنَاعَةُ والرِّضَا والتَّسْلِيمُ
٢٦٤ - <u>التمني (العصر الجاهلي)</u>
٢٦٥ مَدْخَلٌ
٢٦٨ - <u>التمني (عصر صدر الإسلام)</u>
٢٦٩ التَّفَجُّعُ والتَّحَسُّرُ
٢٧٠ لإظهارِ النُّصْرَةِ مَعَ قَلَّةِ الحِيلَةِ
٢٧١ التَّأْدِبُ والتَّهْدُبُ
٢٧١ العُرْضُ
٢٧٢ التَّحْذِيرُ
٢٧٤ - <u>النداء (العصر الجاهلي)</u>
٢٧٥ مَدْخَلٌ
٢٧٥ التَّعْجِبُ
٢٧٦ التَّفَجُّعُ والتَّحَسُّرُ
٢٧٧ الإِخْتِصَاصُ
٢٧٧ التَّحْذِيرُ
٢٧٩ الرَّحْمَةُ والشَّفَقَةُ
٢٧٩ الإِسْتِعَاثَةُ
٢٨٠ الشُّكْوَى
٢٨٠ الشِّفَاعَةُ

٢٨١	التَّحْفِيرُ
٢٨٢	الإِعْرَاءُ
٢٨٤	- <u>النداء (عصر صدر الإسلام)</u>
٢٨٥	التَّفْجَعُ والتَّحَسُّرُ
٢٨٦	التَّحْضِيضُ والتَّحْرِيسُ
٢٨٧	التَّفْدِيَةُ
٢٨٧	التَّحْبُّبُ والتَّوَدُّدُ
٢٨٨	تَعْمِيمُ الإِزْدِرَاءِ وَالكَرَاهِيَةِ
٢٨٨	الاسْتِغَاثَةُ
٢٨٩	التَّسْلِيمُ والرِّضَا
٢٩٠	<u>الفصل الثاني: البنية الإيقاعية وتأكيدها الدالة</u>
٢٩١	مدخل
٢٩٤	<u>المبحث الأول: الجناس (العصر الجاهلي)</u>
٢٩٥	- الجناس وأنواعه
٢٩٦	أولاً / الجناس التام
٢٩٧	ثانياً / الجناس الناقص "غير التام"
٢٩٧	جناس التَّحْرِيفِ
٢٩٨	جناس التَّدَاخُلِ
٣٠٠	جناس التَّصْرِيْفِ
٣٠٢	الجناس المُعَايِرِ
٣٠٣	الجناس المُمَاتِلِ
٣٠٥	جناس الإِشْتِقَاقِ
٣٠٦	الجناس المُشَوِّشِ
٣٠٩	- <u>الجناس (عصر صدر الإسلام)</u>
٣١٠	الجناس الناقص "غير التام"
٣١٠	- جناس التَّدَاخُلِ
٣١٥	- جناس التَّصْرِيْفِ
٣١٦	- الجناس المُمَاتِلِ
٣١٩	- جناس الإِشْتِقَاقِ

٣٢٣	- الجِنَاسُ الْمُشَوَّشُ
٣٢٥	- الجِنَاسُ الْمُغَايِرُ
٣٢٨	<u>المَبْحَثُ الثَّانِي: السَّجْعُ (العَصْرُ الجَاهِلِيُّ)</u>
٣٢٩	مَدْخَلٌ
٣٣١	أَنْوَاعُ السَّجْعِ
٣٣١	السَّجْعُ الْمُتَوَازِي
٣٣٩	السَّجْعُ الْمُطْرَفُ
٣٤٠	السَّجْعُ الْمُتَوَازِنُ
٣٤٤	<u>السَّجْعُ (عَصْرُ صَدْرِ الإِسْلَامِ)</u>
٣٤٥	مَدْخَلٌ
٣٤٥	السَّجْعُ الْمُتَوَازِي
٣٥٤	السَّجْعُ الْمُطْرَفُ
٣٥٥	السَّجْعُ الْمُتَوَازِنُ
٣٦٠	<u>المَبْحَثُ الثَّلَاثُ الطَّبَاقُ وَالْمُقَابَلَةُ</u>
٣٦١	- الطَّبَاقُ (العَصْرُ الجَاهِلِيُّ)
٣٦٢	مَدْخَلٌ
٣٦٣	أَنْوَاعُ الطَّبَاقِ
٣٦٣	- طَبَاقُ الإِجَابِ
٣٦٧	- طَبَاقُ السَّلْبِ
٣٧٠	- الطَّبَاقُ الخَفِيّ
٣٧٢	- <u>الطَّبَاقُ (عَصْرُ صَدْرِ الإِسْلَامِ)</u>
٣٧٣	- طَبَاقُ الإِجَابِ
٣٧٧	- طَبَاقُ السَّلْبِ
٣٧٨	- الطَّبَاقُ الخَفِيّ
٣٨١	- <u>المُقَابَلَةُ (العَصْرُ الجَاهِلِيُّ)</u>
٣٨٢	مَدْخَلٌ
٣٨٢	أَنْوَاعُ المُقَابَلَةِ
٣٩٠	- <u>المُقَابَلَةُ (عَصْرُ صَدْرِ الإِسْلَامِ)</u>

٣٩٨ <u>الفصل الثالث: البنية التصويرية وابداع الدلالة</u>
٣٩٩ مَدْخَلٌ
٤٠٢ <u>المبحث الأول: الصورة التشبيهية (العصر الجاهلي)</u>
٤٠٣ مَدْخَلٌ
٤١١ - <u>الصورة التشبيهية (عصر صدر الإسلام)</u>
٤٢١ <u>المبحث الثاني: الصورة الاستعارية (العصر الجاهلي)</u>
٤٢٢ مَدْخَلٌ
٤٢٦ <u>الاستعارة المكنية</u>
٤٣٤ - <u>الصورة الاستعارية (عصر صدر الإسلام)</u>
٤٣٥ <u>الاستعارة المكنية</u>
٤٤٤ <u>الاستعارة التصريحية</u>
٤٤٧ <u>المبحث الثالث: الصورة الكنائية (العصر الجاهلي)</u>
٤٤٨ مَدْخَلٌ
٤٥١ <u>كناية عن صفة</u>
٤٥٦ <u>كناية عن موصوف</u>
٤٦٠ - <u>الصورة الكنائية (عصر صدر الإسلام)</u>
٤٦١ <u>كناية عن صفة</u>
٤٧٠ <u>كناية عن موصوف</u>
٤٧٣ <u>الخاتمة</u>
٤٨٧ <u>ثبّت المصادر والمراجع</u>
٤٨٨ أولاً: المصادر
٤٩٦ ثانياً: المراجع العربية
٤٩٨ ثالثاً: المراجع الأجنبية المترجمة
٤٩٩ رابعاً: الدوريات
٥٠٠ خامساً: الرسائل الجامعية
٥٠١ <u>السيرة الذاتية</u>

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ خَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ الْأَخْيَارِ وَأَصْحَابِهِ الْأَبْرَارِ.

وبعد ..

إن فكرة هذا البحث قامت على فرضية بدت منطقية للوهلة الأولى، ولكنها كانت بحاجة إلى إثباتها بالنصوص التي تجعل من احتمالها كبحث وموضوع للدراسة في رسالة علمية ممكنا !!

ومفاد هذه الفرضية أن نمط الحياة العربية- خاصة في الجاهلية- كان قائما في كثير من ركائزها على الغارة والغارة المضادة في ظل الصراع على البقاء، والتحالفات التي تعضد الوجود، وتبقي على الحياة الحرة الكريمة مهابة الجانب كما يتصورونها..، ولم تكن المرأة في ذلك كله بمعزل عن بؤر الصراع ومواطن المهالك، بل وجودها نفسه كان ساحة معركة لا تقل شراسة عن الصراع على الأرض والماء والكلأ، فهي العرض والحمى.. وكذا كان الأمر في العصر الإسلامي أيضا !!

ومع حيوية الموضوع، وكونه فرضية حتمية قائمة على نمطية الحياة في المجتمع الجاهلي - بوجه خاص - والذي يقوم على السلب والنهب في ظل الغزو والغزو المضاد، ونظرا لحيوية وضع المرأة وتأثيرها بوصفها نصف المجتمع ورمزة العزة والمنعة التي يتمتع بها المجتمع القبلي آنذاك، حيث تتجلى في قوة الرجل وقدرته على حماية عرضه وصيانة حوزته، وإدراك الخصم دوماً لهذه الخصيصة، فإن الالتفات لدور المرأة في هذا السياق يبدو غفلا من النظرة الدقيقة والدراسة الفاحصة المتأنية !!

ولكن.. لماذا المرأة..!!؟؟

لم تغيب المرأة عن ساحة الخلق والإبداع لتحضر، ولطالما كان الحديث عنها مفجراً للإبداع ومخصباً للمخيلة وملهماً للقرائح !!..

تتنوع أدوار المرأة ويتنوع تأثيرها.. بين هدم وبناء.. غدر ووفاء.. وصل وجفاء.. لكنها تبقى في كل ذلك صنو الحياة وخفقة في وجدان الوجود بل هي قلبه النابض.. يسلم بسلامتها ويهن بوهنها وهوانها، ويعز بعزتها وكرامتها...، وهي مرآة الحضارة وعلامة فارقة على منعطفات حيوية في تاريخ الإنسانية..!!
لكن المسألة الجوهرية هنا.. ماذا تقول هي عن نفسها..!!؟؟ ليس وهي مخدرة مصنونة في بيتها مكفولة من محارمها..، وليست في رعد العيش وغنج النعيم.. أو شظف الحياة وتقتير الرزق..، بل في سياق نوعي ومميز يبرز وجهها لافتاً من وجوهها من ناحية.. وبلسانها لا بلسان غيرها - أياً كان - من ناحية أخرى.. وأعني به (سياق الحرب).. حيث تكون محرصة عليها أو سبية فيها أو معتقلة بسببها.. والأخيران موقفان لا تستشعر حرارتها إلا الحرّة الكريمة..!!

إن التفكير في هذا السياق - سياق الحرب - ودور المرأة فيه قد لا يكونان بدعاً، فهناك العشرات من القصص المختلفة تروى لشنى الأغراض، ولعل أهمها التدليل على مكر المرأة وسعة حيلتها وما لها من صواب الرأي وعميق الحكمة في بلاغة قول وجميل خطاب..، وليس فيما هو مشهور ومتداول ما يشي على التوقف عند هذا السياق الجوهري واللافت..!!

لذا قررت هذه الدراسة تتبّع هذه التجربة الفريدة والجادة ورصدها، وتحديدًا خطاب النشر في هذا السياق الخاص والخاص جداً..!! إذ قد يكون من نافلة القول: إن المراثي النسائية كانت في كثير منها إلحاحاً على الأخذ بالتأثر، وهذا نوع من التحريض الذي أشعل الكثير من الحروب..!

إن المشاركة في الحرب ليست إلا دليلاً على تفاعل المرأة مع واقعها وانسجامها معه، وتوظيفاً فعالاً لإمكاناتها وطاقاتها، سواء كان ذلك في الجاهلية أو الإسلام...! رغم الشروط القاسية لهذه المشاركة والتي قد تعرضها لكثير من الأذى، ولعل آية ذلك خروجها في الحروب الطاحنة التي ما كانت تهدأ ولا تقر حتى كأنها وتد من أوتاد الحياة العربية وخاصة في الجاهلية،

فالمرأة إذن.. تعي دورها جيداً في هذا السياق..، فليس الخوف من الوقوع في السبي وحده هو ما يحركها، بل وعي تام بالجهد التعبوي الذي يجب أن تقوم به والمسؤوليات الجسام التي يجب أن

تنهض بها...!! ولعل الأمر لا يتوقف عند ذلك فكثيراً ما كانت المرأة تحضُّ المقاتلين وتثيّر أوارَ المعركة بشعرها أو خطبها أو أفعالها.

وقد تقوم حربٌ وتنطفئ نارٌ أخرى، وقد تنقلب موازين المعركة برأي امرأةٍ أو مشورتها، بوفائها أو بغدرها، بشجاعتها أو بجبنها، وبكافة ما تقوم به في تلك اللحظات الفاصلة والحاسمة، التي تتسم بالخرج، وهي تحتاج في كل ذلك إلى سرعة بديهة وحسن منطقي وقدرة على الإقناع، فتأتي من ذلك بالعجيب من القول والطريف من الرأي...!!

ولعل من أهم التجارب المريرة التي تمرُّ بها المرأة تجربة "السبى" خاصة إذا كانت حرةً كريمةً عزيزةً في قبيلتها، تعلق قيمتها عند قومها والغزاة في آنٍ معاً...!!

هذه التجربة الإنسانية العميقة والمؤثرة تجربة تستحق التأمل بلا شك، كما هو شأن المرأة في سياق الحرب بدءاً ومنتهاى...!!

وموقف السبى من السبى ومقولاتها فيه مختلفة بحسب مكانة المرأة وقراءتها لوضعها قبله وبعده، فيأتي من ذلك تنوعٌ وثرأءٌ مدهشٌ...، لكنّ الدلّ هو عنوانه العام، حتى إنّ بعض النساء الكريّمات يأنفن أن يؤخذن كما تؤخذ السبى خاصة في الجاهلية^١، أمّا في الإسلام فإننا نجد صورةً نوعيّةً للسبى فمنهنّ أمهات المؤمنين كـ (جويرية بنت الحارث و صفية بنت حبي) ...!!

ومن اللافت للنظر أيضاً في هذا السياق (سياق الحرب أو ما بعد الحرب) موجة الاعتقالات التي تحصّد نساء الخصوم وتنكلُ بهنّ، حبساً وتعذيباً وتقطيعاً، تنطقُ المرأةُ فيه بما يتملّكها "فكرًا ومشاعر" لا يدركها سواها مهما جهد...!!

إنّ المرأة رغم بروز دورها كأنتى وملهمةٍ ومعادلٍ موضوعيٍّ للفناء، على الأقلّ هذه هي الصورة النمطية العامة المتخلّقة قراءةً بعد قراءةٍ لعموم الشعر العربيّ ولشوارده، إلا أنّ للمرأة دوراً أكبر من هذا وأعمق، وإحدى صورهِ ما تحاول هذه الدراسة تفصيه واستعراضه في هذه القراءة...!!

ولذا فقدُ تخيّر هذا البحث التوقف عند هذا السياق - سياق الحرب -، وعند هذه الفاصلة المهمة

^١ كما في خطاب (بُهَيْسَةُ بِنْتُ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ): قالت لزوجها وقد أراد الدخول بها وذلك أيام حرب عيس وذبيان" داحس والغبراء: "...أكما يفعل بالأمة الجليية أو السببية الأخيذة...؟؟" الأخيذة: المرأة تسبى، إصلاح المنطق، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن السكيت (١٨٦هـ - ٢٤٤هـ)، تح/ أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون: دار المعارف، ط٤، القاهرة، دت، ٣٥٣/٢.

من فواصل وجود المرأة ودورها !!..

المهم في هذا أن المرأة هنا لا تنتظر من ينوب عنها في اتخاذ الموقف أو التعبير عما يجيش في صدرها، بل هو موقف مبادر في معظم الأحيان، إنه استقرار المرأة لذاتها بعيداً عن تنظير الرجل لمواقفها وقولبتها بالشكل النمطي المتعارف عليه في مقولات الرجل شعراً ونثراً.. إنه لسانها وليس لسان حالها.. لسانها الذي يظهر خبيثتها.. ويجلي ما تنطوي عليه نفسها، وما يتقراه عقلها من تجربة الحياة بعمقها أو ضحالتها، باستقامتها وكمالها، أو بقصورها وشذوذها.. وهي مواقف تنم في معظمها عن وعي كبير وحس عال بالمسئولية، وفهم عميق لهذه التجربة وما يترتب عليها.. والمرء مخبوء تحت طي لسانه !!..

أرادت هذه الدراسة أن تفك عند خطاب المرأة المنثور من دُرر بلاغتها، والذي يتكى على خصوصية التجربة، من خطبة مطولة إلى مقولة مختصرة، ومن قول نافذ كالسهم إلى جواب مُفحم يترك المتلقي مشدوهاً وقد حاز جواباً.. والنثر خصوصاً لأنه موقف عقلي في المقام الأول وإن تمظهر جمالياً على النحو اللافت الذي نتقراه هنا !!..

لماذا النشر؟

إن الناظر العابر لا يخفى عليه ندرة الدراسات الملتقطة إلى مدونة النشر العربي، قديمها وحديثها، وتزيد الندرة إذا كانت الدراسة ستتبع سياقاً مخصوصاً بعينه، كسياق الحرب، وفي خطاب معين هو خطاب المرأة على وجه الخصوص !!..^٢

وحيثما نأتي إلى نثر المرأة على وجه التحديد، ثم نضيّق البحث في سياق معين من خطابها المنثور، ثم نضيّقه أكثر بالبحث عن ظواهر أسلوبية بعينها في هذا الخطاب، ستكون الحصيلة أشح والمهمة أعسر..! نعم.. إنك تجدُ شذرات في كتب التاريخ والتراجم والرجال، تأتي في ثنايا سرد الأحداث أو في مواطن الاستشهاد، تلك التي تتحدث عن المرأة بصفة عامة، مواقفها.. أقوالها.. أفعالها..، تقصُ القصص وتستحضر الوقائع، وتبهر بالأجوبة المسكتة والردود البليغة، لكن التقصي لم يقف على أثر واضح ومؤلف صريح ومخصوص يجمع ويدرس خصوصية خطاب النثر للمرأة في سياق

^٢ - للتوسع في أسباب ندرة الدراسات النثرية، انظر: النشر الفني في القرن الرابع، محمد زكي مبارك: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٢، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م، ١/١٧ وما بعدها.

الحرب، من التخطيط والتَّحريض والتَّحذير والمشاركة في القتال وتذوق حلاوة الانتصارِ القصيرِ إلى مرارةِ الفقدِ والتَّكَلِّ أو تحمُّلِ أعباءِ السَّبِي وذَلَّةٍ..ولهذا كانت هذه الدراسة!!

الدِّراسَاتُ السَّابِقَةُ

وبالاستقراءِ العامِ في موضوعاتِ الرِّسائلِ الجامعيَّةِ ذاتِ العلاقةِ لم نجدُ شيئاً يتَّصلُ بموضوعنا أو في بابِه على النحو الذي تتطلَّعُ إليه هذه الدراسة ..، ولعلَّنا نورد فيما يأتي بعضَ ما عثرنا عليه، ومنه:

- رسالة ماجستير موضوعها (نثر المرأة)، وهي بعنوان " أدبُ المرأةِ النَّثريِّ منَ العصرِ الجاهليِّ حتَّى نهايةِ القرنِ الثَّانيِّ" للباحثة " أمينة عبد المولى الحراششة" في عام (٢٠٠٢م) من جامعة آل البيت في الأردن، وكما هو ملاحظ فإن العنوان يحمل إرباكاً...!!، فمن المعروف أن لفظة (الأدب) تتضمَّنُ الشِّعرَ كما النَّثرَ، فالعنوانُ يصدِّرُ الأدبَ بعمومِهِ ثم يخصِّصُ النَّثرَ منه، وسيأقُّ هذه الدراسة يتسعُ ليشمل كافة أنماطِ النَّثرِ النَّسويِّ بتنوعاتهِ المختلفةِ دونَ تخصيصٍ.

- وأخرى بعنوان: (نثر المرأة من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي-دراسة وجمعا وتحقِقا- ١٤١٧) للباحث: عبد الحي بن علي الحوسني، وتوجَّه هذه الرسالة إلى الجمع والتَّحقيقِ يخدمُ بحثنا من هذه النَّاحيةِ على الأقل.. وإن كانت مغايرةً لتوجهنا، ولهذا الخيط الذي نزمع استلاله من نسيج النَّثرِ النَّسويِّ بمجمله..!!

- وكثيرة هي رسائل الدراسات الأدبية التي جاءت المرأة عموماً محورا لها، ك: أثر المرأة في الأدب الأموي، المرأة في الأدب العباسي وفي عصر ملوك الطوائف، دور المرأة في الحياة الأدبية في الأندلس، المرأة في نثر العقاد، المرأة في أدب العقاد، مرورا بقضايا المرأة في العصر الحديث " القرن العشرين"...

وكلَّ تلك الدراسات مختلفة جملَةً وتفصيلاً، شكلاً ومضموناً عمَّا هذه الدِّراسَة بصددهِ على مستوى الموضوع والمنهج ونلاحظُ أيضاً أن معظمها يغطي مساحات زمنية طويلة ولعلَّ قلة النصوص ومحاولة تتبعها للوصول إلى نتيجة مطمئنة السببُ في ذلك، إضافة إلى الرغبة في جمع نثر المرأة في مدونة يمكن الرجوع إليها بثقة وطمأنينة. !!

وتأتي هذه الدراسة في: مقدمة يليها تمهيدٌ و ثلاثة فصولٍ، أما التمهيدُ، فيشتمل على:

- ١- مفهوم الخطاب النثري.
- ٢- أنماط الخطاب النثري ودوره في سياق الحرب.
- ٣- مصادر الخطاب النثري في سياق الحرب.
- ٤- متغيرات العصر وخصوصية الرسالة.

أما صلب البحث فقد قسم إلى:

➤ الفصلُ الأوَّلُ: البنيةُ التَّركيبِيَّةُ وتشكيلُ الدلالة:

- المبحث الأول: التقديم والتأخير.
- المبحث الثاني: الخبر.
- المبحث الثالث: الإنشاء

➤ الفصلُ الثَّانِي: البنيةُ الإيقاعيَّةُ وتأكيدُ الدلالة:

- المبحث الأول: الجناس.
- المبحث الثاني: السجع.
- المبحث الثالث: الطباق والمقابلة.

➤ الفصلُ الثَّالِثُ: البنيةُ التَّصويرِيَّةُ وإبداعُ الدلالة:

- المبحث الأول: الصورة التشبيهية.
- المبحث الثاني: الصورة الاستعارية.
- المبحث الثالث: الصورة الكنائية.

➤ الخاتمة: وتستقرئ ثلاثة عناصر ملحة وضرورية، وهي:

- ١- أبرز نقاط البحث.
- ٢- نتائج البحث.
- ٣- مقترحات البحث وتوصياته .

➤ ثبت المصادر والمراجع.

الفهارس.

منهج البحث

تخيرت هذه الدراسة مقارنة المنهج الأسلوبي، الذي يُعنى بتتبع الظاهرة اللغوية والأسلوبية منها تحديداً، واستنطاق الخطاب جمالياً، ولأن الأسلوبية تقوم على ركائز موازية للبلاغة العربية القديمة، من الناحية الفنية والأدبية، لكنها لا تخضع للقيم المعيارية ذاتها، بل تتجه عكسا، حيث تتبع أنفاس المكونات البلاغية، لتتعرف على بؤر الخرق الأسلوبي المغاير والتي تخلق توترا نصياً فنياً يشكل ظاهرة ملموسة، محاولة استنطاقها جماليا وما يستلزم هذا الاستنطاق من معرفة سياقية تتحرك في إطارها هذه المكونات، وتصطف اصطفافا مستقفا ومستنفرا لطاقة الكلمات والتراكيب لتنداح معها الدلالات على نحو معبر عن كُنه التجربة وأبعادها، وكما يقول باختين: "...فالأشكال البلاغية إذا تم تناولها بطريقة صحيحة وبدون حكم مسبق، تكشف بدقة كبيرة، عن المظاهر الخاصة بكل خطاب.."^٣

ولا شك أن هناك قيما موضوعية في محاوره المنهج الأسلوبي للنص، لكنها لا تغطي على الحس الذوقي، والرحلة الوجدانية التي يقوم بها الباحث في هذه النصوص التي يجب أن يشده الشغف بما تنضوي عليه من منازع أسلوبية خلاقة، وأن هذه النصوص ليست تهويما في فراغ بلاغي أو أسلوبي جدلي، بقدر ما هي تعبير عن حالة إنسانية تحقق للأدبية أدبيتها وتأثيرها. !!

أهداف الدراسة:

تحاول هذه الدراسة تحقيق جملة أهداف نسأل الله التوفيق إليها:

- يتطلع هذا البحث إلى قراءة دور المرأة العربية في العصرين (الجاهلي/ صدر الإسلام) في سياق الحرب، وإلى جدل ذين الأمرين الخاصين في ضفيرة واحدة مع المنهج الأسلوبي مما يعطي هذه الدراسة خصوصيتها من هذه المنطلقات الثلاثة " خطاب المرأة النثري، سياق الحرب، الدرس الأسلوبي "
- استطلاع خصوصية التجربة التي تتكى عليها هذه النصوص المتخيرة، مع تنوع الأدوار التي تتموضع فيها المرأة في الحرب.. بين تحريض على القتال، أو سببي في المعركة أو اعتقال بعدها ..

^٣ - الخطاب الروائي، ميخائيل باختين:تر/محمد برادة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، ص:٤٣.

- تقرّي مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي و صدر الإسلام من خلال تتبع إحدائيات واقع المرأة المشاركة في الحرب.
 - التوقف عند نماذج خطاب النثر النسوي في الجاهلية والإسلام قراءة وتحليلا ينفذان إلى خواص التجربة والمرحلة .و تتبّع تفاعل المرأة ونموّها مع الواقع الاجتماعيّ عمومًا والحربيّ خصوصًا، ومواقفها بسلبيتها وإيجابيتها من خلال النصوص المتناولة في هذه الدراسة.
 - إظهار جوانب القوة في شخصيّة المرأة، وهي قوّة نفسيّة وعقليّة وروحيّة، تظهر بوضوح أن وراء الحكمة عقلا، وقبل القول عملا، وأنّ هناك إرادة صُلبةً لكلّ ذلك..والعكس صحيح أيضًا!!
 - وضع إطار عام لمفهوم الأسلوب النثري، والأسلوبية المقارنة المحللة الهادفة، وكذلك مفهوم خطاب النثر في إطار دراسة تطبيقية على هذا السياق المحدد.
 - التوضيح وفق ما تصل إليه هذه الدراسة من مستوى خطاب النثر النسوي في سياق الحرب، وما يتمتع به من جماليات فنيّة، أو لفتات بديعة، وما يشكله من إضافة نوعية لذخيرة المرأة البلاغية.
 - إعادة قراءة التراث وفق منهج حدائي يكشف عمق هذا المخزون التراثي، وأنه معين لا ينضب، قابل للامتياح والتزود رغم بُعد الشقّة ووعثاء السّفْرِ.
- نظرًا لتفرد موضوع هذا البحث ومنهجه، المتعلق بـ (خطاب المرأة النثري في سياق الحرب) من جهة، وبالدرس الأسلوبي التطبيقي من جهة أخرى، فإن إجراءات البحث تأخذ هذا بعين الاهتمام، فتعطي الموضوع والمنهج أهمية متساوقة بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، والميزة هنا أن ذلك يتم على مستوى التطبيق، بمعنى عدم تكريس الجهد النظري - كما جرت العادة- على حساب المنحى التطبيقي الذي يغذي النظرية كما ينبه لمواطن الخلل فيها ، ويقيس مدى صحة أدواتها ومنهجها.

إجراءاتُ البَحْثِ

إنَّ طرقَ وإجراءاتَ هذا البحثِ تقفُ عن مَصلينِ محورينِ فيه، هما:

أولاً: المَوْضُوعُ: وعلى مستوى الموضوع يُهتَمُّ بالآتي:

- جمع خطاب المرأة في سياق الحرب من مصادره التراثية المختلفة سواء كانت: دينية، أدبية، تاريخية، موسوعية .. وهي متناثرة وموزعة فيها جميعاً.. على ما في هذا الخطاب من تنوع من مقولة قصيرة، أو مثل شارذ وحكمة عميقة بليغة، أو مُلحة نادرة، أو قول مستطرف، وما يتعطف في ثنايا ذلك من أنواع الحوار وأنماط السرد...، تنقيحه وضبطه، ثم تصنيفه وفق المباحث الأسلوبية في الدراسة للوقوف على جوانب خصوصية هذا الخطاب، في هذا السياق.
- توثيق هذه المادة النصية للوقوف على النص الأقدم منها، زيادة في الاطمئنان على صحتها، ولكن ضرورة تتبع الظاهرة الأسلوبية في كثير من الأحيان يعرج بنا إلى مصادر ومراجع متأخرة عن تلك...!
- انتقاء النصوص التي تحقق أهداف الدراسة ومما تتطلع إليه من رصد حركة المرأة الإنسانية والفكرية ونشاطها الاجتماعي عبر نشاطها الإبداعي.

ثانياً: المنهجُ: أمّا على مستوى المنهج فهناك محاور عدّة نذكر منها:

- وضع مفهوم نظري لخطاب النثر عموماً، ولأنماطه، ودور هذا الخطاب النثري في سياق الحرب، مع الإشارة لمصادره المختلفة.
- محاولة استحضار أساسيات المنهج الأسلوبي التحليلي المقارن والتعرف إليه جملة وتفصيلاً، يتضح ذلك من خلال التطبيق على النصوص التي يستقرؤها البحث.
- الإفادة من البلاغة القديمة (بيانا ومعاني و بديعا) في هذا الدرس الأسلوبي، على عدِّ الوشيجة الأصلية بينهما، فالأسلوبية هي (البلاغة الجديدة)..،بالإضافة إلى الإفادة الأكيدة من البعد النحوي المحوري في فهم الغلق المعنوية بين مفردات النص وتراكيبه.

- تطبيق هذه الإجراءات بتنوعاتها وتفرعاتها على مستويات ثلاثة في النص: (البنية التركيبية ، والبنية الإيقاعية، والبنية التصويرية)، كل ذلك لإنتاج الدلالة وإبداعها.
- إنَّ هذا المنهج الأسلوبي التحليليِّ المقارن لا يكتفي بالبعد الوصفي بل يسعى لتنامي البحث صعودا بدءا من تشكيل الدلالة إلى تأكيدها وصولا إلى إبداعها.
- إعانة قارئ المكتبة العربية على تلمس مواطن الجمال والإبداع وفق منهج حدائي، يأخذ بعين الاعتبار الذائفة النقدية للناقد دون إغفال الجانب النفسي والاجتماعي الذي يسيغ للقارئ غير المتخصص الإقبال على قراءة هذا البحث.

صُعوباتٌ ومزالقٌ

إنَّ الخطوات السابقة على صعيد الموضوع و المنهج، هي من أبرز المعوقات التي واجهت البحث واستنزفت وقته وجهده، لأنَّ هذا البحث منهجا وموضوعا، يحتاج إلى جهد تحضيري استثنائي على الصعيدين معا...، وإنَّ الوصول إلى مرحلة التحليل الأسلوبي قد مر بمراحل عدة سبقته.

فعلى مستوى الموضوع كانت الصعوبة الكبيرة في جمع مادة البحث، التي لم يتوافر منها شيء بين يدي الباحثة، لأنَّ نصوص الدراسة متناثرة في الكتب والموسوعات المختلفة سواء أكانت: دينية، أم تاريخية، أم لغوية، أم أدبية، أم حتى جغرافية، على ما سيتضح في ثنايا هذه الدراسة.

ومن أجلى الصعوبات في هذه المرحلة، أن هذه الخطابات ليست مبوبة ولا معنونة، مما يستلزم قراءة هذه الموسوعات والوقوف على ما فيها من نصوص تخدم الدراسة.

أضف إلى ذلك أن هذه النصوص بحاجة إلى توثيق، ثم فرز أولي بحسب السياق (سياق الحرب)، ثم فرز آخر بحسب المرحلة الزمنية (جاهلية، صدر إسلام)، ثم بعد ذلك تصنيف بحسب الظواهر الأسلوبية التي يتوخاها هذا البحث.

وهناك إشكالات اعترضت هذا البحث في النصوص الجاهلية على وجه الخصوص، تتعلق بتحديد بداية الفترة الزمنية لما يسمى بالعصر الجاهلي، ما يدخل في هذا الإطار الزمني وما يخرج منه، حيث لا يوجد تحديد واضح ولا فواصل زمنية يقينية، وهذا يحيلنا إلى البحث في أولية اللغة،

والشكل الذي انتهت إليه هذه النصوص موضوع الدراسة، فأثر هذا البحث بعد لأيٍ ومراجعة، الأخذ عن المعتمد المتواتر في أمهات الكتب، تاركا التحقيق في تلك الأمور لأهلها..!

وهذه النصوص بعامّة والجاهلية بخاصة كانت في كثير منها من غريب اللغة، كانت بحاجة للضبط الدقيق، والبحث المضني في المعاجم للتوفيق بين الدلالة المعنية للمفردة المتناسجة مع غيرها في الخطاب، وبين عشرات المعاني الافتراضية في المعجم، ومن المعروف أن اللفظة في سياقها التداولي، غيرها في المعجم..، ما يحمل الباحث على الشك الدائم حتى في تلك الألفاظ التي يفترض أنها معروفة المعاني وواضحة، حيث هذه المفارقة بين فهمنا لهذه الألفاظ من منظور لغة عصرنا، وبين لغة ذلك العصر وما تضيفه على كل كلمة بل على كل صوت من سحرها وغموضها وجلالها، فلغة هذا الخطاب الجاهلي لغة متفردة بكر في كثير من إيماءاتها وظلالها، ودلالاتها، تحمل بصمة العصر ونكهته الفكرية وتداعياته الذهنية خاصة فيما يتعلق بالجانب التصويري الذي يخلق فيه طائر الخيال ملتقطا ما يروقه من عالم الواقع، هذا الخيال الذي يعمل على تشكيله عوالم ومشارب مختلفة، تتمازج فتخرج خلقا آخر، قد يعز على المتلقي الإمام به..!!

وكون هذه الدراسة تقوم على نصوص تراثية، تعالج بمنهج حدائثي (الأسلوبية)، في إطار المفهوم الحديث للخطاب أيضا، فقد استلزمت البحث والقراءة في طرفي المنهج والتحضير الجيد للإطار النظري لكليهما (الخطاب، الأسلوبية)، أضف إلى ذلك أن هذه الدراسة تقوم على مفهومات نظرية متشعبة تؤسس للمهاد النظري لهذه الدراسة.

تَنْوِيهَاتٌ:

في إطار استعراض خطاب المرأة، كان من الضروري دائما أن نذكر تصريحاً أو تلميحا جزءا من خطاب الآخر، لأن خطاب المرأة لا يولد في الفراغ ولا يوجه للعدم، إذن لفقد غايته وفاعليته، بل وضرورة وجوده، ولأنه خطاب واقعي يولد في رحم العملية التواصلية الفورية الإفهامية حتما في ذلك السياق المأزوم.

يود هذا البحث لفت الاهتمام إلى أن الفرز المعتمد لنصوص الدراسة اعتدّ لا بزمان السرد، أو الرواية، بل بزمان الحدث نفسه، فقد يكون الحدث وقع للمرأة في جاهليتها، قبل إسلامها، لكن زمن

السرد هو (العصر الإسلامي)، سواء أكانت هي الراوية أم المروي عنها، وكذلك فيما لو بقيت المرأة على شركها وعدم دخولها في الإسلام فقد تعومل مع خطابها على أنه جاهلي.

حاول هذا البحث ترتيب السياقات الحربية بحسب دائرتها الزمنية (قبل الحرب، أثناء الحرب، بعد الحرب)، لكن تتبع الظاهرة الأسلوبية كان يعيق هذا الترتيب، ونُظر إلى جدارة الظاهرة الأسلوبية بالتقديم إن وجد تعارض..!

كما حرصت هذه الدراسة على الأخذ عن المصدر الأقدم الذي اعتمدت عليه باقي المصادر وأخذت عنه، ولكن أيضا ومرة أخرى، قد لا تكون رواية هذا المصدر مفصلة أو متفقة مع الظاهرة الأسلوبية المبتغاة أو المتتبعة في إطار هذا الدرس، وأيضا كان دائما الانحياز إلى النص ذي المظاهر الأسلوبية..!

وَبَعْدُ ..

فإن هذا البحث إنما هو مقارنة جزئية حاولت ترسم لفتات الجمال في القول والمقولة من خلال خطاب المرأة في هذا السياق الخاص، وهي محاولة مبدئية يعوزها الكثير للإمام بما في هذه المدونة النظرية النسوية من معطيات ثرة لن يعدمها أي باحث جاد، نسأل الله أن تكون هذه المقارنة قد حققت أهدافها المشار إليها سابقا، أو طرفا منها، معتذرين إلى الله ثم إلى القارئ عن أي قصور أو تقصير غير مقصود..!!

التَّهْيِئَةُ

أولاً . . مفهوم الخطاب

يُعدُّ مصطلح (خطاب) من أكثر المصطلحات تداولاً واستخداماً، خاصةً بعد الانفتاح الثقافي على شتى أنواع التّواصل المرئي والمسموع والمقروء، ومع انتشار مفهوم حرية التّعبير؛ ليشمل هذا الاستعمال كافةً مناجي النّشاط الإنسانيّ الفكريّ والعمليّ؛ مما جعل (الخطاب) بوصفه مصطلحاً؛ شديد التباين والتداخل، بحسب تلك المناحي، فهناك خطاب: ديني، سياسي، ثقافي، اجتماعي، تاريخي، اقتصادي، فلسفي، أدبي... إلخ، وبذا فإن تسمية كل خطاب هي من جنس مضمونه، و كل خطاب يحمل خصائصه الثابتة التي تحدد هويته.^٤

وبناء على ذلك تعددت وتباينت وأحياناً تكاملت تعريفات (الخطاب) بحسب تلك المنطلقات، مما يضيف كثيراً من الغنى والتوسع على مفهوم الخطاب؛ ومن أجل هذا يقول ميشال فوكو (*micheal voco*): "بدل أن أقلص تدريجياً من معنى كلمة خطاب (*discours*) وما لها من اضطراب وتقلب أعتقد أنني في حقيقة الأمر أضفت لها معاني أخرى بمعالجتها أحياناً كمجال عام لكل العبارات وأحياناً كمجموعة من العبارات الخاصة، وأحياناً أخرى كممارسة منظمة تفسر و تبرر العديد من العبارات".^٥

وبناء على وجود الخطاب تظهر الحاجة لتحليل الخطاب، ويظهر مصطلح (تحليل الخطاب: *discours analysis*) وهو أيضاً مصطلح متشعب ومتسع جداً، لتدخل تحت مظلته مجالات واسعة من الأنشطة: (اجتماعية، نفسية، تداولية، سيميائية، أسلوبية.. وغيرها)، إذ إنّ حركيته وتمدده وتشعبه يحتاج دائماً إلى جهود مضاعفة من أجل الإحاطة به موضوعاً ومجالاً وأيضاً كعلم و كمنهج، في سعي حثيث من أجل فك شيفرته وتحليله، أي كان نوع هذا الخطاب..!

ولاشكَّ أنّ لهذا المصطلح حضوراً قوياً أيضاً في الثقافة العربية القديمة، كما هو في الثقافة الغربية التي استقى منها الباحثون العرب المحدثون مفاهيمهم عن الخطاب وبالتنوع نفسه، ولذا يتوقف هذا التمهيد عند هذين المحورين بإيجاز: مفهوم الخطاب عند العرب، ومفهوم الخطاب عند الغربيين، معرجاً على بعض المفاهيم المتعلقة بالخطاب كمفهوم ووظيفة، وطريقة أداء، وما بين مصطلحي (خطاب) و(نص) من علاقة، لتكون هناك إطلالة موجزة أيضاً على السياق وأنواعه وعناصره، والتداولية والكفاءة التداولية، واستراتيجية الخطاب، كمفهوم يصل بالخطاب إلى أهدافه وغاياته المنشودة.

^٤ - انظر: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، عبد القادر شرشار: اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ٢٠٠٦م، ص: ٤٢.

^٥ - الخطاب، سارة ميلز: تر/ يوسف بغول: منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٤م، ص: ٥٠.

أولاً: مفهوم الخطاب عند العرب:

ورد في الثقافة العربية مفردة (خطاب) في مواضع عدة، والمنتبج لمفهوم الخطاب عند العرب لا يمكن أن يتجاوز البدء بالنص الأجل والأكمل، ونعني به القرآن الكريم.

فقد وردت مادة (خ ط ب) في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة في اثنتي عشرة سورة و بصيغ عدة، منها: الفعل المسبوق بـ "لا الناهية"^٦، والفعل الماضي: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}^٧، ومنها المصدر^٨ كقوله تعالى: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ}^٩، وصفة فصل الخطاب كما يفسرها الرازي هي قدرة على التعبير، يقول عنها أنها: "عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال، ويحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيء بشيء، ينفصل كل مقام عن مقام"^{١٠}، وهذه القدرة المبنية على الإدراك والشعور والتي يصبح بها ناطقاً على هذا النحو، هي التي تميزه عن سائر المخلوقات حيّة أو غير حيّة، ويؤكد: "أن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير، فمنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه، ومنهم من يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات، وكلّ من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقه أعظم، وكلّ من كانت تلك القدرة في حقه أقل: كانت تلك الآثار أضعف.."^{١١}.

^٦ - {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ} هود: ٣٧، {وَأُوحِينَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ} المؤمنون: ٢٧.

^٧ - الفرقان: ٦٣.

^٨ - {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} النبأ: ٣٧، (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} ص: ٢٣. {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} الحجر: ٥٧، {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ} طه: ٩٥، و يوسف: ٥١، القصص: ٢٣، على أن (الخطب) غير (الخطاب)، لكن ذلك بالنظر إلى جذر الكلمة فقط.

^٩ - ص / ٢٠.

^{١٠} - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، محمد فخر الدين الرازي (٥٤٣هـ / ١١٠٦هـ): دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ٢٦ / ١٨٧-١٨٨.

^{١١} - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ٢٦ / ١٨٧-١٨٨.

ولا تفوتنا هذه الإشارة الواضحة لوجود الفروق الفردية في التعبير أولاً؛ ولأهميتها ثانياً، والتي تجعل من الناطق أكثر أو أقل تأثيراً في المخاطبين وهذه غاية كل تعبير تواصلية. أما الزمخشري: فيرى أن المراد بمعنى "الخطاب" في الآية: "القصْد الذي ليس فيه اختصار مُخَلّ، ولا إشباع ممل"^{١٢} والمتتبع لسيرة الرسول ﷺ والقارئ لأحاديثه، يجد صعوبة في حصر كلمة (خطاب) والتي تتردد بكثرة مع كثير من الدلالات والتفريعات، ولعل إلقاء نظرة على ما صنف في معجم لفهسة ألفاظ الحديث النبوي ما يفي بالغرض^{١٣}.

وترتبط مفردة (خطاب) أيضاً بالموروث الأصولي الضخم، الأمر الذي أضفى على الخطاب دلالة هذا الحقل، وزاد عليه اختلاف توجهات القراءة له وتأويله مما صعب من مهمة محاولة الإلمام بمعطياته، فنقرأ عند الجويني (ت ٤٧٦ هـ): "إن الكلام والخطاب والتكلم والتخاطب والنطق واحد في حقيقة اللغة، وهو ما به يصير الحي متكلماً"^{١٤}، ويلاحظ أن ما أورده من باب المشترك اللفظي أو المترادف، أو أنه يعني أن الخطاب هو في النهاية ما ينطق به الحي أيا كان هذا النطق وفحواه..!

والآمدي (ت ٦٣١ هـ) على سبيل المثال رأى أن فهم الأحكام الشرعية منوط بفهم الخطاب وعليه يعرف الخطاب على أنه: "اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه"^{١٥}، وهو هنا يعتد باللفظ ويستثني ما سواه من طرق التعبير غير اللغوية، وليتحقق شرط الإفهام في هذا اللفظ يجب أن يكون هذا اللفظ مُستقى من العالم الواقعي ومتفقاً عليه، وهو أيضاً يلحظ المتلقي الذي يجب أن يكون مستعداً لقبول هذا الخطاب؛ ليتمكن من فهمه، فالخطاب رسالة يجب أن تؤدي لغويا بطريقة تحقق لها غايتها الإفهامية لمتلقٍ قد تهيأت له أسباب الفهم في ذاته أولاً، ليتمكن من التقاط هذه

^{١٢} - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧هـ/٥٣٨هـ)، تح/عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي: مكتبة العبيكان. الرياض. ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م. ١٢٥/٥.

^{١٣} - انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل، رتبته ونظمه لفيف من المستشرقين، إشراف: أ. ي. فنسك: تر/: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة بريل، ليدن، ١٩٣٦م.

^{١٤} - الكافية في الجدل، أبو المعالي الجويني: (عبد الملك بن عبد الله بن يوسف النيسابوري)، تح/فوقية حسين محمد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. ص: ٣٢. فالنملة تكلمت، وكذا الجن، والملائكة وغيرهم من الأحياء، وذلك بناء على ما جاء في القرآن الكريم.

^{١٥} - الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين الآمدي، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي (٥٥١هـ-٦٣١هـ/ ١١٥٦م-١٢٣٣م)، تح/ سيد الجميلي: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١/ ١٣٦.

الرسالة وفهمها ثانياً، ويجب أن يكون هناك اتفاق في المعارف الخارجية العامة في عالم الواقع بين المرسل والمرسل إليه، ليتم التمكن من فهم الخطاب، وتتردد في كتب الأصوليين مقولات مثل: فحوى الخطاب ودليل الخطاب ومعنى الخطاب.^{١٦}

وفي المعاجم اللغوية، تحضر مادة (خ ط ب) بتشكيلها الذي اشتق منه لفظ(خطاب)، الذي نُقل من الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة على الاسمية، وأصبح يدل عند الأصوليين على ما خوطب به وهو الكلام^{١٧}، وكلمة (خطاب) تحمل دلالة الفاعل، ولذا ورد عند النحاة اسم المفعول (المُخَاطَب) ليشير إلى المتلقي الذي يمثل الطرف الآخر للعملية الاتصالية اللغوية.

ولعل أجمع المعاجم القديمة وأوعاها وأركانها هو معجم (لسان العرب: لابن منظور) وعنده: "الخطاب والمُخَاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الكَلَامِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ بِالكَلَامِ مُخَاطَبَةً وَخِطَابًا، وَهُمَا يَتَخَاطَبَانِ. وَاسْمُ الكَلَامِ: الخُطْبَةُ. وَالْمُخَاطَبَةُ، مُفَاعَلَةٌ، مِنَ الخِطَابِ وَالْمُشَاوَرَةِ. وَفِي التَهْذِيبِ: قَالَ بَعْضُ المَفْسِرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَفَصَّلِ الخِطَابِ؛ قَالَ: هُوَ أَنْ يَحْكُمَ بِالبَيْتَةِ أَوْ اليَمِينِ؛ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الحُكْمِ وَضِدِّهِ؛ وَقِيلَ فَصَّلِ الخِطَابَ أَمَا بَعْدُ؛ وَدَاوُدُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوَّلُ مَنْ قَالَ: أَمَا بَعْدُ؛ وَقِيلَ: فَصَّلِ الخِطَابَ الفِقْهَ فِي الفَضَاءِ." ^{١٨}

وفي (مقاييس اللغة): "الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبة يُخَاطِبُهُ خِطَابًا، وَالخُطْبَةُ مِنْ ذَلِكَ." ^{١٩} والخطاب: "الكلام بين اثنين" ^{٢٠}، وعند (التهانوي) في معجمه أن الخطاب: "توجيه الكلام نحو الغير للإفهام" ^{٢١}

^{١٦} - انظر: المعونة في الجدل، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (٣٩٣هـ-٤٧٦هـ): تح/ علي بن عبد العزيز العميريني: منشورات مركز المخطوطات والتراث، الصفاة، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص: ٨٤-١١٨.

^{١٧} - انظر: الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمادي: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨م. ص: ١٧.

^{١٨} - لسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبة بن منظور (٦٣٠هـ/ ٧١١هـ): تح/ عبد الله على كبير وآخرين: دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. ٢/ ١١٩٤-١١٩٥. (خ ط ب).

^{١٩} - معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (٣٢٩هـ-٣٩٥هـ): تح/ عبد السلام محمد هارون: دارالفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، مادة (خَطَبَ).

^{٢٠} - شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد بن نشوان الحميري (٥٧٣هـ): أشرف عليه: عبد الله عبد الكريم الجرافي، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ٥٥/٢.

^{٢١} - كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي (ت. بعد ١١٥٨هـ / بعد ١٧٤٥ م): تح/ لطفي عبد البديع: القاهرة، الهيئة العلمية للكتاب، ١٩٧٢م، ٢/ ١٧٥.

وفي المعجم الوسيط: "خاطبه مخاطبة: كآلمه وحادثه ووجه إليه كلاماً، وتخاطباً: تكالماً، الخطاب: الكلام، والرسالة"، كما تتوسع عند المناطقة حتى يروا أن الخطابة: "قياس مؤلف من المظنونات أو المقبولات"^{٢٢}، وهو ما يخرج الخطاب من دلالاته اللغوية إلى حقل دلالي خاص بعلم الأصول. أما في (المنجد في اللغة العربية المعاصرة)؛ فقد وردت كلمة خطاب بمعنى الكلام الموجه إلى الآخر، أو إلقاء الخطبة على المنبر.^{٢٣}، أو ما يوجه إلى الجمهور في مناسبة من المناسبات.^{٢٤}

وبالنظر للمعاجم اللغوية قد لا يزيد حديثها على قديمها شيئاً يذكر، من اقتران الخطاب بالخطبة والخطابة، كما يلحظ تلازم دلالي بين الخطاب والكلام، وترادفهما اللغوي على مستوى اللفظ المعجمي، كما يشير إلى أصول المصطلح المنحاز إلى الشفاهية، فدلالة المصطلح لم تقترن بعلامة مكتوبة^{٢٥}، كما يتبين في ضوء التفاسير التي وضعها المفسرون القدماء والمحدثون للآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة (الخطاب)، أن المفهوم القرآني للخطاب يُحيل إلى الكلام، ولا تختلف دلالة هذه اللفظة في المعجم العربي عن هذه الإحالة، ذلك أن الإحالة المعجمية استمدت دلالتها من دائرة التفسير القرآني وفق السياق الذي وردت فيه لفظة (الخطاب) في القرآن الكريم.^{٢٦}

وقد عرّف المشتغلون باللغة العربية الكلام ومنهم: الرماني (ت ٣٨٤هـ): "الكلام ما كان من الحروف دالاً بتأليفه على معنى"^{٢٧}. ويبدو هذا التعريف مجتزئاً ومبتوراً لأنه لا يُعنى بالمعنى الكلي، وذلك لأنه غير مانع من دخول الكلمة والتراكيب الناقصة كالمضاف والمضاف إليه، والصفة والموصوف ضمن تأليف مفرد للمعنى.

^{٢٢} - المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون: المكتبة الإسلامية، إستانبول، ط ٢، د.ت، ١/ ٢٤٢-٢٤٣.

^{٢٣} - المنجد في اللغة والأدب والعلوم، الأب لويس معلوف: بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ط ١٩، ٢٠٠٠م، ص: ١٨٦.

^{٢٤} - انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر وفريق عمل: عالم الكتب، القاهرة، ط ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م. ١/ ٦٦٠.

^{٢٥} - انظر: إشكالية المصطلح النقدي (الخطاب والنص)، د: إبراهيم عبد الله: مجلة أفاق عربية، بغداد، السنة الثامنة عشرة، آذار، ١٩٩٣، ص: ٥٩-٦٠.

^{٢٦} - انظر: تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية (دراسة في الأسس النظرية)، صفاء صنكور جبار: رسالة ماجستير: جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الإعلام، ١٩٩٦م، ص: ١١.

^{٢٧} - الحدود في النحو، علي بن عيسى الرماني. (٢٩٦هـ-٣٨٤هـ)، تح/ بتول قاسم ناصر، مجتزئ من مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة العراق، ١٤/٢٣، د.ت، ص: ٣٨.

وعرّف ابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) الكلام بقوله: "الكلام كل لفظ مستقلّ بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسمّيه النحويّون الجمل"^{٢٨}، وتابعه عليه ابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ)^{٢٩}، ويريد بالمستقلّ: "ما كان من الألفاظ قائمًا برأسه، غير محتاج في الدلالة على معناه إلى متمّم له"^{٣٠}؛ ويفهم من هذا التعريف أن دلالة الكلام مرتبطة بطريقة نظم الألفاظ التي ركبت منها وفق سياقات تأليفية خاصة، تستوفي في ضوءه المعنى المطلوب بشكل أغناها دلاليًا عن غيرها"^{٣١}.

ويشير ابن فارس أيضًا في كتابه (الصاحبي) إلى زعم العرب أن "الكلام ما سمع وفُهم" وأنّ: "الكلام حروف مؤلّفة دالة على معنى" ويعلق على ذلك "القولان عندنا متقاربان، لأن المسموع المفهوم لا يكاد يكون إلا بحروف مؤلّفة تدل على معنى"^{٣٢}.

ويؤكد الجرجاني (٧٤٠ هـ - ٨١٦ هـ) أن الكلام هو "المعنى المركب الذي فيه الإسناد التام أو ما تضمن كلمتين بالإسناد"^{٣٣} بينما يعرفه الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) بقوله: "الكلام هو المركّب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى"^{٣٤}.

ومن هنا يُلاحظ أنّه ليس هناك من فروق تذكر بين الخطاب والكلام بين عموم آراء القدماء،

وأن كل توسع في مفهوم الخطاب والكلام لا يكاد يتعدى مكوّن الجملة المفهومة.

أما المدرسة الغربية فلها منظورها الخاص لـ (الكلام والخطاب)، وهذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه في السطور التالية.

^{٢٨} - الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي (٣٢٠ هـ - ٣٩٢ هـ): تح/ محمد علي النجّار: دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، د.ت، ١٧/١.

^{٢٩} - شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلّي (ت ٦٤٣ هـ)، تح/ إميل بديع يعقوب: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م، ٢٠/١.

^{٣٠} - الخصائص، ابن جنّي: ٢١/١.

^{٣١} - انظر: إشكالية المصطلح النقدي (الخطاب والنص)، إبراهيم عبد الله، ص: ٦٠.

^{٣٢} - الصاحبيّ (في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها)، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (٣٢٩ هـ - ٣٩٥ هـ)، تح/ عمر فاروق الطّباع: مكتبة المعارف: بيروت، ط ١، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م، ص: ٨١.

^{٣٣} - التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، مكتبة لبنان: بيروت، ١٩٧٨ م، مادة (كلام).

^{٣٤} - المفصل في علم العربية، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، وولييه كتاب (المفضل في شرح أبيات المفضل)، للسيد محمد بدر الدين أبي فراس النعساني الحلبي: دار الجيل: بيروت، ط ١، د.ت، ص: ٦.

ثانياً: مفهوم الخطاب عند العرب:

لتحديد المعنى اللغوي لكلمة خطاب نحتاج إلى تتبعها في القواميس الغربية، لنجد بداية أن مفهوم خطاب يرتبط بـ "اللوعوس" الإغريقي رغم ما يعرف عنه أنه مرتبط بحقل اللسانيات، سواء بعده اسماً مشتركاً أو مفهومًا فلسفياً، وبالنظر إلى مفهوم الخطاب عند أرسطو، فيلاحظ أنه ترتيب وتمفصل لوحدة جدلية مستمرة وقابلة للعزل في الآن نفسه، وبناء على هذا التعريف فهناك شرطان رئيسان للخطاب: الالتحام وتمفصل الأجزاء.^{٣٥}

وتظهر عناية الفلاسفة بمحاولتهم وضع تحديد لمفهوم الخطاب لعلّ من أولى المحاولات لوضع حدّ للخطاب كانت من قبل (أرسطو)، يقول أنها: "الكلام المقنع وهي نوع من القياس.."^{٣٦}، وقد ارتبط الخطاب بالخطابة التي تتجلى فيها أقصى آيات البلاغة النثرية، وفي العصور الوسطى يتجلى لنا الاهتمام بالخطاب الفلسفي من خلال ما طرحه رونييه ديكرت (١٥٩٦م-١٦٥٠م) في كتابه (خطاب في المنهج ١٦٣٧م) أو مقالة الطريق^{٣٧}، وبهذا يكون تطور مفهوم الخطاب جزءاً من التطور الحضاري والفكري للنهضة الإنسانية بصفة عامة. ولتبعه في العصر الحديث يُتوقف عند المفاصل التالية:^{٣٨}

تأثر مفهوم الخطاب باتجاه الدراسات اللغوية الشكلية والدراسات التواصلية، ويطلق على مفهومين أحدهما يتفق مع المفهوم القديم عند العرب والآخر مع الدرس اللغوي الحديث، وهذان المفهومان هما: الأول: أنه ذلك الملفوظ الموجه للغير لإفهامه قصداً معيناً، وهذا هو المفهوم الذي تلتقي فيه الثقافتان العربية والغربية في تحديدهما لمفهوم الخطاب.

الآخر: الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة، وهذا ما اعتمدت عليه الدراسات اللغوية الحديثة.

^{٣٥} - لتفصيل التتبع التاريخي لمفهوم الخطاب وتطوره في المعاجم، انظر: الحد بين النص والخطاب، ربيعة العربي: مجلة علامات، المغرب، ع ٢٠١٠، ٣٣، ص: ٣٣، وقد اعتمد بشكل عام في هذا التتبع على ما جاء في هذه الدراسة.

^{٣٦} - الخطابة، أرسطو: تر/عبد الرحمن بدوي: دار القلم، بيروت، ١٩٧٩م، د.ط، ص: ١٤٣.

^{٣٧} - تحليل الخطاب الأدبي: عبد القادر شرشار: ص: ١٣، وقد ترجم هذا المقال: جميل صليبا: موفم للنشر: بيروت، ١٩٩١م.

^{٣٨} - استعان البحث في هذا الرصد بـ: استراتيجيات الخطاب "مقاربة لغوية تداولية" عبد الهادي ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، ص: ٣٥/٣٩، وتحليل الخطاب الروائي "الزمن-السرد-التبئير"، سعيد يقطين: المركز الثقافي العربي: بيروت، ط ٢، ١٩٩٣م، ص: ١٧-٢٦.

في بداية القرن العشرين، اختفت تلك الدلالات المرتبطة بـ (discours) حينما اقترحت اللسانيات الحديثة مفهوما أكثر مرونة للخطاب، حينما عدته ملفوظا "يرتهن من خلاله" الباحث/المتكلم "اللغة بالكلام بمفهوم دي سوسير للمصطلح" وبذا صار الخطاب في العلوم الإنسانية موضوعا علميا ونقديا.^{٣٩}

ولكن استنادا للمعرفة اللغوية تحديدا يعين مفهوم الخطاب بأنه: " كل كلام جاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوبا أو منطوقا " ^{٤٠}

إن ربط الخطاب بالسياق التواصلي، يجعل من معيار الكم معيارا ثانويا، وهذا ما يؤكد (سيس و دياكيت) باعتبارهما الخطاب: " كل لفظ- كلمة أو أكثر- يُنتقى بالنظر إلى شروط إنتاجه"^{٤١} ؛ مما يجعل من الضرورة عدم اعتبار الخطاب متواليّة من الجمل بل قد يكون كلمة أو أكثر، ويعكس الدراسات القائمة على الجملة ، ينظر إلى الكلمة الآن بوصفها أصغر وحدة في الخطاب، وكما أشار إلى ذلك (بنفست) من قبل. وتؤكد (سلس مورسيا) أن ربط الخطاب بالسياق يعين أيضا على التوسع في تحليل الخطاب من نواحيه التوزيعية وما يحمل من دلالات المعاني مستفيدا من كل ما يقدمه السياق من معلومات.^{٤٢}

ويخلص من هذا إلى نتيجتين جوهريتين:^{٤٣}

- ١- تعدد دلالات الخطاب بناء على تعدد اتجاهات تحليل الخطاب ومجالاته، فهي تتداخل حيناً، أو تتقاطع أو تتباعد حيناً، وقد تتكامل أحيانا أخرى.
- ٢- لتحليل الخطاب وتحديده، على الباحث أن يحدد مجال الشغل وفق أسئلة ابستمولوجية محددة، تحمل إجابا عن الأسئلة التالية: لماذا هذا التعريف..؟؟ ما الأدوات والإجراءات المناسبة..؟؟ ما الهدف من تحليل الخطاب وكيف نصل إليه..؟؟

^{٣٩} - انظر: تحليل الخطاب الأدبي: عبد القادر شرشار: ص: ١٣.

^{٤٠} - دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، د. ميجان الرويلي. د. سعد البازعي: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط ٢٠٠٢، ص: ١٥٥.

^{٤١} - انظر: الحد بين النص والخطاب، ربيعة العربي، ص: ٣٨.

^{٤٢} - انظر: السابق: ص: ٣٩.

^{٤٣} - انظر: تحليل الخطاب الروائي: سعيد يقطين: ص: ١٦.

إنَّ هذا البحث يتبنى هذه الرؤية لكون الخطاب كلمة أو أكثر، وعدّه وحدة تواصلية لها شروطها، فلا اعتبار لِكَمّ العبارات اللغوية ولا لنوعها أو حجمها.^{٤٤}

يُلحظ من جملة التعريفات المعجمية وغيرها التي تناولت مفهوم الخطاب في مراحلها المختلفة، أن مفهوم الخطاب كان ينحو إلى الشفاهية في بداياته، ثم ومع تطور الفكر الإنساني واعتماده أكثر على الوسائل الكتابية، بدأ يهتم بكون الخطاب يتضمن النص، أي يميل إلى الكتابية.

وحيثما انتقل هذا المصطلح إلى الثقافة العربية انتقلت معه كل التباينات والاختلافات وأيضًا بحسب التخصص ومجال الدراسة، وأول مفردات هذا الخلط ظهور مصطلحي (نص، خطاب).

ثالثًا: بين النَّصِّ وَالْحِطَابِ

يعد القرآن الكريم أول نص تام يتعامل معه العرب في تاريخهم، وهي ممارسة متمثلة في الوقوف على " النص في ذاتيته النصية" كما يعبر "رولان بارت" فذاتية النص تجعله كلاما يقوم بنفسه إزاء كلام آخر يتجلى من خلال إنجاز لغوي مختلف.^{٤٥}

مفهوم النص في المعجم العربي

بالبحث في المعاجم اللغوية العربية القديمة والتي يلخصها النظر في (لسان العرب) لابن منظور، بالنظر إليها نجد أن معنى (نص) مختلف عن المعنى المراد في الدراسات اللغوية الحديثة، حيث نجد في مادة (ن ص ص) في (لسان العرب) ما يلي: " النَّصُّ: رَفْعُكَ الشَّيْءِ. نَصَّ الْحَدِيثَ يَنْصُهُ نَصًّا: رَفَعَهُ. وَكُلُّ مَا أَظْهَرَ، فَقَدْ نُصَّ. وَأَصْلُ النَّصِّ أَقْصَى الشَّيْءِ وَغَايَتُهُ، ثُمَّ سُمِّيَ بِهِ ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ سَرِيعٍ. ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: النَّصُّ الْإِسْنَادُ إِلَى الرَّئِيسِ الْأَكْبَرِ، وَالنَّصُّ التَّوْقِيفُ، وَالنَّصُّ التَّعْيِينُ عَلَى شَيْءٍ مَا، وَنَصُّ الْأَمْرِ شِدَّتُهُ؛ وَنَصُّ كُلِّ شَيْءٍ: مَنْتَهَاهُ. وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِذَا بَلَغَ النِّسَاءُ نَصَّ الْحِقَاقِ فَالْعَصْبَةُ أَوْلَى، يَعْنِي إِذَا بَلَغَتْ غَايَةَ الصَّغَرِ إِلَى أَنْ تَدْخُلَ فِي الْكِبَرِ فَالْعَصْبَةُ أَوْلَى بِهَا مِنَ الْأُمِّ، يَرِيدُ بِذَلِكَ الْإِدْرَاكَ وَالْغَايَةَ. قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: النَّصُّ أَصْلُهُ مَنْتَهَى الْأَشْيَاءِ وَمَبْلَغُ أَفْصَاهَا، قَالَ: فَنَصُّ الْحِقَاقِ إِنَّمَا هُوَ الْإِدْرَاكُ، وَقَالَ الْمَبْرَدُ: نَصُّ الْحِقَاقِ مَنْتَهَى بَلُوغَ الْعَقْلِ، وَفِي حَدِيثِ هِرْقَلٍ: يَنْصُهُمْ

^{٤٤} - هذا ما يذهب إليه أيضا أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص: دارالأمان، الرباط، ٢٠٠١م: ص: ٧٩.

^{٤٥} - انظر: تحليل الخطاب الأدبي: عبد القادر شرشار: ص: ١٥.

أَيِ يَسْتَخْرِجُ رَأْيَهُمْ وَيُظْهِرُهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ: نَصُّ الْقُرْآنِ وَنَصُّ السُّنَّةِ أَيِ مَا دَلَّ ظَاهِرُهُ لَفْظُهُمَا عَلَيْهِ مِنْ الْأَحْكَامِ.^{٤٦}

والملاحظ أنه مع تواتر استعمال كلمة (نص) في الكتابات الأصولية، إلا أننا لا نعثر على تعريف لهذا المصطلح مما يوقع في الحيرة^{٤٧}، غير أن المفهوم المتحدّر لنا من لسان العرب والمعاجم اللغوية الأخرى، يجعل الكتاب - والأصوليين منهم تحديداً - في حال من التصالح مع هذا المصطلح، خاصة وأنهم يتعاملون مع صورة نصية واحدة هي القرآن الكريم، أو مع الحديث الشريف الذي يُعرف في كلتا الحالتين إلى أين يرتفعان وينتهيان.

مَفْهُومُ النَّصِّ فِي الْمَعْجَمِ الْغَرِيبِ

في اللغات الأوربية ترجع كلمة نص "text-texte" إلى الأصل اللاتيني "texere" بمعنى نَسَجَ، "textus" بمعنى نسيج، كما يذكر (كوكورك: ٢٠٠١م)، ويعدّها أقدم من كلمة خطاب، حيث يرجع تاريخ استعمالها إلى (١٢٦٥م)، ويرجعها آخرون إلى (١١٧٥م)، أما (نشفير: ١٩٩٩ م)، فيرجعها إلى الكلمة الإيطالية التي ظهرت في القرن السادس عشر، بمعنى محكي، عوض، مكتوب، وكما في الموسوعة (١٩٦٦م) فهي مرتبطة بالمكتوب، وفي المرحلة الإمبريالية يشير (كوكورك) إلى أنها بدأت تأخذ معنى التسلسل المحكي/ نص. (RG : ١٩٨٧م).^{٤٨}

وإذا كان الأصل اللاتيني للكلمة يحيل إلى النسيج وما يستلزمه من إحكام وجهد وقصد وتنميق وتنسيق ليكون مستويا وتاما، فإن ذلك ليس ببعيد عن المعنى القاموسي الذي تحيل إليه مادة (نسيج) العربية، ففي لسان العرب: "نَسَجَ: النَّسَجُ: ضَمُّ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ. وَنَسَجَتِ الرِّيحُ التُّرَابَ: سَحَبَتْ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ، وَالرِّيحُ تَنْسِجُ التُّرَابَ إِذَا نَسَجَتِ الْمَوْرَ وَالْجَوْلَ عَلَى رِسُومِهَا، وَالرِّيحُ تَنْسِجُ الْمَاءَ إِذَا ضَرَبَتْ مَتْنَهُ فَانْتَسَجَتْ لَهُ طَرَائِقُ كَالْحُبُكِ. وَنَسَجَتِ الرِّيحُ الرَّبِيعَ إِذَا تَعَاوَرَتْهُ رِيحَانٌ طَوَّالًا وَعَرَضًا؛ لِأَنَّ النَّاسِجَ يَعْطَرُضُ النَّسِيجَةَ فَيُلْحِمُ مَا أَطَالَ مِنَ السُّدَى، وَنَسَجَتِ الرِّيحُ الْمَاءَ: ضَرَبَتْهُ فَانْتَسَجَتْ فِيهِ طَرَائِقُ، وَنَسَجَ الْحَائِكُ الثُّوبَ يَنْسِجُهُ وَيَنْسِجُهُ نَسْجًا، مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ ضَمَّ السُّدَى

^{٤٦} - اللسان: (نصص). وكذا في: الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي (ت ٢٩١هـ)، تح/ عبد العليم الطحاوي، محمد علي النجار:

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م: تصصت الحديث إلى فلان"، ص: ٢١٤.

^{٤٧} - النص: ممارساته وتجلياته، منذر عياشي: مجلة الفكر العربي المعاصر: ع/٩٦-٩٧، ١٩٩٢، ص: ٥٣.

^{٤٨} - انظر: الحد بين النص والخطاب: ربيعة العربي: ص: ٤٠.

إلى اللُحْمَةِ، وهو النَّسَاجُ، ونَسَجَ الكَذَابُ الزُّورَ: لَفَّقَهُ. ونَسَجَ الشَّاعِرُ الشِّعْرَ: نَظَّمَهُ." ٤٩

ويصعب إيجاد تعريف محدد للنص في الدراسات اللسانية والنقدية الحديثة نظرا لاختلاف الآراء والتوجهات فضلا عن تضاربها، فالنص بعده النتيجة الوحيدة - وإن كانت مؤقتة - للكتابة، فإنه يمثل الحقيقة الفريدة التي تتيح إقامة دراسة علمية ترتبط بتصوير إنتاج النص. ٥٠

وأبرز ما يميز النص بداية هو وجوده الفيزيائي ومكوناته، وقد تناوله بعض الدارسين على هذا الأساس، وتناوله آخرون من حيث هو حدث منجز في الزمان والمكان، ومن حيث كونه مؤسسة اجتماعية حضارية تؤدي دور العلامة الدالة بما تتسم به من سمات النشاط اللغوي الفردي والجماعي. ٥١

وتؤثر الثقافة في تحديد ما هو نص وما هو غير نص، هذا ما يشير إليه (أغيفي ١٩٨٦م)، حيث يقل تواتر مصطلح (نص) في فرنسا، ليحل محله مصطلح (خطاب، لفظ). ٥٢

لا شك أن مصطلح (نص) مرتبط بالكتابة، ولذلك فنشأته مرتبطة بها، في حين يرتبط الخطاب بالمنطوق، وفي (الموسوعة: ١٩٦٦م)، التي يحيل إليها (كوكورك ٢٠٠١م)، يذكر أن النص: "يرتبط فقط بالكتابة"، وفي الإطار العام نجد اتجاهين في النظر إلى الخطاب، النص: الأول: يفرق بين النص والخطاب. الثاني: يرادف بين النص والخطاب. ٥٣

الأول: النصُّ ممَّا نَرى للخطاب:

عند (كريماس وكورتيس) يكون أساس التمييز بين النص والخطاب منطلقا من صيغة التعبير، التي تحدد ماهيته بعده لفظاً أي نتاجاً، وتحدد ماهية الخطاب بعده إجراءً أو تلفظاً، يتيح للنص أن يتحول إلى خطاب، إن محورَي النطق والكتابة يركز عليهما (كارتر و مكارتي - ٢٠٠٦م)، كما نجد ذلك

٤٩- اللسان: مادة (نَسَج).

٥٠- انظر: تحليل الخطاب الأدبي: عبد القادر شرشار: ص: ١٩. وللتفصيل أكثر في مفهوم النص، انظر مثلا: لسانيات النص عرض تأسيسي. كيرستن آدمستيك: تر/سعيد حسن بحيري: مكتبة زهراء الشرق: القاهرة: ط ١، ٢٠٠٩م: ص: ٧٥ وما بعدها.

٥١- انظر: تحليل الخطاب الأدبي: عبد القادر شرشار: ص: ١٩.

٥٢- انظر: الحد بين النص والخطاب: ربيعة العربي: ص: ٤٠.

٥٣- انظر: المرجع نفسه: ص: ٤١. وانظر أيضا: إشكالات النص (دراسة لسانية نصية. المداخلة نموذجاً): جمعان بن عبد الكريم: النادي الأدبي: الرياض، والمركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩م، ص: ٣٨-٣٩.

عند (إمرل: ١٩٩٥م) الذي يرى أن الاختلاف يتجاوز صيغة التعبير إلى الاختلاف في السياقات اللغوية والاجتماعية التي تتأسس الدلالة في إطارها وأشكال المهارات المفعلة في كل من نمطي التعبير.^{٥٤}

الثاني: تَرَادُفُ النَّصِّ وَالْحِطَابِ:

قد يكون التباس المفاهيم بين النص والخطاب مصدره اختلاف المصدر الذي يتحدر منه، ففي الثقافة الفرنسية يستعمل مفهوم الخطاب بشكل أوسع من الثقافة الإنجليزية التي تميل على قصره على اللغة المنطوقة، أو الحوار كما هو أصل الكلمة في اللغة العربية.^{٥٥}

والملاحظ في هذه الدراسات أن النص هو عموم القوالب الشكلية (نحوية، صرفية، صوتية)، بينما يلاحظ أن الخطاب يميل إلى عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي كما في تأويله، مما يفترض الإحاطة بهذه العناصر واستيعابها، وأيضا فإن هناك أنماطا من الخطابات غير اللغوية كما في التمثيل الصامت، الرقص التعبيري، الرسم الكريكاتوري، أو حتى الخطابات التجارية الإعلانية التي قد تقتصر على استعمال علامات غير لغوية.^{٥٦}

وبما أن موضوع هذه الدراسة هو الخطاب اللغوي فإن "حد الخطاب أنه كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودًا مخصوصًا"^{٥٧}. سواء كان هذا الخطاب شفهيًا أو مكتوبًا، وسواء كان المخاطب حاضرًا أو غائبًا متمثلًا في الذهن.

ويمكن إيجاز أهم الفروقات بين النص والخطاب بما ذكره محمد العبد، من أن الخطاب موقف ينبغي على اللغة مطابقته، بينما النص بنية مترابطة تكون وحدة دلالية، وبناء على ذلك يكون الخطاب أوسع من النص لأنه يشمل بالإضافة للغة المنطوقة اللغة غير المنطوقة، وغالبا ما يفرق بين النص والخطاب على أساس أن النص مكتوب بينما الخطاب منطوق، على الرغم أن أحدهما قد يلتبس بالآخر، حيث يصبح المنطوق مكتوبا، كما يصبح المكتوب منطوقا كما في (الخطاب الروائي)، ويذكر فرقا قد لا يعدّ جوهريا، يتعلق بالطول والقصر، حيث يطول الخطاب ويقصر النص، لأن كليهما قد يطول وقد يقصر.^{٥٨}

^{٥٤} - انظر: الحد بين النص والخطاب: ربعة العربي: ص: ٤١.

^{٥٥} - إشكالات النص (دراسة لسانية نصية، المداخلة نموذجًا): جمعان عبد الكريم: ص: ٣٨.

^{٥٦} - انظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية): عبد الهادي الشهري: ص: ٣٩.

^{٥٧} - نفسه.

^{٥٨} - انظر: النص والخطاب والاتصال: د. محمد العبد: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م،

مفهومُ السِّياقِ:

إن السِّياق ليس مجرد حالة لفظ، بل هو على الأقل متوالية من أحوال اللفظ، و لتغير واقع الزمان والمكان فإن السِّياق هو عبارة عن اتجاه لمجرى الأحداث، في حالة سِّياق واقعي أو غير واقعي والذي قد يكون متخيلاً، حيث يستوفي السِّياق الواقعي الذي من شروط (الآن، هنا)، أي الزمان والمكان اللذين تتحقق فيهما النشاطات المعرفية المشتركة بين طرفي الخطاب (المرسل، المرسل إليه).^{٦٢} ويطلق مصطلح السِّياق على:^{٦٣}

أ- السِّياق اللغوي، أو الداخلي.

ب- سِّياق التلفظ أو سِّياق الحال أو سِّياق الموقف أو الماكرات، أو السِّياق الخارجي.

أ- السِّياقُ اللُّغوي:

إن السِّياق اللغوي هو ما ينصرف إليه الذهن عادة حين يتبادر السؤال أو التفكير: ما السِّياق..؟ ولذا كان الأكثر شيوعاً في البحث المعاصر، إذ عرفه (كلارك) أنه: " تلك الأجزاء من الخطاب التي تحف بالكلمة في المقطع وتساعد في الكشف عن معناها، وسوف ندعو هذا بالتعريف النموذجي"^{٦٤}، والسِّياق بهذا المفهوم هو تجسيد للتتابعات اللغوية في شكل الخطاب، من وحدات صوتية وصرفية ومعجمية وما بينها من ترتيب وعلاقات تركيبية وهذا التعريف يضيق عن استيعاب مصطلح السِّياق الذي ابتدعه (مالينو فسكي) الذي اتسع خاصة في الدراسات التداولية مما يُعد من أسسها الرئيسية، فتجاوز الباحثون هذا التعريف إلى التعريف الوارد في موسوعة علوم اللغة: " تُعرف مجموعة الظروف التي تحف حدوث فعل التلفظ بموقف الكلام... وتسمى هذه الظروف في بعض الأحيان بالسِّياق (context)."^{٦٥}

^{٦٢} - انظر: النص والسِّياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي)، فادن دايك: تر/ عبد القادر قنيني: أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ت، د.ط، ص: ٢٥٨-٢٥٩.

^{٦٣} - انظر: إشكالات النص (دراسة لسانية نصية)، جمعان عبد الكريم: ص: ٤٠٠ وما بعدها.

^{٦٤} - استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية): عبد الهادي الشهري: ص: ٤٠.

^{٦٥} - المرجع نفسه: ص: ٤١.

ب- سياق التلّفظ أو سياق الحال أو سياق الموقف:

قد يلتبس هنا مصطلح السياق بمصطلح المقام، فالأخير شاع عند العرب واستعملوه في دراساتهم البلاغية، بينما شاع الثاني في الدراسات اللغوية الحديثة، والفروق التي ظهرت بينهما في إطارها الثقافي جعلت تمام حسان يتحفظ في تحديد مفهوم المقام عند البلاغيين العرب، ويخالفهم في فهمهم، والفصل بين المصطلحين عنده هو البعد الثقافي، فالمقام كما فهمه من البلاغيين العرب قديماً هو (سكوني) أيّ قوالب جامدة، بينما يفهمه على أنه "جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يُعتبر المتكلم جزءاً منه كما يُعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك مما له اتصال بالتكلم"^{٦٦} ومع ذلك فهو يفضل استعمال مصطلح مقام على مصطلح سياق.

وقد يكون مصطلح سياق هو الأنسب لدلالته على الممارسة المتصلة للفعل اللغوي الذي يتجاوز مجرد التلّفظ بالخطاب، بدءاً من لحظة الممارسة الذهنية في إنتاجه مما يضمن تحقيق مناسباته التداولية، مع الأخذ بعين الاهتمام العالم الاجتماعي والنفسي الذي يؤثر فيه مستعمل اللغة في أي وقت كان، كما يرى (ليفنسن).^{٦٧} على هذا فالعالم بكل ما فيه من ظروف (سياق) هو أيضاً ما يذهب إليه (ديتمار) في تعريفه للكفاية الاتصالية بأنها " قدرة الأفراد على أن يتصل أحدهم بالآخر في ظروف محددة موقفاً ومعيارياً: لغوية و نفسية واجتماعية وتداولية."^{٦٨}

إذن للسياق أهمية كبرى في فهم مقصد المتكلم، ويجعل من الممكن فهم الخطاب بناء على ذلك.

عناصرُ السِّياق:

حسب تصنيف (هايمز)، فإن العناصر الأساس في سياق الخطاب هي: المتكلم، المخاطب، المشاركون، الموضوع، القناة، المقام، السنن، جنس الرسالة، الحدث والمقصد، ولكن يمكن اختزال هذه العناصر في: المتكلم، المخاطب، الرسالة، الزمان، المكان، ونوع الرسالة، هذا ما يراه (براون ويول)،

^{٦٦} - الأصول، دراسة إستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة. تمام حسان: عالم الكتب: القاهرة، ٢٠٠٠/هـ ١٤٢٠ م، ص: ٣٠٤.

^{٦٧} - بتصرف عن: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي الشهري: ص: ٤٢.

^{٦٨} - النص والخطاب والاتصال: محمد العبد: ص: ٥١.

وكلما تحصل المتلقي على معلومات أكثر عن هذه العناصر كان أكثر قدرة على تلقي الرسالة وتأويلها بالشكل الصحيح، وهو ما يعني الاهتمام بالسياق الذي ينتج فيه الخطاب.^{٦٩}

إن هذا السياق المهم والمؤثر في إنتاج الخطاب يمكن اختزاله في عناصر ثلاثة يمكن أن تنضوي تحته:^{٧٠}

١- العنصرُ الذاتيُّ:

ويعنى به رغبات المتكلم / المرسل واهتماماته ومقاصده ومعتقداته، وكلها تتدخل لتحديد السياق.

٢- العنصرُ الموضوعيُّ:

ويقصد به العناصر الخارجية (الزمانية والمكانية).

٣- العرْفَةُ المُشترَكةُ:

وهي معقدة ومركبة (اجتماعية، سياسية، ثقافية)، وكيف تكوّن عالما مشتركا يتحرك فيه الخطاب بعناصره، وتأثير ذلك كله على بناء الخطاب وتوجهاته...؟

أما العنصر الذاتي فيعد من أهم عناصر السياق، والممثل في طرفي الخطاب الرئيسين (المرسل/ المرسل إليه) غير منفصلين عن العالم الخارجي المشار إليه آنفا بكل عناصره وتأثيراته في تفاعل متبادل ومستمر، لا في لحظة التلفظ فحسب بل وما يسمى بالخطاب السابق بسياقاته المختلفة، لأنها هي التي أفرزت وأدت بطريقة أو بأخرى إلى إنتاج سياق الخطاب الحالي.

ولننظر أولاً في طرفي عملية الاتصال (المرسل/ المرسل إليه):

أولاً: المرسلُ:

لكي نتعرف إلى أهمية المرسل، علينا أن نقول إن اللغة الطبيعية لا تتجسد ولا تمارس إلا من خلال المرسل، وبذا يتحقق لها وجودها الفعلي، لا بالقوة فقط، بل وجودا مناسباً للسياق.

^{٦٩} - انظر: لسانيات النص، محمد خطابي: ص: ٢٩٧. وانظر أيضا في ذلك: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات): تون.أ.فان

ديك.تر/سعيد بحيري: دار القاهرة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م، ص: ١١٧-١٣٥ وما بعدها

^{٧٠} - انظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) ص: ٤٥ وما بعدها.

والحق.. أن المرسل هو الذي يوظف اللغة في مستوياتها المختلفة ويدخلها في نسيج خطابه ويفعلها تفعيلاً يفجر طاقاتها الكامنة، وينقلها بفعله التلفظي من المستوى الصوري إلى المستوى التداولي الفعال، مما يشير إلى كفاءة الخطاب وتكيفه مع محيطه، بشكل يعكس معه قدرة المرسل على بناء الخطاب وإشهار أفكاره على نحو ما..!

أما الإنجاز الفعلي للخطاب فهو يرتكز على أهلية المرسل، وتتجلى في قدرته على تحديد أهدافه وأغراضه، كما وان هذه الأهلية هي المحك لإنجاز بعض الأفعال اللغوية من المرسل مع ضرورة توفر بعض الشروط فيه، مثل الموقع الوظيفي أو نوع من السلطة أو غيره، وكل ذلك لا قيمة له إن لم تعمل إرادة المرسل على إنجاز التلفظ في سياقه المناسب، لأن إرادة المرسل - كما ذكر - تبقى ركناً أساساً في تداوليته، وقد يظل المرسل حاضراً حتى بعد انتهاء لحظة التلفظ بالخطاب، باقياً ما بقي خطابه خاصة إذا كان مكتوباً^{٧١}، أو حتى مرئياً أو مسموعاً مع اعتماد وسائل الاتصال الحديثة.

ثانياً: المرسل إليه :

وهو الطرف الذي يوجه إليه المرسل - قصداً - خطابه، وله أكبر التأثير على المرسل وقت إنتاج الخطاب، من حيث المستوى اللغوي، مثل: المستوى النحوي في التذكير والتأنيث والعدد، وتجسيده بعلامة لغوية هي إلصاق كاف الخطاب في أسماء الإشارة، وليس هذا فقط فالمرسل إليه دوره في سياق الخطاب، وأثر على الخطاب تداولياً، هذا ما لحظه اللغويون القدماء، ومنهم سيبويه وابن يعيش خاصة فيما يتعلق بالمعرفة اللغوية.^{٧٢}

أما عند البلاغيين فيبرز حال المخاطب كركن أساس في بناء الخطاب وتداوله، فالاهتمام منصب على المرسل إليه دائماً، والحاضر حضوراً عينياً أو ذهنياً، وهو الذي يسهم في حركية الخطاب وتنويعاته، وهو الذي يحدد نوع الاستراتيجية المختارة في الخطاب، يتجلى ذلك أيضاً في استخدام المحسنات البديعية من حيث تأثيرها في المرسل إليه، وبذا يثبت لنا أن استعمالها ليس من قبيل الزخرفة والحلية اللفظية، أو استعراض للمهارات اللغوية بقدر ما هو استراتيجية تأثيرية.^{٧٣}

^{٧١} - انظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل: سلسلة عالم المعرفة، الكويت، د.ط، ١٩٩٢م، ص: ٩٨.

^{٧٢} - انظر: الكتاب، سيبويه: بشر بن عمرو بن قنبر، تح/عبد السلام هارون: مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت، ١/٥٤، المفصل، لابن يعيش، ٣/ ٥٦.

^{٧٣} - انظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية): عبد الهادي الشهري: ص: ٤٨.

ثالثاً: العناصر المشتركة: ٧٤

إن التقسيم للعملية الاتصالية بين المرسل والمرسل إليه لا يعني أن ذلك يتم بمعزل عن محيطها ومعارفها المشتركة وعلاقتها بها وبيعضهما، وهذا ما يحدد استراتيجية الخطاب المناسبة، التي سيهتم بها المرسل دائما لتكون بوصلته ويوصفها محددًا سياقيا يُنجز عملية التواصل وتحقق هدف المرسل من عدمه. ٧٥

وتعد المعرفة المشتركة من العناصر المؤثرة لأنها الرصيد المشترك بين طرفي الخطاب لإنجاز التواصل، فمنها ينطلق المرسل لإنتاج خطابه، وعليها يعول المرسل إليه في تأويله، وهذا ما يمكنهما من الفهم والإفهام، أو الإقناع والاقناع، ويمكن تقسيم هذه المعرفة إلى:

أ- مَعْرِفَةٌ عَامَّةٌ بِالعَالَمِ:

ومنها معرفة كيف يتواصل الناس، وكيف يفكرون، وكيف يستطيعون إنجاز أفعالهم اللغوية داخل المجتمع بما يكتنفه من أطر دينية وثقافية واقتصادية واجتماعية، ويرى (براون ويول) أن " المعرفة التي نملكها كمستعملين للغة تتعلق بالتفاعل الاجتماعي بواسطة اللغة، واللغة ليست إلا جزءا من معرفتنا الاجتماعية-الثقافية " ٧٦

وهذا النوع من المعرفة لا يدعم قدرتنا على تأويل الخطاب فحسب، بل يدعم قدرتنا على تأمل تجاربنا وتأويلها أيضا، والإنسان وفق معرفته الموسوعية المتنامية بشكل مستمر مع التجارب المتلاحقة والتي تشكل أساسا تراكميا منظما لثقافته ووعيه، إنما يستل منها ما يناسب سياق خطابه في تلك اللحظة التلقظية ..! ٧٧

ب- مَعْرِفَةٌ بِنِظَامِ اللُّغَةِ:

هذه المعرفة باللغة تشمل جميع مستوياتها، وما توحى به من دلالات، وعلاقتها بثقافتها،

٧٤- انظر في ذلك: مدخل إلى علم لغة النص. فولفجانج هاينه ديتر فيهفجر، تر/د: سعيد بحيري: ص: ١٢٦، ويقسم هذه المعرفة التي يحتاجها المتكلم في إنتاج النص إلى: معرفة لغوية، معرفة موضوعية أو موسوعية، معرفة تفاعلية.

٧٥- انظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي الشهري: ص: ٤٩.

٧٦- لسانيات النص، محمد خطابي: ص: ٣١١.

٧٧- انظر: السابق: ص: ٣١٢.

ويجب أن تكون معرفتهما اللغوية متقاربة، لأن ذلك مهم في السياق ، ولكي تتم هذه المعرفة اللغوية يجب أن تساندها معرفة تداولية للغة في المجتمع ، بالإضافة للأثر الذي يحدثه التلفظ بالخطابات، بحيث تصبح هذه الخطابات عناصر سياقية للخطابات اللاحقة، مما يمكن من الإحالة عليها، خاصة مع استعمال الضمائر مثل ضمير الغائب، مثلا: (قرأت قصة وقد قدرت قبلا أنها ضحلة، لكن تبين لي لاحقا أنها عميقة وجميلة.)، فتكون إحالة الضمير (هاء الغائب) على القصة الذي هو مدرك من قبل المرسل إليه، ولذلك كان الضمير أخص المعارف عند بعض النحويين^{٧٨}، ولهذا أيضا كانت أسماء الإشارة أعرف المعارف، لأنها تتعرف بالقلب والعين وغيرها يتعرف بالقلب فقط.^{٧٩}

استراتيجية الخطاب:

إن السياق هو الذي يفرز الخطاب، ومع تنوع السياقات تتنوع الخطابات لغويا، وهي عملية تحدث عبر مساق ممتد بين التنوع السياقي والتشكل اللغوي، وهو ما يسمى بـ (استراتيجية الخطاب).
وبالحديث عن استراتيجية الخطاب نحتاج لتحديد مفهوم الاستراتيجية بوجه عام، ثم مفهوم استراتيجية الخطاب بوجه خاص.

مفهوم الاستراتيجية العام:

دخل مصطلح (الاستراتيجية / strategie) كلفظ دخيل على اللغة العربية، واستعمل في شتى المجالات والعلوم الإنسانية، ويتلون تعريفها بها، مما جعل مفهومها كمصطلح مريكا نوعا ما!! وارتبط هذا المصطلح أول الأمر بالمجال العسكري^{٨٠}، حيث الاهتمام بإعداد الخطط الكلية، والتكتيكات التفصيلية الإجرائية، والخداع و المراوغة والانتقائية في استعمال كافة الأسلحة للوصول إلى هدف معين وبالتدرج غالبا، وتوسع استعمال هذا المصطلح حتى صار يطلق على كل عملية عقلية ثم تنفيذية، وفي شتى الاختصاصات، وبمعناها العسكري هي : " علم وفن ينصرفان إلى الخطط والوسائل التي تعالج الوضع الكلي للصراع .. من أجل تحقيق أهداف سياسية"^{٨١}، وأصبح من المألوف أن نسمع ونقرأ عبارة: (هدف استراتيجي موقع استراتيجي، فكر استراتيجي...)، خروجاً على معنى التخطيط الرئيس، أو التدبير المحكم .. إلخ

^{٧٨} - انظر: شرح المفصل، ابن يعيش: ٥٦/٣.

^{٧٩} - انظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي الشهري: ص: ٥٠.

^{٨٠} - انظر: مدخل إلى علم لغة النص: فولفجانج هاينه ديتر فيهفجر، تر/د: سعيد بحيري: ص: ٢٦٩.

^{٨١} - الموسوعة العسكرية، الهيثم الأيوبي وآخرون: المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، ١٩٨١م. ٦٦/١.

ومن الغرب حيث أتى مصطلح (استراتيجية)، يعرفها (ميشيل فوكو) عموماً كالتالي: " تستعمل كلمة استراتيجية عادة بثلاثة معانٍ للتدليل على:

- العقلانية المستخدمة لبلوغ هدف ما.
- الطريقة التي نحاول بها التأثير على الغير.
- على مجمل الأساليب المستخدمة في مجابهة ما لحرمان الخصم من وسائله القتالية وإرغامه على الاستسلام.^{٨٢}

ويلاحظ أن (فوكو) بنظرته للاستراتيجية على أنها ذات معانٍ متعددة، قد راعى تناسبها مع تعدد الأهداف والسياقات المختلفة.

إن تنوع الأعمال التي ينجزها الإنسان بين ثقافية وتجارية ولغوية واجتماعية، تلزم تنوع طرق إنجازها عبر إطار سياق اجتماعي ذي عناصر مؤثرة وذلك لتحقيق هدفه، وهذه الطرق تسمى (استراتيجية).

ومن البدهي فإن الاستراتيجية التي تناسب سياقاً فإنها ليست بالضرورة مناسبة لسياق آخر، ولذلك يكون من الضرورة العمل ذهنياً على انتقاء الاستراتيجية المناسبة، ولأن الاستراتيجيات تتنوع بتنوع العناصر السياقية، فلا بد من البحث عن مفهوم محدد للاستراتيجية وأنواعها والعناصر المؤثرة في انتقائها.

والاستراتيجيات هي طرق محددة لتناول مشكلة ما، أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي مجموعة عمليات تهدف لبلوغ غايات معينة، أو هي تدابير مدروسة من أجل ضبط معلومات محددة والتحكم بها.^{٨٣}، والاستراتيجية بهذا المعنى هي خطة للوصول لتحقيق هدف ما، مما يعني أنها عملية لها بعدان:^{٨٤}

١- ذهني: يعنى بالبعد التخطيطي.

^{٨٢} - انظر: ميشيل فوكو (مسيرة فلسفية)، أوبير دريفوس ويول رابينوف: تر/ جورج أبي صالح. وشروح/ مطاع صفدي: مركز الإنماء القومي، بيروت، د.ت، ص: ٢٠٠.

^{٨٣} - انظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي الشهري: ص: ٥٣.

^{٨٤} - انظر: إشكالات النص (دراسة لسانية نصية)، جمعان عبد الكريم: ص: ١٧٣.

٢- مادي: يعنى بتجسيد هذه الخطة (الاستراتيجية) لتتبلور فيه فعلا، ولا شك أن الفاعل الرئيس هو الذي يقوم بتحليل السياق والتخطيط لفعله، ويضمن تحقيق أهدافه، ويدور هذا التخطيط حول إطارين: ^{٨٥}

الأول: إطار الممكن: ويتضمن كل ما يمكن فعله، أي ما تتيحه الظروف السياقية قبل إجراء أي عملية مقارنة. **الثاني:** إطار المفضل: فيها يعمد الفاعل (المرسل) إلى تحليل كل طريقة للتعرف على إيجابياتها وسلبياتها، ثم الموازنة، واختيار الأفضل لتنفيذه في السياق المؤطر لكل فعل، والأفضل هنا هو الأفضل للسياق المحدد.

ويحكم الاستراتيجية في ذين الإطارين قواعد العمل المنظمة، فلو كان في التعليم ستكون نظم التعليم، أو نظم الإيجار... إلخ، إن تعدد الإمكانيات هو تعدد أوجه الاستراتيجية نفسها كما ذكر آنفا. وهي بذلك عمل عقلي مبني على افتراضات سابقة، تتحقق من خلال أدوات مناسبة للسياق، وبالتالي فهي محاولة للتكيف مع عناصر السياق المحيط بالفعل، وبذا ستكون فعلا ضروريا وشاملا لجميع ميادين الحياة. ^{٨٦}

مفهوم الاستراتيجية في الخطاب:

من المؤكد ألا خطاب بدون سياق معين، ودون استعمال العلامات المناسبة، فقد تستعمل اللغة الطبيعية أو غير اللغوية لممارسة الخطاب، وقد يوصف بأنه نوع من السلوك، مهما تنوع تصنيفه بين المتأدب والعدواني والمتملق.... إلخ.

وعلى الرغم من عدم استغناء التواصل عن اللغة الطبيعية فإنه لا يتوقف عليها فقط، سواء كان استعمال اللغة مكتوبا أو شفاهة. ^{٨٧}، ولبلوغ هذا الهدف يستعمل الناس اللغة بطريقة منظمة و متناسقة مع مقتضيات السياق، هذا التناسق قد يكون مصدره انتماء الناس إلى جماعات اجتماعية، تجعلهم ينسجمون في سلوك عام ومتوقع داخل الجماعة، أو لأن الناس الذين ينتمون لمجتمع لغوي واحد يشتركون في رؤية واحدة أو متشابهة للعالم، أو يشتركون في معارف غير لغوية، ويتجلى هذا

^{٨٥} - انظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) عبد الهادي الشهري: ص: ٥٣.

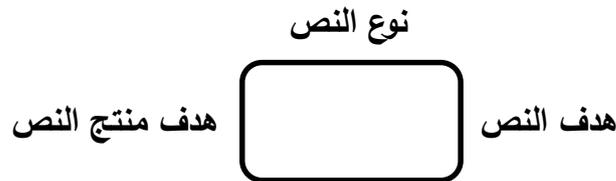
^{٨٦} - المرجع نفسه: ص: ٥٥.

^{٨٧} - انظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية): عبد الهادي الشهري: ص: ٥٦.

التنظيم عند التلفظ بالخطاب فيما يسمى باستراتيجية الخطاب، مما يعني أن هذا الخطاب المنجز مخطط له بصفة مستمرة وشعورية وهذا ما يجعل المرسل في حاجة ماسة لاختيار استراتيجية مناسبة توصله إلى هدفه.^{٨٨}

وفي علم اللسانيات التداولية، تعرّف الاستراتيجية بأنها: "نتيجة سلسلة من عمليات - اختيار واتخاذ القرار - تجري بوعي في العادة، تُعلم من خلالها خطوات الحل ووسائله لتنفيذ أهداف تواصلية."^{٨٩} وهذا التعريف للاستراتيجية يجعل من عملية التواصل بؤرة له، ولذا يقوم بتوضيح ذلك لاحقا بقوله: "ومن ثمّ تعرّف الاستراتيجيات التواصلية دائما من خلال أهداف معينة - مستنبطة من التفاعل؛ فهي إذن تستند إلى حال مستقبلية، يطمح إليها التفاعل، ويرتبط (بمكون الهدف) هذا تنشيط أنظمة معرفية معينة - وتمثيلات - نماذج عقلية، واستحضار آراء خاصة، وأوجه إقناع ومواقف، والإعلام بالقيود الموقفية للفعل التواصل المخطط له، وبوجه خاص التوجيه المستمر لكل الأنشطة الإدراكية إلى الوظيفة الممكن توقعها للنص المخطط له في التفاعل"^{٩٠}

وهذا التوضيح يحيل بلا موارد إلى كل ما يحيط بعملية إنتاج الخطاب، من الهدف الذهني حتى التفاعل العملي، وما يستلزم ذلك من مكونات تعين على تحقيق ذلك، وأهمها هذه الاستراتيجية المتوخاة والمتنوعة لتناسب كل هدف اتصالي تفاعلي، وباختصار يتوجب النظر في نوع النص، وهدف إنتاجه، ومنتجه ومستقبله، لإنتاج استراتيجية مناسبة، ويُقترح ما يسمى بـ (مربع استراتيجيات الخطاب):^{٩١}



ملاعمة أساليب الاستراتيجية لمستقبل النص

^{٨٨} - انظر: النص والسياق، فان دايك، تر/ عبد القادر قنيني: ص: ٢٥٨.

^{٨٩} - مدخل إلى علم لغة النص، فولفجانج هاينه ديتر فيهفجر، تر/د: سعيد بحيري: ص: ٢٦٩.

^{٩٠} - نفسه: ص: ٢٧٠.

^{٩١} - إشكالات النص (دراسة لسانية نصية)، جمعان عبد الكريم: ص: ١٨٥.

ولا شك أن عناصر السياق الاجتماعية تتدخل في تحديد استعمالات اللغة، وبالضرورة في انتشار بعض الاستراتيجيات على حساب أخرى، مثل استراتيجية التأدب مقابل استراتيجية الجفاء، أو استراتيجية المراوغة مقابل استراتيجية الدبلوماسية.

ولإجراء هذه الاستراتيجية أو تلك مع الآخرين يجب أن يمتلك المرسل كفاءة تفوق كفاءته اللغوية يمكن تسميتها بالكفاءة التداولية.^{٩٢}

الكفاءة التداولية:

تُعدُّ الكفاءة التداولية صنو الكفاءة اللغوية، وركنا أساسا في العملية التواصلية، و يعدها (ديك) ركيزة ثالثة إلى جانب علمي النحو والدلالة فيما يسمى بـ "علم العلامات"^{٩٣}.

يحدد (ديك) في حديثه عن النحو الوظيفي وكيفية استعمال العبارات في التواصل اللغوي: ". أنه يجب ألا نتعامل مع العبارات اللغوية على أساس أنها موضوعات منعزلة بل على أساس أنها وسائل يستخدمها المتكلم لإبلاغ معنى معين في إطار سياق تحدده العبارات السابقة وموقف تحدده الوسائط الأساسية لموقف التخاطب"^{٩٤}

ويؤكد (ديك) على أن التداولية/البراغماتية تدرس "العلاقة بين النص والسياق"، والسياق هو ما يمكن أن نطلق عليه: "موقفا اتصاليا"^{٩٥} ومن هنا أصبحت الكفاية الاتصالية تقاس بالوعي التداولي الذي يتحلى به المتكلم/المرسل، ويجعل منطوقا ما ناجحا في سياق اتصالي معين.^{٩٦}

وهناك على الأقل ملكات خمس تتكون منها الكفاءة التداولية كما يذكرها (ديك)، وهي: الملكة اللغوية، الملكة المنطقية، الملكة المعرفية، الملكة الإدراكية، الملكة الاجتماعية. ولـ (ديك) تعريف لهذه الملكات ويرى أن مستعمل اللغة الطبيعية يستطيع أن:^{٩٧}

^{٩٢} - انظر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي الشهري: ص ٥٦.

^{٩٣} - انظر: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، تون أ.فان دايك، تر/د: سعيد بحيري: ص: ١١٥.

^{٩٤} - نفسه: ص: ١٤٤. وأيضا: التركيبات الوظيفية قضايا ومقاربات، أحمد المتوكل: دار الأمان، الرباط، ط ١٤٢٦، ١٠٥/هـ ٢٠٠٥ م. ص: ٥٠.

^{٩٥} - السابق: ص: ١١٦.

^{٩٦} - انظر: النص والخطاب والاتصال، محمد العبد: ص: ٦٥.

^{٩٧} - انظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص)، أحمد المتوكل: ص: ٣٦-٣٧.

- ينتج ويؤول تأويلا صحيحا عبارات لغوية ذات بنيات متنوعة ومعقدة في تنوع من المواقف التواصلية المختلفة، وهذه هي الملكة اللغوية.
 - يشتق معارف أخرى بواسطة قوة الاستدلال المحكومة بالمنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي، وذلك على أساس ما عنده من معارف قبلية، وهذه تسمى بالملكة المنطقية.
 - يكون رصيذا من المعارف المنظمة، ويشترك معارفه من العبارات اللغوية نفسها، وأن يختزن هذه المعارف في الشكل المطلوب ومن ثم يستدعيها ليستعملها في تأويل العبارات اللغوية، هذا ما يشكل الملكة المعرفية.
 - أن يدرك محيطه، ويشترك من إدراكه ذاك معارف، وأن يستعمل هذه المعارف في إنتاج العبارات اللغوية وإنتاجها، وهذه هي الملكة الإدراكية.
 - يعرف ماذا يقول؟ وكيف يقوله لمخاطب بعينه في سياق موقف اتصالي معين لتحقيق أهداف تواصلية معينة، وهذه هي الملكة الاجتماعية.
- ويقترح قوالب ستة لهذه الملكات، هي: القالب اللغوي (النحوي)، القالب المعرفي، القالب الاجتماعي، القالب المنطقي، القالب الإدراكي، القالب التداولي، ويقترح المتوكل قالبا سابعا يسميه القالب (الشعري) أو (التخييلي) يضطلع بوصف الخصائص الفنية.^{٩٨} ويمكن تقسيم هذه القوالب إلى قسمين: ما يمثل القدرة اللغوية، ما يمثل السياق.^{٩٩}
- أما القرطاجني فيجد الملاحظ نقطة تقاطع له مع هذه الملكات يسميها بالقوى، وهي عنده قوى ثلاث: القوة الحافظة، القوة المائزة، القوة الصانعة.^{١٠٠}
- فالقوة الحافظة تماثل الملكة المعرفية، والقوة المائزة هي التي تماثل الملكة الإدراكية، والقوة الصانعة تماثل الملكة اللغوية.

^{٩٨} - انظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية - بنية الخطاب من الجملة إلى النص. أحمد المتوكل، دارالأمان، الرباط، ٢٠٠١ م. ص: ٣٨-٣٩، و ٢٥٩.

^{٩٩} - انظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري: ص: ٥٨.

^{١٠٠} - منهاج البلاغ وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ)، تح/محمد الحبيب خوجة: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨١ م، ص: ٤٣-٤٢.

كل هذه الملكات أو تلك القوى على تفاوت في أدوارها، هي لإنتاج خطاب موافق للسياق ومحقق للأهداف، واستثمار هذه الملكات بوصفها عناصر مكونة للكفاءة التداولية.^{١٠١}

يقول (ديتمار) في تعريفه للكفاية الاتصالية بأنها " قدرة الأفراد على أن يتصل أحدهم بالآخر في ظروف محددة موقفاً ومعيارياً: لغوية ونفسية واجتماعية وتداولية." ^{١٠٢}

الكفاءة التداولية مهارة يكتسبها الإنسان وينميها ويتعلمها، ويبني على أساسها خطابه، ويختار بدائله الاستراتيجية في هذا الخطاب على كفاءته تلك، وإليها يرجع تفاوت الناس نجاحاً وإخفاقاً في خطاباتهم، والقدرة على الإقناع بها، وبالتالي كلما اجتهد الإنسان وتدرّب حاز هذه الملكة الاصطناعية كما قال ابن خلدون: " .. أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التركيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة... " ^{١٠٣}

ولذلك يبرز السعي الدائم من قبل الإنسان لتحسين هذه الملكة والارتقاء بها طالما يستخدم لغة وينتج خطاباً، و كان يحيا في مجتمع، له فيه أهداف، ولديه إرادة فعل الكلام، هذا التحسين والارتقاء إنما يبرزان أكثر في قدرته على ابتكار استراتيجيات خطابية ملائمة لسياقات تواصلية مخصوصة تصل به إلى مبتغاه، وبذا تكون استراتيجية الخطاب، هي طريقة التعبير اللغوي/غير اللغوي الأنسب لسياق معين ولمخاطب ما يتخيرها المرسل للتلفظ بخطابه، ولتحقيق أهدافه.

هذا الإنجاز للفعل اللغوي في الخطاب، هو عملية معقدة بلا شك، بين أهداف الإرسال وطريقة التلقي، والتأثير الناتج من ذلك كله ومواءمة هذا بمعطيات سياقية معينة هو ما يغري بدراسة اللغة في استعمالها التداولي..، ويعطيها وظيفتها الاجتماعية المؤثرة على إنتاجها كما يقول (ديك): " .. لأن

^{١٠١} - للتعرف أكثر على طبيعة هذه القوالب ووظيفتها، انظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية-بنية الخطاب من الجملة إلى النص، أحمد المتوكل: ص ١٦٥-٢٦٦.

^{١٠٢} - النص والخطاب والاتصال: محمد العبد: ص: ٥١.

^{١٠٣} - تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ-٨٠٨هـ)، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ١/٦٤٣.

معرفتنا باللغة ما هي إلا نسق ذهني معقد... قد يصاغ عن طريق مقتضيات أثر السلوك المجتمعي وفعاليتيه ، ومن ناحية ثانية يستعمل هذا النسق ويتعدل تحت هذه الضغوط والقيود الاجتماعية^{١٠٤}

وهذه العملية سألقة الذكر من إنتاج الخطاب وكيفية استعماله، هي عملية ذهنية مجردة في المقام الأول، حيث الخيارات متاحة أمام المرسل ، يدرس هذه الخيارات اللغوية وغير اللغوية، ويقرر أيها يختار وفقا لظروف سياقية، لا يُغفل فيها المرسل إليه كركن أساس أيضا، ثم تأتي مرحلة التنفيذ، وهي مرحلة التلفظ بالخطاب، وهي مرحلة عملية، تضع اللفظ موضع التنفيذ، لتتحقق له قوته الإنجازية كفضل، وهذا ما نعنيه بالكفاءة التداولية للمرسل، موظفا ما ذكر آنفا من ملكات وقوى في قوالب ملائمة، وبذا تكون الاستراتيجية هي حصيلة العمليتين معا (الذهنية، التلفظية) في أحد مستويات اللغة أو في أكثر من مستوى، يمثل تلك المستويات المعروفة (الصرفي، المعجمي، التركيبي، الصوتي..).

ولتنجح هذه الاستراتيجية في تحقيق أهدافها على منتج الخطاب (المرسل) أن يراعي السياقات التي ينجز فيها الخطاب، وأهمها ما يسمى بالمعيار الاجتماعي ، حيث تتبلور العلاقة بين طرفي الخطاب والمعرفة المشتركة بينهما، وفيما لو كانت العلاقة قائمة قبل الخطاب أم بعده، ونوع العلاقة في محوري العلاقة: الأفقية، العمودية، ففي الأولى نتبين علاقات على مستوى الدين والجنس والسن، وخصائص العرق (عرب أو غيرهم)، والجنسية: (سعودي، مصري، أمريكي)، وكذلك خصائص الحالة الاجتماعية: (متزوجون، عزاب، فقراء، أغنياء، أيتام)، والخصائص المهنية: (عسكريون، مدنيون، طلاب، أساتذة، عمال)، ويدخل في ذلك أيضا نوع العلاقات العاطفية بينهما، كل ذلك يؤثر على إنتاج الخطاب، إرساله وتأويله واستراتيجيته.

أما على مستوى العلاقة العمودية، فهناك مستويات تراتبية متفاوتة يحتلها الناس سواء على صعيد المكانة الاجتماعية أو الوظيفية، حيث يقع كل طرف من طرفي الخطاب في إحداها، وهذا ما يستحضره المرسل ويؤثر تأثيرا مباشرا على اختياره لاستراتيجية خطابه، واللغة المستخدمة فيه بكافة مستوياتها، وتخيره لقواعد الخطاب متناسبة مع دين المعيارين المتداخلين هي ما تكفل للخطاب تحقيق أهدافه.^{١٠٥}

^{١٠٤} - النص والسياق، فادن ديك، تر/ عبد القادر قنيني: ص: ٢٢٧-٢٢٨.

^{١٠٥} - انظر بتوسع في: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري: ص: ٨٦ وما بعدها.

ومن حيث شكل الخطاب فقد يتخير المرسل إحدى استراتيجيتين لتنفيذ خطابه كل ذلك بدوافع سياقية: الاستراتيجية المباشرة، الاستراتيجية غير المباشرة (التلميحية).^{١٠٦}

وفي الاستراتيجية المباشرة، يستلزم المرسل الدلالة الحرفية في منجزه اللغوي، بينما يتجوز في هذه الدلالة الحرفية للخطاب في الاستراتيجية التلميحية، وقد يفضل أحدهما على الأخرى في سياق معين، وعلى كل فإن المرسل ينتقي أدوات لغوية وآليات تعبيرية، لينفذ بهما تين الاستراتيجيتين وعلى أي مستوى من مستويات اللغة المعروفة.^{١٠٧}

إن الغرض من اختيار استراتيجية ما للخطاب، هو تحقيق لهدف نصب عيني المرسل، الذي من أجله أنتج خطابه وتلفظ به، وهذا ما يجعل الهدف من أكثر عناصر السياق فاعلية في إنتاج الخطاب، بل وفي كل نشاط إنساني تواصلية.

وللهدف مستويان: نفعي، كلي، المستوى النفعي: هو الهدف الأصلي الذي يرمي المرسل إلى بلوغه وتحقيقه، سواء كان هدفا اجتماعيا في المصالحة بين أشخاص، أو عسكريا في التغلب على العدو واستسلامه، أو اقتصاديا كأن يصبح البلد عضوا في منظمة عالمية مؤثرة.. إلخ

أما المستوى الكلي: فيمثل الفعل اللغوي الذي يقوم به المرسل إبان التلفظ بالخطاب، سواء نجح في الوصول إلى الهدف النفعي أم لا، لأن هذا المستوى الكلي هو وسيلته لتحقيق الهدف النفعي.

وعلى ذلك فللههدف الكلي أهميته، حيث قد يحقق به ومن خلاله أكثر من هدف نفعي، ما ينعكس على تسمية استراتيجية الخطاب به، حيث تكون استراتيجية إقناع أو اعتذار أو تبرير، بغض النظر عن موضوع الخطاب نفسه، إن كان اجتماعيا أو سياسيا أو دينيا، وقد يستغل في ذلك كل الطاقات التعبيرية للغة لتحقيق هذا الهدف، ولذا يبقى جاهدا مركزا على هذا التوسل اللغوي حتى وإن لم يتحقق الهدف النفعي، على الرغم من أن المرسل لا يصرح بهذا الهدف تصرّحا مباشرا، بل ينجزه عبر استراتيجيات مختارة، فهو لا يقول للمرسل إليه: أنا أريد إفحامك، أو التغلب عليك أو إقناعك، إلا إذا اضطر إلى ذلك.^{١٠٨}

وتلخيصا لما ورد سابقا يذكر (ديك)، أنه لإنجاز الفعل في الخطاب، يجب أن تتحقق:"

^{١٠٦} - انظر أيضا: النص والخطاب والاتصال، محمد العبد: ص: ٢٩١-٢٩٢.

^{١٠٧} - انظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري: ص: ١١٧.

^{١٠٨} - المرجع السابق: ص: ١٤٩ وما بعدها.

- معرفة العالم الذي تؤول فيه العبارات. - ومعرفة المقامات المتنوعة للسياق. ومعرفة اللغة المستعملة.^{١٠٩}

وتأييدا لذلك يرى(سيرل): " أن الفعل الإنجازي هو وحدة الاتصال الإنساني باللغة"، وهو " الوحدة الأولية لمعنى الجملة، وهو الوحدة الأولية للاتصال" على رأي (دانيال فندرفيكن).^{١١٠}

إن فللههدف دوره في إنجاز الخطاب، وكذلك قدرة المرسل وسلطته المادية أو المعنوية على المرسل إليه، من حيث قدرته على إصدار الأوامر والنواهي المتضمنة في الخطاب، سواء كان يمتلك هذه السلطة قبل الخطاب، أو يسعى لامتلاكها بالخطاب نفسه، أي بالمنجز اللغوي، والمرسل إليه الذي قد يمتلك سلطة على المرسل برتبته الاجتماعية أو الوظيفية، والمرسل أيضا لا يستطيع التغافل عن سلطة أكبر هي سلطة المجتمع، وما يسمح به وما لا يسمح به من ألفاظ حين استعمال اللغة، أو حتى الموضوعات التي يتناولها الخطاب، ولذلك كله أثره في اختيار استراتيجية ما أو العزوف عنها.^{١١١}

وبشكل عام تبنى استراتيجية الخطاب الاجتماعي على محددتين: علاقة طرفي الخطاب ببعضهما، ومقدار السلطة عند كليهما، وعلى هذا الصعيد يتفرع منهما نوعان من الاستراتيجيات: (الاستراتيجية التضامنية، والاستراتيجية التوجيهية)، وقد ربط بعض الباحثين بين استعمال إحدى تين الاستراتيجيتين وبين سلطة المرسل.^{١١٢}

ونستطيع القول أن تين الاستراتيجيتين متناسبتان عكسيا، فنظريا كلما قلت سلطة المرسل اتجه إلى استعمال الاستراتيجية التضامنية، والعكس صحيح!!..

إن.. هناك عوامل كثيرة سياقية وغيرها هي التي تحدد نوع الاستراتيجية المتوخاة، التي ليست بالضرورة استراتيجية واحدة، بل عدة استراتيجيات، ينوع استخدامها المرسل، بل وابتدعها أحيانا بحسب المستجدات في عملية التواصل، التي تنتهي به دون شك إلى هدفه المنشود، وأيا كانت الاستراتيجية المتوسطة فإن لاستراتيجية الإقناع الكعب والسبق!!..

^{١٠٩} - النص والسياق، فادن ديك، تر/ عبد القادر قنيني: ص: ٢٦١-٢٦٢.

^{١١٠} - النص والخطاب والاتصال، محمد العبد: ص: ٢٨٦-٢٨٧.

^{١١١} - انظر تفصيل ذلك في: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري: ص: ١٨١ وما بعدها.

^{١١٢} - المرجع نفسه: ص: ٢٣٦ وما بعدها.

وبعد.. فقد كانت هذه وقفة سريعة مع الخطاب، وإطلالة عامة، إذ ليس القصد هو التفصيل في كل ما يتعلق بالخطاب، بقدر ما هي نظرة عامة يرتجى منها أن تحقق مرتكزا لهذه الدراسة، وإلا لطلال المقام، فإن مروراً سريعاً على مفهوم الخطاب وسياقه واستراتيجيته وما يجب أن يتوافر في منتجه ومستقبله من كفاءة تداولية تمضي به قدما نحو هدفه المرجو من إنشائه، كان من الضرورة بمكان ليكون مهادا وبيئة تتخلق فيهما الظاهرة الأسلوبية المتوخاة في نصوص هذه الدراسة.

ونختم هذه الوقفة بما ختم به (روبرت دي بوجراند) في فصله الأول من كتابه النص والخطاب والإجراء، ناقلا ما قاله (أوتويسبرسن) منذ ما يجاوز النصف قرن ومؤكدا على الوظيفة الإنسانية والاجتماعية للغة وهدفها الاتصالي: " جوهر اللغة الإنسانية هو النشاط الإنساني، نشاط الفرد ليكون مفهوما لدى الآخر، ونشاط الآخر ليفهم ما كان في ذهن الأول، هذان الشخصان.... وعلاقة كل

منهما بالآخر لا ينبغي أن تُنسى أبدا إذا أردنا أن نفهم طبيعة اللغة. " ١١٣

١١٣- النص والخطاب والإجراء. روبرت دي بوجراند. تر/تمام حسان. عالم الكتب. القاهرة. ط. ٢. ٢٨٤٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧ م. ص ١٢٦. (أ.تو . يسبرسن) (١٨٦٠م-١٩٤٣م) الدنماركي اسمه الكامل ينس أ.تو هاري Jens Otto Harry Jespersen عالم لغات linguist وعالم صوتيات phonologist دنماركي وحجة بارزة عالمياً.

ثانياً

مَصَادِمُ الْخِطَابِ الشَّرِيَّةِ فِي سِيَاقِ الْحَرْبِ

بَعْدَ تَحْدِيدِ فِكْرَةِ الْبَحْثِ وَ مَوْضُوعِهِ، يُلْحَقُ سُؤَالَ مُهِمٍّ: أَيْنَ نَجِدُ مَادَّةَ الْبَحْثِ..؟؟ وَ نَعْنِي بِهَا
النُّصُوصَ الَّتِي تَكُونُ الْأَسَاسَ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الدِّرَاسَةُ..؟؟!!

لَيْسَ هُنَاكَ - فِي نِطَاقِ رِصْدِ هَذَا الْبَحْثِ - مُصَنَّفٌ بِعَنْوَانِ (نَثْرَ الْمَرَأَةِ فِي سِيَاقِ الْحَرْبِ)، وَ لِيَذَا
فَهُنَاكَ وَعَيٌّ أَنَّ الْإِقْدَامَ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ النَّثْرِيِّ إِنَّمَا يَتِمُّوعُ بَيْنَ السِّنَانِ وَالسِّنَانِ، وَتُعْتَلِي هَذِهِ اللَّجْجُ
وَ قَدْ عَلِمَ عِلْمٌ يَقِينٌ أَنَّ اصْطِيَادَ هَذِهِ الدَّرْرِ الْمَكْنُونَةِ يَحْتَاجُ إِلَى غَوْصٍ عَمِيقٍ فِي أَعْوَارِ الْمَكْتَبَةِ التَّرَاثِيَّةِ
بِشَقِيئِهَا الْعَامِّ وَالْخَاصِّ، أَمَّا الْعَامُّ فَيُقْصَدُ بِهِ كِتَابُ التَّارِيخِ وَ الْمَغَازِي وَ السِّيَرِ وَ الْحَدِيثِ وَ كِتَابُ الرِّجَالِ وَ كِتَابُ
الْأَدَبِ وَ التَّرَاجِمِ الْعَامَّةِ، وَأَمَّا الْخَاصُّ فَهُوَ مَا جَمَعَ أَخْبَارَ النِّسَاءِ، فَهُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي جَمَعَتْ
أَخْبَارَ النِّسَاءِ فِي شَتَّى الْمَجَالَاتِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَصْنَفْ فِي الْمَوْضُوعِ الْمَنْظُورِ فِي هَذَا الْبَحْثِ .. وَإِنْ كَانَ
الْجُهْدُ يَنْسَقِطُ مَوَارِدَ مَا يَخْصُ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ فِيهَا..، وَيَعْلَمُ عِلْمٌ يَقِينٌ أَيْضًا أَنَّ لَيْسَ فِي كُلِّ صَدْفَةٍ دُرَّةٌ
، الْأَمْرُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى جَهْدٍ مُضَاعَفٍ..!!

وَ قَدْ أَظْهَرَ الْإِسْتِقْرَاءُ الْأَوَّلِيُّ ثَمَّ الْبَحْثُ وَ التَّنْقِيبُ الدَّقِيقَانِ أَخْبَارًا مُتَوَاتِرَةً، وَمَقُولَاتٍ مُتَكَرِّرَةً، يَخْتَلِفُ
فِيهَا اللَّفْظُ أحيانًا وَيَتَّفِقُ كَثِيرًا فِي أَحْيَانٍ أُخْرَى، فَقَدْ احْتَفِظْنَا لَنَا التَّارِيخُ بِنَقُولَاتٍ لِأَجْمَلِ مَا قَالَتْهُ النِّسَاءُ
مِنْ صُورٍ بَلَغَتْهُنَّ وَنَمَازِجٍ مِنْ بَرَاعَتِهِنَّ وَنَوَادِرِهِنَّ فِي ذَلِكَ..!! وَ لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا هُوَ مَا أَفَلَّتْ مِنْ قَبْضَةِ
الزَّمَنِ وَالنِّسْيَانِ وَالضِّيَاعِ، وَهُوَ أَيْضًا صُورَةٌ مِنْ صُورِ إِعْجَابِ الرَّجُلِ بِبَعْضِ مَا قَالَتْهُ الْمَرَأَةُ فِي هَذَا
السِّيَاقِ، وَ قَدْ تَكُونُ هَذِهِ الذَائِقَةُ الْإِنْتِقَائِيَّةُ قَدْ أَسْقَطَتْ بِدَوْرِهَا الْكَثِيرِ مِمَّا لَا تَلْتَمَسُ فِيهِ مَا يَعْجَبُهَا أَوْ
يَشُدُّ انْتِبَاهَهَا إِنْ كَانَ بِقَصْدٍ أَوْ بَغَيْرِ قَصْدٍ .. وَ لَذَا نَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ إِنَّ هَذِهِ الْمَوَاقِفَ اتَّسَمَتْ بِالنَّوْعِيَّةِ
وَالتَّنَوُّعِ فِي مَعْظَمِهَا ..!!

وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ أَنْ نَرْتَحِلَ فِي كِتَابِ الْأَخْبَارِ، الْمَغَازِي وَ السِّيَرِ، أَيَّامَ الْعَرَبِ. الْمَوْفُوفَاتِ
الْمَوْسُوعِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ، لِلتَّنْقِيبِ عَمَّا يَخْصُ خُطَابَ الْمَرَأَةِ فِي سِيَاقِ الْحَرْبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَ صَدْرِ
الْإِسْلَامِ.

وَ مِنْ أَهَمِّ مَا يُسْتَقْصَى فِي هَذَا الْمَجَالِ الْمَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ الْعَامَّةُ، وَ مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا
الْحَصْرِ:

- أَسَدُ الْغَايَةِ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْكَرَمِ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْأَثِيرِ. الْمَجْلَدُ الْخَامِسُ، كِتَابُ
النِّسَاءِ، وَرَدَ ثَبَتَ لِأَسْمَاءِ النِّسَاءِ وَفْقَ التَّرْتِيبِ الْهَجَائِيِّ مَعَ لَمْحَةٍ عَنْهُنَّ.

- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي العسقلاني المعروف بابن حجر (٧٧٢-٨٥٢ هـ). في خمسة أجزاء، الجزء الخامس هو كتاب النساء، وثبت وفق حروف الهجاء .

- تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، ط ١، حيدر آباد، ١٣٢٧ هـ. في المجلد المختص بالنساء.

- الطبقات الكبرى: محمد بن سعد، الجزء الثامن يختص بالنساء. وغيرها كثير...

ومن كتب التاريخ مثل:

تاريخ الرسل والملوك للطبري، الكامل لابن الأثير، وفيات الأعيان لابن خلكان، نفع الطيب لأحمد المقري.. البداية والنهاية لابن كثير، ومقدمة ابن خلدون مختصر تاريخ دمشق . لابن منظور، المُنَمَّقُ فِي أَخْبَارِ قُرَيْشٍ: محمد بن حبيب البغدادي.... إلخ.

وكتب السير مثل:

سيرة ابن إسحاق، سيرة ابن هشام، السيرة الحلبية....، وكتب المغازي وأبرزها: مغازي الواقدي، وفتوح الشام للواقدي أيضا.

ودوائر المعارف كـ " دائرة المعارف " لبطرس البستاني... إلخ.

وكتب الأدب العامة ومنها:

البيان والتبيين للجاحظ، الأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربّه، نثر الدر للآبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي. نهاية الأرب في فنون الأدب. للنويري، التعازي والمراثي للمبرد، زهر الآداب وثمار الألباب، للحصري. خزنة الأدب لابن حجة الحموي، إصلاح المنطق لابن السكيت، المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، شعراء النصرانية قبل الإسلام، الأب لويس شيخو.... إلخ... وغيرها كثير يكتبي بما ذكر ...

وكتب الأمثال منها:

الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، مجمع الأمثال للميداني، أمثال العرب. للمفضل، المستقصى، للزمخشري، تمثال الأمثال. للعبدي الشيبلي. كتاب الأمثال، الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي.

- ولا نغفل كتب الحماسات ك: حماسة أبي تمام وحماسة الخالدين، والحماسة البصرية، ثم تلك الكتب الحديثة التي تحدثت عن الوقائع والحروب في الجاهلية والإسلام: مثل:
- أيام العرب في الجاهلية، أيام العرب في الإسلام. لـ " محمد أحمد جاد المولى. علي محمد البجاوي. محمد أبو الفضل إبراهيم" المكتبة العصرية. بيروت. ١٩٦١م. أما الثاني في - ١٩٧٣م. ط٤.
- ومن البدهي أيضاً الرجوع إلى الكتب التي جمعت الخطب البليغة من نوع: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة في ثلاثة أجزاء لأحمد زكي صفوت. عن دار المكتبة العلمية. بيروت. ١٩٣٣-١٩٣٤م.
- المصادر والمراجع الخاصة ونعني بها كتب تراجم النساء وما يقوم مقامها، ومن أمثلة ذلك :
- . بلاغات النساء: للإمام أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور. "٢٠٤-٢٨٠هـ" يقع في ٣٠٩ صفحة. المكتبة العصرية. بيروت. ٢٠٠١م.
- . أخبار النساء: ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) شرحه وحققه الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠. هذا الكتاب أشبه بالمجموعة، فهو يذكر نقولات حول المرأة، لذلك فانه لا يشبه كتب التراجم .
- . الاستيعاب: لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة، في أربعة أجزاء.
- . أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام: عمر رضا كحالة، هذا الكتاب ترجمة لنساء عالمي الإسلام والعرب، مرتبة بحسب الحروف الهجائية، ويعد من أجمع كتب التراجم.
- . تراجم أعلام النساء: محمد حسين الأعلمي الحائري، الجزء الثاني، هذا الكتاب مرتب على الحروف الهجائية، ويضم نقولات طويلة وقصيرة بالعربية والفارسية، بعد مقدمة مطولة تتناول ما يتعلق بالمرأة وتستغرق نصف المجلد الأول .
- . الروضة الفيحاء في تواريخ النساء: ياسين بن خير الله العمري، ١٢٣٢هـ.
- . تراجم سيدات بيت النبوة: عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ.
- . معجم أعلام النساء" المسمى " الدر المنثور في طبقات ربات الخدور" زينب بنت علي بن حسين فواز العاملي (ت ١٣٣٢هـ) تحقيق: منى محمد زياد الخراط.
- وهناك غير هذه الكتب بلا شك، وقد يلحظ أنّ اللاحق منها يأخذ من السابق في كثير من الأحيان، فبعضها جمع لما جاء من أخبار النساء فيها بعثه وسمينه أحياناً، وبعضها ينتقي ويصنّف وفق

أيديولوجيا معيّنة أو وجهة نظرٍ موجّهةٍ ، بعضها انتصاراً للمرأة ، وأخرى للتسلي والتسري ، وبينهما أطرافٌ من المواقف المختلفة ، ولكن هذه القراءة تتوقفُ عند خطابِ النثرِ للمرأة في سياقِ الحربِ لا لنقائيلِ به الخطابِ الذكوريِّ، أو نثرِ النساءِ مقابلِ نثرِ الرجالِ ، بل لأنه خطابٌ قائمٌ على خصوصيةِ التجربةِ وطرافتها ، ولندرةِ الدّراساتِ الأسلوبيةِ التطبيقيةِ لخطابِ النثرِ عموماً ولنثرِ النساءِ بصفةٍ خاصةٍ ... إذ إن الاستقراءَ الأوليَّ قد شحَّ علينا بالأمرين معاً...!!

وربما يأتي في طليعة هذه الكتب كتب الأخبار وأيام العرب، يقول ابن الأثير: " وأما أيام العرب فإنها تتنوع وتتشعب، فمنها أيام فخر، ومنها أيام محاربة، ومنها أيام منافرة، ومنها غير ذلك، ولا يخلو الناظم والناثر من انتصاب لوصف، ليوم يمر به في بعض الأحوال شبيها بيوم من تلك الأيام، ومماثلاً له، فإذا جاء بذكر بعض تلك الأيام المناسبة لمراده الموافقة له، وقس عليه يومه، فإنه يكون في غاية الحسن والرونق...^{١١٤}

وكتب الأخبار تعد مصدرًا رئيسًا للنثر العربي بأنواعه، كما يذكر بروكلمان، حيث يعزي إليها حفظ هذا التراث النفيس في ثنايا السرد القصصي: " وليست هناك بطبيعة الحال تسجيلات معاصرة لهذه الأقاليم والمسامرات، ولكن تقييدات قداماء اللغويين والأدباء تعكس لنا روحها وطبيعتها بأمانة ودقة، ولاسيما كتاب الأغاني وما شابهه من كتب الأدب. وكان القصص يستمدون قصصهم تارة من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، وتارة أخرى من الأخبار والأحاديث الخرافية والتاريخية المأثورة العرب أنفسهم وعمن جاورهم... وكانت أحب القصص إلى النفوس أخبار أيام العرب "^{١١٥}

ويعطي هذه الأهمية للأمثال أيضا من حيث حفظها ونقلها لأحداث حياة العرب ووقائعهم في ثنايا القصة التي ينطوي عليها المثل، يقول: " كذلك يمكن عد الأمثال من بقايا أقدم النثر العربي، لما يبدو من أن بعضها كان سائرا مشهورا في الجاهلية، وكثيرا ما تشير هذه الأمثال إلى أحداث ووقائع معينة حصلت قديما، ولكنها انطوت في زوايا النسيان. " ^{١١٦}.

وعلى أي حال فهي نصوص متناثرة مندسة في ثنايا كتب متنوعة وكثيرة وفي زواياها البعيدة، يحتاج العثور عليها إلى إخلاص جهد وكثير عناء.

^{١١٤} - المثل السائر في أدب الشاعر والناثر، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير، (٥٥٨هـ -

٦٣٧هـ) تح/ محي الدين عبد الحميد: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، دت: ١/ ٢٤.

^{١١٥} - تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان: تر/ عبد الحليم النجار: دار المعارف، القاهرة، طه، دت. ١/ ٢٨.

^{١١٦} - المرجع نفسه: ١/ ٢٩.

ثالثاً:

أنماط الخطاب النَّشْرِيّ ودوره في سياق الحرب

النثر أحد قطبي الإبداع الأدبي، يتقاسمه مع الشعر، وإن كان الشعر هو المنظوم، تشبيها له بمنظوم اللؤلؤ ومنضود الجواهر، فالنثر هو هذا اللؤلؤ منثور، ولطالما شاع عند كثير من المشتغلين بالأدب أن الشعر أفضل من النثر، ولسنا هنا بصدد الموازنة بينهما وقد تناول هذا الجانب نقاد وأدباء قدماء ومحدثون.

تعد أنواع الخطاب النثري أنماطا للقول لكل منها بناؤه الخاص، وعندما نتحدث عن سياق مخصوص كسياق الحرب فإن هذه الأنماط ستتأثر بهذا السياق وتتلون به وتعبّر عنه أيضا.

ويجب التنويه مرة أخرى إلى أن هذه الدراسة اتخذت من الخطاب الشفهي في سياق الحرب موضوعا لها في مقولتها النقدية، ولهذا التنويه وجاهاته، فكونه خطابا شفهيًا، هو خطاب يحمل خصائص الخطاب الشفهي، يحمل دائما حرارة الموقف الاتصالي والسياق الذي أفرزه، وبداهة العقل الذي أنتجه، وكونه في سياق الحرب فهذا يخلق أجواءً نفسية واجتماعية ويتخلق فيها، حيث ينصهر الكل في بوتقة لحظة حاسمة هي مفصل بين الموت والحياة بالمعنى المادي والمعنوي.

إن النظر إلى هذه النصوص هو في إطار النشاط الإنساني، وحيث تعدّ "اللغة نظاما وظيفيا وديناميا هدفه يكمن في تحقيق نشاط لغوي اتصالي والنشاط اللغوي... نشاط اجتماعي للبشر"^{١١٧}، يتفاعل الجميع في نشاط تعاوني جوهره هو الحوار أو المحادثة، التي هي ليست نتاج فرد واحد، بل حصيلة هذا التفاعل والنشاط الجمعي للوصول إلى هدف منشود، وهذا البحث يقتطع من هذا الحوار مقولة المرأة وقولها، حيث يكون ذلك كمرآة تشف ما عداها وتتفاعل معه في آن.

واعتمادا على كون الخطاب (كل تلفظ ..)، كما يقول (سيس و دياكيت) أنه: " كل لفظ - كلمة أو أكثر - يُنتقى بالنظر إلى شروط إنتاجه"^{١١٨} نجد أن هناك تنوعا وتعددا في الخطابات الشفوية التي تتراوح من الخطابات الحيوية والمباشرة في الحياة اليومية إلى نمط الخطب الذي فيه تتجلى آية الإبداع الشفوي، ولا شك أن ما يدخل في إطار هذه الدراسة هو الخطاب الأدبي وليس أي كلام نثري.

والملاحظ أن معظم خطابات المرأة في هذا السياق جاءت في إطار السرد القصصي المبسط، وفي إطار حوارية ما، وغالبا ما يكون عبارة أو عبارات قصيرة موجزة.

^{١١٧} - مدخل إلى علم لغة النص: فولفجانج هاينه ديتر فيهفجر، تر/د: سعيد بحيري: ص: ٨٩.

^{١١٨} - انظر: الحد بين النص والخطاب. ربيعة العربي: ص: ٣٨.

وقد بدا أن معظم خطاب المرأة وفي مقطوعاته القصيرة هو خطاب إخباري تبليغي من الدرجة الأولى في مظهره، توجيهي أحيانا أخرى، لكن أهدافه التواصلية العامة طافحة دائما على السطح ، قد يأتي ذلك في سياق السرد القصصي المبسط كأحد عناصر الخطاب ، حيث تروي المرأة ماضيا كان أو مستقبلا متوقعا، غالبا يرتكز على حدث واحد، كإدراك الثأر، وعلى شخص واحد يتنازع المشهدية التي غالبا تضم إلى المرأة شخص الآسر أو المخلص، في إطارين زمني ومكاني معينين، وقد نمثل لهذا الخطاب ، بقصة (هند بنت ظالم) مع آسرها، أو تلك المراسلات بين (النضيرة ابنة الصيرن) وسابور الذي أراد الاستيلاء على مملكة أبيها في إطار قصصي مبسط، يقوم على الحوار، ومنه يتبلور الخطاب أيضا ، وكما يقول باختين: "يولد الخطاب داخل الحوار مثلما تولد إجابته الحيوية، ويتكون فعل حوارى متبادل مع كلمة الآخر بداخل الموضوع، فالخطاب يفهم موضوعه بفضل الحوار.."^{١١٩}

ولذا يترتب على شرطي الشفاهة وسياق الحرب أن تنطبع الخطابات بطابعها الفوري و المخصوص والمأزوم مستسلما لشروطه السياقية الخاصة، مما يفرز لنا خطابات نسوية تتسم بالاختزال والقصر ونادرا ما نجد خطبة مطولة حتى نهاية العهد النبوي بوفاة رسول الله ﷺ ، تلك التي يذكرها (ابن طيفور: ٢٠٤هـ - ٢٨٠هـ)، في كتابه: (بلاغات النساء)، وينسبها للسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ثم تتوالى مجموعة متفرقة من الخطب النسوية ذات الصلة بحروب سياسية أكثر منها قتالية، حتى نصل إلى عهد الإمام عليّ - كرم الله وجهه- لتبرز لنا مجموعة من النسوة بعضهن شهدن الحرب وألقين خطبة بالمعنى الفني الدقيق للخطبة وفي بؤرة سياق الحرب الحالي الراهن، معظمها يجمعها (العباس بن بكار الضبي: ١٢٩هـ-٢٢٢هـ) في كتابه: (أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان)، ويذكر منهن من كن في ساحة المعركة، ك(أم الخير بنت الحريش بن سراقه)^{١٢٠} و(عكرشة بنت الأطش) في (صفين)^{١٢١}، ويتوالى النقل عن هذين الكتابين فيما دون بعد ذلك.

وقد يأتي هذا الخطاب في إطار سجع الكاهنات، وما تميز به هذا البناء الأسلوبي من فريدة وخصوصية من جوانب عدّة، أو يتمظهر في بنية مختزلة جدا هي بنية (المثل).

^{١١٩} - الخطاب الروائي، باختين: ص: ٥٤.

^{١٢٠} - أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان، العباس بن بكار الضبي (١٢٩هـ-٢٢٢هـ)، تح/سكينة الشهابي: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. ص: ٢٧.

^{١٢١} - نفسه: ص: ٣٨-٣٩.

وأيا كان نمط هذا الخطاب النثري في سياق الحرب فهو خطاب تعبيرى اتسم بوجهة ذاتية، ينطوي في ثناياه التعبيرية على صورة المرأة عن نفسها، وعن رؤيتها للعالم من حولها، تستعمل لذلك ما أوتيت من قدرة لغوية شفوية، تفجر طاقتها التعبيرية من خلال استعمال فطري لمعطيات اللغة الإيحائية في أطرها البيانية التخيلية، أو التركيبية المعنوية، ولا تبخل أيضا باستخدام صنوف الإيقاع الذي تزخر به هذه اللغة، هذا يقودنا إلى أمر مسلم به في هذا السياق، وفي إطار استعمال مخصوص للغة، بأن خطاب المرأة هنا كان خطابا حجاجيا مبادرا أو مستنطقا به، أدى في كثير من الأحيان إلى قلب الموازين وخلخلة الثابت والمستقر تعبر في ذلك كله عن رؤيتها الخاصة وقناعاتها الذاتية المنسجمة أو المناقضة لزمانها بكل منجزاته سلبا أو إيجابا، ومتصدية لهذا الراهن ومتحملة لتبعاته !!..

رابعًا

مُتَغَيِّرَاتُ الْعَصْرِ وَخُصُوصِيَّةُ الرِّسَالَةِ

وحين نصل إلى عصر صدر الإسلام وقبل الولوج إلى لغة هذا العصر علينا أن نؤكد أن منعطفات التاريخ الكبرى، هي التي تحدث هدمًا وبناءً ، لتتشكل معالم جديدة فيها من مادة القديم وإن كانت في إهاب جديد..، ليس هناك نقض كامل، ولا جدة تامة، لأن ذلك يخالف سنن الله في أرضه..!!

وحيثما يكون التغيير إلهيًا يكون الأثر خارجًا عن المتوقع والمألوف، ويكون التغيير أوالتحول شاملاً وجذرياً، فهو تغيير على مستوى العقيدة والفكر، يتبعه تحول في المشاعر والأحاسيس، يؤول إلى تغيير في السلوك .. مما ينتج واقعاً جديداً شكلاً ومضموناً..!!

وحيثما يكون النبي محمد ﷺ والدين الإسلام، والعقيدة التوحيد، والكتاب المعجز هو القرآن، يكون لكل شيء منحي آخر..!!

فالمعجزة من جنس ما برع فيه قومه (قريش)، أي الفصاحة والبيان، في الإشارة والكلام، يتباهون بهذا، وهم موضع التحكيم في ذلك، فعليهم يعرض أجود الشعر، وفي أسواقهم تلقى الخطب الدر، وهم يرفعون هذا ، ويخفضون ذاك، وفق مقاييس معاجمهم الدوقية في المجتمع المكي، حتى اختفت أو كادت الخصائص اللغوية لغير مجتمع مكة حين يكون في حضرة الفصاحة القرشية، ولقريش نصيب من اسمها (حيث التقريش هو التجميع)، فعلى هذا الصعيد كان هناك تمهيد لقولبة الذوق الإبداعي العام بحسب هذه الذائقة القرشية..!!

فأول اختراق على مستوى هذا المجتمع النيق المباهي بلغته ومنجزه الفصاحي، هو اختراق لغوي في الخطاب، حيث شكّل القرآن الكريم صدمة معرفية وجمالية - إن جاز التعبير - أخرست الألسن الفصيحة المبينة، وأنطقتها بالمدح رغم الحقد والضغينة،^{١٢٢} وإن كان العناد والمكابرة جرتهم نحو التحدّي ومحاولة الإتيان بمثله، الأمر الذي تحداهم به الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع^{١٢٣}، مما وضعهم في حالة العجز والحيرة وأفضى بهم نحو التخبط والضياح؛ لأن بوصلة هذا الدين لها وجهة

^{١٢٢} - انظر شهادة الوليد بن المغيرة المخزومي، والد خالد بن الوليد، يقول: " والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعق، وإن فرعه لجنّة"، السيرة النبوية، لابن هشام: ١/٢٧٠، الروض الأنف، للسهيلي: ٢/١٢، الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١/٢٩٥.

^{١٢٣} - انظر مثلاً قوله تعالى: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}. البقرة/ ٢٣، وقوله تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَنْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}. يونس/ ٣٨.

مختلفة ليست مع السادة ، وليست ضد العبيد، وليست مع الأحساب والأنساب ، بل تتجهُ وجهةً جديدةً ..إنها مع التوحيد و التقوى !!

فهذا الخرقُ اللغويُّ ، قد أنجزَ مُعجماً لفظياً جديداً، بمعانٍ ومضامينَ جديدةٍ،انصرفَ عن ظاهرةٍ، وأقبلَ على أخرى، تبعاً لهذهِ البوصلةِ الجديدةِ..!

ومن أبرز ما أفرزته هذه العقيدة الجديدة مفردة (الجهاد)،شكلا ومضمونا على مستويي العقيدة والعمل، حيث كان الغزو والحرب يقابلانها في المجتمع القبلي الجاهلي..!!

وإذا كان العالم من آنذاك إلى يومنا الحالي يقرأ المفردات الدلالية،والانزياحات النفسية واللغوية و الاجتماعية لمفاهيم العقيدة الجديدة المتجددة،فإن هذه الوقفة العجلى ترصده في إطار اللغة التي تداولتها المرأة في سياق الحرب الجديد (الجهاد)، كيف أثر ذلك على بنائها النفسي،وغير من توجهها الاجتماعي، وخلق لها أدواراً كانت على استعداد تام لأن تتخلى فيها عن كل شيء لتحقيق القيمة الكبرى المترتبة على هذا المفهوم الجديد، ونعني به (الشهادة)، وكيف هي وقد دفعت بأعز ما لديها،ماديا ومعنويا إلى سوح الجهاد، بل وترجو له ولنفسها حسن الخاتمة (الشهادة)، هل برزت أطماع أخرى إلى جانب هذا المفهوم الإلهي والكامل والناصح والمثالي..؟؟ لأنه وإن كان الدين مثاليا،والعقيدة مثالية،إلا أن الناس بشر مقصرون، يصيبون ويخطئون، ويدخل أنفسهم ما ليس لله حتى وهم يطلبون ما هو لله..!!

هل أبرز السياق اللغوي في هذا العصر كل هذه المتغيرات ورصدها على أصعدة ومستويات الدرس اللغوي المتتبع في هذه الدراسة: التركيب ، والتصوير والموسيقى..؟؟

هل شكّل الانزياح الفكري،والعدول العقديّ،انزياحا نفسيا واجتماعيا امتد ليصبح انحرافاً أسلوبياً على مستوى الخطاب اللغوي، بحيث تبدو لنا مغايرة وإن كان بنسبة ما عن اللغة ما قبل الإسلام تركيبياً و إيقاعياً وتصويرياً..أم لا..؟؟

هل سيفضح هذا الخطاب قشرية عقيدة بعض النسوة وادعاء بعضهن الاستسلام للدين الجديد رغم أن أحقاد الجاهلية لازالت تغلي تحت مرجل يفضحه ما يرشح على خطابهن من هنات وزلات تلحظها العين الباصرة..!!؟؟

هل سنقرأ مواقف نوعية لخطاب المرأة في سياق الحرب بمفهومها الجديد (الجهاد)؟؟.. في
الأسبقة القَبَلِيَّة والبَعْدِيَّة مروراً بسياق الحرب الآني الذي كانت فيه ..؟؟!!

هذا ما تحاول هذه الدراسة الخلوص إليه من جملة قراءتها لما توافر بين يديها من نصوص تتفق
مع منهج البحث وموضوعه، على أمل أن نقرأ في مرآة هذا الخطاب اللغوي المخصوص ما سقط من
ذاكرة المدونين، أو تجوهر بين صفحات المؤرخين..!

الخطابُ النَّثْرِيُّ النَّسْوِيُّ فِي سِيَاقِ الْحَرْبِ

بَيْنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ

﴿دراسة أسلوبية﴾

الفصل الأول

البنية التركيبية وتشكيل الدلالة

أهمية دراسة التراكيب في النص الأدبي

إن النواة التي تنبثق عنها وتنداح اللغة العربية هي: جملة اسمية / جملة فعلية. ومن خلالهما ومتعلقاتهما وقيودهما، تنبني شبكة العلاقات بين التأثير والتأثر في التراكيب، ومن هنا تأتي أهمية دراسة التراكيب، بوصفها اللغة الطبيعية التي يتواصل بها أطراف الخطاب، وبها يحققون غاياتهم التواصلية.

والتراكيب هي: " طرق نظم المنطوقات وبناء الأساليب"^{١٢٤}، وهي مما تشتمل عليه كل لغة، وتهتم بها كل دراسة لغوية، وقد اهتم قدماء الدارسين العرب بهذا المستوى من اللغة في إطار الدراسات القرآنية أولاً، وروايات الأحاديث النبوية ثانياً، ثم ما عكفوا عليه من التأمل في ديوان العرب (الشعر) ثالثاً.

إن دراسة التراكيب في النصوص بأنواعها من أهم منافذ الولوج إلى عالم النص لفك شفرته الجمالية واستنطاقه على مستوى الشكل كما المضمون، وقد تخير هذا البحث الوقوف على بعض الظواهر التركيبية؛ لتلمس أثر السياق الحربي في إنتاج نص بمواصفات خاصة، على مستوى اللغة كما على مستوى السياق العاطفي الذي يفرزه هذا السياق المخصوص، وأبرز هذه الظواهر التركيبية الأسلوبية:

➤ التقديم والتأخير.

➤ الخبر.

➤ الإنشاء " طلبى - غير طلبى".

وسنستلّ نماذج تمثل كلا من هذه الوجوه الأسلوبية بحيث تكون صادقة الدلالة على سياق الحرب الذي أفرزها ...

^{١٢٤} - النص والخطاب والاتصال، محمد العبد، ص: ٣١٨.

المَبْنُوثُ الْأَوَّلُ:

أُسْلُوبُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ

فِي (العَصْرُ الْجَاهِلِيُّ)

مدخل

إنَّ المعروف عن نظام الجملة العربية هو الترتيب الكلاسيكي لبنيتها، يلزم ذلك تموقع كل كلمة في مكانها ومحافظة على رتبها، فالمبتدأ يتقدم على الخبر في الجملة الاسمية، والفعل يتقدم على الفاعل في الجملة الفعلية، وتأتي المتعلقات بعد ذلك .. على أن هذا الترتيب ليس إلزامياً إلا في حالات قَعْدَا النُّحَاة ، والتي منها:

- كَوْنُ الإعراب متعذراً كما في الأسماء المقصورة أو المبنية.
- كون الوحدة اللغوية ذات رتبة محفوظة، وعندها يجب الحفاظ على هذه الرتبة في موضعها، كما في الاسم الموصول وصلته، و المضاف والمضاف إليه ..
- كَوْنُ الوحدة النحوية متعرضة لما يجعلها واجبة التقديم أو التأخير، كأن يكون المفعول به استفهاماً أو شرطاً..^{١٢٥}

وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم مظهران أسلوبيان التفتت إليهما البلاغة القديمة، كما لفتت الدراسات اللسانية والأسلوبية الحديثة؛ يقول عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز: " هو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعه، ويفضي بك على لطيفه، ولا تزال ترى شعرا يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّمَ فيه شيء، وحَوِّلَ اللفظ عن مكان إلى مكان " ^{١٢٦}

يقول الزركشي عن هذا الباب: " هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق " ^{١٢٧}، و عدّه

^{١٢٥} - انظر: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: دار المنار، القاهرة، ١٩٩١م، ص: ٢٣٥ وما بعدها.

^{١٢٦} - دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي. (ت ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ): تح/ محمود محمد شاكر: مطبعة المدني، القاهرة، ط ٣، ١٣٤١هـ / ١٩٩٢م. ص: ١٠٦.

^{١٢٧} - البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥هـ - ٧٩٤هـ). تح/ أبي الفضل الدمياطي: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م. ص: ٧٧٠.

بعضهم من المجاز، على نظر في نقل الرتب، وأخرجه بعضهم الآخر منه لأن هذا النقل لا يستعمل الكلمة في غير ما وضعت له، ويقرّ الزركشي الرأي الأخير بقوله: "والصحيح أنه ليس منه، فإن المجاز نقل ما وضع له إلى ما لم يوضع".^{١٢٨}

وتعد الدراسات اللسانية الحديثة - التقديم والتأخير - من المحسنات التركيبية، وتراه يتمظهر في الفصل بين ما يجب أن يتصل من الناحية التركيبية، فيؤتى بكلمات قد لا تنتمي لهذا الموضوع، مما قد يبهم الدلالة، وينال من وضوح النص لو جاء متكررا.^{١٢٩}

وكما صنع البلاغيون، فقد عمد النحاة إلى التفصيل في ذلك آخذين بعين الاهتمام الرتبة المحفوظة التي يختل باختلالها التركيب متخذين من هذه الرتبة قرينة لفظية تحدد معنى الأبواب المرتبة بحسبها، أما في البلاغة فهي تُعنى بدراسة أسلوب التركيب لا التركيب نفسه، وهي تتحرك في نطاقين : مجال حرية الرتبة حرة تامة، والآخر مجال الرتبة غير المحفوظة.^{١٣٠}

ولذا كان من المتاح للمبدع أن يعيد تشكيل خطابه وترتيبه من حيث مبنى تراكيبه عامة، والتقديم والتأخير خاصة وفق رؤيته الإبداعية، مستجيبا لسياق الموقف الاتصالي بكل ما يحتويه من عناصر. ويحقق التقديم والتأخير أغراضا عدّة ذكرتها كتب البلاغة قديمها وحديثها، منها: التشويق، التخصيص، التنبيه، التحقيق، التأكيد، التفاؤل، المدح، الذم، التعظيم، الدعاء... الخ^{١٣١} ونتوقف عند تقديم : المسند إليه، المسند، المتعلقات .

ويشكل التقديم والتأخير ملمحا أسلوبيا لافتا في خطاب المرأة النثريّ في سياق الحرب، حاولنا الوقوف على أجلى ظواهره، وحركيته وفاعليته وتأثيره في الموقف الاتصالي، ونشير إلى أن هذا الاصطفاء للنصوص بحسب أهمية السياق وبلاغة الخطاب فيه، وليس جهدا استقصائيا لكافة أنواع التقديم والتأخير المعروفة بلاغيا، أو حتى تلك التي وردت في تلك النصوص، فكان من هذه الظواهر:

^{١٢٨} - المصدر السابق، ص: ٧٧٠.

^{١٢٩} - انظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، د. محمد الولي: دار الأمان، الرباط، ط١٤٢٦، ١/ ٢٠٠٥م، ص: ١٣٥.

^{١٣٠} - انظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان: عالم الكتب، القاهرة، ط٦، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص: ٢٠٧.

^{١٣١} - انظر: دلائل اعجاز، للجرجاني: ص: ١٠٦ وما بعدها إلى ص: ١٤٢. ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب : الدارالعربية للموسوعات، بيروت، ط١٤٢٧، ١/ ٢٠٠٦م. ٢ / ٣٢٦-٣٢٧.

أولاً / تقديمُ المسندِ إليهِ:

نستطيع الإلماح إلى أن تقدم المسند إليه يكون بحسب نوع الجملة العربية، ففي الجملة الفعلية يكون الفاعل أو نائبه هما المسند إليه، أما في الجملة الاسمية فالمسند إليه هو: المبتدأ الذي له خبر، أو ما كان أصله مبتدأ كـ (اسم كان وأخواتها، أو إن وأخواتها)، المفعول الأول للفعل (ظن)، والمفعول الثاني للفعل (رأى).

ومن ذلك ما كان في سياق ما بعد الحرب، بعد غزوة بدر، مَشَى نِسَاءُ فُرَيْشٍ إِلَى هِنْدٍ بِنْتِ عُبَيْةَ فَقُلْنَ: "أَلَا تَبْكِينَ عَلَى أَبِيكَ وَأَخِيكَ وَعَمَّكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ؟"، فَقَالَتْ: "حَلَفِي، أَنَا أَبْكِيهِمْ فَيَبْلُغُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَيَشْتُمُونَا بِنَا، وَنِسَاءُ بَنِي الْخَزْرَجِ لَا وَاللَّهِ حَتَّى أَتَارَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ وَالِدَهُنَّ عَلَيَّ حَرَامٌ إِنْ دَخَلَ رَأْسِي حَتَّى نَغْرَوْ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ الْحُزْنَ يَذْهَبُ مِنْ قَلْبِي بَكَيْتٍ ؛ وَلَكِنْ لَا يَذْهَبُهُ إِلَّا أَنْ أَرَى تَأْرِي بَعِينِي مِنْ قَتْلَةِ الْأَحِبَّةِ".^{١٣٢}

إنها امرأة تكلى غاضبة، تعمل نساء قبيلتها المصطليات بنار الفقد والهزيمة أن يستفزنها لتفعل ما تفعله النسوة في مثل هذه الحال، على أنهن يعلمن بما يتقاسمنه من معرفة اجتماعية مشتركة عن سبب عدم نوحها وبكائها على الأحبة، ومع ذلك فهي لا تدخر الإجابة و لا توفرها، لسبب أيضا وهو إشهار النوايا وخلق جو مشترك من الاندفاع للثأر والانتقام، عقل جمعي واحد وهدف واحد وبكل وسيلة ممكنة...، تؤكد ذلك وتقويه بتقديمها لهذا المسند إليه الاسمي على المسند الفعلي وما يضمير فيه - الفاعل الضمير المستتر أنا - ويأتي ذلك مغلفا باستنكار لا يخفى وبأداة استفهام محتملة والتقدير (أنا أبكيهم...؟؟!!) لينتفض هذا الإهاب العاطفي النفسي عن هذه المقولة المعبرة.

ومثل ذلك ما قالته (ابنةُ قَيْسِ بْنِ مَسْعُودِ الشَّيْبَانِيِّ) ذي الجدين وزوج لقيط بن زرارة بن عدس، لما قُتِلَ لَقِيْطٌ وَتَحَمَلَتْ إِلَى أَهْلِهَا مَالَتْ إِلَى مَحَلَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَارِمٍ فَقَالَتْ: "نِعْمَ الْأَحْمَاءُ كُنْتُمْ يَا بَنِي دَارِمٍ، وَأَنَا أُوصِيكُمْ بِالْقَرَائِبِ خَيْرًا فَلَمْ أَرِ مِثْلَ لَقِيْطٍ"^{١٣٣}

^{١٣٢} - المغازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي (١٣٠هـ-٢٠٧هـ)، تح/مارسدن جونس: عالم الكتب، د.م، ط٣، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م. ١/ ١٢٤. بعد معركة بدر، وفي اللسان مادة (حلق): ومما يدعى به على المرأة: عَفْرَى دُعِيَ عَلَيْهَا أَنْ تَنِيْمَ مِنْ بَعْلِهَا فَتَخْلُقُ شَعْرَهَا، أَوْجَعُ اللَّهُ حَلْفَهَا، وَهِيَ مَشْهُومَةٌ مُؤْتِدَةٌ.

^{١٣٣} - العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٦ / ٨٨. وكلُّ من وَلِيَ الزَّوْجَ مِنْ ذِي قَرَابَتِهِ فَهِيَ أَحْمَاءُ الْمَرْأَةِ، وَأُمُّ زَوْجِهَا حَمَاتُهَا، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ قَبْلِ الزَّوْجِ أَبُوهُ أَوْ أَخُوهُ أَوْ عَمُّهُ فَهِيَ الْأَحْمَاءُ. وَاعْتَرَبَ الرَّجُلُ: نَكَحَ فِي الْغَرَائِبِ، وَتَزَوَّجَ إِلَى غَيْرِ أَقْرَابِهِ. اللسان: (حمو). من نثر الدر، للوزير الكاتب أبي سعيد منصور بن الحسين الآبي (ت ٤٢١هـ)، اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها: مظهر الحجى:

فالمرأة هنا تقدم المسند إليه (أنا..) على المسند الفعلي (أوصيكم) أيضا للتخصيص وتقوية الحكم بإعادة المسند مرة أخرى مع الضمير المستتر في الفعل، وكما ورد في دلائل الإعجاز: "إن الشيء إذا أضمر ثم فسّر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار..".^{١٣٤} وخصت نفسها بالذكر والتقديم على غرابية الموقف، وهو تخصيص لنفسها باللوم والتفريع، فهي تغادر دون أن تشفع هذه المغادرة بما يليق بالزوج المقتول، وبما تفعله الزوجة عادة من البكاء والنحيب، فهذا مقام مدح اللقيط وقبيلته من قبلها ولذا فهي تقدم المسند إليه ضمير المتكلم المنفصل (أنا).

ومن تقديم المسند إليه على المسند الفعلي المنفي قول (ابنة الحارث بن عامر بن نوفل): وقد طلبت من وحشي قتل أحد الثلاثة بأبيها" محمد ﷺ أو علي بن أبي طالب أو حمزة: 'فإني لا أرى في القوم كفؤاً لأبي غيرهم'.^{١٣٥}

فقد احتفظت برتبة اسم إن (ياء المتكلم) في مكانها لتشير إلى ثباتها على موقفها من جهة، وليثبت هذا السياق اللغوي اهتمامها برويتها وحدها، وتنفي ما عدا ذلك، فما يهمها هو شفاء غليلها بهذا الثأر دون النظر لأي اعتبارات أخرى، وأيضا يتضمن ذلك شرط الكفاءة فيمن تثار منهم، وهذا يوازى الثأر نفسه، أو لنقل أنهما كفتا ميزان...!!

ثانياً/ تقديمُ المسندِ:

يتنوع المسند بين كونه فعلا تاما أو اسم فعل أو مصدرا نائبا عن فعل الأمر، أو خبرا للمبتدأ، أو ما كان أصله خبرا كأخبار كان وأخواتها أو إن وأخواتها، أو المفعول الثاني للفعل ظنّ، والمفعول الثالث للفعل رأى.

تقديمُ الفعلِ التامِّ:

يروى أن (عبلة) قالت لعنترة العبسي: " هل بقي في قلبك يا أبا المغلس إلى لقاء فارسٍ من فرسانِ العربِ واختباره أرب...؟ " ^{١٣٦}

منشورات دار الثقافة، دمشق، ١٩٩٧م. ٢/ ٢٧٧، أمثال العرب، المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي أبو العباس (ت ١٧١هـ)، تح/ إحسان عباس: دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص: ٧٢.

^{١٣٤} - انظر: دلائل الإعجاز، للرجاني: ص: ١٣٢.

^{١٣٥} - المغازي للواقدي: ١/ ٢٨٥. الأغاني، للأصفهاني: إحسان عباس وآخرون: ١٥/ ١٢٣. ونسب القول لجبير.

^{١٣٦} - الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، المعروف بابن الحائك (٢٨٠هـ - ٣٣٤هـ)، د.ط.د.ت.ص: ٤٦.

إنها (عبلة) و عنتره العبسي وحديث بين المحبين ، لكنه يختلف عن أحاديث الحب المعروفة، ف (عبلة) امرأة تعرف كيف تشارك رجلها اهتماماته، وربما كيف تثير حفيظته، وتشاركه في أهم ما يشغل ذهنه ويتملك روحه، وهو حديث امرأة فخور بهذا الرجل الحبيب الذي يكاد ينتصر في كل الاختبارات، في ميادين القتال، كما في ميادين البلاغة والشعر، وتأتي هذه الترجمة اللغوية لهذا الشعور في تركيب استفهامي يشكل انزياحا لافتا، تقدم فيه الفعل (بقي)، فهذا التقديم للمسند الفعلي (بقي) له عمقه النفسي والفكري أيضا.. فقراءتها ومتابعتها لعنتره ومعرفتها على ما تنطوي عليه نفسه، أسهم بفاعلية في إنتاج هذا الخطاب اللغوي الذي يتقدم فيه المسند ، وللتقديم وجاهته هنا، حيث أظهرت وكأن لدى عنتره قائمة فرسان القبائل وشجعانها، وهو يتتبعهم واحدا واحدا، وينال منهم، وقد أجهز عليهم، هذا التقديم يشي بهواجس عنتره البطولية، وبهواجس القبيلة ومصدر فخارها أيضا، وهو مثار إعجاب الحبيبة على وجه الخصوص...!!

هذا التقديم الذي أشار إلى عقدة النقص التي كان يعيشها عنتره، ولا يفتأ يذكرها في شعره، وهي كون أمه أمة سوداء، وعيشه ذليلا بين إخوته، وخادما لهم، وهو من هو وما تنطوي نفسه عليه من إباء وشمم، وبطولة وتشوف للظهور مضاعف، كان دافعا له لاقتحام سوح المعارك وجندلة الأبطال، الذين كانوا محط فخار في أنسابهم وأحسابهم وفعالهم.. لكنه لا يكاد يبقي على أحد منهم، إلا وقد غلبه...!! ويبقى هو الفارس.. عنتره وكفى...!! هذا بعض ما يشي به هذا التقديم...!!

ولا نغفل سائر المباني الأخرى التي قوت هذا المعنى وأردفت هذا التقديم، والتي أخرت الفاعل، ب (النداء، الجر والإضافة، العطف بالواو) حتى نستقر عند المسند إليه المتأخر...!!

ويغضب عمرو بن هند على بني تميم لقتلهم أخاه، فيقسم إن ظفر بهم ليقتنهم وليسبين نساءهم، فلما ظفر بهم أحمى لهم الصفا، وأمر رجالهم بالمشي عليها، فأتي بشاب ليمشي عليها وجاءت (أمه) معه، فلما رأت الصفا وحرارتها، قطعت ثدييها ورمت بهما على الصفا وقالت: " يابني قِ بثديي قدمك، وأقلل بوطئهما ألمك " ١٣٧.

إنها (أم) متفجعة متلهفة، وما يهمها هو أن ينجو ابنها ليس من القتل فقط، بل من الألم أيًا كانت درجته، ولهذا كان ما يشغلها هو ما قدمته، المسند الفعلي (ق/ أقلل)، وهذه القاف المتكررة

١٣٧- غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، الشيخ أبي أسحق المعروف بالوطواط، صححه محمد الصباغ، دار الطباعة، القاهرة، ١٢٨٤هـ، ص: ٣٩٩.

الدالة على الارتباك والتقلقل والقلق والاضطراب في موقف شاهدت فيه موت كل من سبقه ومشى على تلك الصفا المحمّاة !!..

ويأتي خطاب (جُوَيْرِيَّة بنت أَبِي جَهْل) بعد إسلامها مباشرة وقد سمعت ذكر الرسول ﷺ في الأذان، تقول: " قَدْ لَعَمْرِي رَفَعَ لَكَ ذِكْرَكَ " ١٣٨

وأبقت الفعل (رَفَعَ) متصدرًا في جملة جواب القسم، لتدلّ على مقام هذه الرفعة وتنبه على أهميتها، وإن لم يكن على سبيل التصديق بها، بل على أنها أمر واقع يوازي واقعا آخر يشكل خرقا للوضع الاجتماعي والسياسي والديني الذي كانت هي وأبوها محورا له وحيث كانت الرفعة لهم، تتجلى أهمية هذه الرفعة للنبي محمد ﷺ وأتباعه في نظر (جُوَيْرِيَّة) من حيث هي ذلّة لها ولوالدها ولأتباعه..!

وَمَشَى نِسَاءً فُرَيْشٍ إِلَى هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ فَقُلْنَ: " أَلَا تَتَكَيَّنَ عَلَى أَبِيكَ وَأَخِيكَ وَعَمَّكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ...!!؟ " ١٣٩
فقد احتفظ المسند الفعلي (تَتَكَيَّنَ) هنا بمكانته المتقدمة لغرض التحضيض والذي تشي به الأداة (ألا)، ولأن السياق هو سياق نذب وتفجع ومصيبة فيه استنكرت هاته النسوة من هند عدم بكائها، وهن يعلمن علم يقين عزوفها عن ذلك، ولذا يقمن بإشعال غيظها واستنطاق خبيثتها بذكر من فقدت من أعزائها وأهلها أجمعين.

تَقْدِيمُ شِبْهِ الْجُمْلَةِ (الخبير) على المُبْتَدَأِ:

قالت زرقاء اليمامة تخاطب قومها محذرة: "رَأَيْتُ فِي الشَّجَرِ رَجُلًا مَعَهُ كَتْفٌ يَأْكُلُهَا وَنَعْلًا يَخْصِفُهَا" ١٤٠، زرقاء اليمامة التي تمتلك مع حدة البصر نفاذ بصيرة، أنذرت قومها بأن جيش تبّع على مشارف

١٣٨- المغازي للواقدي، ٢/ ٨٤٦: "... وَجَاءَتْ الظُّهْرُ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلَّا أَنْ يُؤَدَّنَ بِالظُّهْرِ فَوْقَ ظَهْرِ الكَعْبَةِ يُؤَمَّنُ وَقُرَيْشٌ فَوْقَ رُغُوسِ الجِبَالِ وَقَدْ فَرَّ وُجُوهُهُمْ وَتَغَيَّبُوا خَوْفًا أَنْ يُقْتَلُوا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الأَمَانَ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ أُوْمِنَ " الروض الأنف للسهيلي، ٤/ ١٧٦. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢/ ١٣٠. ترجمتها في: الطبقات الكبرى، لابن سعد: ١٠/ ٢٤٩. تح/ علي محمد عمر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م. أسد الغابة في معرفة الصحابة، عزّ الدين ابن الأثير محمد بن علي الجزري (ت ٦٣٠هـ): دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ٣/ ٤٦٨.

١٣٩- المغازي للواقدي: ١/ ١٢٤. بعد معركة بدر، وفي اللسان: (حلق): ومما يدعى به على المرأة: عَفْرَى دُعِيَ عَلَيْهَا أَنْ تَنِيمَ مِنْ بَعْلِهَا فَتُحَلِّقَ شَعْرَهَا، أَوْ جَعَلَ اللَّهُ حَلْقَهَا، وَهِيَ مَشْوُومَةٌ مُؤَدِّيَةٌ.

١٤٠- التيجان في ملوك حمير، وهب بن منبه ابن كامل بن سيج بن ذي كبار أبو عبد الله الأبنأوي، اليماني الذماري الصنعاني (١١٤هـ-١٣٤هـ)، تحقيق ونشر: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، تقديم د. عبد العزيز المقالح، صنعاء، ط١٩٧٩م، ص:

البلاد وكانت ترى على مسافة ثلاثة أيام، فكذبها قومها، وقد كان ما رأت حيلة مبتكرة من حيل الحرب تستخدم حتى يومنا الحالي، وهي وسيلة من وسائل التمويه، والخداع البصري للعدو، وهي الحيلة التي ابتكرها الدليل الذي مع جيش اليمن، وهو الناجي الذي هرب واستغاث بملك اليمن بعد وقوع مجزرة نأر فيها أخو الشموس لشرف أخته فقتل الملك وأعوانه، هذا الدليل الذي يُقال أنه أخو الزرقاء، قد حذر من أن الزرقاء ترى من مسافة بعيدة وعليهم أن يحتاطوا حتى لا تفضحهم، وعليه اقترح عليهم هذه الحيلة، وعلى ما يبدو فإن الزرقاء لم تر جيش العدو من قبيل المصادفة المحضة، بل يبدو أنها تستعمل هذه الهبة الإلهية في حماية المدينة، وهي تقرأ وبشكل دقيق المتغيرات السياسية وموازين القوى على الأرض بعد تلك المعركة الشرسة، ولذا فقد كانت تتصفح الآفاق، لتحمي مدينتها من أي خطر قادم، وهي امرأة تستعمل ذكاءها أيضا في توجيه هذا القدرة الاستثنائية، وتحلل ما ترى وبشكل دقيق جدا و إلا ما كان أسهل أن تنخدع بالظواهر وتكذب ما رأت، لأنه على غير ما جرت به العادة، أما دهشتها فتبدي في تقديمها لشبه الجملة - الظرف - الواقع خبرا (معه) على المبتدأ (كتف)، وهي هنا تريد بهذا التقديم التدليل على دقة ما رأت من جهة، والتشويق في تأخير المبتدأ من جهة أخرى، وهو وضع غرائبي، فهذا التكوين البصري (في، الشجر، رجلا، معه كتف يأكلها/ نعلا يخلصها)، هذا التكوين مستنكر حينها، ومثار استغراب ودهشة، جعلتها هذه الصورة تتأمل بدقة متناهية، فليس من المألوف أن يكون الرجل (في) الشجرة، إن استعمالها لحرف الجر الذي يفيد الظرفية المكانية هو مرتبط هذه الصورة البصرية، والأغرب أن هذا الرجل يحيا حياة طبيعية آمنة، فهو يأكل كتفا ويخلص نعلا، وقد قرأت هذه الصورة بمنتهى الذكاء، وترجمتها ترجمة عسكرية، وأن جيش (حمير) قد سار إليهم، ولكن للأسف لم يستمعوا لتحذيرها فهجم عليهم الجيش وأفناهم وفقاً للملك عيني الزرقاء!!

وهذا خطاب (حَنْظَلَة) بنت أخي زرارة بن عُدس حينما أسرت ثم هربت لتندّر قومها، قالت تصف مالك بن جعفر وابنيه عامر وطفيل. : " ومعه ابنان له يلازمانه. " ١٤١ .

٣٠٩. تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ)، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، القاهرة، ط٦، دت، ١/٦٣٠. الأغاني، للأصفهاني: ٨٥/٢، إحسان عباس وآخرون، دارصادر، بيروت، ط٣، ٢٩/١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م. قصة المثل "أبصر من زرقاء اليمامة" في العقد الفريد، لابن عبد ربه: ١٣/٣. وانظر مختصر القصة في الروض الأنف، للسهيلى: ١/٤٧-١٥١. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٢٧٣.

١٤١- الأغاني، للأصفهاني: إحسان عباس وآخرون، ١١/ ٦٨ - ٨٩. أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، دت، ص: ٣٤٥. وقعت هذه المرأة في الأسر فهربت، فجاءت قومها تحدثهم عن صفة القوم، تابع يوم الررحان لعامر على تميم، الررحان: جبل قريب من عكاظ، خلف عرفات.

بالإضافة إلى التنبيه من أول الأمر إلى أن المسند المتقدم هو خبر لا نعت ، فيبدو أن الأهم عندها كان (الرجل) الذي يشكل بؤرة اهتمام الابنين، ولذا قدمت معيتهما له على صفتها، لكنها عادت لتؤكد هذه الصفة للابنين بأنهما (له) خصوصية ونصرة ولصوقا وحتى ملكية، وجاءت بذلك في سياق لغوي متضمن للحالية باستعمال واو الحال، لتعطي بعدا مستداما لهذه المعية، وهو بُعدٌ يرخي بظلاله و تأثيراته على سياق الحرب المترصدة على الأبواب، فهذا الرجل الذي هو نقطة قوة وارتكاز ومحور عند قومه عامة وبين ابنيه على وجه الخصوص، هو في السياق الموازي سيكون له الشأن نفسه عند أعدائه وبالتالي فما (معه) و(له) يشكل أهمية لافتة .

وتقول (حنظلة) في وصف ربيعة بن عقيل بن كعب، -غير أن الجملة هنا وقعت صفة- : " معه جَفِيرٌ^{١٤٢} له " ، فهي تعيد التركيب بذاته وللأسباب نفسها، وتعيد الكرة في وصف الصَّعِقِ بن عمرو بن خويلد بن نفيل وابنيه يزيد وزرعة : "ورأيت رجلاً معه ابنان أصهبان إذا أقبلا رماهما الناس بأبصارهم فإذا أدبرا كانا كذلك." ، وهي في هذا السياق اللغوي الذي نراه ينصب على السياق الخارجي بتفاصيله أبرز نكرانها لذاتها ، مع الأخذ بعين الاهتمام هذا السياق العاطفي أيضا الذي أكرهت على أن تكون فيه ، فهي لم تكن سوى امرأة في مرعى ، وجدت نفسها فجأة أسيرة مغتصبة...!!

و(حنظلة) تثبت هنا - رغم الخوف والأسر وأن أحدهم وقع عليها- شجاعته ورباطة جأشها وحسها العالي بالمسؤولية، وأن لديها أهدافا بعيدة المدى لا تتعلق بها وحدها بل بالقبيلة التي تنتمي إليها، وتثبت أنها رغم هذا السياق الضاغط والمشحون كانت لديها القدرة على تنفيذ استراتيجية تقوم على : جمع المعلومات عن طريق قراءة ساحة معسكر العدو، معرفة كل تفاصيل الأعداء، هذا كمرحلة أولى، وفي المرحلة الثانية الهرب ، وهي تضع خطة وتوقيتا زمنيا يشملان نقطة انطلاق ونقطة وصول إلى منتجع القبيلة ، ثم كمرحلة ثالثة: تزويد القائد بتقرير مفصل يتمكن بموجبه من رسم خطة واتخاذ قرارات مناسبة ، إن امرأة تتعرض لما تعرضت له حنظلة ثم تتمكن من أن تفعل كل ما فعلته لامرأة استثنائية بحق أبرز ذلك هذه السياقات الثلاثة مجتمعة: اللغوي والعاطفي واللذين كانا إفرزا منطقيا للسياق الحربي...!!

^{١٤٢} - الجفير: الجعبة من الجلد، اللسان (جفر).

تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ (حَمْرُ أَحْكَفِ النَّاسِخِ / الْفِعْلِ النَّاسِخِ) عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ (اسْمُ أَحْكَفِ النَّاسِخِ / الْفِعْلِ النَّاسِخِ):

نلتقط ذلك في خطاب (حُبِّي بِنْتِ مَعْدِيكَرَبٍ)، وهي امرأة من كندة، لقاها عمرو بن معد يكرب فأعجبه فعرض نفسه عليها، فقالت: " نِعَمَ زَوْجِ الْحُرَّةِ الْكَرِيمَةِ، وَلَكِنَّ لِي بَعْلًا يَصْدُقُ اللَّقَاءَ، وَيُخِيفُ الْأَعْدَاءَ، وَيُجْزِلُ الْعَطَاءَ " ١٤٣.

مبدئياً في هذا التقديم للمسند -الجار والمجرور- (لي) منع التباس الخبر بالنعته ، وبما أنها هي المعنية الأولى بهذا العرض، وقد تكون المتضررة الأولى منه قدمت نفسها ببياء المتكلم "لي"، وأيضاً لتأخير الملكية المفترضة للفت الانتباه إليها، وما لها، هو زوج عدت له صفات جديدة بأي رجل أن يدع التناول عليه بالنظر إلى ما يخصه، وفي هذا الإلماح بهذه الصفات نبرة تهديد لا تخفى...!! وفيه ما قد يفسر على أنه سلبية من هذه المرأة، لكنه يكشف عن حنكة وسعة تصرف، فهي لا تعرف الرجل، وقد رأت من سيماء ما يجعلها تخاف جسارته وعناده، فاختارت جواباً لينا، لا يشي برفضها، بل يشير بالقوة والتميز لزوجها، فتتخشى ما لاتحمد عقباه ..، واستعملت الأسلوب نفسه مع زوجها حينما عادت، فهي امرأة لها أسلوب خاص في درء الخطر عن نفسها، حتى إن نواياها لا تبدو سافرة، فهي امرأة لا تحب أن تواجه، بل تدع الأطراف تتواجه وتغدو هي سالمة...!!

وفي الإطار نفسه نلتقي هذا السياق المميز وخطاب لـ(هِنْدِ ابْنَةَ ظَالِمٍ) (توجهه لابن مندلة تحذره وتحضه على الهرب: "النَّجَاءُ النَّجَاءَ ، فَإِنَّ وِرَاعَكَ طَالِبًا حَثِيئًا، وَجَمْعًا كَثِيرًا، وَرَأْيًا صَلِيبًا ، وَحَزْمًا وَكَيْدًا" ١٤٤) وهنا قُدِّمَ المسند (ظرف المكان: وِرَاعَكَ) على المسند إليه (اسم إن: طَالِبًا حَثِيئًا...)، ونلاحظ استعمالها لظرف المكان: (وِرَاعَكَ) الذي يشير بلا ريب إلى وضع المطاردة واللحوق، والخطر المغيب الذي قد لا يستشعره المُطَارِد، فهي تحذره لئلا ينساق وراء هذا النصر المعجل والغنيمة الباردة التي تحصل عليها دون التفكير في العواقب، وصاحب تلك الأوصاف ليس أحداً سوى زوجها الذي تعرف

١٤٣- الأمالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن سليمان (مولى عبد الملك بن مروان) (٢٨٨هـ- ٣٥٦هـ) وويليه ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي، دار الكتب العلمية: بيروت. د.ت، د.ط، ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي.ص: ١٥٣. وانتهى الأمر بقتله زوجها وغلبها على أمرها.

١٤٤- مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت٥١٨هـ/١٢٤٤م)، تح/ قصي الحسين: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ٢٥٥/٢.

عناده وصلابته وجراته !!.. كما يلفت في هذا السياق اللغوي تعدد المسند إليه، للتأكيد، والذي يفضي إلى أخذ تمام الحيطة والحذر ..، هو سياق لافت على صعيد موقف هذه المرأة أيضا التي تفضل البقاء مع أسرها على النجاة منه والعودة إلى زوجها، بل هي تخاف ذلك خوفا يملكها حتى أصبحت كتلة تيقظ وحذر لكل احتمال خطر مهما كان ضعيفا، هذا السياق اللغوي يخبرنا بذلك، هذا الإصرار المتفشي في هذا التوكيد بالترار في البنية مع التنوع في الأوصاف، إنها نفس قلقة من اقتراب زوجها أو لحاقه بها!!..

وَمِنْ مَمَازِجِ تَهْدِيمِ خَمْرِ الْفِعْلِ النَّاسِخِ مَا يَأْتِي:

خطاب (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ) لسعد بن أبي وقاص في أعقاب القادسية: "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَوْمِ عَيْرَةٍ، إِلَّا وَالِدَهُمْ مُعْفِيَهُمْ عَيْرَةً." ١٤٥

حيث أحرّت اسم ليس - الفعل الماضي الناقص - ، وقدمت الخبر شبه الجملة لتأكيد عموم وقوع الأذى وزوال النعم ، فكما جاءت تذهب ، وتعقبها حسرة طويلة، إن هذا السياق اللغوي ، هذا الخطاب في مواجهة رجل غازٍ منتصر - كما تراه هي - فهو وإن كان ينم عن شجاعة ورجاحة عقل حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ ، فهو يرمي إلى التعريض والتذكير لهذا المخاطب، فهو خطاب بسطت فيه النظر في حالها وأحوال الدنيا ، ورأت تقلب الأحوال، ومآل الرجال، وإن كان ذلك قد أزال النعم عنها إلا أنه أورثها حكمة وروحًا تحاول التحليق خارج أسوار الواقع الراهن بقوة الصبر والتأمل الذي نتيجته الحكمة التي تطفئ نار الغضب وسعير الأحزان الميئسة ، وإن كان قد نيل من وضعها المادي والاجتماعي والسياسي، إلا إنه لم يُنل من كرامتها ولا من حرية خياراتها، وهذا ما أثبتته سيرة حياتها!!.. إن هذه المشهدية المسرحية حيث كانت حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ بين نساء قومها ومن هنّ على دينها من جهة، وبين يدي الفاتح الغازي من جهة أخرى، كانت تستلزم استراتيجية خاصة ، تحدد فيها أهدافها وسبل تحقيق هذه الأهداف أيضا ، وهذا ما استلزم منها خطابا خاصا تمسك فيه بأطراف

^{١٤٥} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦/ ٢٨٧. الأغاني، للأصفهاني: ١٤ / ١٤١، المستطرف في كل فن مستطرف. شهاب الدين محمد بن أحمد الأبيشي (٧٩٠-٨٥٠هـ). تح/ محمد سعيد: دار ابن الهيثم، القاهرة، ١٤٢٦/ ٢٠٠٥م. ص: ٢٢١. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣٠-١٠٩٣هـ)، تح/ عبد السلام محمد هارون: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤. ١٩٩٧ / ١٤١٨، ٧ / ٦٨-٦٩. أورد هذا الخطاب هنا بالنظر إلى أنّ (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ) لازالت على دينها النصراني.

كثيرة لتحقق التوازن أيضا بين كافة تلك الأطراف، وتخرج بأقل الخسائر، بل ويمكاسب قدر المستطاع، هي حرب مواجهة من نوع خاص يبدو أن (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ) أدارتها بنجاح وخرجت منها منتصرة ..، فقد حفظت كرامتها وقومها، وبقيت على دينها، ولم تخرج من دَيْرِ عبادتها، وأخذت أعطيتها وجائزتها..وزجرت الغازي بالعظة والتدبير..فالدنيا لا تدوم على حال وعليه ألا يأمنها ، وبذا تكون قد تخيرت استراتيجية تلميحية مراوغة إلى حد ما،تقوم على بنية النفي التي هي - هنا- بنية إقناع في المقام الأول !!..

ثالثاً: تهديمُ المتعلقاتِ:

من أبرز أنواع المتعلقات: المفعول به، شبه الجملة:(جار ومجرور/ الظرف)،الحال، الصفة..وغيرها مما اعتبره البلاغيون من القيود .

تهديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ بهِ:

ومنه خطاب (زرقاء اليمامة)، قالت:"رَأَيْتُ فِي الشَّجَرِ رَجُلًا مَعَهُ كَتِفٌ يَأْكُلُهَا وَنَعْلٌ يَخْصِفُهَا"^{١٤٦}.
قدّمت شبه الجملة -الجار والمجرور- على المفعول به(رجلا) للتشويق حيث ستقترح رؤية غريبة، لن ترى حيوانا أو طائرا في الشجرة، بل ترى رجلا كأنما يتموضع في بيته، حيث يأكل ويخصف نعله (في الشجر) ، وهو موطن الدهشة والاستغراب!!..

وهذا ما نجده أيضا في خطاب (ليلى بنت شعواء) سبية عروة بن الورد، قالت:" مَا أَرَى لَكَ عَقْلًا
!!... أُنْرَانِي قَدْ اخْتَرْتُ عَلَيْكَ وَتَقُولُ لِي خَبْرِي عَنِّي...؟! "^{١٤٧}

^{١٤٦} - التيجان في ملوك حمير، للهمداني: ص: ٣٠٨-٣٠٩. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٦٣٠/١. الأغاني، للأصفهاني:إحسان عباس وآخرون، ٢ / ٨٥. قصة المثل"أبصر من زرقاء اليمامة" في العقد الفريد، لابن عبد ربه: ١٣/٣. وانظر مختصر القصة في الروض الأنف، للسهيبي: ١ / ٤٧-١٥١. الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ١ / ٢٧٣.

^{١٤٧} - الأغاني، للأصفهاني، إحسان عباس وآخرون: ٣/٥٦. شعراء النصرانية قبل الإسلام،لويس شيخو، ص: ٨٩٥.وقد عير بسببها إياها عامر بن الطفيل، انظر ص: ٨٩٧. وقال ابن الأعرابي في هذه الرواية أيضا، كان عروة سبي امرأة من بني هلال بن عامر بن صعصعة يقال لها ليلى بنت شعواء، فمكثت عنده زمانا وهي معجبة له تربه أنها تحبه ثم استنزلته أهلها فحملها حتى أتاهم بها، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه، وتوعده قومها بالقتل فانصرف عنهم وأقبل عليها، فقال لها: ياليلي خبري صواحبك عني كيف أنا!!..

إن هذا السياق اللغوي في التقديم يتسق مع السياق الاجتماعي الجديد الذي فرضته حرب جعلت من هذه المرأة سبية عند عروة بن الورد لسنوات أنجبت فيها الذرية له، وهي تصانعه ، فاحتالت عليه في زيارة أهلها حتى وافق، ثم اتفقت مع أهلها على عدم الرجوع ، ولما أسقط في يده طلب منها أن تنثني عليه، وهو يظن أنها ستقول خيرا، غير أنها تفاجئه باستنكارها لطلبه ،فتقدم الجار والمجرور (لك) لتخصه بغياب العقل كما ترى، و(لي) استنكارا لطلبه منها مديحه على وجه التحديد مع أنه سبها لسنوات، الشيء الذي تجد فيه ذلة ونقيصة في حقها وحق قبيلتها !!..

وكذلك في خطاب (ابنة الأجلح بن قاسط)، وقد لحق بابني حُميضة بن بحير وقد قالت له: " شُدَّ عليكَ الجُرْبَانُ "١٤٨. وقد كان لما لبس درعه وترك جربانها لم يشده عليه. ولهذا التقديم وجاهته فالحرص والتنبيه على سلامة المقدم شبه الجملة من الجار والمجرور(عليك)، والمقصود هو الأب نفسه .. وهو سياق لغوي يدل على حرص هذه الفتاة على والدها، ولكنه يدل أيضا على دقة ملاحظة هذه الفتاة ومعرفتها بمواطن الضعف التي قد يراها العدو فينفذ منها إلى مقتلة خصمه..!

أَمَّا (النَّضِيرَةُ ابْنَةُ الضَّيْرِنِ)، فَكَانَ مِسرَى سَابُورُ ذُو الْأَكْتَاFِ غَرَا سَاطِرُونَ مَلِكَ الْحَضْرِ، فَحَصْرَهُ سَنَتَيْنِ فَأَشْرَفَتْ بِنْتُ سَاطِرُونَ يَوْمًا ، فَنَظَرَتْ إِلَى سَابُورَ وَعَلَيْهِ ثِيَابُ دِيبَاجٍ وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٌ بِالزَّبْرِجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَاللُّؤْلُؤِ وَكَانَ جَمِيلًا ، فَدَسَّتْ إِلَيْهِ: " أَتَنَزَّوَجُنِي إِنْ فَتَحْتُ لَكَ بَابَ الْحَضْرِ ؟".

فَبَيْنَمَا هِيَ نَائِمَةٌ عَلَى فِرَاشِهَا لَيْلًا إِذْ جَعَلَتْ تَنَمَلُّمٌ لَا تَنَامُ فَدَعَا لَهَا بِشَمْعٍ فَفُتِّشَ فِرَاشُهَا، فَوُجِدَ

عَلَيْهِ وَرَقَةٌ آسٍ فَقَالَ لَهَا سَابُورُ أَهَذَا الَّذِي أَسْهَرَكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا كَانَ أَبُوكَ يَصْنَعُ بِكَ ؟

قَالَتْ: " كَانَ يَفْرِشُ لِي الدِّيَبَاجَ وَيُلْبِسُنِي الْحَرِيرَ وَيُطْعِمُنِي الْمُخَّ وَيَسْقِينِي الْخَمْرَ. "١٤٩

ف(النَّضِيرَةُ) في هذا السياق اللغوي تقدم الجار والمجرور"لك" على المفعول به (باب الحضر) ، وذلك لتخصيص وقوع الفعل للمخاطب دون سواه، فهي لن تفتح هذا الحصن لغيره بل له على وجه الخصوص، وكذلك في قولها: " يَفْرِشُ لِي الدِّيَبَاجَ " ، فقدمت شبه الجملة - الجار والمجرور - في قولها

١٤٨- أيام العرب في الجاهلية. محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، ص: ٣٠٧. يوم هراميت"و، هراميت آبار مجتمعة بالدهناء.

١٤٩- سيرة ابن هشام: ١/ ٧٢، في دخول سابور الحضر. والروض الأنف، للسهيلى: ١/ ١٥٢-١٥٣، الأغاني، للأصفهاني: ٢/ ٩١. المستطرف، للأبشيهي: ص: ٢٨١. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء: ياسين بن خير الله الخطيب العمري (١١٥٧هـ- ١٢٣٢هـ)، تح/حسام رياض عبد الحكيم: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.، ص: ٤٠٧. أعلام النساء، رضا كحالة: ٥/ ٢٢٥-٢٢٦.

"لي" لإظهار ما كان والدها يخصها به بما لم يخص به غيرها من العناية بالجوانب المختلفة ماديًا ومعنويًا بما يفوق الحاجة إلى أعلى مقدمات ونتائج الترف، ومع ذلك فقد ضحّت بذلك كله من أجل قيم الجمال الزائف، فعدرت بوالدها، وأعانت على قتله وهزيمته وزوال ملكه، وكان ثمرة ذلك هو عدم ثقة زوجها بها، وقد عدت بوالدها، فكان جزاؤها قتلة بشعة، فقد ربط أطرافها الأربعة بأربعة خيول، وأجرى كلاً منها في اتجاه مختلف فقطت تقطيعاً!!..

إن هذا السياق اللغوي يفصح أيما إفصاح عن مكونات تركيبتها النفسية المنطوية على الأنانية من جهة، والاندفاع الغرائزي من جهة أخرى، ولذلك فكل ما في الوجود، وفي تلك اللحظة محصور في (لك/ لي) هذه الثنائية التي ضيّعت بها ما فات وكل ما هو آت.. إنه سياق الغدر والخيانة الذي اختارته؛ لتتحقق به نزواتها التي سرعان ما تلاشت..، ويذكر صاحب الكامل في التاريخ وغيره أنها أعلمته بالطمس الذي به يهدم سور المدينة..^{١٥٠}!!

وتسمع (جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ)، اسم رسول الله ﷺ يرفع ويشهر في الأذان، فتقول: " قَدْ لَعَمْرِي رَفَعَ لَكَ ذِكْرَكَ.. " ^{١٥١}

فقدمت (جُوَيْرِيَّةُ) الجار والمجرور " لك " وهي تستحضر في خطابها النبي محمد ﷺ وأخرت المفعول به " ذكرك "، وكأنها تستكثر عليه هذا الاختصاص بالذكر دون غيره، وهي ثقافة لم يتسن لها وهي على وشك الدخول في الإسلام طلباً للأمان أن تتخلص منها، فالقرآن الكريم ينقل لنا رأي قريش في هذا الصدد { وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ } ^{١٥٢} ، وتأتي تنمة خطاب (جُوَيْرِيَّةُ) تأكيداً لهذا التوجه، تقول: " .. وَلَقَدْ كَانَ جَاءَ أَبِي الَّذِي جَاءَ مُحَمَّدًا مِنَ النَّبُوَّةِ فَرَدَّهَا وَلَمْ يَرِدْ خِلَافَ قَوْمِهِ. "

^{١٥٠} - انظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١ / ٢٧١.

^{١٥١} - المغازي للواقدي، ٢/ ٤٦٨: " .. وَجَاءَتْ الظُّهْرُ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِلَاقَةِ الْيَدَانِ بِالظُّهْرِ فَوْقَ ظَهْرِ الْكُعْبَةِ يَوْمَئِذٍ وَفَرِيشٌ فَوْقَ رُءُوسِ الْجِبَالِ وَقَدْ فَرَّ وُجُوهُهُمْ وَتَغَيَّبُوا خَوْفًا أَنْ يُقْتَلُوا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الْأَمَانَ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ أُوْمِنَ " الروض الأنف للسهيلى، ٤ / ١٧٦. الكامل في التاريخ، لابن الأثير. ٢ / ١٣٠. ترجمتها في: الطبقات الكبرى، لابن سعد: ١٠ / ٢٤٩، أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير: ٣ / ٤٦٨.

^{١٥٢} - الزخرف / ٣١.

خطاب (ابنة الحارث بن عامر بن نوفل): وقد طلبت من وحشي قتل أحد الثلاثة بأبيها " محمد ﷺ
 أو علي بن أبي طالب أو حمزة : " فَإِنِّي لَا أَرَى فِي الْقَوْمِ كُفُوًا لِأَبِي غَيْرُهُمْ. " ١٥٣

إن هذا السياق اللغوي هو سياق تحريضي أفرزه سياق الحرب الذي فقدت فيه هذه المرأة والدها، فبدت روح الانتقام والثأر واضحة وصريحة، أما وقد قُتل الأب، فالقوم الذين قتلوه هم المقدمون لأهمية الاختصاص بالثأر منهم (في القوم)، والقوم الذين تشير إليهم مجملًا، هم من فصلت ذكرهم بدايةً ، وكأنها تأنف من تكرار ذكرهم ، وهنا تبدو المرأة ابنة سياقها الاجتماعي وما يحمله من قيم التحريض على الأخذ بالثأر والانتقام، وهي وإن كانت امرأة لا تباشر القتال بنفسها فلا بأس من تدبير حيلة أخرى تنال بها بغيتها وتطفئ بها نار نقتها..! ويغضب عمرو بن هند على بني تميم لقتلهم أخاه، فيقسم إن ظفر بهم ليقتلهم وليسبين نساءهم، فلما ظفر بهم أحمى لهم الصفا، وأمر رجالهم بالمشي عليها، فأتى بشاب ليمشي عليها وجاءت أمه معه، فلما رأت الصفا وحرارتها، قُطعت ثديها ورمت بهما على الصفا وقالت: " يابني قِ بِثَدْيِي قَدَمَكَ، وَأَقْلَلْ بُوْطُنَهُمَا أَلَمَكَ " ١٥٤.

فقدت هذه الأم (شبه الجملة الجار والمجرور): " بثديي، بوطنهما " على المفعول به " قدمك، ألك"، هذه صورة من صور التضحية والفداء قل نظيرها، فهي تريد المواساة والفداء فقدت آلة الفداء "الثديين"، وطريقة استعمال هذا الفداء "بوطنهما"، الثديان بكل ما يحملان من رمزية التغذية والحب والحنو، فهما الصدر الذي غذيها صغيرا، واحتويا ألمه وآماله كبيرا، أي مبادرة هذه التي لا تواني فيها ولا تردد، أي التفاتة لرمز الحياة ليكمل مسيرته في الحفاظ عليها فتقطعها غير مبالية بعواقب هذا الفعل على حياتها، إذ لا قيمة لهما و لا لحياتها دون هذا الابن ..!! إن فعلها هذا هو إفراز حقيقي وصادق لحالة الانتقام التي فرضت عليها و على القبيلة، وهو سياق لغوي متسق تماما مع السياق العاطفي الانفعالي بتأثير مباشر من السياق الحربي، فهذا الفصل بين الفعل والفاعل -الضمير المستتر- وبين المفعول به بشبه الجملة ، هو فصل واقعي أيضا فهي تريد فعلا فصل هذا الابن عما يؤذيه ويؤلمه..!! وهذا السياق اللغوي الذي لا فضول فيه ولا تزيد ، جاء في مرحلة ثانية بعد السياق الفعلي العملي ، أي بعد قطع الثديين ورميها، وقد لا يتمكن الابن المأخوذ بالموقف من التصرف بالشكل المطلوب، فهي أيضا ترشده إلى ما يجب عليه فعله، وأن يتقبل هذا الفداء، هذا الابن أيا كان

١٥٣- المغازي للواقدي: ٢٨٥/١. الأغاني، للأصفهاني، إحسان عباس وآخرون، ١٥ / ١٢٣. ونسب القول لجبير.

١٥٤- غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، الوطواط. ص: ٣٩٩.

برّه هل كان يستأهل هذه التضحية ..؟؟!! لم تقف لتسأل نفسها هذا السؤال، فهي أمّ تريد أن ينجو ابنها، أو أن يموت بلا ألم على أقل تقدير...!!، ولذا قيل أنها أنشدت بعد ذلك (الكامل) :

أَبْنِي لَوْ قَبِلَ الْفِدَاءَ لَجُدْتُ بِأَلِّهِ
كَبِدِ اللَّيِّ أَضَحْتُ عَلَيْكَ تَقَطَّعَ
يَأْلَيْتَ حَرَّ النَّارِ بِأَشْرَ مُهْجَتِي
أَوْ لَيْتَ خَدِّي فَوْقَ خَدِّكَ يُلْدَعُ

وهذا موقف يهز المشاعر بحق، ويقلب الموازين بصدق، حتى وإن كانت مشاعر و موازين رجل يملأ صدره الغضب ويسيطر عليه الانتقام، حتى لو كان عمرو بن هند نفسه الذي أمر بإطلاق سراح الابن ومن تبقى رحمة بهذه الأم !!..

ومنه خطاب (أمّ تَأَبَّطُ شَرًّا) في رثائه: "ولا سَقَيْتُهُ هُدْبًا، ولا أَنْمَتُهُ تَنْدًا، ولا أَطْعَمْتُهُ قَبْلَ رِيَّةٍ كَبِدًا"^{١٥٥}، إن سياق التفجع والرثاء يسوق إلى ذكر محاسن الميت، لكن هذه المرأة تؤكد ذلك بطريقتها، التي ترفع بها من شأن تربيته لهذا الشاب، وعنايته به، ويتغذيه حتى أصبح على ما هو عليه، وهي تذكر هنا ما يشبه قائمة المحظورات المادية والمعنوية (الطعام/ والحالة النفسية) !!..

إن هذه المفخرة، هي صنيعتها، إنه هذا الجهد والاهتمام اللذين أولتهما إياه حتى قُتل هذه القتيلة التي تشرف بها، إنه سياق لغوي / عاطفي تؤكد فيه ذاتها المتماهية مع هذه الذات التي فنيت من جهة، وعلى حجم الفجيرة والفقد من جهة أخرى، وحقاً أن الاتساق الصوتي قادها إلى هذا التقديم " للجار والمجور: من قبل رئة"، لكنه أيضا يشير إلى التخصيص والتشويق للمؤخر يشي بثقافتها في إطعام هذا الصغير، وخياراتها له بما يصلح شأنه ، فينشأ قويا صحيحا ،فإذا أرادت أن تطعمه "الكبد" ، فإنها لا تسبقها بالرئة، فلا تجمع له الأطعمة الثقيلة التي يعسر هضمها، فتؤذيه وتضعفه وتقعهده عن الدور الذي يجب عليه القيام به ، وتؤخره عن أن يكون الفارس المهاب الذي يجب أن يكونه..!

وهذا خطاب (سَلْمَى) زوج صخر بن الشريد بعد أن أصيب فمرض مرضا طويلا، وقد جاءت امرأة

تسأل زوجته: كيف بعلك؟ قالت: " لا حَيٌّ فِيرْجِي، ولا مَيِّتٌ فِينْسَى، لَقَد لَقِينَا مِنْهُ الْأَمْرَيْنِ".^{١٥٦}

^{١٥٥} - اللسان: (وضع)، الهدب: اللبن النخين المتكبد، وهو يثقل عليه فيمنعه من الطعام والشراب، وتندًا: أي على موضع نكد، والكبد ثقيلة فانتقت من إطعامها إياه كبدًا.

^{١٥٦} - العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٥ / ١٤٩، التعازي والمرثي للمبرد: ص: ٩١، الأغاني، للأصفهاني، إحسان وآخرون: ١٥ / ٥٦.

ف(سَلَمَى) قَدَمَتِ الجَارَ والمَجْرورَ لخصوصية الأذى الذي مصدره "صخر" زوجها، وفي هذا التقديم موقف سافر بالبرم، والضيق، والتشوف للخلاص من هذا الوضع المزري الذي لا ترى فيه سوى زوج فَقَدَ كُلَّ ما يغيرها بالبقاء معه، فليس هو الفارس الذي تعرف، ولا هو الزوج الذي تتشوف، ولا سيد القبيلة الذي تفخر به، وفوق هذا هي مجبرة على تحمل مرضه ومعاناتها اليومية، فأصبحت تتمنى أن تتخلص من هذا الحصر الخانق...!!

وكانت تُسأل (أُمُّه): كيف صخر..؟ فتقول: " أَرْجُو لَهُ العَافِيَةَ إِنْ شَاءَ اللهُ." ^{١٥٧} وهنا إفادة التخصيص بالعافية لصخر الذي يحيل إليه الضمير المتصل المجرور في "له"، مما يبرز المفارقة بين موقف الزوجة البرمة بما آل إليه حال زوجها من العلة والمرض، وموقف الأم الرؤوم التي تحيا على أمل أن يتماثل هذا الابن للشفاء...!!

تَقْدِيمُ أَجَارٍ وَالمَجْرورِ عَلى الفَاعِلِ :

ويروى أن (عَبْلَةَ) قالت لعنترة العبسي: " هَلْ بَقِيَ فِي قَلْبِكَ يَا أَبَا المَغْلَسِ إِلَى لِقَاءِ فَارِسٍ مِنْ فُرْسَانَ العَرَبِ وَاخْتِبَارِهِ أَرَبٍ ..؟ " ^{١٥٨} ، قال: نعم يزيد بن ثمامة بن الأسقع . فبينما هما في ذكره حتى هاجمهم يزيد، فواجهه عنتره، فتغلب يزيد عليه، فقالت له (عَبْلَةُ): " مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ أَتَاكَ مَا أَرَدْتَ...!! " هذه (عَبْلَةُ) تخاطب عنتره العبسي، و تستفزها بسؤال تثير به حفيظته، مستعرضة و مختزلة به تاريخ عنتره البطولي كله، سؤال تمتزج فيه قيم الفخار بقيم التحدي، وملاحظة الاستفزاز من مُحَبَّةٍ لحبيبها، وتأتي هذه الترجمة اللغوية لهذا الشعور في تركيب استفهامي يشكل انزياحا لافتا، تفصل فيه بين الفعل والفاعل (بقي أَرَبٍ)، بجملة طويلة نسبيا يتصدر الفصل فيها الجار والمجرور "فِي قَلْبِكَ..."، فهذا التأخير للفاعل، وتقديم الجار والمجرور "فِي قَلْبِكَ"، له عمقه النفسي والفكري أيضا...!!

هذا الفصل اللغوي (التركيبى) أنتجه سياق الحروب المتواصلة والغزوات المتتابعة، والانتصارات العظيمة التي حققها عنتره، حتى تحوّل إلى أيقونة في ذاكرة التاريخ العربي تمثل قيم البطولة و الفخار، هذا الفصل الطويل يلمح إلى هذه الإنجازات الكبيرة من جهة، ويترتب عليه الأمر الآخر وهو هذه الفسحة الزمنية التي يكون فيها عنتره قد حقق كل ما يريد، ولذا يأتي الفاعل (أَرَبٍ) متأخرا...! فهذا

^{١٥٧} - السابق ٥ / ١٤٩ - ١٥٠ .

^{١٥٨} - الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير، للهمداني، ص: ٤٦ .

التركيب المخصوص في خطاب (عَبْلَةُ): " فِي قَلْبِكَ" .. يكون بهذا القدر من الانزياح قد أدى وظيفة دلالية عميقة في هذا السياق !!

ويتحول سياق الحال فيتغير السياق اللغوي بناء على ذلك ، فيبدو هذا السياق اللغوي مختزلاً بلا فضول يناسب سياق العجلة والاضطرار الذي طرأ عليها وعلى عنتره بقدم ابن الأسفع في قولها " أَتَاكَ مَا أَرَدْتَ" فتقدمت (كاف الخطاب) المفعول به في (أتاك) على الفاعل (ما: الاسم الموصول)، وهو لصوق يستوجبه سياق الدهشة من موافقة قدم ابن الأسفع في لحظة التكلم عنه لتحدث المواجهة بين الفارسين ، ويتغلب ابن الأسفع على عنتره ، لتعرض لعنتره بهزيمته أمامه عبر أسلوب استفهام ينطوي على نوع من التعبير ، وفي الوقت نفسه تواصل استنطاق عنتره لتعرف خبيثته حتى وإن كانت تفرؤه بكل وضوح، إنها عبلة ، وهذه المعروفة الانفعالية المشاكسة بدءاً و منتهى.. والتي تشي بها هذه التراكيب الفاعلة والدينامية التي تضي حركية وتأثيراً في النص!

وتحت هذا العنوان يأتي خطاب (زَرْقَاءَ اليمامة): " يَاجِدَيْسُ لَقَدْ سَارَتْ إِلَيْكُمُ الشَّجَرُ وَأَتَتْكُمُ حَمِيرٌ..!" " ١٥٩ قدمت (زَرْقَاءَ اليمامة): شبه الجملة (الجار والمجرور: إليكم) على الفاعل (الشَّجَرُ) في هذا السياق التحذيري لقومها من قدوم جيش حمير، وهذا التقديم للجار والمجرور يفيد التخصيص بوقوع الأذى وقصدية وقوع الخطر عليهم دون سواهم، وتأثير هذا التقديم والتأخير يأتي ضمن فاعلية الاستعارة وديناميتها في النص، وكذلك اتكاؤها على المجاز المرسل في قولها " وَأَتَتْكُمُ حَمِيرٌ".

ومثل ذلك خطاب (حُرَّة بنت النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ) تصف حالها حين زوال الملك وحلول الذل بغزو المسلمين لهم وانتصارهم عليهم: " ..فلما أدير الأمرُ وانقضى صاحُ بنا صائِحُ الدهرِ .." ١٦٠ حيث قدمت الجار (الباء) والمجرور (نا) الدالة على الفاعلين على الفاعل (صائِحُ)، تعظيماً للمقدم، وهو الأهم الذي وقعت عليه الصيحة والارتياح منها، وهذا السياق اللغوي - الذي يقدم " نا الفاعلين"

١٥٩- التيجان في ملوك حمير، للهمداني: ص: ٣٠٩. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ١/٦٣٠. الأغاني، للأصفهاني: ٢/٨٥، إحسان عباس وآخرون، قصة المثل "أبصر من زرقاء اليمامة" في العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٣/١٣. وانظر مختصر القصة في الروض الأنف، للسهيلى: ١/٤٧-١٥١. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٢٧٣.

١٦٠- مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦/٢٨٧. الأغاني، للأصفهاني: ١٤/١٤١، إحسان عباس وآخرون، المستطرف، للأبشيهي: ٢٢١. خزنة الأدب، للبغدادي: ٧/٦٨-٦٩.

- يبدو مناهضا لما أنتجه السياق الحربي من تأخيرهم ومحو ذكركم على كافة الأصعدة، ولذا فهي أيضا تبقى متمسكة بنصرانيتها معتكفة في دبرها...!

ويقرأ في إطار هذا النوع من التقديم والتأخير خطاب (الجُمَانَة بِنْتِ قَيْسِ)، وقد تصدت للوساطة بين جدها وأبيها حين اختلفا على درع كانت لقيس، وأوشكت حرب أن تشتعل، فتدخلت لسحب فتيل الأزمة، تقول لجدها: "وَالرَّأْيُ الصَّحِيحُ تَبَعْتُهُ العِنَايَةُ، وَتُجَلِّي عَنْ مَحْضِهِ النَّصِيحَةُ".^{١٦١}

لقد أخرجت (الجُمَانَة) الفاعل (النَّصِيحَةُ) وقدمت عليه شبه الجملة " عَنْ مَحْضِهِ " لافتة الانتباه إلى أهميته في هذا السياق، وهي لا تحيد قيد أنملة عن هدفها، وهو الإصلاح بتحكيم الرأي السليم أولا، و توضح من أين يُستمد هذا الرأي الصحيح ثانيا...؟؟، فإن لم يحضر الرأي الصحيح، فالنصيحة حاضرة لسد الفراغ وإنقاذ الموقف ، وبذا يكون هذا السياق اللغوي معبرا تماما عن نبضها الوجداني ، وهما معًا معبران بصدق عن السياق المهدد بالحرب الوشيكة والتي تحاول التوسط لإيقافها .

وهذا خطاب (سُغْدَى بِنْتِ حُصَيْنِ الطَّائِيَّةِ)، أُمُّ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَأْمِ الطَّائِيِّ، حين هجاهم بشر بن أبي خازم وأراد ابنها أَوْسُ بْنُ لَأْمِ معاقبته: " خَلَّ سَبِيلَهُ وَأَكْرَمَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَغْسِلُ عَنْكَ مَا صَنَعَ غَيْرُهُ " ^{١٦٢}

فقد قدمت الجار والمجرور (عنك)، والموصول- المفعول به-وجملة الصلة (ما صنع) على الفاعل (غيره)، وقد حصرته لبيان أهميته وعظم الدور المنوط به وما يترتب عليه من أن إصلاح الضرر لا يكون إلا بيد من أفسد، وتعني الشاعر بشر بن أبي خازم الذي هجاها وابنها، وهي تعني أنه لو قتله سيثبت هجاؤه وهو عار لن يمحوه إلا قصائد مديحه...!!

أَمَّا (وَجَزَّةُ بِنْتِ الخَطِيمِ): فقد قدمت ظرف الزمان (اللَّيْلَةَ) و الجار والمجرور (في بني جعفر)، على الفاعل الموصوف (نَوْحٌ كَثِيرٌ) في خطابها، تقول: " اسْكُتْنِ ، فَوَاللَّهِ لئن كَانَ ظَنِّي "ببني عمرو وهم

^{١٦١} - نثر الدر، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي(ت٤٢١هـ)، تح:/ خالد عبد الغني محفوظ: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م، ٤/ ٦٣-٦٤.

^{١٦٢} - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكري الألوسي البغدادي (١٢٧٢هـ-١٣٤٢هـ)، تح/ محمد بهجت الأثري: دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ١/ ٨٤. خزنة الأدب، للبغدادي: ٤/٤٥٤.

الضباب " لبيتنَّ اللَّيلةَ في بني جَعفر نَوْحٌ كثيرٌ "١٦٣، ونلاحظ هذا التشويق وهذه الإثارة المستوحاة من هذا التركيب المتكى على نبض انفعالي لا يخطئ وجهته لأنه -على ما يبدو- مبني على معرفة أكيدة بالطرفين، وهي أيضا تقف موقفا لا تحسد عليه، فهي من بني الضباب وقد تزوجت في بني جعفر، ومع ذلك فهي لا تتردد ولا تتلعثم في موقفها، بل ولا تتعجل، وهي امرأة عينها على ثأرها لا تحيد عنه. ولهذا التركيب خصوصية تتعلق بالسياق، فالفجيرة والغضب يفرزان لديها تراكيب مختزلة مباشرة لا فضول فيها، بل قد تلجأ فيها إلى الاعتماد على فطنة المتلقيات وعلى المعرفة المشتركة في العالم الخارجي بينهن فتستعمل الحذف، حيث تترك لهن توقع (ما ظنها ببني عمرو بن الضباب)، فقد حذف خبر كان والتقدير: لئن كان ظني "ببني عمرو وهم الضباب" كائن أو قائم، والقصد إن كان بنو الضباب كما تعرفهم شجاعة وإقداما وحرارة في أخذ الثأر - وهم كذلك -، فلن يبيتوا على ضيم أبدا، وهذا ما حدث فعلا فقد أوجعوا بني جعفر و أخذوا بثأرهم، حتى خاف بنو جعفر من نقل قتلاهم فبعثوا النساء لذلك، أما بنو الضباب فقد احتملوا قتلاهم بأنفسهم!!..

وهذا التركيب يفتح بأسلوب إنشائي (أمر)، قسم بلفظ الجلالة، أسلوب الشرط في سياق القسم (شرطا وجوبا) يتخلل ذلك أسلوب الحذف، لتختتم عبارتها بأسلوب التقديم والتأخير الذي يضيف نكهة خاصة من الإثارة والتشويق في موقف مكتنز بالانفعال والغليان اللذين لم يعميا بصيرتها ولم يفقداها رباطة جأشها وواقعيتهما، وقد استأقت أكثر من أسلوب للتأكيد يتناسب مع حجم الموقف والمصاب، وتثبت أيضا درجة اليقين التي تتحلى بها هذه المرأة..!

تَهْرِيمُ أَجَارٍ وَ الْمَجْرُورِ عَكَى نَائِبِ الْفَاعِلِ:

كخطاب (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ) تصف حالها قبل زوال الملك وحلول الذل والفقر: " يُجِبِي إلينا خَرْجُهُ "١٦٤، فقدمت حرف الجر المتصل بـ"نا الدالة على الفاعلين" لتخصيص الدلالة على عظم الشأن في تلك المرحلة والغنى والسيطرة على البلاد ومقدراتها، وهي تشير إلى الضرر الاقتصادي الذي

١٦٣- أيام العرب في الجاهلية، على البجاوي، أبو الفضل إبراهيم: ص: ٣٠٦، "يوم هراميت، وقد قتل بنو الضباب أبا وجزة بنت الخطيم (أبا لطيفة) لحرب بينهم جاروا فيها على بني الضباب، فلما قتلوه بعثوا بملحفة مصبوغة بدمه مع البشير إلى نساتهم، وفي بني جعفر وجزة بنت الخطيم، فصرخت بنات وجزة، فقالت وجزة: (...). وقد كان ما حدثت به.

١٦٤- مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦ / ٢٨٧. الأغاني، للأصفهاني: ١٤ / ١٤١. المستطرف، للأبشيبي: ٢٢١، خزنة الأدب، للبغدادي: ٧ / ٦٨-٦٩.

تعاني منه نتيجة سياقات سياسية ودينية جديدة، وهذا السياق اللغوي يرخي بظلال من الحنين الأليم
لزمان العزّ والرخاء والأمن، خلاف سياق الحرب الذي ترزح تحته الآن...!!

ويأتي خطاب (ابنة قَيْسِ بْنِ مَسْعُودِ الشَّيْبَانِيِّ) ذي الجدين وزوج لقيط بن زرارة بن عدس حين
قُتِلَ زوجها وقد هَمَّتْ بالمغادرة إلى قبيلتها، وقد أوصاها أبوها إن قتل زوجها ألا تخمش عليه وجها
ولا تحلق رأسا، قالت: "... يَا بَنِي عَبْدِ اللَّهِ أَوْصِيكُمْ بِالْغَرَائِبِ شَرًّا، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ لَقِيْطٍ لَمْ يُخْمَشْ
عَلَيْهِ وَجْهٌ، وَلَمْ يُحْلَقْ عَلَيْهِ رَأْسٌ، وَلَوْلَا أَنِّي غَرِيْبَةٌ لَخَمَشْتُ وَحَلَقْتُ ..!"^{١٦٥}

إِنَّ (الْقُدُورَ بِنْتَ قَيْسِ) تَهَمُّ أَنْ تَغَادِرَ إِلَى قَبِيلَتِهَا الْأُمَّ بَعْدَ مَقْتَلِ زَوْجِهَا ، وَلَكِنهَا تَعْرِجُ عَلَى

أحمائها لوداعهم، فعندها وصية وشهادة، واعتذار، فالوصية هي : أن يوجهوا الشرّ للغرائب، وتقصد
الزوجات من خارج القبيلة، وتعني نفسها أيضا، والشهادة هي في حق لقيط : الذي يستحق أن تخمش
عليه الوجوه، وتُحلق لمصابه الرؤوس، واعتذار لأنها لم ولن تفعل ذلك لأنها غريبة، وبهذا تنتفي
الدهشة للوصية التي اقترحتها على بني دارم قوم لقيط، ولذا جاء تقديم الجار والمجرور (عليه) مرتين
لإفادة التنويه والتعظيم للمقتول لقيط فهو بؤرة الاهتمام...، فهي يتنازعا طرفا نقيض أيضا ، فبين
التعبير عن حزنها كما تعتمل جمرته في جوانحها وكما يستحق زوجها، وبين تلك الأدبيات التي يفرضها
عليها العزف القلبي آنذاك...!!

تَقْدِيمُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ "نَائِبِ الْفَاعِلِ" عَلَى الْفِعْلِ الْمَبْنِيِّ لِلِجَهْلِ:

وهذا حوار في قلب السياق الحربي حيث يقبض عمرو بن هند على زوجة الرجل الذي يطارده "
هَوْدَةَ بِنْتُ جَرُولٍ"، وهي (الْحَمْرَاءُ بِنْتُ ضَمْرَةَ)، ويسألها أي رجل هو؟ فتقول: أَعْنِ هَوْدَةَ يُسْأَلُ...؟! ^{١٦٦}
وفي هذا التقديم تعظيم لزوجها وتحقير لشأن السائل وتوبيخ وتبكيته له، إن هذه المعاني التي رمت
إليها وجهت بها في وجه من يهَمُّ بقتلها لتعد شجاعة منقطعة النظير...!!

^{١٦٥} - أمثال العرب، المفضل الضبي أبو العباس: ص: ٧٢. وكان لزوجها بلقيط قصة طريفة ، وفيه وصية محكمة من أبيها حين
زواجها ، وكان اسمها (القُدور).

^{١٦٦} - الأغاني، للأصفهاني: ١٩/١٢٨، إحسان عباس وآخرون. قصة المثل "صارت الفتیان حُما" في مجمع الأمثال للميداني،
١/٢٧-٤٢٨. المُنَمَّقُ فِي أَخْبَارِ قُرَيْشٍ، محمد بن حبيب البغدادي: ص: ٢٩٠. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. للشَّيْخِ
أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٣٠ هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم: دار المعارف ١٩٨٥م، ص: ١٠٧.

تقديمُ أجمارٍ والمجرورِ على المفعولِ المطلقِ أو المصدرِ

نجده في خطاب (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِرِ): "تَنْتَقِلُ بِأَهْلِهَا انْتِقَالًا.." ^{١٦٧} فهذه الدنيا المتحوّلة لا تنتقل، بالأشياء والجمادات التي لا تعقل، بل تتحكم وتنفق وترفع وتضع أهلها، أي أهل الدنيا، إن هذا الفاصل التركيبي، أعطى فاصلا زمنيا ومعنويا لهذه النقلة، وهي تتمثل حالها ولا شك، فقد كانت أميرة ابنة ملك، وهاهي اليوم فقيرة محتاجة تقف بين يدي فاتحين جدد، يدعون لدين جديد، ويملكون مقاليد الأمور، وهي نقلة على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي وكنتيجة لذلك تغير عميق على الصعيد النفسي.

تقديمُ أجمارٍ والمجرورِ على خبرِ الفعلِ النَّاسِخِ:

نلاحظه في خطاب (عجوز كنانية) لامرئ القيس بن حجر الكندي، وقد أغار عليهم للأخذ بثأر أبيه: "أَبَيْتَ اللَّعْنَ! لَسْنَا لَكَ بِثَأْرٍ، نَحْنُ مِنْ كِنَانَةَ، فِدُونِكَ تَارَكَ فَاطْلُبُهُمْ فَإِنَّ القَوْمَ قَدْ سَارُوا بِالْأَمْسِ." ^{١٦٨} ومنه خطاب (أُمِّ صَخْرِ بْنِ الشَّرِيدِ) أخي الخنساء لجارة تسأل عنه: "أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ صَالِحًا، وَلَا يَزَالُ بِحَمْدِ اللَّهِ بِخَيْرٍ مَا رَأَيْنَا سَوَادَهُ بَيْنَنَا " ^{١٦٩}

إن السياق هنا يشير إلى ما بعد الحروب والغزوات المتتالية والثأر المفترس للأرواح، والعاض بنواجذه على ما بقي من الأبدان، هنا صخر يعاني من إصابته البليغة حين أخذه بثأر أخيه معاوية، وتطول هذه المعاناة، فتتغير حياته جملة وتفصيلا، حين لا يصبح الفارس، ولا السيد المقدم، لتتغير أيضا مواقف من حوله وتسقط الأتقنة عنهم، فيظهر من يصدق المحبة ممن يدعيها، ومن أصدق حبا وتفانيا من الأم، ولذا نجدها في هذا السياق اللغوي قدمت الحمد على المكروه الذي هم فيه، بل وتجعل الحمد وسيلة للصالح، ويأتي المعادل الموضوعي للحمد، وهو الرضا والتسليم والمصالحة مع الواقع المعاش، والذي هو ضريبة العقيدة القبلية في الثأر والغزو وما يترتب عليهما، ويرشح عن هذا السياق اللغوي سياق نفسي موازي فيه الكثير من المواساة لابنها في هذا المصاب، وهي مضطرة لإظهار التجلد

^{١٦٧} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦/ ٢٨٧. الأغاني، للأصفهاني: ١٤ / ١٤١، إحسان عباس وآخرون، المستطرف، للأبشيهي: ٢٢١، خزنة الأدب، للبغدادي: ٧/ ٦٨-٦٩.

^{١٦٨} - الأغاني، للأصفهاني: ٦٨/٩، إحسان عباس وآخرون.

^{١٦٩} - عيون الأخبار أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تح/ لجنة بدار الكتب المصرية: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١٩٩٦م، ٢/ ١١٩، أصيب في يوم "ذات الأثل" وهو موضع في بلاد تيم الله بن ثعلبة. خزنة الأدب، للبغدادي: ١/ ٣٦٤.

والصبر ليستمد منها صخر ذلك، وهي تأمل أن يكون فيهما حفظا لكرامة صخر من أن يشعر بأي شكل من أشكال التذمر أو الشكوى منه !! ونلمح أيضا من هذا التقديم للحمد في الجملتين دفعا لشماتة الشامتين، وتكميماً لأفواه الشاكين، وهي تلفت النظر إلى أن وجوده وحده نعمة تستحق الحمد والشكر، وأخيراً.. تبدو أهمية هذا السياق اللغوي/ النفسي ضرورية كمضاد لسياق آخر اجترحته زوجة صخر وأذنته به...!!

تقديمُ الظرفِ على المفعولِ به :

مخطاب (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْدِرِ) تصف غدر الدنيا وزوال الملك: "وَتُعْجِبُهُمْ بَعْدَ حَالٍ حَالًا"^{١٧٠}، إنَّ تقديم الظرف المضاف "وَتُعْجِبُهُمْ بَعْدَ حَالٍ" ، وتأخير المفعول به الثاني (حَالًا) سياق لغوي يحمل دلالة نفسية، إنَّ (حُرْقَةَ) تقارن بين وضعين بينهما بونٌ شاسع، فيأتي هذا السياق اللغوي ليجسد هذا الفارق، وليرخي بعض الظلال لحالتها النفسية ، هي أيضا تستدعي فاصلا لغويا يوازي الفاصل والمفارقة بين واقعين متباينين، فاصلا يتجسد في تأخير هذا المفعول به و تقديم الظرف (بعد) ، ويجسد الأزمة والفراغ العاطفي الذي تسبب فيهما السياق الحربي حينما قلب موازين حياتها..!

تقديمُ الجملةِ الفعليةِ على المُنَادَى :

خطاب (ابنة قَيْسِ بْنِ مَسْعُودِ الشَّيْبَانِيِّ) ذي الجدين وزوج لقيط بن زرارة بن عدس، لما قُتِل لقيط وتحملت إلى أهلها مالت إلى محلة عبد الله بن دارم فقالت: "نِعَمَ الأَحْمَاءُ كُنْتُمْ يَابْتِي دَارِمَ، وَأَنَا أُوصِيكُمْ بِالْقَرَائِبِ خَيْرًا فَلَمْ أَرِ مِثْلَ لَقِيْطِ " ^{١٧١}

إن هذا سياق ما بعد الحرب، سياق متلفع بالحزن لفقد الزوج في الغزو، وهي مضطرة لأن تخلف كل حياتها وراءها، وتخرج فردا من قبيلة الزوج إلا من ثقل الذكريات الجميلة والعشرة الطيبة، وهي تريد أن تفضي لهم بذلك ، فقدمت في إطار هذا السياق اللغوي، وبتوجيه من الحالة النفسية والفكرية

^{١٧٠} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦/ ٢٨٧. الأغاني، للأصفهاني: ١٤ / ١٤١، إحسان عباس وآخرون، المستطرف، للأبيشي: ٢٢١. خزنة الأدب، للبغدادي: ٧ / ٦٨-٦٩.

^{١٧١} - العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٦/ ٨٨، من نثر الدر، للوزير الكاتب أبي سعيد منصور بن الحسين الآبي (ت ٤٢١هـ)، اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها: مظهر الحجى: منشورات دار الثقافة، دمشق، ١٩٩٧م، ٢ / ٢٧٧. أمثال العرب، المفضل الضبي أبو العباس، ص: ٧٢.

، وإظهار الامتنان والمعزة قدمت الصفات التي يتحلى بها هؤلاء القوم فهم (نِعَمَ الْأَحْمَاءِ) ويكثر من الحسرة يأتي الفعل "كنتم" الذي يدل بنقصه ومضيه على نقص حياتها ومضيها ، وتؤخر النداء "يا بني درام" وهم المعنيون بالصفات المقدمة تعظيماً لهم وتقديراً لمكانتهم!..

تقديمُ الموصوفِ على الصفِّ:

نلاحظ ذلك في تركيب النعت السببي الذي عزفت عليه تلك الفتيات الأعرابيات في وصف خيل آبائهن، كما تصف فتاة سيارة أبيها في عصرنا الحديث، فبقدر محبتها لوالدها، فهي تلتقط كل التفاصيل التي تخصه، وهاته الفتيات عمدن إلى حذف الموصوف بداية وهو "الخيول"، واكتفين بالقول: كان أبي علي...،^{١٧٢}: قالت إحداهن: "كان أبي على شقاء مقاء، طويلة الأنقاء، تمطق أنثياها بالعرق، تمطق الشيخ بالمرق"^{١٧٣}

فقد حذفت هذه الفتاة الموصوف، والتقدير (على فرس...)، ف(طويلة) صفة متقدمة على الموصوف (الأنقاء)، ووفق نظام الرتبة في الجملة فهي كالآتي: أنقاؤها طويلة، وكذلك في التركيب التالي:

فقالت الأخرى: "كان أبي على طويل بطنها، قصير ظهرها، شديد أسرها، هاديها شطرها يكبها حُضراً"^{١٧٤}، أي: (.. بطنها طويل، ظهرها قصير، أسرها شديد).

لقد جاءت هاته الفتيات إلى ساحة المعركة بعد انتهائها يتفقدن آباءهن، وكانت وسيلة التعرف على مصائرهم هي وصف خيولهم، هذا الوصف الدقيق الذي نتأمله هنا هو نتاج تربية بصرية، وتنمية لقراءة البيئة بما فيها من تفاصيل دقيقة تساعد على التكيف والتأقلم، حتى أصبحت دقة الملاحظة وسيلة المعرفة الأولى، وهي هنا وسيلة مباشرة من وسائل النجاة!..

من خلال هذا التقديم للصفة وتأخير الموصوف رسمت لنا هذه الفتيات صوراً فوتوغرافية دقيقة، وجعلت القارئ في حال من التساؤل الدائم عن الموصوف، والتشوق لمعرفة، أضف إلى ذلك

^{١٧٢} - الفاجر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٧١-١٧٢. الأمالي للقالبي: ٢/٢١٩، مجمع الأمثال: للميداني ٢/٢٤٦، وقصة المثل: "لا تعلم اليتيم البكاء". أغار قوم من العرب على قوم وأفلت منهم رجل، فتعجل الحي فلقبه ثلاث نسوة يسألن عن آبائهن، فقال لتصف كل واحدة منكن أباهما على ما كان ..؟

^{١٧٣} - شفاء: طويلة، ومقاء: إبتاع. الأنقاء: النقي: كل عظم فيه مَخ. اللسان (شقق، مقق، نقي).

^{١٧٤} - الهادي: العنق. الحُضْر: شدة العدو، والحُضْرُ والإحْضَارُ: ارتفاع الفرس في عدوه. اللسان: (حضر).

الإشارات المباشرة لعيب الموصوف وميزته، فنحن نواكب حيناً، ونتوقع مصائر هؤلاء الآباء حيناً آخر، من خلال هذه الصفات، ويبدو أن هاته الفتيات حرصن أيضاً على هذه التفاصيل حرصاً يظهر لهفتهن وخوفهن على آبائهن، كما يظهر - مع ذلك - شجاعة وتصدرا للمسؤولية والقدرة والمبادرة على استطلاع الأخبار والوقوف على نتائج المعركة .

تَقْرِيمُ الْمُقْسَمِ بِهِ عَلَى جُمْلَةٍ خَبِرَ أَحْرَفِ النَّاسِخِ (إِنْ):

كقول (هند بنت عتبة): " إِنَّكَ وَاللَّهِ سَلِمْتَ يَوْمَ بَدْرٍ فَرَجَعْتَ إِلَى نِسَائِكَ ؛ نَعَمْ نَخْرُجُ فَنَشْهَدُ الْقِتَالَ فَقَدْ رُدَّتِ الْقِيَانُ مِنَ الْجُحْفَةِ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى بَدْرٍ فَقَتَلْتُ الْأَحِبَّةَ يَوْمَئِذٍ. " ١٧٥

فقد فصلت (هند) هنا بين اسم الحرف الناسخ (الضمير المتصل: الكاف) وخبره، الجملة الفعلية (سلمت)، بالقسم، والذي هو للتأكيد، من جهة، وللتشويق للمقسم عليه من جهة أخرى ، أضف إلى قيمته المعنوية، حيث يظهر حرقة قلبها وتحديها رفضها لما يدعوها إليه من القعود وعدم الخروج إلى المعركة ، مستدعية أكثر من أسلوب للتوكيد يتنوع ما بين القسم والتقديم والتأخير، والعطف بالفاء) سلمت فرجعت / نخرج فنشهد/ ردت فقتلت (أضف إلى ذلك البهجة التي يضيفها أسلوب الالتفات على التركيب !!..

وبذا نلاحظ أن التقديم والتأخير في هذه النماذج المنتقاة من خطاب المرأة في سياق الحرب جاء استجابة لطاقة الموقف الاتصالي، وما تفرضه ضرورات السياق المصاحب، وأن هذه النصوص كانت إفرازا حقيقيا لسياق الحرب، أفضت فيه المرأة بطاقة شعورية مضاعفة في سياق لغوي معبر، تراوح الغرض من التقديم والتأخير فيه على التعظيم، أو التحقير، أو للاهتمام بالمقدم أو المؤخر بحسب السياق، ونلاحظ أيضا مدى الفاعلية التي أضفاها هذا التقديم والتأخير من مضاعفة المعنى المنوط بالعبارة المعنية، ولفت الانتباه إلى مقاصدها من خلال هذا الأسلوب اللغوي، ونلاحظ أيضا غلبة تقديم المتعلقات وخاصة الجار والمجرور على باقي أنماط التقديم والتأخير !!..

١٧٥ - المغازي للواقدي، ٢٠٢/١، في غزوة أحد حينما اعترض نُوْفَلٌ بِنُ مُعَاوِيَةَ الدَّيْلِيِّ على خروج النساء إلى معركة أحد !!.. فَبَاءَ نُوْفَلٌ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ فَقَالَ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ فَصَاحَتْ هُنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ: (...)

أُسْلُوبُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ

فِي (عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

أولاً / تقديم المسند إليه في الجملة الاسمية :

من أمثلة هذا التقديم للمسند إليه في الجملة الاسمية، خطاب في سياق ما قبل الحرب، نلحظه في هذا الخطاب الرصين لـ (أُم رِغْلَةَ الْقَشِيرِيَّةِ)، التي وفدت على النبي ﷺ، وكانت امرأة ذات لسان وفصاحة فقالت: "السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، إِنَّا ذَوَاتُ الْخُدُورِ، وَمَحَلُّ أُرْرِ الْبُعُولِ، وَمُرِّيَّاتُ الْأَوْلَادِ، وَمُمَهَّدَاتُ الْمِهَادِ، وَلَا حَظَّ لَنَا فِي الْجَيْشِ الْأَعْظَمِ ، فَعَلِمْنَا شَيْئًا يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ".^{١٧٦}

ما يُلحظ في هذا الخطاب القصير المركز المختزل، ليس انحرافاً أسلوبياً في بنية الخطاب الداخلية، بل انزياحاً أسلوبياً عن شكل الخطاب العام في عصر النبوة، حيث لا تزال هذه المرأة تحتفظ بنفس البداوة، وعلى صعيد الانحراف الأسلوبي في البنية الداخلية المنوطة بمستوى التقديم والتأخير، يُلحظ تقديم المسند إليه الاسمي: (إِنَّا) للتخصيص، وتبرز قيمته الشكلية والمعنوية في إحالة جملة الأخبار على هذه الذات النسوية الجمعية، فيشكل بذلك نقطة مرجعية، ومرتكزاً إحاليّاً، يجعل من هذه الذات الجمعية إشعاعاً لمضامين هذا الخطاب، ليرتبط الذهن بها قسراً، لا يتفقت لأي اتجاه آخر، وهذا يعطي قوة ودعماً قويين على صعيد الإقناع بهذا الخطاب، وفرض هيمنته على المتلقي، بحيث يكون وحده سلطة منجزة، لها تأثيرها المباشر في إحداث التغيير وفق مطالب الخطاب نفسه...!!

ومثله في ذلك خطاب (أَسْمَاءُ بِنْتُ يَزِيدِ بْنِ السَّكَنِ)، - وهي وافدة النساء وخطيبتهن - التي تعتلج في نفسها رغبة لا يمكن مقاومتها أو الصبر عنها أو السكوت عليها، ليس لأنها رغبة شخصية، أو مطلب دنيوي ، أو دعة مستطابة، أو نعيم مادي...!! تقول:

"بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَافِدَةُ النَّسَاءِ إِلَيْكَ، وَأَعْلَمُ - نَفْسِي لَكَ الْفِدَاءُ - أَنَّهُ مَا مِنْ امْرَأَةٍ كَانَتْ فِي شَرْقٍ وَلَا غَرْبٍ سَمِعَتْ بِمَخْرَجِي هَذَا أَوْ لَمْ تَسْمَعْ، إِلَّا وَهِيَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي؛ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَكَ إِلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ كَافَّةً فَأَمَّا بِكَ وَيَا إِلَهَكَ، وَإِنَّا - مَعَشَرَ النَّسَاءِ - مَحْضُورَاتٌ، مَقْصُورَاتٌ، قَوَاعِدُ بُيُوتِكُمْ، وَمَفْضَى شَهَوَاتِكُمْ، وَحَامِلَاتُ أَوْلَادِكُمْ، وَإِنَّكُمْ - مَعَاشِرَ الرِّجَالِ - فَضَلْتُمْ عَلَيْنَا بِالْجَمْعِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى، وَشُهُودِ الْجَنَائِزِ، وَالْحَجِّ بَعْدَ الْحَجِّ، وَأَفْضَلِ مِنْ ذَلِكَ، الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ

^{١٧٦} - أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير: ٣٣١/٦. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، تح/علي محمد الجاوي: دار الجيل، بيروت، ط ١٤١٢هـ، ٨١ / ٨ . ٢٠٤ .

إِذَا خَرَجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ مُرَابِطًا، حَفَظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ، وَعَزَلْنَا لَكُمْ أَثْوَابَكُمْ، وَرَبَّيْنَا لَكُمْ أَوْلَادَكُمْ؛ فَمَا نُشَارِكُكُمْ فِي هَذَا الْخَيْرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ...!!؟"

أوردنا هذه الخطبة كاملة، لنضارة كانت لها وغضارة ولا تزال على صعيدي الشكل والمضمون، وكأنها فعلا لسان وجدان كل امرأة وضعت الله نصب عينيها، فحينما ألقته هذه السيدة على النبي ﷺ في جمع من الصحابة، قد أحدثت صدمة جمالية على صعيد الشكل والمضمون، بداية من النبي ﷺ، الذي شهد لها، كما آمن الصحابة على ذلك، وانتهاء بكل من يسمعها أو يقرأها...!!

هذه الغاية التي ذروتها مشاركة أجر الجهاد في سبيل الله، نراها تتوسل لتلك الغاية أسلوبا قائما على الإبقاء على رتبة المسند إليه الاسمي مقدما للتخصيص : "أَنَا وَأَفِدَةُ النِّسَاءِ إِلَيْكَ...^{١٧٧}" ، إنه خطاب لا يترك للمتلقي حرية التوقعات، بل خطاب مباغت، حاجي إقناعي تبسط فيه الحجج المنطقية القائمة على الموازنة الدقيقة بين الحقوق والواجبات التي للمرأة أو عليها مقارنة بأدوارها في الأحوال المتعددة، ،لحمل المتلقي على قبول مطلبها، والتحول نحو وجهتها بكثير من الصدق والذكاء، في مشهدية لافتة، حيث تنبسط على مسرح الحدث، وتحتل فضاء الخطاب ،وتأخذ بلباب الجمهور، المعني من طرف خفي ،فهي لا تريد الجواب لها وحدها، بل تريد للطرف الآخر (الرجل) أن يستمع ويعرف، ليلتزم، وتبدأ بتقديم متوازن ومواز: أنا/ النساء، ثم الطرف المحاصر مجازا، المتلقي (النبي ﷺ) حيث عنده وحده مقاليد الأمر، وتحدث مواجهة تمثل طرفي العملية الاتصالية في هذا الخطاب، (أنا، النساء/ النبي)، فهي لا تمثل نفسها، وإن أخذت دور الصوت الجمعي الناطق ، حيث تذوب الذات المفردة في الذات الجمعية، لتشكل قوة ضاغطة، كإحدى وسائل الإقناع، والهدف المشاركة في الأجر وفي أفضل الأعمال وهو الجهاد...!!

وفي سياق الحرب، نجد موقفا لافتا نحاول استلهامه هنا قدر المستطاع، فمع اختزاله، فإن ظلالات وإيماءات تتراءى على مستوى الشكل والمضمون في هذا الخطاب، ونعني به خطاب زوج حنظلة (جميلة

^{١٧٧} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١/٥٢٥. انظر الإصابة في تمييز الصحابة (ومعه الاستيعاب في أسماء الأصحاب للفقير الحافظ القرطبي المالكي ٤٦٤، ٣٦٣هـ)، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكنانى العسقلاني الشافعي المعروف بابن حجر. (٧٧٣، ٨٥٢هـ)، دار الكتاب العربي: بيروت، ترجمتها في : ٤/٢٢٩. والخطبة في: الاستيعاب (المطبوع بهامش الإصابة) : ٤ / ٢٣٣ .

بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سَلُولٍ) أَشْهَدَتْ أَنَّ زَوْجَهَا دَخَلَ بِهَا، فَاسْتَشْهَدَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَسَأَلْتُ عَنْ هَذَا الْإِشْهَادِ فَقَالَتْ: " .. رَأَيْتُ كَأَنَّ السَّمَاءَ فُرِجَتْ فَدَخَلَ فِيهَا حَنْظَلَةٌ ثُمَّ أُطْبِقَتْ فَقُلْتُ : هَذِهِ الشَّهَادَةُ." ١٧٨

هذا السياق سياق لافت حقاً، على الصعيد العقدي، وكيف تغير العقيدة الحقة النفوس وتهذبها، وترتقي بها مدارج الكمالات الروحية وتفتح لها آفاق المشاهدة، حيث بنت خطابها كله على رؤيا رأتها في منامها عن زوجها...!!

كان ذاك على الصعيد الروحي الباطني، أمّا على صعيد السياق الخارجي المصاحب (الاجتماعي)، فما هذه المرأة سوى عروس، تأخذها اللهفة على زوجها فتستبقيه إلى جانبها، إلى أن يسمع (الهيعة^{١٧٩}، أو الهاتفة) فيبادر بالخروج دون مهل أو تردد، استجابة لنداء الجهاد، ونصرة للمسلمين، حتى إنه لا يتمكن من الاغتسال، فيكون ذلك شرفه الذي به يتوج (غسيل الملائكة)، وهنا لا نجدها تستمله أو تستبقيه، ويا للإيمان والتسليم لأمر الله وأمر رسوله الكريم ﷺ، ومع ذلك تبادر هي مبادرة أخرى موازية و غريبة؛ تستحضر شهوداً على دخوله بها، قاصدة استبراء شرفها، وطهارة نسلها إن كتب الله لها ولداً من زوجها، وألا تُنَّهَم في نفسها بريئة أيضاً...!! وبإلها من نظرة بعيدة ثاقبة، هذا الموقف أثار دهشة الشهود وعجبهم حتى استفهموا منها...!!

كل ذلك لأنها رأت هذه الرؤيا التي عبرتها وأولتها ب(الشهادة)، ولذا جاء خطابها التأويلي مفتتحاً باسم إشارة حفظت له رتبته المتقدمة على الابتداء، حيث تلفت إلى بؤرة الخبر أيضاً (الشهادة)، فتضفي عليه من معاني التوكيد واللّفت ما تضفي، قدمت إذن؛ المسند إليه (اسم الإشارة: هذه) وهو مما له الصدارة في الجملة، حيث الإشارة إلى البشارة والتشويق لها، وهي بشارة الشهادة.

١٧٨- المغازي للواقدي. ٢٧٣/١. وتفصيل الخبر: " قَالُوا : وَكَانَ حَنْظَلَةُ بِنْتُ أَبِي عَامِرٍ تَزُوجُ جَمِيلَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سَلُولٍ ، فَأَدْخَلَتْ عَلَيْهِ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي فِي صُبْحِهَا قَتَالَ أُحُدٍ . وَكَانَ قَدْ اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبِيتَ عِنْدَهَا فَأَذِنَ لَهُ فَلَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ عَدَا يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَزِمَتْهُ جَمِيلَةُ فَعَادَ فَكَانَ مَعَهَا ، فَأَجْنَبَ مِنْهَا ثُمَّ أَرَادَ الْخُرُوجَ وَقَدْ أُرْسِلَتْ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى أَرْبَعَةٍ مِنْ قَوْمِهَا فَأَشْهَدَتْهُمْ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ بِهَا ، فَقِيلَ لَهَا بَعْدَ لَمِ أَشْهَدْتَ عَلَيْهِ ؟ قَالَتْ : رَأَيْتُ كَأَنَّ السَّمَاءَ فُرِجَتْ فَدَخَلَ فِيهَا حَنْظَلَةٌ ثُمَّ أُطْبِقَتْ فَقُلْتُ : هَذِهِ الشَّهَادَةُ فَأَشْهَدْتُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ بِهَا . "السيرة النبوية لابن هشام: ٧٥/٢. الروض الأنف، للسهيلى: ٣/ ٢٥٨-٢٥٩. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٥٢٣. زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية: ٣/ ١٧٩. البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ٢١.

١٧٩- وفي سيرة ابن هشام: ٧٥/٢. وقعة أُحُدٍ. "والهيعة الصبيحة التي فيها الفرع".

ومن معترك الحرب حيث المعادل الآخر المشرك المتمسك بعنجهية الكفر والضلال ظلما وعدوانا، تفرُّ هذه المرأة بدينها عن الفتنة، وهي: (أُمُّ كَلْتُومِ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ)، تصل إلى الميدان الآخر حيث رسول الله ﷺ، وحيث تنشد السلام والسكينة والأمان على نفسها ودينها، وفي خطاب سردي طويل تسرد فيه تفاصيل رحلتها، نتوقف على خطابها للنبي ﷺ :

" يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي فَرَرْتُ بِدِينِي إِلَيْكَ فَاْمَنْعَنِي وَلَا تَرُدَّنِي إِلَيْهِمْ يَفْتِنُونِي وَيَعَذِّبُونِي ، فَلَا صَبْرَ لِي عَلَى الْعَذَابِ إِنَّمَا أَنَا امْرَأَةٌ وَضَعُفُ النِّسَاءِ إِلَى مَا تَعْرِفُ وَقَدْ رَأَيْتُكَ رَدَدْتَ رَجُلَيْنِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ حَتَّى امْتَنَعَ أَحَدُهُمَا ، وَأَنَا امْرَأَةٌ." ١٨٠

لا شك أن هذه (المرأة) استثنائية في خيارها هذا، ركبت الأهوال، وتحدت خطر التجول، لتثبت على دينها، وهي على ذلك كله تكرر "أَنَا امْرَأَةٌ". ، أي ضعيفة ولا حيلة لي ، ولا حول لي ولا قوة، لنعلم علم يقين كيف تحدث نفسها ، وتفوقت عليها ، لتتمكن من تحقيق هذا المنجز الفعلي على أرض الواقع، تفعل هذا في ظروف صعبة جدا، حيث معاهدة بين الطرفين وهي ما يعرف بـ(صلح الحديبية)، ومنها أن يعيد معسكر النبي ﷺ كل من يفر إليه مسلما من مكة، ومع ذلك جازفت بهذا القرار، وأقدمت عليه ، وهي تريد بذلك أن تفعل ما تسعه طاقتها وتستنفذ جهدها للحفاظ على دينها، وعلى نفسها من القتل والتعذيب الجسدي وهو أكثر ما تخشاه، لأن ضعفها من هذه الناحية قد يجعلها ترتد عن دينها، وهذا ما لا تحتمله ولا تبغيه.. ومن أجلها وأمثالها، تغيرت شروط المعاهدة.. فلا تُردُّ النساء المسلمات المهاجرات ونزلت فيهن سورة الممتحنة {يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ .. } ١٨١ !!

إن هذا الخطاب خطاب لاهث، إن جاز التعبير، متدفق وسريع، يظهر ذلك طبيعة متوالية الجمل فيه، ونوعها أيضا، ونوع الخطاب نفسه بدءًا ومنتهاى، حيث يلحظ الناظر العابر أنها قد تجوزت في خطاب النبي الكريم ﷺ بعض المعايير المتعارف عليها !!..

١٨٠- المغازي الواقدي: ٢/٦٣٠-٦٣١. وفيه " لَا نَعْلَمُ فَرُشِيَّةً خَرَجَتْ بَيْنَ أَبَوَيْهَا مُسْلِمَةً مُهَاجِرَةً إِلَى اللَّهِ إِلَّا أُمُّ كَلْتُومِ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ". كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد: ١٠ / ٢١٨-٢١٩-٢٢٠. وفيه: "...أسلمت في مكة وبايعت قبل الهجرة..".
١٨١- الممتحنة/ ١٠.

وحيث الذات المتكلمة هي محور الاهتمام، سلامة هذه الذات ونجاتها، أمنها واستقرارها، و المخاطر التي تعرضت لها، مخاوفها وهواجسها، هذا الالتفات نحو هذه الذات أفرز خطابا تقدم فيه المسند إليه (اسم إن: ياء المتكلم) للتخصيص، والضمير المنفصل (أنا) مرتين، يعضد ذلك هذا التواتر اللافت لـ (ياء المتكلم) على فضاء الخطاب !!..

ومن قلب الحدث ، و في سياق الحرب، يأتينا هذا الخطاب، حيث تُستخبر (أُمُّ عُمَارَةَ نُسَيْبَةَ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ) عن يَوْمٍ أُحُدٍ ، فتقول:

"خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ وَأَنَا أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ وَمَعِيَ سِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، فَأَنْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي أَصْحَابِهِ وَالِدَوْلَةَ وَالرَّيْحُ لِلْمُسْلِمِينَ . فَلَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ انْحَزْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكُنْتُ أَبَشِيرُ الْقِتَالَ وَأُدَبُّ عَنْهُ بِالسَّيْفِ وَأَرْمِي عَنِ الْقَوْسِ حَتَّى خَلَصْتُ الْجِرَاحُ إِلَيَّ . " ١٨٢

إنَّ (أُمُّ عُمَارَةَ) تتوقف على مفصل حرج من مفاصل تلك الوقعة المؤلمة، وذلك التخاذل الذي كشف جيش المسلمين وألحق بهم الهزيمة، وكيف ترك رسول الله ﷺ وحده، وقد فرَّ عنه الناس، وتكالب عليه العدو ، فاضطرت هذه السيدة لأن تعدل من استراتيجية الدعم الخاص المنوط بها في هذه المعركة، وغيرت وجهة نشاطها، يكشف عن ذلك هذا الخطاب، ولا نريد التوغل في جو السرد القصصي الإخباري لهذا الخطاب، بقدر ما نتوقف عند إيقاع التقديم والتأخير في إبراز الحدث ، واللفت للمضامين التي من أجلها تم هذا السرد (أو الرواية بمعناها الإخباري)، فجاء تقديم المسند إليه الاسمي لتخصيص مرجعية الحدث، والتقديم في هذا الخطاب يكشف أن لها نظرة استكشافية، لقراءة سير المعركة والوقوف المباشر على نتائجها، ويظهر أيضا هذا الحرص على إثبات مرجعية الإخبار أكثر من الاعتماد على إخبار المخبرين لها، فهي التي توثق الحدث مما يعطي سردا مصداقية وخبرها توكيدا: " وَأَنَا أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ .."، ثم هي بعد ذلك لا تقف موقف المتفرج على الأحداث، بل تتجاوب إيجابيا معها ، وتتخير جهة تصطف إليها، حتى بعد انقسام المعسكر ، وفرار الفارين، تحار بكل سرح كما ورد في خطابها هذا، وفي خطاب آخر لها، نجد خطابا لأدعا تحريضا ومُبَكِّتًا للفارين...!! وهذا يميظ اللثام

١٨٢ - سيرة ابن هشام: ٨٢ / ٢ . المغازي للواقدي: ١ / ٣٦٨ . البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٣٤ . الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤٣ .

عن نوع النساء اللاتي صقلهن الإسلام، وهذبتهن العقيدة الجديدة، فأصبحن سيفاً في سبيل الحق لا يخشين في ذلك لومة لائم...!!

وفي سياق ما بعد الحرب التي خاضها المسلمون الأوائل في مكة، هي حرب التهجير، وهي نمط مكرور من أنماط الحرب وتداعياتها إلى يومنا الحالي، ولا يكون حتى تضيق الأرض بأهلها، وهذا ما تعرض له المسلمون في مكة، تلك الحرب النفسية و ذلك التعذيب الجسديّ ، حتى أذن الله لهم بالهجرة، وفي المهجر تعرضوا أيضاً لكثير من الأذى، ولذا فإن من أودي أو أنفق أو قام بأي عمل ولو كان يسيراً قبل الفتح والهجرة، فله مكانة خاصة عند الله ، ولا يقبل هؤلاء المهاجرون أن يُلْمز إليهم بأي صغيرة في هذا الشأن، حتى لو كان ذلك على سبيل الطمع في الاستباق إلى رضوان الله تعالى، وبين أيدينا خطاب حجاجي يمكن وصفه تجاوزاً بالمشادة الكلامية بين المهاجرة إلى الحبشة (أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ)، والخليفة الثاني (عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-)، ونورد سياق الخبر لتكتمل المشهدية: فَقَالَتْ لَهُ: " يَا عُمَرُ كَلَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْعَمُ جَائِعَكُمْ ، وَيَعْطَى جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي أَرْضِ الْبُعْدَاءِ الْبُغْضَاءِ وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرِبُ شَرَابًا حَتَّى أَذْكَرَ مَا قُلْتِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ كُنَّا نُؤَدَى وَنَخَافُ وَسَأَذْكَرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ لَا أَكْذِبُ وَلَا أَرْيغُ وَلَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عُمَرَ قَالَ كَذَا وَكَذَا .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قُلْتِ لَهُ ؟ قَالَتْ : قُلْتِ لَهُ كَذَا وَكَذَا . فَقَالَ لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ وَلَهُ وَالْأَصْحَابِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلُ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ " . ١٨٣

و يُلحظ هنا تقديم المسند إليه الاسمي الجمعي (ضمير المتكلمين: نَحْنُ)، حيث كانت ترى أن انتقاصه ليس منها وحدها بل بما ومن تمثله، ويكل ما مروا به من آلام وأحزان ومشقة سفر و غربة، فتقدم المسند إليه (نَحْنُ) المتصدر لجملة الحال الماضية : "... وَنَحْنُ كُنَّا نُؤَدَى وَنَخَافُ ..."، إشارة

١٨٣- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (٦٩١هـ - ٧٥١هـ) تح/شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٧، ١٥/٤١٥هـ / ١٩٩٤م. ٣/ ٣٣٢. وفيه: وَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ عَلَى حَفْصَةَ فَدَخَلَ عَلَيْهَا عُمَرُ فَقَالَ مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَتْ أَسْمَاءُ . فَقَالَ عُمَرُ : سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ نَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْكُمْ فَعَصَبْتِ وَقَالَتْ: "...البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ٢٠٥.

إلى أن ذاك الأذى كان من الفظاعة للحد الذي جعلهم يخافون، فلم يكن أذىً سطحياً، أو عابراً، بل هم عاشوا رعباً حقيقياً هناك.

وفي سياق ما بعد الحرب أيضاً، بل بعد سنوات من انتهائها، نجد خطاباً نافرماً أسلوبياً، يبرز تنوعاً ونفوراً أخلاقياً واجتماعياً، يكشفه التركيب الداخلي لهذا الخطاب، ويسفر عن خبيثة المتكلم، وعلى نحو غير متوقع، حيث يكشف لنا السياق العام أن في غور النفس ثارات لم تمح، وقهراً لا ينسى، وتراكمًا يثقل الروح حتى تكاد تنفجر عند أقل مقارنة، وأن عمل الإسلام في النفوس ليس واحداً، وهنا تتجلى قيمة الخطاب التلقائي الفوري لأنه المسؤول، أو هو الوسيلة لإسقاط الأفتنة، نقرأ ذلك في خطاب خاطف وناري بين (أسماء بنت مخرّبة بن جندل، والربيع بنت مَعُوذٍ) ترويه الأخيرة، حيث تتواجه المرأتان قدرًا في نشاط اجتماعي اقتصادي، فلا يكون من صفتها إلا (ابنة القاتل، وابنة القتيل) يتم ذلك في مشهدية نسوية، أثناء عملية بيع وشراء، كان من الممكن أن تمرّ بسلام لو لم تذكر (الربيع بنت مَعُوذٍ) اسمها، لتفسد العملية برمتها: فقالت أسماء:

" حَلَقِي... وَإِنَّكَ لَابْنَةُ قَاتِلِ سَيِّدِهِ؟ " قالت الربيعُ : لا وَلَكِنْ ابْنَةُ قَاتِلِ عَبْدِهِ! قالت: وَاللَّهِ لَا أُبِيعُكِ شَيْئًا أَبَدًا. فقلت: وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أُشْتَرِي مِنْكَ شَيْئًا أَبَدًا، فَوَاللَّهِ مَا بِطَيْبٍ وَلَا عَرَفٍ، وَ وَاللَّهِ يَا بَنِيَّ مَا شَمَمْتُ عَطْرًا قَطُّ كَانَ أَطْيَبَ مِنْهُ وَلَكِنِّي غَضِبْتُ. " ١٨٤

هنا حيث يكون لتقديم المسند إليه الاسمي وجاهته، بل وتسلسله المنطقي وفق تدرج الخطاب، وهو يفيد تخصيص الرفعة والسمو لذاتها المهانة من قبل المخاطب: " و أنا..". مع تكراره للتوكيد مضمرًا مع كل فعل قائلته، وهي هنا تضع نفسها موضع الندية مع المخاطبة، وتتكبر عليها وتترفع

١٨٤- كتاب المغازي للواقدي. ١/٨٩. الطبقات الكبرى لابن سعد. ٨/٢٤٨. في ابني عفرأ وما فعلاه. وقد ضبط المحقق الاسم: (مُخَرَّبَةٌ)، معتمداً على صاحب الطبقات الكبرى، وعن سائر النسخ ما عدا الأصل. ويذكرها، لابن الأثير: صاحب أسد الغابة، في ترجمة عياش بن أبي ربيعة. ٤/٣٠٨، و٧/٩، ١٠، ١٤. وهي: أسماء بنت مخرّبة بن جندل بن أبير بن نَهْشَل بن دَارِم من بني تميم وأما العناق بنت الجبار بن عوف بن أبي حارثة بن زيد بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل تزوجها هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم فولدت له أبا جهل والحارث ابني هشام ثم مات عنها هشام بن المغيرة فخلف عليها بعده أخوه أبو ربيعة بن المغيرة فولدت له عياشا وعبد الله وأم حجير بنو أبي ربيعة أسلمت أسماء وبايعت وقدمت المدينة وبقيت إلى خلافة عمر بن الخطاب أو بعدها. والحكاية ترويها الربيع بنت مَعُوذٍ بن عفرأ، حين ذهبت تشتري عطرا من أسماء، وقد قُتِل أبو الربيع والد أسماء، فقالت لها أسماء لما عرفتها: "وإنك..."

عنها، كما تترفع وتتكبر أسماء عليها، إذ نلاحظ أنَّ (حَلَقَى) مصطلح جاهلي الهوى، مرتبط بعادات جاهلية لا يقرها الإسلام، مما يجعله خطاباً متسقاً بدءاً ومنتهاً...!

ثانياً / تَقْرِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ :

والمسند إليه في الجملة الفعلية؛ قد يكون الفاعل أو نائبه، وغالبا ما يكون ضميرا متصلا لفعل لازم أو متعدٍ، وحيث يحتفظ الفاعل أو نائبه برتبته، ولكن هذا الاحتفاظ برتبته المتقدمة، إنما له دلالاته الأسلوبية في السياق اللغوي، والحربي...!!

ونورد لذلك خطاب (الْمَرْأَةُ الْغِفَارِيَّةِ مَعَ نِسْوَةٍ شَهَدْنَ خَيْبَرَ)، وهو سياق قبلي، أي ما قبل الحرب نفسها، قالت الغفارية، الناطقة بالضمير الجمعي:

".. يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ إِلَى وَجْهِكَ هَذَا " تقديم المسند إليه (الفاعل) الضمير المتصل(نا- الدالة على الفاعلين) تعاضده (نون المضارعة في الفعل: نَخْرُجُ، ثم سلسلة الأفعال التالية في الخطاب) لتؤكد المعنى وتوثقه من جهة، ولتؤكد حضور الذات الجمعية، وأنَّ الخيار ليس خياراً فردياً، بل هو خيار جمعي، مما يشكل دعماً وقوة إقناعية للخطاب، وهذا السياق اللغوي في تقديم المسند الفعلي إنما هو للتخصيص و للتصميم على هذا الخيار، ولإظهار وضوح الرؤية، والفعل الإرادي المحض الذي تنطلق منه هاته النسوة، وهذا الخيار الإرادي قائم على معرفة تامة بالمقدمات والنتائج المترتبة عليه، حيث يعبرن عن ذلك بـ(الوجه)، أي كان هذا الوجه، ربما...، إلا إن السياق اللغوي يحدد لنا هذا الوجه المخصوص (وَجْهِكَ هَذَا) والمعنى هو: الجهاد، وكانت معركة خيبر الشرسة...!! وللذهاب بعيدا في الإقناع، نجد هاته النسوة يحددن خريطة دعمهن اللوجستية المقترحة، والمفتوحة على كافة الاحتمالات في المعركة: " يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ إِلَى وَجْهِكَ هَذَا ... فَنُدَاوِي الْجَرْحَى ، وَنُعِينُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا اسْتَطَعْنَا " ١٨٥

١٨٥- السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٤٢-٣٤٣، الروض الأنف، للسهيلى، ٤ / ٨٦- ٨٧، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٢٠٤.

ومثل هذا التقديم نجده في غير خطاب مشابه بهذا السياق، ومنه خطاب (أَمْ سَعِدِ بْنِ مُعَاذٍ) لَمَا بشرها النبي ﷺ بأن قتلى المسلمين في الجنة قَالَتْ: " رَضِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَبْكِي عَلَيْهِمْ بَعْدَ هَذَا ؟ تُمْ قَالَتْ : أَدْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنْ خُلُفُوا . " ١٨٦

إنَّ هذا التقديم للفاعل إنما هو لإظهار عموم التسليم والرضا بقضاء الله، رغم فجيعة الثكل والفقد، فدم الشهداء لا يزال نازفًا فوارًا، وأجسادهم ماثلةً شاهدةً أمام العيان، والحرقة تقطع أكباد الأمهات والآباء وذوي القربى، يهون على هاته النسوة الثكلاوات عظم الجزاء لهنَّ ولقتلهنَّ.. بل ويتطور الموقف الإيجابي من هذا الحدث المترتب على المشاركة في القتال، والجهاد إلى أن هذا الضمير المتصل الجمعي يطمع أن يلقي المصير نفسه، ويتطور إلى أكثر من رغبة مضمرة، إلى سؤال للنبي ﷺ بأن يدعوا لهم بذلك، علما بأن دعاء النبي ﷺ مستجابا مما يعكس مستوى الرضا والتسليم والصدق الذي يُستشف من هذا الخطاب.. إننْ نلاحظ أن هذه العقيدة جعلت هذه النفوس التواقفة لرضا الله ورسوله ﷺ لا تفتن باليسير في هذا المجال، بل تتسامى على نفسها سموًا تقشعر له الأبدان.. !!

ثَانِيًا/ تَقْرِيمُ الْمُسْنَدِ :

يتنوع المسند بين كونه فعلا تاما أو اسم فعل أو مصدرا نائبا عن فعل الأمر، أو خبرا للمبتدأ، أو ما كان أصله خبرا، كَخَبِرَ (كان وأخواتها أو إن وأخواتها)، أو المفعول الثاني للفعل (ظن)، والمفعول الثالث للفعل (رأى) .

الفِعْلُ التَّامُّ الْمُثَبَّتُ وَالْمَنْفِيُّ:

وفي سياق مقدمات الحرب وإرهاصاتهما، نجد أمَّ المؤمنين (جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ) يلقى في روعها، فترى رؤية تخبر عنها بعد إسلامها:

'قَالَتْ جُوَيْرِيَةُ : رَأَيْتُ قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِثَلَاثِ لَيَالٍ كَأَنَّ الْقَمَرَ يَسِيرُ مِنْ يَثْرِبَ حَتَّى وَقَعَ فِي حِجْرِي ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُخْبِرَهَا أَحَدًا مِنْ النَّاسِ حَتَّى قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَلَمَّا سُبِينَا رَجَوْتَ الرَّؤْيَا ، فَلَمَّا أَعْتَقْتَنِي وَتَرَوَّجْتَنِي وَاللَّهِ مَا كَلَّمْتَهُ فِي قَوْمِي حَتَّى كَانَ الْمُسْلِمُونَ هُمْ
الَّذِينَ أَرْسَلُوهُمْ وَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِجَارِيَةٍ مِنْ بَنَاتِ عَمِّي تُخْبِرُنِي الْخَبَرَ، فَحَمَدْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ" ١٨٧

فتصديدها للمسند (الفعل التام المثبت) "رَأَيْتُ"، له وجاهته في هذا الخطاب، حيث نلاحظ أن كل ما يأتي لاحقا مترتب ومبني عليه، وهي (رؤيا) صادقة، تخبر عنها بعد أن أصبحت يقينا واقعيًا، ونرى السياق اللغوي في هذا الخطاب يتجه نحو تقديم هذا المسند (الفعل) في مفاصله، ونرى هذا الحراك والفاعلية الفكرية والنفسية، وما يترتب عليها من تغيرات اجتماعية، أو منعطفات جوهرية في حياة مئات الآلاف من الأشخاص (قوم جُورِيَّة) يعكسه هذا الخطاب بخياراته المنجزة، إذ يتكرر توالي هذه البنية الفعلية المشكلة الأزمنة في مواضع عدة عبر هذا الخطاب، بعد حروف العطف أو (لَمَّا الشَّرْطِيَّة التفصيلية بفعليها): "فَكَرِهْتُ، فَلَمَّا سُبِينَا رَجَوْتُ، فَلَمَّا أَعْتَقْتَنِي وَتَرَوَّجْتَنِي وَاللَّهِ مَا كَلَّمْتَهُ أَرْسَلُوهُمْ وَمَا شَعَرْتُ..) ونلاحظ أن سلسلة هذه الأفعال إنما تشكل بناء تركيبيا متناميا نحو ذروة درامية لا تلبث أن تستريح على ضفاف الرضا والحمد، حيث ما يسمى بالنهاية السعيدة!!..

وبين تقديم لهذا الفعل الذي افتتحت به (جُورِيَّة) خطابها، أو تأخير له ك (الفعل: حَتَّى كَانَ الْمُسْلِمُونَ هُمْ الَّذِينَ أَرْسَلُوهُمْ)، هناك ظلال وإيماءات لهذا الانزياح الأسلوبية، فقد قدمت ما يستحق التقديم، وقد كان للبشارة دورها في هذا التقديم، بينما أخرت الفعل (أَرْسَلُوهُمْ)، لتأخر فعلها نفسه، وهذا ملائم تماما لسياق التأدب الذي أظهرته للنبي ﷺ ولمجتمع المسلمين، فهي لم ترد أن تكون المرأة التي تفرض شروطها على الجميع، ولم ترد أن تشفع لقوم كافرين وقد آمنت، وقبل ذلك كله لم ترد التقدم على النبي ﷺ في ذلك..، ولذا كان هذا الانزياح نحو التأخير مبررا على صعيد المضمون، بل ومعبرا عنه كل التعبير!!..

ويُلاحظ أن بنية الإثبات تغلب بنية النفي في هذا التركيب مما يشكل انزياحا أسلوبيا يفتح أفق الدلالة على مصراعيها في سياق كهذا لأنه يرجح كفة السلام على الحرب إن جاز التعبير!!..

وفي سياق مقدمات الحرب ذاتها كانت أم الْمُؤْمِنِينَ (جُورِيَّة) بِنْتُ الْحَارِثِ) تَقُولُ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَتْ:
" .. جَاءَنَا خَبْرُهُ وَمَقْتَلُهُ وَمَسِيرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فَسَيءٌ أَبِي وَمَنْ مَعَهُ وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا، وَتَفَرَّقَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ قَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْنَاءِ الْعَرَبِ
،فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَاهُمْ." ١٨٨

إنَّ (هاء الغائب) في هذا الخطاب تعود على العين أو الجاسوس الذي أرسل من بلمصطلق ليأتيهم
بأخبار النبي ﷺ فانكشف لهم، وقتلوه، فتقدّم هذا المسند المثبت (جَاءَنَا) له ميرره الدلالي، للحديث
عن أسبقية الحدث من جهة، ولأهميته من جهة أخرى، حيث يشكل (هذا المجيء) التهديد الأكبر
لهؤلاء القوم، وهو المبادرة التي ستغير وجه التاريخ، ومع جملة الأفعال المثبتة في هذا السياق اللغوي،
نجدها تختتم هذا الخطاب، بمسند منفٍ: " فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَاهُمْ ."، ليشكل انحرافاً نحو النفي بعد
الإثبات، والذي يفتح أفق الدلالة على عالم السلب ، ويعطي معنى القلة والوحدة والانهازم ليصل
بالمتلقي إلى تأويله لهذه الخاتمة بالهزيمة المنكرة لهؤلاء القوم...، يعضد هذا الانحراف انزياحاً أسلوبياً
آخر في هذا التركيب هو، انزياح نحو الفعل المضارع في هذا الخطاب: (يَقْدُمُ)، ويبدو وكأنه خارج زمن
الحكي، لأن له سمة التجدد والاستمرارية...، و تحقيق التوازن هنا لأمر جدير بالاهتمام، حيث القدوم
يُخص به النبي ﷺ ، وحيث التفرق من شيم أعدائه، نلاحظه في الفعل الماضي (تَفَرَّقَ) ، مما يشكل
معادلة الكر والفر على ساحة القتال، فالرسول ﷺ ، ممثلاً للسماء، يشكل عملية (المدّ) إن جاز
التعبير، بينما بالمصطلق (كنموذج) للكفر والعناد هم في حالة جزر وانحسار!!..

وتسمع المؤمنات بالاستعداد للجهاد، والخروج لحرب المشركين المعاندين، فتتحرك فيهن لواعج
الشوق لمشاركة المؤمنين في سوح الجهاد، وإن كان بما يسمى اليوم (الدعم اللوجستي)، وهن يوضحن
سبب خروجهن، ويعدّدن جملة الأدوار المتوقعة منهن، أو بمسمى اقتصاديات اليوم (احتياجات سوق
العمل)، فمن تجد في نفسها الكفاءة لهذا تتقدم لإثبات أهليتها، وشرعا لئلا يشك شك بأنهن خرجن
للقتال في ذاته، لأنه ليس على المرأة من قتال في الإسلام، كما أنه مبدأ لم يفرضه أهل الجاهلية أيضاً!!..

١٨٨- المغازي للواقدي: ١/ ٤٠٦. في خبر غزوة المريسيع. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٦٤٥. الروض الأنف، للسهيلى: ٤/
٢٠-١٩. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٦١٠. سنة ٦٦هـ. في ذكر غزوة بني المصطلق. البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ١٥٩.
٨/ ٤٩. سنة ٦٦هـ. البدء والتاريخ، للمقدسي: ص: ٣٤٨. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، الخطيب الغمري: ص: ٢٠٤. وانظر
في خبرها أيضا: من روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه /أحمد
شمس الدين: دار الكتب العلمية ، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٣. ص: ١٤٦-١٤٧.

يُقرأ هذا في خطاب (أَسْمَاءُ بِنْتُ مُخْرَبَةَ بِنْتُ جَنْدَلٍ)، التي تمثل جملةً مكرورة من خطابات مشابهة في الشكل والمضمون، وحيث تمثل صوتاً جمعياً ناطقاً نيابة عن كل النسوة اللواتي يعزمن العزم نفسه : " خَرَجْنَا نَغْزِلُ الشَّعْرَ وَنُعِينُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنُدَاوِي الْجَرْحَى وَنُنَاوِلُ السِّهَامَ وَنَسْقِي السَّوِيقَ ".^{١٨٩}

فهذا الاحتفاظ بترتبة المسند الفعلي مقدما، فيه توضيح وتحديد للهدف من جهة، وتوضيح للمتلقى الذي يجب أن يرسخ هذا التقديم هذا الدور في ذهنه فلا ينصرف لأمر آخر غير الذي ذكر، فتقديم الفعل: (خرجنا) ، ثم تأتي باقي الأفعال تواليًا على المنوال ذاته، لأن السياق يبدو سياق مساءلة وتحقق من قبل المخاطب، فَمَ الخرج..؟؟

ومن قلب الحدث يأتي خطاب (أُمُّ عُمَارَةَ نُسَيْبَةَ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ) في يَوْمٍ أحد، في قولها: " خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ " ^{١٩٠} فتقدم المسند المثبت، الفعل(خرجت) وتقرنه ببيكور النهار للتأريخ لزمان الحدث نفسه، والذي له أهمية من حيث نتيجة المعركة التي كانت لصالح المسلمين في أوله وسرعان ما تحول الموقف، كل هذا مترتب على خروجها واستكشافها لوضع المعسكرين، و الذي غير مجرى الأحداث، أدوار الأشخاص بما فيهم (أُمُّ عُمَارَةَ) نفسها!!..

وفي سياق ما بعد الحرب والدمار الذي من الممكن أن يحدث على كافة الأصعدة النفسية و الاجتماعية والاقتصادية، قد يتوقع المرء نوعاً من الجزع والفرع، اللوم والعتاب ،أو أيًا مما يمكن للمحزون أن يخرج به عن سياق حاله المتوقعة مع نزول الخطوب الثقيلة، ولكن على ما يبدو أَسْنَنُ هاته النسوة أبدأ، اللواتي خالط الإيمان لحمهن ودمهن، فما عاد هناك ما يفصل بينهن وبين التسليم لقضاء الله والرضا به، حتى لو كان أعزّ الناس، أباً، أو ولدًا أو زوجًا أو أي عزيز آخر... ولذا جاء هذا السياق اللغوي متجها نحو تقديم المسند الفعلي للكشف عن هذا التوجه، ولإثباته في آن، كشفًا

^{١٨٩} - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(٨٧٧٣-٨٥٢هـ)،تح/ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر: بيروت، د. ط، ١٦/١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، - كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ - باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال: ٦/ ٩٢. قَوْلُهُ : (بَابُ غَزْوِ النِّسَاءِ وَقِتَالِهِنَّ مَعَ الرِّجَالِ) (وَوَقَعَ فِي هَذِهِ التَّرْجَمَةِ حَدِيثُ الرَّبِيعِ بِنْتُ مَعُوذٍ، ٦/ ١٧٤،) (الحدِيث رقم : ٢٨٨٣ .)، ٦/ ١٧١، في شرح الحديث رقم (٢٨٨٠)، وفيه بإسناد إلى أنس قال: " لَمَّا كَانَ يَوْمٌ أُخِذَ انْهَرَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ - ص - قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمَشْمِرَتَانِ أَرَى حَدَمَ سُوقِهِنَّ تَنْفُزَانِ الْقَرِيبَ عَلَى مُتَوْنِهِمَا ثُمَّ تَفْرَعَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، ثُمَّ تَرْجَعَانِ فَتَمْلَأْنِيهَا ثُمَّ تَجْبِنَانِ فَتَفْرَعَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ " .

^{١٩٠} - سيرة ابن هشام : ٢/ ٨٢ . المغازي للواقدي: ١/ ٣٦٨ . البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ٣٤ . الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، للخطيب العمري: ص: ٢٤٣ .

وإثباتاً لا ينحازان نحو أي قيمة مادية دنيوية، أو أي مكتسب آخر، فالشعار هو (الرضا)، وهو أعلى درجات الإيمان، حيث التسليم المطلق لقضاء الله بخيره وشره، وكل قضاء الله خير...!! هذا ما نستلهمه من هذا الخطاب المتفرح الصابر لـ (أُمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ) لما بشرها النبي ﷺ بأن قتلى المسلمين في الجنة قَالَتْ: "رَضِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَبْكِي عَلَيْهِمْ بَعْدَ هَذَا؟ ثُمَّ قَالَتْ: أَدْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنْ خَلَفُوا".^{١١١} حيث قدّمت الجملة الفعلية على ما حقه التقديم هنا (النداء والاستفهام)، وهما مما لهما الصدارة في الجملة، مما يشكل انزياحاً أسلوبياً نحو المضمون الذي يؤكد هذا الاختيار التركيبي الذي يفتح على أفق دلالي إيماني، وهو أهمية الرضا بقضاء الله في الشهداء، والقناعة بكرمه عليهم بالجنة..!

أما (السُمَيْرَاءُ بِنْتُ قَيْسٍ)، فيأتي خطابها بعد موقعة أحد، وما أشيع عن مقتل النبي ﷺ فكان كل هدفها هو الاطمئنان على سلامته، ولن تصدق أحداً غير عينيها، فتقدم المسند الفعلي بعد (مَا) الاستفهامية، حيث ينصب الاستفهام على المسند، تحرزاً من أن تسمع ما لا تحب، حيث (مَا) لغير العاقل، وانزاحت نحوها في هذا الخطاب وليس لأي أداة أخرى للسبب نفسه:

"قَالَتْ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالُوا: خَيْرًا، هُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ صَالِحٌ عَلَى مَا تُحِبِّينَ. قَالَتْ: أُرُونِيهِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ. فَأَشَارُوا لَهَا إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَلَلٌ. وَخَرَجَتْ تَسُوقُ بَابْنِيهَا بَعِيرًا تَرُدُّهُمَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَقِيَتْهَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: مَا وَرَاعَكَ؟ قَالَتْ: أَمَا رَسُولُ اللَّهِ، بِحَمْدِ اللَّهِ فَبِخَيْرٍ لَمْ يَمُتْ وَاتَّخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ شُهَدَاءَ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتَالَ﴾. قَالَتْ: مَنْ هَؤُلَاءِ مَعَكَ؟ قَالَتْ: ابْنَائِي... حَلَّ..!^{١١٢}

وقدمت (السُمَيْرَاءُ) ذين الفعلين أيضاً "أُرُونِيهِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ"، لدلالاتهما على طلب التأكيد بنفسها، وهذا التقديم ذو قيمة دلالية، وهو إنما يظهر خوفها الشديد ولهفتها على سلامة النبي الكريم ﷺ، وحيث لا تريد رؤية بعيدة عابرة قد تخفي أكثر مما تظهر، بل تريد أن تتفحص سلامته لتكون على يقين منها.. وبعد كل هذا تسير مباركة متهادية، حزينه، لكنها مطمئنة على سلامة رسول الله، وإن كانت تحمل ابنها مقتولين على جمل، فأبي طاقة حب تحملها هذه المرأة، طاقة تحيلنا إلى البحث في مصدر

^{١١١} - المغازي للواقدي: ١ / ٣١٧.

^{١١٢} - المغازي للواقدي: ١ / ٢٩٢.

إشعاع هذه الطاقة ، وقوتها ونفاذها ، ليجعل ابنها في مرتبة أخرى ، أدنى، أو ليس هذا انزياحا عاطفيا لافتا بفعل هذا الدين الجديد الذي يغير رقعة الأشياء والأشخاص، يزيل بعضهم عن مراتبهم طوعا، ويحل آخرين طوعا ، ليس لشيء، إلا لأنهم إلى الله أقرب، و من ابناها نسبةً إلى رسول الله...!!؟؟

وبالنظر إلى سياق الخطاب مرة أخرى، نجد (السَّمِيرَاءُ) تؤخر المسند المنفي لغاية دلالية أيضا في قولها: "أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ، بِحَمْدِ اللَّهِ فَبِخَيْرٍ لَمْ يَمُتْ وَاتَّخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ شُهَدَاءَ" حيث أخرج الفعل المنفي لسوق البشارة والتطمين والتوكيد لمن قد يلتبس عليه الأمر، فقد يكون بخير لأنه صار شهيدا وليس شيء خيرا من الشهادة ، فهو تذييل احترازي في هذا السياق !!..

ثانياً / تقديم المسند في الجملة الاسمية :

- تقديم شبه الجملة (الخبر) على المبتدأ:

وتستخبر (أُمُّ سَعْدِ بِنْتُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ) أُمُّ عُمَارَةَ عَنْ غَزْوَةِ أَحُدَ، فتلاحظ شيئا على عاتق (أُمِّ عُمَارَةَ)، فتقول : (فَرَأَيْتُ عَلَى عَاتِقِهَا جُرْحًا أَجُوفَ لَهُ عَوْرٌ .) ^{١٩٣}، تقديم المسند (الخبر: له) على المسند إليه المبتدأ النكرة للتعجب والإنكار، عن كيفية وحجم وعمق هذا الجرح، حتى إنها قدمت المسند (الخبر: له) على المسند إليه المبتدأ النكرة (عَوْرٌ)..!!

وهذا ما نلاحظه أيضا في خطاب (أُمِّ عُمَارَةَ نُسَيْبَةَ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ) يَوْمَ أَحُدَ، قولها: " وَمَعِيَ سِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ .." ^{١٩٤}

فقد قدمت المسند (الخبر: الظرف ،الجار والمجرور) على المسند إليه النكرة: (سقاء، ماء) ، قدمت (معية) السقاء، لتثبت به دورها الأساس في هذه الحرب، وهو ملازم لها، و قدمت (حرف الجر المفيد للظرفية المكانية) لتخصيص السقاء بالماء تحديداً، هذا التخصيص هو نوع من التأكيد المركز للمضمون، وإذن.. فإن هذا التقديم والتأخير في هذا السياق، والذي يشكل انزياحا تركيبيا، إنما هو لإظهار جزء من دورها الرئيس في المعركة، وهو السقاية للجرحى، وتحمل عبء التصرف في الماء ،

^{١٩٣} - سيرة ابن هشام ٢ / ٨٢ . المغازي للواقدي . ١ / ٣٦٨ . البداية والنهاية . لابن كثير : ٤ / ٣٤ . الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري : ص : ٢٤٣ .

^{١٩٤} - المصادر نفسها .

الذي هو عصب الحياة ،وبه قد يكون النصر، أو إنقاذ الجرحى من الموت ، أو إرواء الجنود الذين أنهكهم التعب ، وبنقصه قد يكون الهلاك...!!

وفي الخطاب التالي تتجلى النظرة الثاقبة الفاحصة الخبيرة لـ (أم المؤمنين عائشة زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ) وهي تصف سعدَ بنَ مُعَاذٍ ، وقد تهيأ للخروج للجهاد،فتلحظ خلا ما في درعه،تقول: "... عَلَيْهِ رِذْعٌ خُلُوقٌ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا فِي الْخُلُوقِ مِثْلَهُ، وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُشْمِرَةٌ عَنِ ذِرَاعَيْهِ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخَافُ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ مِنْ تَشْمِيرَةِ دِرْعِهِ مَا أَصَابَهُ، فَمَرَّ يُرْفَلُ فِي يَدِهِ الْحَرْبَةُ وَهُوَ يَقُولُ: "...

فتقديم الخبر (الجار والمجرور) على المبتدأ النكرة في الحالين: " عَلَيْهِ رِذْعٌ خُلُوقٌ"، " وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ ".، وكأنّ هذا التقديم للخبر شبه الجملة هو لتركيب الاهتمام على المتأخر، خاصة الدرع التي لم تكن سابعة، وهي أول ما لفت نظر السيدة عائشة، ويبدو أن كل ما في سعد بن معاذ كان لافتا، حتى ثوبه وعطره وهيئته كاملة، وكأنه أيضا كان موطنا لنظرات الأعداء على الحال التي هو عليها، وهذا ما خشي عليه منه، وما يعزز هذا التقديم والتأخير، بنية الجناس بين الاسمين المتأخرين، لتشكل بؤرة دلالية يتوجه لها الذهن...!!!

ونلتقي مرة أخرى هذه الناشطة العسكرية - بمصطلح اليوم- التي تغير أدوارها بحسب متطلبات سياق العالم الخارجي الذي تكون فيه، وتعطي لكل مقام مقالته، ففي سوح المعارك، تكون مسعفة بكل ما تستطيع، حتى إذا ضاقت الأرض بما رحبت على جنود الله، لبست لبوس العسكر و تحولت إلى مقاتلة، وحين تنتهي الحرب، ويهدأ الوطيس، تتحول إلى راوية أو مراسلة إخبارية تقدم تقاريرها بكل أمانة ومصداقية، وهذه المرة قلب الحدث هو (غزوة حُنَيْنٍ)، ولنلق نظرة على طرف من رواية أمِّ عُمَارَةَ لأحداث ذلك اليوم:

" لَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ وَالنَّاسُ مُنْهَزِمُونَ فِي كُلِّ وَجْهِ وَأَنَا وَأَرْبَعُ نِسْوَةٍ فِي يَدِي سَيْفٌ لِي صَارِمٌ وَأُمُّ سَلِيمٍ مَعَهَا خَنْجَرٌ قَدْ حَزَمْتُهُ عَلَى وَسْطِهَا - وَهِيَ يَوْمَئِذٍ حَامِلٌ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ - وَأُمُّ سَلِيمٍ وَأُمُّ الْحَارِثِ . قَالُوا : فَجَعَلَتْ تُسَلِّهُ وَتَصِيحُ بِالْأَنْصَارِ : أَيَّةُ عَادَةٍ هَذِهِ مَا لَكُمْ وَلِلْفَرَارِ...!!؟؟!!"١٩٥.

وهنا.. كأننا ننظر من خلال عدسة كاميرا مكبرة، تلتقط زوايا بعينها وتسلط الضوء عليها، وهذا التنامي للحدث يشد المشاهد ويأخذ بمجامع حواسه، صورةً وصوتاً وحركةً، حتى لغط الأنفاس و الأنفاس، في تحريك للمشاهد فردية وجماعية، فهو خطاب استحواذي تتوافر فيه كل وسائل الإقناع المذكورة آنفاً، وفي هذه البيئة الحاضنة، تبرز لنا بنية التقديم والتأخير، كجزء من فاعلية المشهد العام، متسقة مع حركيته، فيأتي تقدم الخبر الجار والمجروح: (في يدي)، والخبر الظرف: (معها) في قولها: " .. في يدي سيفٌ لي صارمٌ وأمٌ سليمٌ معها خنجرٌ " ليقدمًا للمتلقى انزياحاً دلالياً وذهنياً، نحو من تمسك السيف، ومن تمسك الخنجر..!!

وللمرة بعد المرة تنحو (أمٌ عُمارة) المنحى نفسه في خطابها، حيث تركز على معية الأشياء، ففي روايتها لأحداث (أحد)، قالت: " معي سقاءٌ فيه ماءٌ"، ويبدو أن ذلك يشكل خصيصة أسلوبية في خطابها، ومن ناحية أخرى فالمرأة دائماً وبالفرط مشغولة بما في يديها، من أطفالها حتى أساورها وخواتمها، وحتى أدوات قتالها إن كانت في المعركة..!!

وفي موقعة (صحوراً) في الشام، وقعت النساء في الأسر، وكان فيهن (خولة بنت الأزور)، أخت ضرار بن الأزور، و(عفرة بنت غفار الحميرية)، والمرأتان لهما تاريخ حافل في ميادين القتال، والشجاعة والبسالة، فكانت خولة تحرض النساء فانبرت لتأييدها عفرة فقالت لها ولهن:

" صدقتِ، ووالله يا بنتِ الأزورِ نحنُ في الشجاعةِ كما دكرتِ، وفي البراعةِ كما وصفتِ، لنا المشاهدُ العظامُ، والمواقفُ الجسامُ، والله لقد اعتدنا رُكوبَ الخيلِ، وهجومَ الليلِ، غيرَ أنَّ السيفَ يحسنُ فعلُهُ في مثلِ هذا الوقتِ، وإنما دهمنا العدوُّ على حينِ غفلةٍ وما نحنُ إلا كالغنمِ".^{١٦٦}

قدمت المسند الاسمي (الخبر) شبه الجملة (لنا) على المبتدأ المعرفة: "... لنا المشاهدُ العظامُ، والمواقفُ الجسامُ " وكلاهما معضدٌ بصفة للمبالغة على وزن (فعال) لتخصيص المتقدم بالفخر والشجاعة.

^{١٦٦} - فتوح الشام. أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت ٢٠٧هـ)، تح/ عبد اللطيف عبد الرحمن: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٧/٥١٤، ١٩٩٧م، ١/٤٧. في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعفيرة ترد على خطاب خولة بنت الأزور التي وصفت النساء بالشجاعة والإقدام محرضة إياهن على القتال: "... معجم أعلام النساء، زينب العاملي: ص: ٣٠٠.

تقديمُ المسندِ (خبرِ الحرفِ النَّاسِخِ /الفِعْلِ النَّاسِخِ) عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ (إِسْمِ الْحَرْفِ النَّاسِخِ /الفِعْلِ النَّاسِخِ):

ومن نماذجه ما نجده في خطاب (أُمِّ عُمَارَةَ نُسَيْبَةَ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ) يَوْمَ أُحُدٍ من تقديم المسند الاسمي (خبر كان) على المسند إليه (اسم كان)، في قولها تحكي قصة جرحها الغائر يوم أُحُد: " .. فَضْرَيْتِي هَذِهِ الضَّرْبَةَ وَلَكِنْ فَلَقَدْ ضَرَبْتَهُ عَلَى ذَلِكَ ضَرْبَاتٍ وَلَكِنْ عَدُوَّ اللَّهِ كَانَ عَلَيْهِ دِرْعَانٌ^{١٩٧} ولأن اهتمام (أُمِّ عُمَارَةَ) كان منصبا على النيل من ابن قمنة، فقد قَدِّمَتْ ذكره (عَلَيْهِ)، بهذا الضمير المتصل للغائب المفرد...، ولتؤكد أنَّ التقصير ليس منها، وليس لفرط قوة الخصم و شجاعته، بل إن ما حال بينها وبين قتله إنما (هو درعان) كان يتقي بهما، وبذا يكون هذا الانزياح في التركيب اللغوي وجهة دلالية على هذه المضامين!!..

ثَالِثًا : تَقْدِيمُ الْمُتَعَلِّقَاتِ :

من أبرز أنواع المتعلقات: المفعول به، شبه الجملة: (جار ومجرور/ الظرف)، الحال، الصفة.. وغيرها مما عدّه البلاغيون من القيود .

تَقْدِيمُ الظَّرْفِ وَالنِّدَاءِ عَلَى خَبَرِ الْمُبْتَدَأِ :

ومن أنماط تقديم المتعلقات، تقديم الظرف على خبر المبتدأ، ومن نماذجه الخطاب الأكثر شهرة الذي ألقته (السَّمِيرَاءُ بِنْتُ قَيْسٍ) في سمع الزمن على ما يبدو، فغدا نموذجاً يحتذى في المحبة والإخلاص والفدائية التي أفرزتها هذه العقيدة، فدائية تجعل هذه المرأة بموقفها وساما على صدر التأريخ بل الدنيا والآخرة، امرأة لم تحفل بقتل ابنيها، لا لشيء إلا لأن الرسول ﷺ لم يصب بأذى،

تقول: " كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَلَلٌ " ^{١٩٨}

^{١٩٧} - سيرة ابن هشام، ٨٢/٢. المغازي للواقدي، ١/ ٣٦٨. البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ٣٤. الروضة الفيحاء في تواريخ

النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤٣.

^{١٩٨} - المغازي، للواقدي: ١/ ٢٩٢.

إن المميز الحقيقي في هذا الخطاب، هو قوة العقيدة، وصدق الحب، وإذن هو السياق العاطفي المنجز لهذا الخطاب، وقد يشي لنا هذا الانزياح اللغوي في تركيب هذا الخطاب ببعض المضامين العاطفية التي أفرزها سياق الحرب، لتسهم جميعا في قوة هذا الخطاب على اختزاله وبساطته، فعلى صعيد البنية اللغوية، نجد أنها قد فصلت المبتدأ (كُلُّ) عن الخبر: (جَلَلٌ) مرة بـ(الظرف: بَعْدَكَ) ، ومرة بـ(النداء: يَا رَسُولَ اللَّهِ)، وكلاهما يأتيان لتأكيد القيمة العاطفية للمخاطب المعني بالنداء..! مع ملاحظة أن (كُلُّ) من ألفاظ الصدارة لدالاتها على العموم.

تَقْدِيمُ أَجَارٍ وَالمَجْرُورِ عَلَى خَبَرِ المُبْتَدَأِ:

وفي موقع آخر من الخطاب نفسه لـ(السَّمِيرَاءِ بِنْتُ قَيْسِ)، نجد أنها أيضا تنزاح بتركيب خطابها ، فتقدم شبه الجملة الجار والمجرور على خبر المبتدأ (شبه الجملة أيضا): "أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ، بِحَمْدِ اللَّهِ فَبِخَيْرٍ لَمْ يَمُتْ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ شُهَدَاءً"^{١٩٩}

فتقديمها للجار والمجرور (بِحَمْدِ اللَّهِ) على الخبر (فَبِخَيْرٍ)، ولهذا الانزياح قيمته الدلالية، حيث يهدف هذا الخطاب إلى بث الطمأنينة في المخاطب، والتي كانت (السيدة عائشة) أم المؤمنين...!

تَقْدِيمُ أَجَارٍ وَالمَجْرُورِ عَلَى المَفْعُولِ بِهِ :

وتنقل لنا (أُمُّ الحَارِثِ الأَنْصَارِيَّةُ) لحظة مفصلية من لحظات رحى المعركة الدائرة يوم (حُنَيْنٍ) تقول: " .. يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ جَاوَزَ بَعِيرِي فَأَقْتُلْهُ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ مَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ القَوْمِ بِنَا "^{٢٠٠} هذا الموقف البطولي لهذه المرأة إنما كان يوم (حنين) حيث يصفه القرآن الكريم بأنه اليوم الذي بلغت فيه القلوب الحناجر، خوفا وجزعا من هول ذلك اليوم، أما هذه المرأة فتأبته الجنان على النصر، مستعدة للشهادة ، متخذة موقف مجابهة خاص بها، وواضحة استراتيجية دفاعية هجومية تحسبا لأي طارئ، أو اعتداء، وهي في أتم الاستعداد والجاهزية لتحمل هذه المسؤولية، فلا ضعف ولا خور ولا جبن ولا تراجع، بل ربما يخرج موقفها هذا الكثير من الرجال الفارين أو المتخاذلين، كما فعلت (أم عُمارة) يوم أُحُد، هذا ما يمكن أن نلتقطه من أطراف هذا الخطاب كمنجز لغوي، أما إذا التفتنا إلى البنية التركيبية،

^{١٩٩} - المصدر السابق.

^{٢٠٠} - نفسه: ٣ / ٩٠٤. في خبر من ثبت من النساء في غزوة حنين.

فلا شك أننا سنلاحظ هذا التوتر الذي تحدثه بنية التقديم والتأخير على بنية الخطاب، حيث قدمت الجار والمجرور (كَالْيَوْمِ) على المفعول به (مَا) لتحقيق معنى التعجب والاستنكار من فظاعة ذلك اليوم واستحرار القتل فيه، و(إِنْ) هنا بمعنى (مَا) النَّافِيَةِ، وجملة "إِنْ رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ" هي جملة نمطية تقال في مثل هذه المواقف التي يغلب عليها الاستنكار والتعجب، ويليهما المستنكر أو المتعجب منه سلباً أو إيجاباً...!!

أما (أُمُّ مُوسَى اللَّخْمِيَّةُ) فتنتقل لنا موقفاً لها في يوم (اليرموك)، حيث كانت مع جماعة من النساء، يرقبن المعركة من حيث هنَّ، وإذا بها ترى حدثاً يتعرض فيه أحد المجاهدين المسلمين للخطر، ودون أي تردد تنتقل من ضفة إلى ضفة، ومن متفرجة إلى مشاركة في القتال، وإذا عدو الله يُقتل، والمسلم ينجو، واليد العليا في ذلك لـ (أُمِّ مُوسَى)...!!

إنها لطريقة مدهشة، هذه الكيفية التي تستطيع بها هاته النسوة تحويل مجريات الأمور بتدخلهن في اللحظة المناسبة، ولننظر في خطابها هذا في سياق الحرب:

"بَيْنَمَا نَحْنُ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ النِّسَاءِ إِذْ جَالَ الرِّجَالُ جَوْلَةً فَأَبْصَرْتُ عِلْجًا يَجُرُّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَخَذْتُ عَمُودَ الْفِسْطَاطِ ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْهُ فَشَدَخْتُ بِهِ رَأْسَهُ وَ أَقْبَلْتُ أَسْلِبُهُ فَأَعَانَنِي الرَّجُلُ عَلَى أَخْذِهِ." ٢٠١

وبالنظر إلى البنية اللغوية لهذا الخطاب نلاحظ هذا الانحراف بتقديم الجار والمجرور "به" على المفعول به "رَأْسَهُ".

والتقديم هنا إشارة إلى حسن التصرف باتخاذ عمود الفسطاط سلاحاً، وبسرعة لأن الموقف كان فاصلة بين الحياة والموت، فأهمية الحصول على هذا السلاح وحسن التصرف به قدمت ذكره، وهذا السلاح هو الذي أنقذ الموقف، فلو لم تحصل عليه لم تتمكن من قتل الكافر واستنقاذ المسلم، ولذا كان من الوجاهة تقديمه على المفعول به، بوصفه أداة القتل وطوق النجاة...!!

٢٠١ - الإصابة، ٤/٤٧٨. زوج نصير اللخميّ والد موسى بن نصير، مفتتح الأندلس، وقد شهدت اليرموك مع زوجها، وهذا خطابها في وصف إحدى لحظات المعركة.

في سياق ما بعد الحرب ،في قول (السَّمِيرَاءُ بِنْتُ قَيْسٍ): "أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ، بِحَمْدِ اللَّهِ فَبِخَيْرٍ لَمْ يَمُتْ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ شُهَدَاءَ"^{٢٠٢}، تقديم الجار والمجرور " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " على المفعول به: " شُهَدَاءَ "

إن هذا التسليم المطلق لقضاء الله والرضا به،أفرز خطابا غاية في الرقي والاحتراز، فهو خطاب يعتمد البشر والبشارة من أول كلمة ،هذا وجه، والوجه الآخر له هو تهذيب آخر يرفع من شأن هذه المرأة ،حيث تمثلها لحديث الرسول ﷺ: "بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا"^{٢٠٣}، وخطابها هذا كله كان إجابة عن سؤال السيدة (عائشة)،فلا تريد أن تقول لها (قُتِلَ الْمُؤْمِنُونَ)،بل تلطفت،بل بالغت في اللطف والكياسة بخطابها هذا ،خاصة مع الآية الكريمة التي ذيلت بها خطابها، لتقول أن القتل في المسلمين شهادة،وهو نصر كاف،أما الكافرون فهم في خيبة بغض النظر عن نصرهم: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} .^{٢٠٤} وجاء هذا التأخير للمفعول به وتقدم شبه الجملة عليه ،تمهيدا للحدث وتخفيفا من وطأته على المتلقي...!!

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفاعِلِ :

ومن أنماط تقديم المتعلقات،تقديم الجار والمجرور على الفاعل،كما يُلحظ في خطاب (جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ) تَقُولُ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَتْ: جَاءَنَا خَيْرُهُ وَمَقْتَلُهُ وَمَسِيرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَاءَ أَبِي وَمَنْ مَعَهُ وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا،وَتَفَرَّقَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ قَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَفْنَاءِ الْعَرَبِ ، فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَاهُمْ ."^{٢٠٥}

تقديم الجار والمجرور (علينا) على الفاعل (النبى)،تقديم الجار و المجرور(عنهم) على الفاعل الاسم الموصول(من): " وَتَفَرَّقَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ قَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ " وكذلك تقديم الجار والمجرور (منهم) على الفاعل (أحد): " فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَاهُمْ "

^{٢٠٢} - المغازي، للواقدي: ٢٩٢/١.

^{٢٠٣} - اللسان: (نفر) " أي لا تَلْقَوْهُمْ بما يحملهم على النُّفُورِ".

^{٢٠٤} - الأحزاب/ ٢٥.

^{٢٠٥} - المغازي للواقدي: ٤٠٦/١. في خبر غزوة المريسيع. السيرة النبوية لابن هشام: ٦٤٥/٢. الروض الأنف، للسهيلى: ١٩/٤ -

٢٠. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٦١٠. سنة ٦٦هـ. في ذكر غزوة بني المصطلق. البداية والنهاية، لابن كثير: ١٥٩/٨.

٤٩. سنة ٦٦هـ. البدء والتاريخ. المقدسي: ص: ٣٤٨. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٠٤. وانظر في

خبرها أيضا: من روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم الجوزية : ص: ١٤٦-١٤٧.

هذا العدول في خطابها القائم على تقديم الجار والمجرور على الفاعل المفرد إنما كان للإشارة إلى أهمية الفاعل في هذا السياق، حيث يبدو كل شيء مترتباً على ما يقوم به، سواء كان فاعلاً اعتبارياً مجازياً كـ (خَيْرُهُ، مَقْتَلُهُ، مَسِيرُ..)، أو واقعياً كـ (النبي، مَنْ، أَحَدٌ)، مما يشير إلى هذا الحراك والتقلب في الأمور، فهذه التقديم والتأخير هو ملائم لطبيعة السياق الخارجي الواقعي من آثار الحرب، ومع السياق الداخلي العاطفي من تغير المعتقدات والدين، وسياق تقديم وتأخير؛ وقلقلة في موقفها من كل هذه التغيرات، فهي لا تدري بعد علام تستقر الأمور..!!

وكذا تبني (أُمُّ سُلَيْمٍ ابْنَةُ مِلْحَانَ) خطابها في (يوم حنين مع هوازن)، حين قدمت الجار والمجرور (مَنِّي) على الفاعل (أَحَدٌ) في قولها: "إِنَّ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعَجْتُهُ بِهِ"^{٢٠٦}، متحدثة عن الخنجر الذي كان بحوزتها، ولأن غايتها الأولى هي الدفاع عن نفسها، قدمت الجار والمجرور "مني" لينزاح الذهن إلى تلك الغاية الدفاعية، ولكن لا بأس في المرتبة الثانية أن تقتل أحد المشركين في طريقها وقد فعلت.

تَهْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ عَلَى خَبَرِ أَحْرَفِ النَّاسِخِ (إِنَّ) :

وأيضاً نجد هذا النوع من التقديم في خطاب (أُمِّ سُلَيْمٍ ابْنَةُ مِلْحَانَ) يوم حنين مع هوازن: ".إِذَا أَمَكَكَ اللَّهُ مِنْهُمْ فَأَقْتُلْهُمْ كَمَا تَقْتُلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُمْ لَذَلِكَ أَهْلٌ".^{٢٠٧}، حيث أخرجت خبر (إِنَّ: أَهْلٌ) وتقدم الجار و المجرور، وذلك إشارة لاستحقاقهم القتل على فعلتهم الشنعاء تلك، ولهذا الغاية كان التقديم للجار والمجرور..!

^{٢٠٦}- المغازي للواقدي: ٣/٩٠٣-٩٠٤. في غزوة حنين. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٤٤٧. الروض الأنف للسهيلي: ٤/٢١٥-٢١٦. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/٧٦-٧٧. السنة الثامنة. البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/٣٢٧. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب الغمري: ص: ٢٤١

^{٢٠٧}- المغازي للواقدي. ٣/٩٠٣-٩٠٤. في غزوة حنين. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/٧٦-٧٧. السنة الثامنة. السيرة النبوية لابن هشام. ٢/٤٤٧. الروض الأنف للسهيلي. ٤/٢١٥-٢١٦. البداية والنهاية. لابن كثير: ٤/٣٢٧. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب الغمري: ص: ٢٤١.

تقديمُ أجمارٍ و المجرورِ على الصفةِ المنصوبةِ :

نتلمسه في خطاب السيدة (عائشة زوج النبي ﷺ) تصف سعد بن معاذ : "ما رأيت أحداً في الخلق مثله" ^{٢٠٨} والتقديم لإظهار التعجب !!...

تقديمُ المفعولِ بهِ على الفاعلِ :

ونجد هذا النوع من تقديم المفعول به على الفاعل في خطاب (جويرية بنت الحارث) زوج رسول الله ﷺ ، حينما وصلهم نبأ قتل جاسوسهم على المسلمين ، وقدم النبي ﷺ إليهم: "جاءنا خبره ومقتله ومسير رسول الله صلى الله عليه وسلم..."

حيث قدمت (جويرية) المفعول به (نا الدالة على الفاعلين: جاءنا) على الفاعل (خبره، مقتله ، مسير) ، هذا التركيب اللغوي الذي انحاز نحو هذا التقديم، إنما كان لتحقيق غاية دلالية، وهي أن فعلة يقوم بها رجل واحد وأثرها يمتد على الجميع ..، فالقتل هنا، هو ليس قتل لرجل أو فارس وكفى، بل هو قتل لخط الدفاع الذي تنهار بعده كل الخطوط ويصبحون في ضعف، ولذا نرى هذه التراتبية المنطقية للأحداث بما يتناسب مع هذه النتيجة، فقتل طليعة القوم وعينهم هو هتك لحجب الدفاع، وانكشاف استراتيجيتهم الاستخباراتية، ومن ثم أدى ذلك إلى تعجيل مسير رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ، في خطوة استراتيجية قائمة على أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم !!..

أما (أم سليم ابنة ملحان)، في يوم (حنين) مع هوازن، فهي تضيق برما بل تمتلئ غيظاً، من الفارين المتخاذلين عن نصره دين الحق، وترى أنهم صنو الكفار في حربهم على هذا الدين، وفي الاعتداء على المسلمين، بل هم أشد عليه منهم ، لأنهم أوهمو المسلمين بالنصرة فاطمأنوا لهم، ثم خذلوهم، فتتوجه بخطابها هذا إلى ولي أمر المسلمين، وهي تعرف أنه لا يصدر عن نفسه، وإنما بأمر

^{٢٠٨} - المغازي للواقدي: ٢ / ٤٧٠-٤٧١. في خبر غزوة الخندق، وأم سعد كبشثة بنت عبدة بن معاوية بن عبدة بن الأبرج بن عوف بن الحارث بن الخزرج، وأختها؛ الفارعة بنت عبدة بن معاوية بن عبدة ، وهي أم سعد بن زرارة .السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٢٦-٢٢٧-٢٥٢. الروض الأنف. للسهيلي: ٣ / ٤٣٠-٤٣١. الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٣٨٨ وما بعدها. أسد الغابة، لابن الأثير: ٢ / ٤٦١. الإصابة ٤ / ٢٩٩.

من الله تعالى، تقول: "إِذَا أَمَكَّنَكَ اللهُ مِنْهُمْ فَأَقْتُلْهُمْ كَمَا تَقْتُلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُمْ لَذَلِكَ أَهْلٌ".^{٢٠٩}

قدمت المفعول به الضمير المتصل (كاف الخطاب) في (أَمَكَّنَكَ)، على الفاعل الاسم الظاهر لفظ الجلالة (الله). وهذا التأخير للتشويق للفاعل المؤثر، صاحب السلطة والقوة المطلقة التي يخضع لها الجميع (الله)، ولأن الواجهة لهذا الأمر هو النبي ﷺ فقد قدمته...!!

تَقْرِيمُ الْمَفْعُولِ بِهِ الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ عَنِ الْفَاعِلِ الْمَصْدَرِ الْمُؤَوَّلِ:

وتتجلى روح الفدائية والشهامة في خطاب (عفرة بنت غفار الحميرية)، مجيبة خالد بن الوليد قائد المسلمين حينما أمرهن بالثبات، والدفاع عن أنفسهن، وَرَدَّ الْفَارِسِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَعْرَكَةِ، ولهذه الغاية تتخير تركيباً يحمل من التوكيد القسم المغلظ، ونون التوكيد، ولام التوكيد، تغرس ذلك كله في بنية القصر، التي يتقدم فيها المفعول به الضمير المتصل (نا- يفرحنا) على الفاعل المصدر المؤول: (إِلَّا أَنْ نَمُوتَ) في قولها:

" أَيُّهَا الْأَمِيرُ.. وَاللَّهِ لَا يُفْرِحُنَا إِلَّا أَنْ نَمُوتَ أَمَامَكَ، فَلَنَضْرِبَنَّ وُجُوهَ الرُّومِ، وَنُلْقَاتِنَّ إِلَى أَنْ لَا تَبْقَى لَنَا عَيْنٌ تَطْرِفُ، وَاللَّهِ مَا نُبَالِي إِذَا رَمَيْنَا الرُّومَ كُلَّهُ".^{٢١٠} ، كل ذلك لتأكيد النصر، والثبات في المعركة التي يطير فيها قلب الشجاع المقدم...، بل وتؤكد هذا الثبات بطريقة لافتة حقاً، إنها موعد مع الفرح والسعادة، وليست خوفاً من مجابهة الموت، لأن الخاتمة وإن حدثت فهي الشهادة التي يسعى إليها كل مسلم ومسلمة أخلصا لله ولرسوله ﷺ...!!

تَقْرِيمُ الْحَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَنِ الصِّفَةِ:

وقد يتقدم الجار والمجرور على الصفة، كما نقرأه في خطاب (أُمِّ عُمَارَةَ) لأحداث ذلك اليوم (غزوة حُنَيْنِ)، ولنلق نظرة على طرف من رواية أُمِّ عُمَارَةَ لأحداث ذلك اليوم:

^{٢٠٩} - المغازي للواقدي: ٣/٩٠٣-٩٠٤. في غزوة حنين. السنة الثامنة. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٤٤٧. الروض الأنف للسهيلي. ٤/٢١٦، ٢١٥. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/٧٦-٧٧. البداية والنهاية. لابن كثير: ٤/٣٢٧. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤١.
^{٢١٠} - فتوح الشام، للواقدي: ١/٥٢. في معركة اليرموك.

" لَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ وَالنَّاسُ مُنْهَزِمُونَ فِي كُلِّ وَجْهِ وَأَنَا وَأَرْبَعُ نِسْوَةٍ فِي يَدِي سَيْفٌ لِي صَارِمٌ وَأُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خَنْجَرٌ قَدْ حَزَمْتُهُ عَلَى وَسْطِهَا - وَهِيَ يَوْمَئِذٍ حَامِلٌ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ - وَأُمُّ سَلَيْطٍ وَأُمُّ الْحَارِثِ . قَالُوا : فَجَعَلْتَ تُسَلِّهُ وَتَصِيحُ بِالْأَنْصَارِ : أَيُّهُ عَادَةٌ هَذِهِ مَا لَكُمْ وَلِلْفِرَارِ...!!؟؟" ٢١١ .

ويُلحظ هذا الفصل بين الصفة (مفردة) وبين الموصوف حيث ينجز هذا الانزياح دوره الدلالي في التنحي نحو الوجهة التي يريد بها الخطاب ، " .. فِي يَدِي سَيْفٌ لِي صَارِمٌ " ف (صارم) هي صفة للسيف قدمت عليها الجار والمجرور .

وهذا التقديم يلفت النظر أيضا إلى هذه الصفة المتأخرة للسيف، يبدو فيها نوع من الاعتزاز بالدور الذي تقوم به، أو بالقدرة على حمل سيف كهذا لا يقدر على حمله سوى الأشداء من الرجال، أما هي فقد حملته، وفيه إشارة أيضا على مستوى مشاركتها وفعاليتها في المعركة، فهي ذات قوة وعزم، وبين يديها سيف لا يقل عنها صرامة و مُضِيًّا وقطعًا...!!

وفي الخطاب نفسه يُلحظ أيضا تقديم الجملة الاسمية والصفة على جملة الحال: " .. وَأُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خَنْجَرٌ قَدْ حَزَمْتُهُ عَلَى وَسْطِهَا " أو جملة الحال، حيث صاحب الحال (أُمُّ سُلَيْمٍ): " وَهِيَ يَوْمَئِذٍ حَامِلٌ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ "

ويُرى كم أن (أُمُّ عُمَارَةَ) وجدت هذا التنويه مهما، وإن أتت به متأخرا، لكن له دلالتة بلا شك، فأخر ما كانت تهتم به هذه المرأة هي الجلوس وتحسس جنينها في أحشائها، هذا التنويه يوضح أيضا هذه الفدائية و الروح الجهادية القتالية التطوعية العظيمة، هدفها الذب عن حياض الدين، والدفاع عن الرسول الكريم ﷺ ، وهذا وحده ما يهون عليهن كل مصاب، ويدفعهن لخوض غمار أعتى الصعاب...!!

وهذه الجملة الحالية المنزاحة، إنما تلقي الضوء على الأدوار الاجتماعية المصاحبة للسياق الحربي، فالمشاركات، بنات وزوجات، وأمهات، وحوامل أيضا، وأن هذا الخطاب النسوي المتخلق في رحم هذه الحرب إنما هو ابنها الشرعي بكل ما للكلمة من معنى...!!

تقديم النداء على جملة جواب القسم :

وتنظر السيدة (عائشة زوج النبي ﷺ) إلى المقاتلين وهم يستعدون للمعركة فترى بوضوح موضع خلل في درع (سعد بن معاذ) ، وكانت تقف بجوار أمه، فقالت لها: " وَاللَّهِ يَا أُمَّ سَعْدٍ لَوَدِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ أَسْبَغَ عَلَيَّ بَنَانِهِ . " ٢١٢ هذا التقديم للنداء على جملة جواب القسم جاء للتنبيه والتحذير، ومن سيحرص على الولد أكثر من أمه...!!

وكذلك تتكرر هذه البنية في خطاب (عفراء بنت غفار الحميمية)، فتقدم النداء على جملة جواب القسم، ولكن هذا السياق يفترض غرضاً آخر لهذا التقديم، وهو إظهار التأييد والنصرة، وتأكيدهما وإعلانهما، وهذا أمر ضروري في ذلك السياق ، حيث النساء مستضعفات أسيرات، وبعضهن خائفات متوجسات، فكان لا بد من هذا الانزياح في التركيب، للفت النظر أيضاً إلى خطاب خولة بالتحديد، لتستوعب النسوة مضامينه ويمتثلن إليه، ونستطيع الاطمئنان إلى تحريض على النصر من خلال هذا التقديم، يؤكد ذلك جملة الصفات التي تصف بها عفراء هذه الذات الجمعية النسوية في خطابها: " صدقت، ووالله يا بنت الأزور نحن في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت، لنا المشاهد العظام، والمواقف الجسام، ووالله لقد اعتدنا ركب الخيل، وهجوم الليل، غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت، وإنما دهمنا العدو على حين غفلة وما نحن إلا كالعنم . " ٢١٣

حيث قدمت النداء: " يا بنت الأزور " ، على جملة جواب القسم: " نحن في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت . "

تقديم جملة الصلوة الواجبة صفة على جملة جواب القسم :

يلحظ هذا النوع من التقديم على سبيل المثال في وصية (الخنساء) لبنيها في القادسية: " يا بني... إنكم أسلمتم طائعين، وهأجرتهم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبثورجل واحد، كما

٢١٢- المغازي للواقدي: ٢/ ٤٧١، ٤٧٠. في خبر غزوة الخندق. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٢٦-٢٢٧-٢٥٢. الروض الأنف، للسهيلى: ٣/ ٤٣٠-٤٣١. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ٣٨٨ وما بعدها. أسد الغابة، لابن الأثير: ٢/ ٤٦١. الإصابة، لابن الأثير: ٤/ ٢٩٩.

٢١٣- فتوح الشام. الواقدي: ١/ ٤٧. ترد على خطاب خولة بنت الأزور التي وصفت النساء بالشجاعة والإقدام محرصة إياهن على القتال.

أَنْكُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مَا خُنْتُ أَبَاكُمْ، وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، وَلَا هَجَنْتُ^{٢١٤} حَسَبَكُمْ، وَلَا غَبَّرْتُ^{٢١٥} نَسَبَكُمْ،...".^{٢١٦}

إنه سياق لافت حقا، من امرأة يفترض أنها قد خلدت اسمها على تاريخ الرثاء دمعة مدرارة، وكانت مراثيها جدارية للحنن الملهم، من وقتها وإلى هذا الوقت، ومع ذلك نجدها هنا بنفس راضية مطمئنة تقدم أبناءها، دفعة واحدة إلى سوح المعركة المترامية، بل وتوصيهم بأن يكونوا في القلب منها، وهي تقول لهم بخطابها هذا : أنتم أهل لذلك المكان الذي أدفعكم إليه، لأن أصلكم طاهر ومتفرع وسامق إلى العلا، وتخص نفسها بهذا، للنظرة النمطية التي لاتزال إلى الآن بأن ما تفعله المرأة من خطأ أو تجاوز سبة وعيب، وليس للرجل على الأفعال ذاتها من لائم، ولغاية هذه التزكية للنسب وتأكيدتها، قدمت جملة الصلة الواقعة صفة على جملة جواب القسم : " وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَبَنُورَجُلٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنْكُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، .. "، فهذا الانزياح في التركيب اللغوي، يشكل انزياحا في التركيب الاجتماعي الذي ينتسب له هؤلاء الأبناء، وبأنه قد لا يشبهه، وإن أشبهه فهو يفوق غيرهم، وهذا إمعان في التوكيد على صحة النسب وظهارة العقب، وهذه التزكية لا تأتي اعتباطا، هي تزكية موظفة في هذا السياق الحربي، لتقول لهم بأن أمثالكم يتوقع منهم طيب الفعال، وثبات الجنان، وتخطي المتوقع ، وكما أورثتم المجد كابرا عن كابر فاختموها بحسن العاقبة في الإسلام أيضا، وعودوا شهداء...، وبهذا يكون هذا التقديم و التأخير مرتكزا دلاليا مشعا في هذا الخطاب!!..

وبذا يُلاحظ من خلال هذا الاستعراض العام لجملة النماذج المرصودة في مبحث التقديم والتأخير في خطاب المرأة في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، أنه يشف عن كثير من السياقات المتنوعة،

٢١٤- "الهجنة من الكلام: ما يعيبك. والهجين: العربي ابن الأمة لأنه معيب، وقيل: هو ابن الأمة الراعية ما لم تحصن، فإذا حصنت فليس الولد بهجين". ويقال: يقال: امرأة هجان وناقاة هجان أي كريمة. "اللسان: مادة (هجن). وهي من ألفاظ الأضداد. ٢١٥ - غبر: مكث وذهب. " وهي من ألفاظ الأضداد. و"غبر الشيء: لطمه بالغبار". "اللسان: مادة (غبر).

٢١٦- الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧. أسد الغابة، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة ٤/ ٢٨٧-٢٨٨-٢٨٩. الوافي بالوفيات. صلاح الدين الصفدي. باعتناء جاكين سويله، علي عمارة: دار النشر فرانز شتايز، شتوتغارت، دط، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. ٣٨٨/١٠-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل. أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء (ت ٣٢٥هـ) ، تح/ يحيى وهيب الجبوري: دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. ص: ٢٢٠-٢٢١. وانفرد ابن الجوزي في " صفة الصفة: ٣٨٥/٤، بنسبتها إلى الخنساء النخعية. خزنة الأدب، للبغدادي: ١/ ٤٣٤، نقلا عن الاستيعاب. ويذكر صاحب خزنة الأدب أن الخنساء لم تلد إلا شاعرا، وينقل عن الكلبي: " أنها أم ولد مرداس جميعا إلا العباس، فإنها ليست أمه، ولم يذكر أمه، وذكر الأصفهاني صاحب الأغاني أنها أمه". هذا الاشتباه هو الذي فتح الباب للتشكيك في نسبة هذا الخطاب للخنساء السلمية، وأنه للخنساء النخعية، لأنها تنسب بنيتها لأم واحدة!!..

داخل السياق الأصل (سياق الحرب)، وأن السياق اللغوي بانزياحه نحو التقديم والتأخير جاء تعبيراً صادقاً عن السياق بأغراضه المختلفة، وانعكاساً للسياق العاطفي الذي تنفعل به المرأة في المواقف المختلفة..!

ويُلاحظ أيضاً غلبة وفاعلية وحركية تقديم المتعلقات على ما سواها في بنية التقديم والتأخير، وخاصة شبه الجملة (الجار والمجرور تحديداً وبمواقعه المختلفة)، ثم المفعول به (الضمير المتصل تحديداً) ليلعبا دورهما الدلالي من خلال انزياحهما في التركيب اللغوي، والذي عبّر بالمجمل عن حيوية دور المرأة وتفاعلها في سياق الحرب وقد تغير مفهوم هذه الحرب ووجهتها ونوعها، من غزو إلى جهاد، ومن غارات إلى جيوش منظمة ليس هدفها عزة شخصية، ولا سلباً مؤقتاً، ولا ثارات شخصية، بل إعلاء كلمة الله وحده..!!

تغيّر كل شيء، حتى إنّ المقتول لم يعد مقتولاً مفقوداً، بل مجاهداً شهيداً..!! وحيث الشهادة مطلب يصارع المسلم للحصول عليه، وتتنافس المسلمات نحو ذلك، على أن لا جهاد على المرأة في الإسلام، لكنها لا تترك وسيلة إلا سلكتها لتكون حاضرة في الميدان، ولم يكن أحد يتجاهل دورها أو يستخف به، بل كانت مقدرة محترمة، وحتى أنها نالت نصيبها من الغنائم كلما كانت هناك..!

وحيث توجد المرأة هناك فقد حفظت لنا تفاصيل نوعيّة ودقيقة، قد يغفل عنها غيرها، هي التي تكون في مؤخرة الجيش وربما خط دفاعه الأخير في كثير من الأحيان..، وكم من موقف لها غيرت به موازين المعركة، وثبتت حيث تزلزل أهل الخبرة والمراس من الرجال، وكيف كانت ترد الجبان منهم وتخذله إن فكّر في الهرب، وغير ذلك من أدوار كثيرة، تقريناها، واستلهمنا نبضها من خلال هذا الخطاب الفاعل الحيّ الملهم الصادق على مستوى العاطفة كما على مستوى الحدث نفسه أي سياق الحرب، وعلى مستوى اللغة بوصفه خطاباً لغوياً هو محلّ الدرس اللغوي..!!

المَبْعَثُ الثَّانِي:

الْأُسْلُوبُ الْخَبْرِيُّ

فِي (العصر الجاهلي)

مدخل

اتفق النحاة على تقسيم الجملة إلى قسمين: جملة اسمية وأخرى فعلية. واتفق البلاغيون على أنه ليس في تراكيب اللغة العربية أو في لغات العالم إلا لوان من ألوان الكلام: خبر وإنشاء.^{٢١٧} ونبدأ الحديث عن الخبر أولاً.

اختر القزويني الاتفاق مع رأي الجمهور في تعريف الخبر، فقال: "اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى إنه منحصر فيهما، ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم: صدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له، وهذا هو المشهور وعليه التعويل " ^{٢١٨}، وهذا ما اتفق عليه شراح التلخيص ومعظم المتأخرين ^{٢١٩}.

تعريف الخبر:

وبناء على ذلك؛ فالخبر: قول يحتمل الصدق والكذب لذاته، فإن وافق ذلك الواقع كان الخبر صادقاً، وإن خالفه كان الخبر كاذباً، ومع ذلك فهناك أخبار قد توصف بالكذب فقط، أو بالصدق فقط، وذلك لأسباب خارجة عن نطاق الخبر ذاته، كالأخبار التي مصدرها الله عزّ وجلّ، فهي لا تحتمل إلا الصدق، وأخبار أخرى لا تحتمل إلا الكذب كافتراءات اليهود أو الكفار بصفة عامة على الله سبحانه وتعالى أو على رسله.^{٢٢٠}

^{٢١٧} - انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص: ٢٣. انظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد. علم المعاني. د. بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢٠٠١م، ٧٠/١. علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني. د. بسيوني فيود: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢٠٠٤م، ٢٥/١٤٤هـ/٢٠٠٤م. ص: ٣١.

^{٢١٨} - الإيضاح، للقزويني، ص: ٢٤. التلخيص في علوم البلاغة. للإمام محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (٦٦٦هـ - ٧٣٩هـ)، تح/ عبد الرحمن البرقوقي: دار الفكر العربي، بيروت، ط ٢٠٠٢م. ص: ٣٨. انظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، تح/ نصر الله حاجي مفتي أوغلي: دار صادر، ط ١، ٢٤/١٤٤هـ/٢٠٠٤م، ص: ٧٤.

^{٢١٩} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٢/٤٦٥.

^{٢٢٠} - انظر: علم المعاني، د. بسيوني فيود، ص: ٣١-٣٢.

أغراضُ الخبر:

للخبر غرضان رئيسان:

١- فائدة الخبر. ٢- لازم الفائدة. ٢١

ووفقا لنظرية الاتصال لرومان جاكبسون قد تتحدد أغراض الخبر، إذ إنها تتعلق بحال المتكلم والمخاطب وموقفهما من الموضوع ومراعاة السياقات المصاحبة أثناء عملية الاتصال، أما عناصر نظرية الاتصال فنعرضها في الخطاظة التالية: ٢٢

سِيَّاق

رِسَالَة

مُرْسِل ————— مُرْسَل إِلَيْهِ

اتِّصَال

سُنَن (شَفْرَة)

إن الرسالة التي ينقلها المتكلم/ المرسل، إلى المتلقي/ المرسل إليه، تتأثر بموقف المتكلم من الرسالة ذاتها، وموقفه من المخاطب من جهة أخرى، وتتأثر أيضا بالسياق الخارجي الذي يقع فيه الاتصال، وبذا لا يخرج غرض الخبر عن مقصدين رئيسين:

- فإن اعتقد المتكلم / المرسل، أن المخاطب خالي الذهن من موضوع الخطاب/ الرسالة، وقصد إعلامه بالخبر، فإن ذلك يحقق فائدة الخبر.
- وإن قصد المتكلم / المرسل، إعلام المخاطب بأنه عالم بالخبر، فهذا ما يسمى بلازم الفائدة، وهذا الغرض قد لا يقدم جديدا في الحكم أو الخبر، لكنه بلا شك يقدم إضافة معنوية نستشف أهميتها من الحدود السياقية.
- وبناء على ذلك أيضا، أعني: موقف المرسل من المرسل إليه وموقفهما من موضوع الرسالة، تتولد سياقات جديدة ضمن عملية الاتصال تفرض على المرسل خيارات أسلوبية انتقائية تناسب

٢١- انظر: الإيضاح، للقرويني: ص: ٢٧.

٢٢- قضايا الشرعية، رومان ياكبسون، تر/ محمد الولي ومبارك حنون: ص: ٢٧.

هذا الموقف، وتشكل انزياحا فيما يتم تصنيفه خبرًا أو إنشاءً، ليقوم المرسل بإنزال الخبر منزلة الإنشاء وبالعكس، أو بناء الكلام على مقتضى الظاهر أو يتخير العكس.^{٢٢٣}

وفي الأفق البلاغي الإبداعي لا يشتغل المبدع أو الناقد بالبحث عن (فائدة الخبر، أو لازم الفائدة) فقط، بل يفتح مجالاً رحباً لتوسيع رقعة التأويل، واستجلاء آفاق القراءة الإبداعية النقدية، لتنداح أغراض جديدة تحت عباءة الغرضين الرئيسيين، يسيغها السياق ويستدعيها، ومنها: التحسر، الاسترحام، إظهار الضعف، الإنكار، التحذير، التعظيم، التوبيخ، الفخر، النفي، المدح، الوعيد، الوعد^{٢٢٤}...، وأغراض أخرى يمكن استشفافها من السياق.

أضربُ الخبرِ:

وبحسب إدراك المتكلم للسياق الواقعي من جهة، وللعالم الذهني للمخاطب من جهة أخرى، ينتقي التركيب اللغوي المناسب للخبر دون زيادة أو نقصان؛ والعالم الذهني للمخاطب لا يخرج في عمومه عن ثلاث حالات:^{٢٢٥}

- ١- أن يكون المخاطب خالي الذهن عن الخبر، فهو مستعد لتقبله دون شك أو تردد ويسمى (الخبر الابتدائي)، وفي هذه الحال يُساق إليه الخبر خالياً من المؤكّدات، كقولنا: جاء زيدٌ.
- ٢- أن يكون المخاطب متردداً في قبول الخبر ولا يعرف مدى صحته، ويسمى (طلبياً)، وحينها يساق إليه الخبر بمؤكّد واحد مثل: لزيدٌ عارف.
- ٣- أن يكون المخاطب مُنكراً للخبر: فيؤتى بمؤكّدات بحسب درجات الإنكار، كقوله تعالى لمن أمعنوا في إنكار القرآن والطعن فيه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ^{٢٢٦}

^{٢٢٣} - انظر: الإيضاح، للقرظيني، ص: ٢٧. ومعجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٤٦٧/٢.

^{٢٢٤} - انظر في أغراض الخبر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٤٦٨/٢-٤٦٩-٤٦٧٠. علم المعاني. بسيوني فيود، ص: ٣٣-٣٤-٣٥-٣٧، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، بكرى شيخ أمين: ٥٨/١.

^{٢٢٥} - انظر: الإيضاح، للقرظيني، ص: ٢٨. التلخيص. للقرظيني، ص: ٤٢. ومعجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٤٦٧/٢-٤٦٨.

^{٢٢٦} - الحجر / ٩.

للخبر مؤكدات كثيرة منها: إنَّ، أنَّ، لام الابتداء، ضمير الفصل، القسم، كأنَّ، نونا التوكيد، قد، السين، لن، الحروف الزائدة، حروف التنبيه، لكنَّ، أما... ٢٢٧.

ونستحضر بعض النماذج من النثر النسوي في سياق الحرب، والكيفية التي ساقته بها المرأة أخبارها في تلك السياقات المتشعبة، ونتوقف عند أهم السياقات اللغوية في صياغة أنواع الخبر التي تخيرتها المرأة لتعبر عن نفسها، وعن رؤيتها للعالم الخارجي، وقراءتها لذهنية المرسل إليه، والذي توجه له خطابها، وتبدو غلبة الأخبار الإنكارية على سواها في أسلوب المرأة النثري في سياق الحرب.

الخبر الابتدائي:

يبدو للناظر أنَّ أغلب تراكيب الأخبار الابتدائية والخالية من المؤكدات التي ساقته المرأة في سياق الحرب كانت جوابا عن أسئلة قد وجهت لها، ومنها على سبيل المثال: عربيات يصفن خيل آبائهن^{٢٢٨}:

لم تجد هاته الفتيات سبيلا لمعرفة مصير آبائهن في المعركة، سوى تجسيد صورة بصرية ناطقة للفرس التي يمتطيها كل من هؤلاء الآباء، وهو خبر لحصول الطمأنينة.

قالت إحداهن: "كَانَ أَبِي عَلَى شَقَاءٍ مَقَاءٍ، طَوِيلَةَ الْأَنْقَاءِ، تَمَطَّقُ أَنْثِيَاهَا بِالْعَرَقِ، تَمَطَّقُ الشَّيْخَ بِالْمَرَقِ" فقال: نجا أبوك.

فقالت الأخرى: "كَانَ أَبِي عَلَى طَوِيلٍ بَطْنُهَا، قَصِيرٍ ظَهْرُهَا، شَدِيدٍ أَسْرُهَا، هَادِيهَا شَطْرُهَا يَكْبُهَا حَضْرُهَا" فقال: نجا أبوك.

فقالت الأخرى: "كَانَ أَبِي عَلَى الْكُرَّةِ^{٢٢٩} الْأَنْوَحِ، الَّتِي يَكْفِيهَا لَبْنُ لُفُوحٍ"، قال: قتل أبوك!

وسيجد القارئ لهذا الوصف الدقيق، والتعبير الأنيق، علاقة مباشرة بمصير هؤلاء الرجال، حتى يتبدى و كأن وصف الأفراس مقدمة، والمصير المترتب عليه هو النتيجة، لأن مواصفات الفرس هي

^{٢٢٧} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٤٦٧/٢. علم المعاني. بسيوني فيود، ص: ٣٦. البلاغة العربية في ثوبها الجديد، بكرى شيخ أمين: ٥٨/١.

^{٢٢٨} - الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي، ص: ١٧١-١٧٢. الأمالي للقال ي ٢١٩/٢، مجمع الأمثال للميداني، ٢ / ٢٤٦ وقصة المثل: "لا تعلم اليتيم البكاء". المزهر في علوم اللغة وأنواعها. عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (٨٤٩هـ-٩١١هـ)، تج/ محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم: دار التراث. القاهرة، ط٣، ٣/٥٤٩-٥٥٠.

^{٢٢٩} - ضيقة مخارج النَّفْس. الأنوح: صفة نَمَّ في الخيل، وهي الكثير الزحير في جريه.

التي ستعين الفارس على النجاة، كنتيجة لتضافر جهودهما معا؛ وسيتبدى أيضا هذه الذاكرة الفوتوغرافية التي تتجاوز التصوير إلى التحليل وربط المقدمات بالنتائج، خاصة وأن هذا التوصيف كان قبل نهاية المعركة، وقد صدق الرجل في أخباره أيضا، وهذا السياق اللغوي الخالي من المؤكدات يكشف عن أن المرأة في أقصى الظروف، إنما تحرص على قراءة المعركة ونتائجها، وتستخبر عن ذوبها وإن قاربت الخطر مما يظهر شجاعته من جهة وحبها وتحنانها من جهة أخرى، دون أن يُبخس حق شجاعته!.. وهذه (زرقاء اليمامة) تحذر قومها فلا يصدقون فيذبّون، ويجري البحث عنها، فلما ظفر بها حسان بن تبع سألها عن طعامها فقالت: "دَرَمَكَة كُلُّ يَوْمٍ بِمَخِّ عَنُقٍ" ^{٢٣٠} وبم تكتحل فقالت: "بِعَبُوقٍ مِنْ صَبْرِ، وَصَبُوحٍ مِنْ إِثْمَدٍ" ^{٢٣١}

إن هذا العدو يبحث عن هذه المرأة الأعجوبة والأسطورة والتي لو أطاعها قومها لكان هلك تبع ومن معه، وفي الوقت نفسه يريد أن يجد تفسيراً لما تتمتع به من حدة البصر، ويحاول الربط بين السبب والنتيجة (الطعام - الاكتحال / حدة البصر)، فهو خالي الذهن تماما من الحكم على الخبر، ولذا تسوقه خاليا من المؤكدات، فتخبره ما تأكل و بما تكتحل صباح مساء، وهي لا تتزيد في الخطاب مراعية السياق المحيط، وغلبة العدو وقهره، وتهيبا من مصيرها أيضا، والتي لم تستطع الفرار منه، فقد اقتلع عينيها وصلبها على باب المدينة.. وبهذا يكون الإخبار لإظهار المسكنة والضعف!!

ويتفق مع ذلك موقف (زَيْنَبِ بِنْتِ الْحَارِثِ الْيَهُودِيَّةِ) التي سمّت النبي ﷺ في الشاة فأتى بها النبي ﷺ: " قَالَ: وَمَا حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ؟ " قَالَتْ: " قَتَلْتُ أَبِي وَعَمِّي وَرَوْجِي، وَنَلْتُ مِنْ قَوْمِي مَا نَلْتُ، فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَسَتُخْبِرُهُ الشَّاةُ مَا صَنَعْتُ، وَإِنْ كَانَ مَلِكًا اسْتَرْحَنَا مِنْهُ " ^{٢٣٢}.

^{٢٣٠} - خزانة الأدب، للبغدادي: ٢٥٥/١٠، المستقصى في أمثال العرب، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ/١١٤٤م): طبع بإعانة وزارة المعارف للتحقيقات العلمية والأمور الثقافية للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: د/محمد عبد المعيد خان، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ١٩/١.

^{٢٣١} - المستقصى، للزمخشري: ١٩/١، خزانة الأدب، للبغدادي: ٢٥٥/١٠، الدرمة: واحدة الدرمة، وهي دقيق الحواري النقي، أرادت خبزة مصنوعة منها.

^{٢٣٢} - المغازي للواقدي: ٢/٦٧٨، في أعقاب فتح خيبر، السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٣٣٧، الروض الأنف، للسهيلى: ٤/٨٢-٨٣، زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية: ٣/٢٩٧-٢٩٨، تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/١٥-١٦. سنة ٥٧هـ، البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ). تحقيق ونشر مكتبة المعارف: بيروت، ١٤١٠هـ. /١٩٩٠م: ٤/٢٠٩-٢١٠ - ٢١١. أبوها الحارث وعمها يسار وكان الحارث أشجع اليهود، وأخوه زبير قتل يومئذ فكان زوجها سيدهم وأشجعهم سلام بن مشكم، وقد قتل وهو مريض يومئذ.

الوضوح بعد الفضيحة أقصر الطرق لعدم إثارة الخصم أو العدو، فقد أسقط في يدها، وكانت (زَيْتَب) تُمَنِّي نفسها أن تنجح خطتها، ولكنها أيضا تتكلم بطمأنينة، فلا تحتاج لسوق مؤكدات لغوية لا يستدعيها السياق، لا لشيء، إلا لأن المخاطب بإمكانه كشف كذبها بسهولة، كما كشف خديعتها وحيلتها لقتله، وبذا يكون الخبر لإظهار الضعف والاستسلام والاستكانة.

بعد أن أغار ابن مندلة على قبيلة حجر وأسر زوجته قال: يا هند: ماظنك الآن بحجر؟؟ قالت:
"أَرَاهُ ضَارِبًا بِجَوْشَنِهِ عَلَى وَاسِطَةِ رَحْلِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: "سَيَرُوا سَيَرُوا لَا غَزْوَ إِلَّا التَّعْقِيبَ" ٢٣٣"

إنه يستعلم منها عن حال زوجها، وهي تريد أن تقرب له الصورة وتمثلها له على الوجه الأكيد الذي تستقر معه في قلبه فيتخذ للحال استعدادها، فهي (تراه)، لأنها تخبره وتعرفه فتبدو شديدة الثقة من هذا الخبر لدرجة اليقين بالرؤية القلبية، والتي تريد للمخاطب أن يتبناها ويستيقظها، وهي صورة تظهره على أهبة الاستعداد للثأر، فقد ضرب بدرعه على واسطة رحله، ويتجه صوب هدف محدد، يحث جيشه على الوصول إليه، وهي صورة تشي عن درجة العجلة والسرعة والتحفز للأخذ بالثأر، وعليه فعلى ابن مندلة ألا يستهين ويستكين إلى الدعة والراحة، فهناك خطر محقق يقترب مع كل لحظة، فجاء إخبارها على هذا النحو للتحذير.. وهذا سياق فريد لأنه هذه المرة يتعلق بالمتكلم نفسه وبدرجة ثقته من الخبر للحد الذي لا يحتاج معه لأي مؤكدات أخرى يسوقها لإقرار الخبر عند المتلقي، وتتجلى سلطة المرأة في هذا الخطاب من حيث امتلاكها لمعلومات تخلخل بها الثابت والمستقر لدى المتلقي، مما يفرض هيمنتها عليه، وتوجيهها لردود فعله على خطابها..!

وهذه (أُمُّ الشَّنْفَرَى)، في عالم الرؤيا تُخبر في الولد الذي تريده، فتقول: "بل أريدهُ ذا نجدة، سريعاً في العِدَّة، لا تتثيه الرِّعْدَةُ، ولا تحويه الشَّدَّة، كأسدٍ ذي لِبْدَةٍ. ٢٣٤" ٢٣٥

هذه المرأة الأسيرة تبدأ خطابها/ أمنيتهها بـ(بل) للإضراب، ولتثبيت الخيار الذي تريده في الابن الذي تحمله، وهذه الصفات التي لا يتسم بها سوى السادة الأشراف، والفرسان النجباء؛ تشكل معادلاً

٢٣٣- مجمع الأمثال للميداني ٢، ٢٥٦. وفي اللسان: الجوشن: الدرع.

٢٣٤- واللِبْدَةُ الشعر المجتمع على زيرة الأسد؛ وفي الصحاح: الشعر المترابك بين كتفيه. وفي المثل: هو أمتع من لبدة الأسد، ا للسان. (لبد).

٢٣٥- تمثال الأمثال. لأبي المحاسن محمد بن علي العبدري الشيبني (ت ٨٣٧هـ) تح/ د. أسعد زيبان: دار المسيرة، بيروت، ط ١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ٣٢٢/١، أم الشنفرى: امرأة من فهم سباها مالك بن الأدرم فوق وقع عليها فحملت بالشنفرى، فأتيت في منامها فخرت في الولد الذي تريد فقالت: بل أريده ..."

موضوعيا انقلابيا على الحال التي هي عليها من الأسر و الذل والضعف والغربة، وهو أيضا خطاب يحقق لها مكاسب على أرض الواقع، فتكتسب مكانة في مجتمع لا يعتد ولا يعترف إلا بالنجابة والشجاعة والبأس، إذن هو خطاب يتصل بانعكاس الذات وقيمتها وصورتها عند الجماعة .

وهذه المرأة، وإن كانت أسيرة فليس عليها أن تتواضع في مطالبها وأحلامها وأمنياتها، مما يعطينا أيضا تصورا قريبا من صورة الذات عن نفسها !!..

إنّ تموضع الفعل المضارع (أريده) في السياق اللغوي، يعطي دلالة إيحائية مضاعفة، فهي وإن فقدت إرادتها بالأسر؛ فإنها لا تضيع أي فرصة -وإن كانت في الحلم -لتكون لها إرادة الاختيار ورسم صورة فيسفسائية لشخصية الابن الذي تريده وفق وضع رهن تحياه، ولا تستطيع التخلص منه فتسعى لتعديله وفق الإمكانيات المتاحة.

ومن الأخبار التي بادرت إليها المرأة على سبيل الخبر الخالي من المؤكدات المذكورة آنفا، (ابنة قيس بن مسعود الشيباني) ذي الجدين وزوج لقيط بن زرارة بن عدس، وذلك لما قُتل لقيط وتحملت إلى أهلها مالت إلى محلة عبد الله بن دارم فقالت:

" نِعَمَ الْأَحْمَاءِ كُنْتُمْ يَا بَنِي دَارِمَ، وَأَنَا أُوصِيكُمْ بِالْقَرَائِبِ خَيْرًا فَلَمْ أَرِ مِثْلَ لَقِيْطٍ " ٢٢٦

إنه خطاب في سياق ما بعد الحرب، وبعدهما قتل زوجها وانهارت حياتها، وتوشك أن تفارق أحماها، وهي تريد إعلامهم بأمور، وتسجل موقفا في خطابها المبني - رغم قصره - من مقدمة وعرض وخاتمة:

فهم نعم الأحماء وخير الناس، توصيهم بالقرائب خيرا وبالطبع تقصد نفسها فهي نسيبتهم وتريد منهم الاحتفاظ بالمحبة لها، وتختتم بإعلامهم بموقفها من لقيط، ومثلهم لا تخفى عليهم مثل هذه الأمور، ولكنها ساقط الخبر للمدح وإظهار الاعتزاز بهم وبنسبهم حتى وإن انقطعت وشيجة النسب بمقتل لقيط.

أما (النَّضِيرَةُ ابْنَةُ الضَّيْرَانِ) فترسم خطة هجوم، لكن المفاجأة أنها ترسمها للأعداء ليتمكنوا من اقتحام حصن أبيها الذي استعصى عليهم طويلا، لأنها وقعت في حب عدوها، وهي هنا تخبر عن جزء من دورها في هذه الخطة، قالت: " أَنَا أَسْقِي الْحَرَسَ الْخَمْرَ فَإِذَا صُرِعُوا فَأَقْتُلُهُمْ وَأَدْخُلُ الْمَدِينَةَ"^{٢٣٧}

إن المخاطب هنا خالي الذهن تماما من هذه الخطة التي تفترحها، بل تفرضها وقد تبنتها أكثر من الأعداء أنفسهم، فهو يخرج من إطار فائدة الخبر إلى أفق تحريك الهمة، إنه سياق خيانة وغدر من فتاة مدللة من أبيها وقومها، والتي ترتب عليها فناؤهم جميعا، إنه خبر خال من المؤكدات اللغوية المباشرة، وإن كان لا يخلو من مؤكد معنوي واضح وبارز، هو بشاعة الطمع واللهاث خلف النزوات القريبة، والتي يكون عقابها أقرب أيضا، وهكذا كان مصير (النَّضِيرَةُ) .. الفتاة الأميرة..!!.

أما هذه (العجوز) من ثقيف، فتنقم من قومها لعدم دفاعهم عن مقدساتهم، فتقول: " أَسْلَمَهَا الرُّضَاعُ، وَتَرَكَوا الْمِصَاعَ " ^{٢٣٨}

هذه العجوز تتأسى على رَبَّتِهَا وآلهتها بعد هدمها، وتلحي باللائمة على اللئام من أبناء القبيلة وتذكر تقاعسهم عن الدفاع عنها، والخبر يساق هنا للتحسر والتوبيخ على هذا التخاذل والتهاون في شأن الربة والآلهة..!! وتأتي بالخبر خاليا من المؤكدات، لأنها واثقة كل الثقة منه، وكأنها تضع الأسباب المنطقية والحتمية لهذه النتيجة المأساوية، وتلخصها في أمرين: اللؤم والتخاذل، الهرب وعدم المواجهة .

وتقع (سَلْمَى) أسيرة لعروة بن الورد، وتبقى معه عمرا وتنجب له الذرية من بنين وبنات، فتحتمل عليه لتعود إلى أهلها فتقول له: " لَوْ حَجَّجْتَ بِي فَأَمَّرَ عَلَى أَهْلِي وَأَرَاهُمْ! " ^{٢٣٩}

^{٢٣٧} - تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢ / ٤٩ . الأغاني، للأصفهاني: ٢ / ٩١ . شعراء النصرانية قبل الإسلام. الأب لويس شيخو. ص: ٥٨٤ . ففعل وتداعت المدينة ففتحها عنوة وقتل والدها الضيْران يومئذ وأبيدت أفناء قضاة الذين كانوا مع الضيْران فلم يبق منهم باق يعرف إلى اليوم وأصيبت قبائل من بني حلوان فانقرضوا ودرجوا.

^{٢٣٨} - المغازي للواقدي، ٣ / ٩٧٢، في بعث لهدم ربة ثقيف فاستاعت هذه العجوز من تسليمها للمسلمين وما تراه نهبا لكنوزها ..! الرُّضَاعُ: جمع راضع وهو اللّينيم . المِصَاعُ: المضاربة بالسيف .

^{٢٣٩} - الأغاني، للأصفهاني: تح/إحسان عباس وآخرون، ٣ / ٥٣ . نثر الدر ٤ / ٨٩ . الروض الأنف، للسهيلى: ٣ / ٣٩٧ - ٣٩٨ - في خُرُوجِ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى حَبِيْرٍ . شعراء النصرانية قبل الإسلام. ص: ٨٩١ - ٨٩٢ . أسرها ثم أعتقها وتزوجها وأنجب منها بنين، لكنها لم ترض لنفسها اسم السباء فاحتالت عليه لتلتقي بأهلها.

إن عروة لا يشك فيها، ولا يرد في ذهنه أن تستغني عنه وعن أبنائها، ولكنها تكره كونها سبباً وتريد التخلص من هذه السببة، حتى لو دفعت أعلى الأثمان، زوجا محبا، وأبناء هم في حاجتها، ولكن كرامتها فوق كل شيء أو أي اعتبار، فتسوق خبرا خالياً من المؤكدات لتلقيه في روع زوجها، وبغرض التمني، وعلى الرغم من كون هذا التركيب اللغوي خالٍ من أي إشارة إنكارية أو طلبية، فإن معناه في باب الطلب، حيث تأمر أسرهما بأدب التمني أن يأخذها إلى الحج وأن يزيروها أهلها.

الحَجْرُ الطَّلَبِيُّ:

حين يسيطر الشك والتردد على ذهن المخاطب، فإن الخطاب لابد أن يشتمل على مؤكدا واحدمستحسن، ليقنع المخاطب ويصدق الخبر الملقى إليه، حيث يتشكل انزياحا فكريا وعاطفيا مؤيدا لهذا الخطاب أو لملقيه، وبناء عليه تتغير معطيات داخلية وخارجية مترتبة على هذا الخطاب، ومن نماذجه:

(سارة) القينة النائحة، جاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب عطاءه وتشكو حاجتها، وهي التي كان يُلقى إليها هجاء الرسول ﷺ فتغني، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا كَانَ لَكَ فِي غِنَائِكَ وَنِيَاكِ مَا يُغْنِيكَ " ، فَقَالَتْ: " يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قُرَيْشًا مُنْذُ قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ بِبَدْرِ تَرَكُوا سَمَاعَ الْغِنَاءِ " ٢٤٠ .

(سارة) امرأة مشكوك في حاجتها التي تطلبها، فهي التي كانت تشهر بالنبي ﷺ وتحرض عليه بغنائها ونواحها، فتضطر لسوق خطابها مكتنفا بأداة التوكيد (إِنَّ) لإقناع المخاطب الشاك فيها وحمله على تصديقها بحجة منطقية، وهي أن قريشا تركت الغناء بعد مصابهم في بدر .

وهذه (امرأة من بني تميم) قالت: " مهلاً، فإن المرء من نوكه، يشرب من سقاء لم يؤك " ٢٤١ . هذه امرأة يحدق بها الخطر ويحاول أحدهم أن يأسرها ويغلبها على نفسها، فاحتال عليه وتغلبه من حيث لا يحتسب، هو الفاتك الشجاع المباحث، فتطلق مقولتها الحكيمة، ولتسير مثلاً أيضاً، ولمن يشك

٢٤٠- المغازي للواقدي، ٢/ ٨٦٠، في فتح مكة. فَوَصَّلَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَوْفَرَ لَهَا بَعِيرًا طَعَامًا، فَرَجَعَتْ إِلَى قُرَيْشٍ وَهِيَ عَلَى دِينِهَا. فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْفَتْحِ أَنْ تُقْتَلَ فُقْتِلَتْ يَوْمَئِذٍ.

٢٤١- مجمع الأمثال للميداني، ١/ ٣٤٨، أسرت جندب بن العنبر بن تميم بن عمرو وكان رجلاً فاحشاً دميماً شجاعاً، وأراد امرأة على نفسها فقال لها: (لتمكنني مسرورة أو تقهرين مجبورة) فقالت: فنزل عن فرسه، فلما دنا منها قبضت على يديه بيد واحدة وجعلت تعصرهما حتى لم يقو على الحراك ثم كتفته بغان فرسه وراحت به مع غنمها. وهي تحذو ..

في القبول بهذه المقولة تسوق خبرها الساخر المويخ بمؤكد واحد (إن) يساعدها على هذا الخطاب السياق المصاحب الذي أثبتت فيه الغلبة والتفوق ، ولكن لأنها امرأة تواجه رجلا من هذا النوع فقد يتردد البعض في الاقتناع بهذه المقولة؛ وهي تُقرُّ حقيقةً أثبتتها لها التجارب: أن من حمق المرء أن يعتقد أنه قادر على الشرب من سقاء لم يحكم ربطه وإغلاقه لأن النتيجة معروفة ؛ وتعرض بهذا الرجل في الوقت نفسه الذي لم يرسم استراتيجية مناسبة للهجوم ، فقد استخفَّ بها كونها امرأة ولكنها أيضا تظهر قوة جسدية استثنائية، متوسلة لهذا الخطاب صورة نابضة من البيئة المحيطة ، والطريف أن هذه الصورة أيضا موائمة تماما للسياق الخارجي ، فقد كانت حينها ترعى الغنم وتسقي .

وتقول (هندُ ابنةُ ظالمٍ) لابن مندلة تحذره وتحضه على الهرب، وهي تراه مزهوا بنصره، وترى أنه قد ينشغل بذلك عن الحذر عن يطلبه، وتعني زوجها: "النَّجَاءُ النَّجَاءُ ، فَإِنَّ وِرَاعَكَ طَالِبًا حَثِيئًا، وَجَمْعًا كَثِيرًا، وَرَأْيًا صَلِيْبًا، وَحِزْمًا وَكَيْدًا .." ٢٤٢

و(هندُ) بهذا الموقف تظهر ميلاً واضحاً ورضاً وارتياحاً لهذا الرجل الذي سبها فتهواه وتتعشقه للحد الذي لا تريد معه أن يدركها الطلب فتعود إلى زوجها وقبيلتها، وهي أيضا امرأة - إن خوفاً وإن حقاً - تصور زوجها وتصف قبيلتها، وهي تقدر تماما الخطر المترصد بهما إن استسلم ابن مندلة لحلاوة النصر التي تتغشاها، فهناك طالب لا يهدأ ولا يكِل وتعني زوجها، وهو قائد يتبعه ويطيعه جمع كثير، يلتفتون حول رأي صليب واحد ، وهدف محدد ، يسعون إليه بكل حزم لا ينثني منهم أحد، سعي رجل واحد ، قبيلة في رجل أو رجل في قبيلة ، وهي تستميله بمؤكد لفظي واحد (إن) ، وإن كان السياق المعنوي، والسياق اللغوي بعامة والمرتكز على أسلوب الوصل بعطف بالواو على الجمل المتوازنة، والتي تعطي إحياء لاهتا ، وكأنه تَقَطَّعَ أنفاسٍ لا تدرك السكينة ،أضف إلى ذلك التكرار اللفظي المتقدم والذي يفيد التحضيض والإغراء (النَّجَاءُ النَّجَاءُ) يقوي من الموقف التحذيري.

الحَبْرُ الْإِنْكَارِيُّ:

وهو ما زادت أو تعددت فيه المؤكدات تبعا لموقف المخاطب من موضوع الخطاب، إنكاراً ورفضاً وجحوداً، فيندفع المتكلم ويحتشد لإقناع المخاطب أو إفحامه، بحسب السياق وما يفرزه من أغراض أخرى...!!

وفي سياق لافت نجد (سُبَيْعَةَ ابْنَةَ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ مَنَافٍ)، تخاطب زوجها مسعود بن معتب في حربه ضد قومها قريش، وقد رآها باكية فسألها: مايبكيك؟؟!! فقالت: " لِمَا يُصَابُ غَدًا مِنْ قَوْمِي "، فقال لها: من دخل خباءك فهو آمن، فصارت تمد وتصل في الخباء ليتسع لأكثر عدد ممكن، فقال لها: لا يتجاوزني خباؤك، فأحفظها، فقالت:

" أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَظُنُّ أَنَّكَ سَتَوُدُّ أَنْ لَوْ زِدْتُ فِي تَوْسِعَتِهِ "،^{٢٤٣} ومثل ذلك قولها لزوجها وقد رأته يجمع الكبول والجوامع، مَا تَصْنَعُ بِهِدًا؟ قال: أرجو والله أن أملاً منها قومك ..!!، قالت: " أَنْتَ وَذَلِكَ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ رَأَيْتَهُمْ لَتَعْرِفَنَّ غَيْرَ ذَلِكَ "،^{٢٤٤} وفيما يشبهه السخرية الممزوجة بالتحريض على الجوار تنشر الخبر في أوساط قبيلتها مستعملة أداة التوكيد (إِنَّ ، أَنْ ، لا النافية) يقويه النفي للإثبات (لا/إلا) ، فتقول: " إِنَّ وَهَبًا يَأْتِي وَ يَخْلِفُ أَلَّا يَبْقَى طُنْبٌ مِنْ أَطْنَابِ هَذَا الْبَيْتِ إِلَّا رَبطَ بِهِ رَجُلًا مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، فَالْحَدَّ الْحَدُّ " ، فلما هزمت لجأوا إلى خباؤها فأجارهم حرب بن أمية.^{٢٤٥}

إنها امرأة أخرى تحتشد بهذا الخطاب الذي يجاوز سياقات الواقع الراهن الذي تتحداه به، وهي تتمزق بين طرفي النزاع : قبيلة زوجها/ قبيلتها الأم، وبينما كانت منشغلة بتوسيع الخباء لتجبر فيه قومها، أحفظها زوجها بتعريضه بقومها وهزيمتهم، فينبثق جرحها عن خطاب ملتهب، لهذا المخاطب المنكر كل الإنكار لإمكانية أو احتمال أن ينهزم ، بينما هو على يقين تام من هزيمة عدوه، وفي هذا السياق المشحون بالفوقية والتحدي، توجه خطابا لافتا بمؤكداته على عمق درايتها وإدراكها لكوامن المخاطب، فنلاحظ خطابًا يبدأ بحرف التنبيه والاستفتاح للتأكيد : أما ، والذي يثبت تحقق ما بعدها

^{٢٤٣} - الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تح/ علي السباعي، عبد الكريم الغريابي، إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ٢٢ / ٦٧، زوج مسعود بن معتب الثقفي، وهي جدة المغيرة بن شعبة، يوم عكاظ، لكنانة وقريش على هوازن، التي دامت أربع سنوات ودارت رحاها في سوق عكاظ قبل البعثة النبوية بستة وعشرين عاما، المسماة بأيام «الفجار» لأن الناس لم يراعوا حرمة الأشهر التي حرم فيها القتال، وكان أشدها وأعظمها يوم عكاظ وهو اليوم السابع حيث خشيت قريش الهزيمة. الْمُتَمَقُّ فِي أَخْبَارِ قُرَيْشٍ: محمد بن حبيب البغدادي. ص ٢٠٤. أعلام النساء، رضا كحالة: ١٤٨/٢، أيام العرب في الجاهلية، على الجاوي، أبو الفضل إبراهيم: ص: ٣٣٥. معجم أعلام النساء، المسمى (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور)، زينب بنت علي بن حسين فواز العاملي (ت ١٣٣٢هـ)، تح/ منى محمد زياد الخراط، مكتبة التوبة، الرياض، ط ١، ٢١ / ٤١٤هـ / ٢٠٠٠م. ص: ٣٩٢.

^{٢٤٤} - الْمُتَمَقُّ فِي أَخْبَارِ قُرَيْشٍ، محمد بن حبيب البغدادي: ص: ٢٠٤. ذكر ما هاج الفجار الرابع وهو فجار البراض رواية أبي عبيدة.

^{٢٤٥} - الأغاني، للأصفهاني: ٢٢ / ٦٨. تح/ علي السباعي. عبد الكريم الغريابي.

تأكيداً، وهي هنا تأتي بطريقة نموذجية مستبقة القسم^{٢٤٦} ، ثم (القسم بلفظ الجلالة: الله، إن، اللام ، أن، أن ، السين)، والسين الداخلة على الفعل المضارع (سَتَوَدُّ) ، تفيد وقوع الفعل لا محالة، وهي تدل على تأكيد الوعيد والتهديد .^{٢٤٧}

إن كان هذا السياق لافتاً على الصعيد اللغوي، فهو لافت أيضاً على الصعيد الاجتماعي والإنساني، كما يشي ببعض أعراف الحرب، وتقاليدها، حيث يتجلى فيها وجه اللياقة والنبل والمروءة على الرغم من وحشيتها، حيث يسمح للعدو بما نسميه تجاوزاً: اللجوء السياسي ، وأيضاً لمن يصاب في الحرب، أو يضطر للانسحاب من المعركة، فهناك مأوى يحفظ عليه حياته، ويظهر أيضاً مكانة المرأة السيدة المحترمة، التي وإن اضطرت زوجها لخوض حرب مع أهلها، أن يراعي مشاعرها، بل ويحرص أن يظهر مكانتها دون مواربة أو خجل، فيسمح لها أن توسع من خيمتها وتصل القطعة بالقطعة ليستوعب كل مضطر مستجير، بل هي لا تتردد أن تبعث ابنيها - وهم أطفال - ليأخذوا بيد هؤلاء ويدلوهم على الخباء ، بل وتجبر كل من تمسك بالخباء أو دار حوله حتى أصبح خبأها يسمى بمدار قيس .

فلما انهزم زوجها استجار بها ، فلم تستطع أن تقاوم التعاطف معه، والانكسار لانكساره، ولكنها أيضاً لا تستطيع ألا تذكره بموقفه قبل بدء الحرب ، فتتردد في قبول إجارته تردداً - ظاهرياً - تظهره أداة التوكيد (أن)، غير أن السياق يظهر تلاحقاً واستدراكاً يشعرك بعمق الحب والتعاطف ، إن ترددها كان خاطفاً وسريعاً، وإجارته حميمة ومتدفقة لا نقاش فيها، جواب لخصت فيه موقفه وموقفها ، لتقفز إلى إجارته، لأنه موقف شديد الطرافة على الصعيد الإنساني ، يختلط فيه الحب بالتعاطف بالعتاب، فهل نقول أنها تظهر له أنها مترددة في قبول إجارته...؟؟!!، لكنها سرعان ما تغير رأيها، وهكذا يكون خطابها لإظهار موقفها من موضوع إجارته من جهة ومنه شخصياً ، فقالت: " كَلَّا زَعَمْتَ أَنَّكَ سَتَمَلَأُ بَيْتِي مِنْ أَسْرَى قَوْمِي، اجْلِسْ فَأَنْتَ آمِنٌ".^{٢٤٨}

الفرق واضح عند هذه المرأة، فقبل الحرب، كانت على يقين من انتصار قبيلتها الأم على قبيلة زوجها، امرأة نافذة البصيرة، تقرأ الوقائع، وتفهم حركية موازين القوى على أرض الواقع و استراتيجيتها

^{٢٤٦} - انظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، بكرى شيخ أمين: ٦٦/١ .

^{٢٤٧} - نفسه.

^{٢٤٨} - الأغاني، للأصفهاني: ٢٢ / ٧٤ . تح/ علي السباعي. عبد الكريم الغريابي.

، لم يكن رأياً مندفعاً أو أمنية من قلب فارغ، لأن النتائج النهائية صبت في كفة رأيها، وبذا فخطابها مشحون بمؤكدات توضح موقفها من جهة / وموقف المتكلم من إنكار موضوع الخطاب من جهة أخرى.

وفي سياق مشابه، يأتي خطاب (امرأة من هذيل) قالت لابن لها: "أَيُّ بَنِي أَنْطَلِقَ إِلَى أَخْوَالِكَ فَأَنْذِرُهُمْ بِأَنَّ عَاصِيَةَ السُّلَمِيِّ قَدْ أَمْسَى يُرِيدُهُمْ" ^{٢٤٩}

إن هذه امرأة تحاصر بين سياقين خانقين، بين طرفي نقيض، بين حرب وشيكة بين قبيلة زوجها وقبيلتها، بين أن تكتم ما تعرفه وقد استئمنت عليه، وخوفها على أهلها وقبيلتها، فتختار أهون الشرين، فتستأمن ابنها وترسله ليحذر قبيلتها الأم ونص الرسالة: "بِأَنَّ عَاصِيَةَ السُّلَمِيِّ قَدْ أَمْسَى يُرِيدُهُمْ" ..، أما في نص مقولتها يتخذ فعل الأمر موضعه في هذا السياق المشحون بالحرص والحذر، فتستخدم أداة نداء للقريب (أي) لدلالة القرب واللصوق الذين يستلزمهما المقام، وهما قرب مادي يستلزمه وضع السرية، وقرب معنوي لأنها تخاطب ابنها، وكلاهما في خطر إن فشا الأمر...، ثم يأتي فعلاً أمر (انطلق/ فأنذرهم) وجاء حرف العطف الفاء الذي يفيد الترتيب والتعقيب للحث على سرعة الإنجاز في التحذير دون تمهل أو تلغو، فلما جاءت إلى نص رسالة التحذير تأتي بمؤكدين (أَنَّ/ قَدْ)، (أَنَّ) للتوكيد، و(قَدْ) تفيد بدخولها على الفعل الماضي توكيد الحصول وتحققه، و لا تغفل هذه المرأة عن تحديد السياق الزمني (أمسى) لتعلمهم أنه مصبّحهم، وتختتم بفعل مضارع (يريدهم) الذي يفيد تجدد الحدوث واستمراريته... ليكونوا على حذر دائم، وهي لا تترك مصدر الخطر مبهما، بل تحدد لهم عدوهم تحديداً (عاصية السلمي) ولهذا التحديد دلالتة ورمزيته.. وهنا خطاب امرأة تجازف بكل مكتسباتها لتسجل موقفاً فريداً تستنقذ به أهلها! وهو خبر للتحذير ساقط (الهدلية) هذه المؤكدات فيه لتوقعها - لسبب أو لآخر - إنكار قومها / ابنها لهذه الرسالة التحذيرية.

أما (تماضر بنت عمرو بن الشريد) وزوج زهير بن جذيمة، وقد مرّ بهم أخوها الحارث بن عمرو، وبينهم خلاف، فأغلظ زهير على عمرو وأمر أبناءه بتوثيقه، فقالت لهم أهم تماضر: "أيزوركم خالكم

^{٢٤٩} - الأغاني، للأصفهاني: ١٢ / ٧٣. إحسان عباس وآخرون. وقد كانت المرأة هذلية متزوجة من بني بهز، فأرادت إنذار أهلها من هجوم قبيلة زوجها عليهم.

فحرموه وتوثقوه..!!؟؟"،^{٢٥٠}، ثم قالت (تَمَاضُرُ) لأخيها الحارث بن عمرو تصف كلام زوجها له : " إِنَّهُ لِيُرِيْبِنِي اِكْبِنَانُكَ وَقَرُوبُكَ ، فَلَا يَأْخُذَنَّ فِيكَ مَا قَالَ زُهَيْرٌ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ بَيِّنَارَةٌ ، غِيْذَارَةٌ ، شَنْوَةٌ . " ^{٢٥١}

ومرة أخرى تجد هذه المرأة نفسها في موقف حرج وعليها أن توازن في موقفها بين زوجها الذي وصفته بأنه: "رَجُلٌ بَيِّنَارَةٌ ، غِيْذَارَةٌ، شَنْوَةٌ" ، ونصرة أخيها الذي أهين وأوثق بيدي أبناء أخته، فهي هنا ترى أن أباها قد يظن أنها تتفق مع زوجها وأبنائها فيما وقع عليه من أذى، ومن خلال هذه القراءة الدقيقة النافذة، تنتقي سياقين: لغويا وعمليا يمكنانها من توضيح موقفها ، وتغيير موقف المخاطب منها، ولتظهر له العكس، فتلوم أبناءها على ما فعلوه بخالهم تارة، وتسوق الخبر بمؤكدات: (إِنْ/ إِنْ، لام التوكيد، نون التوكيد) تارة ثانية ، وتقوي ذلك باستدعاء النهي بـ(لا الناهية) تارة ثالثة، وهو خبر لإظهار المواساة، ولتحريك الهمة ورفع المعنويات في الوقت ذاته، وتتجلى لنا على صعيد السياق اللغوي هذه اللغة البدوية بتقعرها وغرابتها وجماليتها الخاصة ووقعها المميز بتعبيرها التصويري الدقيق أيضا !!.

وهذه (عَجُوزٌ كِنَانِيَّةٌ) توجه خطابها لامرئ القيس بن حجر الكندي، وقد أغار عليهم للأخذ بئار أبيه: "أَبِيْتِ اللَّعْنِ! لَسْنَا لَكَ بِئَارٍ، نَحْنُ مِنْ كِنَانَةٍ، فَدُونِكَ تَارَكَ فَاطْلُبُهُمْ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ سَارُوا بِالْأُمْسِ." ^{٢٥٢}

في ظل سياقي الخوف والرعب اللذين يطبقان على المحيط الخارجي، تنبيري هذه العجوز لاستنقاذ ما يمكن استنقاذه وتبرز كفدائية تضحى بنفسها في مخاطبة امرئ القيس الغاضب، بأن تنبه امرأ القيس الذي يعميه الغضب عن قبول مقولتها، فتأتي بـ(إِنْ/ قد) كمؤكدين يلفظان الخطاب وتستعطف هذا الغازي ليرحمهم، والذي قد ينكر وينقض مقولتها، فيظن أنها تكذب عليه لينصرف عن الثأر منهم، ونلاحظ الأثر المباشر لهذا الخطاب على امرئ القيس، وعلى تغيير مسار الأحداث ومصائر الناس وحياتهم في هذه القبيلة من جهة، ويأتي خطاب هذه العجوز، لتحقيق قيم العدالة، حتى لا يفر من العقاب أهله ، وأيضا ففي هذا التنبيه إحقاق لحق ودفع لشبهة واستنقاذ لأرواح.

أما هذه المرأة من (بني البكاء) فقد توقعت الإغارة على القبيلة فقالت: "إِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي

^{٢٥٠} - الأغاني، للأصفهاني: ١١ / ٥٨، إحسان عباس وآخرون. تمثال الأمثال، للعبدي: ٢ / ٣٣٤.

^{٢٥١} - اكبأن الرجل: انكسر، واكبأن: انقبض؛ اللسان (كبن) القروب: السكوت. البيذارة: الكثير الكلام، اللسان (بذر)، الغيذارة: السيء الخلق في اللسان: الشر، و الشنوءة: المبعوض .

^{٢٥٢} - الأغاني، للأصفهاني: ٩ / ٦٨، إحسان عباس وآخرون.

أَنَّ خَيْلًا تُغَيِّرُ عَلَى الْحَيِّ، فَكَيْفَ أَنْتَ إِنْ زَوَّجْتِكَ نَفْسِي؟ "٢٥٣ .

والمخاطب هو ربيعة بن مكرم الفارس المعروف، ولأن الأجواء لم تكن تنذر بأي خطر مرتقب ، فقد قرأت في المخاطب إنكارا لهذا الخطاب ،خاصة أنها لا تملك دليلا على مقولتها التحذيرية سوى حدسها القوي الذي تضطر لتؤكد به (إِنَّ/ أَنْ)، والطريف الذي يبرزه لنا هذا السياق اللغوي، هو الترتيبات والاستراتيجية التي ترسمها للتعامل مع هذا التوقع ، وأولى الخطوات هي البحث عن زوج لم تعثر عليه بسهولة من بين رجال القبيلة الذين قابلتهم حتى وقع اختيارها على ربيعة بن مكرم، أما الخطوة الثانية فهي الحيلة ، فحين صدق توقعها و هجم القوم عليهم قالت: " وَأَتُكَلِّهُ!! وَاللَّهِ مَا أَبْجَى عَلَى مَالٍ وَلَا تَلَادٍ، وَلَكِنْ عَلَى أُخْتٍ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْفَوْزِ، تَبَقَى بَعْدِي فِي مِثْلِ هَذَا الْغَائِطِ، فَتَهْلِكُ ضَيْعَةً"٢٥٤ .

القسم الذي عززته هذه (المرأة) بالنفي للإثبات (ما/ لكن) نفت بكاءها على المال، وأثبتته على أختها، وهي تظهر براعة لافتة، وقراءة واضحة تعززهما الخبرة الواقعية، فهي على يقين بأن هذا الغازي إنما مطعمه مع المال النساء، فعزفت على هذا الوتر وقد نجحت، وغرض الخبر هنا هو إظهار الضعف للعدو حتى تتمكن منه، لأن من كان ينتظر العدو وراء الخيام إنما كان زوجها ربيعة.

وبعناية خاصة نقرأ خطاب (أُمُّ أَنَسِ بِنْتُ عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمِ الشَّيْبَانِيِّ)، وذلك حين أغار عليهم عمرو ابن الهبولة الغساني وكان الحارث غائباً ، فَعَنِمَ وَسَبَى، وَكَانَ فِيمَنْ سَبَى (أُمُّ أَنَسِ بِنْتُ عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمِ الشَّيْبَانِيِّ) امْرَأَةُ الْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو ، فَقَالَتْ لِعَمْرِو فِي مَسِيرِهِ: " إِنِّي لِأَرَى ذَاتَ وَدَاكُ ، وَسُوءِ دَرَكٍ،كَأَنِّي قَدْ نَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ أَسْوَدَ أَدْلَمَ،كَأَنَّ مَشَافِرَهُ مَشَافِرَ بَعِيرٍ أَكَلَ مِرَارًا قَدْ أَخَذَ بِرَقَبَتِكَ " ٢٥٥

٢٥٣ - نفسه: ٥١/١٦. إحسان عباس وآخرون. هذه المرأة تستشعر الخطر وتحتاج إلى من يحميها فتقرر الزواج من رجل يتمكن من ذلك، وقد اختارته من بين مجموعة من الرجال بعد أن استنطقتهم فاخترت أصدقهم، فلما هوجمت احتالت على المهاجم فأطمعته حتى لاقى زوجها (ربيعة بن مكرم)، الفوز: الرمل المستدير المرتفع.

٢٥٤ - المرجع السابق.

٢٥٥ - الأغاني، للأصفهاني: ٣٨٢/١٦. إحسان عباس وآخرون، أسرها ابن الهبولة مع هند بنت ظالم زوج حجر أكل المرار. السيرة النبوية لابن هشام: ٥٨٧ / ٢. وذكر ابن ماکولا في الإكمال: وأم أناس بنت عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة، أراد أبوها أن يندها ثم قال: دعها لعلها أن تلد أناساً فسميت أم أناس، الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، الأمير الحافظ ابن ماکولا : أبو نصر علي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن علكان بن دلف بن أبي دلف (٤٢١هـ-٤٧٥هـ)،تح/عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني - أمين مكتبة الحرم المكي- : دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م. ١١٣/١، وكذلك ذكر في الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١ / ٣٩٥ ، في قصة يوم البردان . خزنة الأدب، للبغدادي: ٢٨٤/١٠ .

هذه امرأة سبية، وهي امرأة واثقة من نفسها ومن مكانتها بين قومها الذين لن يصبروا حتى يحرروها من الغزاة، نافذة البصيرة، تبدو رابطة الجأش، تحدّ النظر بذهنها، وتبني من معارفها السابقة مستقبل الأحداث القادمة في إرهاب مستنكر من قبل المخاطب المزهو بنصره وغنيمته، لتحطم كل منجزاته بتوقعاتها، وتسرد له مقولتها بأكثر من مؤكد، وقد جاء هذا التوكيد باستعمال (إِنَّ/ لام الابتداء/ قد) وتكرار أداة التشبيه (كَأَنَّ) أيضا قوَى من التوكيد أيضا.

وفي السياق نفسه تُسبى معها (هِنْدُ ابْنَةُ ظَالِمٍ) زوج حجر، فتواجه سؤالا من سابيها عما تظنه من زوجها بعد سببها وذلك حسب معرفتها به فتقول: " ظَنِّي بِهِ وَاللَّهِ أَنَّهُ لَنْ يَدَعَ ظَلْبَكَ حَتَّى يُطَالَعَ الْقُصُورَ الْحُمْرَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي فَوَارِسٍ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ يُدَمِّرُهُمْ وَيَذْمِرُونَهُ، وَهُوَ شَدِيدُ الْكَلْبِ، سَرِيعُ الظَّلْبِ، يَزِيدُ شِدْقَاهُ كَأَنَّهُ بَعِيرٌ آكِلٌ مُرَارًا " ٢٥٦.

و(هِنْدُ) أيضا تسوق خبرا إنكاريا، تأتي فيه بمؤكدين (القسم بلفظ الجلالة :الله ،أَنَّ) ،وذان خطابان في سياق واحد، إلا أننا نلاحظ تباينا بين الموقفين للسيدتين، فبينما (أُمُّ أَنَسِ) تشد عضدها بزوجها وتحبه فتبادر بشنّ حرب نفسية على عدوها بإرهابه وتهديده بما سيدركه من التعقب والثأر ، نجد (هِنْدُ بِنْتُ ظَالِمٍ) تتخذ موقفا مغايرا، حيث تقع في حب أسرها وهي لا تألو جهدا تثبت له ذلك ، ولكنها لا تُعَمِّي عليه الخطر الذي يطارده من زوجها، وهي تجيب عن سؤال له عما تظنه بزوجها بعد أن علم باختطافها وسببها، هذه المفارقة تظهر ذاك التنوع الفكري والعاطفي ، وتلك الخيارات المتاحة أمام المرأة التي قد تدهشنا بها وإن كانت تخالف ما نظن أو نعتقد ..، والمفارقة تظهر أيضا في الغرض من الإخبار فبينما(أُمُّ أَنَسِ) تلجأ للتهديد والإخافة، يكون إخبار هند للتحذير والتنوير!!

ومما يقوى تأكيد الخبر ويسهم في إيضاح درجة الإنكار التي يتخذها المخاطب من الخطاب/ الرسالة، هو كثرة المتعلقات والإحالة بالضمير..!

وفي سياق مشابه أيضا تؤسر (هِنْدُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي بَدْرِ)، أسرها عامر بن الطفيل وقد سألها: يا هند، ما ظنك بالقوم؟ قالت: " ظَنِّي بِهِمْ أَنَّهُمْ سَيَطْلُبُونَكَ، وَلَيَسُوا نِيَامًا عِنْدَكَ " . ٢٥٧

(هِنْدُ الْبَدْرِيَّةُ) تسوق خبرها مؤكدا ب(أَنْ، السنين) ليقينها به واستحكام الوقوع الذي تعتقده ولا

٢٥٦- الأغاني، للأصفهاني: ١٦/٢٤٤. إحسان عباس وآخرون، العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٦/١٢٩. و٣/٣٤٩. الكامل في

التاريخ، لابن الأثير: ١/٣٩٦.

٢٥٧- الأغاني، للأصفهاني: ١٧/٢٦٣. إحسان عباس وآخرون.

محالة، يقوي تأكيد الخبر هذا التكرار للضمير المتصل (هم) ، مرة مجرورا ، ومرة منصوبا ، ثم تكرر الضمير المتصل المرفوع (واوا الجماعة) ، ثم هذه الظلال المعنوية التي يسبغها الالتفات على هذا التركيب ، كل هذا يضيف خصوصية على هذه المقولة المشحونة بالأمل والشجاعة وقد ذكرت قومها أربع مرات، بين تصديرها لنفسها واختتامها بـ(كاف الخطاب)، وهو ما يشي بأنه لا توازن بينه وبين قومها، وأنها وإياه يفقان على طرفي نقيض لن يلتقيا.. والسبب.. هو: النجدة السريعة التي ستظفر بها ، ونلاحظ أنه موقف للمتكلم من الأحداث ومن نفسه ، ويقينه أكثر من كونه موقفا من المخاطب ذاته .

ويلاحظ في أخبار الأسيرات الثلاث مع آسريهم، أنّ هؤلاء الأسيرين الغزاة، يميلون ميلا واضحا إلى استقصاء الأخبار من الأسيرات، وهو استقراء يحمل وجوها عدّة، فمن ناحية يستنطق الأسيرة ليستعلم منها عن موقفها منه، ومن أهل قبيلتها وذويها، ويستخبر حقيقة واقعها النفسي، هل هي خائفة وجلّة، هل تستريح له وتأنس به، هل هي تنوي الغدر به..؟؟ هذا على عدّ أن أحوال العرب وفرسانها لا يخفى على بعضهم بعضا، خاصة المذكورين في السياقات الثلاثة الآتية الذكر، حيث ترتبط النساء بوشائج قريى مع أشهر فرسان العرب وشجعانها واحتمال جهل المخاطب بهم وبأحوالهم ضعيفا...!

لَمَّا قَتَلَ جَسَّاسُ كَلِيبَ وَائِلَ زَوْجَ أُخْتِهِ (جَلِيلَةَ)، أَمَالَ بِيَدِهِ الْفَرَسَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى أَهْلِهِ خَارِجَةً رُكْبَتَهُ. قَالَتْ أُخْتُهُ: " يَا أُمَّتَاهُ، إِنَّ جَسَّاسًا قَدْ جَاءَ خَارِجَةً رُكْبَتَهُ "، قَالَتْ: " وَاللَّهِ مَا خَرَجَتْ رُكْبَتُهُ إِلَّا لِأَمْرِ عَظِيمٍ. " قَالَتْ: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: وَرَائِي، وَاللَّهِ، أَنِّي قَدْ طَعَنْتَهُ طَعْنَةً لَتَشْتَغِلَنَّ مِنْهَا شَبِوْخٌ وَائِلَ رَقِصًا. قَالَتْ: أَقْتَلْتِ كَلِيبًا..؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: " وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ وَإِخْوَتَكَ كُنْتُمْ مَتَمُّ قَبْلِ هَذَا، مَا بِي إِلَّا أَنْ يَتَنَآكَدَ بِي أَبْنَاءُ وَائِلَ. " ٢٥٨

تبدو أخت جساس في خطابها في منتهى الدهشة والاستغراب ، ليس لقدومه مسرعا فقط بل لأن ركبته خارجة ويبدو أن هذا على غير العادة، ويتضامن المخاطب مع هذا الخطاب إذا عرف السبب ، حيث تذكر بعض كتب التاريخ أن في ركبة جساس برص كان يحرص على أن يخفيه ولا يظهره،

٢٥٨- التعازي والمراثي، للمبرد: ص: ٢٩٧. في قتله كليب وائل، وبداية حرب البسوس المشؤومة. وذكر في شعراء النصرانية على لسان مرة بن ذهل والد جساس: لقد جرّ جساس جريرة عظيمة..!! قالوا: وما ذاك؟؟؟ قال: "لأنني أرى في ركبته موضع برص ما رأيته منذ صغره"، فلما اشتد الرخص بدا ذلك لأبيه. ص: ٢٤٧. والحوار في: الكامل في التاريخ، لابن الأثير، بين جساس ووالده، ١/٤١٣-٤١٤. والمقولة لهما أخى جساس في: أمثال العرب، المفضل الضبي أبو العباس، ص: ١٢٠. الأغاني، للأصفهاني: ٢٦/٥. تح/إحسان عباس وآخرين.

وبقراءة سريعة للحركة الظاهرية للجسد، تقرأ أمراً خطيراً مع هذا الكشف عن الركبة، تدركه الوالدة أيضاً دون ذكره، للدلالة على أن الطرفين (الأم / الأخت) تملكان المعرفة ذاتها ، وتصلان للنتيجة نفسها دون الإشارة لموضع البرص نفسه، ولغرابية الخبر واحتمال وقوع الإنكار من المخاطب تستحضر الأخت تركيباً يحتوي على مؤكدين (إنَّ، قد)؛ أمّا الأم فتقفز إلى البحث عن السبب المجهول ولكنه بلا شك عظيم فتأتي (بالقسم، والنفي للإثبات) للتأكيد على ملاحظة ابنتها التي صادفت إنكاراً مزدوجاً من كل من المتكلم/المخاطب على حد سواء، ويصل جسّاس ، وبعد جملة استفهات ، يقع في قلب الأم أمنية مستحيلة كمعادل موضوعي للحدث الذي وقع ولا تستطيع له دفعا (قتل جسّاس لكُليب) مستخدمة تركيباً لغوياً يكتظُّ شكلاً ومضموناً بالمؤكدات (القسم، اللام، أنّ، النفي بأسلوب الاستثناء، أنّ) أضف إلى ذلك التقديم والتأخير، هذا الخبر الإنكاري هو لغرض التمني، هذا التأكيد للأمنية بالقسم وكافة المؤكدات الأخرى إنما يشي بالفهم الدقيق للوضع الخاص المترتب على الجرم الفادح الذي اقترفه ولدها بقتله سيد العرب ومليكهها ، وما يترتب على ذلك من الفتنة والتناحر والحرب بين أبناء العمومة ، ومع ملاحظة سياقات خاصة منها كون أخت جسّاس (جَلِيلَة بنت مَرَّة) هي زوج (كُليب)، وهي تعرف تماماً أيضاً أن أول المستهدفين بالثأر هم بنوها العشرة وأحفادها، وسيكون الثأر بحجم ودور رجل وملك ك (كُليب).

إن المتلقي ليستنكر من المتكلم أمنية كهذه، ولكن سياقاً كهذا في عصر كذاك يجعلها أمنية مقبولة، وليس من السهل على (أمّ) أيّ (أمّ) أن تتمنى أمنية كهذه، إلا أن خوفها من حجم الفتنة وما ستحرق معها، كما خوفها من أن يضرب بها المثل في الشؤم، دفعها لذلك، فإذن لعبت صورة الذات عند الجماعة (أبناء وائل) دورها النفسي في هذه الأمنية ..!

خُرُوجُ الْخَبْرِ عَنِ الْمُتَضَى الظَّاهِرِ:

إنَّ الغرض العام من الخطاب هو الإقناع بموضوع الخطاب تارة، وبموقف المتكلم من موضوع الخطاب تارة أخرى، أو إقناع المخاطب بالأمرين معاً، ولذلك كله يتخذ المتكلم موقفاً لغوياً في تخيير سياقات لغوية تعينه على ذلك وتبرز غايته منه، ولذا قد يرى المتكلم أن يخرج بالخطاب عن مقتضى الظاهر في الخبر، لتتحقق له هذه الغاية، فقد يكون المتكلم منكرًا للخبر مثلاً لكن المتكلم يرى - لسياقات معينة- أن يعامله معاملة خالي الذهن من الخبر ، أو المتردد في قبول الخبر محققاً بذلك

أيضاً أبعاداً جماليةً على خطابه شكلاً ومضموناً ، ومن أمثلة ذلك :

إنزال المنكر منزلة خالي الذهن من الخبر:

وقد يقتضي السياق انزياحا أسلوبيا في سوق الخبر الإنكاري على صورة الخبر الابتدائي خاليا من المؤكدات، وذلك على غير الظاهر، لأن المتكلم لا يريد الاعتداد بإنكار المخاطب للخبر، فيتجاهل هذا الإنكار، فينزل المنكر منزلة خالي الذهن من الخبر، كخطاب (زرقاء اليمامة) تحذر قومها وتندبرهم من الجيش المتخفي المتربص بهم في الأشجار، قالت: " يا جديس لقد سارت إليك الشجر وأتتكم حمير، .. فقالوا: وما رأيت؟ قالت: " رأيت في الشجر رجلاً معه كتف يأكلها ونعلٌ يخصفها"^{٢٥٩} فكذبوها !...

وعلى غرابة الخبر تأتي غرابة التصوير وحركيته فيه، فهم مزهونون بالنصر الذي حققوه بقتلهم غريمهم وقضائهم على خصومهم، فهم يستبعدون أن يأتي أحد للثأر أو الانتقام، فهي تصوغ هذا الخبر بطريقة منكرة بالنسبة لهم، فهم لم يسمعوا يوماً عن جيش في الشجر، ولأجل كل ذلك ارتأت أن تتجاهل موقفهم وتسوق خبرها خالياً من المؤكدات، الأمر الذي يشي أيضاً بأمنية داخلية بأن سوقها لخبر كهذا يجهلونه سيكون موضع تصديق من قبلهم لأنه لا مجال للتشكيك والتردد والرفض أو الإنكار.

إنزال المخاطب منزلة المنكر:

يمثل ذلك خطاب (هند بنت عتبة) حينما مشى (نساء قرينش) إليها فقلن: "ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟" فخطاب هؤلاء النسوة خطاب تحريضي لهند بنت عتبة لكي تنوح وتبكي قتلاها، متجاهلات كثيراً من الأعراف والتقاليد المتعارف والمتفق عليها في الأوساط الجاهلية والتي يبدو أن بعضها سارياً إلى الآن، فلا يبكي القاتل ولا يؤخذ العزاء فيه حتى يؤخذ بثأره، ظاهر الخطاب

^{٢٥٩} - التيجان في ملوك حمير، للهمداني: ص: ٣٠٨-٣٠٩. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ١/ ٦٣٠. الأغاني، للأصفهاني: ٢/ ٨٥. إحسان عباس وآخرون، قصة المثل "أبصر من زرقاء اليمامة" في العقد الفريد، لابن عبد ربه: ١٣/٣. وانظر مختصر القصة في الروض الأنف، للسهيلي: ١/ ٤٧-١٥١. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٢٧٣. وانظر الخطاب بألفاظ مشابهة في: نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ)، تح/ مفيد قمحية وجماعة: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م. ط. ١٥ / ٢٦٢ .

يحمل بصمات تحريضية على البكاء، وباطنه يحمل بعداً استفزازياً لتعجيل الأخذ بالثأر...!، فقد أنزلوها منزلة المنكرة فجئن بأداة توكيد هي (ألا) التي تعني أن ما بعدها متحقق لا محالة.^{٢٦٠}

فَقَالَتْ لَهَنَّ (هِنْدُ): " حَلَقَى، أَنَا أَبْكِيهِمْ فَيَبْلُغُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَيَشْمَتُوا بِنَا، وَنِسَاءُ بَنِي الْخُرْجِ لَا وَاللَّهِ حَتَّى أَثَارَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، وَالذَّهْنُ عَلَيَّ حَرَامٌ إِنْ دَخَلَ رَأْسِي حَتَّى نَغْرَوْ مُحَمَّدًا. وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ الْحُزْنَ يُذْهِبُ مِنْ قَلْبِي بَكَيْتٍ ؛ وَلَكِنْ لَا يُذْهِبُهُ إِلَّا أَنْ أَرَى ثَأْرِي بِعَيْنِي مِنْ قَتْلَةِ الْأَحِبَّةِ." ^{٢٦١}

ومع يقين (هِنْدُ) بمعرفتهن سبب امتناعها عن البكاء وأخذ العزاء في قتلها، غير أنها أيضا تنزلهن منزلة المنكرات للخبر، واستنكارا على إنكارهن تحتشد لهن في خطابها، وتخير تركيبا لغويا مكتظا بالمؤكدات، مشحونا بانزياحات لافتة على صعيد الذكر والحذف، والفصل والوصل، مراوحة بين الأسلوب الإنشائي والأسلوب الخبري، ملونة في القسم والمقسم به / عليه، ليكون لخطابها هذا تأثيرا مضاعفا مستثمرة السياق الخارجي المرهون بمعطيات المعركة الخاسرة والهزيمة الطازجة والحرقة البكر لقريش في حربها على الدين الجديد، بل ومعبرة عن ذلك كله !!..

فقد بدأت (هِنْدُ) خطابها بالدعاء على نفسها إن هي بكت (حَلَقَى)، لا لتظهر تجلدها وإصرارها فحسب ، بل لتتقي ما يترتب على هذا الفعل من شماتة العدو من نساء ورجال على حدٍ سواء، فهي امرأة رغم كل ما تشعر به من غصة إلا أنها على مستوى من الوعي، بحيث تدرك موقعها وموقع العدو على خريطة الفعل ورد الفعل، وهي أيضا لا تريد أن تمنح العدو نصرا إضافيا بإظهار الضعف والتضعع عند هذه المصيبة، كما أنها امرأة تدرك مكانتها ومكانة عائلتها وقتلاها ، فإظهار التجلد ضرورة اجتماعية أيضا لا تغفل عنها، أضف إلى ذلك أن البكاء قد يشفي الغليل، ويبرد الهمة، ويأخذ من الحرائق التي تدفع إلى التعجيل بأخذ الثأر، وهي تريد توفير كل تلك الطاقة لمطالب مستحقة ولا بد أن تتحقق، وهي تدرك أيضا أن معركتها مع هذا العدو ستكون طويلة وعليها أن تتبنى استراتيجية طويلة النفس في التعامل معه..!!

ثم يأتي أسلوب الاستفهام بأداة محذوفة تفهم من السياق: أنا أبكيهم...؟؟؟ تعقبه بأسلوب نفي

^{٢٦٠} - انظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، بكرى شيخ أمين، ١/٦٦.

^{٢٦١} - المغازي للواقدي، بعد معركة بدر، ١/ ١٢٤. وفي اللسان مادة (حلق): ومما يُدعى به على المرأة: عَفْرَى دُعِيَ عَلَيْهَا أَنْ تَتِيمٍ مِنْ بَعْلِهَا فَتُحْلِقَ شَعْرَهَا، أَوْجَعُ اللَّهُ حَلْقَهَا، وَهِيَ مَشْوُومَةٌ مُؤَذِيَةٌ.

(لا)، ثم القسم بلفظ الجلالة (الله) على الأخذ بالثأر من محمد وأصحابه، ثم القسم بأسلوب التقديم والتأخير (وَالدَّهْنُ عَلَيَّ حَرَامٌ)، ثم تعيد القسم بلفظ الجلالة (الله) ، وتأتي بأسلوب التمني بعد ذلك (لو) ثم (إن) ، ثم استدراك ونفي للإثبات "وَلَكِنْ لَا يُذْهِبُهُ إِلَّا أَنْ أَرَى ثَأْرِي بِعَيْنِي مِنْ قَتْلَةِ الْأَحَبَّةِ ."، وتختتم في إطار خبرها الإنكاري هذا بما يذهب الحزن وقطعا ليس هو البكاء ، ولكن الثأر من محمد فقط على أن ترى ثأرها بعينها .! . إنه أيضا خطاب مفعم بالتحدي والتصدي في إطار هذه الحرب المفتوحة !!..
وقد تقع المرأة في إرباك وحيرة وتردد في أمر غريب حقا، إنها لا تستطيع التعرف على زوجها الذي قضى في الحرب شهورا حتى تغيرت ملامحه وتبدلت هيأته، إنها (كَبِشَّةُ بِنْتِ ضَمْرَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَمْرُو بْنِ عَوْفٍ)، زوج قيس بن الأسلت، قالت: " والله ما عرفتكم حتى تكلمت " ٢٦٢ .

وهنا تأتي في سياق التردد بالقسم بلفظ الجلالة (الله)، فهو لو لم يتكلم لم تعرفه لشدة إنكارها له ولعظم التغير الذي طرأ عليه، إن هذا السياق يلقي بظلال من الأسى والحزن والمرارة / فما هذه الحروب والغزوات المستمرة المتلاحقة التي تحفر أخاديد في الروح، وتجعل الزوج غريبا عن زوجته، وأي عبء ومسؤولية تتحملها المرأة في ظل هذا الغياب الفادح .. وهي تنزله منزلة المنكر لأنه قد لا يصدق ذلك، فالقسم وأسلوب النفي المبرر بـ(حتى) يبرزان هذا الموقف بوضوح.. !!؟؟

وبذا نصل إلى يقين بأن القصد من الخبر بألوانه الثلاثة إنما يساق بغرض إقناع المخاطب بقبول الخبر وتصديقه، أو إقناع المخاطب بموقف المتكلم من الخبر، أو إظهار موقف المرسل والمرسل إليه من الخبر، وما يترتب على ذلك في العالم الخارجي والعالم الذهني لهما، أضف إلى أن أدوات التوكيد في الأخبار الطلبية والإنكارية إنما تفيد ضربا من المبالغة في الإقناع بالخطاب.

٢٦٢ - الأغاني، للأصفهاني: ١٧ / ٨٨. إحسان عباس وآخرون، الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١ / ٣٣٥، يوم البقيع، نسبة لبقيع الغرقد وفيه أنها قالت له: لقد أنكرتك حتى تكلمت ..؟! ."

الخطابُ بِالْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ وَبِالْجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ الفرقُ بينَ الإخبارِ بِالْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ وَالْجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ:

لفت ابن الأثير إلى هذا الباب، وهو التناوب في استعمال الخطاب بالجملة الاسمية والجملة الفعلية لتحقيق غرض معين، غالباً ينحو إلى ضرب من التوكيد والمبالغة.^{٢٦٣}، وقد لوحظ في هذه الخطابات المختلفة التي أنتجها هذا السياق المخصوص (سياق الحرب) تناوب ورود الجمل الفعلية ونظيرتها الجمل الاسمية .. فما دلالة هذا الورد ...؟؟

الخطابُ بِالْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ:

يشير (الرازي) إلى أن الغرض من الإخبار هو الذي يُعزى إليه استعمال أحد الخطابين (الاسمي/ الفعلي)، فيقول: "إن كان الغرض من الإخبار الإثبات المطلق غير المشعر بزمان وجب أن يكون الإخبار بالاسم"^{٢٦٤}، وبذا يصل إلى أن: "الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها.."^{٢٦٥}، فلها هذا الشيوغ وهذا الامتداد وبالتالي هذا الثبات العام للمعنى .

ويحدد (ابن طباطبا) معنيين للخطاب بالجملة الاسمية:^{٢٦٦}

- إفادة أن الفعل قد وقع من الفاعل على وجه الاختصاص دون غيره.
 - وقوع التحقق وتمكين المعنى في نفس السامع بحيث لا يعتريه فيه شك ولا ريب.
- ومن الخطابات المشتملة على تركيب اسمي، خطاب (الْجَمَانَةُ بِنْتِ قَيْسِ)، في سياقها التحذيري من الحرب بين جدها وأبيها، مخاطبةً جدّها: "...وَالْمُعَارِضُ مُنْتَصِرٌ، وَالْبَادِي أَظْلَمٌ... فَأَلْحَزُمُ فِي مُتَارِكْتِهِ، وَالْحَرْبُ مَتَلَفَةٌ لِلْعِبَادِ، ذَهَابَةٌ بِالطَّارِفِ وَالْتِلَادِ، وَالسِّلْمُ أَرْخَى لِلْبَالِ، وَأَبْقَى لِأَنْفُسِ الرِّجَالِ..."^{٢٦٧}.

^{٢٦٣} - انظر: المثل السائر، لابن الأثير: ٢/ ٢٣٤.

^{٢٦٤} - نهاية الإيجاز، للرازي: ص: ٨٠.

^{٢٦٥} - نفسه، ص: ٧٩.

^{٢٦٦} - الطراز، للعلوي: ٢/ ١٥-١٦.

^{٢٦٧} - نثر الدر: ٤/ ٦٣-٦٤، بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام، الإمام أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (٢٠٤هـ-٢٨٠هـ)، تح/ بركات يوسف هبود: المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص: ١٥٣. قصة الدرغ يذكرها الميداني، ١/ ٣٦. في المثل: "إن البيع مُرتَخَصٌ وغَالٍ"، وكذلك:

يُلاحظ في هذه المقولة هذه التراكيب الاسمية اللافتة والمتنوعة الغنية بهذا الإيقاع الذي وفرته هذه التشكييلة المتوازنة من المشتقات، بين: اسم الفاعل (المُعَارِضُ مُنْتَصِرٌ، وَالْبَادِي، مُتَلَفَّةٌ، الطَّارِفُ)، وصيغ المبالغة (ذَهَابَةٌ)، واسم التفضيل (أَظْلَمُ، أَرْحَى، أَبْقَى)، وأيضا المصادر (الْحَزْمُ، التَّلَادِ، السِّلْمُ)، ثم صيغة المفاعلة (مُتَارِكْتِهِ)، وبالنظر للمعنى الذي تتسقطه نعرف سر هذا الاختيار، إنها تتجاوز الراهن والمعروف إلى المطلق الخالد في نواميس الحياة، وما أثبتته التجربة الحية والمتوارثة، إنها لا تنظر إلى هذا الموقف على عدّه شخصيا وفرديا، بل تعززه بكونه حالة ثابتة لكل من يقدم على هذا الفعل، ويعتدي على غيره، يترك الحق ويغرقه الطمع حتى يصل إلى طرق الحرب المسدودة والمتلفة، وهي أيضا تتحدث باتزان شديد، فتذكر النقيض والنقيض، فهي وإن ذكرت الحرب وأهوالها، فإنها لا تنسى ذكر حالة السلم وآثارها، كل ذلك ليتمكن التحذير حتى يصل إلى مستوى التهديد، وفي أحسن الحالات إلى العظة والتذكير على عدّ العلاقة الفريدة التي تربط المتكلم بالمخاطب، (الحفيدة/ الجد) و (البنت/ الأب) ثم الدائرة الأوسع التي تربط القبيلتين وما يمكن أن يترتب من عواقب لكل خيار من الطرفين في معالجة الموقف.. فإذاً كان هذا التركيب الاسمي هو وسيلتها اللغوية لتمكين المعنى في نفس المتلقي وأنه لن يخرج في عواقبه عن سبقه، ونلاحظ إذن أن التركيب الاسمي بهذه الشمولية و الامتداد حتى أصبحت مسلّمات لا شكّ فيها ولا ريب !!..

ومنه أيضا خطاب (تَمَاضُرُ بِنْتُ عَمْرُو بْنِ الشَّرِيدِ) لأخيها بعد إساءة زوجها له وقد كانوا أيضا على مشارف حرب، قالت: " إِنَّهُ لَيْرِيبُنِي أَكْبَنَانُكَ وَقَرُوبُكَ، فَلَا يَأْخُذَنَّ فِيكَ مَا قَالَ زُهَيْرٌ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ بَيْنَارَةٌ، غَيْدَارَةٌ شَنْوَعَةٌ " ٢٦٨

ومن التركيب الفعلي تنتقل (تَمَاضُرُ) لهذا التركيب الاسمي، لأنها تصف فيه الثابت لا المتحوّل في شخصية هذا الزوج المزعج، وهي أيضا لا تسرف و لا تتشعب، ولا تذهب بعيدا ولا تعمم في صفات هذا الزوج، بل تنتقي منها فقط ما أظهره في هذا المقام من ناحية، وما تطيّب به خاطر أخيها من

الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٦٢، في المثل: (البادي أظلم) ورد المثل في: المستقصى للزمخشري: ١/ ٣٠٤، أي من بدأ بالظلم فهو أظلم من المجازي به لأنه سبب تهيجه.

وللجمانة موقف مع عنتره حين أغارت عليهم هوازن وجشم، وكان على هوازن دريد بن الصمة، فأرسل قيس بن زهير يستنجد عنتره فأبى وامتنع، وقد كان خرج من قومه غضبان فنزل على بني عامر وأقام فيهم زمانا، ولما عظم الأمر على بني عبس خرجت إليه جماعة من نساء القبيلة من جملتهن الجمانة ابنة قيس، فلما قدمن عليه طلبن منه أن ينهض معهن لمقاومة العدو وإلا انقلعت العشيرة وتشتت شملها، فاحتسب ونهض من وقته طالبا ديار قومه. شعراء النصرانية قبل الإسلام ص: ٨٢٢.

٢٦٨ - الأغاني، للأصفهاني: ١١/ ٥٨، إحسان عباس وآخرون. تمثال الأمثال، للعبدي: ٢/ ٣٣٤.

ناحية أخرى، ولتكون حجتها في إقناعه منطقية.. فكأنما تقول معذرة: هذا هو ولا حيلة لي إذ لا سبيل لتغييره.. ولم يكن يفِي بهذا المعنى سوى هذا الاختيار لهذا التركيب الاسمي المخصوص، ويزيد من خصوصيته هذه اللغة الغريبة المحكمة المسجوعة المنعّمة!!..

وإن كانت هذه صورة لعلاقة زوج بزوجه أظهرها سياق الحرب والخصومة، هنا موقف آخر وخيارات أخرى تتخذها (سَلْمَى) زوجة عروة بن الورد وأسيرته بعد سنوات من أسرها، وقد احتالت لتفارقه رغم حبها له، لكنها تحترمه وتعطيه الفرصة ليفهم هذا الخيار في خطاب لافت أيضاً، تخيرت فيه تركيباً اسمياً يفِي بغرض قراءتها الدقيقة لشخصية هذا الأسر الذي أصبح زوجاً وأباً لأبنائها، حيث أقبِلت عليه، فقالت: " يا عُرْوَةُ ، أَمَا إِنِّي أَقُولُ فِيكَ - وَإِنْ فَارَقْتُكَ - الْحَقُّ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْعَرَبِ أَلَقَّتْ سِتْرَهَا إِلَى بَعْلِ خَيْرٍ مِنْكَ، وَأَعْضَّ طَرْفًا، وَأَقَلَّ فُحْشًا، وَأَجُودَ يَدًا، وَأَحْمَى لِحَقِيقَةٍ... " ٢٦٩، حيث استعملت صيغة اسمية (اسم التفضيل) في هذا الخطاب الوداعي المؤثر، الذي آثرت فيه أن تفارق الزوج الذي تحب، والأبناء الذين هم فلذات كبدها، لتبتاع كرامتها، وترفع من السبي هامتها.. ويلحظ استعمالها للمركب الاسمي لإثبات الصفات المعنوية التي يتسم بها زوجها، وأنها أصيلة لا تتغير و لا تنتزع من تكوينه الفكري والنفسي..!!

خطاب (هِنْدِ بِنْتِ النُّعْمَانَ) للمغيرة حين خطبها وقد كانت عجوزًا لا أَرَبَ لها بالرجال ولا أَرَبَ للرجال بها قالت: " وَالصَّلِيبُ مَافِي رَغْبَةً لِحَمَالٍ، وَلَا لِكثْرَةِ مَالٍ، وَأَيُّ رَغْبَةٍ لِشَيْخٍ أَعْوَرَ فِي عَجُوزٍ عَمِيَاءَ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَفْخَرَ بِنِكَاحِي فَتَقُولَ: تَزَوَّجْتُ بِنْتَ النُّعْمَانَ بْنِ الْمُنْدَرِ " ٢٧٠

وأيضاً هذه الإشارة للصفات المادية والمعنوية التي تطلب في أي امرأة (الجمال والمال) استدعت منها أن تستعمل هذا التركيب الاسمي للتعبير لا عن ثبات هذه الصفات في امرأة أو أي بشر، بل لثبات طلبها، والنفور عن سواها من قبل المقبلين على الزواج، فضلاً عن اجتماع زوجين يكمل أحدهما قبح الآخر، بل وقد يزيده قبحاً مادياً أو معنوياً!!..

٢٦٩- الأغاني، للأصفهاني: ٣/ ٥٣، تح/إحسان عباس وآخرين. انظر: مجالس ثعلب: ٢/ ٤٥١، نثر الدر، للآبي: ٤/ ٨٩. الروض الأنف، للسهيلى: ٣/ ٣٩٧- ٣٩٨- في خُرُوجِ بِنْتِ النَّضِيرِ إِلَى خَيْبَرَ. شعراء النصرانية قبل الإسلام. ص: ٨٩١- ٨٩٢. أسرها ثم أعتقها وتزوجها وأنجب منها بنين، لكنها لم ترض لنفسها اسم السباء فاحتالت عليه لتلتقي بأهلها.

٢٧٠- خزانة الأدب، للبيدادي: ٧/ ٧٠. الأغاني، للأصفهاني: ٢/ ٨٣. إحسان عباس وآخرون. المغيرة بن شعبه والي الكوفة من قبل معاوية بن أبي سفيان.

فالمرأة حين تتحدث عن قيم الثأر والشجاعة ونجدة السبايا والمروءة سنجدتها تعمد إلى الخطابات الاسمية، أو إلى الخطاب بالجملة الفعلية ذات الفعل الماضي لترسيخ قيم الثبوت والتحقق في المستقبل، أو المضارع فيكون ذلك على جدهم وتجدد أخذهم لثأرهم فلا يركنون ولا يستسلمون ولا يبيتون على ضيم...!!

الخطابُ بالجملة الفعلية:

إنَّ الزمن الذي نعتمده هنا هو الزمن النحوي الذي له وظيفة في السياق^{٢٧١}، و ينبه صاحب نهاية الإيجاز إلى الغرض من استعمال التركيب الفعلي: " وأما إذا كان الغرض من الإخبار به الإشعار بزمان ذلك الحدث فالصالح به هو الفعل " ^{٢٧٢} وفي موضع آخر: " .. وأما الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها " ^{٢٧٣}

وكذا يؤكد يحيى بن حمزة العلوي في الطراز أن الخطاب بالجملة الفعلية يفيد الإخبار المطلق مع التحديد بزمن معين (مضارع، ماض، أمر) دون إفادة تأكيد أو مبالغة، وأما عن غرض الإتيان بجمل اسمية بعد جمل فعلية فهو لزيادة التوكيد والمبالغة. ^{٢٧٤}

وبحسب الأزمنة للفعل ننتقي بعض الخطابات التي استعملت فيها النسوة الجمل الفعلية في سياق خطابها الحربي والسياقات الخاصة المصاحبة:

١- الفعل الماضي:

إن اختيار المرأة الجاهلية للتركيب الفعلي في إطار الزمن الماضي يحمل دلالات عدة بحسب السياق الحربي العام والخاص بالموقف المحدد، وغالبا كان إتيانه للدلالة على الفوت والتفريط أو على الذم والتقريع للتخاذل عن النصر والأخذ بالثأر، أو لتأكيد وقوع الفعل مستقبلا لإفادة التهديد والوعيد

^{٢٧١} - انظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص: ٢٤٠.

^{٢٧٢} - نهاية الإيجاز، للرازي: ص: ٨٠.

^{٢٧٣} - نفسه، ص: ٧٩.

^{٢٧٤} - انظر: الطراز، للعلوي: ١٨ / ٢.

والترهيب أو للتخطيط والمكر في الحرب، سواء كان ذلك بصيغة الماضي المعروفة أو المضارع المنفي الذي ينقلب معناه إلى الماضي في الجمل الخبرية المنفية.

فهذه أُمَامَةٌ زوج الجموح الظفريّ وقد قالت تلوم زوجها على تخليّبه عن صحبه وقد قُتِلوا وعلى تفويته وتفريطه استعمال تلك الأَسْهُمِ السُّودِ التي كان قد حلف ألا يعود بها: " هَلَّا رَمَيْتَ تِلْكَ النَّبْلَ الَّتِي كُنْتَ آلَيْتَ لِتَرْمِيَنَّ بِهَا " ٢٧٥ .

إن تحقق فعل التخاذل ، والمواجهة المرّة لادعاءات الزوج الكاذبة بالنصرة لصحبه أعقت مرارة في قلب هذه الزوجة، فهي لا تكتفي بعودته سالما وقد قُتِل صحبه ، بل تريده الرجل الذي تفخر به وبخياراته ، تريده الرجل الذي يفى بوعوده ، الرجل ذا النجدة والشجاعة الذي لا يعود سالما دون صحبه القتلى، ولذا فهي تذكره بما كان منه في الزمن الماضي باستعمال الفعل الماضي الدال على تحقق تلك الأحداث في زمن سابق، وهي تسوق ذلك في إطار تحريضيّ غريب – رغم انقضاء الحدث وانتهائه – فتستعمل أداة التحضيض (هَلَّا) وتعقبها بثلاثة أفعال ماضية (رَمَيْتَ / كُنْتَ / آلَيْتَ) لتختمها بفعل مضارع مؤكّد بنون التوكيد الثقيلة، وهنا انهيار نفسي كان متسببا عن انهيار صورة (الزوج / الفارس) النموذج ،حدا بها إلى استعمال تقنية (الفلاش باك) –إن جاز التعبير– حيث تنطلق من الماضي القريب إلى الماضي الأبعد ، في ذروة درامية كما في القصة القصير (موقف / وسط/ نهاية)، تبدأ من تخاذله في المعركة (رَمَيْتَ) ، إلى حاله قبل المعركة (كُنْتَ) ، منتهية بالذروة التي كان قد انتهى إليها ثم هوى منها (آلَيْتَ) أي اقسمت، وهكذا فإن الفعل الماضي هنا لم يكن للدلالة على وقوع حدث ما في زمن انتهى وانقضى، لكنه استعراض درامي لحياة كاملة بدءًا وانتهاءً، بكل ما تحمله من زخاتٍ انفعالية ومواقف فكرية وخلفية اجتماعية بكل ما تحمل من صنوف العلاقات المتنوعة والثرة في إطار أخلاقيّ جمعيّ مثله موقف هذه الزوجة !!..

وفي سياق مشابه، في التحريض والذم والتقريع للتخاذل عن النصره والأخذ بالثأر توجه زوج الشنفرى - بنت السلاماني - خطابها لزوجها للأخذ بثأر أبيها من قاتليه.. لأنه لما بلغه ذلك سكت ولم يظهر جزعا، فقالت ذات يوم: " لَقَدْ خِستَ^{٢٧٦} بميثاق أبي عليك".^{٢٧٧}

فزوجة الشنفرى، تؤكد بجملة فعلية فعلها ماض (خِستَ)، لتدل على ثبوت تقاعسه وتخاذله وتركه الأخذ بثأر والدها، وقد أوفى الفعل الماضي لهذه الحال كيفيتها، حيث أشارت بوضوح إلى تأخر الأخذ بالثأر حتى عاد من الماضي بل وانسحب على زمن التكلم أيضا، مما يجعل خطابها ينطوي على كثير من اللوم والتقريع والتحريض أيضا !!.

أما (أُمُّ أَنَسِ بْنِ عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمِ الشَّيْبَانِيِّ)، فقد قالت لآسرها: " إِنِّي لَأَرَى ذَاتَ وَدَكِّ، وَسُوءِ دَرَكِّ، كَأَنِّي قَدْ نَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ أَسْوَدَ أَدْلَمَ، كَأَنَّ مَشَافِرَهُ مَشَافِرِ بَعِيرٍ أَكَلَ مُرَارَ قَدْ أَخَذَ بِرَقَبَتِكَ " ^{٢٧٨}

هذه امرأة سبية، وهي امرأة واثقة من نفسها ومن مكانتها بين قومها الذين لن يصبروا عن اللحاق بها والانتقام من آسرها، ولتأكيد ذلك تتخير التركيب الفعلي الماضي (نَظَرْتُ/ أَخَذَ) لترهبه ولتنزل في قلبه ما هو غافل عنه من تحقق اللحق ووقوع النعمة لامحالة، وحيث يتمظهر هذا الترهيب في صور مرعبة متوالية، تصور بها المركبة والراكب، ثم النهاية الحتمية، وهي صورته مخنوقا حيث لا منجا ولا مهرب كَمَنْ عَزِي فِي عَقْرِ دَارِهِ.

وهذا خطاب (رُيْبِيَّة) أخت (الزَّبَاء) تحذرها وتنصحها بالتروى في أمر محاربة جذيمة: " إِنَّكَ إِذَا عَزَوْتَ جَذِيمَةَ فَإِنَّمَا هُوَ يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ؛ إِنْ ظَفَرْتَ أَصَبْتَ تَارِكًا، وَإِنْ قُتِلْتَ دَهَبَ مُلْكُكَ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، وَعَثْرَاتُهَا لَا تُسْتَقَالُ، وَلَمْ يَزَلْ كَعْبُكَ سَامِيًا عَلَى مَنْ نَاوَاكَ... " ^{٢٧٩}

^{٢٧٦} - وخاس عهده ويعهده: نقضه وخانه. وخاس فلان ما كان عليه أي غدر به. لسان العرب لابن منظور. " خيس".

^{٢٧٧} - ديوان الشنفرى " عمرو بن مالك (ت ٧٠هـ)، جمعه وحققه وشرحه د. إميل بديع يعقوب: دار الكتاب العربي. بيروت. ط ٢. ١٩٩٦م/ ١٤١٧هـ. ص: ٤١، وكان السلاماني قد زوجه ابنته على خوف من قومه بني سلامان، فشرط الشنفرى على نفسه إجارته من بني سلامان، وإن قتلوه ليقتلن منهم مئة رجل، فلما قُتل السلاماني، لم يجزع الشنفرى وعكف على صناعة النبل والقسي، فذكرته ابنة السلاماني عهده وميثاقه لأبيها بقولها: (لقد...).

^{٢٧٨} - الأغاني، للأصفهاني: ٣٨٢/١٦. إحسان عباس، السيرة النبوية لابن هشام: ٥٨٧/٢. وكذلك ذكر في الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٣٩٥/١، في قصة يوم اليردان، خزائن الأدب، للبغدادي: ٢٨٤/١٠.

^{٢٧٩} - نواذر المخطوطات "أسماء المغتالين من الأشراف، وأسماء من قتل من الشعراء، وأسماء من غلبت كنيته على اسمه، وكنى الشعراء وألقابهم." لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي: ١٣٠-١٣١. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٦١٨/١. (الحرب سجال) مثل في المستقصى للزمخشري: ٣١١/١، نسب في إحدى نسخه إلى أبي سفيان. الأغاني، للأصفهاني: ٢١٤/١٥، إحسان

وعلى عدّ ما سيكون مستقبلا نراها تتخير التركيب الفعلي الماضي مع أداة شرط تفيد الظرفية الزمانية المستقبلية حيناً، وحرف الشرط (إنْ)، والمضارع المسبوق بـ(لم) الجازمة التي تقلب زمن الفعل المضارع إلى المضي حتى زمن التكلم حيناً آخر، إنَّ بسَطَها لمساحة الحدث على رقعة الفعل الماضي له دلالة واضحة هنا فهي تتكلم عن مسلمات ترتبط فيها النتائج بالمقدمات، ولهذا كان لهذا التركيب وقعه، ولأنها أيضاً تتكلم بصيغة تحذيرية كان لاستعمال الفعل الماضي ضرورته، حيث يفرض المنطق أن يسبق التحذير وقوع المحذور وإلا كان فعلاً عبثياً لا طائل منه إلا أن يسبق الحدث .

وهنا سياق آخر تظهر فيه امرأةٌ محبّةٌ يأتيها خبر مقتل حبيبها كأشجع ما يكون الإخبار، قَتَلَ حَبِيبِ يَزْفَهُ الْقَاتِلُونَ الشَّامَتُونَ، تستقبل الخبر مع ثياب القتيل المضرجة بالدماء فتصيح (عطر وريح عمرو)، يا لهذه الذاكرة الشميّة لريح الحبيب ورائحته..!! ، وحينما استفاقت من الصدمة، وردا على شماتة القاتلين المنتشين بتجمعهم على رجل واحد لقتله، فلا بأس من أن تذكرهم بصولاته وجولاته المتعددة والمستمرة حتى أنهكهم..إنها (أم جُلَيْحَة)، توجّه خطابها للقتلة: " .. وَاللَّهِ لَإِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَمَّا وَجَدْتُمْ عَائَتَهُ وَافِيَةً، وَلَا حُجْرَتَهُ جَافِيَةً، وَلَرْبٌ ضَبٌّ قَدْ احْتَرَشَهُ، وَثَدِي قَدْ افْتَرَشَهُ، وَمَالٌ قَدْ افْتَرَشَهُ " ٢٨٠

فتستعمل جملاً فعلية (ماضية) للدلالة على أفعالهم، التي وقعت ولا محالة وانقضت أمرها (قتلتموه/ وجدتم)، فهي كمن يشكك في وقوع فعل القتل لفداحة الخطب، أما الفعل الثاني المرتبط بالفعل الأول في علاقة شرطية فهو الفعل (لما وجدتم) الذي تنفي به كمرحلة أولى كلّ مقبوت أو كَرِيهِ مَادِيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ بِالْقَتِيلِ، وتستعمل لأوصافه صيغاً اسمية، تتصل مرة أخرى بصفات جسدية ذات بعد معنوي تدل مرة على نظافته (عائته وافية)، أو على سمات معنوية كعفته ونزاهته (ولا حجزته جافية)، ثم تأتي متوالية أخرى من الأفعال الماضية تشكل تنامياً درامياً يصل إلى ذروة الكمال في هذا الحبيب المغدور " ولَرْبٌ

عباس وآخرون. وانظر طرفاً من القصة في: البدء والتاريخ، طاهر بن مطهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية: بورسعيد، د. ط، د. ت، ١٩٦٣/٣ وما بعدها. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، الخطيب العمري: ص: ٤٠٩ .

٢٨٠ - جمهرة الأمثال، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (٣٩٥هـ)، تح/أحمد عبدالسلام، أبو هاجر محمد بن سعيد بن بسيوني زغول: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤٠٨، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ٥٤/ .زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ / ١٦٠١م)، تح/ صلاح الدين الهواري: المكتبة العصرية، بيروت، ط ١٤٢١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ٢٤١/٣ - ٢٤٢. خزانة الأدب، للبغدادي: ١٠ / ٣٨٥. بلاغات النساء لابن طيفور، وقد نسبه لجنوب أخت عمرو بن الكلب ص: ٢١٩، ونسبه لامرأة مجهولة في وصف رجل ص: ١٢٢. وفي جمهرة الأمثال قال العسكري: وأصله فيما روى العلماء أن عمراً ذا الكلب كان عشيقاً لأم جليحة، امرأة من قيس، فنذر به قومها، فهرب ودخل غارا فأتوه فقتل أربعة منهم ثم قتلوه، وأتوا بثيابه لأم جليحة ، فوَقَعَتْ عَلَيْهَا تَصْرُخُ وَتَقُولُ: (عطر وريح عمرو) ويضرب مثلاً في اجتماع نوعين من المحبوب في حال لا ينتفع معها بهما .

ضَبَّ قَدَاخْتَرَشَهُ، وَنَدَّى قَدَ افْتَرَشَهُ، وَمَالٍ قَدَ افْتَرَشَهُ "، إنها الفسيفساء الثلاثية التي تشكل منجزات البطل وصورته في عين الحبيبة وذاكرة العقل الجمعي أيضا: المهارة في الصيد، والصيد بهذه الطريقة هو من سمات السادة، والصفة الثانية: هي الفروسية والبطولة والتفوق على الأقران حتى يعتليهم فيذبجهم، والصفة الثالثة: هي قدرته على تجميع المال أي الغنى والثروة، وهكذا فهو يملك كل ما من شأنه أن يسرَّ الصديق ويغيظ العدا..، إنَّ تمدد هذا الفعل الماضي على رقعة الزمن الجميل المليء ببطولات القتل وجميل أفعاله التي ترفع من شأنه وتحط من شأن أعدائه هو في الوقت نفسه إعلان عن الأسباب الحقيقية المشرفة التي دعت أعداءه لترصده وقتله للتخلص منه وللثأر من أفعاله التي طالما أدلتهم وأوجعتهم. إنَّ هذا الاتكاء اللحظي والفوري على الفعل الماضي حيث تنداح حياة هذا القتل عبر شريط من ثلاثة أفعال هي آية التفجع على فقده، وآية الحسرة على فراقه. إنه تنامٍ تَرَّ على مساحة الذاكرة والذي يزيد من بشاعة الواقع والحياة بأسرها لفقده، فكل المعاني الجميلة والمنتشرة كشذاه في الروح تشعرها بوجع الحاضر واختناقها لرحيله المفجع المتزامن بشماتة الأعداء وفرحتهم المقيتة.. إنه اختباء في فسيفساء هذه الشخصية بكل معطياتها..!!

٢- الفعل المضارعُ :

إنَّ الفعل المضارع يدعُم الحضورَ والفاعليَّةَ والحركةَ والقدرةَ على الفعلِ من قِبَل الذاتِ المتكلمةِ أو المخاطبةِ، سواء أكانت ذاتا جمعية أم مفردة، وهو يظهر حركة الأحداث وتطورها وفاعليتها الدرامية أيضا، وفي سياق الحرب تظهر هذه الدلالات في سياقها التحريضي المخطط للحرب، أو تتماهى مع البعد الاجتماعي من آثار الحرب وانعكاساتها على العلاقات الاجتماعية والإنسانية، ولذا فهي تتكشف عن تنامٍ إلى ذروة ديناميَّة متفجرة.

إنَّ (رُيْبِيَّةَ) التي تحذر أختها من عواقب الحرب، والتي تخيرت لذلك صيغا اسمية تضيف العموم والشيوخ على رؤاها المستخلصة من التجربة الإنسانية العامة، لتكون جزءا من هذا الإطار المعرفي العام واستمرارا له، نجدها في هذا السياق تحيد إلى استعمال التركيب الفعلي المضارع في خطابها المباشر والمخصوص بوضع أختها وما يمكن أن توحيه هذه الصيغ المضارعة من التجدد والتغير في التكوين المعرفي الذي يؤثر على اتخاذ قرارات الحرب الفورية أو البعيدة ، ولأنها الحرب فإن العاقبة مفتوحة على كافة احتمالات النصر أو الهزيمة، فتفصيلا صغيرة قد تقلب الموازين في لحظة، ولذا

فهي تنفي الدراية والمعرفة باستعمال هذه الصيغة، وعلى الزبىء أن تفكر في استراتيجية مراوغة في حربها تعتمد على الحيلة والخديعة والمكر، وعليها أن تستمر في ذلك حتى الوصول إلى مآربها ، ولذا تأتي هذه المنظومة المتوالية من ثلاثة أفعال مضارعة تدل بشكل كبير على حرج الموقف ، وعلى حماسة (زُبَيْبَة) أيضا وعلى الحاجة إلى التدافع والحركة لتغيير الراهن الساكن ولتدلل على قدرة الذات المخاطبة على الفعل ، ونلاحظ في هذه الأفعال الثلاثة تناميا فكريا يصل بنا إلى تنام درامي حيث (الحيلة ثم الخديعة ثم النتيجة وهي المكر) في جملة خبرية منفية: "... وَلَا تَدْرِيْنَ لِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ، وَعَلَى مَنْ تَكُونُ الدَّائِرَةُ! وَالرَّأْيُ أَنْ تَحْتَالِي لَهُ وَتَخْدَعِيهِ وَتَمْكُرِي بِهِ " ٢٨١ .

وما يلفت النظر في هذا النص أيضا هذا الخطاب الحذر المتوجس من تحمل التبعات، فزُبَيْبَة رغم هذه المقترحات هي الغائب الحاضر في النص، الذي تحضر فيه المخاطبة بشكلٍ سافرٍ واضحٍ من خلال (تاء الخطاب /ياء المخاطبة) وهي صيغة حضور طاغية، هل لأنها الملكة، أو لأنها المعنية الأولى بأمر الحرب والسلام، والأكد أن زُبَيْبَة لا تحاول نسبة الرأي لنفسها بل تجعله رأيا مطلقا (.. وَالرَّأْيُ ..)، وكأنها تحيد صوتها لصالح الصوت المجرى ، صوت المطلق وغير المتناهي لصوت التجربة الإنسانية، وتبدو الحيوية والحركية التي تبثها هذه الأفعال لمضارعة على رقعة الحدث!..

أما (تَمَاضُرُ بِنْتُ عَمْرُو بْنِ الشَّرِيدِ) وزوج زهير بن جذيمة، وقد مرّ بهم أخوها الحارث بن عمرو، وبينهم خلاف وتلويح بحرب، فأغلظ زهير على عمرو وأمر أبناءه بتوثيقه، فقالت لهم أمهم (تَمَاضُرُ): "أيزوركم خالكم فتحرموه وتوثقوه...!!؟؟" ٢٨٢

فهذا خطاب انطوى على متوالية أفعال مضارعة تشي بانفعال شديد تكاد أنفاسه تخترق حاجز الحال إلى الاستقبال، حيث الخوف من استمرار العقوق وقطيعة الرحم والقسوة غير المبررة، وبرجاء تجدد حال وتغيرها إلى حال أخرى تنشدها من أبنائها نلحظ بلاشك هذا المدد والاندفاع الانفعالي تجاه هذا الواقع المرفوض شكلا ومضمونا في هذا الخطاب، إنه يعطي انطباع الثورة والانقلاب المتجددين،

٢٨١- نوارى المخطوطات "أسماء المعتالين من الأشراف، وأسماء من قتل من الشعراء، وأسماء من غلبت كنيته على اسمه، وكنى الشعراء وألقابهم." لأبى جعفر محمد بن حبيب البغدادي: ١٣٠/٢-١٣١. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ١/ ٦١٨. (الحرب سجال) مثل في المستقصى للزمخشري، ١/ ٣١١، نسب في إحدى نسخه إلى أبى سفيان. الأغاني، للأصفهاني: ١٥ / ٢١٤. إحسان عباس وآخرون، وانظر أيضا: البدء والتاريخ. طاهر بن مطهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية: بورسعيد، د.ط. د.ت: ٣/ ١٩٦ وما بعدها. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، الخطيب الغمري: ص: ٤٠٩.

٢٨٢- الأغاني، للأصفهاني: ١١ / ٥٨. إحسان عباس وآخرون، تمثال الأمثال، للعبدي: ٢ / ٣٣٤.

حيث تفيد هذه الأفعال استنكارا واضحا من الأم لما يفعله بنوها بخالهم، فأين كرم الضيافة.. (يزوركم)، وأين ذهبت الرحم (خالكم)؟؟.. وأين ذهبت المروعة التي هي حق لكل زائر حيث استبدلوها بإيثاقه وحرمانه من أبسط مقومات الحياة والكرامة، وهو أصعب ما يكون حين صدوره من

أعز الناس وأقربهم ومن تظنهم سندا وعزوة!!..

وكذا فعلت (تَمَاضِر) حين وجهت خطابها لأخيها، ففيما يتعلق بموقفها هي ، فقد استعملت لذلك الفعل المضارع المؤكد (لِيُرِيْبِي) الذي يظهر شفقتها ورقتها المتجددتين على أخيها، أما الفعل المضارع المجزوم بـ (لا الناهية :فَلَا يَأْخُذَنَّ) ففيه الحزم والقطع منها فيما تأمر وتنهاى به أخاها حيث تظهر الدعم والمساندة والقوة اللازمة للنصرة ،فهنا تمتد مساحة الفعل لتستوعب رقعة الراهن والمستقبل، وهذا يتناسب مع موقفها من الحدث نفسه من جهة ، ورجائها لتغيير الموقف العام من جهة أخرى ، أما وقد نظرت في روح أخيها المنكسرة والمتألّمة وكأن هذا الجرح لن يندمل و نزفه لن ينقطع فقد استعملت صيغا اسمية تتناسب وشعورها بالأخ من جهة وشعوره بنفسه من جهة أخرى (اَكْبِنَانُكَ وَقَرُوبُكَ) !!..

هذا سياق حربي آخر من قلب الحدث إن جاز التعبير، فهذه امرأة لا يأخذها غرور اللحظة الراهنة، أو زيف الانتصارات الواهنة عن النظر في العواقب وإعطاء الخصم حقه، إنها امرأة أبي عثمان الكنانية وهي أعلم بقومها قالت له: " وَرَبِّ الْمِشْعَرَيْنِ ! لا تَدْعُكَ كِنَانَةٌ حَتَّى تَغْيِرَ عَلَيْكَ " ٢٨٣ ، هي تريد أن تعلمه أن بني كنانة لا يغمز جانبهم ، وأنّ هذا التطاول عليهم سيأتي بالمزيد من المتاعب والغارات،وعليه ألا يركن إلى الدّعة واللّذة القصيرة،وفي جملة خبرية منفية تفتتحها بفعل مضارع (لا تَدْعُكَ)،ثم (حَتَّى تَغْيِرَ عَلَيْكَ)،مدعومة بالقسم الذي يسبقها(وَرَبِّ الْمِشْعَرَيْنِ)،إنها القدرة على الفعل المطلق والعناد والإصرار في طلب الثأر، والمعادل الثاني هو الوصول إلى الغاية والتي أفادتها بالتأكيد الأداة(حَتَّى)،إنّ هذه الغارة ليست مرة تعود بعدها كنانة أدرجها،بل هي متجددة،مستمرة،حتى تنال أربها من أبي عثمان نفسه ولهذه الغاية جاءت بفعلين مضارعين مرتبطين من حيث المقدمة والنتيجة، فذات القبيلة المُعتدى عليها لم تهن ولم توهن ولم تتلاش قدرتها على الفعل..!!

٢٨٣- المُنْمَقُ فِي أَخْبَارِ فُرَيْشٍ، محمد بن حبيب البغدادي: ص: ١٣٩- . في وقعة محارب بن فهر وبني ضمرة، في اختلافهم على ورود الإبل، فذهب أبو عثمان في طلب بني كنانة، فقالت له امرأته ذلك.

هنا سياق نوعي آخر تتجلى فيه بصيرة امرأة من بني البكاء، حيث يُلاحظُ أنَّ حدسها (حديث نفسها) هو المحرك للأحداث، ولأن هذا الحديث يلحُّ ولا يتوقف، تسوق فعلا مضارعا يواكب هذه الحال، تقول: "إِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي إِنَّ خَيْلًا تُغَيِّرُ عَلَيَّ الْحَيَّ، فَكَيْفَ أَنْتَ إِنْ زَوَّجْتِكَ نَفْسِي..!!؟" ^{٢٨٤}

لقد أودعت هذه (المرأة) ذين الفعلين المضارعين (تُحَدِّثُنِي/ تُغَيِّرُ) شحنة من القلق والاضطراب النفسي اللذين تستشعرهما، ولكن ذلك لم يخرجها عن حزمها وعزمها، ولا تظن في نفسها إلا نفاذ البصيرة، وعلى هذا الأساس ترسم استراتيجية المعركة وقد أخذت بعين الاهتمام مكان المعركة وزمانها، واصطنعت الحيلة مع العدو والصدق مع نفسها وقومها، وأول قرار كان البحث عن زوج بمواصفات خاصة تناسب الوضع الراهن، وثانيها الحيلة حين يهجم العدو مستفيدة من خبرتها بأرضها من جهة، ودرابيتها بما تطمع به عدوها من جهة أخرى، وحين المواجهة صاحت:

"وَأَتَكَلَّمُ...!! وَاللَّهِ مَا أَبْكِي عَلَى مَالٍ وَلَا تِلَادٍ، وَلَكِنِّ عَلَى أُخْتٍ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْفَوْزِ، تَبْقَى بَعْدِي فِي مِثْلِ هَذَا الْغَائِطِ، فَتَهْلِكُ ضَيْعَةً" ^{٢٨٥}.

لنا أن نلاحظ هذا النفس الادعائي التمثيلي الذي تقمصته بكل إتقان، ساقته لذلك ثلاثة أفعال مضارعة أخذتنا بها إلى ساحة المعركة من حيث الانفعال والخوف المدعى من الهلاك وإظهار الضعف، (أبكي/ تبقي/ فتهلك)، فنراها قد قدمت النتيجة (أبكي)، وأتبعتها بالمقدمات (تبقي/ تهلك)، فأثارت الحركية والفاعلية، ونقلت إلينا شعور الخوف والاضطراب والقلق، هذه المشاعرة المستمرة والمصاحبة للحدث.

وهذه (امرأة من بني تميم)، يُقالُ أنَّ أصلها من جرهم: قد كان الرجلان: سعد مناة وجندب بن العنبر، يتسامران ويتفاخران بالشجاعة، فاتهم جندب سعدًا بالجبن فاغتاظ منه وردَّ عليه، وكان سعد بن زيد مناة عائفًا فتنبأ لجندب بأنَّ ظعينة ستأسره ولن يعينه سوى سعد، وقد كان، فلما أدركه وحرره، استنكف أن يقتل امرأة وأخبرها بذلك فأجابته: "كَلَّا، لَمْ يَكُنْ لِيَكْذِبْ طَيْرُكَ، وَيَصْدُقَ غَيْرُكَ." قال: " صدقت" ^{٢٨٦}.

^{٢٨٤} - الأغاني ، للأصفهاني: ٥١/١٦. إحسان عباس وآخرون.

^{٢٨٥} - المصدر نفسه.

^{٢٨٦} - مجمع الأمثال للميداني: ٣٤٨/١، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، للنويري: ٣/ ٣١٧. النوك: الحمق. ذُكرت القصة في المستقصى، للزمخشري: ١/ ٣٩٢. في قصة المثل: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما).

إنها تعلق على مقولة سعد، - وقد منَّ عليها بتعففه عن قتلها لأنها امرأة-، وذلك بجملة خبرية منفية، لكنها تذكره بقوله ذاك، وتحققه على أرض الواقع ولذلك تسوق خبرها المصحوب بلام الجحود بثلاثة أفعال مضارعة (لم يَكُنْ/ ليَكْذِبْ/ وَيَصْدُقْ)، تأكيداً على صدق عيافته، ووقوع تطيره وأن ذلك ليس مئة منه عليها، بل لأنها هي من فرضت إيقاع احترامها وانتزعت تفوقها، وأنَّ ذلك مقدر أيضاً، ولكنها تلمح إلى ذلك ولا تصرح به، ولذا تقول له لا تكذب نفسك - أي عيافتك - وتجعل غيرك يصدق - وتعني جندياً.

وهذه (الحمراء)، في خطاب مواجهة مع عمرو بن هند، الذي قال لها: إني لأحسبك أعجمية! فقالت: ^{٢٨٧} "لَا، أَمَا وَالَّذِي أَسْأَلُهُ أَنْ يُخَفِّضَ جَنَاحَكَ، وَيَهْدِيَ عِمَادَكَ، وَيَضَعِ سَادَكَ، وَيَسْلُبَكَ بِلَادَكَ، مَا أَنَا بِأَعْجَمِيَّةٍ .".

إنها متوالية أفعال مضارعة أفرغت فيها (الحمراء)، كل الغيظ والقهر والكبرياء والأنفة التي كانت بين جنبيها، وهي مواجهة هذا الرجل المتوحش الذي أغار وقتل الرجال وأحرقهم حتى الأطفال، وهي أفعال مضارعة بهدف الدعاء على المخاطب، كل منها وُضع في مقتل، حيث كل جملة دعائية توجه إلى ركن من أركان حكم هذا الطاغية، إنَّ تموضع هذه الأفعال المضارعة له دلالة كبرى على استمرار الدعاء عليه ما بقي، هذا التجدد حتى يفنى وينتهي جبروته وسلطانه...!!

وعن زوجها تقول وقد سألتها عنه عمرو بن هند: "...، لَا يَنَامُ لَيْلَةً يَخَافُ، وَلَا يَشْبَعُ لَيْلَةً يُضَافُ، يَأْكُلُ مَا وَجَدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا فَقَدَ." ^{٢٨٨}.

وهنا تصف (الحمراء) زوجها بصفات معنوية أيضاً، تعطيه بها هذه النكهة الخاصة بالنسبة لها، وإن كانت لا تخرج عن إطار الصورة النمطية لشخصية الرجل المتكاملة في الجاهلية...، متكئة في رسم هذه الصورة على مجموعة من الأفعال المضارعة التي تنم عن تنام مستمر في الفعل، واستمرار أيضاً

^{٢٨٧} - مجمع الأمثال للميداني: ١/٢٧٧-٤٢٨. وفيه قصة المثل "صارت الفتیان حُما". المُنَمَّقُ فِي أَخْبَارِ فَرِيْشٍ، محمد بن حبيب البغدادي: ص: ٢٩٠. الأغاني، للأصفهاني: ٢٢/١٣٤. تح/ إبراهيم السعافين وبكر عباس. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للشعالبي: ص: ١٠٧.

^{٢٨٨} - قصة المثل "صارت الفتیان حُما" في مجمع الأمثال للميداني: ١/٢٧٧-٤٢٨. المُنَمَّقُ فِي أَخْبَارِ فَرِيْشٍ: محمد بن حبيب البغدادي. ص: ٢٩٠. الأغاني، للأصفهاني: ٢٢/١٣٤. تح/ إبراهيم السعافين وبكر عباس. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. للشعالبي: ص: ١٠٧.

في القدرة عليه ، فالذات حاضرة بقوة رغم الغياب، وفاعلة رغم التهميش الذي يكتنف سؤال هذا المعتدي...!!

أما (أمّ جساس) فقالت موجهة خطابها لابنها: "... وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ وَإِخْوَتَكَ كُنْتُمْ مِثِّي قَبْلَ هَذَا، مَا بِي إِلَّا أَنْ يَتَنَآكَدَ بِي أَبْنَاءُ وَائِلٍ.." ٢٨٩

لإدراك هذه (الأمّ) التام لخطورة الوضع، وعظيم الجرم الذي اقترفه ابنها، فإنها أيضا تدرك تماما الثمرة المرة، والعواقب السيئة المستمرة لهذا الفعل الفاضح، ولأنه ابنها فإن سوء فعله منوط بها ومردود لتربيتها أو لفساد نتاجها، فتكون مضرب المثل المستمر في الشؤم والتناكد، ولذا فهي تأتي بفعل مضارع مؤكد للتعبير عن هذا المعنى، بعد أفعال ماضية، وهو ما يعطي التأكيد مداه أيضا... وعلى الرغم من حرج الموقف فإنها تتخذ استراتيجية تضامنية إلى حد بعيد مع الأطراف المعتدى عليها، وخاصة قبيلتها، بل سلالة (وائل) كلها، فهي تذكرهم بالاسم، إضافة لفعل التمني المعلق بهم، حيث التضحية بالأبناء الأعزاء في سبيل هذا الاصطفاف ضد الفتنة القادمة، والبراءة من الفعل الشنيع الذي يهريق دماء العرب وأبناء العمومة، ويثقل البنت ويشنت الشمل...!

٣- فِعْلُ الْأَمْرِ:

يقول يحي بن حمزة العلوي عن فعل الأمر: " هو صيغة تستدعي الفعل أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على وجه الاستعلاء" ٢٩٠ ، وهو يعني الأمر الحقيقي، متعرضا بعد ذلك إلى الأغراض المجازية التي يخرج إليها الأمر.

إنّ استدعاء فعل الأمر للحضور في تراكيب هذا السياق إنما يكون لارتياح آفاق تساعد على خلق تشكّل لمضمون يكون له وقع على رقعة الاتصال ذاته، وتأثير ذلك على الواقع الخارجي، سواء تحقق هذا الأمر أو لم يتحقق، ولكنه يظل مطلوبا من المتكلم إلى المخاطب، وفي سياق الحرب يكون لتحقق الأمر في الواقع الخارجي أهمية كبرى، وسواء كان موجها إلى الذات أو إلى الغير، حيث إن فعل الأمر يصدر عن ذات قادرة على الأمر في ذاته، فلها هذه السلطة المعنوية أو المادية، أو عاجزة عن الفعل

٢٨٩- التعاوي والمرائي، للمبرد: ص: ٢٩٧. شعراء النصرانية، ص: ٢٤٧. والحوار في الكامل في التاريخ، لابن الأثير، بين جساس والوالده: ١/ ٤١٣-٤١٤. والمقولة لهمام أخي جساس في: أمثال العرب. المفضل الضبي: ص: ١٢٠. الأغاني، للأصفهاني: ٢٦/٥. تح/إحسان عباس وآخرين.

٢٩٠- الطراز، للعلوي: ٣/ ١٥٥-١٥٦.

فتوكل ذلك إلى ذوات غيرية، سواء كان ذلك على سبيل الحقيقة أو المجاز...، ولكن في كل الأحوال، فإن ذلك يعني أن الواقع الراهن راكد، مرفوض أو غير مرضيِّ عنه، ولذلك يجب تغييره، وأنّ هذا الفعل الأمر هو مطلب ملّح في حينه وهو غير حاصل وقت التكلم أو الطلب، ولذلك فتأثيره على الأحداث أو الواقع الخارجي يكون ملحوظا وأثره يبدو ظاهرا من خلال الاستجابة من عدمها مما يعطي الكثير من الحيوية على السياق، كما إنه يوضح مراتب السلطة المادية والمعنوية في موقف الاتصال وما يترتب على ذلك من تداعيات تكشف عن طوايا النفوس وأغراضها، من حب للسيطرة أو الخيانة، أو التخلص من مأزق الأسر، أو التنبيه والتحذير... إنَّ الفاعلية و الحركة والتغيير هي مظهر لاستدعاء الفعل الأمر في هذا السياق.. !!

من نماذج استعمال فعل الأمر في سياق الحرب: ذكر خبر مدينة الحضر و خطاب (النَّضِيرَةَ ابْنَةَ الضَّيْرِنِ) لسابور الذي كان يحاصر المدينة ويعجز عن اقتحامها، وقد أعجبها فأرسلت إليه: "مَا تَجْعَلُ لِي إِنْ دَلَلْتُكَ عَلَى مَا تَهْدِمُ بِهِ سُورَ الْمَدِينَةِ..؟؟؟" فقال: أحكمك وأرفعك على نسائي. فأرسلت له تدبير وتخطط لاقتحام المدينة وهدم سورها...!!، فقالت: "عَلَيْكَ بِحَمَامَةٍ وَرِزْقَاءَ" ^{٢٩١} مُطَوَّقَةً فَكُتِبَ عَلَى رِجْلِهَا بِحَيْضِ جَارِيَةٍ بِحُرِّ رِزْقَاءَ ثُمَّ أُرْسِلَهَا فَإِنَّهَا تَقَعُ عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ فَيَحْرَبُ ^{٢٩٢}

إذن فمتوالية أفعال الأمر تضحُّ بالحركة والفاعلية والتحريض على القيام بالفعل، بترتيب مخصوص وفق استراتيجية هجوم محددة (اسم فعل أمر "عليك"، فاكْتُبْ، أُرْسِلْ)، ومع ملاحظة الترتيب الزمني الذي يشي به استعمالها لحرفي العطف (الفاء، ثم) الأول يفيد التعقيب المباشر في القيام بالفعل، والثاني التعقيب لكن مع تراخي ربما ليجف الدم على رجل الحمامة فلا ينمحي وبذا يكون تأثيره أقوى...!! وقد استفادت من قربها من والدها في التعرف على طلسم المدينة والذي لا يهدمها إلا هو، ففعل وتأهب لهم وقالت: "أَنَا أَسْقِي الْحَرَسَ الْخَمْرَ فَإِذَا صُرِّغُوا فَاقْتُلْهُمْ وَأَدْخُلِ الْمَدِينَةَ". ^{٢٩٣}

ومرة أخرى نرى تصعيدا نوعيا في استعمال أفعال الأمر يتناسب مع استراتيجية الهجوم وأهدافه، إنها الحيلة، ومع أداة الشرط غير الجازمة المرتبطة بالظرفية الزمانية المصاحبة لتأثير الخمر في

^{٢٩١} - والأورق: الذي لونه بين السواد والغبرة؛ ومنه قيل للرماد أُرْقُ وللحمامة وَرْقَاءَ، لسان العرب لابن منظور. مادة "ورق".

^{٢٩٢} - الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٢٧١، ١/ ٢٩٨.

^{٢٩٣} - تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٤٩. الأغاني، للأصفهاني: ٢/ ٩١. إحسان عباس وآخرون. شعراء النصرانية قبل الإسلام. ص: ٥٨. عيون الأخبار لابن قتيبة الدنيوري: ٤/ ١١٩-١٢٠.

الجند، حيث يأتي دور (سابور): (فاقتلهم وادخل) ثم يُلاحظ مرة أخرى (الفاء) للتعجيل بالقتل، أما (الواو) ففيها إباحة وعموم العطف على الفعل السابق (القتل).

كشفت هذه المتواليّة من أفعال الأمر عن طوايا نفس (النَّصِيرَةُ ابْنَةُ الضَّيْرِنِ) وضعفها أمام الشغف بالجمال والشباب والقوة والفتوة في الرجل، حتى لو كان عدوها، وحتى لو كان ثمن ذلك قتل والدها وخراب مملكته وذهاب ملكه، وقد انطوت نفسها على ذكاء استراتيجي في التخطيط والتحريض ورسم مجريات هذه الخطة حتى النهاية، بل والتأكد من سير كل مرحلة كما خُطط لها بالضبط، هذا كله كشف عن شراسة وقسوة صادمة خاصة من فتاة مدللة ضدّ أبيها..!!

ومن اللافت خطاب (سَلْمَى) زوج عروة بن الورد إلى أهلها ، وهي تضع استراتيجية التخلص من لقب (أسيرة) وإن ضحّت بالزوج الأسر والولد، وبعد تدبير خطة الخروج من القبيلة الآسرة، والتمكن من الرجوع إلى أحضان القبيلة الأم كزائرة كما أوهمت زوجها - أنت (سَلْمَى) قومها، وقالت: " إِنَّهُ خَارِجٌ بِي قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ الشَّهْرُ الحَرَامُ، فَتَعَالَوْا إِلَيْهِ، وَأَخْبِرُوهُ أَنَّكُمْ تَسْتَحْيُونَ أَنْ تَكُونَ امْرَأَةً مِنْكُمْ مَعْرُوفَةَ النَّسَبِ ، صَحِيحَتُهُ سَبِيَّةٌ، وَافْتَدُونِي مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَا يَرَى أَنِّي أَفَارِقُهُ، وَلَا أَخْتَارُ عَلَيْهِ أَحَدًا " ٢٩٤

(فَتَعَالَوْا، وَأَخْبِرُوهُ، وَافْتَدُونِي)، إنَّ أفعال الأمر هذه ترسم منحنى له بداية وقمة ونهاية، وهي تلقنهم حتى الكلام الذي يجب أن يقولوه لزوجها/آسرها، لأنها تعرف مداخل هذه النفس ومخارجها، وسبل إقناعها، ويدلل أيضا على مدى حرصها على نجاح هذه المحاولة وخوفها من فوات الفرصة أو إفساد هذا الأمر الذي خطت له كثيرا وبالكاد تصل إلى مرادها والحل الذي تعارف عليه العرب في مثل هذه الظروف (الفدية)، وبالتالي فإنَّ خطة (سَلْمَى) كانت تعتمد على التلقين الحرفي لأهلها وطريقة خوضهم للمفاوضات مع زوجها، ومن هنا كانت لأفعال الأمر هذا التوضع الجوهرى والحيوي في هذا الخطاب المرهون بهذا السياق الحاد والمصيري، ومدى التغيير المطلوب والمنشود في الواقع الخارجى وحركية الذات (سَلْمَى) للخروج من هذا المأزق القاتل..!!

٢٩٤ - الأغاني، للأصفهاني: ٣ / ٥٣، إحسان عباس وآخرون، انظر: مجالس ثعلب: ٤٥١ / ٢، نشر الدر: ٨٩ / ٤. الروض الأنف، للسهيلي: ٣ / ٣٩٧ - ٣٩٨. في خُرُوجِ بَنِي النَّصِيرِ إِلَى خَيْبَرَ. شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو: ص: ٨٩١ - ٨٩٢.

أما (ابنة الأجلح بن قاسط)، فقد كانت تراقب الحركة السريعة لوالدها وتلاحظها، وقد لحق بابني حُميضة بن بحير، وقد كان لما لبس درعه وترك جربانها لم يشده عليه، فقالت له: " شُدَّ عَلَيْكَ الْجُرْبَان " ٢٩٥

هذا الأمر المختزل السريع بلا فضول ولا زيادة يناسب مقام السرعة والعجلة التي كان عليها المخاطب، كما يشي بدقة ملاحظتها من جهة، وبمعرفتها لمواطن الضعف والخلل عند الفارس حتى لو كان ذلك عدم إحكام ربط الجربان، حيث تعلم أن ذلك قد يصيب المحارب في مقتل وهذا ما حدث..!!

ووجدت (ابنة امرئ القيس) والدها امرأ القيس بن النعمان اللخمي الملك أسيراً من قبيل سلمة بن مرة الناموسي، وكان الناموسي قصيراً مقتحماً، واللخمي طويلاً جسيماً، فقالت بنت امرئ القيس: " يَاهَذَا الْقَصِيرُ أَطْلُقْ أَبِي " . ٢٩٦

يالهذه الفتاة التي تظن بأن كلمة منها قد تفك أسر والدها، لأنها ترى أن الأسر ليس كفواً للأسير، حتى لو كان ذلك من خلال مقارنة شكلية بينهما، وبهذا يأتي خطابها المختزل بفعل أمر واحد قد يشي بالترفع والاستعلاء والتجاهل والتحقير (يا هذا)، لكنه أيضاً يبطن الضعف والانهازم وقلة الحيلة، فهي لن تحاربه ولم تجد ناصرًا لها، فسيبيلها لتغيير هذا الراهن المنزل هو الأمر والطلب ومحاولة تجنب المزيد من الإذلال وإراقة ماء الوجه فهي الأميرة ابنة الملك.. لا شك أن هذه المقارنة في الشكل تحمل عبء الفارق الطبقي والاجتماعي والتاريخي بين الرجلين... !!

وهذه (أمُّ تَدْيِ ابْنَهَا) من عمرو بن هند: " يَابُنَيَّ قِ بِثَدْيِي قَدَمَكَ، وَأَقْلِلْ بَوطنَهُمَا أَلَمَكَ " ٢٩٧، في هذا السياق الحرج؛ أظهر ذان الفعلان عميق الشفقة والرحمة من هذه الأم الرؤوم، حيث كانا صورة واضحة ومنطوقة لهذه المشاعر حيث الوقاية من الألم والتخفيف منه، وحيث بنية الفعل تنبي عن الحال والشعور معاً، فالفعل (ق) المجزوم بحذف حرف العلة من الفعل الماضي (وقى) يشي باللهفة والسرعة وطلب أقصر الطرق للنجدة، أما الفعل (أَقْلِلْ) فهو يدل على القلقللة وعدم الثبات التي يستشعرها المخاطب جراء مروره على الصفاة المحماة الملتهبة ..

٢٩٥ - أيام العرب في الجاهلية. محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي. ص ٣٠٧. يوم هراميت".

٢٩٦ - المستطرف، للأبشيهي: ص: ٣٥٢-٣٥٣.

٢٩٧ - غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، للوطواط: ص: ٣٩٩.

إذن.. فإن هذا السياق الحربي الفاعل والحيوي يحتاج إلى كثير من الجمل الفعلية التي تدل على التجدد والحدوث خاصة فيما يتعلق بزمن الحال أو الاستقبال، أو تلك التي تعني تأكيد وقوع الحدث باستعمال الفعل الماضي، ولأن هذا السياق سياق متفجر وفاعل فإن ورود الجمل الاسمية التي تدل على الثبوت و الاستقرار جاء في معظمه فيما يتعلق بالثوابت الغريزية في بنية الشخصية سلبا أو إيجابا، أو بالحكم والأمثال التي تدل على استخلاص التجارب وديمومة تأثيرها وانسحابها على الزمن دون كثير تغيير، حتى وإن كانت قد وردت بأخطاء في الصياغة خاصة في الأمثال !!..

الأسلوبُ الخبيريُّ

فِي (عَصْرُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

الخبرُ الابتدائيُّ:

وهي تراكيب إخبارية خالية من المؤكّدات، غالباً ما تسوقها المرأة في معرض الإجابة عن سؤال يوجه إليها...، خاص بما يتعلق بمجريات أمور وقعت في المعركة، أو ما غنمته المرأة في هذه المعركة أو تلك، ومن ذلك :

وفي سياق ما قبل الحرب، يصادفنا هذا الخبر: بينما المسلمون يستعدون للمواجهة، والناس منشغولون في التجهيز، والتوتر يسود المكان، ليس خوفاً من القتل، فهذه المسألة محسومة، ولكن من المسؤولية الكبرى في الحفاظ على دين الله وردع المشركين، نجد هذه السيدة قد اتخذت زاوية تشرف منها على المعسكر، فتلاحظ أمراً ما على أحد الفرسان، حيث كانت أمه بجانبها، تقولُ: " كُنَّا فِي أُطْمٍ^{٢٩٨} بَنِي حَارِثَةَ قَبْلَ الْحِجَابِ وَمَعَنَا أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، فَمَرَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهِ رِدْعُ خَلُوقٍ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا فِي الْخَلُوقِ مِثْلَهُ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُشْمِرَةٌ عَن ذِرَاعِيهِ.." ^{٢٩٩} وتستترسل في السرد، وتحدد مخاوفها التي تحققت فيما بعد ليتحول مجرى الخطاب إلى الخبر الإنكار متسقا مع أهداف المتكلم وموقف المتلقي من مضمون الخطاب!!..

السيدة (عائشة زوج النبي ﷺ) هي صاحبة الخبر عن غزوة الخندق، ويالها من عين باصرة وبصيرة نافذة، فحيث لاحظت الخلل، كان قد نفذ العدو إلى سعد بن معاذ، فاستشهد!!..

وإن المتلقي ليندهش من خبر كهذا، وهل هذه هيئة فارس يخرج للقتال وكأنه يخرج لزفافه..!!؟؟ في لبسه وعطره، حتى إنه في غمرة ذلك ينسى أن يحكم إصباغ درعه، أو إحكامه عليه، خاصة وأن سعد بن معاذ معروف بالبسطة في الجسم وحسن الهيئة!!..

وأمر آخر نستشفه من هذا الخطاب أيضاً، وهو: أين تكون النساء أثناء المعركة..!!؟؟، الطبعي أن يكنَّ محميات مصونات في مكان لا تصل إليهن فيه أيدي الأعداء، إلا أن وجدت المرأة ضرورة شرعية ملحة للنزول إلى أطراف ساحة المعركة لسياقات متنوعة كما في السياق التالي!!..

^{٢٩٨} - "الأطم: حصنٌ مبنًى بحجارة، وقيل: هو كل بيت مَرَبَعٍ مُسَطَّحٍ". اللسان: (أطم).

^{٢٩٩} - المغازي للواقدي: ٢/ ٤٧١، ٤٧٠. في خبر غزوة الخندق. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٢٦-٢٢٧-٢٥٢. الروض الأنف، للسهيلى: ٣/ ٤٣٠-٤٣١. البداية والنهاية: لابن كثير: ٤/ ١٣٠. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ٣٨٨ وما بعدها أسد الغابة، لابن الأثير: ٢/ ٤٦١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٩٩.

وتتطور مجريات المعركة، لننتقل إلى مشهد يشرف على الميدان، حيث حديث أُطَم آخر، تلتقطه من زاوية أخرى السيدة (صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) في غزوة الخندق، والنسوة في أُطَم فَارِعَ ، تَقُولُ:

".. رُفِعْنَا فِي الْأَطَامِ وَمَعَنَا حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ وَنَحْنُ فِي فَارِعَ ، فَجَاءَ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ يَزْمُونَ الْأَطَمَ.....، تَقُولُ : كُنْتُ أَعْرِفُ انْكَشَافَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا عَلَى الْأَطَمِ يَرْجِعُ حَسَانٌ إِلَيَّ أَقْصَى الْأَطَمِ فَإِذَا رَأَى الدَّوْلَةَ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ حَتَّى يَقِفَ عَلَى جِدَارِ الْأَطَمِ . قَالَتْ: وَلَقَدْ خَرَجْتُ وَالسَّيْفُ فِي يَدِي ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي بَنِي حَارِثَةَ أَدْرَكْتُ نِسْوَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَّ أَيْمَنَ مَعَهُنَّ فَكَانَ الْجَمْرُ ٣٠٠ مَنَا حَتَّى انْتَهَيْتُنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ أَوْزَاعَ فَأَوَّلُ مَنْ لَقِيتُ عَلِيَّ ابْنَ أَخِي، فَقَالَ: ازْجِعِي يَا عَمَّةُ فَإِنَّ فِي النَّاسِ تَكْشَفًا. فَقُلْتُ : رَسُولُ اللَّهِ ؟ فَقَالَ صَالِحٌ بِحَمْدِ اللَّهِ قُلْتُ : أَدُلُّنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَرَاهُ ... " ٣٠١

وهذا الخطاب الإخباري، يظهر وجهها آخر لحسن صنيع المرأة في الحرب، فليست مستكينة منتظرة، خائفة منكمشة، وإنما تأخذ للحرب أهبتها واستعدادها، وتعرف- وإن كانت في حصن-، أنها الحرب، والحذر سيد الموقف، يكشف لنا أيضا، كيف للمرأة ألا تكون حمولة زائدة على الرجال في موقف حرج كهذا، وكيف لها أن تحسن التصرف، وتتولى الدفاع عن المعقل الأخير الذي قد يُؤتى منه المسلمون، وهي تطوف وتطوف بالحصن متيقظة حذرة، هذه اليقظة وذاك الحذر، يُثَمِّنُ عن ذهنية عسكرية استحضرتها (صَفِيَّةُ) آنئذٍ؛ وذلك لأنها تعرف اليهود ومكرهم وختلهم وخداعهم، وكانت لهم..!! وبالفعل فقد رأتهم يطيفون بالحصن يريدون اختراقه..، فما كان منها إلا أن قتلت طلعة القوم، ورمت برأسه على رفاقه، وسرعان ما ولّوا مدبرين..، ظانين بأن النبي ﷺ قد ترك جنود حماية مع النساء والصبيان..!!

٣٠٠ - ضرب من السير دون الحضر وفوق العنق. اللسان (حضر).

٣٠١ - المغازي للواقدي. ١/ ٢٨٨. ٢٨٩. و ٢/ ٤٦٣، في خبر غزوة الخندق. السيرة النبوية لابن هشام. ٢/ ٢٢٨. الروض الأنف، للسُّهيلي: ٣/ ٤٣٣. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٥٧٧. سنة ٥هـ. الأغاني، للأصفهاني: ٤/ ١٢٣ - ١٢٤. البداية والنهاية، لابن كثير: ٧/ ١٠٤-١٠٥. غرر الخصائص الواضحة، للوطواط: ص: ٣٥٥. المستطرف. في ذكر أسماء الشجعان ٣٠٠-٣٠١. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب الغمري: ص: ١٦٥.

ومع ذلك فالاحتراز الشرعي عند (صَفِيَّةَ) حاضر بقوة في هذا الخطاب، يتجلى في مواطن عدّة، حتى إذا وجدت العذر، تقدمت بنفسها، لأنها، أولاً طلبت من حسان أن يقتل اليهودي فأبى، ثم بعد أن احتزت رأسه طلبت منه أن يطوح به، لأن الرجل أقوى، وطلبت منه أن يسلبه فأبى النزول من الحصن أيضاً^{٣٠٢}، وما منعها من سلبه إلا كونه رجلاً..!!

ولا شك بأن هذا المنحى الاحترازي في هذا الخطاب اللافت للنظر، إلى كمّ الضوابط الشرعية التي تلتزم بها المرأة المسلمة في مثل تلك المواقف..!!

وأخيراً.. حتى إذا كانت الكفة تميل نحو المشركين، وانكشف رسول الله والمجاهدين، هبّت النسوة فاراتٍ نحو الميدان، فرار نصرة وفداء، وقلق على مسير رسول الله ﷺ، في موقف مهيب تقشعر له الأبدان..!!

إذن.. كان هذا الانزياح إلى الخبر الابتدائي في هذا الخطاب السردى، هو المنشود لبسط كل تلك الرؤى والمعاني في سلاسة تصل إلى المتلقي دون عنت، هذا المتلقي خالي الذهن الذي قد يكون في زمن آخر ومكان آخر..!!

ومثل ذلك ما ترويه (أُمُّ عُمَارَةَ نُسَيْبَةَ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ يَوْمَ أُحُدٍ)، لَمَّا سَأَلْتَهَا (أُمُّ سَعْدِ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ) كَأَنَّتِ تَقُولُ دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ عُمَارَةَ فَقُلْتُ لَهَا : " يَا خَالَهٗ أَخْبِرْنِي خَبْرَكَ ؛ فَقَالَتْ : خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ وَأَنَا أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ وَمَعِيَ سِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي أَصْحَابِهِ وَالِدَوْلَةَ وَالرَّيْحُ لِلْمُسْلِمِينَ . فَلَمَّا انْهَرَمَ الْمُسْلِمُونَ انْحَزْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُمْتُ أَبَاشِرُ الْقِتَالِ وَأَدْبَّ عَنْهُ بِالسَّيْفِ وَأَرَمِي عَنِ الْقَوْسِ حَتَّى خَلَصْتُ الْجِرَاحَ إِلَيَّ . قَالَتْ : فَرَأَيْتُ عَلَى عَاتِقِهَا جُرْحًا أَجُوفَ لَهُ عَوْرٌ ، فَقُلْتُ : مَنْ أَصَابَكَ بِهَذَا ؟ قَالَتْ : ابْنُ قَمِيَّةَ أَقَمَاهُ اللَّهُ لَمَّا وَلَّى النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْسَ مِمَّنْ ثَبَّتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضْرَبَنِي فَاعْتَرَضْتُ لَهُ أَنَا وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، وَأُنَاسٌ مِمَّنْ ثَبَّتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضْرَبَنِي هَذِهِ الضَّرْبَةَ وَلَكِنْ فَالْقَدَّ ضْرَبْتَهُ عَلَى ذَلِكَ ضْرِبَاتٍ وَلَكِنْ عَدُوَّ اللَّهِ كَانَ عَلَيْهِ دِرْعَانٌ^{٣٠٣}

^{٣٠٢} - انظر: الأغاني، للأصفهاني: ١٢٣/٤ - ١٢٤.

^{٣٠٣} - سيرة ابن هشام: ٨٢ / ٢ . المغازي للواقدي: ١ / ٣٦٨ . البداية والنهاية. لابن كثير: ٤ / ٣٤ . الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤٣.

يُلحظ في هذا الخطاب سرد سلس رائق في بدايته ثم يبدأ بالتصاعد و التوتر نحو ذروة درامية حتى يصل إلى نهايته، ولكن يغلب عليه النَّفَسُ الإخباري، لمن هو خالي الذهن عن مضمون الخبر، ولذا نجده في عمومه خاليًا من المؤكّدات.. ويُستشف من خلال هذا الخطاب السريدي أن القتال ليس من واجبات المرأة وليس لهذا خرجت المرأة مع الجيوش، ولكنها إن رأت موازين المعركة تميل نحو العدو، فهي ستتحاز إلى القضية التي خرجت من أجلها، وإلى الرأية التي تحمي هذه القضية وتؤازرها!! ويستطيع المتلقي أن يفهم بوضوح الرسالة المكتنفة بين سطور هذا الخطاب، واحدة منها أن مشاركة المرأة في هذه الحرب الجهادية ليست مشاركة شرفية، أو تسجيل حضور، بل كانت مشاركة

فاعلة وحقيقية للحد الذي قد يغير وجه المعركة بل التاريخ أحياناً!!

كما أن هذه المرأة لا تباهي أو تفاخر بمنجزاتها وبمآثرها في تلك الحروب، لأنها تعدّها نوعاً من العبادة ولا يجوز للمرء أن يجاهر بمثل هذه الأعمال وإلا تحولت إلى رياء ومحقّ العمل.. ولذا نجد هذا السرد الإخباري لم يأتٍ للتسري وقطع الوقت، بل جاء إجابة عن سؤال، ولنا أن نرى حجم الواقعية والحرفية العالية في نقل الحدث دون تزيّد أو مبالغة لا على مستوى الأفعال التي صدرت من الشخص، بل حتى على مستوى اللغة التي هي مادة هذا الخطاب!!

وفيما بعد المعركة، ينكشف الميدان، ويحصى من استشهد ومن جرح، وتذهب أخبارهم إلى أهلهم وذويهم، ويأتي خطاب (أسماء بنت عميس) لما سمعت بخبر استشهاد زوجها جعفر بن أبي طالب: " .. قَالَتْ: فَقُمْتُ أَصِيحُ وَاجْتَمَعْتُ إِلَيَّ النِّسَاءُ ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ . فَقَالَ لَا تُغْفَلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا ، فَإِنَّهُمْ قَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ"^{٣٠٤}

وفي هذا الخطاب الإخباري الذي ترويّه (أسماء)، عن ردة فعلها لما سمعت باستشهاد زوجها في معركة مؤتة، نلاحظ ثلاثة أفعال ماضية وتراتبية تناسب زمن الحكى والقص، اثنان يتعلّقان بها، والأخير فعل تضامني من مجموعة من النسوة المعزيات: (فَقُمْتُ ، أَصِيحُ ، وَاجْتَمَعْتُ إِلَيَّ النِّسَاءُ ..).

الأمر التوثيقي الآخر في هذا الخطاب والذي لا تغفله (أسماء)، هو جانب شرعي آخر عن كيفية التعامل مع أهل المصائب، فترويّه عن رسول الله ﷺ، وهو الذي لم يستطع أن يخبرها مباشرة بمقتل

^{٣٠٤} - السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٨١ - ٣٨٢. (في حزن الرسول ﷺ على جعفر ووصايته بإله).

زوجها، بل تركها تفهم ذلك من طلبه لبني جعفر، وأخذ يشمهم، ويمسح على رؤوسهم، حتى استنتجت هي بنفسها نبأ استشهاده، فياله من تल्पف وحنان من قبل النبي الكريم ﷺ!..

والنتويه الأنف، إنما كان للإشارة إلى أن المرأة في أشد لحظات حياتها تطرفا من حيث الصدمات والنواب والقتل والثكل، لا تفقد بوصلتها المتوجهة نحو كل ما يقوله ويفعله الرسول ﷺ!!..

وهنا خطاب ابتدائي آخر، ترويه (أم موسى اللخميّة): " بَيْنَمَا نَحْنُ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ النِّسَاءِ إِذْ جَالَ الرَّجَالُ جَوْلَةً فَأَبْصَرْتُ عَجَا يَجُرُّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَخَذْتُ عَمُودَ الْفِسْطَاطِ ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْهُ فَشَدَخْتُ بِهِ رَأْسَهُ وَ أَقْبَلْتُ أَسْلِبُهُ فَأَعَانَنِي الرَّجُلُ عَلَى أَخْذِهِ. "٣٠٥

لأنّ (أم موسى) تروي طرفا عن أحداث (موقعة اليرموك)، يعد المخاطب هنا خالي الذهن من تفاصيلها، وهي تعرف أنها مصدر ثقة في روايتها، ولذا جاء هذا السياق اللغوي على هذا النحو، ناهيك عن السياق العاطفي المتضمن للفخر والاعتزاز بهذا العمل البطولي، ويشير أيضا إلى أن المرأة تعرف حقوقها، ولا تتركها، فهي تعرف إنّ هي قتلت أحدا فلها سلبه، حتى إنّ الرجل الذي استنفذته لم ينازعها هذا الحق!..! ويُنمُّ أيضا عن حنكة المرأة ومبادرتها، فهي ليست متفرجة، بل بإمكانها أن تنفذ الموقف إن استطاعت بل تحتال لذلك ولا تترك وسيلة.

وإن كنا سنلاحظ أمرا، فالفرق في الاحتراز بين سيدة كـ (صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) وبين (أم موسى اللخميّة)، من حيث موقف سلب المشرك الذي قتلته كل منهما!..!!

خبر ابتدائي آخر يأتي في سياق ما بعد الحرب، حين سئلت أم عمارة عن خرزٍ حُمَرٍ فِي رَقَبَتَيْهَا، فَقَالَتْ: أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ خَرْزًا فِي حِصْنِ الصَّعْبِ بِنِ مُعَاذِ دُفِنَ فِي الْأَرْضِ فَأَتَيْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ بِهِ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ النِّسَاءِ فَأُخْصِيْنَ فُكْنَا عِشْرِينَ امْرَأَةً فَقَسَمَ ذَلِكَ الْخَرْزَ بَيْنَنَا هَذَا وَأَرْضَخَ لَنَا مِنَ الْفِيءِ قَطِيفَةً وَبُرْدًا يَمَانِيًا وَدِينَارَيْنِ وَكَذَلِكَ أُعْطِيَ صَوَاحِبِي . قُلْتُ : فَكَمْ كَانَتْ سُهْمَانُ الرَّجَالِ ؟ قَالَتْ ابْتَاعَ زَوْجِي غَزِيَّةً بِنُ عَمْرٍو مَتَاعًا بِأَحَدِ عَشْرَ دِينَارًا وَنِصْفٍ فَلَمْ يُطَالِبْ بِشَيْءٍ

٣٠٥ - الإصابة، لابن حجر: ٤/٤٧٨. زوج نصير اللخميّ والد موسى بن نصير، مفتتح الأندلس، وقد شهدت اليرموك مع زوجها، وهذا خطابها في وصف إحدى لحظات المعركة.

فَظَنْنَا أَنَّ هَذِهِ سُهْمَانُ الْفُرْسَانِ - وَكَانَ فَارِسًا - وَبَاعَ ثَلَاثَةَ أَسْهُمٍ فِي الشَّقِّ زَمَنَ عُثْمَانَ بِثَلَاثِينَ دِينَارًا . ٣٠٦

نتعرف إلى مناسبة هذا الخبر الابتدائي فيما يرويه "الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ رَأَيْتُ فِي رَقِيبَةٍ أُمَّ عُمَارَةَ حُرْزًا حُمْرًا فَسَأَلْتُهَا عَنِ الْحُرْزِ" وأنه يأتي جواباً عن سؤال يبدو أن المخاطب خالي الذهن تماماً عن أمره، فيأتي سوق الجواب تهادياً ومسترسلاً وبأريحية تامة...!!

وسيجد المتلقي- حتى في زمننا هذا- عبر ذلك الخطاب السردى الإخباري في سياق ما بعد الحرب توثيقاً ورصدًا حقوقيًا- إن جاز التعبير- وكأنك تقرأ من أحد السجلات العسكرية، حيث أعطيات الجند، وملتفت أيضاً إلى هذا التقسيم الدقيق، والذي لا يمكن أن يكون عشوائياً، لأنه مثبت بإحصاءات دقيقة، حيث تبدو المرأة ذات دراية تامة ودقيقة بما حولها، وتنتظر لنفسها على أنها جزء من كل، وأن الحاكم الشرعي آنذاك (النبي محمد ﷺ) يبقي هذه الأمور على الملاء حتى لا يتزيد الناس ويتقولوا وتساورهم الشكوك والظنون، هو درس على الجميع تعلمه فيما يختص بالحقوق العامة...!!

ومن ناحية أخرى نحن نفق على نوع الغنائم، كما على حق النساء فيها، وهو حق يعطي مشاركتهن في الجهاد شرعيتها ولو شكك المشككون، فالنبي ﷺ لم يستنكر تلك المشاركة في حدودها الشرعية بل أباحها، ثم تعامل مع ما يترتب عليها من تقسيم الأعطيات والغنائم، كيف ومشاركة المرأة لا تنتهي عند حد، فبالإضافة إلى ذلك فهي التي تعبى هذا الجيش وتمده بكل عزيز، أبا كان، أو أخوا أو زوجا أو ولدا.. إلخ !!

وفي سياق ما بعد الحرب، نتصفح هذا المشهد الحزين المبكي، حيث (أُمُّ جَمِيلِ بْنِ سَعْدِ الدَّارِيِّ) تجثو على ابنها وقد استشهد، وتقول: " يَا بُنَيَّ عِشْتَ سَعِيدًا، وَمُتَّ شَهِيدًا، وَسَلَكْتَ سَبِيلَ آبَائِكَ، فَرَحِمَكَ اللَّهُ وَأَنْسَ غُرْبَتَكَ وَنَفَعَنِي بِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ثُمَّ قَرَأَتْ: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} ٣٠٧ " . ٣٠٨

٣٠٦- المغازي الواقدي: ٢/٦٨٨. في إسهام النبي للنساء من غنائم خيبر.

٣٠٧- البقرة/١٥٦.

٣٠٨- فتوح الشام. الواقدي: ٢/١٣٦. في ذكر فتوح الرها وحران. في فتوح قلعة رأس العين. وجميل بن سعد الداري: غلام من أهل المدينة وكان أرمى خلق الله بالنبل، وإنه كان ينظر إلى الطائر في الجو فيقول: إنني قد عولت أن أضرب هذا الطائر في موضع

هذا خطاب مختزل يناسب مقام التفجّع والتحرُّق والتَّكَلُّ، وهاهي تختزل المسافة أيضا بين الموت والميلاد في جملتين اثنتين " عِشْتَ سَعِيدًا، وَمَتَّ شَهِيدًا"، تكني بهما عن قصر حياة هذا الشاب، وهو سعيد لم يتسنَّ له وقد تربي في كنف العفة والأخلاق أن يفعل ما لا يجعله سعيدا في آخرته، وقد رضي الله عنها وعنه واتخذه شهيدا، وليس ذلك بمستغرب فما هو إلا حلقة في مسيرة آباءه الذين سار على منوالهم...!!

وماذا عساها فاعلة له هذه (الأمُّ) وقد فارق الحياة غير هذا الدعاء، التأييني وما فيه من تسليم ورضا بما جرى به القضاء، ومن الله ترجو له ولها حسن المثوبة والجزاء، امرأة تقدّم فلذة كبدها إلى ساحة الجهاد وهدفها بعد استشهادها هو: " نَفَعَنِي بِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، لأن نفعها منه في الدنيا الفانية قد انقطع...!!

وهل يحتمل موقف كهذا غير هذا الخطاب الهادئ بعيدا عن تشنجات الطلب أو الإنكار، فهي لا تريد أكثر من أن تودع هذا الابن البار، وتتركه يرحل بسلام إلى حيث وجهته فتوجه...!

الخبرُ الطلبيُّ:

حين يسيطر الشك والتردد على ذهن المخاطب، فإن الخطاب لا بد أن يشتمل على مؤكد واحد مستحسن ليقنع المخاطب ويصدّق الخبر الملقى إليه، حيث يتشكل ذلك انزياحا فكريا وعاطفيا مؤيدا لهذا الخطاب أو لملقيه، وبناء عليه تتغير معطيات داخلية وخارجية مترتبة على هذا الخطاب، ومن نماذجه:

ففي سياق الحرب، نلاحظ ذلك في هذا الخطاب الذي يمثله هذا اللسان الجمعي لـ(نساء بني ظفر)، لرجل يدعى (قُزَمان)، إنَّ هذا الرجل (قُزَمان) من المنافقين وقد تخلف عن الغزو، وكانت غزوة (أُحُد)، فبادرت هاته النسوة على استفزازة ومحاصرته ودفعه دفعا إلى التقدم إلى ساحة المعركة حتى ولو لم يقنع بدوافعها، وحاولن استثارة نزعاته الجاهلية في ذم التخلف وهو الفارس الشجاع، المعتر بحسبه ونسبه وشجاعته، والمنحاز لقبيلته التي لا يريد أن تعلق عليها قبائل أخرى لها تاريخ تأري معها، ويأتي خطاب هاته النسوة في بنية خبر طلبي (قد): " يَا قُزَمانُ ، قَدْ خَرَجَ الرَّجَالُ وَبَقِيَتْ ...!!"

كذا فيضربه فيقع الطائر والضربة في المكان الذي ذكره، قدم مع أمه إلى المعركة ثم استأذنها في الجهاد، فأذنت له، ولما استشهد قالت: "..."

مرة لأنه ليس لديهم مزيد إنكار لردة فعل هذا الرجل، ومرة حتى لا يشك من إباحتهن فيلزم مكانه، وربما كانت محاولة منهن للتخلص منه لأنه كان منافقاً...!!

لكن الاستهزاء والتحريض والتحضيض، كل ذلك هو بؤرة هذا الخطاب، يقويه أسلوب نفي يأتي في بنية القصر: " مَا أَنْتَ إِلَّا امْرَأَةٌ ..!! خَرَجَ قَوْمُكَ فَبَقِيَتْ فِي الدَّارِ ..!! " ^{٣٠٩}

وفي سياق ما بعد الحرب، لا بد من وقفة عند هذا الخبر الطلبي الفريد من نوعه، خطاب (أُمِّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ الرَّبِيعِ بْنِ النَّضْرِ) عَمَّةِ أَنَسِ، وقد استشهاد ابنها، بل كان أول شهيد في ذلك اليوم، فانظروا ماذا أَجَلَّتْ: " .. يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَرَفْتُ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي، فَأَرَدْتُ أَنْ أَبْكِيَ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: لَا أَفْعَلُ حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ؟ فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فِي النَّارِ بَكَيتُهُ فَأَعْوَلْتُهُ .. " ^{٣١٠}

ما أولُ ردة فعلٍ لأُمِّ تَفَجَّعَ في ابنها، ولما تبدأ المعركة بعد...؟؟، أن تبكي...، لكن هذه المرأة، تراجع الأمر، وتعود لتحدث نفسها، بل وتؤجل البكاء...!! أي درجة من الإيمان المنضبط للحد الذي تؤجل معه البكاء على ابنها أو حتى أن تتعاطف مع الحدث حتى تسأل وتعرف أن في ذلك مرضاة لله، أو عدم مخالفة لشرع الله...؟؟!!

وتصوغ خطابها ذاك في بنية خبر طلبي، بأداة هي (قَدْ)، لأنها لا تعلم من يشكك في محبتها لابنها، وحرزها عليه، لكن قد يتوهم متوهم أن عدم بكائها، إنما لأنها لا تهتم بفقدته، وعلى ذلك تبني بقية خطابها كما بدأت، بالتحدث عن مكانة حارثة، لكن ما يشغلها الآن هو أمر أهم وأعمق من البكاء المجرد عن هدف، أيا كان، إن ما يشغلها حقاً، هو مصير هذا الابن، أذهب في طاعة الله، والله عنه راضٍ، وعن مصيره بعد ذلك، تريد أن تزداد طمأنينة، لأنها تعلم لأي غاية حضر ابنها، وفي سبيل أي قضية استشهاد، كل هذا التأجيل، ليس لجهلها بذلك، لكنها أرادت أن تسمعه من النبي ﷺ فتم لها الطمأنينة الكاملة...!!

^{٣٠٩} - المغازي للواقدي: ١/ ٢٢٣. غزوة أُحُدٍ.

^{٣١٠} - المغازي للواقدي: ١/ ٩٤. في مقتل حارثة بن سراقَةَ يوم بدر، وهو أول شهيد في ذلك اليوم. ٩٤/١. الروض الأنف، للسُهيلي: ٣/ ١٦٤. البداية والنهاية لابن كثير: ٣/ ٢٧٤-٣٢٨-٣٢٩. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. باب المغازي. ٦/ ١٠٦. الحديث رقم: ٢٨٠٩. وفيه إيضاح عن نسب أم حارثة .

وبعد..فإن كانت ستبكي..فستبكي على أمر يستحق..أن يكون هذا الولد من أهل النار..!!
أما ولا..فلا بكاء بل فرح بالشهادة وحسن الخاتمة..!!

ويُلحظ هذه الموازنة الدقيقة متوسلة لها أسلوب الشرط: "فإن يكن في الجنة أصبر وأحسب / وإن يكن غير ذلك فسترى ما أصنع."

ويُرى هذا التحرز من ذكر ما تخاف منه، وأن يكون مصيره النار، فلا تقوى على النطق بها والمجاهرة، فتلمح وتكني(غير ذلك)،وهي لا تكتفي بهذا التلميح،بل تبني عليه موقفا مبهما، لكنه مستلهم من خطابها، ونلحظ موقف الصبر والاحتساب لفقد هذا الابن، يهون منه المصير الذي يؤول إليه، وإن لم يكن على الإيمان فذلك هو المصاب وتلك هي المصيبة.

أم أخرى، وموقف نوعي آخر في سياق ما بعد الحرب،هي (أمُ خَلاد الأنصاريَّة) في يوم بني قريظة : تقول وقد استشهد ابنها، وقد وجه لها ما يشبه اللوم، من أنها أتت منتقبة، فكأنها لم تحزن وتجزع بما يكفي لجعلها تذهل عن نفسها، فتكشف وجهها،فقالت: " إن قُتِلَ خَلادٌ فَلَنْ أُرْزَأَ حَيَّاي. " ٣١١

خبر طلبي يأتي في بنية أسلوب الشرط يحمل قيمة خلقية كبيرة ورسوخا على مرتكزات لا تتزعزع رغم النوايب، فقدت هذه المرأة ولدها ومع ذلك تبقى محافظة على حشمتها، مع أن السياق العام والمزاج الاجتماعي يسوغ لها بعض التجاوزات، ومنها إظهار الجزع بالتخلي عن النقاب، وليس عن الحجاب،لكنها ترفض هذه الفسحة من التجوز وترد بكل حزم، ناظرة إلى أفق أبعد وأرحب، فلا شيء،حتى فقد ابنها قد يدفعها للتخلي عن وقارها، ولا أن تتخلي عن سترها.وتجزع وابنها في هذا السبيل، وذلك في قولها: "إن قُتِلَ خَلادٌ فَلَنْ أُرْزَأَ حَيَّاي. "

ويُلحظ في بنية الخطاب هذا الانزياح نحو التركيب القائم على فعلين ماضيين مبنيين للمجهول ، وأن ذلك أبلغ في المساواة بين من قتل ابنها من المشركين وبين من يحاول أن يسوغ لها أن تهتك سترها بكشف وجهها،وأنها على استعداد لأن تغضي عن قضية قتل ولدها، لكنها لن تتجاهل هذا الرد عن أمر حجابها..!!فأي حشمة ووقار اشتملت عليهما هذه المرأة في موقف تذهل فيه كلُّ أمٍ تكلى..!!

٣١١-أسد الغابة، لابن الأثير: ٢ / ١٨٠. و٤/١٩٦. مختصر تاريخ دمشق،لابن منظور: ١ / ٢٧٢. الإصابة،لابن حجر: ٤ / ٤٤٧. أم خلد الأنصارية. سألت عن ابنها لما قتل استدرکها ابن الأثير . مُسَكِّنُ الفُؤَادِ عند فقد الأحبة والأولاد.الشيخ زين الدين علي بن محمد الجبعي العاملي(٩١١ هـ - ٩٦٥ هـ).تح/ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث: بيروت، دط، د.ت،ص: ٧٢.

وهنا (أزدة بنت الحارث)، وبينما رعى الحرب في مكان قريب، تجد نفسها وبنات قومها، وحدهن وقد ذهب الرجال للميدان، وتتفحص الوضع، وتصل إلى نتيجة، ثم تتخذ القرار، فتجمع النسوة، وتخطبهن قائلة: ٣١٢

" إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ، وَلَا آمَنُ أَنْ يُخَالِفُوا إِلَيْنَا، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَمْنَعُنَا، وَأُخْرَى أَخَافُ أَنْ يَكْثُرَ الْعَدُوُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَهْزِمُونَهُمْ، فَلَوْ خَرَجْنَا لِأَمْنًا مِمَّا نَخَافُ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَدُوِّ إِلَيْنَا، وَيَظُنُّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّا عَدَدٌ وَمَدَدٌ أَتَى الْمُسْلِمِينَ فَيَكْسِرُهُمْ ذَلِكَ وَهِيَ مَكِيدَةٌ."

إن خطاب (أزدة) المفتوح بأداة توكيد (إن) هو خطاب مبادر، ويحمل بعداً استراتيجياً، يبدو أنه قد أعطى ثماره فيما بعد، وقلب نتيجة المعركة لصالح المسلمين...!!

لقد بنت (أزدة) استراتيجيتها تلك، على أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم، والهدف الأول، هو تحقيق الأمن الداخلي، وثانياً تحقيق الدعم العسكري للمسلمين، وبينما هي تريد أن تحقق الأمن الداخلي، وبناء على استراتيجيتها الهجومية، فعليها أن تحل الخوف والفرع في قلوب الأعداء، وكيف ذلك..؟ لديها خطة لذلك أيضاً، فهي ستعتمد إلى الخداع البصري، والتمويه، حيث تعمد إلى احتلال الفضاء البصري للعدو، وسلاحها الأول بعد عزيمتها وشجاعتها (خمارها)، الذي اتخذت منه راية، وكذلك فعلت باقي النسوة، فكثرت الرايات الخفاقة، والتي خفق منها قلب العدو، والنتيجة فعالة: " فلما رأى العدو الرايات قالوا: هذا عدد ومدد أتى العرب فانهزموا منهم ". ٣١٣

إن محاولة الإقناع لم تستلزم من (أزدة) استعمال الكثير من أدوات التوكيد، لأن من حولها من النساء لم يكن ينكرن عليها ما تقترحه، بل كان يستلزم وضع خطة عمل مقنعة وقابلة للتطبيق العملي، ولذا قامت بوضع استراتيجية تقوم على مقدمات ونتائج، وإتاحة ذلك في شكل خيارات متعددة يقوم اللاحق فيها على السابق، أو بناء النتائج على المقدمات...!! يقوي ذلك الطرح، هذا التذييل الذي ختمت به خطابها: " وَهِيَ مَكِيدَةٌ. "

٣١٢ - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٣-١٥٤. اجمع أهل ميسان للمسلمين وعليهم الفليكان فلقبهم المغيرة بن شعبة بالمرغاب، فقالت (أزدة بنت الحارث بن كندة) للنساء: "...، ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/ ٥٩٦ - ٥٩٧. سنة ١٤هـ. في القادسية.

٣١٣ - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٤.

ومن خلال هذا الخطاب التجيشي التحريضي، ذي السمات المنطقي المتدرج المقنع، الذي ينحاز بتركيبه اللغوي، كما بمضامينه نحو غايته المرسومة له، لا شك أننا نقرأ بوضوح شخصية هذه القائدة الميدانية الفذة، صاحبة القدرات الفريدة في استعمال مفردات بسيطة لصنع انتصارات عظيمة، لأنها تمتلك المادة الخام الأولى لذلك، حسن التدبير و نفاذ البصيرة، والشجاعة والجسارة، لتكون رأس الحربة في التخطيط كما في التنفيذ، والسلاح..(خمار)!!..

وهنا حرب من نوع آخر، لنقل: أنها حرب عاطفية، في سياق فريد من نوعه أيضًا، فهذه (أُمُّ سُلَيْمِ ابْنَةَ مِلْحَانَ) ، يعجب بها أبو طلحة، ويتقدم لخطبتها، لكن هناك مشكلة تحول دون ذلك لم يلتفت إليها أبو طلحة، تنبهه إليها (أُمُّ سُلَيْمِ) ، تقول له: " يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا مِثْلَكَ يَرُدُّ، وَلَكِنَّكَ امْرُؤٌ كَافِرٌ، وَ أَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ ، لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ، فَإِنْ تُسَلِّمَ فَذَلِكَ مَهْرِي لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ..!!" ٣١٤

تضع (أُمُّ سُلَيْمِ) بين أيدينا خبرًا طلبيًا مستدركًا بـ (لَكِنَّكَ) ، يقع بين نفيين، فجملة الافتتاح منفية، " مَا مِثْلَكَ يَرُدُّ،.. " ثم تأتب جملة مثبتة بأسلوب الاستدراك: " وَلَكِنَّكَ امْرُؤٌ كَافِرٌ "!!..

وهنا امرأة تخاطب رجلًا كافرًا، لا يهتمها من كماله وماله سوى دينه، وهو يجهل هذه الحقيقة، لكنه ليس معاندًا مكابرًا، ولذلك تسوق له خبرًا طلبيًا استدراكيًا تلفت به انتباهه إلى هذا الحكم الشرعي، المكوّن من حقيقتين: " وَلَكِنَّكَ امْرُؤٌ كَافِرٌ، وَ أَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ ، لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ،... " ، وتضع شرطها بناء على تعديل هذا الواقع بجملة شرطية،.. " فَإِنْ تُسَلِّمَ فَذَلِكَ مَهْرِي لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ..!!" ، فإسلامه مهرها، وقد علّق صاحب الخبر (ثابت) الذي نقل عن (أنس بن مالك)، "فَمَا سَمِعْتُ بِامْرَأَةٍ كَانَتْ أَكْرَمَ مَهْرًا مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ" ٣١٥ وهذا خبر طريف في سياقه!!..

أما خطاب (أُمِّ رَعْلَةَ الْفُشَيْرِيَّةِ)، حين جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: " إِنَّا ذَوَاتُ الْخُدُورِ، وَمَحَلُّ أَزْرِ الْبُعُولِ، وَمَرْبِيَاتُ الْأَوْلَادِ، وَمَمَهَّدَاتُ الْمِهَادِ.. وَلَا حَظَّ لَنَا فِي الْجَيْشِ الْأَعْظَمِ ، فَعَلِمْنَا شَيْئًا يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ " ٣١٦ ، فقد لا يرى الناظر في هذا الخطاب ولأول وهلة أي غلقة مباشرة بالحرب، هذا الخطاب المصوغ في هذا الخبر الطلبي المفتوح بأداة توكيد (إِنَّ)، ولكنه ينبض

٣١٤- أسد الغابة، لابن الأثير: ٣٦١/٢.

٣١٥- المصدر نفسه.

٣١٦- أسد الغابة، لابن الأثير: ٦ / ٣٣١. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، تح/علي محمد البجاوي: ٨ / ٢٠٤ .

بالحسرة المكتنفة لهذا الخطاب، لانحسار التكليف عن المرأة في الجهاد، فنفس التشوق للجهاد موجود هنا، فهي لا تعترض على التشريع الإلهي، بقدر ما تريد التعرف على طريقة تتسامى بها، وعمل يرفع من شأنها وقدرها عند الله تبارك وتعالى، خاصة وأنها امرأة عجوز ولا طاقة لها على ما يطقنه من يشتركن طوعاً في المعارك على النماذج التي مرت بنا سابقاً...!!

إنَّ أمَّ (رِغْلَةَ الْفُشَيْرِيَّةِ) ترى وتفانر مجمل هذه الأدوار العظيمة التي تقوم بها المرأة في حياتها، ثم لا شيء يوازي أجر المجاهدين، أو ترتقي بأدائها إلى مراتب المستشهدين، فجاءت تتساءل عن هذا الأمر...!! وقد ذكر في ترجمتها أنها امرأة بدوية، وإنَّ النَّفْسَ البدوي ليتضوع من خطابها تضوعاً...!!

الحِجْرَةُ الْإِنْكَارِيَّةُ:

وهو ما زادت أو تعددت فيه المؤكدات تبعاً لموقف المخاطب من موضوع الخطاب، إنكاراً ورفضاً وجحوداً، فيندفع المتكلم ويحتشد لإقناع المخاطب أو إفحامه، بحسب السياق وما يفرزه من أغراض أخرى...!! وسنحاول التقاط بعض نماذج المتنوعة السياقات، ومنها:

خطاب (أَرْوَى بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)، حين أسلم طَلَيْبُ بْنُ عُمَيْرٍ في دار الأرقم، ثم خرج، فدخل على أمِّه (أَرْوَى بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) فقال: تبعت محمداً وأسلمت لله، فقالت أمه: "إِنَّ أَحَقَّ مَنْ وَاَزَرْتَ وَعَضَدْتَ ابْنَ خَالِكَ، وَاللَّهِ، لَوْ كُنَّا نَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الرَّجَالُ لَمَنْعْنَاهُ وَذَبَبْنَا عَنْهُ".^{٣١٧}

وكذا الأمر حين جاءها أخوها (أبو لهب) لانما لها ومعنفاً إياها لدخولها في الإسلام، فقالت له: "قَدْ كَانَ ذَلِكَ، فَقُمْ دُونَ ابْنِ أَخِيكَ، وَأَعْضُدْهُ، وَأَمْنَعُهُ، فَإِنْ يَظْهَرُ أَمْرُهُ، فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ، أَنْ تَدْخُلَ مَعَهُ، أَوْ تَكُونَ عَلَى دِينِكَ، وَإِنْ يُصَبُّ كُنْتَ قَدْ أَعْدَرْتَ فِي ابْنِ أَخِيكَ".^{٣١٨}

إن هذين الخطابين محتشدان بعوامل التوكيد للنصرة، وحق لهما أن يكونا، نظراً للواقع الراهن آنذاك، وحيث إحساس سادة قريش بشيء من ميل أحدهم أو تعاطفه، وليس مجاهرته بالدخول في

^{٣١٧} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١١ / ٢١٢. انظر ترجمتها في: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، (ومعه الاستيعاب للقرطبي)، ٤ / ٢٢٢.

^{٣١٨} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١١ / ٢١٣.

هذا الدين، كان ذلك وحده كافياً لأن يجعل صاحبه ينفى من الوجود، وقصص التعذيب كثيرة وشهيرة ومحفورة في ذاكرة الأمة، وإن جاز لنا أن ننظر لذين الخطابين على أنهما وجهان لعملة واحدة، أي خطاب واحد، له الموضوع نفسه، والتركيب الإنكاري ذاته، إن اختلفت أو تشابهت أدواته، لنا أن نعد هذا الخطاب خطاباً مجاوزاً ومتحدياً ومتصدياً، من قبل امرأة تجد أن كل ما تستطيع فعله هو هذا النوع من النصر، تدفع بولدها وتشد على يده، وتحتوي الأخ الثائر الهائج المتصلب المتعنت، ولو إلى حين...!!

إن هذا الخطاب الإنكاري ليس موجهاً إلى الابن الذي أسلم وحده، فرحة به ودعماً له، لكنه موجه أيضاً لعوامل التثبيط والخوف والرعب، خطاب إنكار ومواجهة للواقع المحيط، حيث الكثرة والغلبة والقوة مع الطرف الغاشم الظلوم... فتأتي بسياق لغوي يوازي السياق العاطفي الخارجي المتعنت، هذا من جهة، وهو خطاب تثبيط لهذا الابن الجديد على هذا الدين، وما هو سوى شاب قد يخيفه شيء، أو يغيره شيء،.. إلخ، ولذا تحاول من طرف خفي أن تستثير حفيظته وحميته وغريزته الدفاعية، بقولها: إني امرأة، ولا أستطيع فعل ما يفعله الرجال في الخارج، وبالنظر إلى العالم الخارجي المصاحب، سنجد أن هذه المصارحة من الابن، كانت بعد جلبّة ومواجهة بينه وبين (أبي جهل) وجماعة من شباب سادة مكة لأنهم اعتدوا لفظياً أو ما شابه على سيدنا محمد، فانبى طلباً للدفاع عنه، وما كان منه إلا أن شجّ رأس أبي جهل، كما يذكر صاحب مختصر تاريخ دمشق، فأوثق طلباً وضرب، وحال دونه أبو لهب، لكنه سمع أن أخته قد دخلت في الإسلام، وكانت المواجهة بالخطاب الثاني...!! وهذه هي الخلفية الاجتماعية والعاطفية التي تخلق فيها هذا الخطاب اللغوي، ولذا يمكن القول بأن خطاب الإنكار هذا، كان إنكاراً لكل هذه العوامل مجتمعة...!!

فجاءت أدوات الإنكار في الخطابين متنوعة، (إن، القسم بلفظ الجلالة، واللام الواقعة في جواب القسم): "إِنَّ أَحَقَّ مَنْ وَارَتْ وَعَضَدَتْ ابْنَ خَالِكَ، وَاللَّهِ، لَوْ كُنَّا نَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الرَّجَالُ لَمَنْعُنَاهُ وَذَبَبْنَا عَنْهُ"

ويلاحظ بناء الخطاب المنزاح نحو التعبير الجمعي في النصف الأخير منه: "كُنَّا نَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الرَّجَالُ لَمَنْعُنَاهُ وَذَبَبْنَا عَنْهُ"، لتخبره -ربما- أن هناك ذاتاً جمعية نسوية محتشدة تمنعها الموانع من الإعلان عن نفسها، من جهة، وأنها بحاجة لمن يحميها من جهة أخرى، وهذا أدعى لثبات

طُلب على دينه ، واستبساله في الدفاع عن الممثل والمبلغ لهذا الدين، النبي محمد ﷺ ، تعنون له بـ "ابن خالك" تذكره الرحم، مبالغة في إثارة حميته وغيرته على دمه ونسبه...!!

وفي خطاب (أزوى بنت عبد المطلب) لأخيها، الذي يعد من أشد الخصوم وأعتاهم هو وزوجته، تلتبس التركيب ذاته، ولكن لغرض آخر، هو احتواء غضبه، مع إظهار نوع من الكياسة ، فنجد الخطاب هنا يغير الخطاب الأول من حيث اعتماده على الحجاج المنطقي الهادئ، والاستدلال العقلي الراجح، الذي يستل فتيل الغضب، وإن إلى حين، فتعتمد في بناء خطابها على طرح المقدمات، وفتح الخيارات أمام المخاطب، حتى لا يستشعر الحصار ، ويحس بأن الأمر بين يديه دون غضب أو ليّ ذراع، فيحتفظ بشيء من ماء وجهه، مما يطفى من نار غضبه ولو قليلا...!!

وبداية فإن (أزوى) لم تكذب عليه، بل أقرت بدخولها في الدين الجديد، "قَدْ كَانَ ذَلِكَ". وهي لا تقف عند حد الاعتراف، بل ومن قاعدة خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، تبني استراتيجية دفاعية مضادة، فتحته حثاً لا على الدخول في الدين الجديد، بل على إظهار المنعة والتأييد والحماية لشخص (محمد عليه الصلاة والسلام) كابن أخ، وليس كنبى، وله الخيار بعد ذلك في موقفه من هذا الدين الذي يدعو إليه، مذكرة إياه الرحم، "فَقَمُّ دُونَ ابْنِ أَخِيكَ، وَأَعْضُدُهُ، وَأَمْنَعُهُ، فَإِنْ يَظْهَرُ أَمْرُهُ، فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ، أَنْ تَدْخُلَ مَعَهُ، أَوْ تَكُونَ عَلَى دِينِكَ، وَإِنْ يُصَبِّحُ كُنْتَ قَدْ أَعْدَرْتِ فِي ابْنِ أَخِيكَ".^{٣١٩}، وتغرس بنية الإنكار (قد، أن، قد) في نسيج بنية الشرط، المناسبة في جملة أفعال الأمر ليخرج لنا هذا الخطاب العالي النبرة في تأثيره و انزياحاته الملحوظة نحو الإنشائية الدلالية التي عضدت مضمون هذا الخبر الإنكاري...!!

هنا سياق ما قبل الحرب، يروي شهود النساء (خبيبر) وحديث (المرأة الغفارية) ، ويوضح مجددا حرص المرأة على ألا تفوتها المشاركة في فضيلة الجهاد، وهن يعرفن تماما أن ليس عليهن فريضة قتال، ولذا فإنهن يقدمن الأدوار التي يعلمن أنها تناسب تكليفهن الشرعي ووضعهن كنساء، وفي أثناء الخبر، هناك سرد لما قد يعرض للمرأة - كامرأة - من عوارض، وشرح لبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بذلك، وما يهمننا هنا هو العرض و الطلب الذي قدمته هاته النسوة للنبي ﷺ ليسمح لهن بالمشاركة في هذه الغزوة، ولا شك أن المرأة التي تطلب هذا الطلب لا تنشد السلامة والدعة وإلا لكانت استقرت في بيتها، ولم تخرج لمواطن القتل والخطر، ولأن هاته النسوة يعتقدن أن الرسول ﷺ قد يرفض طلبهن

بحجة عدم وجوب القتال والجهاد على النساء، واكتفاء بالرجال، أتى السياق اللغوي للخبر سياقاً إنكارياً بأكثر من مؤكد (قَدْ، أَنْ)، يوضح وجه الإصرار على هذا المطلب، والخبر عن (نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ)، وحيث تبدو واحدة تتكلم بلسان الجميع، هذا من الأدب الذي لحظناه في تحدث النسوة إلى النبي ﷺ فلا يثرن لفظاً أو صجيجاً، أو تحسباً لعلو أصواتهن مع ذلك، فدائماً ما تنتدب واحدة تكون هي الناطق الرسمي باسم المجموعة، قالت: "... أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ إِلَى وَجْهِكَ هَذَا ، وَهُوَ يَسِيرُ إِلَى خَيْبَرَ ، فَنُدَاوِي الْجَرْحَى ، وَنُعِينُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا اسْتَطَعْنَا ... " ٣٢٠ ونرى كيف عمدت هاته النسوة إلى تعديد الأدوار، ثم تترك فسحة من الحرية والاستجابة للمستجدات في ساحة المعركة " وَنُعِينُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا اسْتَطَعْنَا .. "

ويستحضر خبر إنكاري آخر في سياق الحرب، يكتنف خطاب (أُمُّ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيَّةِ): "... تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ جَاوَزَ بَعِيرِي فَأَقْتُلْهُ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ مَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ بِنَا . " ٣٢١ فهي تستنكر من قسوة هؤلاء القوم، المشركين من جهة و المسلمين الفارين من القتال من جهة أخرى، فتسوق خبرها في بنية تركيبية إنكارية، متخذة من (إن) بمعنى (ما) النافية، و (القسم: الله)، المتواشجتين في بنية التقديم والتأخير، ذريعة لهذا الإنكار.. لتشكل جميعاً بؤرة دلالية في هذا الخطاب!!

وفي سياق الحرب، نقرأ هذا الخطاب الزاخر بالمؤكدات في خطاب (صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) وَ حَسَانُ وَمَا ذَكَرْتُهُ عَنْ جُبَيْهِ، نلحظه فيما تحته خط "...كَانَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي فَارِجٍ ، حِصْنُ حَسَانَ بْنِ ثَابِتٍ ؛ قَالَتْ: وَكَانَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ مَعَنَا فِيهِ مَعَ النَّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ . قَالَتْ صَفِيَّةُ: فَمَرَّ بِنَا رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ فَجَعَلَ يُطِيفُ بِالْحِصْنِ وَقَدْ حَارَبْتَ بَنُو فُرَيْظَةَ ، وَقَطَعْتَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَحَدٌ يَدْفَعُ عَنَّا ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي نُحُورِ عَدُوِّهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُمْ إِلَيْنَا إِنْ أَتَانَا آتٍ . قَالَتْ فَقُلْتُ : يَا حَسَانُ إِنْ هَذَا الْيَهُودِيُّ كَمَا تَرَى يُطِيفُ بِالْحِصْنِ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنَهُ أَنْ يَدُلَّ عَلَيَّ عَوْرَتِنَا مِنْ وَرَاعِنَا مِنْ يَهُودَ وَقَدْ شُغِلَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَأَنْزَلَ إِلَيْهِ فَأَقْتُلْهُ قَالَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُ مَا أَنَا بِصَاحِبِ هَذَا : قَالَتْ فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ وَلَمْ أَرْ عِنْدَهُ شَيْئًا ، اِحْتَجَزْتُ ثُمَّ

٣٢٠ - السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٤٢-٣٤٣، الروض الأنف، للسهيلى: ٤ / ٨٦-٨٧، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٢٠٤.

٣٢١ - المغازي للواقدي: ٣ / ٩٠٤. في خبر من ثبت من النساء في غزوة حنين.

أَخَذَتْ عُمُودًا ، ثُمَّ نَزَلَتْ مِنَ الْحِصْنِ إِلَيْهِ فَضَرَبَتْهُ بِالْعُمُودِ حَتَّى قَتَلْتَهُ . قَالَتْ فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْهُ رَجَعْتُ إِلَى الْحِصْنِ فَقُلْتُ : يَا حَسَانُ انزِلْ إِلَيْهِ فَاسْلُبْهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ سَلْبِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ . قَالَ مَا لِي بِسَلْبِهِ مِنْ حَاجَةٍ يَا بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .^{٣٢٢}

وهذه وصية (الخنساء) لبنيها في القادسية، حيث تصب جملة من المؤكدات على موضوع مفاجئ، على طهارة نسبهم من الدنس، وعلو شرفهم، وهذا يحيل الخطاب إلى مرجعية اجتماعية وأخلاقية تهيمن على العالم الخارجي من جهة، وإلى وجهة تاريخية من جهة أخرى حيث فخر الخنساء المبطن بமாثر أهلها و أمجادهم، وأن على الأبناء السير على المنوال ذاته، وألا يحدوا عنه، إذ إنهم فرع في تلك الشجرة المتفورة في أصول الفخار والشجاعة والبسالة والتهارة والعفة، خاصة من جهة نسائهم ، ومن جهتها هي حديدًا...!!

وتحيل قبل ذلك إلى أمر حيوي، وفي لمحة ذكية وواقعية ومنطقية تماما، أن المكان الذي هم فيه الآن (ميدان الجهاد)، إنما هو مترتب على خيارهم الطوعي الأول، كونهم اختاروا الإسلام دينا، واختاروا الهجرة طوعا، وبناء على ذلك فالجهاد ، هو فرض بناء على خياراتهم القبلية...!!

"يَا بَنِيَّ...، إِنَّكُمْ أَسْلَمْتُمْ طَائِعِينَ، وَهَاجَرْتُمْ مُخْتَارِينَ، وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَبَنُورَجُلٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنْتُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مَا خُنْتُ أَبَائَكُمْ، وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، وَلَا هَجَنْتُ حَسَبَكُمْ، وَلَا عَبَّرْتُ نَسَبَكُمْ، وَقَدْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ فِي حَرْبِ الْكَافِرِينَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدَّارَ الْبَاقِيَةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الْفَائِيَةِ..."^{٣٢٣}

ويُرد في هذا الخطاب اعتماد (الخنساء) على بنية التكرار في المؤكدات التي تتنوع: (إن، أن، و والله، قد) مما قوى المعنى ، يزيد من تأثيرها تلك البيئة اللغوية الحاضرة، المفعمة بالجرس المتعدد، واللغة البدوية الأخاذة، وأسلوب النفي الصارخ، وهي تراوح ذلك في مفاصل الخطاب، يتشابه أسلوب

^{٣٢٢} - السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٢٨.

^{٣٢٣} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤ / ١٨٢٧. أسد الغاية، لابن الأثير: ٧ / ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٢٨٧-

٢٨٨ - ٢٨٩. الوافي بالوفيات. صلاح الدين الصفدي: ١٠ / ٣٨٨-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص: ٢٢٠-

٢٢١. وانفرد ابن الجوزي في " صفة الصفوة ٤ / ٣٨٥"، بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزانة الأدب، للبغدادي: ١ / ٤٣٤، نقلا عن الاستيعاب.

البناء اللغوي بداية ومنتهى (خاصة في وصف الحرب)، لكنه في الوسط يتنفس لغة واضحة وهادئة، حيث تطول الفقر نوعا ما، وتنحو نحو بنية الطباق بشكل واضح...!!

أما (أسماء بنت عميس)، فيأتي خطابها في سياق ما بعد التهجير والحرب التي شنتها قريش على من آمن مع النبي ﷺ، فتوجه خطابا مضادا لعمر بن الخطاب، الذي فاجأها بموقفه بأنه سبق أهل السفينة بالهجرة، وأنهم أفضل من المهاجرين إلى الحبشة، وأحق برسول الله ﷺ منهم، مما أثار حفيظة (أسماء) فقالت "... كَلَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْعَمُ جَائِعُكُمْ، وَيَعْطَى جَاهِلُكُمْ، وَكُنَّا فِي أَرْضِ الْبُعْدَاءِ الْبُعْضَاءِ وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَذْكَرَ مَا قُلْتُ... وَسَأَذْكَرُ... وَاللَّهِ لَا أَكْذِبُ وَلَا أَزِيغُ وَلَا أَزِيدُ..."^{٣٢٤}

لا يمكن إدراك حجم الغضب والثورة اللذين اجتاحا (أسماء) إلا من خلال هذه التراكمات اللغوية المنزاحة إلى الإنكار، والرفض، والمواجهة والاندفاع ضد المخاطب، بحجم اندفاعه ضدها، على الأقل كما ترى هي وتقدير، بل بحجم المعاناة والحرمان والقهر والتشريد والاعتراب، والحرب في بلد غربة، هم فيها غريبو يد ولسان وعقيدة أيضا...!! و ربما هذ الخطاب الراض لمنكر جاء بقدر صدمتها فيمن ينكر عليهم ذلك، وهي تتكلم بلسان جمعي، لأن المخاطب شمل الجميع بكلامه...!!

هذا الخطاب الناري المفتوح بـ(النفى: كَلَّا)، الذي يقوي دلالة الإنكار بهذا الرفض، فالنفي موقف من الحياة والأشياء والوجود، وليس أداة اعتبارية، إنه موقف ضد السلب، موقف نابض بالحركة، والمواجهة، ثم يأتي سيل من المؤكدات: القسم (الله، ايم الله، اللام، قد، السين) في تركيب مستنفر على الصعيد اللغوي ليكون معبرا عن السياق العاطفي المستنفر والمستوفر، يتنوع في الجرس والإيقاع، من بنية سجع، إلى بنية طباق، إلى تشكيلات من الجنس الناقص، وبين معاني الخلو والامتلاء المادي والمعنوي...، مما يعطي لبنية الإنكار تأثيرها الدلالي المضاعف هنا...!!

^{٣٢٤} - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية: ٣ / ٣٣٢. البداية والنهاية. لابن كثير: ٤ / ٢٠٥.

ومن السياقات اللافتة التي تأتي في إطار الحرب الداخلية، وتسمى بـ(الفتنة) التي نتج عنها ذلك الحدث المأساوي المتجرب، حيث قُتل خليفة المسلمين (عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ)، يطير النبا الشؤم، تسمعه (أُمُّ سَلِيمٍ)، فتقول مستنكرة: "أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَحْلُبُوا بَعْدَهُ إِلَّا دَمًا." ٣٢٥

ولأنها تظن أن لا أحد يسمع لأحد في ضجيج الفتنة ولا أحد يأمن لأحد فيها، فهي تصوغ خبرها صياغة إنكارية لتوقع في أسلوب حصر وقصر يناسب مقام الحصر والقصر الذي فيهما الخليفة، بل والأمة بأسرها، بفعل مجزوم بأداة جزم (لم)، وصوغ الفعل بهذه الطريقة أوقعته بمنزلة الفعل الماضي، ولذلك دلالاته، حيث تأكيد وقوع الأثر الضار دون ريب أو شك...!!

وفي سياق ما بعد الحرب، تكشف (أُمُّ سَلَمَةَ) عن سياق مهم، هو مرآة ناصعة لمكانة المرأة من جهة، وللوضع الإنساني الذي يراعى فيه الرحم في أقصى المواقف، موقف الأسر حيث الذل والمهانة المترتبان على الهزيمة من جهة والوقوع في الأسر من جهة أخرى، فتبادر (أم سلمة) بترك كل ما يشغلها وتتفرغ لهذه المهمة الجوهرية بالنسبة لها، وهي أولى ببني عمها، ولكنها لا تتخذ قرارا إلا بعد مشاورة النبي الرسول ﷺ، وليس الزوج فقط، فهي تناديه بصفة الرسالة ولذا لا يخذلها الرسول ﷺ، وهنا تناص فعلي مع النص اللفظي للقرآن الكريم، في قوله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} ٣٢٦، فهي لا تقطع أمرا، ولا تهتم بفعل دون الرجوع إلى الرسول ﷺ تقول: " يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بَنِي عَمِّي طَلَبُوا أَنْ يَدْخُلَ بِهِمْ عَلَيَّ فَأُضِيفَهُمْ وَأَدْهَنَ رُءُوسَهُمْ وَأَلَمَ مِنْ شَعَثِهِمْ وَلَمْ أَحِبَّ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّىٰ اسْتَأْمَرَكَ." ٣٢٧ ويتجلى هذا الخبر الإنكاري بتكرار الأداة (إن، أن) على مساحة هذا الخطاب ..!

وفي السياق نفسه، سياق ما بعد الحرب، نتوقف عند ما يسمى بحديث الإجارة، هو ما ترويه (أُمُّ هَانِيٍّ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ)، وذلك في غزوة فتح مكة، وقد أجازت حمويين لها، فاعترضها أخوها عَلِيُّ بْنُ

٣٢٥ - البداية والنهاية، لابن كثير: ١٩٥/٧.

٣٢٦ - النساء/ ٦٥.

٣٢٧ - المغازي للواقدي: ١/١١٨. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ١٩٦.

أَبِي طَالِبٍ، وَحِينَ نَظَرَ إِلَيْهِمَا شَهَرَ السَّيْفَ عَلَيْهِمَا، فَحَالَتْ دُونَهُمَا وَقَالَتْ: "وَاللَّهِ لَتَبْدَأَنَّ بِي قَبْلَهُمَا...!!"
 ٣٢٨ ، فَأَجَازَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِجَارَتَهَا وَأَنْفَذَهَا..!

يا للإصرار والعزيمة والقوة والثبات، بل والوفاء أيضا، فقد طلب الاثنان جوارها، و قد أنعمت عليهما به، حين قالت: " نَعَمْ أَنْتُمْ فِي جَوَارِي "، وليس مثلها من ينقض شرف كلمته ولو على حدّ السيف، كانت مستعدة لأن تفدي جوارها بروحها، فهذا الجوار أصهار وأرحام وأنساء أيضا...، وهي وإن كانت على الإسلام، لكنها لن تنقض ذلك كله...!!

تجلى هذا الإصرار وتلك الفدائية في هذا السياق اللغوي الخبري المشتمل على ثلاثة مؤكدات في كلمتين:(القسم بلفظ الجلالة، لام التوكيد،نون التوكيد الثقيلة): "وَاللَّهِ لَتَبْدَأَنَّ بِي قَبْلَهُمَا...!!"، إن هذه المؤكدات قد أماطت اللثام عن هذا الهدير الغاضب الذي سيطر على مساحة هذا الخطاب المقتضب ، وهي لم تكف بذلك بل ذهبت شاكية لرسول الله ﷺ الذي أقر جوارها، وَأَمَّنَ مِنْ أَمَّنْتَ...!!

وهذا سياق طريف آخر لما بعد الحروب التي نشبت بين المسلمين والكفار، وعلى الرغم من انقضاء المدة ومرور الزمن لا يزال في النفس أضغان وأحقاد، نتيجة القتل المتبادل الذي كان بأثر رجعي منذ الحروب الأولى في الجاهلية وبداية الإسلام، وتبرز هذه النظرة الطبقيّة والنصرة اللتان ما زالتا مترسختين، حيث السادة والعبيد، وحيث عدم نسيان الثأر، في هذا الخطاب المتشنج بين طرفي الخطاب:(الرَّبِيعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ) و(أَسْمَاءُ بِنْتُ مُخْرَبَةَ) ، فلما عرفت (أَسْمَاءُ) (الرَّبِيعِ) قالت لها: "وَإِنَّكَ لِأَبْنَتُهُ قَاتِلِ سَيِّدِهِ ؟ قَالَتْ قُلْتُ :لَا، وَلَكِنْ ابْنَةُ قَاتِلِ عَبْدِهِ . قَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَبِيعُكَ شَيْئًا أَبَدًا.فَقُلْتُ:وَأَنَا ، وَاللَّهِ لَا أَشْتَرِي مِنْكَ شَيْئًا أَبَدًا، فَوَ اللَّهِ مَا هُوَ بِطَيْبٍ وَلَا عَرَفٍ، وَاللَّهِ يَا بَنِيَّ مَا شَمَمْتَ عَطْرًا فَطَّ كَانَ أَطْيَبَ مِنْهُ وَلَكِنْ يَا بَنِيَّ غَضِبْتَ." ٣٢٩

٣٢٨ - المغازي للواقدي: ٢ / ٨٣٠. في غزوة الفتح. السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٤٥٢-٤٥٣. الروض الأنف، للسهيلي: ٤ / ١٦٩-١٧٠. زاد المعاد. فصل [الأبدلة على أن مكة فتحت عنوة] ، لابن القيم الجوزية: ٣ / ١١٠. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١٧١/٦. وحمواها : عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، والحارث بن هشام .

٣٢٩ - المغازي. للواقدي: ١/٨٩. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨/٢٤٨. ويذكرها ابن الأثير: صاحب أسد الغابة، في ترجمة عياش بن أبي ربيعة. ٤/٣٠٨، و٧/٩، ١٠، ١٤ ، والحكاية ترويتها (الرَّبِيعِ بِنْتُ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ)، حين ذهبت تشتري عطرًا من (أسماء)، وقد قتل أبو الربيع والد أسماء، فقالت لها أسماء لما عرفتها: "وانك..."

ويُرى هنا جملة المؤكّدات التي تنم عن حجم الإنكار والرفض لهذا الواقع الراهن: (إنّ، لام التوكيد، القَسَم بلفظ الجلالة :الله)، النفي (لا النافية، أبداً)، يحمل في طياته استفهاماً، فيه قدر كبير من الاستغراب وقدّر آخر من الجراءة والتعدي إذ كيف تأتي وقد قتل أبوها أبا أسماء. " فقالت أسماء: حلقي، وإنك لأبنة قاتل سيده؟ " ٣٣٠

حيث تستنكر (أسماء) على (الربيع) أن تكون بهذه الجرأة فتأتي لتشتري منها وقد قتل أبو الربيع والد أسماء، وهو يشي بأن هذه المرأة لازال فيها نعمة من جاهلية، وتحرق للنار من جهة، وللطبقية الجاهلية الذميمة التي قسمت المجتمع إلى سادة وعبيد...!! وقد قاومت رغبتها الشديدة في اقتناء العطر نظراً لهذا الموقف من (أسماء)، فالكرامة فوق الرغبات الشخصية. ويلاحظ تقوية الإنكار بالنفي المتكرر .

خُرُوجُ الْخَبْرِ عَنِ الْمُقْتَضَى الظَّاهِرِ :

إنّ الغرض العام من الخطاب هو الإقناع بموضوع الخطاب تارة، وبموقف المتكلم من موضوع الخطاب تارة أخرى، أو إقناع المخاطب بالأمرين معاً، ولذلك كله يتخذ المتكلم موقفاً لغوياً في تخير سياقات لغوية تعينه على ذلك وتبرز غايته منه، ولذا قد يرى المتكلم أن يخرج بالخطاب عن مقتضى الظاهر في الخبر لتتحقق له هذه الغاية، فقد يكون المخاطب منكرًا للخبر مثلاً لكن المتكلم يرى لسياقات معينة أن يعامله معاملة خالي الذهن من الخبر، أو المتردد في قبول الخبر محققاً بذلك أيضاً أبعاداً جماليةً على خطابه شكلاً ومضموناً ، ومن أمثلة ذلك :

إنزال المنكر منزلة خالي الذهن من الخبر :

وقد يقتضي السياق انزياحاً أسلوبياً في سوق الخبر الإنكاري على صورة الخبر الابتدائي خالياً من المؤكّدات، وذلك على غير الظاهر، لأن المتكلم لا يريد الاعتداد بإنكار المخاطب للخبر، فيتجاهل هذا الإنكار ، فينزل المنكر منزلة خالي الذهن من الخبر، ومن أمثلة ذلك :

خطاب (أُمُّ سُلَيْمٍ ابْنَةُ مِلْحَانَ) يوم (حُنَيْن) مع هوازن، إلى رسول الله ﷺ، يراها على أطراف الميدان تخذل الفارين، وتقتحم الساحة من حيث يفرون، فيعجب من ثباتها، وهي في هذا الدفاع المستमित تتخذ أسلحة أولها هذا الجمل الذي تمسك به من خزامته، ومعروف أن موضع الخزامة هو الأنف، فهي تخضعه قسرا بالضغط عليه لأنه كان فزعا نافرا من الوضع العام، حيث يهرب المسلمون، فيحدث الهرج والمرج، وبينما هي تريد الدخول إلى ساحة المعركة، كان الناس يفرون في حركة مضادة أفزعت الجمل، فخافت أن يشردها منها، ويناديها رسول الله ﷺ فترد مفدية له بالأب والأم: " أُمُّ سُلَيْمٍ ؟ " قُلْتُ : نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْتُلْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْهَضُونَ عَنْكَ كَمَا تَقْتُلُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكَ... " ٣٣١

فيلحظ هذا الانحراف الأسلوبي اللافت، حتى إنها لا تنتظر سؤاله، بل تتوقعه وتجيّب عنه، وكأنه لا يدري عما تفعله، فهو خطاب أنزلت فيه المخاطب منزلة خالي الذهن من الخبر، فتسوقه خالياً من المؤكّدات، بينما المخاطب يشرف على المشهد ويرى تفاصيله أكثر منها!!

وربما يكون سياق الخطاب معكوسا على صعيد الانفعال العاطفي، حيث يبدو عدم الوضوح وتشويش الرؤية الذهنية، فأحيانا وفي حالات الصدمات والأحداث الكبرى المربكة، قد يذهل المرء عن نفسه، فيخاطبها في شخص الآخر، لأنه حقيقة لا يدري ما يفعل على وجه التحديد، وفيما إذا كان ما يفعله صواباً أم لا.. فكأنها هنا تلتمس تصريحاً بالإذن تقدم عذرها وتبريرها لما تفعل في الميدان، خشية عدم صوابه، أو عدم صحة القرار الذي اتخذته في هذه اللحظة الفارقة الحاسمة..، فتنزاح بخاطبها نحو عدّ المخاطب خالي الذهن عن الخبر لتعبّر هي عن وجهة نظرها وكأنها تناقش أفكارها بصوت عالٍ!!

ومرة أخرى، ومن (أُمِّ سُلَيْمٍ) نفسها، يلمح زوجها خنجرا في يدها يوم أحد، فيسألها ما هذا..؟؟ فنقول: " خَنْجَرٌ أَخَذْتَهُ مَعِي، إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعَجْتُهُ بِهِ " ٣٣٢

إن سؤال الزوج هنا دالّ على الإعجاب والتعجب، واستنطاقها عن مكنونات نفسها، وربما كان ذلك أنساً بما تفعل، أما جوابها، فيتجاوز هذا المنحى، مغيرة وجه السؤال، متجاهلة علمه بما تفعله، أو

٣٣١- الروض الأنف للسهيلى : ٤/ ٢١٥-٢١٦ .

٣٣٢- المغازي للواقدي: ٣/ ٩٠٣-٩٠٤. في غزوة حنين. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/ ٧٦-٧٧. السنة الثامنة. السيرة النبوية لابن هشام. ٢/ ٤٤٧. الروض الأنف للسهيلى: ٤/ ٢١٥-٢١٦. البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ٣٢٧. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤١.

متجاهلة استنكاره بما تقوم به، وتجيبه على ذاك النحو الذي جاء في الخطاب، ونرى أنها عمدت في جوابها إلى الاختصار بحذف المبتدأ، فلم تقل في جوابها مثلاً: (هذا خنجر)، مراعاة لسياق الحرب والالتحام، ولهات الموقف..!!

أما هذه (المرأة) التي تزوجت قاتل أبيها، فلها موقف طريف تعبر فيه عن غيظها ونقمتها من زوجها، فتنزل نفسها مرارا وتكرارا منزلة الجاهل وخالي الذهن من الخبر، لتغيب زوجها وتضايقه بقتله أباهما، وهذا أضعف الإيمان، الطريف في الأمر هو هذا التساؤل المشروع: ما الذي دعا أحدهما ليتزوج الآخر، ما السياق الاجتماعي الملح الذي دفعهما دفعا ليكونا تحت سقف واحد مع كل هذه المشاعر المكبوتة، ومع هذا التاريخ الدموي الذي لم تستطع الزوجة تحديدا، بوصفها بنت المغدور، أن تتجاوزه، وتذكر به دائما، كانت تقول له كلما رآته: "لَاعَدِمْتُ رَجُلًا وَشَحَكَ هَذَا الْوِشَاحَ." "أي ضربك هذه الضربة في موضع الوشاح" ٣٣٣.. ٣٣٤

والتوشح الذي هو من سمات ما تتحلى به المرأة، ثم انتقل إلى الرجل ولبسه، "هو أن يدخل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه على منكبيه الأيسر كما يفعل المحرم" ٣٣٥

ولا شك أن هذا الخبر المنحاز نحو الدعاء هو دعاء على سبيل المجاز، لأن المدعو له كان قد قُتل منذ زمن، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فهي لا تزال موعرة الصدر على زوجها لقتله أبيها، فتريد أن تكايد وتناكده بهذا الدعاء.. ويحكم على هذا الخطاب بالانفلات والانزياح نحو المجاز لأنها ذكرت الوشاح، وهي تريد ما يجاور الوشاح، وهو موضع الضربة نفسه!

وفي هذه الصورة المجازية، أيضا التفات نحو التهكم والسخرية، لأن الضربة بالسيف تشوه المضراب، بينما الوشاح هو نوع من التجمل في الأساس، فكان أثر هذه الضربة قد أقر عينها كلما

٣٣٣ - اللسان: (وشح).

٣٣٤ - البداية والنهاية: لابن كثير: ١٤/٦. وصاحب هذه رواية حبيب بن أساف قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا ورجل من قومي في بعض مغازيه فقلنا: إنا نشتي أن نشهد معك مشهدا. قال: "أسلمتم؟" قلنا: لا. قال: "فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين". قال: فأسلمنا، وشهدت مع رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله عليه وسلم فأصابني ضربة على عاتقي فجافتني فتعلقت يدي، فأتيت رسول الله ﷺ عليه وسلم ففتل فيها وألرقها فالتأمت وبرت، وقتلت الذي ضربني، ثم تزوجت ابنة الذي قتلته وضربني فكانت تقول: "لَا عَدِمْتُ رَجُلًا وَشَحَكَ هَذَا الْوِشَاحَ." فأقول: لا عدمت رجلاً أعجل أباك إلى النار.

٣٣٥ - اللسان: (وشح).

رأته، يذكرها بمآثر والدها المقتول، ويأن القاتل ليس بأفضل منه، وكأنها تلمح إلى نقصه وهفوته اللتين تلقاه بهما من خلاله الضربة حتى كادت يده أن تقطع..!

إنزال المُخاطَبِ مَنْزِلَةَ الْمُكْرِ:

ونماذج هذا النوع من خطابات المرأة في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام أكثر من سابقه، ونمثل له بخطاب (امرأة من بني غفار)، "قَالَتْ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ إِلَى وَجْهِكَ هَذَا ، وَهُوَ يَسِيرُ إِلَى خَيْبَرَ ، فَنُدَاوِي الْجَرْحَى ، وَنُعِينُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا اسْتَطَعْنَا ... " ٣٣٦

إن أدب الخطاب مع النبي ﷺ، لا يليق أن نقول بأن هاته النسوة، يفترضن أن النبي ﷺ لا يعلم عما يخبرنه به، لكن احتمالهن إنكاره عليهن، ما يحاولن الإقدام عليه هو ما يجعلهن يسقن خبرهن هذا على هذا النحو من الانزياح إلى استعمال أدوات التوكيد: (قد، أن)، أضف إلى ذلك تكرار (نا) الدالة على الفاعلين، أو (نون المضارعة)، أو حتى اسم الإشارة (هذا) لتحديد الوجهة المشار إليه، كل ذلك لتحقيق غاية الخطاب وهي إقناع المخاطب بضرورة الاستجابة لمطلبهن، وإعلامه بإصرارهن، ومعرفتهن التامة بالأدوار التي يجوز لهن القيام بها دون تجوز..!

أما خطاب (صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) لحسان بن ثابت في حصن فَارِجٍ، فله شأن آخر، وحيث هي تراقب، مَرَّ رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ فَجَعَلَ يُطِيفُ بِالْحِصْنِ فَقَالَتْ لِحَسَّانَ : " يَا حَسَّانُ إِنَّ هَذَا الْيَهُودِيَّ كَمَا تَرَى يُطِيفُ بِالْحِصْنِ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنَهُ أَنْ يَدُلَّ عَلَيَّ عَوْرَتِنَا مِنْ وَرَاءِنَا مِنْ يَهُودَ وَقَدْ شَغَلَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَأَنْزَلَ إِلَيْهِ فَأَقْتُلْهُ "، فلم يستجب لها، فذهبت وقتلته، فلما فرغت منه رَجَعَتْ إِلَى الْحِصْنِ فَقَالَتْ: "يَا حَسَّانُ انْزِلْ إِلَيْهِ فَاسْأَلْنِي فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ سَلْبِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ "، فرفض أيضا، ما عسى امرأة في موقف (صَفِيَّة) أن تفعل مع رجل ك(حَسَّان)، في سياق حربي حرج كهذا..!!!؟؟

ف(صَفِيَّة) لا تستطيع عملياً أن تفعل به شيئاً، لكنها تستطيع تفريغ غيظها وأزمتهما، في تركيب لغوي يشي بنبض عالمها العاطفي الذي تحاول التحكم فيه لصالح العالم أو الواقع الخارجي الدقيق والحرج، لكن هذا الانزياح باللغة نحو البنية المعتمدة على جملة مؤكدات تشحن بها خطابها، من شأنه

أن يفصح المخبوء ، تحت السطح، فهي تنزله منزلة المنكر لخطابها، رغم أن كل ما يفعله هو عدم المجازفة بنفسه، فهو لا يعارضها في شيء إلا على هذا المستوى فقط، إنه لا ينكر استنتاجاتها، ولا فعالها، فهو يعرف أنها على حق، ولكن ما الذي تستفيد منه ومن في الحصن كونه يعرف أنها على حق ، بينما قد يقنع فريسة للعدو من جهة، ويكشفن ظهر المسلمين من جهة أخرى، ويقنع مع الصبيان في الأسر، وقد يفتنون في دينهم ..!؟!! هذا كله وغيره جعلها قسرا تخاطب (حَسَان) مخاطبة المنكر لجملة الأمر وتفصيله، وتسوق له خطابا مدججا بأدوات التوكيد التي تفرعه بها قرعا..!!

وهذه (أَزْدَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ)، في خطاب توجهه إلى صويحباتها، الواقعات في الأسر معها، لكنها تعلم أن ما تطلبه يحتاج لهمة كبرى، وشجاعة عظيمة، فتسوق خبرا تحريضا تشجيعيا لهاته النسوة، تطعمه بأدوات توكيد، حيث تثبت في نفوس المخاطبات الثقة والافتناع بالخطاب من جهة أولى، بينما تثبت مقدار ما تعتقده المتكلمة/ المرسل (أَزْدَةُ) في المخاطبات من فرعهن و خوفهن مما هنّ فيه، من جهة ثانية، أو عدم وعيهم بطرق القتال حيث لا أسلحة ولا غيرها، من جهة ثالثة، وحيث معطيات الواقع والعالم الخارجي تعمل ضد هذا الخطاب جملة وتفصيلا، من جهة رابعة، فهذا الخطاب، في الواقع ينزل العالم المحيط بمجمله منزلة المنكر، ولذا بُنِي بنية مواجهة لغوية مبدئية ، لتحويله لفعل إنجازي في المرحلة التالية، تقول: " إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ، وَلَا آمَنُ أَنْ يُخَالِفُوا إِلَيْنَا، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَمْنَعُنَا، وَأُخْرَى أَخَافُ أَنْ يَكْثُرَ الْعَدُوُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَهْزِمُونَهُمْ، فَلَوْ خَرَجْنَا لِأَمْنًا مِمَّا نَخَافُ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَدُوِّ إِلَيْنَا، وَيَظُنُّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّا عَدَدٌ وَمَدَدٌ أَنَّى الْمُسْلِمِينَ فَيَكْسِرُهُمْ ذَلِكَ وَهِيَ مَكِيدَةٌ."^{٣٣٧}

ولا شك أن هذه المؤكدات المشار إليها، إنما ازدادت فاعليتها من خلال تضافر باقي عناصر الخطاب، من حيث جرسه العام، وبنيته الطباقية الخاصة، وجرس الجناس المتواتر بين كلماته، والذي يمنح هذا التركيب صبغته التحذيرية التحريضية الخاصة..!!

ومن مشهد قتالي آخر، يأتيها هذا الخطاب، تنقله (أُمُّ تَمِيمٍ زَوْجُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ)، وهي ترقب مجريات المعركة، ومنعطفاتها الحرجة ، تقول:

^{٣٣٧} - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٣-١٥٤. ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/ ٥٩٦- ٥٩٧. سنة ١٤ هـ. في القادسية.

" كُنْتُ فِي جَمَاعَةٍ نُسُوَةٍ مِنْ مَذْحِجٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ وَالْخَيْلِ تَطِيرُ بِنَا طَيْرًا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى الْغُبَرَةِ وَالْقِتَالِ وَنَظَرْنَا الْأَسِنَّةَ وَالصَّوَارِمَ تَلُوحُ فِي الْقِتَالِ كَأَنَّهَا الْكَوَاكِبُ ، وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ حِسٌّ يُسْمَعُ ، قَالَتْ : فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ وَقُلْنَا أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ وَقَعَ بِهِمْ عَدُوُّهُمْ . " ٣٣٨

إنَّ الجزء الأول من خطابها، هو خطاب سردي إخباري ابتدائي، ينحاز في تركيبه اللغوي نحو البنى التصويرية، الممثلة لمشهد المعركة، حتى إذا توجست خيفة على مصير المعركة، وعلى موقف المسلمين منها، انتقلت إلى الخطاب الإنكاري، والذات التي يقع عليها هذا الخطاب، هي الذات النسوية الخائفة المضطربة، فأنزلت هذه الذات الجمعية النسوية منزلة المنكر، فسأقت خطابا تذييليا مستدعية أكثر من مؤكد: (أَنَّ، قَدْ)، مقوية ذلك بضمير الجمع للغائبين الذكور (بِهِمْ، عَدُوَّهُمْ)، هذا الإنزال جاء دفعا لسوء توقعاتها، وشؤم إنذارها لمجريات المعركة، ومصير المسلمين فيها..!!

أَمَّا (عَفْرَةُ بِنْتُ غِفَارِ الْحَمِيرِيَّةِ)، فتسوق بين يدي خطابها المبني لغرض إظهار النصر والتأييد، وبث الحماسة والتشجيع، جملة من المؤكدات: (القسم: وَاللَّهِ، أَنْ . مكررة، لام التوكيد في جواب القسم . مكررة، نون التوكيد. مكررة) تقول: " أَيُّهَا الْأَمِيرُ.. وَاللَّهِ لَا يُفْرِحُنَا إِلَّا أَنْ نَمُوتَ أَمَامَكَ، فَلِنَضْرِبَنَّ وَجْوهَ الرُّومِ، وَ لِنُقَاتِلَنَّ إِلَى أَنْ لَا تَبْقَى لَنَا عَيْنٌ تَطْرَفُ، وَاللَّهِ مَا نُبَالِي إِذَا رَمَيْنَا الرُّومَ كُلَّهُ. " ٣٣٩

لاشك أن الذات المتوجه إليها بهذا الخطاب المكتسح بأدوات التوكيد الغنية والمتنوعة ، والمكررة، في الوقت نفسه، لن يكون القائد الذي وثق بهاته النسوة، وأولى لهنَّ هذه الأدوار الدفاعية، وليست النسوة ذاتهن لأنهنَّ بادرن بالمشاركة في هذه الموقعة وغيرها، وعندهن من الخبرة ما عندهن، كيف لا، وواحدة منهن هي (حَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَارِ)، أو شريكها في النضال صاحبة هذا الخطاب ..، فإذن لمن يوجه هذا الخطاب..!!؟؟

إنَّ وجهة هذا الخطاب هو العالم الخارجي، العدو المنتصب أمامهم، بعده وعديده، وصوارمه وحديده، ذات أخرى خارجية مجابهة ومتحدية، وناظرة باستصغار لدور النساء في الحرب وقدرتهن على المشاركة في الحراب والضرب.. تنزلها إنزالا قسريا منزلة المنكر!!

٣٣٨ - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ١١٦. في حروب الردة ومعركتهم مع جيلة بن الأيهم . وفتح قنسرين.

٣٣٩ - فتوح الشام. الواقدي: ١ / ٥٢.

من هذا المنطلق قد يجد الناظر في هذا الخطاب مبررا منطقيًا لهذا الاحتشاد الإنكاري، حين يكون منصبا على العدو، فلا غرو ولا غرابة...!!

ومن خلال النماذج المقتطفة من خطاب المرأة النثري في سياق الحرب، في عصر صدر الإسلام، نلاحظ تفاوت هذ المخزون من أنماط الخبر بأنواعه الثلاثة، فبينما نجد توسعا في النمطين الأول (الابتدائي)، والأخير (الإنكاري)، نجد شحًا في النوع الثاني منه (الطلبى)، هذا الموقف المراوح (بين بين)، إن جاز التعبير ليس متسقا مع موقف المرأة من هذا السياق بتداعياته المتنوعة، بينما النمط الأول، يطفو على ساحة هذا الخطاب، لأن المرأة تحولت بفعل متغيرات اجتماعية، وعسكرية، إلى ما يشبه المراسلة الحربية، بتعبير اليوم، على صعيد أحداث المعارك، أو قسمة الغنائم، أو روايات عن النبي ﷺ فيما يشرع في هذا الصدد أو غيره، حتى إذا ما انتقلت إلى وجهة أخرى بغاياتها ومتطلباتها، أنجزت خطابا إنكاريا يتناسب وطبيعة مطالبتها بالمشاركة في الجيش أو الجهاد، أو حين تضطر أن تكون وسط النقع والوطيس، تجابه عالما قاسيا فظا، دمويا، البقاء فيه للأقوى، لا على مستوى القدرات الجسدية والوجود الفيزيائي فقط، بل على صعيد الصمود العقدي والبأس المعنوي، أيضا، نجد خطابها هذا يجلجل ويزمجر، ويقرع الأسماع بانزياح أسلوبى قوي نحو الإنكار الموجه للذات المتغلبة، المتحدية...!!

وعلينا التنويه إلى أن الخطاب الإنكاري الموجه إلى شخص النبي الكريم ﷺ، لم يكن هذا الإنكار موجه إلى شخصه ﷺ، بل يُحال الإنكار - تأدبا بلا شك - نحو وجهة خارجية هي الموضوع نفسه، أو المشهدية الحاضرة حول النبي ﷺ، أو حول ذات معنوية هي الرغبة في تقاسم الأجر والمثوبة من المشاركة في سوح الجهاد...!!

واليقين المنجز على هذا المستوى من الخطاب بأنماطه الثلاثة في العملية الاتصالية، إنما هو كونه مساقا لغرض إقناع المخاطب ليقبل الخبر أو ليصدق، أو ليقتنع بموقف المتكلم من موضوع هذا الخبر، أو لإظهار موقف طرفي العملية الاتصالية (المرسل/ المرسل إليه) من الخبر، ومدى مواعمة ذلك أو مخالفته للعالم الخارجي، أو اتساقه مع العالم الذهني لهما...، وأخيرا.. فإن أدوات التوكيد في الأخبار الطلبية والإنكارية إنما تفيد ضربًا من المبالغة في الإقناع بهذا الخطاب...!!

الخطابُ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ وَبِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ

أثبتت الدراسات أن هناك فرقا بين الإخبارِ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ وَبِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، نَبَّهَ ابن الأثير إلى هذا الباب، وهو التناوب في استعمال الخطاب بالجملة الاسمية والجملة الفعلية لتحقيق غرض معين، غالبا ينحو إلى ضرب من التوكيد والمبالغة. ^{٣٤٠} وقد لوحظ في هذه الخطابات المختلفة التي أنتجها هذا السياق المخصوص (سياق الحرب) تناوب ورود الجمل الفعلية والجمل الاسمية .. فما دلالة هذا الورد...؟؟

الخطابُ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ:

ونحاول الوقوف على بعض نماذج هذا الخطاب (الخطاب بالجملة الاسمية)، الوارد في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، و تتبع اندياحاته الجمالية شكلا ومضمونا، ودلالته الظاهرة أو المستترة على أنواع الحرب النفسية والعسكرية..!

في إطار الحرب النفسية و الاعتداء الجسدي بل والتصفية الجسدية، التي تعرض لها النبي ﷺ ومن آمن معه في المرحلة المكية، حيث عزَّ الناصر، وشخَّ المعين، على المستويين المادي والمعنوي، نجد هذا الخطاب اللافت للسيدة (أروى بنت عبد المطلب)، حينما صارحها ابنها (طُئيب) بأنه قد أسلم واتبع دين محمد ﷺ، وأنه في تلك اللحظة المفصلية الحرجة قد جاهر بهذه النصره ، بل وأوذي فيها، وحينما ليمت على ذلك قالت: " خَيْرُ أَيَّامِهِ يَوْمٌ يَدُبُّ عَنِ ابْنِ خَالِهِ وَقَدْ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ." ^{٣٤١}

فقد عمدت (أروى) إلى افتتاح خطابها المنتصر بجملة اسمية منفتحة على الاستمرارية والثبات: " خَيْرُ أَيَّامِهِ..." معقبة ذلك بظرف زمان يواتي تلك الديمومة المبتغاة للنصرة وثباتها في آن، لكنها حينما جاءت إلى الذب والدفاع، تخيرت جملة فعلية مضارعية، تميل إلى افتراض تجدد النصره والذب كلما دعت الحاجة على أساس ثبات الموقف الأول..!!

^{٣٤٠} - انظر: المثل السائر، لابن الأثير: ٢ / ٢٣٤ .

^{٣٤١} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١١ / ٢١٣ .

وهذه (السَّمِيرَاءُ بِنْتُ قَيْسٍ)، التي كان لها ابنان يشتركان في المعركة ويجاهدان في سبيل الله، ومع ذلك لم تسأل عنهما، وظل فؤادها متعلقا بما فعل رسول الله ﷺ، فلما اطمأنت إلى سلامته، وقد رآته رأي العين قالت: "كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَلَلٌ ."، وحينما سئلت عنه بعد ذلك قالت: "أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ، بِحَمْدِ اللَّهِ فَبِخَيْرٍ لَمْ يَمُتْ وَاتَّخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ شُهَدَاءَ" ^{٣٤٢}، يأتي جوابها هذا وهي تحمل ابنها على ناقة مكفنين وقد استشهدا في المعركة..!!

تم استدعاء التركيب الاسمي لهذا الخطاب، للتعبير عن هذا المضمون بالتحديد، وهي أنّ السلامة المطلقة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لها الأولوية، والتقديم على كل أحد، قريب أو بعيد، وهذه المرأة لا تتشدد بذلك بل أثبتته على مستوى الواقع العملي، ويأتي تخير لفظة (كُلُّ) لتعطي هذا الزخم والدفع للمعنى المنشود، حيث تعطيه معنى التوكيد، فهي من ألفاظ العموم أيضا، فالتعميم هنا لإثبات الخصوص المتعلق بسلامة النبي ﷺ، وعموم كون كل مصيبة بلا استثناء هي صغيرة، إذا سلم النبي ﷺ من كل شر..!! و هذا ما أوحى به هذا التركيب الاسمي الذي أعطى هذا المعنى الثبات والديمومة ولفظة (كل) التي لعبت دورا محوريا في مفتتح هذا الخطاب وفرضت هيمنتها العمومية على باقي معطياته..!

وكذا تعدد مرة أخرى إلى استعمال تركيب اسمي يحمل مضمون البشارة بسلامة النبي ﷺ وثبات ذلك الخبر، تأتي أهمية هذا التركيب الاسمي إذا تعرّفنا إلى السياقات المصاحبة لذلك الحدث، خاصة فيما يعرف اليوم بالحرب النفسية، ومن أهمها إطلاق الشائعات، تحديدا فيما يتعلق بسلامة القائد الأعلى، الذي تعد سلامته خط الدفاع الأول بالبعدين العسكري و الاستراتيجي، ولذا أشيع وقتها بأن النبي ﷺ قد قتل، وبذا يكون لتخير التعبير بالجملة الاسمية وجاقتها في هذا السياق..!!

كانت (ذَرَعَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ) فوق التلّ، حيث تحتمي النسوة هناك، لكنها تلحظ أمرا غريبا في سير المعركة، ولم يكن أبدا في صالح المسلمين، تتفحص فلا ترى القائد، وترى معسكر المسلمين إلى تراجع، وصفوفهم إلى شتات، ولأنها تعرف أهمية القائد، ومسؤوليته أيضا، كان هذا أول سؤالها، ولأن صموده وحكته هما ما يدير المعسكر بمن فيه، انحدرت من التلّ، وقد تفاز المسلمون، وهي تقول: "مَا فَعَلَ خَالِدٌ...؟؟ حتى وقفت بين يديه، وقالت: " يَا ابْنَ الْوَلِيدِ، أَنْتَ مِنَ الْعَرَبِ الْكِرَامِ ، وَإِنَّمَا الرِّجَالُ

بِأَمْرَائِهَا، فَإِنْ ثَبَّتُوا ثَبَّتَتِ الرَّجَالُ مَعَهُمْ، وَإِنْ انْهَزَمُوا انْهَزَمَتِ الرَّجَالُ مَعَهُمْ"، فأخبرها أنه ثابت لم ينهزم...! ٣٤٣

تتخير (دَرَعَةً) بنية الجملة الاسمية لتفتتح بها خطابها، للتحدث عن الثابت الذي لا شك فيه، وهو (أصل القائد الكريم)، ثم الحقيقة المطلقة الأخرى، والتي هي من ثوابت العمل العسكري والإداري معا، في السلم والحرب: " وَإِنَّمَا الرَّجَالُ بِأَمْرَائِهَا، " بانزياح أسلوب لاف، من جملة اسمية مثبتة، إلى جملة اسمية منفية بأسلوب القصر، مما يجعل هذا التركيب مرتكزاً أسلوبياً، وبؤرة دلالية منفتحة على معان شتى، هذا التركيب الاسمي يعطي تمهيدا لبقا، لإيصال رسالتها التالية والتي فيها شبه تشكيك في قيادته، أو إدارته، أو تراجع في المعركة وبناء عليه حدثت هذه الهزة والخلخلة في المعسكر، حسبما حللت هي الموقف العسكري...!!

وفي وصية (الخنساء) الشهيرة لبنيتها في القادسية، يلحظ قيام بنيتها على تراكيب فعلية متنوعة، ما خلا ذلك الحديث عن النسب، إلى رجل واحد، وامرأة واحدة، هو أمر ثابت لا يتغير، لذا تخيرت إليه هذا المركب الاسمي، ليشكل انزياحا أسلوبياً في جملة خطابها المشتمل على كل تلك التراكيب الفعلية، بل وجزء كبير من خطابها التالي، مبني على تلك الحقيقة التي أقرتها في البداية: " وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَبَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنْتُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، .."، وكأن هذه الحقيقة المطلقة الثابتة التي لا تحتل النقاش، تحتاج لكثير تفصيل زيادة في التأكيد..ربما...!! تقول: "... مَا خُنْتُ أَبَاكُمْ، وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، وَلَا هَجَنْتُ حَسَبَكُمْ، وَلَا غَبَرْتُ نَسَبَكُمْ،..." ٣٤٤ ويبدو لافتا تماما تخير الحديث لا بهذه الجملة الاسمية فقط بل بموضوعها أيضا، وهي بهذا تشكل منازا أسلوبياً لافتا على صعيدي الشكل والمضمون...!!

٣٤٣- فتوح الشام، الواقدي: ١/ ١٩٦.

٣٤٤- الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧. أسد الغابة ٧/ ٨٩-٩٠-٩١، الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-٢٨٨-٢٨٩. الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي: ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص: ٢٢٠-٢٢١. صفة الصفوة، لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن عبيد الله ابن الجوزي (٥١٠هـ- ٥٩٧هـ)، تح/محمود فاخور، محمد رواس قلعه جي: دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٤/ ٣٨٥، وانفرد ابن الجوزي بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزنة الأدب، للبغدادي: ٤٣٤/١.

يُلاحظ ندرة ورود الخطاب بالجملة الاسمية في سياق الحرب، وغلبة الخطاب بالجملة الفعلية ولهذا - بلا شك - دلالاته التي تنم عن أن سياق الحرب المتفجر والزاهر بالحركية والفاعلية، لا تناسبه طبيعة التراكيب في الجملة الاسمية الموصوفة بالميل إلى الثبات والامتداد...!!

الخطابُ بالجملةِ الفعليةِ:

وبحسب الأزمنة للفعل ننتقي بعض الخطابات التي استعملت فيها النسوة الجمل الفعلية في سياق خطابها الحربي و السياقات الخاصة المصاحبة :

١- الفعل الماضي :

إن اختيار المرأة افي عصر صدر الإسلام للتراكيب الفعلية في إطار الزمن الماضي يحمل دلالات عدة بحسب السياق الحربي العام والخاص بالموقف المحدد، وغالبا كان إتيانه للدلالة الإخبار عن أحداث وقعت في الماضي، أو لتأكيد وقوع الفعل مستقبلا لإفادة أغراض تستشف من السياق ..أو للتخطيط والمكر في الحرب، سواء كان ذلك بصيغة الماضي المعروفة أو المضارع المنفي الذي ينقلب معناه إلى الماضي في الجمل الفعلية المنفية.

خطاب (أَرْوَى بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)، حين أسلم طَلَيْبُ بْنُ عَمِيرٍ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَدَخَلَ عَلَى أُمِّهِ (أَرْوَى بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) فَقَالَ: تَبِعْتَ مُحَمَّدًا وَأَسْلَمْتَ لِلَّهِ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: "إِنَّ أَحَقَّ مَنْ وَازَرْتَ وَعَضَدْتَ ابْنَ خَالِكَ، وَاللَّهِ، لَوْ كُنَّا نَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الرَّجَالُ لَمَنْعْنَا وَ دَبَبْنَا عَنْهُ".^{٣٤٥}

فقد استعملت تركيب الجملة الفعلية الماضية للتأكيد على معنى النصر، والثبات عليها، وحتى على ديمومتها وثباتها...!

وفي إطار السرد الإخباري لأحداث معركة انتهت، يأتي حديث (أُمِّ سَعْدِ) عَنْ نَصِيبِ ، (أُمِّ عُمَارَةَ نُسَيْبَةَ بِنْتِ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ) فِي الْجِهَادِ يَوْمَ أُحُدٍ:

^{٣٤٥} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١١ / ٢١٢. انظر ترجمتها في: الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٢٢٢.

"يَا خَالَةَ أَخْبِرِينِي خَيْرَكَ؛ فَقَالَتْ: خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ وَأَنَا أَنْظَرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ وَمَعِيَ سِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، فَأَنْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي أَصْحَابِهِ وَالِدَوْلَةَ وَالرَّيْحُ لِلْمُسْلِمِينَ . فَلَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ انْحَزْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَمْتُ أَبَاشِرَ الْقِتَالِ وَأَدْبَّ عَنْهُ بِالسَّيْفِ وَأَرَمِي عَنِ الْقَوْسِ حَتَّى خَلَصْتُ الْجِرَاحُ إِلَيَّ . قَالَتْ: فَرَأَيْتُ عَلَى عَاتِقِهَا جُرْحًا أَجُوفَ لَهُ غُورٌ ، فَقُلْتُ : مَنْ أَصَابَكَ بِهَذَا ؟ قَالَتْ: ابْنُ قَمِيَّةَ أَقْمَاهُ اللَّهُ لَمَّا وَلَّى النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ يَقُولُ ذُلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَلَا نَجُوتُ إِنْ نَجَا ، فَاعْتَرَضْتُ لَهُ أَنَا وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، وَأَنَاسٌ مِمَّنْ نَبَيْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَرَبَنِي هَذِهِ الضَّرْبَةَ وَلَكِنْ فَلَقَدْ ضَرَبْتَهُ عَلَى ذَلِكَ ضَرْبَاتٍ وَلَكِنْ عَدُوَّ اللَّهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ دِرْعَانٌ" ٣٤٦

فهذا سرد متفق مع زمن الحدث، ومع غلبة الفعل الماضي على هذا الخطاب، إلا أننا نلاحظ انحرافاً أسلوبياً نحو التعبير بالفعل المضارع!!..

أما(دِرْعَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ)التي كانت تلوم خالد بن الوليد على تراجع جيش المسلمين وتفازهم من الميدان، تغير من خطابها بحسب ما عرفته من معلومات جديدة من القائد وعن ثباته في المعركة، فقالت: "قَبَّحَ اللَّهُ وَجْهَ عَبْدِ نَظَرَ إِلَى أَمِيرِهِ ثَابِتًا وَ هُوَ مِنْهُمْ عَنْهُ." ٣٤٧

إنَّ هذا التعبير بالفعل الماضي،إنما جاء بغرض الدعاء على من يفر ويتخاذل، بينما الأمير ثابت، وكأنها تقول له والوضع كذلك ،فلا تثريب عليك، واللافت في هذا التعبير استعمالها للفظ (عبد)، وليس (مسلماً) أو(جندي)مثلاً،كان أمامها خيارات مفتوحة كثيرة، لكنها تخيرت هذه اللفظة تحديداً، لأنها تريد أن تقول أن العبودية الحققة تتجلى في هذا الميدان، وفي نصرة هذا الدين، وأن الناس هنا لا للتباهي وحصد الفخرالشخصي، بل هم في حالة عبودية!!..

اللفظة الثانية اللافتة في هذا السياق،هي لفظة(نظر)،حيث تحمل من خلالها ومن طرف خفي القائد، بضرورة التواجد عينا، و بضرورة أن يراه الجنود، رؤية معاينة، ليتحقق لهم الثبات النفسي والدعم المعنوي!!..

٣٤٦-سيرة ابن هشام: ٢ / ٨٢. المغازي للواقدي: ١ / ٣٦٨. البداية والنهاية. لابن كثير: ٤ / ٣٤. الروضة الفيحاء في تواريخ

النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤٣.

٣٤٧- فتوح الشام،الواقدي: ١ / ١٩٦.

وتستعمل (أُمُّ جَمِيلِ بْنِ سَعْدِ الدَّارِيِّ) تركيب الفعل الماضي، بغرض الدعاء لابنها الذي استشهد أمام ناظرها في المعركة، وهذا التركيب الشائع، إنما يكون تيمنا وبشارة ورجاء في رحمة الله، تقول: "يَا بُنَيَّ عَشْتِ سَعِيدًا، وَمَتَّ شَهِيدًا، وَسَلَكْتَ سَبِيلَ آبَائِكَ، فَرَحِمَكَ اللَّهُ وَأَنْسِ غُرْبَتَكَ وَنَفَعَنِي بِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" ٣٤٨.

وفي وصية (الْخَنَسَاءِ) لبنيها في القادسية، تستعمل الفعل الماضي تارة، للدلالة على الزمن الماضي المتعلق بزمن وقوع الفعل، في حديثها عن الإسلام والهجرة، وتأتي بالفعلين متعاقبين على ترتيب وقوعهما الزمني، وتارة للدلالة على الفخار بالفعال على مستوى العفة والخلق الفاضل، وطهارة الحسب ونقاء النسب، بل وإعطاء الشيوع والدوام لذلك، تقول:

"يَا بُنَيَّ...، إِنَّكُمْ أَسَلَمْتُمْ طَائِعِينَ، وَهَاجَرْتُمْ مُخْتَارِينَ، وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَبُنُورِجُلٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنْتُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مَا خُنْتُ آبَائَكُمْ، وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، وَلَا هَجَنْتُ حَسَبَكُمْ" ٣٤٩، وَلَا غَيْرُ نَسَبِكُمْ ٣٥٠،... ٣٥١

٢- الفعل المضارع:

أشرنا سابقا إلى دينامية الفعل المضارع الذي يدعم الحضور والفاعلية والحركة والقدرة على الفعل من قبل الذات المتكلمة أو المخاطبة، سواء كانت ذاتا جمعية أم مفردة، وهو يظهر حركة الأحداث وتطورها وفاعليتها الدرامية أيضا، وفي سياق الحرب تظهر هذه الدلالات في سياقها التحريضي المخطط للحرب، أو عاكسة للبعد الاجتماعي من آثار الحرب وانعكاساتها على العلاقات الاجتماعية والإنسانية، ولذا فهي تتكشف عن تنام إلى ذروة دينامية متفجرة .

٣٤٨- المصدر السابق: ٢ / ١٣٦. في ذكر فتوح الرها وحران. في فتوح قلعة رأس العين.

٣٤٩- " وَالْحَسَبُ الشَّرْفُ الثَّابِتُ فِي الْأَبَاءِ... وَقِيلَ الشَّرْفُ فِي الْفِعْلِ، " اللسان: (حسب).

٣٥٠- والنسب: الأصل؛ والفعل من كل ذلك. اللسان: (نسب).

٣٥١- الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤ / ١٨٢٧. أسد الغابة، لابن الأثير: ٧ / ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٢٨٧-٢٨٨-

٢٨٩. الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي: ١٠ / ٣٨٨-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص: ٢٢٠-

٢٢١. وانفرد ابن الجوزي في " صفة الصفوة ٤ / ٣٨٥ " بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزنة الأدب، للبغدادي: ١ / ٤٣٤.

يُلحظ هذا السياق الدرامي المتفجر نحو ذروته المنشودة، في خطاب (عَفْرَةَ بِنْتِ غِفَارِ الْحَمِيرِيَّةِ) لخالد بن الوليد، لما حثهن على حماية أنفسهن والدفاع عنها:

" أَيُّهَا الْأَمِيرُ.. وَاللَّهِ لَا يُفْرِحُنَا إِلَّا أَنْ نَمُوتَ أَمَامَكَ، فَلْنَضْرِبَنَّ وُجُوهَ الرُّومِ، وَ لِنُقَاتِلَنَّ إِلَى أَنْ لَا تَبْقَى لَنَا عَيْنٌ تَطْرِفُ، وَاللَّهِ مَا نُبَالِي إِذَا رَمَيْنَا الرُّومَ كُلَّهُ. " ٣٥٢

هنا حيث يُستشعر الفرح المتجدد بالجهاد، ثم استراتيجية الدفاع: " فَلْنَضْرِبَنَّ وُجُوهَ الرُّومِ، وَ لِنُقَاتِلَنَّ إِلَى أَنْ لَا تَبْقَى لَنَا عَيْنٌ تَطْرِفُ، وَاللَّهِ مَا نُبَالِي إِذَا رَمَيْنَا الرُّومَ كُلَّهُ "

حيث ضَرَبَ وجوه الروم - وهو تعبير عن الشجاعة في المواجهة - مرحلة أولى، حتى إذا ما حمى الوطيس، وتصاعدت المواجهة، كانت المرحلة الثانية: القتال، ثم المرحلة الثالثة المترتبة على هذا القتال، الاستبسال في الصمود والقتال حتى نهاية الأجل، وذروة أخرى تتسببها هذه المواجهة وهي القضاء على معسكر الروم كله..!

وعلى توالي تلك الأفعال النابضة الفاعلة الدينامية المتنامية، (فَلْنَضْرِبَنَّ ، وَ لِنُقَاتِلَنَّ ، لَا تَبْقَى لَنَا عَيْنٌ تَطْرِفُ، وَاللَّهِ مَا نُبَالِي إِذَا رَمَيْنَا الرُّومَ كُلَّهُ) يمكن للمرء أن يتخيل ساحة المعركة، بذراها النامية في الفدائية والجهاد الحق..!! ويكون هذا التركيب الفعلي للمضارع قد أدى دوره الدلالي في هذا السياق.. يزداد من هذا الوهج الأسلوبى لهذا الخطاب اشتماله على تلك المؤكدات التي تشكل دعامة مهمة لهذا التركيب..!

وبينما ينبسط الفعل الماضي على رقعة خطاب وصية الخنساء لبنيتها في القادسية، نجد انحرافاً أسلوبياً حاداً ، بتخير فعل مضارع ، تخترق به بنية خطابها هذا، أما هذا الخرق فجاء لمصلحة العلم المتجدد الحدوث والدائم الدال على العلم بالثواب المعد لمن يجاهد في سبيل الله، ونلحظ بكثير من العناية، آفاق هذا العلم غير المتناهي في نفسه، وفي الحاجة غير المتناهية في التعرف إليه، لتعذر الإحاطة به، ولذا يكون هذا الفعل المضارع في هذا السياق ذا بؤرة دلالية منوطة بهذا الخرق في التركيب، تقول: "يَا بَنِيَّ..، إِنَّكُمْ أَسْلَمْتُمْ طَائِعِينَ، وَهَاجَرْتُمْ مُخْتَارِينَ، وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لِبَنُورِجَلٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنْكُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مَا خُنْتُ أَبَاكُمْ، وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، وَلَا هَجَنْتُ حَسَبَكُمْ، وَلَا

عَبَّرْتُ نَسَبَكُمْ، وَقَدْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ فِي حَرْبِ الْكَافِرِينَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدَّارَ الْبَاقِيَةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الْفَانِيَةِ...^{٣٥٣}

وتعاني (أُمُّ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيَّةُ) في المعركة، وهي ترى المجاهدين يفرون، والمشركين يستشرسون، "...فَجَعَلْتُ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ جَاوَزَ بَعِيرِي فَأَقْتُلْهُ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ مَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ بِنَا."^{٣٥٤}

وفي هذا السياق المحموم، والهروب المتكرر، لا ينفذ إلا تكرار القتل لكل من يفر، هو فرار و هروب لا ينقطعان، وبالتالي فهو قتل لا ينتهي أيضا، ولذا كان استعمال الفعل المضارع فاعلا في هذا السياق، لإفادة معنى الانقطاع و التجدد !!!

وهذه (المرأة من بني غفار) تأتي النبي ﷺ في نسوة معها، فقُلن: "يا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ إِلَى وَجْهِكَ هَذَا، وَهُوَ يَسِيرُ إِلَى خَيْبَرَ، فَنُداوِي الْجَرْحَى، وَنُعِينُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا اسْتَطَعْنَا..."^{٣٥٥}

هذا سياق انطوى على متوالية من الأفعال المضارعة، (أَرَدْنَا، نَخْرُجُ، نُدَاوِي، نُعِينُ)، كلها يمتد زمن العمل بها وتطبيقها إلى المستقبل، تفرغ فيها هاته النسوة رغبتهن وإصرارهن على المشاركة في الجهاد بما يستطعن، ولأجل هذه الغاية يقمن باحتلال مساحة الخطاب بجملة من الأفعال المضارعة، التي تظهر للمخاطب وعيهم بما يجب أن يقدمنه في المعركة، وأنه يجب أن يثق بهن لعلمهن بتلك الأمور... فهي أفعال فيها نَفَسٌ من الثقة والإصرار ووضوح للرؤية في آن...!!

٣- فِعْلُ الْأَمْرِ:

ومنه خطاب (أَرْوَى بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)، حين جاءها أخوها أبو لهب، لانما لها ومعنفاً إياها لدخولها في الإسلام، فقالت له: "قَدْ كَانَ ذَلِكَ، فَقُمُّ دُونَ ابْنِ أَخِيكَ، وَاعْضُدْهُ، وَامْنَعْهُ، فَإِنْ يَظْهَرُ أَمْرُهُ، فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ، أَنْ تَدْخُلَ مَعَهُ، أَوْ تَكُونَ عَلَى دِينِكَ، وَ إِنْ يُصَبِّ كُنْتُ قَدْ أَعْذَرْتُ فِي ابْنِ أَخِيكَ."^{٣٥٦}

^{٣٥٣} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤ / ١٨٢٧. أسد الغابة، لابن الأثير: ٧ / ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٢٨٧-

٢٨٨ - ٢٨٩. الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي ١٠٠ / ٣٨٨ - ٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص: ٢٢٠ - ٢٢١. وانفرد ابن الجوزي في " صفة الصفوة ٤ / ٣٨٥ " بنسبتها إلى الخنساء النخعية. خزنة الأدب، للبغدادي: ١ / ٤٣٤.

^{٣٥٤} - المغازي للواقدي: ٣ / ٩٠٤. في خبر من ثبت من النساء في غزوة حنين.

^{٣٥٥} - السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٤٢-٣٤٣، الروض الأنف، للسهيلى: ٤ / ٨٦-٨٧، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٢٠٤.

^{٣٥٦} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١١ / ٢١٣.

يشكل فعل الأمر الوارد في هذا الخطاب على قصره انزياحا تركيبيا لافتا، يعطي إحياء بما يشبه الهدير، والانحدار الشديد من عل، هذه المنظومة الهجومية، جاءت بغرض الدفاع عن النبي ﷺ، هذه المتوالية المتتالية من أفعال الأمر، إنما تشي بحجم الضغط النفسي الذي ترزح تحته روح (أزوى)، حزنا وشفقة على ابن أخيها، الذي تنكره الأقارب، وعضوا فيه، وجاهر ببغضه وحره الأبعاد وشمتموا به، هذا الاندفاع أيضا، يأتي ترجمة لفظية أخرى، هي انهيار لجدار الصمت، وذوبان جليد التأجيل للمواجهة التي تمت أخيرا، لتسقط الأقنعة، وتتضح النوايا، وتتكشف الاصطفافات، ويعرف كل وجهته ويجاهر بغايته...!!

ويأتي هذا الخطاب الضّاج المزدهم لغويا، ليعبر عن ذلك الازدحام العاطفي، الناتج عن هذا

السياق المأزوم...!!

وعلى الرغم من هذا الاندفاع العاطفي المحموم، فإن المنطقية الهادئة هي سيدة الموقف في هذا الخطاب، ليتناسب ذلك مع المخاطب المعاند المشاكس، فعلى سبيل المثال، متوالية أفعال الأمر: " فَقَمَّ دُونَ ابْنِ أَخِيكَ، وَاعْضُدْهُ، وَامْنَعُهُ.."، هي متوالية منطقية ترابطية، لمقامات النصر: القيام بمعنى الإرادة والنية، والتقدم للفعل، ثم المعاضدة والمؤازرة، والذروة التالية هي المنعة، التي تنشدها ليسلم ابن أخيها من أذى هؤلاء العتاة الجبابرة الذين لا تأخذهم في مكاسب دنياهم ومآثر آلهتهم لومة لائم.. وبذا تكون قد اتخذت التدابير الإقناعية في خطابها...!!

تلتقط (أزوى) أنفاسها.. ثم تنتقل نقلة أخرى مبنية على الأولى، وترسم خريطة طريق لـ(أبي لهب)، في حين شعر بالخرج من نصرة ابن أخيه، وتجيبه عن سؤال افتراضي: كيف سيكون موقفك من الدين الجديد...؟؟

أما (الخنساء) في وصيتها لبنيتها في القادسية، فنجد هذا الخرق الأسلوبى بالالتفات إلى فعل الأمر، الذي يأتي فردا في سياق خطابها: "وَاعْلَمُوا أَنَّ الدَّارَ الْبَاقِيَةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الْفَائِيَةِ..."^{٣٥٧}، وجاء هذا الفعل في سياق ترسيخ اليقين، وتثبيت الجنان، والترغيب في الجهاد، والحث عليه...!

^{٣٥٧} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧. أسد الغابة، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-٢٨٨-٢٨٩. الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل. الوشاء. ص. ٢٢٠-٢٢١. وانفرد ابن الجوزي في " صفة الصفوة ٤/ ٣٨٥" بنسبتها إلى الخنساء النخعية. خزائن الأدب، للبغدادي: ١/ ٣٤٤، نقلا عن الاستيعاب.

هذه (سَعِيدَةُ بِنْتُ عَاصِمِ الْخَوْلَانِيِّ)، تشهد اليرموك، فتصف لنا هذا المشهد: "كُنْتُ فِي جُمْلَةِ النِّسَاءِ يَوْمَئِذٍ عَلَى التَّلِّ فَلَمَّا انْكَشَفَتْ مَيْمَنَةُ الْمُسْلِمِينَ صَاحَتْ بِنَا عَفِيرَةُ بِنْتُ غِفَارٍ، وَكَانَتْ مِنَ الْمُتَرَجَّلَاتِ الْبَازِلَاتِ، وَنَادَتْ: " يَا نِسَاءَ الْعَرَبِ دُونِكُنَّ وَالرِّجَالِ، وَاحْمِلْنَ أَوْلَادِكُنَّ عَلَى أَيْدِيكُنَّ وَاسْتَقْبِلْنَهُمْ بِالنَّحْرِيزِ " ٣٥٨.

لا شك أن أفعال الأمر هذه، قد سيقت لتحريض الرجال على القتال، حتى أن مفردة التحريض ذاتها قد وردت في الخطاب، ونلاحظ أمراً ما، إن الرجال الذين حضروا هذه الحرب يعلمون لم هم هناك..؟؟ ولكن في لحظة من لحظات القتال، حينما يستشري القتل ويستحر، تطير الرؤوس، وتقطع الأعضاء، وأمور أخرى بشعة جداً، فجأة تملو الحياة، ويجبن قلب الشجاع، وتتبع نفسه سبل النجاة بالهرب، وكيف يجب على هاته النسوة الحاضرات المعركة أن يتصرفن حينها..؟؟ يفرحن ويهملن، ويأخذن بالأحضان كل فارّ جبان..؟؟ هل يجب على المرأة في تلك اللحظة أن تكون أكثر شجاعة من الرجل؟؟ وأن تعيده إلى الميدان رغم أنها قد تبوء منه بالخسران وإلى الأبد..؟؟

هل دور (الخنساء) هذا قسرياً أو اختيارياً، قد يكون شيئاً من هذا وذاك، قد يكون جزءاً من إيمانها بجملة معطيات منها القيم الجهادية وغيرها، وقد يكون خوفاً من غلبة العدو والوقوع في الأسر، وقد يكون لأن الفرار إلى الخلف، هو ترك مساحة للعدو للهجوم فلا فائدة، إلا أن تكون خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، وهذا جزء من إيمانها بهذا النوع من الاستراتيجيات العسكرية..!!

تقول عفيرة: "يَا نِسَاءَ الْعَرَبِ دُونِكُنَّ وَالرِّجَالِ، وَاحْمِلْنَ أَوْلَادِكُنَّ عَلَى أَيْدِيكُنَّ وَاسْتَقْبِلْنَهُمْ بِالنَّحْرِيزِ".^{٣٥٩} أول أفعال الأمر هنا هو اسم فعل أمر منقول عن الظرف، "دُونِكُنَّ"، أي الزمّن هؤلاء الرجال، والمعنى احتجزنهم عن الفرار و الابتعاد، ثم الفعلين: (وَاحْمِلْنَ، وَاسْتَقْبِلْنَهُمْ)، والأول خاص بالأولاد.. فلم الأولاد؟؟!!

إن الرسالة هنا واضحة، إن كنتم تفرون حفاظاً على حياتكم، فما ذنب هؤلاء الصغار الذين جنتم بهم إلى الدنيا وإلى هذه الحرب..؟؟!! وإن كنتم تريدون العودة إلى الدعة وأحضان الزوجات..فهاهن

^{٣٥٨} - فتوح الشام. الواقدي: ١/ ١٩٥ - ١٩٦. وانظر في دور النساء في المعارك آنذاك في : البداية والنهاية، لابن كثير:

٨/٧. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١/ ٢١٣ وما بعدها.

^{٣٥٩} - فتوح الشام، الواقدي: ١/ ١٩٦. وانظر في دور النساء في المعارك آنذاك في : البداية والنهاية، لابن كثير: ٨/٧. مختصر

تاريخ دمشق، لابن منظور: ١/ ٢١٣ وما بعدها.

يحرصنكم للعودة إلى الميدان، فلا يشرهن العيش مع الفرار من الجهاد ونصرة دين الله...!! وليس أبلغ من هذا التحريض الفعلي العملي المنجز على أرض الواقع والذي من شأنه أن يغير مجريات المعركة ونتيجتها وقد كان...!!

" يَا نِسَاءَ الْعَرَبِ " هذا النداء القومي العربي، وفي خطاب آخر كان النداء: " يا بنات التبابعة " مثلاً...!! سيلفت النظر في سياق الحروب في الفتوحات الإسلامية، هناك هذه النفحة الغربية من صيحات الانتماء وشعارات قومية أكثر منها إسلامية...!!

وفي اليرموك يمتدح قتال القرشيات وثباتهن في القتال، في حين انهزمت نساء جذام ولخم وخولان، فصاحت بهنَّ (خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَِر) وجماعة من النساء: " اِخْرُجِي مِنْ بَيْنِنَا فَأَنْتِنَّ تُوهِنَّ جَمْعًا " ٣٦٠

هذا الأمر للتخذيل والطرده والاستبعاد، وهو أمر منحاز بطرف إلى التحريض أيضاً، وهو أمر له وجاهته، ففي أتون هذه الحرب المستعرة ، والتي تحتاج كل ذرة طاقة من الروح الإيجابية القتالية، وتستدعي كل ذرة صمود شاردة، وتستحضر كل فتات عزيمة متبقية، خاصة مع طول المعارك والاستنزاف فيها، تحتاج لطاقة كبيرة، وقد ندرك حجم العبء آنذاك، على صعيد الجرحى، والقتلى، والزاد والمؤونة، والأمراض وغيرها، آخر ما يحتاجه أولئك آنذاك، هو نفوس انهزامية، بروح سلبية، تشيع جواً من الخور والضعف، وتستدرج آخرين معها، لذلك يأتي هذا الأمر لخلخلة هذا التوجه، والتثبيط من همة هاته النسوة المنهزمت، وليعطين درساً لكل من سواهنَّ ، بأنهن سيلقين المصير ذاته إن ضعفن أو جبننَّ...!!

إنَّ استدعاء فعل الأمر للحضور في تراكيب هذا السياق إنما يكون لارتياح آفاق تساعد على خلق تشكّل لمضمون يكون له وقع على رقعة الاتصال ذاته، وتأثير ذلك على الواقع الخارجي، سواء تحقق هذا الأمر أو لم يتحقق، ولكنه يظل مطلوباً من المتكلم إلى المخاطب، وفي سياق الحرب يكون لتحقق الأمر في الواقع الخارجي أهمية كبرى، وسواء كان موجهاً إلى الذات أو إلى الغير، حيث إن فعل الأمر هذا يصدر عن ذات قادرة على الأمر في ذاته، فلها هذه السلطة المعنوية أو المادية، أو عاجزة عن الفعل فتوكل ذلك إلى ذوات غيرية، سواء كان ذلك على سبيل الحقيقة أو المجاز...، ولكن في كل الأحوال فإن ذلك يعني أن الواقع الراهن راكد، مرفوض أو غير مرضي عنه، ولذلك يجب تغييره، وأنَّ هذا الفعل الأمر هو مطلب ملح في حينه وهو غير حاصل وقت التكلم أو الطلب، ولذلك فتأثيره على الأحداث أو

الواقع الخارجي يكون ملحوظا وأثره يبدو ظاهرا من خلال الاستجابة من عدمها مما يعطي الكثير من الحيوية للسياق، كما أنه يوضح مراتب السلطة المادية والمعنوية في موقف الاتصال وما يترتب على ذلك من تداعيات تكشف عن طوايا النفوس وأغراضها ، من حب للسيطرة ، أو التخلص من مأزق الأسر، أو التنبيه والتحذير،..إنَّ الفاعلية و الحركة والتغيير هي مظاهر لاستدعاء فعل الأمر في هذا السياق .. !!

إذن..فإن هذا السياق الحربي الفاعل والحيوي يحتاج إلى كثير من الجمل الفعلية التي تدل على التجدد والحدوث خاصة فيما يتعلق بزمن الحال أو الاستقبال،أو تلك التي تعني تأكيد وقوع الحدث باستعمال الفعل الماضي،ولأن هذا السياق سياق متفجر وفاعل فإن ورود الجمل الاسمية التي تدل على الثبوت و الاستقرار جاءت شاحبة الحضور وضامرة في هذا السياق..، خاصة مع ما تحول إليه خطاب المرأة المسلمة في مجمله وهو خطاب إخباري يميل إلى الرواية الإخبارية والنقل لأحاديث وروايات عن النبي ﷺ. ومع ذلك فيلحظ طفوًا للخبر الإنكاري، بشكل ملحوظ، حيث يكون السياق سياق مواجهة ، مع المشركين من جهة أو مع المشككين، من جهة أخرى، أو للتعامل مع واقع ضخم ومحير وقوي ، مما يدفع بالمرأة لتخير خطابٍ صداميٍّ يتناسب وخرج هذه الحرب الجهادية ..!!

يرصد هذا الاستقراء أيضا من خلال تلك الخطابات المتنوعة، نزول المرأة إلى معترك الجهاد الفعلي الجسدي، وبالتالي تكثر في خطابها مفردات الالتحام والقتل ومسميات الأسلحة، يدفعها إلى هذا الطريق إيمانها بقضيتها الجهادية ، وطمعها الدائم في الشهادة، مع بعض التلميحات لبعض المطامع الدنيوية في حُلَيَّ أو غيرها من الأمور أحيانا قليلة..!!

المَبْعَثُ الثَّالِثُ:

الْأُسْلُوبُ الْإِنْشَائِيُّ

الإِنشَاءُ الطَّلِبِيُّ

(الأمر، النهي، التَّسْنِي، الاستِغْنَام، النَّدَاءُ).

مدخل

الإِنشَاءُ الطَّلْبِيُّ:

يعد أسلوب الإنشاء من الأساليب التي تفتح آفاق التأويل، حيث تفجر طاقات دلالية من خلال استعمال أساليب الإنشاء المختلفة، والبلاغيون يرون أن كل كلام لا يحتمل الصدق أو الكذب لذاته هو إنشاء، إذ لا واقع خارجيا للفظه قبل النطق به يطابقه أو لا يطابقه، وهذا ما قال به الشريف الجرجاني: " الإنشاء قد يقال على الكلام الذي ليس لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه " ^{٣٦١}.

وبناء على ذلك يميز القزويني في الإيضاح بين الإنشاء والخبر على هذا الأساس، يقول: " ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج، الأول الخبر، والثاني الإنشاء " ^{٣٦٢}

ففي الجملة الإنشائية لا يمكن التعرف على مضمونها حتى يتم النطق بها، فهي جملة غير منجزة، وهو كلام مرتبط بتصور المتكلم وحالته النفسية، وهذا ما يجعله في كثير من الأحيان يتجاوز الحقيقة إلى آفاق مجازية تفتح للإبداع منافذ رحبة، وهو أيضا وقف على استجابة المخاطب لهذا الخطاب الإنشائي، وذلك وقف على علاقة المتكلم بالمخاطب وبظروف سياق الاتصال الذي يجمعهما فردا أو جماعات..!

ومن هنا قُسم الإنشاء إلى: ^{٣٦٣}

١- إنشاء طلبى: وهو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت التكلم، وبها يتصرف المبدع وينتج

دلالات جديدة، وقُسم بدوره إلى:

أ- إنشاء طلبى إيجابى: ويدخل فيه " الأمر، التَّمني، الاستفهام، النداء".

^{٣٦١} - التعريفات، للجرجاني: ص: ٤٠.

^{٣٦٢} - الإيضاح، للقزويني: ص: ١٦.

^{٣٦٣} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: ٣٣٢/١. وجمالية الخبر والإنشاء، دراسة جمالية بلاغية نقدية. حسين جمعة: اتحاد الكتاب العرب، دمشق. ٢٠٠٥م. ص: ١٠٠.

ب- إنشاء طلبى سلبى: النهى.

٢- إنشاء غير طلبى: وهو الذى لا يستدعى مطلوباً به بعد النطق به، وفيه: الشرط والقسم

والتعجب والمدح والذم والرجاء وصيغ العقود.

ويحاول هذا المبحث أن يتوقف عند هذه الاستراتيجية التوجيهية التي أنتج بها هذا الخطاب، كما يصنفها محمود نحلة، حيث جعل الأفعال الإنجازية ضمن الطلبية منتمية لهذه الاستراتيجية^{٣٦٤}، وتتبع الملامح الأسلوبية للتركيب الإنشائي، وخاصة الطلبية، ملتقطة انزياحاته الأسلوبية وظلاله الدلالية، وعلاقتها بسياق الحرب، ومتوسماً لإشراقاته الجمالية في مواطنها.

^{٣٦٤} - نحو نظرية عربية في أفعال الكلام. محمود نحلة، مجلة الدراسات اللغوية (فصلية محكمة تصدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية)، الرياض، ع/١ ج/١، محرم - ربيع الأول ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م، أبريل - يونيو، ص ١٩٦.

الْأَمْرُ

فِي (العصر الجاهلي)

مدخل

الأمر كما يعرفه الشريف الجرجاني: " هو قول القائل لمن دونه افعل "٣٦٥، فهناك تفاوت في الرتبة على اختلافها بين المتكلم والمخاطب، وهذا ما يؤكد على معناه صاحب الطراز بقوله: " هو صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء "٣٦٦، وهناك صيغ حقيقية للأمر، وأخرى مجازية أو لاها البلاغيون عنايتهم، "إذ سَعَوْا إلى دمج بنية الخطاب اللغوي ببنية المقاصد التي يتدبرونها في السياق "٣٦٧، وهما يخالفان رؤية الزمخشري السابق عليهما، فهو لا يشترط الاستعلاء في الأمر ٣٦٨، والأمر إذن قد يقع في سياقات متعددة يجب الاهتمام بها، فيحقق وظائف عدة، كما يكشف الثام عن خلفية هذا الأمر على الصعيد العاطفي أو الاجتماعي أو السياسي، كما يكشف عن جوانب تربوية و أخلاقية ..

- أساليب الأمر: ٣٦٩

١- الأمر الحقيقي:

للأمر أربع صيغ عدها البلاغيون من أساليب الأمر الحقيقي، الذي لا انفتاح فيه على أي أبعاد دلالية مجازية، وبهذا ينطبق عليه تعريف الجرجاني والعلوي، أنه على جهة الاستعلاء والإلزام، وصيغته المعروفة هي:

- فعل الأمر، المضارع المقرون بلام الأمر، اسم فعل الأمر، المصدر النائب عن فعله.

٢- الأمر المجازي:

أما الأغراض التي يخرج إليها الأمر فهي كثيرة، ومتعددة ومستلزمة من السياق بمعطياته المختلفة، فمنها: الدعاء، والإباحة، الالتماس، التمني، التهديد والإنذار، التعجيز، التسوية، التعجب،

٣٦٥ - التعريفات، للجرجاني: ص: ٣٨.

٣٦٦- الطراز، للعلوي: ١٥٥/٣-١٥٦.

٣٦٧ - جمالية الخبر والإنشاء، دراسة جمالية بلاغية نقدية. حسين جمعة. ص: ١٠٢.

٣٦٨ - انظر: الكشاف، للزمخشري: ١/ ٢٦٩.

٣٦٩ - انظر: الإيضاح، للقرظيني: ص: ١٤٧. انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. أحمد مطلوب. ٣١٣/١ وما بعدها.

التحسر، الاعتبار والموعظة، التهكم والسخرية، التحقير، التكذيب، النصح والإرشاد، التفويض والتسليم، المشورة، الإنكار، الحيرة والاضطراب، **التبكي أو التوبيخ، ...**

وسيُحاول اقتناص الانزياحات الأسلوبية التي خرج إليها أسلوب الأمر في خطاب المرأة النثري في سياق الحرب، مستجلين الأغراض التي خرج إليها، مستشعرين تلك الدفقات الدلالية المتولدة من حركية هذا الأسلوب وحيويته بدلالاته المتنوعة، والتي منها:

النصحُ والإرشادُ:

وفي هذا النوع من الآفاق الدلالية التي يرتادها أسلوب الأمر، نجد المرأة في سياق منفتح على تجربتها المتكاملة تستخلص منها مخارج وحلولا تقدمها للخروج من مأزق، أو كما يعبر عنها اليوم، وضع استراتيجية إنهاء الأزمة، أو رسم خارطة طريق أو تسوية ما، وهي في كثير من الأحيان تحترم المخاطب، وتحتوي غضبه، خاصة في سياق النزاعات الحرجة، حيث الغليان سيد الموقف، وآخر ما يريده أحد الأطراف أن يقترح عليه أحدهم حلا غير الذي يراه، ولذلك فهي تقدم نصيحتها في لبوس من الحكمة، وتلتمس لها وسائل الإقناع، كما فعلت (سُعدى بنتُ حُصينِ الطائِيَّةُ)، أم أوس بن حارثة بن لأم الطائي حينما هجاهم بشر بن أبي خازم، وأراد ابنها أوس بن لأم معاقبته، فقالت: "خَلِّ سبيلَهُ وأَكرِمُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَغسَلُ عَنكَ مَا صَنَعَ غَيْرُهُ"^{٣٧٠}.

وقد جاء هذا الأمر ليشكل انفتاحا على دلالات نابضة وحيوية في هذا السياق المأزوم، وقد التمس قبله ويعدده سياقات لغوية، جعلت من ورود الأمر في موقعه مؤثرا بعد استفهام استنكاري توبيخي تارة، أو بعد أسلوب خبري مشحون بعاطفة متوهجة، تشرح مدى حرصها عليه، وعلى إرثه، وقومه، لتكون الأرضية ممهدة لتقبل النصح والإرشاد بأسلوب الأمر: "خَلِّ سبيلَهُ وأَكرِمُهُ"، بل ونرى أمرا مضادا لسياق الحال، حيث لا تأمره بالكف عن إيذاء الشاعر، أو قتله، بل تأمره بأن يكرمه ليتّم صنيعه، وهي أيضا لا تلقي الأمر جزافا، بل تسبب له وتعلل، وتبني عليه مستقبل الأحداث: ".فإنَّهُ لَا يَغسَلُ عَنكَ مَا صَنَعَ غَيْرُهُ"، هذه الخبرة المختزلة التي انداحت في فعل الأمر الذي يتجلى من خلاله ربط الماضي بالحاضر بالمستقبل ..، هو ليس أمرا مجردا يُلقى في فضاءات الصمت، ولا يردده سوى صدى الصمم، هو أمر ناجز لأنه يحمل من المنطق بقدر ما يحمل من العاطفة المقنعة...!!

^{٣٧٠} - بلوغ الأرب للأوسى : ٨٤ / ١ . خزانة الأدب، للبغدادي: ٤٤٥/٤.

أما (عُفَيْرَةُ بِنْتُ عَفَّارٍ)، فإنها ترى أنّ الظلم والتعدي ليسا مبررين لظلم مضاد أو ليتخلى الإنسان عن مبادئه، ولذا يتشكل خطابها من نهْي، ثم أمر، يأتي ذلك في سياق مناصحتها لأخيها، الذي يريد أن ينتقم ويستعيد كرامته وكرامة قومه، فيقرر أن يتخذ الغدر والخيانة وسيلتين لتحقيق غايته، فيعلو صوت المبادئ والقيم في خطاب عفيفة: "لا تفعل فإن الغدر ذلّة وعار، ولكن كاثروا القوم في ديارهم، فتظفروا أو تموتوا كراما"^{٣٧١}

فالفارس الحقيقي، هو الذي يحافظ على مواقفه النبيلة، يواجه بشرف ويموت بكرامة، .. وإذن يتجلى في خطاب (عُفَيْرَةُ) صوت الضمير الجمعي المغيب، وهذا الموقف، موقف المواجهة ضد قرار جمعي مضاد لبييرز لنا هذه الشجاعة الأدبية والعقلية التي تتمتع بها عفيفة، ويظهر لنا بجلاء هذه المنطقية التي لا تجعلها تنساق لمشاعر الثأر والانتقام لتفقد هويتها وتذوب في هوية العدو الغادر، وتفقد البوصلة فتعدو مسخا مشوها، لا هي العدو ولا هي نفسها، هذا الاتزان وذاك التوازن، لهو موقف جدير بالاحترام...!!

الِاتِّمَاسُ:

ويبرز وجه آخر من وجوه المنطق والعقل، والتوازن المذهل، والحياد اللافت، وجه (الْجُمَانَةُ بِنْتُ قَيْسِ)، التي تريد أن تنزع فتيل حرب على وشك الانفجار، وهي تترسم استراتيجية واضحة المعالم في ذهنها، فبداية: تؤجل المواجهة بين طرفي النزاع، لتكون هي الوسيط، علّ نار الغضب تهدأ، مفسحة مجالاً لبعض الخيارات العقلانية من الطرفين، فتقترح على والدها الآتي: "دَعْنِي أَنْظُرَ جَدِّي" ^{٣٧٢} فهذا الأمر هو التماس لجهود الوساطة التي تنوي (الْجُمَانَةُ بِنْتُ قَيْسِ)، القيام بها كبداية حل.

التَّسْفِي وَالِاتِّتِقَامُ:

نلمس ذلك في خطاب (هِنْدِ بِنْتُ عُتْبَةَ) لوحشي الذي طلبت منه قتل الحمزة عم النبي ﷺ

^{٣٧١} - نهاية الأرب، النويري: ١٥ / ٢٦٢. أعلام النساء، رضا كحالة: ٣ / ٢٩٧-٢٩٩. وأيضا: الأغاني، للأصفهاني: ١١ / ١١٤، إحسان عباس وآخرون. التيجان في ملوك حمير، للهمداني: ص: ٣٠٨-٣٠٩. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢ / ١١٨. ^{٣٧٢} - نشر الدر، للآبي: ٤ / ٦٣-٦٤.

انتقاماً لمقتل أهلها: "إِيهِ أَبَا دَسْمَةَ، اِشْفِ وَاشْتَفِ".^{٣٧٣} فهذا أمر خرج إلى فضاء الانتقام والتلطف على التشفي في سياق الحرب المستعرة بين الكفار والمسلمين، فالأمر هنا ليس منوطاً بالمخاطب نفسه وإن كان موجهاً إليه، بل بالسياق نفسه، وبالمُتَشَفَى منهم، ويكشف عن هذه اللحظة المنتظرة والمبتغاة، اللحظة التي تتوقف عليها كل طموحات الانتقام لهند...!!

إِظْهَارُ النُّفُورِ وَالْعَدَاةِ :

يُلحظ ذلك في هذا الصوت النسوي الجمعي، حين اجتمعت نساء الحَيِّ لَمَّا قَتَلَ جَسَاسٌ كَلْبِيًّا فقتلن لأخت كَلْبِيٍّ: "رَحَلِي جَلِيلَةَ عَنْ مَاتَمِكِ فَإِنَّ قِيَامَهَا فِيهِ شِمَاتَةٌ وَعَارٌّ عَلَيْنَا عِنْدَ الْعَرَبِ"^{٣٧٤}، و(جَلِيلَةُ بنتُ مَرَّةٍ) هذه، هي أخت القاتل، وزوج القتيل، ولا شك أن أحداً لا يحسدها على هذا الموقف، فهذا الأمر وإن كان موجهاً إلى أخت القتيل، إلا أن تداعياته السياقية إنما تقصد اجتياح الوجود المادي والمعنوي (للجَلِيلَةَ)، إن هذا الحدث يعيد فرز العلاقات وتصنيفها على ضوء هذا المصاب الجلل، وأولى الخطوات في تصحيح الأوضاع هي التخلص من أخت القاتل، وإن كانت زوجة القتيل، وفي مقام الملكة لهم بحسب مقام زوجها، الذي كان يتصرف كملك أيضاً، إن إظهار العداء والنفور، والتخلص من العار هو الغرض الذي خرج إليه هذا الأمر...!

وهذه (هِنْدُ بنتُ عُثْبَةَ)، تعيد ترتيب علاقاتها بحسب مواقف الأشخاص مما تؤمن به وتعتقده، فهاهي تعلن نفورها وعداءها لأقرب الناس إليها، زوجها أبي سفيان، حين عاد بالوساطة والهدنة مع النبي محمد ﷺ على مشارف فتح مكة، فأخذت برأس أبي سفيان وقالت: مَا وَرَاءَكَ؟ ولَمَّا أَخْبَرَهَا، قَالَتْ: "قَبَّحَكَ اللَّهُ رَسُولِ قَوْمٍ"، "أَقْتُلُوا وَإِدْكُمْ هَذَا، قَبَّحَكَ اللَّهُ وَإِدْ قَوْمٍ"^{٣٧٥}، فقد خيب ظنها، وصدّمها موقفه المتضعع أمام هذا المدّ المحمدي، فتوجه أمراً لقريش بأسرها لكي تقتل هذا الرجل ..!

^{٣٧٣} - السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢ / ٣. والروض الأنف، للسهيلى: (وِيهَا أَبَا دَسْمَةَ اِشْفِ وَاِسْتَشْفِ) ٢٤٣ / ٣. زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية: ٣ / ٣٥٦. في فتح مكة.

^{٣٧٤} - الأغاني، للأصفهاني: ٤٠ / ٥.

جليلة بنت مرة الشيبانية، شاعرة فصيحة من ذوات الشأن في الجاهلية. وهي أخت جساس "قاتل كليب" وهي زوجة كليب أيضاً، رحلت إلى قومها بعد مقتل زوجها، الأعلام للزركلي: ١٣٣ / ٢. معجم أعلام النساء " الدر المنثور" زينب العاملي: ٢١٥ - ١٢٦.

^{٣٧٥} - المغازي للواقدي: ٨٢٣ / ٢، في دخول جيش المسلمين مكة فاتحين. وقد خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ فَتَقَدَّمَ النَّاسَ كُلَّهُمْ حَتَّى دَخَلَ مِنْ كَدَاءٍ وَهُوَ يَقُولُ مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى هِنْدٍ فَقَالَتْ لَهُ (..)

الإسْتِرْحَامُ وَالْعَطْفُ :

يُلْتَقَطُ من خطاب هذه (الأمُّ) التي تَفْدِي ابنها من عقاب عمرو بن هند، وقد قرر إحراق الرجال بالمشي على حجر الصفا الحامي، فقالت: " يابُنِي قِ بِنْدِي قَدَمَكَ، وَأَقْلَلْ بوطئهما أَلَمَكَ " ٣٧٦

إن فعلي الأمر: (ق، أَقْلَلْ)، يظهران مدى العطف والرحمة والفدائية التي تتجلى في هذا الخطاب الناجز على أرض الواقع، تقول الرواية إنها قطعت ثدييها فعلا ورمت بهما على الصفا المحماة، لا لتنفذ حياة ابنها، ولكن للوقاية من الحرارة، أو على أقل تقدير كي يخف الألم عليه، إذ يعبر عليهما فيشكلان عازلا عن حرارة النار..، هذا الموقف الاستثنائي قد أبكى حتى الجلاء..!!

التَحْذِيرُ :

في خطاب (ابنة الأَجَلحِ بنِ قَاسِطِ)، وقد لحق بابني حُمِيضَةَ بنِ بحير وقد قالت له يريد الثأر، وقد كان في عجلة من أمره فلم يحكم شد الدرع أو قراب السيف، فانتبهت لذلك، فصاحت به في عبارة مقتضبة وواضحة: " شُدَّ عَلَيْكَ الْجُرْبَانِ " ٣٧٧

إنَّ هذا الأمر جاء للتحذير كما أنه للنصح، ليحذر موضع الارتخاء في الدرع وقراب السيف، إذ من الممكن أن يكون مضرب مقتل، لكنه لم يهتم لكلامها، فقتل من حيث حذرتة..، إنَّ هذا الفعل يظهر دقة الملاحظة عند هذه المرأة، ويظهر حس المبادرة و المسؤولية، وأيضا يظهر خبرة كبيرة ومعرفة لا يستهان بهما عن طريقة التسلح و لبس الأسلحة ومواطن الخلل في ذلك كله..!!

وفي سياق مماثل يأتي خطاب امرأة من الحي: " اقبض حيزوم فرسك يا أبا زيد! " ٣٧٨، مع الأخذ بعين الاهتمام أن هذا الرجل ليس أحد أقرباء المرأة أو من تهتم لأمره اهتماما خاصا، إنه فارس في القبيلة، ومع ذلك فهي تلتقط نقطة ضعفه، وتحاول تحذيره، وهذا يدل على حرص هذه المرأة على السلامة الجمعية للقبيلة ومن يمثلها، وحس المسؤولية عندها..!!

ومن الإنذار والتحذير ما قالته (امرأة من هُدَيْل) لابن لها: " أي بني انطلق إلى أخوالك فأنذرهم

٣٧٦ - غرر الخصائص الواضحة وعرر النقااص الفاضحة، للوطواط: ص: ٣٩٩.

٣٧٧ - أيام العرب في الجاهلية. محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي: ص: ٣٠٧. يوم هراميت.

٣٧٨ - الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير، للهمداني: ص: ٥٨.

بأن عاصية السلمي قد أمسى يريد هم " ٣٧٩

إن هذه (الأم) ترسل ابنها إلى أخواله لتحذيرهم وإنذارهم من غزو مؤكد، ولزيادة الحرص فإنها تختار ثقتها من أهل بيتها (ابنها)، وتحرص أيضا على مضمون الرسالة، من تحديد للزمان و لاسم قائد لهذا الغزو بحيث لا تدع مجالا للشك، ونرى موقفا جليا لموازرة هذه المرأة لأهلها رغم الخطر الذي يحرق بها...!!

التخطيطُ والتبريرُ :

وفي هذا المنحى تكون هذه الأوامر عبارة عن خطة استراتيجية لتحقيق أمر ما، قد يكون ذلك خطة لشن حرب، أو الخروج من أزمة حرب أو تداعياتها، ومن المنحى الأول:

ما ذكر في خبر مدينة الحضرة (النضيرة بنت الضيّن) مع سابور، فأرسلت إليه: "مَا تَجْعَلُ لِي إِنْ دَلَّتْكَ عَلَى مَا تَهْدِمُ بِهِ سُورَ الْمَدِينَةِ ؟؟" فقال: أحكمك وأرفعك على نسائي؛ فقالت: "عَلَيْكَ بِحَمَامَةٍ وَرَقَاءٍ مُطَوَّقَةٍ فَأَكْتُبِ عَلَى رِجْلِهَا بِحَيْضِ جَارِيَةٍ بَكَرٍ زَرْقَاءٍ ثُمَّ أَرْسِلْهَا فَإِنَّهَا تَقْعُ عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ فَيُخْرَبُ." ٣٨٠

ف(النضيرة) تستغل مكانتها، وتتطوع للتجسس على والدها وبلدها، وتكشف له بلغة يومنا، معلومات عسكرية استراتيجية، أولى هذه الخطوات هي إعلامه أن المدينة محروسة بظلم لا يعرف فك شفرته إلا الخواص من أهل الثقة، -والتي لم تكن أهلا لها-، والخطوة الثانية في الاستراتيجية: أن تعلمه كيف يفك الشفرة، والثالثة تحدد له توقيتا معينا لتنفيذها...!!

يلحظ ذلك من خلال التركيب اللغوي الذي استخدمت في الأول حرف الجر(الفاء/ثم) على التوالي، فالأول يدل على الترتيب والتعقيب، بينما الآخر يعطي معنى التراخي، والتركيب الأول في الجملة يدل منذ البداية على الانقضااض والعجلة، فبعد صيد الحمامة مباشرة عليه أن يكتب على رجلها تحديدا بحيض جارية بكر، نتبين دقة هذه الاستراتيجية والتوقيت، بأن الحمامة حال صيدها تكون خائفة ومرتبعة، ويبدو أنه من الأجدى الكتابة على رجلها وهي في تلك الحال من الانفعال، وعلى رجلها

٣٧٩ - الأغاني، للأصفهاني: ١٢ / ٧٣. إحسان عباس وآخرون.

٣٨٠ - الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١ / ٢٧١. ١ / ٢٩٨. عيون الأخبار: ٤ / ١١٩ - ١٢٠. شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو: ص: ٤٥٨.

تحديداً أي حيث التماس المباشر بين الحمامة وسور المدينة، ويأتي التراخي بعد ذلك، لإعطاء الدم فرصة ليحف، (فَاكْتُبْ، ثُمَّ أَرْسِلْهَا) ، وكان ذلك طلسم المدينة لا يهدمها إلا هذا ففعل وتأهب لهم...!!
وفي موضع آخر، قالت: "أنا أسقي الحرس الخمر فإذا صرعوا فاقتلهم وأدخل المدينة".^{٣٨١} وهنا لا تكتفي بوضع الاستراتيجية له، بل هي أيضاً تشرك نفسها، وتعطي نفسها دوراً قيادياً فعلياً في الهجوم، أي في العمل العسكري الميداني، وتكون رأس الحربة، حيث ستفقد الحرس وعيهم، وتعطيه الأمر بعد ذلك لقتلهم...!!

واستراتيجية مشابهة لتلك تضع لمساتها (أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتِيكَ)؛ وقد ذهب إلى خبير لقتل أبي رافع اليهودي، فقالت لهم: ادخلوا في خمر^{٣٨٢} الناس فإذا هدأت الرجل فاقموا.^{٣٨٣} فلما هدأت الرجل قالت: انطلقوا حتى تستفتحوا على أبي رافع فقولوا: إنا جئنا لأبي رافع بهدية، فإنهم سيفتحون لكم.^{٣٨٤}
لا شك أن هذه الاستراتيجية التي ابتدعتها هذه المرأة تناسب السياق المخصوص الذي هم فيه، إنها استراتيجية التخفي والتي تقوم على ثلاث مراحل للوصول إلى الهدف:

- ١- الاختباء في أوساط الناس والاندساس بينهم.
 - ٢- إذا خف الناس، فعليهم الاختباء والاستتار حتى لا يفتن إليهم.
 - ٣- الحيلة للوصول إلى أبي رافع اليهودي، وصولاً إلى قتله.
- إنّ هذا الوعي الميداني لافت جداً، والحيلة التي اختارتها، إنما اختارتها لفاعليتها مع هذا الشخص تحديداً، وهذه الأفعال رُتبت حسب هذه الرؤية الاستراتيجية، والمعرفة القبلية برقعة الحدث، وطبيعة الناس فيه، وهذه المرأة رغم أنها لم تنزل على يهوديتها إلا إنها لم تخذل ابنها بالرضاع، ونصرته وفق المبدأ الجاهلي المعروف...!!

^{٣٨١} - تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٤٩/٢. الأغاني، للأصفهاني: ٩١ / ٢. إحسان عباس وآخرون. شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو: ص: ٤٥٨.

^{٣٨٢} - دخل فلان في خمار الناس أي فيما يواريه ويستتره منهم. لسان العرب (خمر).

^{٣٨٣} - كمن فلان إذا استخفى في مكن لا يفتن له. لسان العرب (كمن).

^{٣٨٤} - المغازي للواقدي: ١/ ٣٩٣، في أخبار سرية ابن عتيك إلى أبي رافع. سنة ٦ هـ. السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٢٧٥. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٤٩٧-٤٩٨-٤٩٩. سنة ٣ هـ. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٢/ ١٩٠. أم عبد الله بن عتيك، امرأة يهودية أرضعته، فاستعان بها في مهمته الجهادية.

وهذه (امرأة من بني نفاثة)، قالت لنساء القبيلة: "اجهروا الكلام، والبسوا السلاح، فإن لنا عدة فواللات ما هم إلا تأبط وأصحابه." ٣٨٥

إن هذه (المرأة) تضع خطة طوارئ وإنقاذ سريعة بحسب السياق الميداني المفاجئ الذي وجدت نفسها فيه، فالقبيلة في الغزو، وليس في الحي إلا الشيوخ والأطفال والنساء، فتقترح على النساء خطة تعتمد على التمويه والخداع البصري و الصوتي، حيث ستلبس النساء ملابس الرجال ، ويجهرن بأصواتهن، ويتسلحن، وهي تعتمد على صورة الكثرة التي تعبئ العين، وتشكل مدًا بصريا أمام العدو، وذلك في رأيها كاف لإخافة الغائرين، ولكن ترتيب هذه الأفعال لافت جدا، فقد أمرت بالجهر بالصوت أولا، لأن الصوت أسرع في الوصول، وهذا ما عنته بالضبط حيث تريد إرهابهم وإبعادهم وإيقافهم حتى لا يقتربوا أكثر ويقع ما تخشى عواقبه، والصوت أسرع وصولا، ثم تعطي الصورة البصرية حقها من حيث الحجم والشكل وقوة الإيحاء بالجهوزية بارتداء السلاح، وأخيرا هي تبث الثقة في نفوس صويحباتها، فلعلهن يتهيبن الموقف، فتفضح الخطة ويقع المحذور، فتؤكد أنهن يمتلكن كل ما يلزم لحماية أنفسهن والقبيلة، إضافة إلى أن العدو " ما هم إلا تأبط وأصحابه." ، وهذا القصر أفاد التحقير..!!

التفويض والتسليم :

نقرأ هذا في خطاب (أم عثمان بن طلحة) وتسليم مفتاح الكعبة بعد فتح مكة؛ فبينما هم على ذلك وهو يكلمها إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر في الدار وعمر رافع صوته حين رأى إبطاء عثمان: يا عثمان أخرج إلي. فقالت أمه: " يا بني خذ المفتاح فإن تأخذه أنت أحب إلي من أن يأخذه تيمم وعدي." ٣٨٦

تأتي هذه الأحداث على خلفية فتح مكة، وتغير موازين القوى على أرض المعركة، وقد كان هذا الفتح المبين، الذي أعز المسلمين وأذل الكافرين، وهذا الرسول ﷺ يستعيد مقاليد الأمور، ويعيد توزيع المهام والمسؤوليات، وهو هنا يأمر باسترجاع مفتاح الكعبة الذي كان عند أم عثمان بن طلحة ، ولكنها وفق عقيدتها، ومنزلتها، ومنزلة المفتاح ومكانة من يكون عنده ترفض تسليمه، فيما ابنها يحاول

٣٨٥- الأغاني، للأصفهاني: ٢١/ ١١٩-١٢٠. إحسان عباس وآخرون. " امرأة من بني نفاثة بن الديل أغار عليهم تأبط شرا، فقالت امرأة منهم ذلك.

٣٨٦- المغازي للواقدي: ٢/ ٨٣٣، في تسليم مفتاح الكعبة إلى النبي ﷺ بعد فتح مكة.

إقناعها، ثم تستسلم و تسلم الأمر لاینها، فذاك أهون عليها من أن تسلمه لغيره، فجاء هذا الأمر على سبيل التفويض له بالتصرف !!..

الاستغاثة:

وهنا سياق حرب بين قبيلة زوج المرأة وقبيلتها الأم، إنها زوج ضماد بن مسرح بن النعمان بن جبار بن سعد (امرأة من دوس)، وقد هجم عليها أخوها مريان بن سعد الدوسي فضمت رجلها على ابن لها من ضماد وقالت تلوذ به: "يا أخي اصرف عني القوم، فإني حائض لا يكشفوني" ^{٣٨٧}، إن فعل الأمر هنا جاء في سياق الاستغاثة بهذا الأخ، في غضون هذه الهجمة الشرسة، ولم تكن هذه الاستغاثة لاستنقاذ نفسها، بل لحماية طفلها الذي خبأته بين رجلها، وادعت أنها حائض، واستغاثت بأخيها تستثير نخوته وحميته على عرضه، لأنها تعلم إن كان شيء سيحدث في تلك الحال فهو العرض والشرف والخوف من العار..، ولكن هذه الحيلة لم تنطلي على هذا الأخ الذي بلغ من القسوة والفظاظة أن يشتم هذه الأخت، ويطعن طفلها وهو بين رجلها ليقتله، نقمة على زوجها وقبيلته...!!

وهذا خطاب (سلمى) زوج عروة بن الورد، أتت قومها، فقالت: "إنه خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام، فتعالوا إليه، وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب، صحيحة سبيته، وافتدوني منه، فإنه لا يرى أنني أفارقه، ولا أختار عليه أحداً" ^{٣٨٨}

ومن الاستغاثة (التخطيط والتدبير) ما وُضع للتخلص من آثار الحرب، وخاصة الأسر، وهذه الأسيرة زوج عروة بن الورد، وأم بنيه، تحاول التخلص من ذل الأسر بعد سنوات قضتها، وصارت تسعى لذلك بكل وسيلة، وترسم له كل حيلة، حتى تحقق مرادها، فالتصقت من زوجها أن يزيها أهلها وهي في طريقها للحج، فاحتالت للقائهم، واستغاثت بهم لكي يخلصوها منه، رغم أنها لا تكرهه، وتضع لهم استراتيجية واضحة، بل وسيناريو وحوارًا محددًا، يظهران مدى حرصها على نجاح هذه الخطة، وتستعمل لذلك أفعال أمر (فتعالوا، وأخبروه، وافتدوني).

^{٣٨٧} - الأغاني، للأصفهاني: ١٣ / ١٥٥. إحسان عباس وآخرون. في حرب بين دوس وبني الحارث.

^{٣٨٨} - الأغاني، للأصفهاني: ٣ / ٥٣. انظر: مجالس ثعلب: ٤٥١/٢، نثر الدر، للآبي: ٨٩/٤. شعراء النصرانية قبل الإسلام:

الْوَصِيَّةُ :

ومن صور الأمر ما أوصت به (سلمى) زوج عمرو بن الورد، بعد أن عادت لأهلها واستعادت كرامتها، وشعرت بأنها على قدم المساواة ولأول مرة معه، فلم تعد أسيرته، لكنها لا تزال تعامله بلطف وتثق به، ولذا هي توصيه بأبنائهم قائلة: "فَارْجِعْ رَأْشِدًا إِلَى وُلْدِكَ، وَأَحْسِنِ إِلَيْهِمْ" ^{٣٨٩}، و يتبين في هذه الوصية و كأنها تسلخ نفسها عن هؤلاء البنين، وتتخلى عن مسؤوليتها لهذا الأب، وهي لا تجد أنه من الحكمة المطالبة بأبنائها في ظل هذه الظروف الاستثنائية، ولذا تنسبهم إليه وحده (وُلْدِكَ)!! وفي هذه النسبة نظر، فقد تلمح إلى أن عليه ألا يجافهم لأنها تركته، أو يسيء معاملتهم نقمة أو غضبا مما قامت به، فهي تذكره بأنهم بنوه، بوجودها كأمٍ أو غيابها !!..

التَّحْقِيرُ :

ومن أفعال الأمر التي حققت هذا الغرض، ما قالتها ابنة امرئ القيس، حين أسر سلمة بن مرة الناموسي امرأ القيس بن النعمان اللخمي الملك، وكان الناموسي قصيرا مُفْتَحَمًا، واللخمي طويلا جسيما، فقالت (بنت امرئ القيس) لسلمة: "يَاهَذَا الْقَصِيرِ أَطْلُقْ أَبِي" ^{٣٩٠}، وهذا الأمر خرج إلى التحقير، لأنها نظرت إلى الأسر فلم تجد وجه مقارنة بينه و بين أبيها الملك لا شكلا ولا مضمونا، وظنت أن أمرها وحده جدير بإطلاق أسر والدها، لانعدام الكفاءة!!..

وأثناء تلك الحرب المستعرة يوم حضر الوادي بين دوس وبنو الحارث، أقبلت دوس فأنزل خالد بن ذي السبلة بناته (هندا وجندلة وفطيمة ونضرة)، فبنين بيتاً، وجعلن يستقن الماء ويحضن، وكان الرجل إذا رجع فاراً أعطيته مكحلة ومجمر، وقلن: "أَهْلًا مَعَنَا فَاَنْزِلْ". ^{٣٩١} أي يشبهنه بالنساء الاتي لا شأن لهنّ بالحرب، تحقيرا له، إذ ليس على النساء قتال، ومبالغة في الصورة يهدين الرجال المتخاذلين زينة النساء، وإن كان في هذا تحضيض، فإن فيه تحقيرا أيضا يحفز به هؤلاء الرجال على غسل العار بالعودة لميدان القتال.

وقالت أخت كليب بعد مقتل زوجته (جليله بنت مرة): "يَاهَذِهِ أَخْرَجِي عَنْ مَاتِمْنَا فَأَنْتِ أَخْتُ"

^{٣٨٩}-المرجع السابق.

^{٣٩٠}-المستطرف، للأبشيهي: ص: ٣٥٢-٣٥٣.

^{٣٩١}- الأغاني، للأصفهاني: ١٣ / ١٥٦. إحسان عباس وآخرون. في حرب بين دوس وبنو الحارث.

واترنا وشقيقه قاتلنا^{٣٩٢}، وأيضا هذا الأمر (أخرجي) خرج إلى التحقير (للجيلة)، بطردها من الماتم ومن القبيلة بأسرها، واعتبارها عدوة، وإن كانت أخت كليب تعطي مسببات تعرفها الجيلة حق المعرفة، وفي هذا السياق ولتأكيد هذا التحقير لا تذكر اسمها: "يا هذه".

ومن الأمر للتحقير أيضا ما ورد في الحكاية الشهيرة بين (أم عمرو بن هند) و(ليلى بنت المهلهل بن ربيعة)، وخالة الشاعر امرئ القيس، قالت (هند) أم عمرو بن هند: "يأليلى، ناوليني ذلك الطبق^{٣٩٣}"، ففي سياق الحكاية أن ابن هند كان قد سأل حاشيته عن تأنف من خدمة أمه، فذكرت عنده ليلى أم عمرو بن كلثوم، فافتعل هذا السيناريو ليصل إلى تحقير (ليلى) بإخدامها أمه، وكانت نتيجة ذلك فقدانه لحياته وسبة لقبيلته، وتاجا على مفرق عمرو بن كلثوم وقبيلته!!..

الإستعلاء:

ومن هذا النوع ما حدث من رد فعل (ليلى) أم عمرو بن كلثوم على أمر (هند) أم عمرو بن هند: "لنقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها"، فقد أنفت (ليلى) من خدمة هند، وقد فهمت ما تعنيه، وذلك دليل فهم وحنكة ومعرفة للمنزلة التي تحتلها كل منهما، وهذا الحس التنافسي بين المرأتين، إنما هو صورة مختزلة للصورة التنافسية الكبرى التي ترخي بظلالها على القبيلتين، والتي لا تكاد تفارق الوعي واللاوعي، بحيث ينبض التواصل بينهما بهذه الجهوزية والفاعلية للتقاط كل ما من شأنه أن يمس هذه الصورة أو يخدشها، لينحسر لثام الهدنة الهش عن حرب ضروس مستعرة في وجه كل محاولات التصنع والتراضي، وجاء فعل الأمر هنا مضارعا مقترنا بلام الأمر!!..

قالت (أم جميل) - وهي حمالة الحطب- لابنها: "طلّقها يا بُني، فإنّها قد صَبَّتْ"^{٣٩٤}، أي دخلت في الدين الجديد: الإسلام، تعالياً عليها وعقاباً لها، ولأنها ترى وفق منظور اجتماعي أيضاً: أن طلاق المرأة لمخالفتها زوجها في العقيدة التي تعدّ العقيدة السائدة والعليا هو قمة الإذلال والتحقير، وهو تعالٍ صريحٍ وازدراءٍ معنٍ لهذا الدين الجديد الذي لا يناسب مكانتهم الاجتماعية!!..

وهذه (سبحاء الحبشية)، تتصرف بتعالٍ شديد، وكأنها ليست سبية أبداً، يُلاحظ ذلك من أسلوب

^{٣٩٢} - المرجع السابق: ٤٠/٥. معجم أعلام النساء " الدر المنثور"، زينب العاملي: ص: ٢١٥-٢٢٦.

^{٣٩٣} - خزانة الأدب، للبغدادي: ٣/١٨٥. الأغاني، للأصفهاني: ١١/٣٦. إحسان عباس وآخرون.

^{٣٩٤} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١٦/٧٢-٧٣.

خطابها، حيث تتجلى سلطة هذا الخطاب في إملائها الشروط على سابيها، حيث قالت له: "لي إليك ثلاث حوائج، تُعْتَقُ هَوْلَاءِ الضُّعْفَاءِ الَّذِينَ مَعَكَ، وَلَا تَمَسَّنِي حَتَّى تَصِيرَ إِلَى بَلَدِكَ وَدَارِكَ. وَلَا تَحْمَلْنِي عَلَى أَنْ أُغَيِّرَ دِينِي."^{٣٩٥}، تعتق، أي أعتق.

التعزية والمواساة:

نلمس ذلك في خطاب (وَجَزَةَ بِنْتِ الْخَطِيمِ) " اسْكُتْنَ، فَوَاللَّهِ لئن كَانَ ظَنِّي "ببني عَمْرُو وهم الضَّبَابُ" لِيَبْتِنَنَّ اللَّيْلَةَ فِي بَنِي جَعْفَرٍ نَوْحٌ كَثِيرٌ"^{٣٩٦}، وذلك لما رأت من جزعهن وحرزنهن وخوفهن من كثرة مَنْ قَتَلَ مِنْ قَوْمِهِنَّ، وقد أرادت أَنْ تَطْمَئِنَّهِنَّ، فأمرتهن بالسكوت، ولم يكن ذلك لمجرد إسكاتهن، وإن كان بتغيير الحقائق وقلبها، بل تقوله عن ثقة وبمنتهى الصدق، تبني ذلك على معرفة قلبية بقومها وشجاعتهم، وبعدم تركهم لثأرهم، وتريد أن تبت هذه الثقة في نفوسهن فيهدأن، وتعزي المتكولات منهن بالثأر القريب المرتقب!!..

الإجارة (العفو والسَّاحُ):

هذه الإجارة أو هذا العفو والسماح اللذان منحتهما (سُبَيْعَةُ بِنْتُ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ مَنَافٍ) لزوجها في حربه مع قومها قريش لما انهزم واستجار بها فقالت: "كَلَّا رَعِمْتَ أَنْتَ سَتَمَلَأُ بَيْنِي مِنْ أَسْرَى قَوْمِي، اجْلِسْ فَأَنْتَ آمِنٌ."^{٣٩٧} فهو لم يهن عليها ولم تخذله رغم استخفافه بها ويقومها قبل الحرب، لكنها منحتة جوارها، وتعاطفها الكامل ولم تقبل أن يتذلل لها، بل سارعت للاستجابة لاستجارته!!..

التصدي:

في حكاية يرويها عمرو بن معديكرب عن (امرأة تُسبِي)، وفي الطريق يقتتل أبوها وأخوها وسابيها ويموت الثلاثة أمام عينيها ولأجلها، كل واحد منهم فارس لا يشق له غبار، وتوول إلى معديكرب، فتطلب أن يتركها، فيأبى، فتقول له: ". فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَأَعْطِنِي سَيْفًا وَرُمْحًا، فَإِنْ غَلَبْتَنِي فَأَنَا لَكَ، وَإِنْ غَلَبْتِكَ قَتَلْتُكَ!!.."^{٣٩٨}، لكنه بعد أن رأى ما عليه أبوها وأخوها، وما رأى من جرأتها وثباتها، قد خاف

^{٣٩٥} - المرجع السابق: ١٥٨ / ٦.

^{٣٩٦} - أيام العرب في الجاهلية، على البجاوي، أبو الفضل إبراهيم: ص: ٣٠٦ "يوم هراميت".

^{٣٩٧} - الأغاني، للأصفهاني: ٢٢ / ٧٤. تح/ علي السباعي. عبد الكريم الغريابوي.

^{٣٩٨} - نهاية الأرب: للنويري: ٢ / ١٩٣-١٩٤ .

منها، فهي لا تقل عن الثلاثة جرأة وقوة وعزة نفس حتى إنها أهوت إلى عمرو تريد قتله مجردة من السلاح بل تريد انتزاع سلاحه، فقتلها خوفاً منها...!! ففعل الأمر (أعطني) قد خرج إلى معنى التحدي والندية التي تعرفها من نفسها في مواجهة فارس كعمرو بن معديكرب، بل وقد وضعت كافة الاحتمالات إلا أن تستلم...!!

الحض والترغيب:

وذلك في خطاب (بُهَيْسَةَ بِنْتُ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ) لزوجها وقد أراد الدخول بها، وكان ذلك في أثناء حرب داحس والغبراء، قالت: "أَتَفْرُغُ لِنِكَاحِ النِّسَاءِ وَالْعَرَبُ تَقْتُلُ بَعْضَهَا ؟!..؟"، أَخْرَجَ إِلَى هَوْلَاءِ الْقَوْمِ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِكَ فَلَنْ يَفُوتَكَ شَيْءٌ...؟! " ٣٩٩

وقد وافقت على الزواج به وهي تعرف نفسها حق المعرفة، ابنة من، وستصبح زوج من، وبالتالي فهي تمارس أول أدوارها بحض زوجها وترغيبه للوساطة والصلح بين الأطراف المتنازعة في حرب داحس والغبراء، ففعل الأمر قد خرج إلى الحض والترغيب في الإصلاح بين القوم، أما هي فتنتظر أن يرجع لها الرجل الذي يقدم المصلحة العامة على الخاصة، ومع ذلك فلن يفوته شيء...!

التطين:

وتقع (كِرَامَةُ ابْنَةُ عَبْدِ الْمَسِيحِ) في الأسر، وتسلم لرجل من المسلمين كان قد طلبها من رسول الله ﷺ حين بشر بفتح الحيرة، فلما فُتحت الحيرة سألتها خالد بن الوليد، فأبى أهلها، فقالت لقومها: "ادْفَعُونِي إِلَيْهِ، فَإِنِّي سَأَفْتِدِي مِنْهُ وَإِنَّهُ قَدْ رَأَى وَأَنَا شَابَةٌ".^{٤٠٠}، بينما يعيش الأهل حالة الخوف والاضطراب، تحاول أن تطمئنهم، وتسكن روعهم، وترضى وتسلم وتشرح لهم وجهة نظرها، فإن المال سيطمعه، وأما هي فلم تعد شابة، فإذن.. لا مكان للخوف، فجاء فعل الأمر (ادْفَعُونِي) لتحقيق هذه الغاية، هي زرع الطمأنينة والسكينة في قلوب الأهل والأحبة..!

^{٣٩٩} شعراء النصرانية قبل الإسلام، الأب لويس شيخو ص: ٥٢٦، الأغاني، للأصفهاني: ١٠/١٣٢-١٣٣. إحسان عباس وآخرون.
^{٤٠٠} -البداية والنهاية، لابن كثير: ٦/٣٤٧. حينما ذكر الرسول ﷺ قصور الحيرة؛ فقال رجل يقال له شويل: يا رسول الله هب لي ابنة بقلية. فقال: "هي لك". فلما فتحت ادعاهما شويل، وشهد له اثنان من الصحابة فامتنعوا من تسليمها إليه وقالوا: ما تريد إلى امرأة ابنة ثمانين سنة؟

ثانياً: اسمُ فعلِ الأمرِ:

يقول الشريف الجرجاني: " أسماء الأفعال ما كان بمعنى الأمر أو الماضي .."^{٤٠١} ومنها القياسي عل وزن فَعَالٍ، والمنقول عن أصل^{٤٠٢} كما في المثالين التاليين:

ومن ذلك خطاب (عَجُوزِ كِنَانِيَّةٍ) لامرئ القيس بن حجر الكندي وقد أغار عليهم للأخذ بثأر أبيه: "أَبَيْتَ اللَّعْنَ! لَسْنَا لَكَ بِثَأْرٍ، نَحْنُ مِنْ كِنَانَةٍ، فَدُونِكَ تَأْرَكَ فَاطْلُبُهُمْ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ سَارُوا بِالْأَمْسِ."^{٤٠٣} (فيدونك) اسم فعل أمر منقول عن الظرفية، خرج إلى التوبيخ والاستنكار من هذا الملك الذي ينزل العقاب ويهجم على الأبرياء بلا تبصر..!

وخطاب (النَّضِيرَةُ ابْنَةُ الضَّيْرَانِ) "....عَلَيْكَ بِحَمَامَةٍ وَرَقَاءٍ مُطَوِّقَةٍ..."^{٤٠٤}، اسم فعل أمر منقول عن الجار والمجرور، بمعنى الزم، وفيه معنى الإلزام بهذه الخطة وحرفياً لضمان نجاح المهمة والوصول إلى الهدف وهو هدم الحصن والاستيلاء على المدينة..!!

وفي خطاب (هِنْدِ بِنْتِ عَتْبَةَ) لوحشي: "إِيَّهَ أَبَا دَسْمَةَ، اِشْفِ وَاشْتَفِ."^{٤٠٥}، اسم فعل أمر بمعنى زدني، وهي في سياق التحريض والتشجيع على الانتقام والأخذ بالثأر..!!

اللُّومُ وَالتَّوْبِيخُ:

وهذا في خطاب (أَمَامَةَ) زوج الجموح الظفري: "هَلَّا رَمَيْتَ تِلْكَ النَّيْلَ الَّتِي كُنْتَ آلَيْتَ لِتَرْمِيَنَّ بِهَا...!!؟؟!"^{٤٠٦}، وذلك في حرب بين بني لحيان وبني سهم بن هذيل، وبني سليم وقائدهم أبي بشر الذي تعاهد معه الجموح على الموت معا، وكان في كنانة الجموح أسهما سود معلّمة، أقسم أن يرمي بها عدوه أجمع، ولكن الهزيمة حلت به وبقبيلته، وقتل أبو بشر، فلما عاد بأسهمه، قالت له امرأته هذا، تلومه وتوبخه على ما عدته تقصيرا منه، وخذلانا لصاحبه من جهة، ولقبيلته من جهة أخرى..!!

^{٤٠١} - التعريفات، للجرجاني: ص: ٢٥.

^{٤٠٢} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٣١٤/١.

^{٤٠٣} - الأغاني، للأصفهاني: ٦٨/٩. د. إحسان عباس وآخرون.

^{٤٠٤} - الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢٧١/١-٢٩٨. عيون الأخبار: ٤/١١٩-١٢٠. شعراء النصرانية قبل الإسلام: ص: ٤٥٨.

^{٤٠٥} - السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢/٣. والروض الأنف، للسهيلي: "وَيْهَا أَبَا دَسْمَةَ اِشْفِ وَاشْتَفِ" ٣/٢٤٣. زاد المعاد في

هدي خير العباد لابن القيم الجوزية: في فتح مكة. ٣/٣٥٦.

^{٤٠٦} - خزائن الأدب، للبغدادي: ٤٦٢/١.

المصدرُ النَّائِبُ عَنِ فِعْلِهِ:

لما رحلت جليلة " قالت أخت كليب: " رِحْلَةُ الْمُعْتَدِي وَفِرَاقُ الشَّامِتِ، وَيَلَا غَدًا لـ "آلِ مِرَّةٍ" مِنَ الْكِرَّةِ
بعد الْكِرَّةِ " ٤٠٧

وهكذا نلاحظ استعمالاً أقل لأسماء الأفعال في خطاب الأمر، وأكثر لفعل الأمر المباشر بأغراضه
البلاغية المتنوعة التي خرج إليها وفق السياقات المختلفة التي اندرج فيها..!!

وفي هذا النوع من الآفاق الدلالية التي يرتادها أسلوب الأمر، أو اسم فعل الأمر، نجد المرأة في
سياق منفتح على تجربتها المتكاملة تستخلص منها مخارج وحلول تقدمها للخروج من مآزق، أو كما
يعبر عنها اليوم، وضع استراتيجية إنهاء الأزمة، أو رسم خارطة طريق أو تسوية ما، وهي في كثير
من الأحيان تحترم المخاطب، وتحتوي غضبه، خاصة في سياق النزاعات الحرجة، حيث الغليان سيد
الموقف، وآخر ما يريده أحد الأطراف أن يقترح عليه أحدهم حلاً غير الذي يراه، ولذلك فهي تقدم
نصيحتها في لبوس من الحكمة، وتلتمس لها وسائل لإقناع..!

٤٠٧- الأغاني، للأصفهاني: ٤٠/٥. إحسان عباس وآخرون. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٤١٤. نهاية الأرب، للنويري: ٥/
٢١٥. شعراء النصرانية قبل الإسلام، الأب لويس شيخو: ص: ٢٥٢. والأعلام للزركلي: ٢/١٣٣. معجم أعلام النساء " الدر المنثور"،
زينب العاملي: ٢١٥-١٢٦.

الْأَمْرِ

فِيهِ (عَصْرُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

وستحاول هذه الدراسة اقتناص الانزياحات الأسلوبية التي خرج إليها أسلوب الأمر في خطاب المرأة النثري في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، مستجلية الأغراض التي خرج إليها، مستشعرين تلك الدفقات الدلالية المتولدة من حركية وحيوية هذا الأسلوب بدلالاته المتنوعة ، والتي منها :

النُصْرَةُ وَالْمَنْعَةُ :

تُلَقِّطُ من خطاب (أَرْوَى بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)، قالوا لها: " وقد اتبعت محمدا..؟ فجاءها أبو لهب لائما، فقالت: " قَدْ كَانَ ذَلِكَ، فَقُمِّي دُونَ ابْنِ أَخِيكَ، وَاعْضُدِي، وَامْنَعِي ، فَإِنْ يَطْهَرُ أَمْرُهُ، فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ، أَنْ تَدْخُلَ مَعَهُ، أَوْ تَكُونَ عَلَى دِينِكَ، وَإِنْ يُصِيبُ كُنْتَ قَدْ أَعْدَزْتَ فِي ابْنِ أَخِيكَ. " ٤٠٨

السياق سياق استنهاض، و سياق فاعلية، ونصرة وتغيير موازين القوى، ولذا جاء السياق اللغوي ممثلا أصدق تمثيل لحالة المرسل والمرسل إليه..! ولذا كان الأسلوب الإنشائي بفعل الأمر سيد الموقف، ويشكل انزياحا أسلوبيا لافتا هنا، حيث وقع بين سياقين لغويين، الفعل الماضي الناقص، ثم أسلوب الشرط الممتد على مساحة باقي الخطاب حيث تطرح خيارات متنوعة تتلاءم مع طبيعة المخاطب، في محاول حثيثة لإقناعه ، فتعمد إلى أساليب عدّة في خطابها على اختزاله وقصره، أما أفعال الأمر المتوسطة بين التركيبين فهي ثلاثة أفعال: ". فَقُمِّي دُونَ ابْنِ أَخِيكَ، وَاعْضُدِي، وَامْنَعِي..".

والملاحظة الثانية على هذا السياق هي أنها حرصت على إبراز وشيجة القربى بالدم بين أبي لهب والنبي محمد ﷺ في محاولة مستميتة لاحتواء الموقف، ولعل قلب المخاطب يلين، ويكف شره على

أقل تقدير، فتذكر (ابن أخيك) بينما تتوافر أمامها خيارات كثيرة أخرى..!!

و(أَرْوَى) لا تقول له ادخل في الدين الجديد، فهي لا تريد استفزازه و الصدام معه، بل هي تستشير فيه حمية الجاهلية بالانتصار للدم، وإذا كان الشاعر يقول (البسيط):

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبَدَى نَاجِدِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا

لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا

إنَّ الشاعرَ هنا يتحدث عن مجمل القبيلة أو الأحلاف، فما بالك بقرابة الدم..!!

وموقف (أزوى) هذا ينم عن كثير من الحنكة وحسن النصرة والتدبير، بل أيضا عن قوة شخصيتها وشجاعته في مواجهة شخص ك(أبي لهب) شديد قوي غضوب على إرث آلهته وعلى مكانته وسؤدده، وهي لاتجاهر بدخولها في هذا الدين الجديد فحسب، بل وتدافع عنه جهرا، ولا تقف عند هذا الحد، بل وحتى إنها تريد من لائمها أن يتخير موقفاً جديداً بمحاولة إقناعه بأساليب خطابها المتنوعة..

الإخزاء والتحقير:

يتمثل هذا في خطاب (أُمِّ أَيْمَنَ) في أُحُد، وقد رأت الفارين من الميدان، تاركين الرسول ﷺ منكشفا لأعدائه من قريش، لتميل الكفة والريح للمشركين، فكانت تتلقى هؤلاء وتخذلهم، وتقول للرجل منهم: " هَاكَ الْمَغْزَلُ فَأَغْزِلْ بِهِ..! وَهَلُمَّ سَيْفَكَ..!"^{٤٠٩} ، وياله من إذلال وإخزاء، حين لا تكتفي بالقول له بأنه امرأة، بل أنت رجل لا تليق بك إلا أفعال النساء وشغلهن، ولا يليق بيدك السيف بل المغزل، وحتى هذه لن يستطيعها لأنه لم يعتد عليها، أما سيفك هذا فهو أليق ما يكون بيد امرأة قادرة على حمله واستعماله..!!

هذا سياق تحريض وإخزاء لكل من فرّ أو حاول الفرار من المعركة، والمغزل تحديداً، لأنه أصغر ما يكون حجماً، وأخف ما يكون وزناً، خاصة مع المقارنة المستترة مع السيف، ومقارنة أخرى هي نسبة حجم المغزل إلى حجم الرجل، ونسبة حجم السيف إلى حجم المرأة، هذه مفارقة يرصدها العقل الباطن ويفصل فيها أيضاً.. والغزل دور تمارسه المرأة مستورة في بيتها مكفولة من بعلمها، محيطة ببنيتها، وكل ما يستلزم هذا الدور..، ولذا فالقعود لهذا الدور يعد مخزياً، وقد ذكر القرآن الكريم القعود مع الخوالف..، ولم يكن ذكراً حميدا أبداً في قوله تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}^{٤١٠}، أما الآية التي بعدها: {لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ..}^{٤١١}، هذه هي المقارنة الفارقة..!!

^{٤٠٩} - المغازي للواقدي. ٢٧٨/١.

^{٤١٠} - التوبة/ ٨٧.

^{٤١١} - التوبة/ ٨٨.

الطَّائِبَاتُ:

أما (السَّمِيرَاءُ بِنْتُ قَيْسٍ)، فقد امتلأ قلبها المحب المخلص قلقا ورعبا على مصير رسول الله ﷺ، خاصة بعد إشاعة مقتله التي سرت في معسكر المسلمين، وكان صاحبها إبليس اللعين، ليتشتت شمل المسلمين، وينهاروا ويخسروا هذه المعركة، هذه المرأة لم تلتفت لولديها ولم تهتم بالسؤال عنهما، لأن كل ما يهمها هو سلامة الرسول ﷺ، ولم تكن لتتق بإخبار المخبرين، بل لن تطمئن إلا إذا رآته بأمّ عينيها، ولذا يأتي أسلوب الأمر بفعلين رديفين (أرُونِيهِ، أَنْظُرُ) هنا مكتنفا بهذه الدلالة الإيمانية الكبيرة، فلما طمأنوها على سلامته " قَالَتْ: أَرُونِيهِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ. "١٢، الرؤية: النظر بالعين وبالقلب، أمّا النَّظَرُ فهو تأمّل الشيء بالعين،^{١٣} ولذلك فقد أرادت أن تراه وتنتظر إليه...!!

أَحْثُ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْجِهَادِ:

يُلْتَقِطُ ذَلِكَ فِي خُطَابِ (أُمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ) لَهُ، وَمَعَ أَنَّ ابْنَهَا كَانَ قَدْ أَخَذَ اسْتِعْدَادَهُ وَلبس درعه و لامتّه، وهو في الصفوف المتقدمة لبروزه وشجاعته، لكنها لم تكتف بهذا، بل الأمر "الْحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ.."^{١٤}، "هذا الأمر يرتاد أفقا آخر غير مجرد اللحق، لأنه أساسا في الجيش، مع المجاهدين، لكن الانزياح نحو فعل الأمر هنا، إنما للحث على السرعة في المبادرة، وأن يكون صفا إلى رسول الله ﷺ، تلك هي المنزلة التي تبتغيها له، أي: كُنْ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ، احمه ودافع عنه، وانصره، وافده بروحك.. هذا هو معنى اللحق في خطابها، تتجاوز به معنى أن يكون أحدهم متأخرا عن ركب أحدهم فقط...!! ومرة أخرى تظهر روح الفدائية والتضحية بأعز ما تملكه المرأة، ابنها، لتقدمه بين يدي الدين عامة، وكفداء لرسول رب العالمين خاصة ﷺ...!!

^{١٢} - المغازي، الواقدي: ٢٩٢/١.

^{١٣} - انظر: اللسان: (رأى، نظر).

^{١٤} - المغازي للواقدي. ٢/ ٤٧١، ٤٧٠. في خبر غزوة الخندق. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٢٦-٢٢٧-٢٥٢. الروض الأنف، للسهيلى: ٣/ ٤٣٠-٤٣١. البداية والنهاية. لابن كثير: ٤/ ١٣٠. أسد الغابة، لابن الأثير: ٢/ ٤٦١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٩٩. كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد: ٣/ ٣٨٨ وما بعدها.

الاستعانة والاستغاثة:

هذه القرشية التي هربت من بين ظهراني قريش (أَمْ كَلُتُمُومِ بِنْتِ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ)، تصل بعد رحلة محفوفة بالمخاطر، لاهثة الأنفاس، لا تزال في عروقتها رعدة الخوف مما جازفت به وأقدمت عليه، تتراءى في مخيلتها صورة أهلها والقبيلة بأجمعها، وقد سنت عليها أسنة الغضب، ولحقت بها، ومن جهة أخرى هناك تلك المعاهدة بين الرسول ﷺ وقريش التي كانت في صلح الحديبية، وهي أن يرد عليهم كل من يفر مسلماً، هذا المحيط الخارجي المصاحب كان هذا الخطاب اللغوي ترجمة له بكل تأكيد، حيث يعد خطابها على صعيد الخطابات النسوية الموجهة للنبي، خطاباً منحرفاً أسلوبياً في شكله على الأقل، فليس هناك تلك التقدمة المعروفة، أو ذاك التأدب المتبع مع كل خطاب مع النبي ﷺ، حيث هو خطاب إنشائي مكتنف بالأمر والنهي، لكنه في هذا السياق، ومن الطبيعي أن يكون فعل الأمر مرتاداً لأفق آخر، هو طلب الغوث والاستعانة، أو بمفهوم عصرنا الحديث (طلب اللجوء السياسي)، تقول: " يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي فَرَرْتُ بِدِينِي إِلَيْكَ فَأَمْنَعِي وَلَا تَرُدَّنِي إِلَيْهِمْ يَفْتَنُونِي وَيُعَذِّبُونِي.. " ٤١٥

لقد نظر الله تعالى لهذه المرأة نظر رحمة وشفقة، فأنزل قرآناً يتلى فيها، ومن أجلها وأمثالها، اخترق البند الخاص بالنساء من معاهدة السلام، فلا يرددن إلى قبائلهن إن أتين مهاجرات مسلمات..!!
أما حكاية (صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) فِي أُطْمِ قَارِعِ، مع حسان بن ثابت و الجاسوس اليهودي، وذلك في غزوة أحد، وقد رفض حسان قتل اليهودي، ثم طلبت منه أن يعينها على السيف، لأنه كان ثقيلاً عليها، ففعل، ثم رفض سلب الرجل، تلك كانت معاناتها في تلك اللحظة العصيبة، وهي تريد أن تسد الثغرة على اليهود كي لا ينفذوا منها، تقول: " .. وَيَصْعَدُ يَهُودِيٌّ إِلَى الْأُطْمِ فَقُلْتُ : شِدِّ عَلَى يَدِي السَّيْفَ ثُمَّ بَرِّئْتَ فَفَعَلَ . قَالَتْ : فَضَرَبْتَ عُنُقَهُ ثُمَّ رَمَيْتَ بِرَأْسِهِ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ انْكَشَفُوا " ٤١٦

٤١٥- المغازي الواقدي. ٦٣٠-٦٣١. كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد: ١٠ / ٢١٨-٢١٩-٢٢٠.

٤١٦- المغازي للواقدي: ١ / ٢٨٨ . ٢٨٩ . و ٤٦٣/٢، في خبر غزوة الخندق. السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٢٨. الروض الأنف، للسهيلى: ٣ / ٤٣٣. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢ / ٥٧٧. سنة ٥٥ هـ. الأغاني: ٤ / ١٢٣ - ١٢٤. البداية والنهاية، لابن كثير: ٧ / ١٠٤-١٠٥. غرر الخصائص الواضحة، للوطواط: ص: ٣٥٥. المستطرف: ص: ٣٠٠-٣٠١. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ١٦٥.

إنَّ هذه المساعدة الصغيرة هي أقلُّ ما يمكن أن يفعله (حَسَّان) وقد رفض كل أشكال التدخل؛ من عدم التدخل في المعركة، إلى عدم التدخل في التخلص من هذا اليهودي ومن معه، فطلبت أن يعينها في ربط هذا السيف في يدها، وهذا سياق لغوي ، يكشف مدى معاناة المرأة التي تضطلع بهذا النوع من المسؤولية، ومن تلقاء نفسها.. وقد يعزَّ عليها أن تحمل السيف ضعفاً..!

الإرهابُ والتَّخْوِيفُ:

وبرواية الأغاني ، حينما احتزت (صَفِيَّة بنتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) رأس اليهوديَّ طلبت من حَسَّان أن يطوح به، فقالت: " طَوِّحْ به، فإن الرجل أقوى وأشد رمية من المرأة." ^{٤١٧}

هذا يعني أنَّ (صَفِيَّة) تسير وفق استراتيجية دفاعية/ هجومية معينة وممنهجة، ورؤية واضحة محددة، وهي وإن كانت مستضعفة ضعيفة، تعاني حتى من حمل السيف، فإنها ليست قليلة حيلة، ففعل الأمر " طَوِّحْ " ، ليس أمراً ساذجاً برمي الرأس كيفما اتفق، لكنها بهذا التطويح تريد إيصال رسالة حازمة للمخاطب بالمنجز الواقعي هذه المرة ، أي بفعل التطويح نفسه، وتعلل لحَسَّان هذا الأمر، إذ يبدو أنه خارج سياق الفعل ورد الفعل المناسبين للسياق المصاحب لهذه الحرب، على النحو المطلوب، هذا التعليل له بعد آخر في هذا السياق، وكأنها تقول له: لقد قمتُ بكل شيء، ولن أتقاعس عن ختم عملي كما بدأت، لكن إنجاز العمل والوصول للغاية منه هما الأهم، لذا عليك أن تطوح بالرأس لقوة في الرجل، وتتمة السياق افتراضياً ، ولضعف فيّ، لا لشيء آخر، هدفها من قوة الرمية والتطويح هو أن ترعب به أصحاب اليهودي المقتول، وهكذا حصل، فقد تفاروا معتقدين أن

هناك حامية من جند تدافع عن الحصن، فذهبوا إلى غير رجعة.

وبذا نرى كيف لفعل أمر واحد في سياق حربي متفجر، يتم إنجازه على أرض الواقع، كيف له أن يقلب الموازين، ويحيل المعادلة من..إلى.. وقد يقلب سياق المعركة من كفة هزيمة إلى كفة انتصار، ومن موت محتمل إلى نجاة أكيدة..!!

^{٤١٧} - الأغاني ، للأصفهاني: ٤/١٢٣. إحسان عباس وآخرون.

التخطيط والتبرير:

تقع (خولة بنت الأزور) في الأسر هي و نسوة أخر، وترى أن الوضع قد يصبح أكثر حرجا، خاصة مع طمع القائد بها، فتعمل على تحريض النسوة على الدفاع عن أنفسهن ومهاجمة الأعداء، فقالت لهن: ^{٤١٨}

" يَا بَنَاتِ التَّبَاعَةِ وَالْعَمَالِقَةِ، خُذُوا أَعْمَدَةَ الْخِيَامِ وَأَوْتَادَ الْأَطْنَابِ، وَنَحْمِلْ بِهَا عَلَى هَوْلَاءِ اللَّيَامِ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يَنْصُرَنَا عَلَيْهِمْ أَوْ نَسْتَرِيحَ مِنْ مَعَرَةِ الْعَرَبِ... لَا يَنْفَكُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ وَكُنَّ كَالْحَلَقَةِ الدَّائِرَةِ وَلَا تَتَفَرَّقَنَّ فَتَمْلِكَنَّ، فَيَقَعُ بِكُنَّ التَّشْتِيتُ، وَحَطْمَنَّ رِمَاحَ الْقَوْمِ وَكُسِرَنَّ سُيُوفُهُمْ ."

تلك خطة استراتيجية محكمة، في خطاب بنكهة فعل الأمر، حيث يتضوع تأثيره، وينساب في عروق هاته النسوة إقداما وشجاعة وتفانيا: " خُذُوا، وَكُنَّ كَالْحَلَقَةِ الدَّائِرَةِ ، وَحَطْمَنَّ رِمَاحَ الْقَوْمِ وَكُسِرَنَّ سُيُوفُهُمْ . "، حتى تستحيل فِقَارُ هذا الخطاب إلى وثبات درامية نحو ذروة محسوبة ونهاية متدرجة..، ويلحظ كيف تتواشج هذه الأفعال بالعمل الفعال لأدوات العطف ، حتى كأن كل مفصل من مفاصله قارعة تحل بالخصم..!

إن (خولة) ليست امرأة عادية من عامة الناس تقع في الأسر، إنها فارسة مدربة، وقائدة ميدانية محنكة، ولذا فهي تضع تجاربها وخبرتها الميدانية في صالح هذا الموقف، لاستشراف أفق النجاة من الهلكة، و الذل المترص بهن من هذا العدو الغاشم..!

وتضع (خولة) استراتيجية الخلاص، والتي أولى خطواتها هي: شحذ الهمم، والتذكير برفعة الشأن والأصل بالحديث عن الجذور العميقة لهن في التاريخ لاستثارة حميتهن..!

والخطوة الثانية: لا معركة بلا أسلحة، وإذن تدبير السلاح ، والذي سيكون مما حول المرأة وكل ما تستطيع أن تحدث به أثرا وضرا على العدو، عمود خيمة، أو طناب من أطناها..!!

والخطوة الثالثة: التشكيل الهجومي، وهو غاية في الأهمية، التي تشرحها سريعا خولة في هذا الموقف المأزوم المحموم، حيث اقتناص الفرصة والمباغته هنا هي سيدة الموقف..!!

^{٤١٨} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤٧ . في فتح دمشق.

إنّ التشكيل الهجومي الذي تخيرته، ورأت أنه الأنسب لهذه المرحلة ونوعية المشاركين فيها من النساء، وقطعا مع نوع الأسلحة أيضا، هو تشكيل الحلقة المفرغة، حيث وجوه النساء خارج الحلقة وظهورهن إليها، والهدف حماية أكبر، وتقليل الجهد الدفاعي، واستثمار لطاقة العدد القليل المشارك في هذه المعركة التحريرية، ليكون بأقصى تأثيره وفاعليته...!!

أما الخطوة الرابعة: فهي اختراق العدو وإحداث الأضرار به، وأولاها تجريد العدو من السلاح ، بعيد المدى (د الرمح)، أو قصير المدى (السيف)، ونراها قد بدأت بالرمح ، لأن الرمح هو للاشتباك البعيد، وإصابة الخصم من مسافة، أما السيف فهو للالتحام القريب مع العدو، التخلص من السلاح بعيد المدى هو خطوة للوصول سالمات ، حيث يستطعن التخلص من السلاح قصير المدى...!!

ثم تختتم فعلها الاستراتيجي بذكر الهدف: " فَعَلَّ اللهُ يَنْصُرُنَا عَلَيْهِمْ أَوْ نَسْتَرِيحَ مِنْ مَعْرَةِ الْعَرَبِ. " هذا هو الهدف من كل ذلك التخطيط و التدبير، والذي لعب فيه التركيب الفعلي - بفعل الأمر- انزياحا وانفتاحا على عوالم الدلالة، وحيث يكشف عن مقدرات هذه المرأة ومن معها من النساء...! هذا الهدف هو: إما النصر، أو الشهادة والفرار من العار...!! وهو مالا تنسى ذكره وتذكير النساء به، وهذا من مميزات القائد الميداني الجيد، أن يذكر جنده بالهدف دائما، حتى يظل نصب أعينهم، ويتحملون ما يلاقون في سبيله...!!

التَّحْرِيزُ:

في معركة اليرموك، بلغت القلوب الحناجر، فجزع الرجال وتفاروا من الميدان، فما كان على (عَفْرَاءُ بِنْتُ عِفَارٍ) إلا أن تستنهض النسوة في تشكيل جدارية صد وردع مكونة من أجساد النساء وأبنائهن، يلطمن وجوه الرجال الفارين بخمرهن، ليعودوا إلى الميدان ويواصلوا القتال والمواجهة، قالت

: " يَا نِسَاءَ الْعَرَبِ دُونِكُنَّ وَالرِّجَالَ، وَأَحْمَلُنَّ أَوْلَادِكُنَّ عَلَى أَيْدِيكُنَّ وَاسْتَقْبِلْنَهُمْ بِالتَّحْرِيزِ " ^{٤١٩}

هذا التحريض بصري في المقام الأول؛ حيث جدارية النساء تلك، وحيث الأولاد على أيديهن، وسمعية بعد ذلك حيث، صراخ النسوة، وجزع الأطفال وبكاؤهم، وحيث أصوات النساء تعلقو تحرض

^{٤١٩} - فتوح الشام. الواقدي. ١/ ١٩٦، وانظر في دور النساء في المعارك آنذاك في : البداية والنهاية، لابن كثير: ٨/٧. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١/ ٢١٣ وما بعدها.

وتحفز، المشهد كله يذكر الرجال بما يحتمل أن تتعرض له عوائلهم إن هم فروا من القتال، وتركوا الفرصة لأعدائهم كي يتقدموا نحو معسكر المسلمين، فكان هذا الفعل التحريضي؛ هو التطبيق العملي لخطاب (عفراء)، التي شكلت جبهة الضغط هذه ، أو كما يطلق عليها في يومنا هذا (مجموعة الضغط ، أو اللوبي)!!..

ولأن هذا السياق الحربي الذي يغلي على مرجل اللحظة الحاسمة، لا يحتمل التلميح، فإن فعل الأمر نفسه جاء متعلقاً به ما يوضحه (بالتحريض) "اسْتَقْبِلْنَهُمْ بِالتَّحْرِيزِ"، فالهدف من مواجهة الرجال الفارين واضح في الخطاب، ثم فعل الأمر (اسْتَقْبِلْنَهُمْ)، فلفظة الاستقبال عادة ما ترتبط بالبشر عند اللقاء، وهذا ما يتوقعه الرجال الفارون من المعركة من زوجاتهم وأمهاتهم و قريباتهم فرحا بسلامتهم من ذلك الميدان المميت، لكن ما لا يتوقعونه هو هذا النوع من الاستقبال الصادم، إذن خلق صدمة نفسية مضادة هو ما هدفت له (عفراء)، وهو ما يسمى في يومنا في ميدان علم النفس والتحليل النفسي (العلاج بالصدمة)، وبذا يُلاحظ أن هذا التركيب اللغوي قد شكل فيه فعل الأمر مرتكزا دلاليا تنداح منه دوائر دلالية أخرى؛ اجتماعية نفسية، وأخيرا عسكرية، حيث ميمنة المعسكر التي انكشفت سُدت ثغرتها بعودة هؤلاء الرجال إلى حيث كانوا في مواقعهم الدفاعية والهجومية!!..

ويسجل الواقدي: "ولقد بلغني أن النسوة قتلن ثلاثين فارسا من الروم فلما نظر بطرس إلى ذلك غضب غضبا شديدا وترجل وترجلت أصحابه نحو النساء والنساء يحرض بعضهن بعضا ويقتلن: مُتَنَ كَرَامًا وَلَا تَمْتَنَ لِنَامًا." ٤٢٠

وهذا يظهر بوضوح، أن المرأة المجاهدة لا تَضِنُّ بنفسها على الموت إن استدعى الأمر ذلك، فالموت أولى لهن من العار، وكرامتهن فوق كل حياة!!..

التفويضُ والتسليمُ:

وهذه (خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَِر) مرة أخرى لكنها في معركة اليرموك، وقد قرر أخوها (ضرار) مشاركة المجاهدين في حربهم على أعداء الدين، فبكت وقالت: يَا أَخِي افْعَلْ مَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ، وَالْقَدْ عَدَوْتُكَ وَأَنْتَ مُوقِنٌ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَإِنَّهُ لَكُمْ نَاصِرٌ وَأَنْ عَدُوَّكَ لَا يَقْرَبُ إِلَيْكَ أَجَلًا بَعِيدًا وَلَا يُبْعِدُ عَنْكَ أَجَلًا

قَرِيبًا، فَإِنْ حَدَّثَ عَلَيْكَ حَدَّثٌ، أَوْ لَحِقَكَ مِنْ عَدُوِّكَ نَائِبَةٌ فَوَاللَّهِ الْعَظِيمِ شَأْنُهُ، لَا هَدَأَتْ خَوْلَةَ عَلَى الْأَرْضِ
أَوْ تَأْخُذُ بِثَأْرِكَ. «٢١»

إنَّ علاقة (خَوْلَةَ) بأخيها (ضرار)، علاقة أخوية قوية وفريدة من نوعها، جعلت كليهما يجترحان المعجزات في سبيل استنقاذ الآخر، فكلاهما فارس، وكلاهما وقعا في الأسر، وكلاهما بحث عن الآخر، استنقذه فيما يشبه الحكايات الملحمية، وضرار هذا فارس مغوار، مما يعني أنه في المواجهة والواجهة، وموطن عين الأعداء، ولذا تبقى هذه الأخت مشغولة البال، متكدرة خاطر، كلما همَّ بالمشاركة في الجهاد، وهي للتو كانت قد استرجعته بعد جهد جهيد، فلما تستمرى وجوده حتى همَّ بمعاودة الكرة، ولما عجزت عن ثنيه واستعطافه، فوضت أمرها وسلمته لله أولاً، ولقرار هذا الأخ، فقالت له: " يَا أَخِي أَفْعَلْ مَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ، وَالْقَ عَدُوِّكَ.."، فالفعل الأول هو خارج لفضاء التسليم والموافقة على هذا القرار وإن كانت موافقة على مضمض، وفعل الأمر الآخر فقد خرج إلى مفهوم الوصية والتثبيت والتذكير...!

الِاسْتِبْعَاؤُ وَالطَّرْدُ وَالتَّوْبِيخُ:

إن صمود النساء بعامّة في ميادين القتال مفخرة من مفاخر المسلمين، كان لها دورها الحاسم على مجريات الحرب وما ترتب عليها وقتذاك، لكن ثبات القرشيات كان أعجوبة هذا الثبات، وآية البلاء فيه، وقد انهزمت نساء أخريات، كنساء جذام ولخم وخولان، فصاحت بهنَّ (خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَارِ) وجماعةً مِنْ النِّسَاءِ: " أخرجنَّ من بيننا فأنتنَّ توهنَّ " ٢٢ جمعنا . " ٢٣

يالها من التفاتة سريعة وحاسمة، ويالها من معالجة دقيقة وقاصمة، فالرجال بين كَرٍّ وفَرٍّ، وصمود وتضعف في ميدان القتال، والنساء يضطلعن بأدوار ثقال، ومسؤوليات جسام، فهنَّ يشكلنَّ خط الدفاع الأخير الذي يحمي هذا الجيش من الانهيار، على هذا الصعيد وعلى صُعد أخرى، كالسقاية، والتمريض، غير رد المتخاذلين، وكونهم عينا على المتسللين، وآخر ما ينقصهن، وباللغة العسكرية

٢١- المصدر السابق: ١/ ١٦٢.

٢٢- " الوهن: الضعف في العمل والأمر، وكذلك في العظم ونحوه". اللسان: (وهن).

٢٣- فتوح الشام، الواقدي: ١/ ٢٠٨.

اليوم، هو (اختراق أمني) أو اختراق الصفوف من الداخل، وما من أمة أو جيش هزم، إلا بخيانة داخلية، مقصودة أو غير مقصودة...!!

الآن.. قد يكون لهاته النسوة عذرهن في الفرار من هذه الحرب الطويلة الضروس، والتي انهار أمام سطوتها شجعان الجند أو كادوا، ولكن ذلك ليس مبررا كافيا في تلك اللحظة، على الأقل ليس لـ (خولة) والنسوة الأخريات، ولكي لا تنهار هذه الجبهة الداخلية، وتكون هناك سلسلة كرت حلفاتها إلى غير لحة، يجب الحزم والقطع، ولذا جاءت هذه الصرخة المنتفضة التي لا هواده فيها ولا مسايسة، بل قطع وجزم وطرد واستبعاد، قام بعبء هذا كله، فعل الأمر الذي انفجر به خطابها أولا (أُخْرِجْنَ)، ليأتي التبرير بعد ذلك، " ..مِنْ بَيْنِنَا فَأَنْتَنْ تُوْهِنَنَّ جَمْعَنَا. !.."

وفي هذا الخطاب تلمح شبه الجملة المتعلق (..مِنْ بَيْنِنَا..)، الذي يحمل تلميحا خطيرا، هو ما جعل (خولة) تقطع في هذا الأمر وبسرعة؛ لأنه ليس هناك جدار فصل عصري بين نساء القبائل، أو تصنيف ما يعزلهن، فهناك جبهة صمود، وجبهة وهنٍ مثلا، ولذا فوجودهن متغلغل في كيان هاته النسوة، في هذا الحائط البشري الدفاعي، وهو بالتحديد ما يشكل الوهن، أي الضعف والتضعف، ويا لها من كلمة تختم به خطابها الناري القصير المختزل، رغم ذلك فهو مبين... ومبين جدا أيضا...!!

الْوَصِيَّةُ :

قد يرتاد فعل الأمر آفاق الوصية، بما تشتمل عليه من توجيه وإرشاد، ونصح، لإثارة الحماس والتحريض، أو للثبات في المعركة، خاصة إذا كانت معركة بحجم معركة القادسية، وتبرز وصية الخنساء المشتملة على انزياح أكيد بمتواليه من أفعال الأمر، تنبض نبضا عالي التوتر من قفزة درامية إلى أخرى، خاصة وأنها تفتحم المعركة، وتشم عن ساعد البلاغة لتأخذ بيد أبنائها إلى خطوط العدو الأمامية، بمصطلح اليوم، تقول :

" فَأِذَا أَصْبَحْتُمْ عَدَاً إِنْ شَاءَ اللهُ سَالِمِينَ، فَأَعْدُوا إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ مُسْتَبْصِرِينَ، وَبِاللهِ عَلَى أَعْدَائِهِ مُسْتَبْصِرِينَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ الْحَرْبَ قَدْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا، وَاضْطَرَمَّتْ لِنَظْيِ عَلَى سِيَّاقِهَا، وَجَلَّتْ نَارًا عَلَى

أوراقها، فْتَيَمَّمُوا وَطَيْسَهَا^{٢٤}، وَجَالِدُوا^{٢٥} رَيْسَهَا^{٢٦}، عِنْدَ اخْتِدَامِ^{٢٧} خَمِيسَهَا^{٢٨}، تَنْظَفِرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُلْدِ وَالْمُقَامَةِ^{٢٩}

(فَأَعْدُوا...، فْتَيَمَّمُوا...، وَجَالِدُوا...)، أفعال ثلاثة لافتة في هذا السياق، بما تحمل من جرس، ومن هدير متوالٍ متدفق، في سياق لغوي ملتهب، وعاطفي متأجج، يتساقان أو هما نتاج سياق الحرب المستعرة على الأبواب!!..!

إنَّ هذا الخطاب يتأجج ويضطرم، ويستعر، حيث اقترنت هذه الأفعال بمتعلقات تتواشج معها لتعطي هذا التركيب اللغوي عمقه، ويؤره الدلالية، فبداية هي تقدم المشيئة التي لها وقعها في هذا الخطاب المتعلق جملة وتفصيلاً بالجهاد واحتمالات الموت، فقد ينام المرء ولا يصحو، وقد يصول ويجول في سوح المعارك، لكنه يموت في فراشه!!..!

ثم ماتوحي به لفظة (الغدو) وقبلها (الصباح)، من المسالمة والموادعة، والصفاء، خاصة لوعقدنا مقارنة لونية افتراضية بين تين اللفظيتين وما يليهما من ألفاظ لها إحياءات لونية مضادة!!..!

فالوصية الأولى التي نظفر بها في هذا السياق، متعلقة بضرورة زمانية (فَأَعْدُوا)، وهو فعل أمر يفتح أفق الدلالة على معاني الإبكار، والمبادرة وعدم التلكؤ في اللحاق بالجيش، وله دلالة التحفيز والجهازية، وستتضح أهمية هذا الغدو حين نرفقه بفعلي الأمر الآخريين الواردين في هذا السياق!!..!

أما الوصية الأخيرة التي جاءت بعد تقدمه نارية طويلة نوعاً ما، مشكّلة خرقاً أسلوبياً، بعد متواليته من أفعال ماضية محكومة بالشرط الزمني، فهما فعلاً أمر وقعا جواباً لهذا الشرط، ومن الطريف أن هذا

^{٢٤} - "وَالْوَطِيسُ وَطء الخيل؛ هذا هو الأصل. وَالْوَطِيسُ المَعْرَكَةُ لأنَّ الخيل تَطْسُهَا بحوافرها.. واشتباك الحزب وقيامها على ساق. "اللسان (وطس).

^{٢٥} - "وَالْجَلْدُ القُوَّةُ والشَّدَةُ.. "اللسان (جلد).

^{٢٦} - "وَالرَّيْسُ سَيِّدُ القَوْمِ، .. والرَّأْسُ القَوْمُ إذا كَثُرُوا وَعَزُّوا "اللسان (رأس).

^{٢٧} - "الْحَدْمُ شِدَّةُ إِحْمَاءِ الشَّيْءِ بِحَرَ الشَّمْسِ والنَّارِ، .. صوت التَّهَابِهَا "اللسان (حدم).

^{٢٨} - "وَالْخَمِيسُ الجَيْشُ، وقيل: الجَيْشُ الجَرَّارُ، والجَيْشُ الخَشِينُ، وفي المحكم: الجَيْشُ يَخْمِسُ ما وَجَدَهُ، وسمي بذلك، لأنَّه خَمَسَ فِرْقَ: المَقْدَمَةَ والقلبَ والميمنةَ والميسرةَ والساقَةَ؛.. "اللسان (خمس).

^{٢٩} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧. أسد الغابة، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-٢٨٨-

٢٨٩. الوافي بالوفيات. صلاح الدين الصفدي: ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص ٢٢٠-٢٢١. وانفرد ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤/ ٣٨٥" بنسبتها إلى الخنساء النخعية. خزنة الأدب، للبغدادي: ١/ ٤٣٤، نقلاً عن الاستيعاب.

الخرق الأسلوبي على مستوى اللغة، يقابله خرق أسلوبي آخر معادل له، لكن في ميدان المعركة وفي أسلوب القتال...، فحيث يفر الناس توصيهم أن يكونوا ثابتين...!!

" **فَتَيْمَّمُوا وَطَيْسَهَا**"، أي توجهوا إلى أوسط الميدان حيث يشتد العراك، وتسقط النصال على النصال؛ ثم: " **وَجَالِدُوا رَيْسَهَا**"، وهي لا تكتفي بأن يكونوا في رمش العدو، على حرجه وخطورته، بل توصيهم بأن يبحثوا عن رئيس القوم وكبيرهم، فيقارعوه ويضاربوه وينالوا منه أيضا، وهي لا تقول لهم بأن ذلك يتم بالطريقة السهلة، بل يحتاج الأمر لا إلى الجلد في ذاته، بل استعمال الجلد مع الآخر، هي مُجَالِدَةٌ، بما توحى من المفاعلة، وكل هذا محكوم بزمن تحتم وتستعر وتشتعل فيه هذه الحرب وتُحمى بالقتل و القتلى كما الحجر المحمي بالشمس، وقد يكون لرفع درجة الاستعارة هذه علاقة بقرب الجيشين من بعضهما واحتكاكهما معا، ولذلك تشرط ذلك بتوقيت حرج مازوم: "عِنْدَ احْتِدَامِ حَمِيْسَهَا.."

والضفة التي تستريح عليها هذه الأرواح الهائمة عشقا حتى الموت، والأجساد المنهكة أو الممزقة حدا تجاوز مقياس الألم: " **تَظْفَرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُلْدِ وَالْمُقَامَةِ** "

إن التوقف عند هذا الجزء من خطبة الخنساء، المتعلق بوصية أبنائها في ساحة الحرب تحديدا، يجد مقدمة راقية سابحة في ملكوت المشيئة، ثم تتسمن تدريجيا ذروة مستعرة متلظية من ذرى حرب رسمت لها مشهدية أو (سيناريو) متكاملا، قبل وقوعها، حتى إنها لم تخترم منه شيئا، ثم هذه السكينة الختامية التي تغفو على ضفة ما، كما تغمض عين جريح أو شهيد على سكينة الموت الأبدي...!! كل ذلك منسب في بنية هذا الخطاب المتفجر بألوان البلاغة التعبيرية والتصويرية والإيقاعية، مما يعطي هذا الزخم اللافت لموضوع الخطاب ولغته...!!

تكشف لنا هذه الأفعال الآمرة في هذا السياق، هذه القوة النفسية لكلا الطرفين، فما الخنساء إلا أم، وأي أم تدفع أبنائها حتى تبلغ بهم غصص الموت في لهوات حرب ضروس، لا تفتأ تصر على أن يكونوا في القلب منها، أمرها عجيب هذه الخنساء، فهي لا ترضى بأقل من الأعاجيب من أبنائها في ساحة الجهاد، فتقذف بهم في لهواتها، تلوكهم أسنتها، وتشرذمهم كتابها، ويطمس وجودهم وطيسها...!!

فمن يصدق أن أمًا أي أم قادرة على ذلك...؟؟ وهم بنون أربعة كل منهم شريان من شرايين القلب والروح...!! لكن ربما هذه الأم تعمل على ذلك لتبرئ نمتها أمام الله، فلا تكون سببا في تقاعس أبنائها، لأجل أهم العجوز...، طريقة ما من طرق التحريض، كما فعلت نسوة غيرها ممن تعرفنا إلى مواقفهم، ولكن لا موقف كهذا...!! ولعل المقدمة التي افتتحت بها خطبتها تشي بأمر آخر، فالحديث

عن الأصل والفصل والحسب والنسب ، وما ينطوي عليه ذلك من طيب الفعال والذكر وقرنت ذلك كله بنفسها، يثبت أنها لم تفعل يوما ما يشين ذلك كله، ولن تفعل ذلك اليوم، ولذا نجدها تحتشد، وتندفع بكل ما أوتيت من شرف السنين، وسودد الجذور الراسخات عميقا في ذرى المجد، من هرم الشجاعة الشامخ من الأجداد والآباء والأخوال.. وهي تشرف من ذلك كله على هذا الراهن .. لا تستطيع أن تفعل أقل من ذلك...!!

الرجاءُ وَ التَّسْنِي :

هذا سياق يقوم على افتراض الفتح والنصر، وقد حصلت الغنائم، والتفكير بالغنيمة المستطابة والحلم بها، ثم يتعدى ذلك سياق الحلم والتمني، إلى سياق الطلب الصراح الواضح، ليكون الفتح الافتراضي متمثلا واقعا، لكن تغير موقعه، من ذهن المتكلم إلى لسانه ومشاركته مع القائد الأعلى للمعسكر، كل هذا قبل أن يحدث فتح أو نصر، وهم لا يزالون في مرحلة الحصار الطويل الممل، ويكشف خبيئة بعض ما يدور في أذهان بعض المشاركين في المعركة..!

قد يكون هذا الرجاء، وتلك الأمنية حلما من أحلام اليقظة، تقطع به هاته النسوة أيامهن الطويلة في الحصار والحرمان، قد يكون أملا يقتتن منه الصبر والثبات، قد يكون بقايا أحاديث سمر في الليالي الطوال، نما وترعرع، حتى تفرع خارج حدود الوجدان، وانثال خطابا على اللسان، فتكونت ردة فعل، وخاطبت هاته النسوة أنفسهن: لربما سبقتني تلك، وهكذا حتى وجدت خولة نفسها واقفة أمام النبي ﷺ تصارحه بأمنيته وترجوه أن ينفذها كحق مكتسب..!!

والمعنية هي (خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ الْأَوْقَصِ السَّلْمِيَّةِ) وَهِيَ امْرَأَةٌ عُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ، الَّتِي جَاءَتْ النَّبِيَّ ﷺ ، وَهُمْ فِي حِصَارِ الطَّائِفِ، فَقَالَتْ: " يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطِنِي إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ

حُلِيَّ الْفَارِعَةِ بِنْتُ الْخُرَاعِيِّ أَوْ بَادِيَةَ بِنْتُ غَيْلَانَ . " !!...^{٤٣٠}

يأتي فعل الأمر -هذا- الخارج إلى فضاء الرجاء والتمني في سياق الحرب، أثناء حصار الطائف، ويُظهر وجهها نسويا صراحا، ومع أن هذه المرأة من ذوات الرجاحة والعقل، إلا إنها وفي هذا السياق

^{٤٣٠} - المغازي للواقدي: ٣ / ٩٣٥ - السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٤٨٤ . الروض الأنف للسيهلي: ٤ / ٢٥٨ . في حصار الطائف، تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣ / ٨٥ . سنة ٨ هـ . البداية والنهاية . لابن كثير: ٤ / ٣٥٠ . أسد الغابة، لابن الأثير: ٧ / ٩٣ . الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٤ . الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢ / ١٤٠ .

المأزوم، تطلب طلبا غريبا، أن يقسم لها النبي ﷺ من حُلِيّ امرأتين من أجمل وأغنى نساء الطائف، إن تمّ الفتح عليه، ونراها تتوسل لذلك سياقاً إنشائياً مفتتحاً بفعل أمر (أَعْطِنِي)، وهو فعل ذو دلالة مباشرة على الطلب و العطاء، لكنه عطاء مشروط بتحقق الفتح الذي هو لايزال في علم الغيب...!!

وهذا السياق يبرز سياقاً اجتماعياً موازياً أيضاً، حيث الثثرة عن موضوعات النساء، غناهن وجمالهن، ثثرة تجد مرتعا خصبا في أوساط الرجال، فيتمنون على النبي ﷺ بعض الأسيرات مثلا، ويبدو أن الفارعة ويادية بنت غيلان كان لهما النصيب الأوفر من طمع الآخرين بهما... فقد طلب إحداهما أحد الرجال لما سمع عن جمالهما وكمالهما...!!

وإن كان سياق الطلب مستغربا في وقته، إلا أن فيه جانبا شرعيا حقوقيا، حيث إنّ (حَوْلَةَ) طلبت هذا الطلب نتيجة معرفتها لاستحقاقها من الإسهام للمشاركين في حضور المعركة، وهذا يرد في الروايات غير مرة، فبعضهم يطلب غلاما، أو جارية، أو غيرها مما يشكل احتياجا أو ترفا أحيانا كهذا الطلب..!

نقرأ هذا الرجاء أيضا في خطاب (أُمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ) بعد أخذ ولما بشرها النبي ﷺ بأن قتلى المسلمين في الجنة قَالَتْ: " رَضِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَبْكِي عَلَيْهِمْ بَعْدَ هَذَا ؟ ثُمَّ قَالَتْ أَدْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنْ خُلِفُوا ".^{٤٣١}

إن طلب الدعاء هذا يحمل في طياته رجاء في رحمة الله للحق بركب الشهادة، ويحمل من التشوق لذلك ما يحمل، ونرى صدق ذلك بلا شك، لأنه يصدر من أمّ قد فقدت ابنها الذي كان يتهدى بين يديها قبل قليل..وها هي راضية مطمئنة مسلمة، بل وراجية أن تلقى المصير نفسه...!!

الِاسْتِنصَاحُ وَالِاسْتِرْشَاؤُ:

تأتي (أُمُّ رَعْلَةَ الْقُشَيْرِيَّةُ) رسول الله ﷺ، وتخطبه بلسان عربي بدوي مبين، تستعرض كافة الأدوار التي تقوم بها المرأة في حياتها، في غياب الرجل وفي حضوره، ثم تتحسر أن ليس لهذه المرأة حظ في الجيش الأعظم، تقول: "... فَعَلِمْنَا شَيْئًا يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ".^{٤٣٢}

^{٤٣١} - المغازي، للواقدي: ٣١٧/١.

^{٤٣٢} - أسد الغابة: ٦ / ٣٣١. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني: تح/علي محمد البجاوي: ٨ / ٢٠٤.

فكأن هذا الفعل الأمر " فَعَلَمْنَا " يأتي في سياق سؤال مبطن، هل هناك ما نفعله (كنساء) ويوازي الجهاد في سبيل الله...!!؟؟ لكنّها تتخير تركيباً فعلياً بفعل الأمر لتختتم به خطابها، ولا تريد أن تترك الأمر معلقاً بسؤال يحتمل إجابات شتى، ولذا جاءت هذه البنية التركيبية بفعل الأمر لتفتح بعدا دلاليا جديدا يرتاد أفق الاستنصاح والاسترشاد، ويحدد وجهة التعلم بالضبط، والغاية المنشودة من ذلك الخطاب: "شَيْئًا يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"، ونلاحظ هذه الذات الجمعية النسوية، التي سبق والتقيناها في أكثر من مناسبة، لتشكل مظهرا من مظاهر الخطاب في هذا العصر.

ثانياً: اسمُ فعلِ الأمرِ:

وكما فعل الأمر، فإن اسم الفعل الدال على الأمر يأتي في مناح أسلوبية وأغراض متعددة تستشف من السياق اللغوي والعاطفي الذي يفرزهما سياق الحرب، ومن أمثلة ذلك:

التصغيرُ:

ومن السياقات اللغوية القليلة الواردة باستعمال اسم الفعل، ما يروى عن موقف (أَمْ أَيْمَنَ) في أحد، وهي تَخَذَلُ وتَجَبِّنُ الفَارِسِينَ مِنَ الْقِتَالِ: " هَاكَ الْمَغْرُلُ فَأَغْرُلْ بِهِ..! وَهَلُمَّ سَيْفَكَ..!"^{٤٣٣}

فورود اسمي فعل أمر متقابلين في هذا السياق المختزل في مساحة هذا الخطاب له دلالة المبالغة، حيث إن اسم الفعل في دلالته أقوى من الفعل،^{٤٣٤} وهذه دلالة تناسب المقام الذي يبلغ الذروة من الغضب والحنق على هؤلاء الفارين، الذين كانوا سببا في هزيمة جيش الإسلام، وأذى رسول الله ﷺ...!!

فاسم فعل الأمر الأول: هَاكَ، مبنيٌّ على الفتح متعدٍ،^{٤٣٥} بمعنى: خُذْ، أما اسم فعل الأمر الثاني فهو: هَلُمَّ : يأتي لازماً ومتعدياً، بمعنى: تعال..^{٤٣٦}. فماذا سيأخذ هذا الفارّ؟؟ وإلى أين تدعوه وماذا سيفعل...!!؟؟

^{٤٣٣} - المغازي للواقدي: ٢٧٨/١.

^{٤٣٤} - انظر: موسوعة النحو والصرف والإعراب. إميل يعقوب. ص: ٧١.

^{٤٣٥} - نفسه. ص: ٦٩٧.

^{٤٣٦} - المرجع نفسه، ص: ٧٠١.

باختصار إن (أَمْ أَيْمَنَ) تدعوه مرغماً لتبادل الأدوار، لأن هذا الفار لا يليق به التواجد حيث هو، في ساحات الوغى، حيث مقارعة الأبطال، وحيث تقصف الآجال، وحيث تطلب الجنان، ويدفع لها أعلى الأثمان، ليس هذا مكانه، وليس السيف مما يليق به حملته.. فماذا إذن..؟؟

تدعوه دعوة ملحة لحد الإرغام - كما يشير هذا السياق اللغوي باسم فعل الأمر - لأن يأخذ المغزل، بكل ما يمثله المغزل من أنثوية في الشكل والمضمون، ويعطيها السيف بكل ما يمثله من ذكورية في الشكل والمضمون، وبناء عليه أيضا سيتبادلان الأماكن والأدوار، طالما تبادلوا الأدوات.. فأبي تحقير أعنف من هذا!!؟

التحذير والاستعانة:

نمثل لذلك بحديث الأطم الذي ترويهِ (صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) ، تَقُولُ : رَفِعْنَا فِي الْآطَامِ وَمَعَنَا حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ وَنَحْنُ فِي فَارِجٍ ، فَجَاءَ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ يَرْمُونَ الْأَطْمَ فَقُلْتُ : عِنْدَكَ يَا ابْنَ الْفَرِيعَةِ...!!^{٤٣٧}؛

في هذا السياق الذي تجد فيه (صَفِيَّةُ) نفسها مضطرة للاستعانة بشخص لن يعينها، لكنها ستجرب ذلك، فتعمد لاستعمال اسم فعل الأمر المنقول عن الجار والمجرور (عندك)، الدال دلالة مضاعفة على الفعل، مع طابع التحذير من هذا القادم المتجسس، اليهودي، يضاف إلى قوة المعنى الجديد (خُدْ)..!!

اسم فعل الأمر هنا منقول عن الظرف بمعنى: خُدْ.^{٤٣٨}، هذا النقل في ذاته يعطي هذا الزخم للخطاب، ويحقق الانزياح الأسلوبي، لأن اسم الفعل هذا لم يستعمل لما وضع له في الأصل، فتلفتت إليه البديهة أولاً على معناه الأصلي ثم تتحول إلى معناه المنقول مما يشكل هذا الانحراف الأسلوبي، وهذا الانفتاح الدلالي في الذهن على معطيات السياق الجديد ، من هنا تأتي فاعلية استعمال اسم فعل الأمر...!!

^{٤٣٧} - المغازي للواقدي. ١/ ٢٨٨. ٢٨٩. و ٢/ ٤٦٣، في خبر غزوة الخندق. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٢٨. الروض الأنف، للسهيلى: ٣/ ٤٣٣. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٥٧٧. سنة ٥هـ. الأغاني، للأصفهاني: ٤/ ١٢٣ - ١٢٤. البداية والنهاية، لابن كثير: ٧/ ١٠٤ - ١٠٥. غرر الخصائص الواضحة، للوطواط: ص: ٣٥٥. المستطرف: ص: ٣٠٠ - ٣٠١. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص ١٦٥.

^{٤٣٨} - انظر: موسوعة النحو والصرف والإعراب. إميل يعقوب. ص ٣٤٩.

أول ما يلاحظ على أسلوب الأمر (فعل الأمر)، هو قلة نماذجه في عصر صدر الإسلام، أما (اسم فعل الأمر)، فهو أكثر ندرة، لعل المرأة كانت تميل لإنجاز مهامها بنفسها، أو لعلها تحتال في خطابها باستعمال أساليب خبرية توصلها لمبتغاها، دونما أن تكون في صدام استعلاء بإصدار الأوامر!!..

وفي هذا النوع من الآفاق الدلالية التي يرتادها أسلوب الأمر، أو اسم فعل الأمر، نجد المرأة في سياق منفتح على تجربتها المتكاملة تستخلص منها مخارج تقدمها وحلول للخروج من مأزق، أو كما يعبر عنها اليوم، وضع استراتيجية إنهاء الأزمة، أو رسم خارطة طريق أو تسوية ما، وهي في كثير من الأحيان تحترم المخاطب، وتحتوي غضبه، خاصة في سياق النزاعات الحرجة، حيث الغليان سيد الموقف، وآخر ما يريده أحد الأطراف أن يقترح عليه أحدهم حلا غير الذي يراه؛ ولذلك فهي تقدم نصيحتها في لبوس من الحكمة، وتلتمس لها وسائل لإقناع!!..

وقد جاء هذا الأمر ليشكل انفتاحا على دلالات نابضة وحيوية في هذا السياق المأزوم، وقد التمس قبله وبعده سياقات لغوية، جعلت من ورود الأمر في موقعه مؤثرا بعد استفهام استنكاري توبيخي تارة، أو بعد أسلوب خبري مشحون بعاطفة متوهجة، لتكون الأرضية ممهدة لتقبل الخطاب بأسلوب الأمر، وهي أيضا لا تلقي الأمر جزافا، بل تسبب له وتعلل، وتبني عليه مستقبل الأحداث.

هذه الخبرة المختزلة التي انداحت في فعل الأمر الذي يتجلى من خلاله ربط الماضي بالحاضر

بالمستقبل ..، هو ليس أمرا مجردا يلقي في فضاءات الصمت ولا يردده سوى صدى الصمم، هو أمر ناجز لأنه يحمل من المنطق بقدر ما يحمل من العاطفة المقنعة!!..

وهكذا يلحظ مرة أخرى كما في خطاب المرأة الجاهلية في سياق الحرب، استعمالا أقل لأسماء الأفعال في خطاب الأمر، وأكثر لفعل الأمر المباشر بأغراضه البلاغية المتنوعة التي خرج إليها وفق السياقات المختلفة التي اندرج فيها!!..

النَّبِيُّ

فِي (العصر الجاهلي)

مَدْخَلٌ

"النَّهْيُ: خلاف الأمر، نَهَاه يَنْهَاهُ نَهْيًا فَانْتَهَى وَتَنَاهَى: كَفَّ"^{٤٣٩}، وإذا كان الأمر يعني طلب القيام بالفعل، فإن النهي هو طلب الكف عن الفعل والمنع أيضا على وجه الإلزام، وهما يتفقان - أي الأمر والنهي - على عد الاستعلاء من المتكلم على المخاطب، وهما حكمان متعلقان بالغير، مع عدّ حال فاعلهما في كونه مريدا لهما، والأمر لابد فيه من إرادة مأمورة، بينما النهي لابد فيه من كراهية منهية..."^{٤٤٠}

للنهي صيغة واحدة، هي الفعل المضارع المسبوق بـ(لا) الناهية، ولكن هذه الصيغة تخرج إلى أغراض بلاغية مجازية تفهم من السياق، وسنلتقط من خطاب النثر النسوي في سياق الحرب من أساليب النهي ما يحقق بعض هذه الآفاق الدلالية:

النَّصْحُ وَالْإِشَارَةُ:

يتجلى ذلك في خطاب (عَفِيرَةُ بِنْتِ عَفَّارٍ) لأخيها: "لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ الْعَدْرَ نِزْلَةٌ وَعَارٌ، وَلَكِنْ كَاتِرُوا الْقَوْمَ فِي دِيَارِهِمْ، فَتَنْظَرُوا أَوْ تَمُوتُوا كِرَامًا"^{٤٤١}

هذا النهي جاء في سياق النصح والإرشاد، نصيحة تختلف في الاستراتيجية والأهداف عما خطط له أخوها ومجلسه العسكري الذي لم يخالفه، ولكنها امتلكت من الجرأة والشجاعة والحكمة ما تعترض به عليه، ومن الوعي والتخطيط ما تقترح به من خطة بديلة هي أرقى وأرفع وأليق...!!

التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ:

ومنه خطاب (الْجُمَانَةُ بِنْتِ قَيْسٍ)، لجدّها حين تشاجر على الدرع مع أبيها:

^{٤٣٩} - اللسان: (نهي).

^{٤٤٠} - انظر: الطراز، للعلوي: ١٥٦/٣-١٥٧، معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٣/٣٤٤.

^{٤٤١} - نهاية الأرب، للنويري: ١٥/٢٦٢. أعلام النساء، رضا كحالة: ٣/٢٩٧-٢٩٩. وأيضا: الأغاني، للأصفهاني: ١/١١٤، إحسان عباس وآخرون. التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه: ص: ٣٠٨-٣٠٩. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢/١١٨.

" فَلَا تَرْكَنَنَّ إِلَىٰ مُنَابَدَتِهِ، " ٤٢ .

أما (الْجَمَانَةُ)، فهي تدخل كوسيط صلح بين الجد والأب، غير أنها تلحظ تعنت الجد، وقد أعماه طمعه في الدرع، وعناده عن الاستماع لنصيحتها، أو التفكير في وساطتها، فتعرض صفحا وتلوح بالتهديد بأن ليس من مصلحته أن يعادي قيسا والدها، تلميحا منها بأن الوالد عنده كل عوامل الانتصار...!!

الاستغاثة:

أما (رَمِيم بنتُ مَزِيد بنُ يَزِيد بنُ عُبَادَةَ بنُ نَزَال)، ابنة أخت قيس بن عاصم المنقري، فقد قالت لمن سبها - عمرو بن المشمرج اليشكري - حين جاء خالها ليستردها: " لا تَرُدَّنِي إِلَيْهِمْ " ٤٣، وهي واحدة من الحكايات التي تروى عن بدء الوأد في العرب، وذلك في حرب بين دوس وبني الحارث، فقد استغاثت (رميم)، بساببيها لتبقى معه، رافضة العودة مع خالها الذي شعر بالخزي والعار لهذه السابقة المخزية، إذ كيف لامرأة شريفة نبيلة أن تفضل السبي وذله على العز والكرامة في قبيلتها، وقد أحدث هذا انقلابا جوهريا حيث قرر قيس بعدها ألا يستحي له بنتا أبداً.

الاستعلاء والتلُّل:

هذه (سَبْحَاءُ الْحَبَشِيَّةُ)، سبها عبد الله بن أبي ربيعة وسبى معها ست مئة من الحبش فقالت له: " لِي إِلَيْكَ ثَلَاثُ حَوَائِجٍ، تُعْتَقُ هَوَالِئِ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ مَعَكَ، وَلَا تَمَسَّنِي حَتَّىٰ تَصِيرَ إِلَيَّ بِأَدْنَىٰ وَدَارِكَ. وَلَا تَحْمَلْنِي عَلَىٰ أَنْ أُغَيِّرَ دِينِي. " ٤٤، فهي تنهاه عن الاقتراب من كل ما هو حسّي ومعنوي (الجسد/ الدين)، الأول تحدد له مهلة زمنية وهي ليس إلى أن تصل إلى بلده فحسب، بل إلى داره تحديداً، وفي ذلك رمزية واضحة، فهي لا تريده أن يعاملها كالأسييرة الأخيذة التي لا تملك من أمر نفسها شيئاً، فبأخذها سيدها متى شاء، بل هي سيده كريمة وتريد أن تفرض عليه هذه الحقيقة، والنهي الآخر هو ألا يفرض عليها تغيير دينها، وقد فعل، وماتت على دينها فحين تغسيلها وجدوا الصليب تحت ثيابها...!!

٤٢ - نثر الدر، للآبي: ٦٣-٦٤.

٤٣ - الأغاني، للأصفهاني: ١٤ / ٥٨. إحسان عباس وآخرون.

٤٤ - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦ / ١٥٨.

التحذير:

ومن ذلك خطاب (امرأة حماس بن قيس بن خالد الديلي)، لما سمع برسول الله جلس يصلح سلاحه فقالت له امرأته: لمن تعد هذا؟ قال لمحمد وأصحابه - فإني أرجو أن أخدمك منهم خادماً فإنك إليه محتاجة، قالت: " ويحك، لا تفعل ولا تقاتل محمداً والله ليضلن هذا عنك لو رأيت محمداً وأصحابه."

٤٤٥

في قولها: "... لا تفعل ولا تقاتل.."، وقد يبدو أن الفعلين مترادفان، لكن بالتدقيق، نرى أنها توزع هذا النهي والتحذير على المراحل التقنية المترتبة، ف (لا تفعل) تعني بها مرحلة إعداد السلاح وتجهيزه، والنية التي يقوم عليها هذا العمل من أساسه، ثم ولأنها تظن أنه لن يتوقف عما يفعله، تحذره من المرحلة التالية وهي القتال: (لا تقاتل)، ولا تترك النهي معلقاً، بل تسبغ عليه النكهة المنطقية، والقراءة الفاحصة للواقع الميداني، وهي تستسلم له، فما من فائدة من مقاومة كون النبي محمد ﷺ وأصحابه صارت لهم اليد العليا، وأن ما سيراه منهم سيذهله عما ينوي القيام به فعلاً!!..

وبالنظر إلى مجمل الخطاب النثري النسوي في سياق الحرب في العصر الجاهلي؛ يلحظ انكماش الخطاب بأسلوب (النهي)، على رقعة هذا الخطاب، وهو انكماش له دلالاته بلا شك، فمع أن هذا السياق سياق مواجهة، ويفترض التحدي والقوة، على الصعيدين النفسي والجسدي ، إضافة على العقلي، فإن هذا الأسلوب لا يحضر بقوة، لأن المرأة - على ما يبدو - لم تكن تدير معركتها باستراتيجية (النهي) إلا لَمَمًا، هل لإيمانها بتعنت المخاطب، وعناده، فتلجأ لأسلوب أكثر مهادنة، أم للسبب نفسه فهو لن يسمع لها...!!؟؟ أم لأن خطاب المرأة في واقع حياتها اليومية ومعاملاتها لم يكن مرتكزاً على هذه الطريقة في التعبير، تهديبا، أو خوفاً، أو مهادنة، أو أيا كان السبب...!!؟؟

النهي

ففي (عَصْرُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

أشير سابقا إلى أن للنهي صيغة واحدة، هي الفعل المضارع المسبوق بـ(لا) الناهية، ولكن هذه الصيغة تخرج إلى أغراض بلاغية مجازية تفهم من السياق، وسنلتقط من خطاب النثر النسوي في سياق الحرب من أساليب النهي ما يحقق بعض هذه الآفاق الدلالية:

الاستنجارة والاستغاث:

حينما جاءت (أُمُّ كَلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ) فارة مهاجرة من مكة حفاظا على دينها، كانت كتلة فرع وخوف، لسبب وجيه جدا، هو أن هناك معاهدة بين النبي ﷺ أن يعيد لقريش كل المسلمين المهاجرين إليه، وقد ردَّ قبلها رجلين، لكن هذا لم يمنعها من الهجرة بدينها، والتوكل على الله في هذا الأمر، ولذا حين قابلت رسول الله قالت له :

" يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي فَرَرْتُ بِدِينِي إِلَيْكَ فَأَمْنَعْنِي وَلَا تَرُدَّنِي إِلَيْهِمْ يَفْتَنُونِي وَيُعَذِّبُونِي ، فَلَا صَبْرَ لِي عَلَى الْعَذَابِ إِنَّمَا أَنَا امْرَأَةٌ وَضَعْفُ النِّسَاءِ إِلَى مَا تَعْرِفُ وَقَدْ رَأَيْتُكَ رَدَدْتَ رَجُلَيْنِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ حَتَّى امْتَنَعَ أَحَدُهُمَا ، وَأَنَا امْرَأَةٌ. " ٤٦

إن بروز الأسلوب الإنشائي على افتتاحية هذا الخطاب من خلال حضور (الأمر: فَأَمْنَعْنِي) و(النهي: وَلَا تَرُدَّنِي)، يشكلان خرقاً أسلوبياً في بنية الخطاب الخبري الإنكاري، والنهي في هذا السياق يعدّ معادلا موضوعيا، ترجح به كفة وجودها وتتعادل، وقد يمنعها، لكن الفعل المنهَى عنه هنا هو الأهم بالنسبة إليها، وهو (عدم ردها إلى حيث كانت)، فإنَّ ما ينتظرها فوق التصور والاحتمال، هي التي رأت بأمِّ عينيها ماذا يجري على من يدخلون في هذا الدين، وأكثر منه لمن يفرون به ثم يردون إلى قریش تفعل بهم الأفاعيل، وتردد "إنما أنا امرأة، وأنا امرأة"، استظهارا للضعف واستدرازا لشفقة المخاطب...!!

وبذا تكون بنية النهي هنا، فاعلة دلالية في هذا السياق، وليست على نحو طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء، فهو مما لا يجوز مع النبي ﷺ، بل هي بنية مشحونة بمعطيات السياق الخارجي الضاغط و السياق الداخلي (العاطفي) المنفعل بالسياق الأول، كل ذلك لاقتراح سياق جديد يعادل السياقين الأوَّلين، بل ويقلبهما إلى الضدِّ، لاستحداث واقع جديد مُوَاتٍ، لما هاجرت إليه...واقع آمن مطمئن ومستبَقٍ على حياتها ودينها...!!

٤٦-المغازي الواقدي: ٢/٦٣٠-٦٣١، كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد: ١٠/٢١٨-٢١٩-٢٢٠.

انْحَضْ عَنكَ التَّلَاحُمُ وَ التَّأَثُّرُ :

ويأتي خطاب (خَوْلَةٌ بِنْتُ الْأَزْوَِر) بعد وقوعها في الأسر، حيث تعمل على تحريض النسوة على الدفاع عن أنفسهن ومهاجمة الأعداء، فقالت لهنَّ: لَا يَنْفَكُ بَعْضُكُنَّ عَنْ بَعْضٍ وَكُنَّ كَالْحَلَقَةِ الدَّائِرَةِ وَلَا تَتَفَرَّقِينَ فَتَمْلِكُنَّ، فَيَقَعُ بِكُنَّ التَّشْتِيتُ، وَحَطْمَنَ رِمَاحَ الْقَوْمِ وَأَكْسِرَنَ سُيُوفَهُمْ .^{٤٧}

إنَّ (خَوْلَةَ بِنْتَ الْأَزْوَِر) لا تملك سلطة فوقيّة استعلائيّة على جماعة النساء، فكلهن يرضحن تحت نير الأسر، ويرسفن في أغلاله المذلة المقيتة، وما ينتظرهن بعد ذلك أشدّ وأعنف، أهونها القتل، وإن كان لا بد، فليذهبن هن إليه ولا ينتظرنه، ولكن وفق خطة واحتياطات أمنية تضمن لهن السلامة، وإلا فالقتل أولى من الذل والعار..!

إنَّ السلطة الحقيقيّة هنا، هي سلطة الموقف أو الأزمة التي تتطلب من الجميع التكايف و التناصح للخروج منها، فلو كانت (خَوْلَةٌ) أو غيرها من افتتح الخطاب، فإن منطق الخطاب الداخلي هو المهم، أي ما يطرحه الخطاب نفسه أو مقولته في ذاتها..!

ولذا فالنهي في هذا السياق يشكل مفصلاً حيويًا مهما في استراتيجية الدفاع والهجوم معاً، وبدونه قد تنهار الاستراتيجية المبنية للخلوص من هذا الأسر برمته..!!

فالانفتاح الدلالي في بنية الخطاب مرتكز على فعل النهي " وَلَا تَتَفَرَّقِينَ "، وبتمركزه حيث هو كأنما هو صمّام الأمان الذي يحكم بنية الخطاب كما يحكم بنية حياتهن ونجاتهن..!!

وليس ذلك إلا لأنه ومن وجهة عسكرية، لا مقارنة بين الفريقين في العدة والعتاد والعدد، ولذا فالقدرة على التحكم بالمقدرات القليلة ومنها قلة العدد قائمة على هذا التشكيل الدفاعي (المستدير كالحلقة)، وزمام هذه الحلقة هو " وَلَا تَتَفَرَّقِينَ "، إذ إن عدم التفرق، يخلق التلاحم الذي هو مفتاح النصر، من هنا جاءت حيوية هذا النهي في هذا السياق لتتخلق منه انزياحات أسلوبية دلالية مستنطقة وناجزة من هذه البنية اللغوية في الخطاب ..!!

^{٤٧} - فتوح الشام، الواقي: ٤٧/١ . في فتح دمشق.

التحريضُ على القتال:

يُلْتَقَطُ هذا التوجه أو ذلك الغرض من ساحة معركة اليرموك حين صاحت النساء بالرجال المنهزمين الفارين من القتال: "الله الله لا تَعْمُوا الإسلامَ بهزيمتكم وانثؤوا ربكم...!!" ^{٤٨}

إن هذا السياق الحربي المتحشج، حيث بلغت القلوب الحناجر، وحيث جزعت الأبطال، حتى تفارقت من الميدان، هنا نجد موقفاً مشرفاً، وصوتاً للحق هاتفاً، من حنجرة نسوية جمعية، تعيد الموازين إلى اعتدالها، وترد الفارين، عبر تذكيرهم بسبب وجودهم في هذه البقعة، وسبب مواجهتهم لكل تلك الأحوال مجتمعة، فهو موقف لا يحتمل الفضول والتزيد في الخطاب، لذا نجد الصرخة الأولى في بنية هذا الخطاب اللغوي هي باسم الجلالة "الله الله"، الذي يأتي للتوصية والتحريض ولتكراره دلالة توكيدية لهذا المعنى، لكنه يحمل معنى عميقاً بالتذكير بالله، مما يحدث هزةً توقظ الوعي وتستدعي عبر اللاوعي كل المكونات العقديّة والجهاديّة، لتستحدث نوعاً من تداعي الأفكار الغائبة عن ساحة الوعي، حين سيطر عليه الفرع والخوف..، فطاشت عنه أبسط المبادئ التي قام عليها اختياره الجهاد في سبيل الله... إذن.. فهذا جانب نفسي مهم اشتغل عليه هذا السياق اللغوي المختزل...!!

وبعدَ هذا التنبيه بهذه الافتتاحية التحريضية الممهدة للبنية الدلالية للخطاب، يأتي الفعل المنهي عنه، لينبسط على رقعة الوعي المُستدعي من خلف حُجُبِ الخوف والفرق والفرع، "لا تَعْمُوا" ^{٤٩}؛ الإسلام...!!" بماذا...؟؟ .. بهزيمتكم وانثؤوا ربكم...!! "يقوي من دلالة هذا الفعل المنهي عنه، هذه البنية التصويرية لغمة الإسلام وكربه، فهو الفيصل بين نصر الإسلام وفرجه بعودتهم إلى الميدان، وبين كربه وغمه بفعل الهزيمة حينما يتفارون ويهربون ويتخاذلون...!! وأن هذا التفار والانهزام إنما هما ليسا من التقوى في شيء...!!

فبنية النهي هنا كانت لها دلالة التحريض على النصر والتقوى، لأن المنهي عنه هو كل عوالم السلب المترتبة على عكسه...!!

^{٤٨} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٢٠٩.

^{٤٩} - "والعَمُّ والعُمَّةُ: الكَرْبُ"، اللسان: (عَمَم).

ويعدُّ..فهذا الخطاب أشبه بشعار في صيغته اللغوية..وهو مناسب تماما لهذا السياق الخارجي..الذي لم يكن ليحتمل خطابا مفصلا مطولا مطنبا فيه..!!

وفي سياق بنية الخطاب التحريضي، ما يذكره الواقدي: "ولقد بلغني أن النسوة قتلن ثلاثين فارسا من الروم فلما نظر بطرس إلى ذلك غضب غضبا شديدا وترجل وترجلت أصحابه نحو النساء والنساء يحرض بعضهن بعضا ويقتلن: "مُتَنَ كِرَامًا وَلَا تَمْتَنَ لِنَامًا" ٤٥٠. "٤٥١"

إذا كان الموت هو أفسى الاحتمالات فعلى المرء أن يختار ميتة تشبهه،ميتة تجعله يختم حياته على ما اعتاد عليه، فالكريم يريد أن يموت كريما كما عاش، فرع كريم من شجرة كريمة..،واللئيم يموت لئيمًا مكرها بلؤمه إلا ما شاء الله..فرع لئيم من شجرة لئيمة..!!

ولذا لا يستغرب من هاته النسوة الكريمات الأصيلات أن ينزعن نزوع الكرم، ويتسنمن ذرى الشرف، فيخترن الموت بكرامة ، ولكن أي نوع من الكرامة..؟؟

إن ذلك يعني المواجهة والقتال والجهاد، والموت بعد ذلك هو ليس موتاً مجرداً عن الغاية والهدف، بل أعلاها وأسناها وأرقاها وأنقاها..إنها الشهادة..!!

إن النهي هنا يحاصر المتلقي، ويوجهه قسرا إلى اختيار الطرح الذي يتبناه الخطاب في كل الأحوال: الموت بكرامة.. وإن عكس هذا الاختيار من قبل تلك النسوة إنما هو ما يذكر به هذا النهي، وتقيده به هاته النسوة: الموت بلؤم..لا مجال للهرب من هذا الطرح أبداً..هذا ما يعطي هذا الخطاب زخمه التحريضي بالإضافة للمعادل الموضوعي الآخر: الموت بكرامة..وطالما أنه موت على كل حال..!!

٤٥٠ - "اللؤم: ضد العتق والكرم. واللئيم: الدنيء الأصل الشحيح النفس".اللسان: (لام).

٤٥١ - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤٨.

التَّصْرِيفُ عَلَى انْزَالِ الْعُقُوبِ وَعَدَمِ الصَّحْحِ :

تمتلئ (أُمُّ سُلَيْمٍ ابْنَةُ مِلْحَانَ) غيظاً على الفارين من المعركة وقد كشفوا جيش المسلمين، وخذلوا رسول الله ﷺ، وذلك يوم حنين مع هوازن، فتخاطب رسول الله كشاهدة عيان: ^{٤٥٢} "أَرَأَيْتَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُواكَ وَفَرَّوْا عَنْكَ وَخَذَلُوكَ لَا تَعْفُ عَنْهُمْ، إِذَا أَمَنَّكَ اللَّهُ مِنْهُمْ فَأَقْتُلْهُمْ كَمَا تَقْتُلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ".

إن هذا الخطاب المندفع الملتهب المفتوح بنفسي إنشائي، والفاقد للحذر حين يصل هذا الخطاب إلى منعظي النهي والأمر، لهو انزياح لافت حقا... خاصة أن المخاطب هو شخص النبي ﷺ، ولا شك أن حرقتها ناجمة عن حرصها على الإسلام وعلى سلامة رسول الله ﷺ، وتفويت الفرصة على المشركين من تحقيق تقدم عسكري يعزز من موقفهم ضد الدين الجديد، فتمتلئ نفوسهم تيتها، ويستشربون على المسلمين، خاصة وأن هذا الأمر يتم ممن يفترض بهم النصر لهذا الدين أو هكذا ادعوا، حتى إذا ما جاءت لحظة الفعال وإثبات جديتهم تخاذلوا وتغاروا، وتركوا المسلمين في موقف حرج عسكري وإنساني واجتماعي، هي تلك التدايعات التي ترتبت على خذلانهم هذا... وبناء على كل تلك المعطيات.. تسوق خطابها مشفعا باستفهام ينقل المخاطب إلى موطن الانفعال للمتكلم، ثم تسترسل في عرض خبري بأفعال ماضية، ثم تنزاح بخطابها إلى النهي، فتحدث نقلة موضوعية وأسلوبية، تتجاوز بها إلى مرحلة الفعل على أرض الواقع، لأنها ترى أن ترك هؤلاء بلا عقاب قد يفتح بابا لا يسد على سلامة المسلمين، وأمنهم الاجتماعي والعسكري..!

بالملاحظة.. نجد أن بنية النهي، هي بنية منكشة على مساحة الخطاب النثري النسوي في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام.. ويبدو أن المرأة آنذاك لم تكن مشغولة كثيرا بما تنهى هي عنه، فعندها مساق آخر تتعلم هي فيه عن المنهى عنه، أقصد على مستوى العقيدة والتشريع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ كان هناك هذا الميل الإخباري السردي العام المسيطر على رقعة هذا الخطاب النسوي و قنذاك..!

^{٤٥٢} - المغازي للواقدي: ٩٠٣/٣-٩٠٤. في غزوة حنين، تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٧٦/٣-٧٧. السنة الثامنة، السيرة النبوية لابن هشام: ٤٤٧/٢، الروض الأنف للسهيلى: ٢١٥-٢١٦. البداية والنهاية، لابن كثير: ٣٢٧/٤، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب الغمري: ص: ٢٤١.

الاستِقْرَامُ

فِي (العَصْرِ الجَاهِلِيِّ)

مَدْخَلٌ

الفَهْمُ " معرفتك الشيء بالقلب . وفهّمت الشيء: عَقَلْتُهُ وعَرَفْتُهُ. وفهّمت فلاناً وأفهّمته، وتفهّم الكلام: فهّمه شيئاً بعد شيء . وأفهّمه الأمرَ وفهّمه إياه: جعله يفهّمه . واستفهمه سأله أن يفهّمه، استفهمني الشيءَ فأفهمته وفهّمته تفهيمًا،^{٥٣} وهو "طلب المراد من الغير على جهة الاستعلام"^{٥٤} وللاستفهام أدوت كثيرة، حرفان (الهمزة، هل)، وأسماء: (ما، مَنْ، أي، كم، كيف، أين، أنى، متى، أيان).

وينقسم الاستفهام إلى حقيقي، وهو ما يطلب به معرفة الأشياء على وجه الحقيقة، فإن لم يكن كذلك فإن الاستفهام يعدّ انزياحا أسلوبيا لغير ما وضع له في أساس الاستعمال، ويسمي أهل البلاغة ذلك أغراضا مجازية خرج إليها هذا الاستفهام، وستوقف في هذا المبحث عند الانزياحات الدلالية التي تسنمها الاستفهام في سياق الحرب، وما الذي كان يشغل المرأة، ويحرك لديها غريزة السؤال، وإلى أين تتجه بوصلتها الدلالية في هذا السياق المأزوم...!!؟؟

الِاسْتِنْكَارُ وَالتَّوْبِيخُ:

هذه المرأة ترى زوجها حماسَ بنِ قَيْسِ بنِ خَالِدٍ يُعِدُّ سِلَاحًا قَبْلَ دُخُولِ صَلَّى وَيُصَلِّحُ مِنْهُ متضامنا مع بعض رجالات قريش، فقالت: " لِمَاذَا تُعِدُّ مَا أَرَى؟ "^{٥٥}

ولأن هذه (المرأة) تمتلك قراءة أخرى للواقع، تستفهم استفهام استنكار ينصب على الفعل الذي

^{٥٣} -اللسان: (فهم).

^{٥٤} -الطراز، للعلوي: ١٥٨/٣. انظر: التعريفات، للرجزاني: ص: ١٧-١٨، مفتاح العلوم، للسكاكي: ص: ٢٥٤-٢٥٥.

^{٥٥} -السيرة النبوية لابن هشام: ٤٠٧/٢. المغازي للواقدي: ٨٢٣/٢، في فتح مكة. الروض الأنف، للسهيلى: ١٦٦/٤. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٥٨ / ٣. سنة ٨هـ. العقد الفريد، لابن عبد ربه: ١٦٠/١. البداية والنهاية، لابن كثير: ٢٩٦/٤. نهاية الأرب، للنويري: ٣١٩/١٥. غرر الخصائص الواضحة و غرر النقايس الفاضحة، للطواط: ص: ٣٦. وهؤلاء الرجال: صفوان بن أمية وَعِزْرَةَ بنِ أَبِي جَهْلٍ وَسُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو كَانُوا قَدْ جَمَعُوا نَاسًا بِالْخَنْدَمَةِ لِيُقَاتِلُوا.

يقدم عليه زوجها (إعداد السلاح) بأداة الاستفهام المركبة (ماذا)، وللمبالغة في هذا الاستنكار فإنها لاتذكر اسم السلاح، بل تكني عنه: (ما أرى)، إنه استنكار ليستحضر هذا الزوج ما تعامى عنه من الحقائق، وجاء هذا الاستنكار الذي يحمل في طياته توبيخا في سياق مغالاة الزوج في التفاؤل، والغرور بالقوة والنصر، في حين أن الغلبة والقوة هي للخصم وبدون أدنى شك...!!

وهذه (فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخُرَشُبِ) في المناوشات الأولى لحرب داحس والغبراء تجد نفسها وقد خطفها قيس، فقالت له: "مَا تُرِيدُ يَا قَيْسُ..؟ أَيْنَ عَرَبٌ عَقْلٌ...؟ أَتَرَى بَنِي زِيَادٍ مُصَالِحِيكَ وَقَدْ ذَهَبَتْ بِأَمْهَمٍ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ النَّاسُ مَا شَاءُوا...؟! "٥٧

يرد في هذا الخطاب ثلاث أدوات استفهام متعاقبة: (ما، أين، الهمزة)، وفي سياق المناوشات الدائرة حول الدرع، ومحاولات قيس الدؤوب لاسترجاعه، يقدم على عمل غريب وهو اختطاف أم زهير، وتتابع أدوات الاستفهام إنما يدل على حالة الذهول والفرع التي أصبحت عليها هذه المرأة، ولكنه الذهول الذي لا يشل ذهنها، بل تستعمل أسلوبا صادما تضع فيه الخاطف أمام أسئلة منطقية، ربما حجب غضبه عن التفكير فيها، أو ربما يتهرب منها وهاهي تضعه في مواجهة صارخة وواضحة، وللمبالغة في استنكارها، ورفضها لسلوكه الذي لا تجد له مبررا؛ تستفهم بأداة الاستفهام (ما)، التي يستفهم بها عن غير العاقل، وترمي بظلال من الإبهام في عدم تحديد المستفهم عنه، ثم تأتي بأداة استفهام أخرى هي أكثر تحديدا، حيث يستفهم بها عن المكان (أين)، ولكن هذا المكان أيضا يبدو مكانا افتراضيا، لأنه استفهام عن المكان الذي ذهب إليه عقله، وهي تعني أن تصرفك هذا خارج عن سلوك العقلاء، وكأنه لا عقل لك، وكأن أداتي الاستفهام السابقتين هما تمهيد للمخاطب لكي تصل به ومعه إلى إصدار حكم؛ والذي هو تمهيد لتغيير الواقع، وإحراز تقدم ما لصالحها مع باقي النساء، و لذا تستفهم بالهمزة "أترى بني زياد مصالحيك؟؟"، والهمزة في العموم تأتي للتصديق أو السؤال عن النسبة أو الاستفهام عن الحكم^{٥٨}، وهي هنا للاستفهام عن الحكم، والتصديق، إذ هي تنكر عليه مع هذا الخيار أن يصل إلى صلح أو تسوية مع العواقب الشنيعة التي تترتب على خطفه لها، وهي تبيِّنُ من أي منفعة قد

^{٥٦} -عزب: ذهب. اللسان: (عزب).

^{٥٧} -أمثال العرب. المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي أبو العباس: ص: ٩٠، الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٣٣٨م)، تح/ عبد المجيد قطامش: دار المأمون للتراث، دمشق، ط ١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص: ٧٢، جمهرة الأمثال، العسكري: ٣٤١/١-٣٤٤، ٢/ ٢٦٥، الأغاني، للأصفهاني: ١٧/ ١٨٣-١٩٨. إحسان عباس وآخرون، الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٤٤٩. و أيضا: شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو: ص: ٩٢٦.

^{٥٨} -انظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد: بكرى شيخ أمين: ٨٣/١.

يظنها مترتبة على طريقته في تعاطي هذا النوع من الحلول التي تمس الشرف والسمعة والمنزلة
المادية والمعنوية !!

ونجد ذلك أيضا في خطاب (بُهَيْسَةُ بنتُ أوس بن حارثة) لزوجها وقد أراد الدخول بها، وكان ذلك
في أثناء حرب داحس والغبراء، قالت: "أُتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها ..؟!.." ^{٤٥٩}

تقول له ذلك وقد وافقت على الزواج منه وهي ثالثة ثلاث بين أخواتها، وافقت وهي تعرف نفسها
حق المعرفة، ابنة مَنْ، وستصبح زوج مَنْ، وبالتالي فهي تمارس أول أدوارها بحض زوجها وترغيبه
للساطة والصلح بين الأطراف المتنازعة في حرب داحس والغبراء، وتمهد لذلك باستفهام الهمزة الذي
خرج إلى التوبيخ لتفرغه للزواج وأموره بينما الأرواح تُزهق ويإمكانه أن يفعل شيئا لوقف هذا الاستنزاف
المادي والمعنوي..!

تَعْظِيمٌ وَتَخَوُّفٌ:

لَمَّا قَتَلَ جَسَّاسُ كَلِيبَ وَائِلَ زَوْجَ أُخْتِهِ جَلِيلَةَ، أَمَالَ بِيَدِهِ الْفَرَسَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى أَهْلِهِ خَارِجَةً
رُكْبَتُهُ؛ قَالَتْ أُخْتُهُ: " يَا أُمَّتَاهُ، إِنَّ جَسَّاسًا قَدْ جَاءَ خَارِجَةً رُكْبَتُهُ " قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا خَرَجْتَ رُكْبَتَهُ إِلَّا
لأمر عظيم. قالت: ما وراءك..؟ أقتلت كليباً..؟؟ قال: نعم. ^{٤٦٠}.

هذا الموقف الجلل الذي تعتبره العرب أحد أعظم ما وقع فيها، هو الذي جاء في سياقه هذا
الاستفهام بالأداتين (ما، الهمزة)، وانصبَّ الاستفهام ب(ما) على الحدث أي على فعل القتل نفسه،
فهو المهم، ونتيجة لسياقات خارجية تربط بينها الأم تستنتج بأن ابنها قد قتل زوج أخته (كليب)
ولخوفها أن يكون ذلك قد وقع فعلا فإنها تتردد في السؤال المباشر عنه، وتستبدل ذلك بالسؤال العام
ب(ما)، ثم بالهمزة عن الأمر ذاته لكنها تصرح به وتريد إجابة محددة: "أقتلت كليباً؟؟!!"، ولأن

^{٤٥٩} شعراء النصرانية قبل الإسلام، الأب لويس شيخ: ص: ٥٢٦. الأغاني، للأصفهاني: ١٣٢/١٠-١٣٣. إحسان عباس وآخرون
^{٤٦٠} -التعازي والمراثي، للمبرد: ص: ٢٩٧. وذكر في شعراء النصرانية على لسان مرة بن دهل والد جساس: لقد جرَّ جساس جريرة
عظيمة ...!! قالوا: وما ذلك؟؟؟ قال: "لأنني أرى في ركبته موضع برص ما رأيته منذ صغره"، فلما اشتدَّ الركض بدا ذلك
لأبيه. ص: ٢٤٧. والحوار في الكامل في التاريخ، لابن الأثير بين جساس ووالده: ٤١٣/١-٤١٤. والمقولة لهمام أخي جساس
في: أمثال العرب. المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي أبو العباس. ص: ١٢٠. الأغاني، للأصفهاني: ٢٦/٥. إحسان عباس
وآخرون.

الهمزة قد سبقت فعلا موجبا^{٦١} فقد جاء الجواب بـ(نعم)، إنَّ الأم هنا لا تستبعد أن يقدم ابنها على هذا الفعل الشنيع بل هي تتوقعه منه ؛و خوفها منه هو الذي جعلها تستفهم عنه بهذه الطريقة...!!
وهنا (أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتِيكَ): وقد ذهب عبد الله بن عتيك - وقد أرضعته امرأة يهودية - إلى خيبر لقتل أبي رافع اليهودي، فَقَالَتْ أُمُّهُ: "كَيْفَ تُطِيقُ خَيْبَرَ وَفِيهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ...!!؟"^{٦٢}، تستفهم بـ(كيف)، التي هي لعموم الاستفهام عن الحال، استنكارا وتعجبا وتحذيرا في الوقت نفسه من هذه المجازفة التي ترى أنها غير محسوبة، ولذا تستنكرها عليه، هذا أولا، وثانيا هي تجند نفسها وخبرتها له كي لا يقع في سوء العاقبة، فيقتل وهذا ما تخشاه كأُمٍ مرضعة...!!

ومن الاستنكار المتضام مع التحريض خطاب (أَسْمَاءُ الْمَرْيَّةَ) لمعاوية بن عمرو بن الشريد، قالت له: "أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي عِنْدَ سَيِّدِ الْعَرَبِ هَاشِمِ بْنِ حَرْمَلَةَ...!!؟!"^{٦٣}، وهو استفهام بالهمزة المتقدمة على فعل مثبت، وهي تصب استفهامها على علمه بذلك أم لا، فإن كان يعلم فذلك تداعياته، وإن لم يكن يعلم فما هي تخبره وبطريقتها الخاصة، إنها تستنكر تحرشه بها، ولذا فهي تذكره أنها مع هاشم بن حرملة، وتستفزه أكثر بهذه الصفة التي أسبغتها عليه (سيد العرب)، وهي تعرف يقينا تأثير هذا الخطاب على رجل من أسياد العرب وأبرز فرسانها وأحسنهم طلعة وهيبة، وقد كان، فقد دارت رحى حرب شعواء ومناوشات طويلة الأمد بين القبيلتين...!

ويأتي خطاب (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ): في أعقاب معركة القادسية، ولقائهما بسعد بن أبي وقاص، وقد سأل قائلا: أيتكن حرقه؟ قلن: هذه. فقال لها: أنت حرقه؟ قالت: "نَعَمْ، فَمَا تَكَرَّرُكَ اسْتِفْهَامِي...؟"^{٦٤}

يصر هذا الغازي على التعرف إلى (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ)، ويريد التأكد مرة بعد مرة،

^{٦١} - انظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد. بكرى شيخ أمين: ٨٦/١.

^{٦٢} - المغازي للواقدي: ١/ ٣٩٣، في أخبار سرية ابن عتيك إلى أبي رافع. سنة ٦هـ. السيرة النبوية: ٢/ ٢٧٥. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٤٩٧-٤٩٨-٤٩٩. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٢/ ١٩٠.

^{٦٣} - وأطراف القصة في الأغاني، للأصفهاني: ١٥/ ١٠، ١٠/ ٦٢، ٢٨/ ١٣، العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٥/ ١٤٦، شرح التبريزي على ديوان الحماسة: ٣/ ١١٠، الحماسة، للمرزوقي: ١/ ٤٥٥. أيام العرب في الجاهلية علي الجاوي، أبو الفضل إبراهيم: ص: ٢٨٣. يوم حوزة الأول.

^{٦٤} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦/ ٢٨٧. وانظر: الأغاني، للأصفهاني: ٤/ ١٤١، إحسان عباس وآخرون، المستطرف، للأبشيهي: ٢٢١.

وكانه لا يكتفي ولا ينتهي من ذلك للحد الذي أزعج حُرقة، وأدهشها، فاستنكرت عليه إلحاحه، وهي تواجهه بذلك، دون أن تخفي برمها وضيقها بل العكس، هذا السياق أفرز أداة استفهام عامة لغير العاقل، قد أفادت الاستنكار الذي ينصب على التكرار والإلحاح، فهو لا يليق على كل حال في قولها: "فما تكرارك استفهامي..!!؟؟!!"

التعجب:

يأتينا ذلك في هذا الخطاب بسؤال مقتضب مذهول من (أُمِّ بَيْهَسَ): "أَنْجَوْتَ مِنْ بَيْنِهِمْ؟" ٤٦٥، ف (أُمِّ بَيْهَسَ) أُمُّ تَفَقَدَ بَنِيهَا السَّبْعَةَ، وكلهم فأتك شجاع وسيم جسيم، ويعود لها أقلهم شأنًا في كل شيء حتى على المستوى العقلي، فتستغرب ذلك وتتعجب منه، إذ كيف للمحنكين المبرزين أن يُقتلوا وينجو هذا الضعيف الأخرق..!!؟؟!!، وهي أيضا تتمنى عودة أبنائها الذين تفخر بهم عوضا عن هذا الذي سيشكل عبئا وعازًا عليها، فتفتق روحها المفجوعة عن هذا السؤال بالهمزة الغارقة في الدهشة والعجب، ودون أن تراعي حال هذا الولد أو حقه عليها..!!

هذا الاستفهام يتجاوز حال الدهشة والذهول إلى خلل في بنية فكرية وتربوية أعمق، حيث التفرقة بين الأبناء، وعدم التعامل مع كل ابن بما هو عليه، فنحن نتبين بعد ذلك ومن تنمة القصة لمن يقرأها أن شخصية (بَيْهَسَ) هذا شخصية متفردة، ببصيرة نافذة، وإن كان لبوسها الخارجي وبضغوط خارجية أيضا لاذنب له فيها (كهيبته وشكله) أضفت عليه سمات (البهلول)، الذي تخترقه وتتقحمه أعين الناس بينما هو يلقي الحكم والأمثال كما فعل (بَيْهَسَ)..!!

ومنه أيضا خطاب (الْحَمْرَاءَ بِنْتِ ضَمْرَةَ) لَعَمْرُؤِ بْنِ هِنْدٍ لَمَّا أَرَادَ إِحْرَاقَهَا بَعْدَ حَرْقِ قَوْمِهَا: "أَعَنْ هَوْدَةَ يُسْأَلُ !!؟؟" ٤٦٦

٤٦٥- العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٤٢/٣. أمثال العرب، المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي أبو العباس: ص: ١١١.
٤٦٦- قصة المثل" صارت الفتیان حُما" في مجمع الأمثال للميداني: ٤٢٧/١-٤٢٨. المُنْمَقُ فِي أَخْبَارِ فُرَيْشٍ مُحَمَّدِينَ حَبِيبِ البغدادي: ص: ٢٩٠. الأغاني، للأصفهاني: ١٣٤/٢٢. تح/ إبراهيم السعافين وبكر عباس. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي: ص: ١٠٧.

ف(الحمراء) تتعجب في المقام الأول وتستنكر سؤاله عن (هؤدة) زوجها، إذ لم يكن هو من هو لم يقبل على قتالهم والفتك بهم والثأر منهم، وتتعجب لأن (هؤدة) أشهر من ألا يعرف أو أن يسأل ممن هو.. فهي تصب تعجبها لا على السؤال في ذاته بل على السؤال عن (هؤدة) تحديداً!!..

ولما رحلت (الجليلة)، قالت أخت كليب: "رِحْلَةُ الْمُعْتَدِي وَفِرَاقُ الشَّامِتِ، وَيَلَا غَدًا لِي "أَلِ مُرَّةٍ مِنْ الكِرَّةِ بَعْدَ الكِرَّةِ". فبلغ قولها جليلة، فقالت:

" وَكَيْفَ تَشْمَتُ الحُرَّةُ بِهَيْتِكَ سِتْرَهَا وَتَرْقُبُ وَتَرَاهَا؟! أَسْعَدَ اللهُ جَدَّ أُخْتِي، أَفَلَا قَالَتْ: نَفْرَةُ الحَيَاءِ، وَخَوْفُ الإِعْتِدَاءِ ". ٤٦٧

إن هذا الموقف عصب تقفه (الجليلة)، فأخوها قتل زوجها، وهي غير مرغوب فيها ومحرّض عليها فتطرد فترحل، ويُنظر إليها على أنها شامته، فتستفهم بالأداة (كيف) التي هي للحال، استفهام تعجب و استنكار، فلا تليق الشماتة مع من في موقفها، ممزقة بين كافة الأطراف، وخاسرة على كافة الجبهات، خسرت الزوج، وهي في سبيلها لخسارة أهلها أجمعين، وقد كُنت عن مكانة الزوج وعن رحيلها من القبيلة بأن سترها قد هتك، وليس في ذلك ما يدعو لأن تشمت، بل قد يُشمتُ بها، والأمر الآخر هو الخوف والترقب من الأخذ بالثأر وفقدان الأهل، وليس في ذلك أدنى مستوى من مستويات التفرغ للشماتة، بل العكس هو الصحيح،!!..

ومن الاستفهام المنفتح على فضاء التعجب خطاب (ليلى بنت شعواء) سبية عروة بن الورد، حيث قالت له: " مَا أَرَى لَكَ عَقْلًا ..!! أَتَرَانِي قَدْ اخْتَرْتُ عَلَيْكَ وَتَقُولُ لِي خَبْرِي عَنِّي ..!!؟ " ٤٦٨

ف(ليلى) تستفهم بالهمزة عن طلبه الغريب والعجيب بالنسبة لها، حيث هي سبية تريد الخلاص بينما يطلب منها أن تمدحه وتثني عليه، هذه المفارقة العجيبة بين الموقفين، جعلتها تخرجه من زمرة العقلاء، وربما أخرجها هو أيضا من زمرة الأوفياء، هذا ما يوحي به طلبه على الأقل، هذه المفارقة إذن؛ أفرزت هذا السؤال الصادم، المنفتح على فضاءات التعجب و السخرية و الاستنكار!!..

٤٦٧- الأغاني، للأصفهاني: ٤٠/٥. إحسان عباس وآخرون. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٤١٤. نهاية الأرب، للنويري:

٢١٥/٥، شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو: ص: ٢٥٢.

٤٦٨- الأغاني، للأصفهاني: ٥٦/٣. إحسان عباس وآخرون. شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو: ص: ٨٩٥. وقد غير بسببه إياها عامر بن الطفيل، انظر ص: ٨٩٧.

التحسر:

وعلى رواية أخرى لحكاية (بيهس): لما عاد بيهس إلى (أمه) وقد قُتل إخوته وجاءها وحده قالت:
"مَا جَاءَنِي بِكَ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِكَ...!!؟" ^{٤٦٩}

كان أول رد فعل لهذه (الأم)، هو إدراكها لمقتل أبنائها الشجعان الذين تفخر بهم، وهو أيضا أول ما تتحسر عليه، ولذلك فإن الاستفهام بـ(ما) مهتم بموت إخوة بيهس و بنجاته تحديدا، وكأنها تلومه على بقاءه حيا، ولو خُيرت لاختارت نجاة أولادها الآخرين وموت بيهس، الذي كانت تظن ألا يكون نفع منه ألبتة، ومن المفارقات أن هذا أيضا الذي جعل القاتلين يفلتوه، لئلا يحسب عليهم بثأر وهو ليس بندٍ ولا كُفء، وقد أفرزت هذه القصة العديد من الأمثال التي قالها بيهس وأُديعت، ويبدو أنه ليس بيهسا كما ظنت أو ظنوا..!

التوبيخ:

يلحظ في خطاب (أُم الْفَزْرِ الضَّلْعِيَّةِ): لما تكلم القوم في فداء بعض الأسيرات قالت: "أَتَنْظِفُونَ
بِبَنَاتِكُمْ وَتَذَرُونَ أُمَّهَاتِكُمْ...!!؟" ^{٤٧٠}

وبالهمزة تستفهم (أُم الْفَزْرِ الضَّلْعِيَّةِ)، التي وجدت نفسها أسيرة، وإذا بقومها يفدون النساء الشابات ويتركون العجائز، فترى منهم ذلك وتستنكره منهم و تويخهم عليه، لتجبرهم على العودة والعناية بأوضاع (الأمهات) كما قالت، ونلاحظ بأن هذا التوبيخ غير واقع هذه المرأة ومثيلاتها في الأسر، وتوبيخها لهم منصب على فعل الانطلاق بالبنات، وهنا ينكشف وجه من أوجه الأوضاع الاجتماعية وبعض تقاليد الأسر، وتكشف عن موقف الرجال من استنقاذ النساء اللواتي يشكلن مطمعا للعدو، وقد يؤجلون ماعداهن، ومع ذلك فلم يكن هذا العذر كافيا لأم الفزر، فهي ترى إن كان هناك من سبب يدعو الرجال للاهتمام بالبنات وهي تعني النساء الشابات عموما حفاظا عليهن، فإن هناك ما يدعو أيضا للاهتمام بالكبيرات منهن، تعمدت ذكره صراحة للتذكير به إن كانوا قد نسوه: (أُمَّهَاتِكُمْ)، فعليهم فداؤهن كرامة
لهن...!!

^{٤٦٩} - أمثال العرب. المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي أبو العباس: ص: ٢٨.

^{٤٧٠} - السيرة النبوية لابن هشام: ٤ / ١٩٣. الروض الأنف، للسهيلى: ٤ / ٢٠١. غزوة زيد بن حارثة إلى جذام.

ويُرى هذا التوبيخ والاستنكار عند (سُعدى بنتِ حُصين الطائِيَّة)، أمُّ أوسِ بنِ حارثةِ بنِ لأمِ الطائِيِّ حين هجاهم بشر بن أبي خازم، وأراد ابنها أوسُ بنُ حارثةِ بنُ لأمِ معاقبته، فقالت: " ماتريد أن تصنع به...؟، أما تعلمُ منزلتهُ في قومه..؟؟؟!! "٧١، توبيخ صدرته ب (ما، الهمزة)، وقد انصبا على فعلين متعاقبين هما، فعل الإرادة، والعلم، وهما محور الاستفهام لأنهما محور الثواب والعقاب على أرض الواقع بهما تناط نتائج وتبعات بحسب ما يختار، والاستفهام الأول هو توبيخ على ما يحاول الابن أن يقدم عليه وطريقة العقاب التي اختارها، والاستفهام الثاني مبني على الأول، حيث توبخه على ذلك الخيار وكأنه لا يعلم مكانة هذا الشاعر ومنزلته بين قومه وسوء العاقبة المترتب على ذلك...!!

الشكوى:

يُستلُّ من خطاب (بنتِ قيسِ) لأبيها في حرب داحس والغبراء: "يَا أَبَتَاهُ أَنْسَبِرُ الْأَرْضَ..!!؟"٧٢، هذا سياق نوعي، حيث تفرّ القبيلة بنسائها قبل مهاجمة العدو لها، وهذا جزء من الخطة الدفاعية/الهجومية، التي تقوم في إحدى ركانزها المهمة على حماية النساء والأطفال والضعاف، وهو استفهام خرج إلى الشكوى من جهة وإلى التعجب من جهة أخرى، فهذه الفتاة مكثت ثلاثة أيام بلياليها تضرب في الأرض حتى أعيها الجهد وأخذ منها التعب كل مأخذ، وهي أيضا في وضع نفسي يبرز تحت القلق والخوف من أن يدركهم العدو الذي يفرون منه..، فتستفهم هل نحن نسبرُ الأرض..؟ هل نجريها لنصل إلى منتهاها، وكأنَّ هذا المسير لا ينتهي، وهذه الأرض لاحدٌ لها...!!

وهذه الفتاة لا تريد أيضا أن تقول ذلك صراحة خجلا ومراعاة للمقام الذي هم فيه فتكتي بهذا الاستفهام عما في نفسها، فهي لا تريد أن تكون عبئا يعطل الظُّعن كلها، أو أن تتحمل مسؤولية أن يدركهم العدو...!! فكان في هذا الاستفهام من التلطف والقراءة الدقيقة للموقف الأمر الذي ينم عن حصافة هذه الفتاة وتقديرها لوضع الهرب والحرب وأنها ليست وحدها من تشكو التعب والألم...!!

٤٧١- بلوغ الأرب للألوسي: ١/ ٨٤. خزائن الأدب، للبغدادي: ٤/ ٤٤٥.

٤٧٢- الفاهر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ٢٢٩-٢٢٠. أيام العرب في الجاهلية علي البجاوي، أبو الفضل إبراهيم: ٢٦٧-٢٦٨. و السَّبْرُ: النَّجْرَةُ. والسَّبْرُ اسْتِخْرَاجُ كُنْهِ الْأَمْرِ. اللسان: (سبر). وقد اجتمع جماعة من الفرسان في مكان يقال له "الفروق" ليواجهوا العدو ويعطوا فرصة أكبر للظعن بأن تبعد أكثر وتصبح بأمان، وقد فخر عنترة بذلك قائلا: ونحن منعنا بالفروق نساءنا نُظْرَفَ عنها مُشْعَلَاتِ عَوَاشِيَا..!!

التعجيز:

حين فتح الله مكة المكرمة، أرسل النبي ﷺ إلى أم عثمان بن طلحة لتسليم مفتاح الكعبة، وقد كان يُمنح المشرف عليه امتيازاً ومنزلة رفيعة، ولذا رفضت أن تسلمه حين طلب ولدها منها ذلك، وفي تحدٍ سافر، واعتراض ظاهر؛ أخذت المفتاح فأدخلته في حُجرتِها وقالت: "أَيُّ رَجُلٍ يَدْخُلُ يَدَهُ هَاهُنَا؟"٤٧٣ واستفهمت بـ(أي)، أداة الاستفهام الوحيدة المعربة والتي تتشكل إعراباً ومعنى بحسب ما تضاف إليه، وجاءت أداة الاستفهام (أي) للتعجيز والتحدي، لأن - فعلا- أي رجل سيستطيع أن يدخل يده في هذه المنطقة من جسمها، ودون ذلك تسفك دماء وتزهق أرواح..!!

الترغيب:

في ذكر خبر مدينة الحضر، وما خاطبت به (النَّصِيرَةُ ابْنَةُ الضَّيْرِنِ) سابور، حيث أرسلت إليه: "مَا تَجْعَلُ لِي إِنْ دَلَّلْتُكَ عَلَى مَا تَهْدِمُ بِهِ سُورَ الْمَدِينَةِ؟؟"٤٧٤، وذلك بعد أن رآته فأعجبها ورغبت به للحد الذي جعلها تضحى بوالدها وملكه وملكها أيضاً وبالمدينة ومن فيها..، ولذا فاستفهامها منصب على الـ(الجعل)، أي المكافأة التي سيعطيها إياها حين تعينه على ما يستطيع به أن يهدم السور ويدخل المدينة التي تعب من حصارها فترة طويلة، وبالتالي فهي تتوقع مكافأة مجزية، ولمكانتها ولأنه لا يمكن أن يغريها المال أي كان، فإن المكافأة التي تستحقها لذلك هي سابور نفسه، وهكذا وعد بأن يتزوجها ويرفعها على كل زوجاته..ولذا فإن اختيار (ما) للاستفهام الذي خرج إلى الترغيب في الزواج بها إنما جاء في سياق الكناية عما تريد وقد جعل ذلك مطلباً مفتوحاً على كافة الاحتمالات مع أنها تعني مطلباً واحداً ومحدداً..!!

ومن الحض والترغيب والإغراء ما خاطبت به (سُخَيْلَةُ جَارِيَةُ عَامِرِ بْنِ الظَّرِبِ الْعُدَوَانِيِّ) قَيْسَ بْنِ مُنْبَهٍ، حين مرَّ بها وهي ترعى غنماً، فأراد سبأها، وأخذ الغنم فقالت له: "أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ أَقْصِدْ إِلَى سَيِّدِي وَجَاوِزْهُ فَهُوَ أَكْرَمُ النَّاسِ"٤٧٥.

٤٧٣- المغازي للواقدي: ٢/ ٨٣٣، في تسليم مفتاح الكعبة إلى النبي ﷺ بعد فتح مكة.

٤٧٤- الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٢٧١-٢٩٨. عيون الأخبار: ٤/ ١١٩-١٢٠.

٤٧٥- الروض الأنف للسهيلي: ٤/ ٢٤٩. في دُجْرِ عَزْوَةِ الطَّائِفِ بَعْدَ خَنْبِنِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ، أَنَّ قَيْسَ بْنَ مُنْبَهٍ وَهُوَ ثَقِيفٌ أَصَابَ دَمًا فِي قَوْمِهِ، وَهُمْ إِيَادٌ فَفَرَ إِلَى الْحِجَازِ، ثُمَّ إِلَى الطَّائِفِ، فَالتقى بسخيلة...

إن اختيار الهمزة للاستفهام بها في هذا السياق يعطي ثقة للمخاطب بأن الخيار في يده، وهو يوهمه أيضا بأنه مازال يمسك بزمام الأمور، وأنه لم يفقد السيطرة، فيستجيب بإرادته لما هو مطلوب منه، فقد استدرجته بلطفها، وتجاوزت محاولته سبأها بهذا الاستفهام بالهمزة الخارج إلى الترغيب والإغراء بفعل آخر غير الذي نوى عليه، فقد تبنت استراتيجية دفاع حولت هذا الرجل من مغتصب سارق إلى ما أصبح عليه بعد ذلك، وإن كانت تصرفت بغريزة الدفاع عن النفس وتلافي السببي، فإن ذلك ينم أيضا عن ذكاء وحسن تصرف بلا شك، أضف إلى ذلك استراتيجية أخرى هي استراتيجية البناء، فهي لم تنقذ نفسها فقط بل سعت إلى إنقاذه من نفسه ويأسه وضياعه، وأخذت بيده ودلته خيارا آخر وفتحت له بابا أوسع يلج منه إلى حياة أرحب وأجمل ..!!

ومن ذلك أيضا ما جاوبت به (الجليلة بنت مرة) أخت زوجها لما اتهمتها بأنها تشمت بهم: "أَسْعَدَ اللَّهُ جَدَّ أُخْتِي، أَفَلَا قَالَتْ: نَفْرَةُ الْحَيَاءِ، وَخَوْفُ الْإِعْتِدَاءِ" ^{٤٧٦}

إن (الجليلة) بهذا الاستفهام الهمزي إنما تحض وترغب أخت زوجها في أمر هو أكثر ملاءمة ومنطقية من افتراض الشماتة وإصاقها بالجليلة، إن هذا الاستفهام يعمل على تصحيح المفاهيم والوصول إلى لحظة تنوير تتمناها الجليلة، تسوقها برفق ولين من خلال هذه الهمزة، وهي بذلك تراعي سياقاً عاطفياً نابضاً بالتوتر و الغضب الذين يكتنفان علاقتها بهم الآن، ولذا صدرت خطابها بالدعاء (أسعد..)، ثم بهذا الحض الرفيق ..!

التلطف:

يلحظ في محاولة هاته (الفتيات) تفقد آبائهن بعد المعركة فيصادفن زهير بن جناب الكلبى فيسألنه: "يا عمّاه.. ما ترى فعل أبي..؟؟" ^{٤٧٧}، إن هاته الفتيات يرغبن فعلا في التعرف على مصير آبائهن بعد هذه المعركة والحرب الضروس، ولكن الاستفهام لا يقف عند هذا الحد، بل هذا الاستفهام ب (ما)، قد خرج إلى التلطف على هؤلاء الآباء، استفهام مشوب بالقلق واللهفة من المحذور خاصة بعد أن رأين بأعينهن ساحة المعركة، هذه اللهفة قادتهن إلى الميدان وقد جازفن بهذا مجازفة لا يبررها سوى تلك المشاعر المضطربة وذلك القلق المستعر ..!

^{٤٧٦} - الأغاني، للأصفهاني: ٤٠/٥، إحسان عباس وآخرون. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٤١٤. نهاية الأرب، للنويري: ٥/

٢١٥. شعراء النصرانية قبل الإسلام. الأب لويس شيخو: ص: ٢٥٢.

^{٤٧٧} - الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٧١-١٧٢.

الاستعانة:

يجد حاتم نفسه مضطرا لأن يحل محل الأسير الذي نوه باسمه واستغاث به ليفك أسرهم، ولم يكن عند حاتم شيء حينها إلا نفسه، ففك الأسير وقيده نفسه مكانه، حتى يتمكن من فداء نفسه فيما بعد، أما نساء بني عنزة فقد جئن إليه ببيعير وأمرنه أن يفصده فنحره: "يَا حَاتِمُ .. أَفَأَصِدُهُ^{٤٧٨} أَنْتَ إِنْ أَطْلَقْنَا يَدَيْكَ"، ثم إن البعير لوى عنقه فنحره، فقلن له: "مَا صَنَعْتَ..؟؟" " ^{٤٧٩}

إنَّ هذا السياق لا يجعل فعل الاستهانة مقصودا من هاته النسوة، بل كنَّ يختبرن حاتم من جهة ويتوددن إليه من جهة أخرى بما هو معروف عنه من الكرم ونحر الإبل، أو ما يقع تحت يده من النعم ومن أجودها بلا شك، ولذلك فهن يضعن الخيار بين يديه باستعمال أداة الاستفهام (الهمزة)، وهنَّ يعنين الاستفهام عن الفصد تحديدا، ويركزن على ذلك لمعرفةهن بطباع حاتم، الذي لن يكتفي بالفصد وقد اعتادت سكينه على النحر.. ولكن وقع ما حذرنا منه حين نحر البعير، فخرج الاستفهام من الاستعانة إلى التوبيخ والإنكار في قولهن: "مَا صَنَعْتَ..!!؟".

ويظهر لنا هذا السياق خيارات المرأة وحرية تصرفها إزاء أسير لدى القبيلة، وأن تتصرف أحيانا بما يمليه عليها فضولها تجاه بعض الأشخاص كهذا الأسير مثلا، إنه حاتم طيء، الشاعر الفارس الكريم، ومن لا تودُّ معرفته عن قرب، وهكذا استسلمن لفضولهن واتخذن فصد البعير ذريعة للتواصل معه، ويظهر أيضا وضع الأسير مهما كانت مكانته، فبما أنه في الأسر فهو مجرد أسير وتحت تصرف آسريه، ومع ذلك فقد خاطبته بتهديب مع همزة استفهام تليق بمستوى الاستعانة لا الأمر المباشر..!!

التقدير:

إن (خَوْدَ بِنْتَ مَطْرُودِ الْعَامِرِيَّةِ)، تختار أن تتزوج من رجل جميل جسيم، لكنه فرَّ عنها عند أول مواجهة لتقع أسيرة، ولا يخلصها سوى رجل عبد أسود تتقحمه العين، فتتلفت حولها، وكأنما تريد من يعطيها مبررا للارتباط به وهو التفات لتصحيح مفاهيمها عن معنى الرجولة والزواج، فتلقي بهذا

^{٤٧٨} - فصد الناقة: شقَّ عرقها ليستخرج دمه فيشربه. والفصيد: دم كان يوضع في الجاهلية في معى من فصد عرق البعير ويشوى، وكان أهل الجاهلية يأكلونه ويضعونه الضيف في الأزمة. لسان العرب (فصد).

^{٤٧٩} - الأغاني، للأصفهاني: ١٧ / ٢٧٧. إحسان عباس وآخرون، ثم إن امرأة منهن اسمها "عاجزة" أعجبت به فأطلقت سراحه.

الاستفهام لتحرك المياه الراكدة الآسنة من مفاهيمها، تلقيه إلى فضاء روحها تجبر به ما ينكسر منها حين تنظر إلى بشاعة شكل هذا الرجل، وتلقي بها لمن حولها كتمهيد لارتباطها به: " أَلَيْسَ يَمْنَعُ الْحَلِيلَةَ، وَيَرْكِبُ الطَّوِيلَةَ، وَيَطْلُبُ الْبَلِيلَةَ، وَيُكْرِمُ الْقَبِيلَةَ..!!؟" ^{٤٨٠}، إن هذه المواصفات قد رأتها

رأي العين منه، ولذا فقد جاءت الهمزة لتقر هذه الصفات وتصدق عليها..!!

السُّخْرِيُّ:

لَمَّا كَانَ عَنْتَرَةُ الْعَبْسِيِّ، شَدِيدَ الْفَخْرِ بِنَفْسِهِ وَبِمَنْجَزَاتِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَقَدْ تَصَدَّرَ قَائِمَةُ الْفَرَسَانِ، وَكَأَنَّهُ لَأَقَاهِمَ جَمِيعًا، وَتَفُوقَ عَلَى مَعْظَمِهِمْ عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، خَطَرَ لَدَى (عَبْلَةَ) أَنْ تَسْأَلَهُ: " هَلْ بَقِيَ فِي قَلْبِكَ يَا أَبَا الْمُغَلَّسِ إِلَى لِقَاءِ فَارِسٍ مِنْ فُرْسَانَ الْعَرَبِ وَاخْتِبَارِهِ أَرَبٌ..؟" ^{٤٨١}، سؤال استفزاز واستقصاء وإثارة، وربما تصديق على هذه الشجاعة المنقطعة النظير، وفي تحول درامي يهجم عليهم أحد الفرسان الذين يود عنتره ملاقاته، فيهزم عنتره أمامه، ومرة أخرى ترتاد عبلة باستفهامها أفقا آخر: " كَيْفَ رَأَيْتَ يَزِيدُ؟!"، استفهام مواجهة عنتره بنفسه وبشجاعته التي لا تقهر، استفهام حول الرؤية، سواء كانت بصرية لأفعال الفارس المنتصر، أم رؤية فكرية على عدّ تعدد الاحتمالات كواحدة من ركائز الاستنارة وقبول الواقع، وتقبل الآخر، استفهام تعبير و سخرية لهزيمته..!

التَّخْيِيرُ:

هذه امرأة من بني البكاء، أرادت اختيار زوج، قالت لوليدتها: (ادعي فلاناً.)، فدعت لها برجل من الحي، فقالت له: " إِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَنَّ خَيْلًا تُغَيِّرُ عَلَيَّ الْحَيَّ، فَكَيْفَ أَنْتَ إِنْ زَوَّجْتُكَ نَفْسِي؟" ^{٤٨٢}.

إنّ الاستفهام بأداة تفيد الحال (كيف) دقيق جدا، فهذه (المرأة) هنا لا تستفهم عن قبوله الزواج منها من عدمه، بل تسأل عن موقفه وحاله بعد الزواج، كيف سيبرهن على رجولته وشجاعته في هذا السياق المحدود، سياق الهجوم والغزو، والخطر المحقق، والفداية والتضحية بالنفس من أجل

^{٤٨٠} - الفخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٥٧-١٥٨. مجمع الأمثال للميداني: ٢٤٠/١، المستقصى، للزمخشري: ٢٧/٢.

^{٤٨١} - الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير، للهمداني: ص: ٤٦.

^{٤٨٢} - الأغاني، للأصفهاني: ٥١/١٦. إحسان عباس وآخرون.

حمائتها، و الحفاظ على حرمتها.. وهي لم توهمه بغير ذلك، بل ترهن موافقتها عليه بالدور المنوط به بناء على هذا الارتباط!!..

إنّ هذا السياق ليكشف لنا لا عن الحنكة وحسن التصرف فحسب، بل عن شجاعة أدبية، ونفسية، وفكرية، وعن القدرة على وضع استراتيجية دفاع مناسبة لكل موقف، وهذا القدر من الإيمان ببصيرة النفس وحدها للحد الذي يجعلها تتخذ كل التدابير الاحترازية، وتجد من المحيطين بها هذا الإيمان والتصديق والاستجابة!!..

التَّيئِيسُ:

اشترط خالد بن الوليد على أهل الحيرة لإتمام الصلح أن يسلموه (كرامة ابنة عبد المسيح) في الأسر، لرجل من المسلمين يدعى (شويل)، فسُئلت إليه فلما خلا بها، قالت: " ما تريدُ إليّ امرأة بنتِ ثمانين سنةً وأنا أفتدي منك فأحكّم بما أردت..!!؟؟" ^{٤٨٣}

فهي تصب استفهامها على المنفعة التي سيتحصل عليها من امرأة في الثمانين من عمرها!!.. وقد طمع فيها شابة على زمن الرسول ﷺ وهي تهدف إلى تيئسه من هذه المنفعة المرجوة لتركها، وإذا لم يجد ذلك فهي تطمعه بالدية كاستراتيجية احتياطية فيما لم تنجح استراتيجية التئيس كخيار أول، وهذا الاختيار له مسبباته، فمطمعه الأول كان في شبابها وجمالها، ولذا اختارت أن تبدأ به!!.. ثم الخيار الثاني والذي يشكل الرغبة الثانية للأسر وهي الحصول على الأموال وهي مضمونة فيما لو تركها وذلك أجدى له، ويبدو أنها تطمع في سرعة التنفيذ فقد ألقت إليه خياراتها على عجل ودون أن تنتظر اكتشافه للواقع الجديد، أو خياراته بناء على ذلك!!..

يُلاحظ أن الاستفهام بانزياحاته الأسلوبية، وبأبعاده الدلالية التي خرج إليها في هذا السياق، قد كشف اللثام لا عن جماليات الظواهر الأسلوبية، ولا عن قدرة على انبثاق المعاني والدلالات فحسب، بل أماط اللثام عن موعمة لافتة بين النص والسياق، وأمكن من النفاذ إلى عالم المرأة بمواقفها المتنوعة وعواطفها المتشكلة والمشربة بوهج واقعها، وامتداد لتاريخ فكري واجتماعي وأعراف وعادات وتقاليد انطوت عليها هذه النفس ودلت في نسيج تكوينها أيضا!!.. ونلاحظ أن معظم الاستفهام كان بالهمزة أو (ما)، وأكثر أغراضه ورودا هو الاستنكار!!..

^{٤٨٣} - البداية والنهاية، لابن كثير: ٣٤٧/٦.

الاستفهام

في (عصر صدر الإسلام)

يتوقف هذا المبحث عند الانزياحات الأسلوبية الدلالية التي تسنمها الاستفهام عبر سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، وما الذي كان يشغل المرأة آنذاك ويحرك لديها غريزة السؤال، وإلى أين تتجه بوصلتها الدلالية في هذا السياق المأزوم...!!؟؟

التكهن:

تسري شائعة في معسكر المسلمين سريان النار في الهشيم، مصدرها إبليس اللعين الرجيم، مفادها مقتل الرسول ﷺ أو على الأقل التشكيك في سلامته، مما جعل المعسكر يموج بمن فيه، وذهل الناس عن أنفسهم بسلامة رسول الله ﷺ، ومنهم (السُّمَيْرَاءُ بِنْتُ قَيْسٍ)، التي ما إن رأت الطلائع حتى بادرت بسؤالها: "مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟" ^{٤٨٤}

ويلاحظ هذا التلّهُف الصادق والقلق الطافح على خطاب (السُّمَيْرَاءُ)، حتى إنها لم تسأل عن سلامة ولديها وماذا فعلا في المعركة، أو حتى عن مصيرهما..؟ كما يلاحظ أيضا في بنية هذا الاستفهام أن أداة الاستفهام لغير العاقل (مأ) قد انصبت على المسند (الفعل: فَعَلَ)، في محاولة للالتفاف عن مواجهة مباشرة مع أسوأ مخاوفها، وهي أن تكون الإشاعة صحيحة...!!

يزور رسول الله ﷺ دار جعفر بن أبي طالب، ويسأل عن بنيه، ويمسح على رؤوسهم وتدمع عيناه حزنا، من زاوية ما تلمحه (أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمَيْسٍ)، ويلفت نظرها هذا السلوك الذي لا يكون إلا مع الأيتام، ولأن زوجها في الجهاد، تتجه بوصلة توقعاتها إلى حيث هو، فتخاطب النبي ﷺ شفقة ورحمة به: "يَا رَسُولَ اللَّهِ . يَا بَيْتِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا يُبْكِيكَ ؟ أَبْلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟" ^{٤٨٥}

وبينما تطرح سؤالا عاما يبعدها مسافة غير بعيدة عن توقعاتها باسم استفهام لغير العاقل: "مَا يُبْكِيكَ؟"، تتداركه باستفهام آخر بالهمزة: "أَبْلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟!!" هو استفهام يستشرف أفقا دلاليا آخر، أفق التفجع والتلّهُف وقد تأكدت الآن بأن جعفر قد استشهد، استفهام توفر به على النبي ﷺ حرج مصارحتها، وتبليغها هذا النبأ المحزن، حيث تأيّمها، ويثّم بنيتها...!!

^{٤٨٤} - المغازي، الواقي: ٢٩٢/١.

^{٤٨٥} - السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٣٨١ - ٣٨٢. (في حزن الرسول ﷺ على جعفر ووصايته بآله).

لقد حاول رسول الله ﷺ التمهيد لهذه الفجيعة، مما أتاح له (أسماء) أن تستنتج استنتاجاً رقيقاً استشهداً زوجها من خلال قراءتها لسلوك النبي ﷺ مع صغار جعفر، فهو أيضاً يعيش الفجيعة ومرارة الفقد، فقد تشتم أبناء جعفر ودمعت عيناه.. وهذا ما يعود بنا إلى الترجمة الاجتماعية لهذا السلوك، وأيضاً ما يسمى اليوم بقراءة لغة الجسد بمعطياتها المختلفة، والتي تكون في كثير من الأحيان مفتاحاً لمغاليق أبواب موصدة...!!

التحريضُ:

يذهب النبي ﷺ إلى الغزو، فيتخلف عنه رجل اشتهر بنفاقه مع شجاعة ونعرة جاهلية، فتبدأ (نساء بني ظفر) في استفزازه، واستثارة مكامن عصبية القبيلة، لتحريضه للالتحاق برسول الله، فكأن يرددن عليه: " يَا قُرْمَانُ ، أَلَا تَسْتَحْيِي مِمَّا صَنَعْتَ ؟ " ٤٨٦

وتفتح أداة التحريض (ألاً) هذه الآفاق الدلالية المتشعبة، خاصة وأنها منصبة على المسند (الفعل): تَسْتَحْيِي، التي تعمل على كل ماله علاقة بهذا الرجل في حسبه ونسبه، وفروسيته، وتاريخه وما يؤمن به، وما اعتاد عليه، وتتحدى وجوده بعد هذا الحدث، ولو لم يكن سوى كونه رجلاً شجاعاً يعير بالجبن والتخلف لكفى...!

أما بالنسبة لهاته النسوة فهن لا يفصحن عن غرضهن بوضوح رغم أن بنية الاستفهام هذه قد تفتح مجال التأويل...، فلربما كان دافعهن فضح (قُرمان) ونفاقه، أو استثمار شجاعته وقوته وفروسيته لصالح المسلمين، لأن هذا ما حدث فعلاً، فقد استجاب لهنّ، والتحق بالصف الأمامي، وقتل مقتلة عظيمة، ثم قتل نفسه، فكان من أهل النار، لأنه كان يقاتل على الأحساب والأنساب ولم يكن يقاتل نصرة للدين، وقد ينصر الله هذا الدين بالرجل الكافر، هذا التكرار للنداء في هذا السياق اللغوي، إنما هو للتأكيد والحث والتحريض المبالغ فيه لدفع (قُرمان) لتغيير موقفه، وبذا يكون هذا الاستفهام قد حقق انزياحاً عملياً على أرض الواقع، وليس على رقعة هذا الخطاب فقط...!

أما (مليكة بنت داود اللثيئة)، فقد تزوجت، فجئن يلمنها: " أَلَا تَسْتَحْيِي حِينَ تَرَوِّجِينَ رَجُلًا قَتَلَ

أَبَاكَ..؟؟ " ^{٨٧} ، ففرعت لغرة فيها، وخافت من التعيير، وأن تكون قد ارتكبت محرماً اجتماعياً وأخلاقياً
إن هي أتمت هذا الزواج، وحتى لو كان هذا الزوج هو رسول الله ﷺ!!..!!

هذا الاستفهام بـ(ألا) التحضيضية، والذي قد جعل (حياءها) موضع تساؤل، أثار حفيظتها، ونرى
كيف استطاع هذا الخطاب المحرض، المنفرج نحو اللوم والتفريع أيضاً، قد حرك مكامن الثأر، و جعلها
وهي الغرة تظن بأن تزوجها بقاتل أبيها سببة، فقد صوّر لها الرسول ﷺ على أنه قاتل أبيها، وهكذا
اختزل الموقف ، لكي تنفر منه!!..!! وكل القضية هي غير نساء لا أكثر!!..!!

وترى (نساء بني عبد الأشهل) فرسا يجول في لجامه بلا فارس، ويرين رجلاً يُسمى قُمَيْرُ بلا
فرس، فيعملن على حثه وحضه على اللحق برسول الله ﷺ: " يَا قُمَيْرُ هَلْ لَكَ فِي أَنْ تَرْكَبَ هَذَا
الْفَرَسِ ؟ فَإِنَّهُ كَمَا تَرَى ، ثُمَّ تَلْحَقُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِالْمُسْلِمِينَ ؟ " ^{٨٨} وهنَّ يتوسلن الاستفهام للوصول
متلطفات إلى غايتهن، وهنَّ وإن كن يستفهمن منه بهذا اللطف المبطن، إلا أنّهن يحاصرنه بهذه
الأداة (هل)، إذ إنّها للتصديق الإيجابي ^{٨٩} ، ففيها حث واضح غير مقبول الرد، مضمونه اللحق برسول
الله ﷺ ، وقد فعل!!..!!

ويلاحظ من هذا السياق فاعلية النساء ودورهن المستمر بلا هواده، فلم يكن يفوتن فرصة للنصرة
أو التوجيه، أو التحضيض إلا وأخذن زمام المبادرة إليها، وغيرن بها وجه الواقع الراهن بشكل من
الأشكال!!..!!

المنعة والإغاثة:

أما (ضباعة ابنة عامر بن قُرَظِ) فقد رأت الأذى يقع على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،
وذلك في عرض الرسول ﷺ نفسه ودعوته على القبائل، والتي منها (كندة) فقالت: " يَا آل

^{٨٧} - تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٦٥/٣. سنة ٨هـ.

^{٨٨} - السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٨٣، الروض الأنف، للسهيلى: ٤/ ٥ ، في خبر غزوة ذي قرد. في مقتل مُحَرَّرِ بْنِ تَضَلَّةَ،
وَأَنَّ الْفَرَعَ لَمَّا كَانَ جَالِ فَرَسٍ لِمَحْمُودِ بْنِ مَسْلَمَةَ فِي الْحَانِطِ ، حِينَ سَمِعَ صَاهِلَةَ الْخَيْلِ وَكَانَ فَرَسًا صَنِيعًا جَامًا ، فَقَالَ نِسَاءٌ مِنْ
نِسَاءِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ حِينَ رَأَيْنَ الْفَرَسَ يَجُولُ فِي الْحَانِطِ بِجُدْعٍ نَخْلٍ هُوَ مَرْبُوطٌ فِيهِ: "..."

^{٨٩} - انظر: موسوعة النحو والصرف والإعراب، إميل يعقوب: ص: ٧٠٠.

عامر - ولا عامر لي - أَيْضَنْعُ هَذَا بِرَسُولِ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ..؟؟!! "٩٠"

إن هذا الاستفهام بالهمزة قد أطلق صرخة استغاثة، وتنبهها لهؤلاء المتفرجين السليبيين الذين يرون رسول الله ﷺ يتعرض للإيذاء، وإذ هم يلتزمون جانب السلامة، لاتحركهم نخوة ولا حمية، سوى هذ الصرخة اللائمة المستفهمة المستنكرة لهذا السكوت المقيت..؟؟

فالعرب تحكهم بل وتحركهم أعراف وعادات تتعلق بالجوار والغيرة عليه، ومع ذلك فقد تركوا النبي ﷺ نهبة لأوباش مستذئبين، دون أن يحركوا ساكنا، فجاء هذا الاستفهام المنصب على هذا (الصنيع)، أملا في أن يتغير إلى نصره من بعد خذلان، ومنعة من بعد استباحة، وقد كان..!

الاستنكار:

ويقع أحد بني عمّ (أمّ سلمة) في الأسر عند المسلمين، وقد كانت منشغلة في بعض شؤون المسلمين، فيبلغها الخبر، فتذهب مسرعة إلى رسول الله ﷺ، وتقول له: "ابن عمي يدخل على غيبي"!! "٩١"

لاشك أن هذا السياق اللغوي المختزل يفصح بشكل مباشر غليان الدماء وفورتها في عروق أمّ المؤمنين (أمّ سلمة)، غيرة على بني عمها، فأداة الاستفهام المحذوفة تقول أكثر مما يتوقع..!!

فالاستفهام منصب على (ابن عمي)، هنا البؤرة الدلالية للاستفهام، فحميتها تتحدث عن نفسها، فلا علاقة لها بالأمر لو لم يكن المعني ابن عمها، فلن تتدخل في أمره، ولكنها أولى بالعناية به، والستر عليه، وصونه من النظارة أو حتى الشامتين، لكن الأدب النبوي لا يفارقها، وتأتي مباشرة لاستئذان النبي ﷺ في العناية به.. فلا يستنكر عليها ذلك.. ويمنحها حق الإجارة له..!! فبنية الاستفهام المركبة في هذا الخطاب قد أحدثت فرجة في سياق الحال وبشكل مباشر أيضاً..!!

ومثل هذا السياق، سياق ما بعد الحرب، فيما يسمى بحديث الإجارة، الذي ترويه (أمّ هانئ بنت

٩٠- البداية والنهاية، لابن كثير: ١١٧/٣. في عرض الرسول ﷺ نفسه ودعوته على القبائل: "كندة"، وعند بني عامر يومئذ

ضباة ابنة عامر بن قرط، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله ﷺ بمكة جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت، وقد رأت ما وقع على النبي ﷺ من إيذاء: " .."

٩١- المغازي للواقدي: ٣١٢/١.

أَبِي طَالِبٍ)، وذلك في غزوة فتح مكة، وقد أجارت حمويْن لها، فاعترضها أَخُوها عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحين نَظَرَ إِلَيْهِمَا شَهَرَ السَّيْفَ عَلَيْهِمَا، فحالت دونهما، وقالت: "أَخِي مِنْ بَيْنِ النَّاسِ يَصْنَعُ بِي هَذَا ؟؟!!" ٤٩٢.

فهذا الاستفهام بأداة محذوفة، إنما ينصب على (أَخِي)، هذا الأخ الذي تضعه فردا بإزاء كل الناس، ثم تستغني عنهم أجمعين ربما: "أَخِي مِنْ بَيْنِ النَّاسِ.."، هنا حيث تنفتح على ماهية الأخوة كما تراها، وكما تريدها، وهي تعني كل ما للكلمة من معنى، وعمق، ذاهب باتجاه الحماية والموافقة، وحيث الأخ هو السند المميز للمرأة، وله هذا الحضور الخاص في حياتها، وإن كان لديها زوج وأولاد، تبقى لعلاقة الأخوة نكهتها الخاصة، فإذا كان هذا الأخ هو عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الذي ما خذلها يوما، وما تخلى عنها، فالصدمة أقوى، وهذا ما يجعل اعتراضه على إجارتها لحمويها أمرا عسيرا عليها، صدمة دفعتها لتضع علاقة الأخوة برمتها موضع مساءلة وتساؤل...!!؟؟

الشكوى:

وتذهب (أُمُّ هَانِيٍّ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ)، إلى السيدة (فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ) رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، تحكي لها ما حدث بينها وبين أخيها عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، واعتراضه على إجارتها لحمويها، وقد شَهَرَ السَّيْفَ عَلَيْهِمَا، فحالت دونهما، وقالت: "مَاذَا لَقِيتِ مِنْ ابْنِ أُمِّي عَلِيٍّ ؟ ؟؟؟!!" ٤٩٣

فاسم الاستفهام (ماذا)، منصب على الفعل (لَقِيتِ)، لأن المخاطب هنا اختلف، وهي في إطار سردها لما حدث ولقيته من أخيها، تفتتح خطابها بهذا السؤال، تقذف به كزفرة حرى، لتخرج بهذا الاستفهام إلى فضاء الشكوى المرة، لكن للأسف، كانت (الزَّهْرَاءُ) رضوان الله عليها، أشدَّ عليها، فما كان منها إلا أن ذهبت بشكواها لرسول الله ﷺ...

ولاختلاف المخاطبين (الأخ، زوج الأخ)، اختلف موضوع الاستفهام، فمع الأخ، كانت تريد

٤٩٢- المغازي للواقدي: ٢/ ٨٣٠. في غزوة الفتح، السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٤٥٢-٤٥٣، الروض الأنف للسيهلي: ٤/

١٦٩-١٧٠. زاد المعاد. فصل [الأبدلة على أن مكة فُتِحَتْ عَنْهُ]، لابن القيم الجوزية: ٣/ ١١٠، مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦/ ١٧١. وحموها: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، والخارث بن هشام المخزومي.

٤٩٣- المصادر السابقة.

استدرار عطفه و معاتبته عتابا يخرج إلى فضاء الاستنكار ، ومع زوجة الأخ، إنما تشكو لها أثر فعل الأخ وما لقيته منه...!!

التَّحْقِيرُ:

وترى (أُمُّ سُلَيْمٍ ابْنَةَ مِلْحَانَ) الفارين من المعركة يوم حُنَيْنٍ مع هوازن، فتقول: "أَرَأَيْتِ هَوْلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُواكَ وَفَرَّوْا عَنْكَ وَخَذَلُواكَ لَا تَعْفُ عَنْهُمْ، إِذَا أَمَكَكَ اللَّهُ مِنْهُمْ فَأَقْتُلْتَهُمْ كَمَا تَقْتُلُ هَوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ".^{٤٩٤} هذا الاستفهام في سياق هذا الخطاب، إنما هو إشارة تحقير وازدراء، فهم لا يستحقون من يلتفت إليهم إلا لإنزال أقسى العقوبة بهم ليكونوا عبرة للجميع، ثم هذا التوكيد إن بالصفة أو البديل من اسم الإشارة: (هؤلاء الذين) يبدو إمعانا في إظهار ازدراءها واستيائها منهم ومن تخاذلهم .

ومن التحقير ما يأتي في هذا السياق النوعي، حيث الحرب والقتل والقتال ذكرى، لكنها ليست كذلك بالنسبة لـ (أَسْمَاءُ بِنْتُ مُخْرَبَةَ بِنْتُ جَدَلٍ)، التي التقت ببنت قاتل أبيها، فلما عرفتها، قالت أسماء: "وَأَنَّكَ لِابْنَةُ قَاتِلِ سَيِّدِهِ؟"^{٤٩٥}

إن هذا الاستفهام المنفتح على زاوية التحقير والتصغير من شأن المخاطب، هو استفهام بهمة مقدرة غير مذكورة صراحة في السياق اللغوي، استفهام يعرج بنا على تلك الصدور الموغرة التي لم يشفها شيء..

التَّوْبِيخُ:

في غزوة حُنَيْنٍ، تراقب (أُمُّ عُمَارَةَ) الميدان بعين فاحصة، فترصد فرار بعض المسلمين من المعركة، فتأخذ سيف أحدهم، و جَعَلَتْ تُسَلِّهُ وَتَصِيحُ فِي وَجْهِ الْأَنْصَارِ: "أَيَّةُ عَادَةٍ هَذِهِ مَا لَكُمْ وَالْفِرَارِ...!!؟؟"^{٤٩٦}

^{٤٩٤} - المغازي للواقدي: ٣/٩٠٣-٩٠٤. في غزوة حنين. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/٧٦-٧٧. السنة الثامنة، السيرة النبوية لابن هشام. ٢/٤٤٧، الروض الأنف للسهيلي: ٤/٢١٥-٢١٦، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/٣٢٧، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، للخطيب الغمري: ص: ٢٤١ .

^{٤٩٥} - المغازي. للواقدي: ١/٨٩، الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٨/٢٤٨. ويذكرها صاحب أسد الغابة، في ترجمة عياش بن أبي ربيعة: ٤/٣٠٨، و٧/٩، ١٠، ١٤.

^{٤٩٦} - المغازي، للواقدي: ٣/٩٠٣.

يُرصد في هذا الخطاب استفهام مركب من أداتين (أي، ما)، قد استلهم فضاءات التوبيخ و الاستنكار، ف(أَمْ عَمَارَةٌ) وإن كانت توبخهم على فعلتهم تلك إلا أنها تستنكرها أيضا..!

الاستفهام الأول منصب على المضاف (عادة)، ولمن لم يفهم، تردف هذا الاستفهام باستفهام آخر يعمل على توضيح الملفز منه: مَا لَكُمْ وَلِلْفَرَارِ...!!؟؟، وهو استفهام منصب على الجار والمجرور (الفرار)، بدلالة أداة الاستفهام لغير العاقل (مَا) وهنا يفتح الخطاب على دلالات أخرى، تغيير مساق القضية، فليس الأمر بسيطاً كما يبدو، فهي تستشرف باستفهامها هذا أفقا آخر، ومن أجلى مخاوفها أن يتحول ما فعلوه إلى عادة تترسخ، ثم تستشري بين صفوف المسلمين كلما خاضوا معركة..!!

وكذا تفعل (أُمُّ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيَّةُ)، فَبَيْنَمَا كَانَتْ تَدْخُلُ الْمَيْدَانَ لِسَدِّ الْعَجْزِ وَالنَّقْصِ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدَأَخَذَتْ بِخِطَامِ جَمَلِ أَبِي الْحَارِثِ زَوْجِهَا، وَكَانَ يُسَمَّى الْمَجْسَارَ، إِذْ بَهَا تَلْمَحُ ابْنُهَا يَتَسَلَّلُ مَعَ الْفَارِسِينَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ، فَقَالَتْ: "يَا حَارِ تَبْرُكُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".^{٤٩٧}

ويلاحظ في هذا السياق أن الاستفهام ورد بأداة استفهام مقدرة؛ والتقدير: أتترك...!!؟، ويبدو من هذا السياق اللغوي احتدام السياق الحربي الذي لم يترك أي مجال للفضول أو التزديد، بل قد عمدت إلى الحذف فبالإضافة لحذف أداة الاستفهام المفهومة من السياق، نلمس ذلك أيضا في نداء الترخيم (حَارِ)، بدلا من (الحارث).

وفي سياق مشابه، وبعد معركة أحد، صاح إبليس أن رسول الله ﷺ قتل، ففر الرجال وذهبوا إلى بيوتهم، فجعلن النساء يلمنهم ويقلن: أَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ تَفْرُونَ...!!؟^{٤٩٨}

ويلاحظ هنا أن الاستفهام بالهمزة منصب على الجار والمجرور "أَعَنْ رَسُولِ" ، إذ هو بؤرة الاهتمام، والتوبيخ منصب على تركه وعدم نصرته..!!

^{٤٩٧} - نفسه: ٣ / ٩٠٤. في خبر من ثبت من النساء في غزوة حنين.

^{٤٩٨} - المغازي للواقدي: ١ / ٢٧٧.

التفجع والتحسر :

نستشعر هذا النفس التفجعي في خطاب (فَاطِمَةَ بِنْتِ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ) زوجة عقيل بن عبد المطلب، قالت لعقيل: " يَا بَنِي هَاشِمٍ لَا يُحِبُّكُمْ قَلْبِي أَبَدًا، أَيَّنَ أَبِي..؟؟ أَيَّنَ أَخِي..؟؟ أَيَّنَ عَمِّي ..؟؟ كَأَنَّ أَعْنَاقَهُمْ أَبَارِيقُ فِضَّةٍ !! "٤٩

يكشف لنا هذا السياق اللغوي نبض السياق العاطفي المدفون في خبيئة هذه الزوجة، و أن لا شيء يغير هذا الشعور من قلبها، والذي افتتحت به هذا الخطاب، وخصت (بني هاشم) بالتقديم لأنهم موضوع البغض أو عدم الحب أولاً، مما يصرف الذهن لوضع احتمالات شتى، وللتشويق ثانياً، حين تميط اللثام عن سبب هذه المشاعر السلبية، في الجزء الثاني من خطابها، حينما تجلجل باسم استفهام مكرور ثلاث مرات (أَيَّنَ) المخصصة للاستفهام عن المكان، بينما المُستفهم عنه مختلف، لكن كل له مكانته المميزة، أباً وأخاً وعمّاً، فالفراغ يفقدهم كبير، وإن كانوا من المشركين المعاندين، المحاربين لله ولرسوله، حتى إسلامها لم يستطيع أن يجعلها تتسامح في هذه المشاعر..!

أداة الاستفهام المؤجلة هذه، تشكل عامل انزياح أسلوبية، حيث إنها مما له الصدارة في الجملة العربية، ولكن إن دعت الضرورة لعوامل سياقية بلاغية - كهذه - يكون لهذه الإزاحة مبرراتها الدلالية، كما هنا لإظهار التشويق وصرف الاهتمام للمستفهم عنه، تفجعا وحسرة عليه..!

ويتحسّر هذا التفجع والتحسر والتولّهُ في حنجره خطاب آخر، وذلك حينما وقع ضرار أخو(خَوْلَةَ بِنْتِ الْأَزْوَري) في الأسر أثناء فتح عزاز، فلما بلغها نبأ الأسر، قالت: "أَنَا لَللَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، يَا ابْنَ أُمِّي، لَيْتَ شِعْرِي فِي السَّلَاسِلِ أَوْ تُفُوكَ، أَمْ بِالْحَدِيدِ قَيْدُوكَ، أَمْ فِي الْبَيْدَاءِ طَرْحُوكَ، أَمْ بِدِمَائِكَ خَضْبُوكَ؟

إنَّ حالةَ الذهولِ والحسرة والخوف على مصير هذا الأخ الذي هو بين يدي من لا يرحم، وغموض هذا المصير، جعل خطابها هذا متفجراً بالاستفهام، وبالهمزة تحديداً، المستعملة للتصور، فتقدر حرف استفهام (الهمزة) في الاستفهام الأول، بينما يذكر صراحة ثلاث مرات بعدها، وكلها مقترنة بواحدة من وسائل التعذيب..!

٤٩- العقد الفريد: ٤ / ٨. كتاب المجنبة في الأجوبة. وهؤلاء قتلوا يوم بدر، أخوها : الوليد بن عتبة، وعمها شيبه بن ربيعة، قتلهم جميعاً: عبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنهم أجمعين.

٥٠- فتوح الشام. الواقدي: ١ / ٢٧٨. وهناك خطاب آخر مشابه: ١ / ٤٢. بعد معرفتها بأسر أخيها، فذهبت للبحث عنه مع خالد بن الوليد.

إنَّ هذا التمثل الدقيق للأحداث إنما يظهر فداحة الخطب على هذه الأخت، ومكانة هذا الأخ في نفسها، وهو انزياح يتفجر بمعاني التحسر والألم لهذا المصاب الجلل...!!

و يُرصد في هذا الخطاب هذه التراتبية المنطقية في ترتيب الأحداث، من المقدمة إلى النتيجة المتوقعة، من الوقوع في الأسر نفسه، ثم المراحل التي يمر بها الأسير من التقييد والتوثيق بالسلاسل والحديد، إلى مرحلة التخلص من الأسير إما بتركه يموت صبرا في بيداء ما، أو أنه يترك متخنا بجراحه حتى يموت...!!

إنَّ هذا الاستفهام الممتد على مساحة الخطاب، عمل على نقل الخطاب إلى أفق آخر، بل والدخول في عمق تفاصيل الأسر، حرك حميةً وغيرةً هذه الأخت لتعمل على تغيير هذا الراهن المؤلم، بل اتخاذ خطوات عملية فاعلة في هذا الصدد، وهو ما فجّر طاقاتها القتالية حتى تمكنت من تحري هذا الأخ، إذن.. هما سياقان يعملان كمعادلين موضعين، سياق الخطاب المتفجر بالاستفهام، خلق سياقاً مستقبلياً واعداء ومقابلاً لسياق الواقع...!!

القنَاعَةُ وَ الرِّضَا وَ التَّسْلِيمُ :

يستشهد سعد بن معاذ في أحدٍ، فتأتي (أُمُّ سَعْدٍ) فلما بشرها النبي ﷺ بأن قُتِلَ المسلمون في الجنة قَالَتْ: "رَضِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَبْكِي عَلَيْهِمْ بَعْدَ هَذَا؟ ثُمَّ قَالَتْ أَدْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنْ خُلْفُوا".^{٥٠١}، هذا القلب المنفطر من ألم فراق الابن، وعدم رؤيته مجدداً، ينزل عليه خبر البشارة بالجنة برداً وسلاماً، ويطفئ نار الفقد بالرضا والتسليم، ويحيل دموع الحزن، زغاريد فرح، ولذا يتزياً هذا الخطاب باسم استفهام للعاقل (مَنْ) منزاح نحو مضامين القناعة والرضا والتسليم والتعجب: " وَمَنْ يَبْكِي عَلَيْهِمْ بَعْدَ هَذَا...!!؟ "

يُسجل هنا أن الاستفهام بانزياحاته الأسلوبية، وبأغراضه الدلالية التي خرج إليها في هذا السياق قد كشف اللثام لا عن جماليات أسلوبية، ولا عن قدرة على انبثاق المعاني والدلالات فحسب، بل أماط اللثام عن مواعمة لافتة بين النص والسياق، وأمكن من النفاذ إلى عالم المرأة بمواقفها المتنوعة وعواطفها المتشكلة والمشربة بوهج واقعها، وأوضح بشكل جلي مدى التأثير الذي أحدثه الإسلام في

هذه النفوس النسوية في سياق الحرب، وكيف انطوت على عقيدة صافية حتى خالطت شغاف هذه النفوس ودخلت في نسيج تكوينها أيضا...!!

أهم ما يدرك من استعراض النماذج السابقة، بالإضافة إلى عدم تواترها، هو مدى فاعلية أسلوب الاستفهام على رهن الخطاب، ليتخلق خطاب جديد بواقع مستقبلي مغاير، وهكذا...!! فمعظم الاستفهامات الواردة في الخطابات المذكورة، قد غيرت مجرى الأحداث، وأخذتها إلى منحى آخر، بمعنى أن هذا الاستفهام في الخطاب قد تحول إلى قوة إنجازية على أرض الواقع...!!

وبينما تتمدد مساحة خطاب الاستفهام على رقعة أكبر في العصر الجاهلي، يُلحظ تنوع أكبر في ورود أدوات الاستفهام على رقعة الخطاب النسوي في عصر صدر الإسلام، من ذاك المرصود في خطاب المرأة النثري في العصر الجاهلي، كما كان الاستنكار هو أكثر أنواعه وروداً، نجد في العصر الإسلامي أكثر أغراضه وروداً هو التحضيض...!!

التَّسْنِي

فِي (العصر الجاهلي)

مدخل

تَمَنَّى الشيء: أَرَادَهُ، وَالتَّمَنَّى: تَشَهَّى حُصُولَ الأَمْرِ المَرْغُوبِ فِيهِ وَحَدِيثُ النَّفْسِ بِمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ،^{٥٠٢} وهذا المشهور عند أهل البلاغة، وَالتَّمَنَّى معقود بحرمان في الواقع يجعل الإنسان يطلب تغييره بأمر يحبه يقع مستقبلاً؛ مع علمه باستحالة حصول ذلك، وهذا هو الفرق بين التَّمَنَّى والترجى، حيث الأخير يتحرك في فضاء الممكن.^{٥٠٣}

ويفرق البلاغيون بين نوعين من التَّمَنَّى:

١- محبوب متوقع مع يقين عدم الحصول عليه كونه مستحيلاً.

٢- محبوب متوقع لا يُرجى حصوله كونه ممكناً لا يمكن الحصول عليه.^{٥٠٤}

لِلتَّمَنَّى أداة أصلية واحدة هي (لَيْتَ)، تعينها أدوات أخر وضعت لمعانٍ غير التَّمَنَّى، لكنها قد تخرج في سياقات خاصة إلى فضاء التَّمَنَّى: (هل، لو، ألا، هلاً، لعل).^{٥٠٥} وقد تأتي بعض الكلمات في سياق معين لتؤدي معنى التَّمَنَّى، فتدخل في معناه، ولكن إلى أي مدى استرسلت المرأة الجاهلية في أمانيتها في سياق الحرب هذا..؟؟، وما الذي يشغل حيز أمنياتها..؟؟

بين يدي البحث، لا تتواتر نصوص لغرض التمني لا بأداته الأصلية ولا الفرعية، ولذلك دلالاته بلا شك، ومن تلك النصوص:

^{٥٠٢} - اللسان: (مني).

^{٥٠٣} - انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي: ص: ٥١٣.

^{٥٠٤} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب: ٣٥٣/٢ - ٣٥٤.

^{٥٠٥} - انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي: ٥١٣، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب: ٣٥٣/٢ - ٣٥٤، البلاغة العربية في ثوبها الجديد: بكرى الشيخ أمين: ٧٨/١.

خطاب (سَلَمَى) زوجة عروة بن الورد، أسرها ثم أعتقها وتزوجها وأنجب منها بنين، لكنها لم ترض لنفسها اسم السبأ فاحتالت عليه لتلتقي بأهلها، فقالت له: " لَوْ حَجَّجْتَ بِي فَأَمَّرَ عَلَيَّ أَهْلِي وَأَرَاهُمْ! " ٥٠٦ ،

فأداة الشرط غير الجازم هنا قد خرجت إلى رحاب التَّمَنِّي، خاصة بعد الفترة الطويلة التي قضتها في الأسر وقد كونت حياة أخرى، اختارت أن تتخلى عنها في سبيل كرامتها، ولأن هذا الزوج لا يسمح لها فهي تتلطف به و لا تأمره أو تزجره بل تتمنى عليه ذلك وإن كانت هي تستبعده، لكنه حصل فيما بعد...!!

ومنه استعمال الفعل (وددت) في خطاب أم جساس له بعد معرفتها أنه قتل كليبا؛ قالت: "... وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ وَإِخْوَتَكَ كُنْتُمْ مُتُّمْ قَبْلَ هَذَا، مَا بِي إِلَّا أَنْ يَتَّكَدَ بِي أَبْنَاءُ وَائِلٍ.. " ٥٠٧ ، فالفعل (لَوَدِدْتُ)، قد فتح أفق التمني على مصراعيه، خاصة في هذا السياق المحموم، يدعم ذلك أن هذه الأمنية المتوخاة، إنما تُمنى وقوعها في الماضي ولا سبيل للرجوع بالزمن إلى الوراء، فما كان كان و لا يمكن تغييره، فبعد أن علمت بهذه الجريمة الفظيعة والتي هي فتنة بين أبناء العمومة، وتمتد نيرانها لتلتهم الجميع، تمنى لو أنها فقدت أبناءها العشرة جميعا، ولا أن تكون في هذا الموقف ، هي أمنية تبين مدى إدراك هذه المرأة لعظيم الجرم وآثاره، للحد الذي جعلها تتمنى هذه الأمنية الغريبة، وهي موت أبنائها ولا أن تقع هذه الفتنة، وكأنها تفدي العرب بأبنائها ، ولا أن تكون هي وهم مصدر شؤم على العرب جميعا...!!

أو بالفعل (أريد): (أم الشنفرى): " بل أريدهُ ذا نجدة ،سريعا في العِدَّة، لا تتنيه الرعدة، ولا تحويه الشدَّة ، كأسدٍ ذي لِبْدَة " ٥٠٨

٥٠٦- الأغاني، للأصفهاني: ٣ / ٥٣. إحسان عباس وآخرون، انظر: مجالس ثعلب: ٤٥١/٢، نثر الدر، للآبي: ٨٩/٤. شعراء

النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو: ص: ٨٩١ - ٨٩٢.

٥٠٧- التعازي والمراثي، للمبرد: ص: ٢٩٧. شعراء النصرانية، ص: ٢٤٧. والحوار في الكامل لابن الأثير بين جساس والدة: ١/

٤١٣-٤١٤. والمقولة لهما أخى جساس في: أمثال العرب. المفضل الضبي: ص: ١٢٠. الأغاني ، للأصفهاني: ٢٦/٥. إحسان

عباس وآخرون.

٥٠٨- تمثال الأمثال، العبدري: ١ / ٣٢٢.

إن الفعل (أريده) قد خرج إلى أفق التَّمَنِّي، هو لتوقع أمر محبوب مستقبلا، فهذا الطفل لم يولد بعد، لكنها تتمناه على هذه الهيئة المادية والمعنوية، ووفق متطلبات السياق الذي تحياه كامرأة سبية، تتمنى ابنا تعادل به الواقع وتتصالح معه.!

لا شك أن الناظر يدرك ومن الوهلة الأولى، قلة أسلوب التمني عند المرأة في سياق الحرب ، حتى أن البحث لم يسجل نصا واحدا استعملت فيه المرأة أداة التَّمَنِّي الأصلية (لَيْتَ)، وما أثبت كان بأدوات فرعية خرجت إلى فضاء التَّمَنِّي...!!

ويبدو أن هذا السياق الحربي قد فرض على المرأة في خطابها الشفاهي هذا واقعا لغويا معادلا، قد يكون أي شيء إلا العيش والتخليق في دنيا الأمانى والخيالات...، وعلى الرغم من هذا فقد أصرَّ البحثُ على أن يدوّن هذه النصوص على ندرتها ليثبت بها هذه المفارقة و ذلك التفاوت والتباين في أسلوب المرأة بانزياحاته الأسلوبية، وليظهر واقعيته، بل واستجابتها المباشرة والفورية لضرورات الحرب التي لن تُحل بالأمنيات مهما طابت وجمّلت...!!

إنّ تقلُّص أسلوب التَّمَنِّي في رقعة الخطاب النسوي لهو ظاهرة بذاته، جديرة بالملاحظة، وزعيمة بالمقارنة مع غيرها من الظواهر الأسلوبية في خطاب النثر النسوي في سياق الحرب...!!

التَّسْنِي

فِي (عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

إلى أي مدى استرسلت المرأة المسلمة في عصر صدر الإسلام في أمانيتها في سياق الحرب هذا...؟؟ ، وما الذي شغل حيز أمنياتها آنذاك...؟؟

التفجع والتحصن:

يقع ضرار أخو (خَوْلَةَ بِنْتِ الْأَزْوَِر) في الأسر أثناء فتح عزاز ، فلما بلغها نبأ الأسر، قالت: " .. إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، يَا ابْنَ أُمِّي، لَيْتَ شِعْرِي^{٥٠٩} فِي السَّلَاسِلِ أَوْتَقُوكَ، أُمِّ بِالْحَدِيدِ فَيَدُوكَ، أُمِّ فِي الْبَيْدَاءِ طَرَحُوكَ، أُمِّ بِدِمَائِكَ خَصَّبُوكَ...؟؟!!^{٥١٠}

يتقطر هذا الخطاب حزنا ومرارة ولوعة على هذا الأخ المأسور من قبل الأعداء الذين يتحاربون معهم، فالوضع غاية في الحرج، ويبرز لنا وجهها آخر من وجوه (خَوْلَةُ)، الأخت النائحة المتفجعة، لكن هذا الموقف هو الذي أظهر للعيان المرأة الشجاعة المقاتلة والفارسة التي لا يشق لها غبار، لأنها بعد هذا سعت بكل ما أوتيت من قوة وعزم أن تصل إلى أخيها لتحريره من الأسر قبل أن يفتك به هذا العدو...!!

إنَّ بنية التمني بأداة التمني الأصلية (لَيْتَ) في هذا الخطاب، والتي تبرز لنا كمنعطف أسلوبية متوسطة بين النداء والاستفهام المتواتر، قد أعطت بعدا دلاليا أعمق لحالة التحسر والتفجع، والمرارة والقلق الذين يعتصرون قلب هذه الأخت المفردة في وجه الحياة وصروفها بدون هذا الأخ الحنون الفارس...!!

وليس أدلُّ على هذا التفجع و ذلك الذهول من هذا الخطاب المسترسل في فضاء الأمنية المستحيلة على أعتاب الأسر، حيث كل مفصل من مفاصل هذا الخطاب ، يتوقع فجيعة في تنامٍ درامي حتى الوصول إلى النهاية بالتخضيب في الدماء...!!

وكانَّ (خَوْلَةُ) تصطحبنا هنا، في جولة تعريفية في كُتَيْب (كتلوج) التعذيب المتعارف عليه وقتذاك، ما بين الإيثاق في السلاسل، والتقييد بالحديد، أو ما يشبه السجن الانفرادي اليوم، بطرحه في الصحراء، ثم لا تستطيع أن تقول (قتلوك)، لا تقوى على نطقها، فتقول: "بِدِمَائِكَ خَصَّبُوكَ" ، رغم أنها

^{٥٠٩} - انظر فيها: موسوعة النحو والصرف والإعراب، إميل يعقوب: ص: ٥٨٩: لیت: حرف تمن ونصب.

^{٥١٠} - فتوح الشام، الواقي: ١ / ٢٧٨.

تتوقعها، ولم لا وقد وقع في يدي من لا يرحم...!!

الطريف أنه لا يبدو أن (خَوْلَةَ) ممن يكفي بالتحليق في دنيا الأماني، وهذا من حسن حظ ضرار، لأنها سعت بكل وسيلة ، ولم تترك حيلة لتحريره إلا وركبتها حتى وصلت لمبتغاها بعد لأي...!

لِإِظْهَارِ النَّصْرَةِ مَعَ قَلَّةِ الْحِيلَةِ :

هذا ما نتفقاه في خطاب (أروى بنت عبد المطلب)، وهي توجه خطابها لابنها بعدما أعلمها بإسلامه، وقد دخل في مناقشات كلامية، ومواجهات جسدية مع بعض سادة قريش، في ظل الحرب المعلنة على الدين الجديد، أما هي فقد فرحت به، وصارت تدفعه لنصرة النبي ﷺ، وقالت: "... لَوْ كُنَّا نَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الرَّجَالُ لَمَنْعَاهُ وَ ذَبَبْنَا عَنْهُ ."^{٥١١}

ويأتي خطاب (أروى) هذا لتقنعه أن عدم نصرتها للنبي ﷺ ليس لعدم قناعتها بهذه النصرة، بل لأنها مستضعفة ونوع النصرة التي يحتاجها النبي ﷺ الآن، هي ما يستطيع الرجال تقديمه له، لأنه في مواجهة مع الرجال ، الكثرة العددية ونوعيتها مهمة في هذه المرحلة من الدعوة، وما يقدر عليه الرجال ، هو بالضبط ما فعله ابنها قولا وعملا في هذه المواجهة وتحمله الأذى عن النبي ﷺ ولكنه دور معطل من قبل النساء، لضوابط شرعية وأعراف اجتماعية...!!

تسوق (أروى) بين يدي هذا الجزء من خطابها هذا، أداة غير أصلية للتمني (لو) ولو: حرف امتناع لامتناع أفادت التعليق بالمستقبل هنا ، ولكنها وفق سياقات داخلية عاطفية ولغوية، وخارجية اجتماعية ، خرجت بهذه الأداة إلى فضاء التمني ، ليكون لهذا البعد الدلالي وقعه على المخاطب لاستثارة حميته وتعزيز قناعته من جهة أخرى.. فهي تتمنى لو قدمت جسدها للإيذاء صيانة للجسم الشريف.. ولو بذلت نفسها فداء لنفس رسول الله ﷺ...!

وبذا تكون هذه الأداة (لَوْ)، قد أتت دورها مضاعفا، من خلال أدائها لمعنى الشرط المنوط بها أولا، مما يعطي هذه الأمنية عمقها وصدقها وتأثيرها على المتلقي...!!

^{٥١١} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٢١٢/١١، انظر: الإصابة، لابن حجر: ٢٢٢/٤.

التَّأْرِبُ وَالتَّمْنُبُ :

لقد كان الرسول ﷺ طريح الفراش، وكانت أمنيته بل أمره، أن يُنفذ جيش أسامة، ولا ندري لأي سبب تقترح (أُمُّ أَيْمَنَ)، عدم إنفاذ الجيش، وتراجع الرسول ﷺ في ذلك، لكنها تأدبا بلا شك تسوق خطابها بين يدي (لَوْ)، فتطرحة كأمنية تخيرية للمخاطب، إن شاء أخذ بها وحققها، وإن شاء فلا. تقول: " لَوْ ٥١٢ تَرَكْتُ أُسَامَةَ يُقِيمُ فِي مَعْسَكِهِ .. " ٥١٣

الِاسْتِئْذَانُ:

تأتي (أُمُّ وَرَقَةَ بِنْتُ نَوْفَلِ الْأَنْصَارِيَّةِ) لرسول الله ﷺ وتقول له: " يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَذْنَتَ لِي فَعَزَوْتُ مَعَكُمْ، فَمَرَّضْتُ مَرِيضَكُمْ، وَدَاوَيْتُ جَرِيحَكُمْ، فَلَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يَرزُقَنِي الشَّهَادَةَ . " ٥١٤

(أُمُّ وَرَقَةَ) هذه امرأة مؤمنة صادقة النية على ما يبدو، لكنها غير قادرة على الجهاد ومشاقه، لكن النبي ﷺ يراعي هذه السيدة ويبشرها في آن، ولقد كانت من الأدب والتهديب بأن طرحت طلبها هذا في فضاء الأداة (لَوْ) السابحة في فضاء التمني بهدف الاستئذان منه للخروج في وجهها الذي سألت عنه، وهو الجهاد بما تستطيع وقد عدت تلك الأدوار المنوطة بذلك الخروج كما اعتادت النسوة أن تفعلن وقتها..!

العُرْضُ :

أما (أَزْدَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ)، فترى المأزق المأزوم الذي آل إليه حال جيش المسلمين، فأرادت أن تستحث النسوة معها للمشاركة في استنقاذ الجيش وتقديم الدعم لهم، لكنها ربما توقعت بعض معارضة أو احتجاج لأسباب عدة، ولذا مهدت لغرضها قائلة: " لَوْ لَحِقْنَا بِالْمُسْلِمِينَ فَكُنَّا مَعَهُمْ " ٥١٥

٥١٢- لو: حرف مبني على السكون لا عمل له ولا يشترط الجواب. تفيد التمني. انظر فيها: موسوعة النحو والصرف والإعراب، إميل يعقوب: ص ٥٨٥.

٥١٣- المغازي، للواقدي: ٣/ ١١١٩، في إنفاذ جيش أسامة بن زيد إلى مؤتة.

٥١٤- الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٤٨١. فأمرها الرسول ﷺ بالمكث في البيت وأنها سترزق الشهادة، ولذا فقد كانت تسمى الشهيدة، فقتلها خادماها بعد مدة في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. أُمُّ وَرَقَةَ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عُؤَيْمِرِ بْنِ نَوْفَلِ الْأَنْصَارِيَّةِ المعروفة بـ (أُمُّ وَرَقَةَ بِنْتُ نَوْفَلِ).

٥١٥- تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/ ٥٩٦. سنة ٤١هـ. في القادسية. يذكر القصة بتفصيل أكبر، ابن طيفور في كتابه: بلاغات النساء،: ص: ١٥٣-١٥٤.

فهذا اللحوق الذي تقترحه في خطابها ليس لحوقاً بالآباء أو الأزواج أو الأولاد أو الأنسباء مهما قربوا أو بعدوا، بل هو لحوق بجملة المسلمين، والقصد اللفت إلى الغرض الجهادي من تواجدهن والمسلمين في هذا الموقع وهذه البقعة، نصرته الدين ضد غير المسلمين، التذكير بالهدف بطريقة غير مباشرة من خلال تغليفه بهذه الأداة الحبيبة، التي تتحرك في رمزية التمني للوصول إلى غاية عملية واقعية..!!

هذه الأمنية هي التي توسلتها لتغيير الواقع بألطف طريقة دلتها عليها غريزتها آنذاك، وهنا تجاوز التمني إلى مرحلة العمل الفعلية، حيث عقدت العزم على النصر، وهي أمنية خرجت إلى فضاء العرض، حيث توسلتها لإقناع النساء معها بالمشاركة في القتال ضد المشركين..!

التَّحْذِيرُ :

يمرّ (سعد بن معاذ)، متدرّعا و لابسا لامة حربه، غير أنّ السيدة (عائشة) زوج رسول الله ﷺ، تلحظ ما لم يفطن سعد إليه، فتشير إلى أمه متمنية عليها أن تنبه سعدا إلى ذلك، تقول: " وَاللَّهِ يَا أُمَّ سَعْدٍ لَوَدِدْتُ أَنْ دَرَعَ سَعْدٌ أَسْبَغَ عَلَى بَنَانِهِ ."^{٥١٦}

لقد كان في سعد بن معاذ طول وبسطة، ولربما لم يكن هناك ما يسبغ عليه بسهولة، لذا لم يعر الأمر اهتماما كبيرا، لكنه أصيب وقتل من حيث حذرت السيدة (عائشة)، تبسط تحذيرها هذا بين يدي أمنية تسوقها بفعل يفيد التمني وهو (لَوَدِدْتُ)، الذي يخرج هذا السياق إلى فضاء أرحب..!!

إن.. فالاستقراء العام لخطاب النثر النسوي في عصر صدر الإسلام في سياق الحرب، يجعلنا ندرك ومن الوهلة الأولى، انحسار رقعة أسلوب التمني على رقعة هذا الخطاب، حتى إنّ هذا البحث في المتوسط لم يسجل إلا نصا واحدا - تقريبا - استعملت فيه المرأة أداة التَّمْنِي الأصلية (لَيْتَ)، وما أثبت بعد ذلك كان بأدوات فرعية أدت إلى التَّمْنِي معظمها استحضرت الأداة (لَوْ)، أو الفعل (وَدِدْتُ) أو (أَوْدُ)!!..

^{٥١٦} - المغازي، للواقدي: ٢ / ٤٧٠-٤٧١. في خبر غزوة الخندق، السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٢٦-٢٢٧-٢٥٢، الروض الأنف: ٣ / ٤٣٠-٤٣١، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣ / ٣٨٨ وما بعدها، أسد الغابة، لابن الأثير: ٢ / ٤٦١، الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٢٩٩.

ويبدو أنّ استجابة المرأة المسلمة لهذا الأسلوب (التمني) هي الاستجابة ذاتها التي سجلتها المرأة الجاهلية، وهي استجابة تنحاز لضرورات السياق الحربي كما يُعتقد... هذا السياق الحربي الذي فرض على المرأة في خطابها الشفهي هذا واقعا لغويا معادلا، قد يكون أي شيء إلا العيش والتحليق في دنيا الأمان والخيالات... وعلى الرغم من هذا فقد أصر البحث على أن يدون هذه النصوص على ندرتها، ليثبت بها هذه المفارقة والتفاوت والتباين في أسلوب المرأة بانزياحاته الأسلوبية، وليظهر واقعيتها، بل واستجابتها المباشرة والفورية لضرورات الحرب التي لن تُحل بالأمنيات مهما طابت وجمّلت...!!

إنّ تقلص أسلوب التمني في رقعة الخطاب النسوي لهو ظاهرة بذاته، جديرة بالملاحظة، وزعيمة بالمقارنة مع غيرها من الظواهر الأسلوبية في خطاب النثر النسوي في سياق الحرب...!!

النِّدَاءُ

فِي (العصر الجاهلي)

مَدْخَلٌ

النِّدَاءُ والنُّدَاءُ: الصوت مثل الدعاء والرُّغَاءِ، وقد ناداه ونادى به وناداه مناداةً ونداءً أي: صاح به، والنِّدَاءُ، ممدود: الدُّعَاءُ برفع الصوت، وقد نادَيْتَهُ نِدَاءً^{٥١٧}، وهو " طلب إقبال المدعو على الداعي بحرف مخصوص " ^{٥١٨}، وقد عدّه البلاغيون المتأخرون من أنواع الإنشاء الطلبي.^{٥١٩}

أحرف النداء: وفي حروف النداء ثمانية أوجه: الهمزة، آ، أيا، أي، آي، هيا، وا، يا^{٥٢٠}، وذلك على تفاوت استخدامها للقريب و البعيد.

وللنداء أغراض يخرج إليها منها الإغراء والتخصيص^{٥٢١}، والتعجب والاستغاثة، والتنبيه، التحسر، وفي هذه الوجيزة سنحاول تتبع نداعت المرأة في سياق الحرب، من تنادي، وما غرضها من هذه النداءات، وما أكثر حروف النداء دوراناً على لسانها !!!

التعجب:

لقد رأت (أختُ جَسَّاسٍ) من أخيها أمراً مستغرباً لا تكاد تراه ، فتتعجب وتخاف وتمد عقيرتها بالنداء لأمها، لتخبرها بذلك : "يا أُمَّتَاهُ، إِنَّ جَسَّاسًا قَدْ جَاءَ خَارِجَةً رُكْبَتُهُ." ^{٥٢٢}

ومن السياق نلاحظ أن الأم والبنات في مكانين مختلفين وإن كانا قريبين، بحيث أن ما تراه البنات قد لا تنتبه إليه الأم، مما يضطر البنات أن تنادي أمها، مستعملة حرف النداء (يا) الذي يُنادى به القريب كما البعيد، وأمر آخر؛ يلاحظ هذه المرة في المنادى (أُمَّتَاهُ)، ف(أُمّ) أكثر ما يأتي مُنادَى مُرَحِّمًا،

^{٥١٧}-انظر: اللسان: (تدي).

^{٥١٨}- البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ص: ٥١٣.

^{٥١٩} انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: ٣/٣٢٦.

^{٥٢٠}- اللسان: (يا).

^{٥٢١}-انظر: مفتاح العلوم، السكاكي: ص: ٤٣١. الإيضاح، القزويني: ص: ١٤٠.

^{٥٢٢}-التعازي والمراثي، للمبرد: ص: ٢٩٧. وذكر في شعراء النصرانية على لسان مرّة بن دُهل والد جساس، ص: ٢٤٧. والحوار في الكامل لابن الأثير بين جساس والده: ١/٤١٣-٤١٤. والمقولة لهام أخى جساس في: أمثال العرب. المفضل الضبي: ص: ١٢٠. الأغاني، للأصفهاني: ٥/٢٦. إحسان عباس وآخرون.

حذفت منه التاء، قيل: "وليس في كلام العرب مضاف رُجْم في النداء غير أم^{٥٢٣}؛ إلا أن الفتاة تشيع هذا المنادى إشباعاً كاملاً بـ(التاء، الألف، الهاء)، وهذا يضيف على موقف النداء أبعاداً معنوية من ضمنها الإلحاح، كنوع من التوكيد و الإصرار على المنادى بالالتفات والانتباه، وكل ذلك لتوجيه اهتمامه للحدث الجلل العجيب الذي استثار المنادي.

التفجع والتحصّر:

وهو ما قد يسمى بـ(الندبة)، وندب الميت أي بكى عليه، وعدّد محاسنه، يندبه ندباً؛ والاسم الندبة، بالضم. والندب أن تدعو النادبة الميت بحسن الثناء، والندب أن يندب إنساناً قوماً إلى أمر، أو حرب، أو مغونة أي يدعوهم إليه، فينتدبون له أي يجيبون ويسارعون، وندب القوم إلى الأمر: دعاهم وحثهم..^{٥٢٤}

فهذه (أميمة) "أم تابت شرّاً ترثيه وتتفجع عليه: "وأبناه وابن الليل،^{٥٢٥} ليس بزمن، شروب للقليل^{٥٢٦}، رقاد بالليل^{٥٢٧}، وواد ذي هول، أجزت بالليل، تضرب^{٥٢٨} بالذيل، برجل^{٥٢٩} كالثون " ^{٥٣٠}

و" كل شيء في نداءه (وا) فهو من باب الندب"^{٥٣١}، فالتفجع، والألم والحسرة على فراق هذا الابن أظهرته أداة النداء (وا) المعنية بهذه المعاني، مع المنادى المركب من (ابن، الف المد، هاء السكت) مبالغة في محاولة إيصال النداء للمنادى، الذي هو أبعد ما يكون، يدعم ذلك هذا التعداد لميزات الفقيده، تنطقها به حرارة الثكل ومواقع الفقد، فهو نداء تتلقفه جدران القلب الملتهبة، بحيث تستدرج كل تفاصيل حياة الفقيده وأجمل محطاته وأحلا صفاته!!..

^{٥٢٣} - انظر: اللسان: (ندي).

^{٥٢٤} - اللسان: (ندب).

^{٥٢٥} - أي صاحب غارات .

^{٥٢٦} - هو شروب للقليل إذا كان مهيفاً دقيق الخصر يحتاج إلى شرب نصف النهار . اللسان: (شرب).

^{٥٢٧} - الرقاد النوم بالليل، يرقد: يسرع في عدوه. اللسان: (رقد).

^{٥٢٨} - ويقال للرجل إذا خاف شيئاً، فخرق في الأرض جبناً: قد ضرب بدقته الأرض؛ اللسان: (ضرب).

^{٥٢٩} - وليس في الكلام فعلة جاء جمعاً غير رجلة جمع رجل وكماة جمع كمء. اللسان: (رجل).

^{٥٣٠} - الأغاني، للأصفهاني: ٢١ / ١٢٤. إحسان عباس وآخرون.

^{٥٣١} - اللسان: (ندب).

ومن التفجع والتحسر مع الإحساس بالظلم والذل، صرخة (البسوس)، وقد كانت وناقته جارة عند ابن أختها، فغضب كليب، وقتل الناقة، فلما رأتها (البسوس) قد فت خمارها عن رأسها وصاحت: "وأذلاه...! واجاراه...!"^{٥٣٢}، هذا النداء المتحسر والمتفجع ليس على الناقة رغم مكانتها عند البسوس، ولكنها صرخة هتك الجوار، والإهانة والذل الذي وقع عليها، وهذا النداء هو الذي أودى بحياة كليب، وأدار رعى حرب استمرت تطحن البلاد وتحرق العباد لأربعين سنة.

وهذه الفجيعة قد تكون حقيقة بموت واقع، كما في قول (أُمُّ تَابِطَ شَرًّا) و(البسوس)، أو في حكم الحقيقة^{٥٣٣} كما في قول (امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي الْبَكَّاءِ): "وَأَتَكَلَّاهُ...!!" وَاللَّهِ مَا أَبْجَى عَلَيَّ مَالٍ وَلَا تِلَادٍ، وَلَكِنْ عَلَيَّ أُخْتٍ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْفَوْزِ، تَبَقَى بَعْدِي فِي مِثْلِ هَذَا الْغَائِطِ، فَتَهْلِكُ ضَيْعَةً".^{٥٣٤}

فهذه (المرأة البكائية) تتفجع على ما تتوقع أنه سيكون من قتل الأخت وتكلها إياها، فهي فجيفة لم تقع بعد، والحقيقة هي حيلة اتخذتها لاستنقاذ أختها...!!

الإختصاصُ:

لَمَّا قُتِلَ لَقِيْطٌ وَتَحَمَّلَتْ زَوْجَتُهُ إِلَى أَهْلِهَا مَالَتْ إِلَى مَحَلَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَارِمٍ فَقَالَتْ: "نِعْمَ الْأَحْمَاءُ كُنْتُمْ يَا بَنِي دَارِمٍ، وَأَنَا أُوصِيكُمْ بِالْقَرَائِبِ خَيْرًا فَلَمْ أَرِ مِثْلَ لَقِيْطٍ".^{٥٣٥} فقد أرادت أن تخصصهم بالمدح فنادتهم بهذا النداء...!

التحذيرُ:

ومنه خطاب (الهيجمانة) بنت مازن بن مالك بن عمرو بن تميم لأبيها: "يَا أَبَتَاهُ تَكَلِّتْكَ إِنْ لَمْ أَكُنْ صَدَقْتُكَ، فَانْجُ وَلَا أَظْنُكَ نَاجِيًا".^{٥٣٦}

^{٥٣٢} - العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٥ / ١٩٢. وهي: البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة .

^{٥٣٣} - انظر: موسوعة النحو والصرف. إميل بديع يعقوب. دارالعلم للملادين. بيروت. ط. ١. ١٩٨٨ م. ص: ٦٨١.

^{٥٣٤} الأغاني، للأصفهاني: ٥١/١٦. إحسان عباس وآخرون. الفوز: الرمل المستدير المرتفع .

^{٥٣٥} - العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٦ / ٨٨.

^{٥٣٦} - أمثال العرب، المفضل الضبي، ص: ٧٨، ٧٩، جمهرة الأمثال : العسكري: ١/ ٢٧٦، مجمع الأمثال للميداني: ١/ ٢١٥ - ٢١٦ وفيه: "ولا إخالك ناجيا". قدمت الخيل على قوم أبيها فقالت محذرة: "... فنجنا تحت الليل، وصبحهم بنو سعد فأدركوهم وقتلوا منهم ناسا كثيرا.

وهذا نداء أفاد التحذير من الغارة الوشيكة، حيث يكذبها الجميع، فما تملك إلا الإصرار على أبيها بالفرار، فيفعل أخيرا، فتصيح القوم الغارة، فيهلك معظمهم...! ونلاحظ أيضا هذه الزيادة في التركيب التي ترسخ المعنى وتظهر هذا البعد المعنوي بين البنت والأب، فكل منهما يقف على طرفي نقيض، فهي ترى الحرب وشيكة، وهو لا يرى ذلك ويريد البقاء مع قومه، فهذا النداء (يَا أَبَتَاهُ) أعطى لهذه المفارقة والتباين حقهما من حيث البعد الأبعد، وصدقت الفتاة، واستنقذت نفسها وأباها فيما بعد بينما أصيب قومها إصابة بليغة...!!

وهذه (امْرَأَةٌ مِنَ الْحَيِّ) ترى استعجال الفارس للحاق بالدفاع عن القبيلة، فلا يربط حزام فرسه و لا يحكم ضبط سلاحه، فتناديه بـ(يا): " أَقْبِضْ حَيْزُومَ فَرَسِكَ يَا أَبَا زَيْدٍ! " °٣٧، ونلاحظ تقدم الجملة الفعلية على جملة النداء، ومن ملاحظة السياق نرى أن الفارس يغذو السير مسرعا وربما لن يسمع كلامها كله وهو يبتعد، فقدمت الأهم وهو التنبيه والتحذير بربط الحزام على المُنَادِي نفسه...!

أما (كَبْشَةَ) بنتُ عُرْوَةَ الرَّحَالِ بنِ عَثْبَةَ بنِ جَعْفَرِ بنِ كِلَابٍ في يومِ شعبِ جبلة، وقد كانت حاملا بعامر بن الطفيل، فقالت: "وَيَلُكُمُ يَا بَنِي عَامِرِ ازْفَعُونِي فَوَاللَّهِ إِنَّ فِي بَطْنِي لِعَزَّ بَنِي عَامِرٍ" °٣٨، فصفوا القسي على عواتقهم ثم حملوها حتى أورتوها بالقنّة، وزعموا أنها ولدت عامرا يوم فرغ الناس من القتال.

كانت (كَبْشَةَ) حُبْلَى وقد أثقلت، وهي لا تصيح بهم لينقذوها بل لإنقاذ عزمها، أي ثقة منها بذلك...!؟؟!!، وأي ثقة منهم بها للحد الذي يتركون معه اشتجار الرماح للقتال، ليجعلوا منها محفة يرفعونها عليها، لإيمانهم بأن (عزّ بني عامر) في بطنها...!!

إنّ هذا السياق الدرامي يكشف لنا عن جملة أمور، إنها حالة الترقب الدائمة للمآثر والعز والرفعة، إنه هدف في ذاته، وهم يبذلون من أجله الغالي والثمين، هذا الترقب لا يجعلهم يترددون في الاستجابة للحظة الانتظار متى حانت، مع الأخذ بمسببات هذه اللحظة، من علامات بعينها في صحة النسب ورفعته من الطرفين، وإرهاصات بعض الكهنة، وما أشبه، وبينما يحتدم القتال، وتشتجر النصال بالنصال، تأتي صرخة (كَبْشَةَ) التحذيرية من خطورة وضعها، وأن عليهم إنقاذها لاستنقاذ ما في

°٣٧ - الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير. للهمداني: ص: ٥٨.

°٣٨ - الأغاني، للأصفهاني: ٩٦/١١. إحسان عباس وآخرون.

بطنها، فيعلم الجميع أن لذلك الأولوية القصوى، فيتركون كل شيء وينفرغون له...، ونلاحظ أيضا أن هذا النداء لا يخلو من لفظة نكاء، حيث استطاعت أن تلفت انتباههم، وتضمن استجابتهم بما اتخذته وسيلة لذلك (عزّ بني عامر)..!!

الرَّحْمَةُ وَالشَّفَقَةُ :

يغضب عمرو بن هند على بني تميم لقتلهم أخاه، فيقسم إن ظفر بهم ليقتلنهم وليسبيّن نساءهم، فلما ظفر بهم عذب رجالهم وقتلهم بالمشي على حجر الصفا المحمي، فأتي بشاب ليمشي عليها وجاءت (أُمّة) معه، فلما رأت الصفا وحرارتها، قطعت ثدييها ورمّت بهما على الصفا وقالت: "يا بُنَيَّ قِ بْثِدِيَّ قَدَمَكَ، وَأَقْلَلْ بَوَظَنَهُمَا أَلَمَكَ" ^{٣٩٥}، إن هذا النداء ب(يا)، وبعدها هذا المنادى المصغر (بُنَيَّ) للتحب والتدليل والشفقة في هذا السياق، وهذه الفدائية العجيبة قد أذابت قلوب الجميع من شفقتها على ابنها، حتى عمرو بن هند نفسه..!!

الاستغاثة :

وفي قصة حرب الفجار، يُحكى أن مجموعة من الفتية الطائشين تحرشوا بامرأة جميلة فهتكوا سترها وسخروا منها، فصاحت المرأة: "يا بني عامر فُضِحْتُ!" ^{٤٠٠} فكانت هذه الصرخة أن تفتك بالحيين لولا أن العقلاء منهم حاولوا تهدئة الوضع الذي سرعان ما تفجر فيما بعد..! وهذه صورة استغاثة تتكرر كثيرا في مثل هذا السياق، أن تنادي المرأة بالقبيلة مستغيثة بها.

وفي سياق حرب ضروس بين دوس وبني الحارث، تستغيث (زوجُ ضِمَادِ بْنِ مُسَرِّحِ بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ جُبَارِ بْنِ سَعْدِ) -امرأة من دوس- بأخيها مُرَيَّانَ بْنِ سَعْدِ الدَّوْسِيِّ، وقد هجم عليها فضمت رجلها على ابن لها من ضماد وقالت تلوذ به: "يَا أَخِي اصْرِفْ عَنِّي الْقَوْمَ، فَإِنِّي حَائِضٌ لَا يَكْشِفُونِي". ^{٤٠١}

ولكن هذا النداء ب(يا)، التي يعقبها منادى تذكره فيه بالرحم التي بينهما (أخي)، لم يجد نفعاً، ولم تنفع استراتيجية الحماية التي اتبعتها مع هذا الأخ الذي أعماه الغضب والثأر، فكل ما يهمله هو إنزال

^{٣٩٥} - غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة. للوطواط: ص: ٣٩٩.

^{٤٠٠} - الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٤٦٧، وانظر القصة في: المُنَمَّقُ فِي أَخْبَارِ فَرَيْشِ، محمد بن حبيب البغدادي: ص: ١٨٩:

، العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٥/ ٢٢٦، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ٣.

^{٤٠١} - الأغاني، للأصفهاني: ١٣/ ١٥٥. إحسان عباس وآخرون، في حرب بين دوس وبني الحارث.

أقصى الحرقة والألم بالعدو، حتى لو كان ذلك بقطيعة رحمه، أو قتل صبي بين يدي أمه، نلاحظ في هذا السياق أن هذه المرأة (الأم) لم توفر طريقة لاستنقاذ صغيرها إلا وأقدمت عليها، من استصراخها لهذا الأخ العاق، إلى تخبيتها ابنها بين رجليها وإرخاء ثوبها عليه، إلى ادعائها الحيض حتى لا تكشف، ولكن هذا الأخ لم يهتم لذلك بل ولم يحتط منه ولم تأخذه غيرةً على عريضه، فكشفها وسحب صغيرها من بين رجليها وقتله...!!

الشكوى:

لما سير بالظعن خوفاً عليهن من السبي، تعين من المسير المتواصل، فنادت (بنث قيس) أباه وذلك في حرب داحس والغبراء: " يَا أَبَتَاهُ أَنْسَبِرُ الْأَرْضَ...!!؟"^{٥٢}، ولما كان الأب منشغلاً بالسير أبعد مسافة ممكنة، فاته قدرة هاته النسوة على التحمل، فجاء نداء الشكوى المبطن بالعتاب من ابنته، بنداء يناسب السياق، من حيث البعد المادي، حيث قد تكون الفتاة في مكان مامن القافلة ووالدها يسبقها أو يتأخر عنها، وللبعد المعنوي، حيث هذا الانفصال بين الطرفين في الإحساس والمشاعر، فلم يشعر الأب بتعب ابنته ومعاناتها، بل وخجلها من التصريح بهذه المعاناة، فجاء النداء بأداة نداء ومنادى مشبع ليصل إلى أقصاه بـ(التاء، ألف المد، هاء السكت)، في قولها: (يَا أَبَتَاهُ)، و(أَبَتَاهُ) أصلها (أبي)، والتاء: عوضاً عن ياء المتكلم المحذوفة، والألف زائدة^{٥٣}، وهي من الأسماء التي لا تستعمل إلا في النداء وشرطها ملازمة التاء.^{٥٤}

الشفاعة:

لما أقتعت (الهيجمانة) والدها بالفرار من الغارة، فنجا؛ أتبعهما عبشمس، فدنا من والدها، فلما رآته (الهيجمانة) نزعت خمارها وكشفت عن وجهها وقالت له: "يَا عَبْشَمْسُ نَشَدْتُكَ الرَّحِمَ إِلَّا مَا وَهَبْتَهُ لِي"^{٥٥}، فوهبه لها وفاءً لما بينهما من ألفةٍ ومحبة...! إنَّ النداء بـ(يا) في هذا السياق؛ إنما يخرج إلى طلب قبول شفاعتها ووساطتها لاستنقاذ والدها من القتل، وهي أيضاً تستخدم استراتيجية خاصة

^{٥٢} - الفخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ٢٢٩ - ٢٢٠. أيام العرب في الجاهلية، علي الجاوي، أبو الفضل إبراهيم: ص: ٢٦٧ - ٢٦٨.

^{٥٣} - انظر: موسوعة النحو والصرف. إميل يعقوب: ص: ١٥.

^{٥٤} - نفسه: ص: ٦٨١، ٦٧٩.

^{٥٥} - أمثال العرب. المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي أبو العباس: ص: ٧٨ - ٧٩.

لقبول هذه الشفاعة، وكشف القناع أولاها، فهي تريد أن تعرفه بنفسها ليتأكد، وتنال ثقته، فهو يعرفها، والثانية هذا النداء الصريح بالاسم، ففيه تنويه لا يخفى، والثالثة القسم عليه بالرحم وعدم قطعها، والرابعة وهي الأخيرة والمهمة، أن يهبه لها وقد ملك قتله، وهكذا حتى توصلت لإحياء أبيها واسترجاع حياته بما تملكه في تلك اللحظة، بل هي استنفذته للمرة الثانية...!!

التحقيق:

ويتجلى في خطاب أخت كليب بعد مقتله لزوجته (جلييلة بنت مرة): "يا هذه أخرجي عن ماتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا" ٥٤٦

عاشت (جلييلة بنت مرة) أسوأ كابوس قد تعيشه امرأة، حينما يتجاذبها طرفا نقيض، بين أعز اثنين على قلبها، وبينهما حكايا صراع انتهى بقتل أحدهما، والآخر أيضا مقتول لا محالة، وبعد أن كانت زوجة الملك الذي تدين له قبائل العرب، والفارس الذي لا نظير له، أصبحت الآن غريبة وغير مرغوب في وجودها، وأكثر من ذلك حين تطرد من ماتم زوجها، وتعامل كعدوة وقد شمتت بها أحياء العرب، ويأتي هذا السياق اللغوي المنادى (اسم إشارة: هذه) تعبيرا واقعيا عن حالة البعد المعنوي والشحن العاطفي السلبي بتجاهل المخاطبة وتحقيرها بعدم ذكر اسمها، حقدًا عليها لأنها شقيقة القاتل، متجاهلة بأن القاتل هو زوجها، إنها قيم مجتمع جاهلي حيث يؤخذ الفرد بجريمة القبيلة والقبيلة بذنب الفرد، وهم في ذلك كله سواء، إلا ما ندر.. وبذا فد (الجلييلة) هنا غريمتهم وصاحبة ثأرهم وإن كانت موتورة في زوجها.. وأقل جزاء لها هو الطرد وإلا فالقتل أولى...!!

ومن ذلك أيضا، خطاب (ابنة امرئ القيس)، وقد أسره رجل وضع ضئيل، بالنسبة لامرئ القيس بن النعمان اللخمي الملك، شكلا ومضمونا، فقالت (بنت امرئ القيس): "يا هذا القصير أطلق أبي" ٥٤٧، وهي بلا شك تستكثر أن يؤسر أبوها، لكنها أيضا في هذا السياق تستعظم أن يكون ذلك على يد رجل غير كفاء له، فتناديه باحتقار وازدراء دون ذكر اسمه، يزيد من ذلك أن يكون بدل المنادى صفة قبح تعيره بها (القصير)، ثم تلقي إليه وبكل استعلاء فعل أمر وكأنه واجب التنفيذ، متجاوزة السياق الخارجي

٥٤٦- الأغاني، للأصفهاني: ٤٠/٥. إحسان عباس وآخرون.

٥٤٧- المستطرف، للأبشيبي: ٣٥٢-٣٥٣.

العام، من كونها وأبيها في موقف ضعف، ومنسابة مع السياق الداخلي العاطفي الذي يقودها إلى حتمية إطلاق والدها وعلى هذا القصير أن يستجيب...!!

الإغراء:

وهذه (فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخُرْشُبِ)^{٤٨} تُخطف وهي من هي منزلة ومكانة بنتاً و زوجةً و أمًا، وتُستعمل كوسيلة ضغط في حرب داحس والغبراء لاسترداد الدرع، فتقول لخاطفها قيس صاحب الدرع وأبي الجمانة: "أَيُّ قَيْسٍ، ضَلَّ حِلْمُكَ، أَتَرْجُو أَنْ تَصْطَلِحَ أَنْتَ وَبَنُو زِيَادٍ، وَقَدْ أَخَذْتَ أُمَّهُمْ، فَذَهَبْتَ بِهَا يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ مَا شَاءُوا؟؟!"^{٤٩}

في هذا السياق المشحون بالتوتر والخوف من الفضيحة والعار، تحاول فاطمة أن تترسم استراتيجية التهذئة وتحاول إقناع قيس بعد جدوى ما فعل، فهو لن يوصله لشيء والعكس صحيح، فهي أولاً تذكره بما يجب أن يمليه عليه العقل وهو الحصيف الفطن، وتطرح عليه نتيجة عمله بجملة إنشائية استفهامية، ليجيب عن نفسه بنفسه، وهذا أوقع في الإقناع من أن تملي عليه رأيها إملاءً، وتذكره أن خصومته مع زياد فقط أمّا وقد خطفها فسيكون الجميع خصماءه، ولن يغفروا له ما فعل بأهمهم وقد شوّه سمعتها، وهي ترجو ألا تكون فضيحتها على يديه، وهذا في الحقيقة ما يهملها، وفي محاولة الإقناع الهادئ؛ تتوسل بأسلوب نداء بالأداة "أَيُّ: حرفٌ يُنادى بها القريب دون البعيد"^{٥٠}، وهي لا تلقّبه ولا تكتّبه وقد رفعت الكلفة بينهما، وهذا جزء من استراتيجية التهذئة والتودد والبعد عن العصبية أو أي إشارة تهديد من شأنها أن توجج الموقف وتدفع قيساً إلى ما لاتحمد عقباه، وفي النهاية فقيس ليس بغريب عنها، فبينهم نسب، فهي جدة ابنته الجمانة لأمها، وبالتالي فاستعمال أداة نداء للقريب بدت مناسبة لسياق الاستراتيجية التي قررت أن تنفذها فاطمة للتعامل مع هذا الموقف...!!

^{٤٨} - الخُرْشُبُ: الطويل السمين. اللسان: (خُرْشُبُ)، والخُرْشُبُ اسمه: عمرو بن النضر بن حارثة بن طريف بن أنمار بن بغيض بن ريث بن غطفان. وقيل أن الذي سبها: حمل بن بدر الفزاري في غارة على بني عيس. انظر: الأغاني، للأصفهاني: ١٣٠/١٧، ١٢٣-١٣٣. إحسان عباس وآخرون

^{٤٩} - أمثال العرب، المفضل الضبي: ص: ٩٠، الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام: ص: ٧٢، جمهرة الأمثال للعسكري: ٣٤١/١-٣٤٢، ٣٤٢ / ٢، ٢٦٥، المستقصى: للزمخشري: ٦٢/٢. الأغاني، للأصفهاني: ١٧ / ١٩٣ - ١٩٨. تح/ علي محمد الجاوي. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١ / ٤٤٩. و أيضا: شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو: ص: ٩٢٦. ^{٥٠} - اللسان (يا). وذهب بعضهم إلى أنها أيضا لنداء البعيد، انظر: موسوعة النحو والصرف، إميل يعقوب: ص: ١٧٦.

وإذن فقد استعرضت بعض الانزياحات الدلالية التي خرج إليها النداء وفق السياقات المتعددة التي انساب من خلالها، على اختلاف استعمالات أدوات النداء المختلفة، وكان أكثرها استعمالا (يا)، كما جاء استعمال المنادى (أبتاه، أمّتاه) وفق المعروف من قواعد النحو، ومن الاستقراء العام كان أكثر الأغراض تداولاً هو التحذير.

النَّذَاءُ

فِي (عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

أما الأغراض التي يخرج إليها النداء فمنها الإغراء والتخصيص^{٥٥١}، والتعجب والاستغاثة، والتنبيه، التحسر، وغيرها... وفي هذه الوجيزة نحاول تتبع نداءت المرأة في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، مَنْ تنادي..؟؟، وما غرضها من هذه النداءات؟؟، وما أكثر حروف النداء دوراننا على لسانها..!!!

التفجع والتحصّر:

تُعَوِّلُ (خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَِرِ) بعد معرفتها بأسر أخيها، فتذهب للبحث عنه مع خالد بن الوليد، فصارت تقول :

" يَا ابْنَ أُمِّي لَيْتَ شِعْرِي فِي أَيِّ الْبَيْدَاءِ طَرَحُوكَ..؟ أَمْ بِأَيِّ سِنَانٍ طَعَنُوكَ..؟؟ أَمْ بِالْحُسَامِ قَتَلُوكَ..؟؟ يَا أَخِي أُخْتِكَ لَكَ الْفِدَاءُ، لَوْ أَنِّي أَرَاكَ أَنْقَذْتُكَ مِنْ أَيْدِي الْأَعْدَاءِ، لَيْتَ شِعْرِي أَتَرَى أَنِّي أَرَاكَ بَعْدَهَا أَبَدًا..؟ فَقَدْ تَرَكْتَ يَا ابْنَ أُمِّي فِي قَلْبِ أُخْتِكَ جَمْرَةً لَا يَخْمَدُ لَهَيْبُهَا وَلَا يُطْفَأُ !.."^{٥٥٢}

على مساحة هذا الخطاب تتناوب ثلاثة نداءات: (يَا ابْنَ أُمِّي) مكرورة مرتين، و (يَا أَخِي)، وكلها أتت به بحرف النداء (يا)، الذي هو لنداء البعيد، وهو بعيد فعلا...! يعزز من قيمتها الأسلوبية انغراسها في بنية الاستفهام المتعاقب، لينزاح هذا النداء نحو التفجع والتحصّر والقلق على مصير هذا الأخ، ويظهر هذا النداء المكرر لـ (يَا ابْنَ أُمِّي)، واحدا من أسرار هذا التعلق الأخوي بين الأخوة، وهو الأم هنا، فهو غال في نفسه، هو غالٍ من معزة هذه الأم ورائحتها، وقديما قالت امرأة: الزوج موجود، والولد مولود، والأخ مفقود، فالفجعة في الأخ لها مرارة خاصة لهذا الخصوص، ويزيد من ذلك حينما تكون الأخت وحيدة مفردة في وجه أعاصير الحياة، لاتتقيها إلا بأخيها، فإذا بهذا الأخ يُفقد فالحسرة عليه مضاعفة..!!!

^{٥٥١} -انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي: ص: ٤٣١، الإيضاح، للقرظيني: ص: ١٤٠.

^{٥٥٢} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤٢.

ويستشهد سعد بن معاذ فتندبه أمه ، متفجعة عليه : " وَآ جِبَالَهُ...!!" ^{٥٥٣} ، و " كلُّ شيءٍ في نِدائه (وا) فهو من باب النُّدْب" ^{٥٥٤} فالنفجج، والألم والحسرة على فراق هذا الابن أظهرته أداة النداء (وا)المعنية بهذه المعاني، مع المنادى المركب من (جبل،الف المد،هاء السكت) مبالغة في محاولة إيصال النداء للمنادى،الذي هو أبعد ما يكون..!

التَّحْضِيضُ وَالتَّصْرِيضُ:

تقتحم (أُمُّ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيَّةُ) ساحة المعركة، وهي تلهث ماسكة بزمام جمل زوجها ، والناس يفرون من المعركة، وترى ابنها بين الفارين، فتناديه نداء ترخيم، موبخة له على تركه وتخليه عن رسول الله ﷺ، ومحرضة إياه للعودة إلى الميدان: "...فَقَالَتْ: يَا حَارِ تَنْزُكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...". ^{٥٥٥}

تقعُ (خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَِرِ) في الأسر هي و نسوة أخريات، وترى أن الوضع قد يصبح أكثر حرجا، خاصة مع طمع القائد بها، فتعمل على تحريض النسوة على الدفاع عن أنفسهن ومهاجمة الأعداء، فقالت لهن: " يَا بَنَاتِ التَّبَابِعَةِ وَالْعَمَالِقَةِ، خُذُوا أَعْمِدَةَ الْخِيَامِ وَأَوْتَادَ الْأَطْنَابِ، وَنَحْمِلْ بِهَا عَلَى هَوْلَاءِ اللَّئَامِ، فَلَعَلَّ اللَّهُ يَنْصُرَنَا عَلَيْهِمْ أَوْ نَسْتَرِيحَ مِنْ مَعَرَّةِ الْعَرَبِ...". ^{٥٥٦}

هذا النداء فريد في بابه ، لا لشيء في بنيته وتركيبه، بل في مضمونه ونسبته، حيث النداء المتوقع مثلا يابنات الإسلام، لكن أن تكون النسبة للأعراق فهو عودة إلى الوراثة! وعلى أية حال فيبدو أن هذا النداء بانزياحه نحو التحضيض قد حقق غاياته العملية، وقد انبرت هاته النسوة مُقَدِّمَات متحفزات للدفاع عن أنفسهن وعقيدتهن..!!

^{٥٥٣} - المغازي للواقدي: ٤٧١/٢، ٤٧٠. في خبر غزوة الخندق،السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٢٦-٢٢٧-٢٥٢،الروض الأنف، للسُّهيلي: ٣/ ٤٣٠-٤٣١، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ١٣٠. الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٣٨٨ وما بعدها. أسد الغابة، لابن الأثير: ٤٦١/٢، الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٩٩.

^{٥٥٤} - اللسان: (ندب).

^{٥٥٥} - المغازي للواقدي: ٣/ ٩٠٤. في خبر من ثبت من النساء في غزوة حنين.

^{٥٥٦} - فتوح الشام، الواقدي: ١/ ٤٧. في فتح دمشق.

التفدية:

ويُرى بروز هذا النوع من النداء، مقترنا ومرتبنا بالنبى محمد ﷺ في عمومه ، معقباً باندائه بصفته الرسالية المتكررة، وغالبا ما يكون مقرونا بـ(باء) تسمى (بء التفدية):

من أمثلة هذا الخطاب ما ورد على لسان (أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدِ بْنِ السَّكَنِ)، خطيبة النساء ووافدتهن إلى النبى ﷺ تسأله وتستفهم منه عن جملة أمور، فتفتتح خطابها قائلة: " بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ" ٥٥٧ نداء تحبب بحرف نداء عام : (يا) يلحظ فيه نداء بصفة الرسالة السماوية التي تناسب مقام الاستفهام والترحم والاستعطاف ورجاء العدل المنتظر من هذا الرسول ﷺ ، ويعمل التقديم والتأخير عملهما في إظهار التخصيص بالمكانة الروحية وإظهار الفداء، حيث قدمت شبه الجملة (الجار والمجرور) على النداء، على ما في هذا النداء من تفدية وإعزاز.

والأمر نفسه يلحظ في خطاب (أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ) حين استنتجت استشهاد زوجها جعفر بن أبي طالب من خلال سلوك النبى ﷺ: " يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا يُبْكِيكَ؟ أَبْلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ ..؟ " ٥٥٨

التحبيب والتودد:

نمثل لهذا الغرض بخطاب (أُمِّ أَيْمَنَ) في بعث أسامة بن زيد - ابنها-، حين دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: " أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ ، لَوْ تَرَكْتُ أُسَامَةَ يُقِيمُ فِي مَعْسَرِهِ حَتَّى تَتَمَآثَلَ فَإِنَّ أُسَامَةَ إِنْ خَرَجَ عَلَيَّ حَالَتِهِ هَذِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِنَفْسِهِ" . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ" ٥٥٩

٥٥٧- مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١/ ٥٢٥، انظر الإصابة، لابن حجر: دار الكتاب العربي: ٤/ ٢٣، الاستيعاب (المطبوع بهامش الإصابة) (٤ / ٢٣٣ .

٥٥٨ - السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٨١ - ٣٨٢. (في حزن الرسول ﷺ على جعفر ووصايته بإله).

٥٥٩ - المغازي للواقدي: ٣ / ١١١٩، في إنفاذ جيش أسامة بن زيد إلى مؤتة.

ولإظهار هذا القرب تتوسل (أُمَ أَيْمَنَ) بأسلوب نداء بالأداة (أَيَّ)، وهي "حرفٌ يُنادى بها القريب دون البعيد" ^{٥٦٠}، (أَيَّ) هذه التي تنزاح إلى إظهار التحبب والتودد لرسول الله ﷺ، خاصة وأنها أتت لتتحدث معه في أمر يحتاج إلى هذه التقدمة.

وهذا ما نجده في خطاب (أُمَ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ)، وهي تحثه على الإسراع إلى الجهاد: " يَا بَنِيَّ وَقَدْ

وَاللَّهِ تَأَخَّرْتُ " ^{٥٦١}

تَعْمِيمُ الْإِزْدِرَاءِ وَالْكَرَاهِيَّةِ:

أما (فَاطِمَةُ بِنْتُ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ)، فلا تزال تجد في نفسها ممن قتل أحبها وأعزها وهم على الشرك، لكنها لاتصرح بأسمائهم، وتفضل هذا التعميم لمشاعر الازدراء والكرهية على عموم بني هاشم، فتأتي بالنداء لهذه الغاية: " يَا بَنِي هَاشِمٍ لَا يُحِبُّكُمْ قَلْبِي أَبَدًا، أَيْنَ أَبِي..؟؟ أَيْنَ أَخِي..؟؟ أَيْنَ عَمِّي..؟؟ كَأَنَّ عُنَاقَهُمْ أَبَارِيقُ فِضَّةٍ !! " ^{٥٦٢}

الاستغاثَةُ:

وهذه (ضُبَاعَةُ ابْنَةُ عَامِرِ بْنِ قُرْظٍ) تطلق نداء استغاثة عاجل، ليس لأنها في خطر أو هناك من اعتدى عليها، بل لأنها رأت الأذى يقع على رسول الله ﷺ، وذلك في عرض الرسول ﷺ نفسه ودعوته على القبائل، والتي منها (كندة) فقالت: " يَا آلَ عَامِرٍ - وَلَا عَامِرَ لِي - أَيُّصْنَعُ هَذَا بِرَسُولِ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ..؟؟!! " ^{٥٦٣} فتناذروا إليها ومنعوا النبي ﷺ.

^{٥٦٠} - اللسان : (يا). وذهب بعضهم إلى أنها أيضا لنداء البعيد، انظر: موسوعة النحو والصرف، إميل يعقوب: ص: ١٧٦.
^{٥٦١} - المغازي للواقدي: ٢/ ٤٧٠-٤٧١. في خير غزوة الخندق، السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٢٦-٢٢٧-٢٥٢، الروض الأنف، للسهيلى: ٣/ ٤٣٠-٤٣١، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ١٣٠، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ٣٨٨ وما بعدها، أسد الغابة، لابن الأثير: ٢/ ٤٦١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٩٩.
^{٥٦٢} - العقد الفريد: ٤/ ٨. وهؤلاء قتلوا يوم بدر، أخوها: الوليد بن عتبة، وعمها شيبعة بن ربيعة، قتلهم جميعا: عبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، رضوان الله عليهم.

^{٥٦٣} - البداية والنهاية. لابن كثير: ٣/ ١١٧. في عرض الرسول ﷺ نفسه ودعوته على القبائل: 'كندة'، وعند بني عامر يومئذ ضباعة ابنة عامر بن قرظ، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت، وقد رأت ما وقع على النبي ﷺ من إيذاء: " ..

التسليم والرضا :

وجد ذلك الغرض في خطاب (أم جميل بن سعد الداربي)، لما استشهد ابنها قالت: " يَا بُنَيَّ عَشَتْ سَعِيدًا، وَمَتَّ شَهِيدًا ، وَسَلَكْتَ سَبِيلَ آبَائِكَ، فَرَحِمَكَ اللهُ وَأَنْسَ غُرْبَتَكَ وَنَفَعَنِي بِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ثُمَّ قَرَأَتْ: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} ٥٦٤ { ٥٦٥ .

وجد هذا النداء بحرف النداء(يا)، الذي ينادى به البعيد كما القريب، ولكن ربما يكون هذا السياق ينزاح إلى نداء البعيد، على عد أن هذا الابن أصبح بعيدا بعد الحياة عن الموت، وانتقل إلى رحاب الجنان، مصحوبا برضا الرحمن، ولذا لا نجد من هذه الأم جزءا، ولا تشكيا، ولا إعوالا ونوحا، بل هو تسليم ورضا، وكيف لا تكون كذلك وقد شاركت هذا الابن في اختيار مصيره هذا...!!، بل ودفعته إليه ترغيبا وتحريضا حتى آل إلى هذا المآل..ولذا يأتي هذا النداء بالتصغير (بُنَيَّ) تلذذا وتحببا واستئناسا لنداء هذا الابن وللمرة الأخيرة، لكنه نداء مشبع بأنفاس الرضا المزدوج، حيث هي راضية عما فعله وفخورة به، وراضية عن مصيره وشهادته هذه...!!

تلك كانت بعض نماذج النداء الملتقطة من ثنايا خطاب المرأة النثري في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، وبذا يكون أسلوب النداء؛ وفق تلك النماذج المتناولة، قد شكّل بؤرة انزياح دلالي، ولفت في سياقاته النوعية المنبثقة من السياق الأصل(سياق الحرب/ الجهاد) إلى تلك الدلالات المنوطة به، التي أعطته زخمه وتنوعه وثرائه،التي أنبأت بدورها عما يجيش في صدر المرأة من انفعالات،وما يلفت نظرها وتهتم به في هذا السياق المخصوص، ونلاحظ غلبة النداءب (يا)، وأن (أَيَّ) استعملت للتحبيب والتودد، وبرز من الأغراض،غرض التفدية لرسول الله ﷺ...!!

٥٦٤ - البقرة/١٥٦.

٥٦٥ - فتوح الشام ، للواقدي: ٢ / ١٣٦ . في ذكر فتوح الرها وحران. في فتوح قلعة رأس العين.

الفصل الثاني

البنية الإيقاعية وتأكيد الدلالة

مَدْخَلٌ

إنَّ الاهتمامَ بالبنية الإيقاعية وتأكيدَها على الدلالة؛ إنما يتأرجح من لفتات علم البديع بعوالمه الزاخرة بمصادر الإيقاع والتنغيم والجرس والترنيم، حيث يؤدي هذا الأداء الموسقى دوره لا في تأكيد الدلالة فحسب، بل في تكوينها وترسيخها، والإقناع بها في سياق العملية التواصلية، حينما تصبح ناقلة للمعنى ومعبرة عنه في آن.. وحين يكون لها دورها الحجاجي المنوط بها والمعتمد عليه في كثير من الأحيان...!!

" وَبَدَعَ الشَّيْءَ يَبْدَعُهُ بَدْعًا وَابْتَدَعَهُ: أَنْشَأَهُ وَبَدَأَهُ، وَأَبْدَعْتُ الشَّيْءَ: اخْتَرَعْتَهُ لَا عَلَى مِثَالٍ، وَالْبَدِيعُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِإِبْدَاعِهِ الْأَشْيَاءَ وَإِحْدَاثِهِ إِيَّاهَا وَهُوَ الْبَدِيعُ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، الْبَدِيعُ: الْجَدِيدُ " °٦٦

تأخر اهتمام البلغاء بعلم البديع بعد عنايتهم بعلمي المعاني والبيان، وعدّه بعضهم علماً إضافياً، وحبلى لفظية، يقول ابن خلدون: " .. وألحقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر في تزيين الكلام، وتحسينه بنوع من التتميق : إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لا اشتراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد، .. ويسمى عندهم علم البديع " °٦٧.

واستقر تعريف البديع عند صاحب الإيضاح، يقول: " هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة.. " °٦٨، وبلا شك فإنه أيضاً يراه حلية شكلية يمكن الاستغناء عنها، إذ إنها زينة..!

إذن لم يروا في هذا العلم الإضافي إبداعاً يمكن تقديره، زاد من نفورهم هذا المبالغات المتأخرة التي سيطرت على قصائد المحدثين منذ نهايات العصر الأموي، ولم يروا فيها إلا صنفاً ومبالغة وضعفاً في الشاعرية يرقعها الشاعر بهذه الزركشات التي تجعل من القصيدة مهلهلة ضعيفة النسج، وعلى

°٦٦ - اللسان: (بَدَعَ).

°٦٧ - تاريخ ابن خلدون: ١/٦٤٠.

°٦٨ - الإيضاح، للقرويني: ص: ٢٨٨.

عكس هذا الموقف احتفى به بعضهم الآخر حفاوة جعلته من صور الإبداع الفني التي تُعلي من قيمة الشاعر وصنيعه في القصيدة وتميزه عن غيره، خاصة إذا تموضع هذا البديع في مواضعه ، وتشكل في إهاب صورة جميلة، أو إيقاع نابض، يعبر عن تجربة عميقة وحس صادق، فمتى ما كانت هذه صفته كان يأسر الألباب، أيا كانت صورته من سجع أو جناس أو طباق أو مقابلة أو تورية، وتسقط كل هذه المعايير إذا سقطت هذه الفنون البديعية في جُبِّ التَّكْلُفِ والتَّصْنَعِ...!!

واستمر ذان الموقفان بين مؤيد ومعارض حتى عصرنا الحديث، ولأسباب نفسها، غير أن الموقف المعارض كان أكثر بروزاً، نظراً للإغراق المستفز في الفنون البديعية الذي طغى على معظم الإنتاج الأدبي في العصرين المملوكي والعثماني، والذي أفرز أضعف إنتاج أدبي في هذا العصر، وهو موقف يعد نسخة مكررة مما حدث إبان أواخر العصر العباسي^{٥٦٩}، هو موقف غاضب لم يقف ليميز بين غث هذا الإنتاج وسمينة...!!

ومع ذلك فالمؤيدون كما المعارضون اهتموا بتصانيف هذا الفن والتمييز بينها، وبين التشابه في مسمياتها والتباين أو التشابه في مضامينها، والتي بدأت بأنواع معدودة فصارت تتسع مع تفنن المبدعين حتى جاوزت المئة عند صفي الدين الحلي^{٥٧٠}.

لقد ارتبطت الفنون البديعية والموقف منها بالتكلف والتعمل على حساب التجربة الإبداعية، أما ما يأتي منها عفو خاطر فكان مثار إعجاب وتقدير، ومتى ما دخلت هذه الفنون البديعية في نسيج التجربة الأدبية، وصارت معبرة عنها، ممثلة لها، بما يطرب الآذان تارة، وما يجذب النفوس، ويدهش العقول تارة أخرى، كان لها هذا الحضور الذي لا يختلف عليه اثنان.

ويتحدث القزويني عن شرط الحسن في البديع ومحिला إلى ما قاله سلفه الشيخ عبد القاهر الجرجاني، هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني على كل حال، لأن المعاني هي التي تطلب الألفاظ، ولا تنخير منها إلا ما يليق بها، أما من يتكلفه فيُغرب فيه حتى ينسى أنه يتكلم ليفهم فلا وجه له من

الحسن ولا شطر له من البلاغة...!!^{٥٧١}

^{٥٦٩} - انظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع): بكري شيخ أمين: ٦/٣.

^{٥٧٠} - نفسه.

^{٥٧١} - انظر: أسرار البلاغة، للجرجاني: ص: ٩-١٤. الإيضاح، للقزويني: ص: ٣٣٦.

وبما أنّ هذا السياق سياق شفهي، وسياق حربي حيث المفاجأة والعفوية هما نسيجا الأحداث فيه على وجه العموم، فمن الطبيعي أن تظهر بعض فنون البديع وتختفي فنون أخرى، فيبرز منها ما ينسجم مع هذه العفوية، ومع السليقة الفطرية، حيث ليس هناك من تعمد للتدبيح، أو التكلف والتصنع في إجراء الخطاب عبر المواقف الاتصالية المختلفة..!!

من هنا فإن هذه الإطلالة على الفنون الإيقاعية ستقتصر على ما يلائم هذا السياق وطبيعته، من بديع لفظي: سجع وجناس، ومعنوي: طباق ومقابلة، وكيف كانت هذه الفنون جزءاً من التجربة التعبيرية والشعورية بجوانبها المختلفة..!

المَبْنَعَةُ الأَوَّلُ:

الْمَجْنَسُ

فِي (العصر الجاهلي)

الجناسُ وأنواعه

يعدّ الجناس من فروع علم البديع، الجنسُ: الضربُ من كل شيء، وهو من الناس ومن الطير ومن حدود النحو والعروض والأشياء جملةً، ويقال: هذا يُجانسُ هذا أي يشاكله، وفلان يُجانس البهائم ولا يُجانس الناس إذا لم يكن له تمييز ولا عقل.^{٥٧٢} والجناسُ ثاني فنون البديع عند ابن المعتز.^{٥٧٣}

ويرى العلوي أنّ الجناس من أشرف الفنون وأجملها، يقول: "وهو من أطف مجاري الكلام ومن محاسن مداخله، وهو من الكلام كالغرة من وجه الفرس."^{٥٧٤}!

وبرغم هذه العناية التي أولاها البلاغيون لهذا الفن، فإننا لا نجد الحماسة نفسها عند كثير من الأدباء،^{٥٧٥} ..

^{٥٧٢} - اللسان: (جنس).

^{٥٧٣} - انظر: كتاب البديع. عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، تح/إغناطيوس كراتشكوفسكي: دار المسيرة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م. ص: ٢٥.

^{٥٧٤} - انظر: الطراز، للعلوي: ١٨٥/٢.

^{٥٧٥} - ومنهم بن حجة الحموي، الذي يقول: "أما الجناسُ فإِنَّهُ غَيْرُ مَذْهَبِي وَمَذْهَبِ مَنْ نَسَجْتُ عَلَى مَنَوالِهِ مِنْ أَهْلِ الأَدبِ ، وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ اشتقاقِ الألفاظِ فَإِنَّ كُلاً مِنْهُمَا يُؤدِّي إِلى العَقَادَةِ وَالتَّقْيِيدِ عَنْ إِطْلَاقِ عَنانِ البِلاغَةِ فِي مِضمارِ المَعانِي المُبتَكِرَةِ.." خزانة الأدب وغيابة الأرب. تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي. -ت ٨٣٧هـ- المطبعة الخيرية. القاهرة. ط ١. ١٣٠٤هـ. ص: ٢٠. وانظر: معجم المصطلحات البلاغية: أحمد مطلوب: ٥٨/٢، والغريب أنه في (ص ٢١) يقتطع كلام ابن رشيقي من سياقه ليثبت به وجهة نظره تلك، فيذكر مقولة ابن رشيقي: العمدة: ٣٢٩/١، "من أبواب الفراغ وقلّة الفائدة، وهو مما لا يُشكُّ في تكلفه، وقد أكثر منه هؤلاء الساقّة المتعقبون في نشرهم ونظمهم حتّى بردوا، بل تدرّكوا.."، متجاهلاً أن ذلك كان تعليق ابن رشيقي على المتكلف من الجناس، لا رأيه في الجناس ككل، الذي يستحسنه في مواضع الحسن ويستقبّحه في مواضع التكلف والقبح كأبي فن آخر، ولذا يعلّق ابن رشيقي بعد مقارنة بين جناس سقيم متكلف للمطوعي، وآخر جيد في موضعه لأبي فراس. بقوله: "فما كان من التجنيس هكذا فهو الجيد المستحسن وما ظهرت فيه الكلفة فلا فائدة فيه"^{٥٧٥}، وهذا ما فعله الحموي نفسه في أكثر من موضع!!، وانظر: سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي: ص: ١٨٥، أسرار البلاغة: للجرجاني: ص ٧-٨-١١.

وله تعريفات متعددة، نأخذ منها مثلاً تعريف السكاكي: "هو تشابه الكلمتين في اللفظ"^{٥٧٦}، و تعريف العلوي: " أن يتفق اللفظتان في وجه من الوجوه ويختلف معنأهما "^{٥٧٧}، وبذا يكون قوام الجناس هو اتفاق في اللفظ واختلاف في المعنى، خاصة في الجناس التام.

وللجناس أنواع كثيرة ومتعددة،^{٥٧٨} ولكننا سنقف عند أبرزها: الجناس التام، الجناس الناقص، وفق ما قسمه يحي العلوي^{٥٧٩}، ولأن معظمها تفرعات عن ذين النوعين:

أولاً / الجناسُ التامُ:

التجنيس الكامل أو التام أن تصلح اللفظة لمعنيين مختلفين^{٥٨٠}، وهو أن تتفق الكلمتان في لفظهما ووزنهما وحركاتهما ويكون الاختلاف في المعنى فقط، وأكثر وقوعه في الألفاظ المشتركة، و الجناس التام من أكثر أنواع الجناس ندرة، حتى أنه لم يقع في القرآن إلا مرة واحدة على رأي أغلب العلماء، وذلك في قوله تعالى: { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ }^{٥٨١}، واستخرج ابن حجر جناساً آخر في قوله تعالى: { يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ }^{٥٨٢}

والجناس التام على أنواع،^{٥٨٣} فمنه: المماثل، كما في الآيتين السالفتين، ومنه المستوفى، وهو أن تكون الكلمة الأولى اسم والثانية فعل، والمتشابه وهو أن تكون الكلمة الأولى مفردة والثانية مركبة

^{٥٧٦} - مفتاح العلوم : للسكاكي: ص: ٥٣٩.

^{٥٧٧} - الطراز: للعلوي: ٢/ ٢٨٥.

^{٥٧٨} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية: أحمد مطلوب: ٢/ ٥٣ وما بعدها.

^{٥٧٩} - الطراز: للعلوي: ٢/ ١٨٥. أما ابن أبي الإصبع في كتابه: بديع القرآن، ص: ٢٨، يقول: "... وفروع التجنيس كلها منقسمة إلى قسمين: تجنيس تغاير وتجنيس تماثل." بديع القرآن، عبد العظيم بن عبد الواحد بن أفر بن عبد الله بن محمد المصري، المعروف بابن أبي الإصبع المصري (٥٨٥هـ - ٦٥٤هـ)، تح/حفني محمد شرف: نهضة مصر، د.ت، د.ط.

^{٥٨٠} - انظر: الطراز: العلوي: ٢/ ١٨٥.

^{٥٨١} - الروم/ ٥٥.

^{٥٨٢} - النور/ ٤٤، ٤٣. انظر: خزائن الأدب: للحموي: ص: ٣٠.

^{٥٨٣} - انظر في أنواع الجناس: كتاب البديع: لابن المعتز: ص: ٢٥ وما بعدها، العمدة، الابن رشيق: ٣٢٩/ الطراز، للعلوي : ١٨٦/٢ وما بعدها، سر الفصاحة، لابن سنان: ص: ١٥٨ وما بعدها، الإيضاح، للقرظيني: ص: ٣٢٣ وما بعدها، البلاغة العربية في ثوبها الجديد: بكرى شيخ أمين: ٣/ ١٣٤ وما بعدها، معجم المصطلحات البلاغية: أحمد مطلوب: ٢/ ٥٣ وما بعدها.

من كلمتين صورة كتبتهما واحدة، فإذا اختلفت صورة كتابتها فهو المفروق، وإذا تكون الجنس من كلمتين كل منهما مركبة فذلك الملقق.

ولأنّ هذا السياق هو سياقٌ لحظيٌّ عفويٌّ، لا نجد المرأة في سياق الحرب متفرغة لهذا النوع من الجنس...!!، ربما لأن هذا النوع يحتاج لإعمال فكر وقصد بحث بما لا يتفق مع سياق الموقف الحربي، ونوع الاتصال الشفهي الذي تقتضيه هذه الضرورة...!!

ثانياً / الجناسُ النَّاقِصُ "غير التام":

وهو ما تطرق إليه الاختلاف من جهة من الجهات ، وهو على ضرب ^{٥٨٤} منها:

جناسُ التّصريفِ:

وهو أن يختلف اللفظان في الشّكل، ونمثّل له بقول (الحمراء بنت ضمرة) لعمرو بن هند لما أراد إحراقها بعد حرق قومها: "هُوَ وَاللّهِ طَيِّبُ الْعِرْقِ، سَمِينُ الْعِرْقِ، لَا يَنَامُ لَيْلَةً يَخَافُ، وَلَا يَشْبَعُ لَيْلَةً يُضَافُ، يَأْكُلُ مَا وَجَدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا فَقَدَ." ^{٥٨٥}.

فالجناس بين كلمتي (العرق، العرق)، باختلاف شكل العين، ففي الأولى مكسورة، وفي الثانية مفتوحة، (العرق) المَعْرُوسُ أو المَوْضِعُ المَعْرُوسُ فيه أو الأرض، والمقصود: الأصل، أو الخمر الممزوج ليلاً، و (العرق)، بالسكون: العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم وهبزه وبقي عليها لحوم رقيقة طيبة فتكسر وتطبخ وتؤخذ إهالتها من طفاحتها، ويؤكل ما على العظام من لحم دقيق وتتمشش العظام، ولحمها من أطيب اللحمان عندهم؛ وجمعه عِرَاقٌ؛ أو: الفِدْرَةُ من اللحم. ^{٥٨٦}.

فتان اللفظتان متفتتان في عدد الحروف، وفي الجذر اللغوي، وتختلفان في المعنى وفي حركة (العين)، وهي تريد بهذا الجنس أن تؤكد على صفتين بارزتين يتسم بهما زوجها الغائب، وهما طيب الأصل، والكرم، بل قمة الكرم حيث يعطي أجود ما عنده و أحسنه، وهنا تناسب في المعنى، فالجملة

^{٥٨٤} - انظر: الطراز: العلوي: ١٨٦/٢ وما بعدها.

^{٥٨٥} - قصة المثل" صارت الفتيان حُما" في مجمع الأمثال للميداني: ١/٢٧٤-٢٨٤. المُنْمَقُ فِي أَخْبَارِ قُرَيْشٍ: محمد بن حبيب البغدادي. ص: ٢٩٠. الأغاني ، للأصفهاني: ٢٢/١٣٤. تح/ إبراهيم السعافين ويكر عباس. ثمار القلوب: للثعالبي: ص: ١٠٧ .

^{٥٨٦} - انظر: اللسان. (عرق).

الأولى مترتبة ومكملة للثانية، وإنما هذا الجناس جاء متموضعا للفت النظر إلى المعاني والصفات التي يتحلّى بهما الزوج الغائب.

ونرى ذلك في مقولة (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِرِ) لسعد بن أبي وقاص في أعقاب القادسية:

"إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَوْمِ عَيْرَةٍ، إِلَّا والدَّهْرُ مُعْقِبُهُمْ عَيْرَةٌ".^{٥٨٧}

و(العبرة) العجب. واعتبر منه: تعجّ، و(العبرة) الدمعة^{٥٨٨}، إنَّ هذا التجانس بين الكلمتين حيث الفرق في شكل (العين) أيضا، كرس النظر إلى حكمة من الحكم انسابت من روح خبرت حالين مختلفين وعبرت من بوابتين متضادتين في الحياة، ولذا جاء هذا الجناس ليكون كدعامة لوقفه تأملية، حيث مامن قوم كانوا مثار عجب وإعجاب لما لديهم من الخيرات والنعم، إلا ودارت بهم الدوائر وتنكبهم النعيم، وتجافى عنهم الرغد، فأعقبهم حسرة ودموع!!..

وبذا نرى أن هذا الجناس أدى وظيفة دلالية في السياق، ولم يكن حلية لفظية فارغة، أوزينة يمكن الاستغناء عنها، وهو مهم أيضا بما يكرسه من إيقاع يجذب الأسماع ويلفت إلى لمعنى المراد.

جِنَاسُ التَّأخُلِ :

ويتحقق بزيادة إحدى الكلمتين بحرف لا يوجد في الأخرى، كخطاب (هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ) لَوَحْشِيٍّ: "اشْفِ وَأَشْتَفِ"^{٥٨٩}، فالفعل الثاني زاد على الفعل الأول بحرف (التاء)، وكلاهما فعلا أمر، غير أن الأول يخص هند ومن معها، أي (اشفنا)، والثاني موجة لوحشي نفسه، بأن ينفس عن غضبه ويشفي غلّه، والحقيقة أن لهذا الجناس دوره في إجلاء الدلالة وجعلها تطفو على السطح، فهند حريصة كل الحرص على تنفيذ المهمة وتحصيل الثأر ويأبشع طريقة، ولذا فهي معنية بإبقاء الحماسة والطمع حاضرين في ذهن وحشي وروحه، وهي تغذيها بشتى المغريات، ومنها أن تجعله شريكا في الثأر

^{٥٨٧} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦/ ٢٨٨، الأغاني، للأصفهاني: ١٤ / ١٤١، المستطرف، للأبشيبي: ٢٢١. خزانة الأدب، للبغدادي: ٦٨ - ٦٩.

^{٥٨٨} - اللسان: (عبر).

^{٥٨٩} - السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٦٢. والروض الأنف: للسهيلي: (وَهِيَ أَبَا دَسْمَةَ اشْفِ وَاسْتَشْفِ) ٣/ ٢٤٣. زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية: في فتح مكة. ٣/ ٣٥٦.

وليس منفذا له فقط، هي إذن تريد أن تشعره بأن هذا الثأر هو قضيته وليست مهمته..، وبذا يتبلور دور هذا التجنيس بما فيه من التفات في تفشي الدلالة ووضوحها!!..

ومن ذلك خطاب (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْدِرِ) حين خطبها المغيرة، قالت وقد استنكرت طلبه: "وَالصَّلِيبِ مَا فِي رَغْبَةٍ لِحِمَالٍ، وَلَا لِكَثْرَةِ مَالٍ، .."^{٩٠}، فالتجنيس بين كلمتي (جمال/مال)، حيث زيادة حرف (الجيم) في الأولى، وهذه الزيادة لها دورها في ترسيخ الدلالة التي ترمي إليها حرقه، حيث المرأة تطلب في المقام الأول لجمالها!!..

وربما جاءت الزيادة في حرفين في أول الكلمة أو في وسطها، فمنه قول فتاة تصف فرس أبيها: "شَقَاءٌ مَقَاءٌ، طَوِيلَةٌ الأَنْقَاءُ.."، فهناك اختلاف حرفين في بداية الكلمة الأخيرة عن الكلمتين قبلها، وكذلك في قول الأخرى: "كان أبي على طويلِ بطنها، قصيرِ ظهرها، شديدِ أسرها، هاديها شطرها يكبُّها حُضْرُهَا"^{٩١}.

فهناك جناس تداخل بين (ظَهْرُهَا، أَسْرُهَا، شَطْرُهَا، حُضْرُهَا)، حيث يلحظ اختلاف حرفين في بداية كل كلمة واتفاق آخرها، والشيء نفسه مع الفتاة الثالثة، قالت: "^{٩٢} كَانِ أَبِي عَلَيِ الكَزَّةِ الأَنْوَحِ، الَّتِي يَكْفِيهَا لَبْنُ لَفُوحِ، " فبين (أنوح، لفوح) جناس تداخل حيث اتفق أيضا الحرفان الأخيران، واختلف الأولان، وبالنظر إلى الكلمات المتجانسة في الخطابات الثلاث، نجدها هي المرتكز الدلالي الذي يحدد نجاة الأب أو موته!!..

ومنه أيضا ما قيل أنه جواب (لابنة النُّعْمَانِ بْنِ المُنْدِرِ) حين سئلت: في أي شيء كانت لذة أبيك...؟؟؟ قالت: " فِي الشَّرَابِ وَمَحَادَثَةِ ذَوِي الأَلْيَابِ.. "^{٩٣}.

فبين كلمتي (الشَّرَابِ، الأَلْيَابِ) جناس تداخل، حيث تتفق الكلمتان في الحرفين الأخيرين، وتختلفان في الأوليين، وجاء التجنيس بين كلمتين هما بحق محل عناية المتكلمة، والمتكلم عنه، وهي مصدر

^{٩٠} - خزانة الأدب: للبيدادي: ٧ / ٧٠. الأغاني، للأصفهاني: ٢ / ٨٣. إحسان عباس وآخرون.

^{٩١} - الهادي: العنق.

^{٩٢} - الفاخر: للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٧١-١٧٢. الأمالي: للقاللي: ٢ / ٢١٩. مجمع الأمثال: للميداني: ٢ / ٢٤٦ وقصة المثل: "لا تعلم اليتيم البكاء".

^{٩٣} - بلاغات النساء: لابن طيفور: ص: ١٦٦.

تعاستها أيضا، وتكشف تان الكلمتان عن طبيعة حياة الملوك التي لم تعد تنتمي إليها، فكما هناك متعة الجسم ولذته، هناك متعة العقل ورفاهته، الأولى بالشرب، والثانية بصحبة ذوي الألباب..!!

وفي خطاب (أَمِيْمَةٌ :أَمْ تَأْبَطُ شَرًّا) ترثيه: "وا ابناه وابن الليل ، لَيْسَ بِرُمَيْلٍ، شَرُوبٌ لِلْقَيْلِ، رَقُودٌ بِاللَّيْلِ، ووادٍ ذِي هَوْلٍ، أَجَزَتْ بِاللَّيْلِ، تَضْرِبُ^{٩٦} بِالذَّيْلِ، بِرَجُلٍ^{٩٧} كَالثَّوْلِ " ^{٩٦} ، فبين هذه الكلمات مجتمعة جناس تداخل، (..رُمَيْلٍ، لِلْقَيْلِ، اللَّيْلِ، الذَّيْلِ)، فهناك اتفاق في الحرفين الأخيرين، والاختلاف يقع في بداية الكلمات.

ومن الاختلاف في وسط الكلمة، قول الجلييلة زوج كليب: "تُكَلُّ العَدَدَ، وَحُزْنُ الأَبَدِ، وَفَقْدُ حَلِيلِ، وَ قَتْلُ أَخٍ عَنِ قَلِيلِ، وَبَيْنَ ذَيْنِ غَرَسِ الأَحْقَادِ، وَتَفْتَتُ الأَكْبَادِ "^{٩٧}، فالجناس وقع بين (حَلِيلِ، قَلِيلِ)، فبينهما اختلاف حرف واحد، أما (الأَحْقَادِ، الأَكْبَادِ) فبينهما اختلاف الحرفين الأوسطين، والتناسب بينهما واضح، فالأحقاد مكانها القلب والأكباد يفتتها الحزن.

جِنَاسُ التَّصْرِيفِ :

وجناس التصريف هو انفراد الكلمة عن الأخرى بحرف، يقول الحموي: " من الناس من يسمي كل ما اختلف بحرف " تجنيس التصريف" سواء كان من المخرج أو من غيره "^{٩٨}

ويُلمَسُ هذا الجناس في توصيف (هند ابنة ظالم) لحال زوجها وهو يسعى للحاق بها وبآسرها، قالت: " ظَنِّي بِهِ وَاللَّهِ أَنَّهُ لَنْ يَدَعَ طَلَبَكَ حَتَّى يُطَالِعَ الفُصُورَ الحُمْرَ، وَهُوَ شَدِيدُ الكَلْبِ ، سَرِيْعُ الطَّلَبِ، .."^{٩٩}، فالكلمتان المتجانستان هما: (الكَلْبِ، الطَّلَبِ)، وبينهما اختلاف حرف وقع في الوسط،

^{٩٤} - في اللسان: وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا خَافَ شَيْئًا، فَخَرِقَ فِي الأَرْضِ جُبْنًا : فَذَ ضَرَبَ بِذَقْتِهِ الأَرْضَ ؛ وَأَضِيفَ : وَبِذَا يَكُونُ ضَرِبُهُ بِالذَّلِيلِ نَوْعًا مِنَ الشَّجَاعَةِ كَوْنُهُ مُنْتَصِبًا وَاقِفًا فَذِيلٌ ثَوْبُهُ أَوْ عَمْدٌ سَيْفُهُ يَضْرِبُ فِي الأَرْضِ . وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - قَالَ : إِذَا كَانَ كَذَا ، ذَكَرَ فِتْنَةً ، ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينَ بِذَنْبِهِ ، أَيِ أَسْرَعَ الذَّهَابَ فِي الأَرْضِ فِرَارًا مِنَ الفِتَنِ ؛ وَقِيلَ أَسْرَعَ الذَّهَابَ فِي الأَرْضِ بِأَتْبَاعِهِ، وَيُقَالُ لِالأَتْبَاعِ: أَدْنَابٌ .

^{٩٥} - وَلَيْسَ فِي الكَلَامِ فَعْلَةٌ جَاءَ جَمْعًا غَيْرُ رَجُلَةٍ جَمَعَ رَاجِلٍ وَكَمَاءَةً جَمَعَ كَمَاءٍ ، لِسَانُ العَرَبِ . (رَجُلٌ)

^{٩٦} - الأغانى، للأصفهاني: ٢١/١٢٤ . إحسان عباس وآخرون .

^{٩٧} - الأغانى، للأصفهاني . ٤٠/٥ . تح/إحسان عباس وآخرون . الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٤١٤ ، نهاية الأرب، للنويري: ٥/ ٢١٥ . شعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو: ص: ٢٥٢ .

^{٩٨} - خزائن الأدب: للحموي: ص: ٢٩ .

^{٩٩} - الأغانى ، للأصفهاني: ١٦/٢٤٤ . إحسان عباس وآخرون، العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٦/ ١٢٩ . و ٣/ ٣٤٩ . الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٣٩٦ .

فهذا التقارب الصوتي هو تواتر حركي وترادف من قبل الزوج، وهو تشابه في أفعاله على هذا المنوال حتى يلحق بها...!!

وفي خطاب (عَبَلَة) لعنترة العبسي، قالت له: "هَلْ بَقِيَ فِي قَلْبِكَ يَا أَبَا الْمُغَلَّسِ إِلَيَّ لِقَاءِ فَارِسٍ مِنْ فُرْسَانَ الْعَرَبِ وَاخْتِبَارِهِ أَرَبٍ..!؟؟" ٦٠٠

ويلاحظ في سياق هذا الاستفهام المفضي إلى التعجب والمفاخرة، يأتي الجنس الناقص بين كلمتي (عَرَبٍ، أَرَبٍ)، وهما الكلمتان اللتان يُعنى بهما السياق لإظهار التعجب، فقد خاض عنترة معارك كثيرة لا تحصى، ونازل فرسانا بلا عدّ، حتى يخيل للمراقب بأن لا فارس لم ينازله عنترة، أو لم يتفوق عليه، وبذا فالجناس بين (عرب) التي تدل على عموم رقعة التعجب، ثم (أَرَب) التي تدل على خصوص موقف عنترة من ذلك ومطمعه، وجوبه المتشوف لإرساء قيمة عنترة كفارس وكأسطورة، وبالتالي كان هذا التجنيس بين تين الكلمتين الموسقتين الموقعتين اللتين هما مرتكز الدلالة في هذا السياق..!

ومن ذلك أيضا خطاب (تَمَاضُرُ بِنْتُ عَمْرُو بْنِ الشَّرِيدِ) لأخيها الحارث بن عمرو تصف كلام زوجها زهير بن جذيمة له: "فإنه رجلٌ بَيِّدَارَةٌ، عَيْدَارَةٌ..". ٦٠١، فبين الكلمتين اختلاف حرف في بداية الكلمة، مع توافق باقي الكلمتين في الحروف وفي الإيقاع المعتمد على الحركات والسكنات، وهذا التكرار الصوتي بالجناس، إنما جاء لمواساة أخيها بالتأكيد على أنّ تين الصفتين أصيلتين في زوجها ولذا فليس عليه أن يغمّ أو يهتمّ..!

ويقرأ ذلك في خطاب (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ) : "... ويطيعنا أهلُه، مَدَى المُدَّةِ وزمان الدولة..". ٦٠٢، فالتجنيس بين كلمتي (مَدَى، المُدَّةِ)، حيث الاختلاف في الحرف الأخير، ووقع التجنيس بين كلمتين، هما محور الطاعة، ومحور العبرة في الوقت نفسه، حيث الطاعة مقرونة بمدّة السلطان، ودوام الملك، وهذا هو مصدر الفخر في وقت ما لكنه مصدر الحسرة على مدى العمر، وبذا يكون هذا التجنيس قد كشف عن عمق الحسرة والألم اللذين تعاني منهما حرقَة بضياح ملكها، وتراث آبائها، وتخلّي الناس عنها...!!

٦٠٠- الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير: للهمداني : ص: ٤٦ .

٦٠١- الأغاني، الأصفهاني: ٥٨ / ١١ . إحسان عباس وآخرون. تمثال الأمثال: للعبدي: ٢ / ٣٣٤ .

٦٠٢- مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٦ / ٢٨٧ . الأغاني، للأصفهاني: ١٤ / ١٤١، المستطرف، للأبشيبي: ٢٢١. خزنة الأدب: للبغدادي: ٧ / ٦٨ - ٦٩ .

وفي خطاب (عربيّاتٍ يصفن خَيْلَ آبائهنَّ): قالت إحداهن: "كَانَ أَبِي عَلَيَّ شَقَاءَ مَقَاءَ، طَوِيلَةَ الْأَنْقَاءِ، تَمَطَّقُ أَثْنِيَاهَا بِالْعَرَقِ، تَمَطَّقُ الشَّيْخَ بِالْمَرَقِ"^{٦٠٣}، حيث الكلمات المتجانسة تأتي تواليًا للتعبير عن حال التدفق العاطفي القلق، وعن حال الاستعجال للاطمئنان على الأب الغائب، وباختلاف حرف واحد في قولها: (شَقَاءَ، مَقَاءَ)، (بالعرق، بالمرق)، وهي ترجمة لفظية لحركة الخيل ومستوى جريها ونوعه، وهو الذي عليه المعول في نجاة الأب الفارس!!..

ولما رحلت (الجليلة) " قالت (أخت كُليب) : " رحلة المعتدي وفراق الشامت، وَيَلًا عَدَا لِي "آلِ مُرَّةٍ" مِنْ الْكِرَّةِ بَعْدَ الْكِرَّةِ "^{٦٠٤}، فهناك جناس باختلاف حرف واحد بين كلمتي (مُرَّةٌ ، كِرَّةٌ)، وآل مرة هم بنو عم كُليب القتيل وأنسبائه، وعليهم ستكون دائرة الانتقام كما ترى بل تتوعد أخت القتيل، ولذلك هذا التجنيس بين الكلمتين هو مكن الدلالة الذي يُستشف من السياق!..

الجناسُ المُغَايِرُ: ٦٠٥

ويكون حين تكون إحدى الكلمتين اسما والأخرى فعلا، كما في حكاية (هند بنت ظالم) عن حزم زوجها ويقظته: ". والله ما أَيْغَضْتُ ذَا نَسْمَةٍ قَطُّ بَعْضِي لَهُ،.. وَلَا رَأَيْتُ رَجُلًا قَطُّ أَحْزَمَ مِنْهُ نَائِمًا وَمَسْتَيْقِظًا، إِنْ كَانَ لِنَتَامِ عَيْنِهِ وَبَعْضِ أَعْضَائِهِ حَيًّا لَا يَنَامُ،... فَمَالَ إِلَى يَدَيْهِ، وَإِحْدَاهُمَا مَقْبُوضَةٌ، وَالْأُخْرَى مَبْسُوطَةٌ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا فَمَقْبُوضَهَا، فَمَالَ إِلَى رِجْلَيْهِ وَقَدِ قَبِضَ وَاحِدَةً، وَبَسَطَ الْأُخْرَى، فَأَهْوَى إِلَيْهَا فَمَقْبُوضَهَا،.. "^{٦٠٥}

فالجناس وقع بين مجموعة من الأفعال ومجموعة من الأسماء المشتقة منها: (أَيْغَضْتُ، بَعْضِي)، (نَائِمًا، لِنَتَامِ، يَنَامُ)، (مَقْبُوضَةٌ، فَمَقْبُوضَهَا، قَبِضَ)، (مَبْسُوطَةٌ، بَسَطَ)..).

^{٦٠٣} - الفخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٧١-١٧٢. الأمالي للقالبي: ٢/٢١٩. مجمع الأمثال: الميداني ٢/٤٦ وقصة المثل: " لا تعلم اليتيم البكاء...؟".

^{٦٠٤} - الأغاني، للأصفهاني: ٥/٤٠. إحسان عباس وآخرون. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٤١٤. نهاية الأرب: للنويري: ٥/٢١٥. شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو: ص: ٢٥٢. معجم أعلام النساء " الدر المنثور" زينب العمالي: ص: ٢١٥-١٢٦.

^{٦٠٥} - ويسمى : تجنيس التغاير أيضا. انظر: معجم المصطلحات البلاغية: أحمد مطلوب: ٢/٧٢.

^{٦٠٦} - الأغاني، للأصفهاني: ١٦/٤٤. إحسان عباس وآخرون. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٣٩٦.

إن هذه الكلمات المتجانسة بالمغايرة، إنما جاءت لتبرز شيئاً مغنويا، يتعلق بعاطفة البغض، ويملكة الحزم، الأولى تتعلق بالمتكلمة، والثانية بالغايب (الزوج)، عاطفة البغض جعلتها مراقبة ومتربعة لأن يعضه الثعبان أو يشرب اللبن المسموم فيموت، وملكه الحزم جعلته حذرا وكأنه في أشد حالات اليقظة، كل ذلك في إهاب حركي نفسي وعضوي، يظهر على كل حال ردة الفعل النفسية والعصبية...!!

وهذه (جارية من طيء) حينما أغار عليهم علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -، تقول للعبد الأسود الذي دل جيش المسلمين على قبيلة طيء وكان اسمه أسلم - وهو مؤثق -: "مَالَهُ هَيْلٌ هَذَا عَمَلٌ رَسُولِكُمْ أَسْلَمٌ، لَا سَلِمَ وَهُوَ جَلَبَهُمْ عَلَيْكُمْ وَدَلَّهُمْ عَلَى عَوْرَتِكُمْ...؟؟!!" ٦٠٧.

فالجناس وقع بين كلمتين هما (أَسْلَمٌ، سَلِمَ)، الأولى اسم للعبد، والثانية فعل ماضٍ منفٍ، غرضه الدعاء عليه بعدم السلامة وهذا التجانس يبدو مناسباً للسياق، حيث وضع القبيلة بأسرها في مريب الخطر، فلا أقل من أن يكون مصيره إلى عدم السلامة...!!

الجناسُ السائلُ: ٦٠٨

وفي هذا النوع من الجناس تكون الكلمتان اسمين أو فعلين ٦٠٩، قال القزويني: "فإن كان من نوع واحدٍ سُمِّيَ مُمَاتِلًا" ٦١٠، وكذا قال الحموي أيضا: "إذا انتظم ركناه من نوع واحدٍ كاسمين أو فعلين سُمِّيَ مُمَاتِلًا" ٦١١

منه ماقالته (عَبْلَةٌ) لِعَنْتَرَةَ: "مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ أَتَاكَ مَا أَرَدْتُ...!!" ٦١٢، فالجناس بين كلمتي (أَرَاكَ، أَتَاكَ)، وهما فعلان ماضيان، وهما أيضا محور النقاش الذي كان بين عنتره وعبلة، فهي كانت تتساعل، وهو كان يتمنى، فأصبح الأمر ويتطور درامي واقعيًا، فالفعل الأول يتعلق بعبلة ورؤيتها لعنتره والموقف، والثاني يتعلق بعنتره نفسه والمواجهة التي رغب فيها، والفعالان مرهونان بسياق الفخر العنترى من جهة والواقع من جهة أخرى... كل ذلك في إطار قراءة عبلة واستنطاقها لمجريات الأمور...!!

٦٠٧- المغازي للواقدي: ٣ / ٩٨٧.

٦٠٨- ويسمى : تجنيس التماثل أيضا. انظر: معجم المصطلحات البلاغية. أحمد مطلوب: ٧٢/٢.

٦٠٩- انظر: نفسه، ٢ / ١٠٥.

٦١٠- الإيضاح: للقزويني: ص: ٣٢٣.

٦١١- خزائن الأدب: للحموي: ص: ٣٠.

٦١٢- الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير، للوطواط : ص: ٤٦.

ويقع هذا الجنس أيضا بين فعلين في خطاب ليلي بنت شعواء سبيّة عروة بن الورد، قالت له:
 " مَا أَرَى لَكَ عَقْلًا ...!! أتراني قَدْ اخْتَرْتُ عَلَيْكَ وَتَقُولُ لِي خَبْرِي عَنِّي ...!!؟ " ^{٦١٣} والفعلان
 مضارعان: (أرى، أتراني)، وذلك في سياق خطاب منف، والثاني في سياق استفهام استنكاري، الأول
 رؤية بالبصيرة والآثار، والثاني نظر في الواقع مباشرة، فهي تتوقع من المخاطب أن يفهم من مواقفها
 أنها لا تريد العيش معه، وهو يتجاهل ذلك كله ويطلب منها أن تمتدحه عند أهلها، متناسيا أنه سبأها،
 وأدّلها بذلك مهما أعزها بعد ذلك، ومتجاهلا خطتها في التخلص منه، فتتعجب كل العجب من موقفه
 هذا، وفرق بين رؤيته ورؤيتها للموقف ولذلك جاء التجانس بين الفعلين (أرى، تراني).

وكذا في خطاب (سعدى بنت حُصَيْنِ الطائِيَّةِ) لابنها أوس بن حارثة بن لأم الطائي: "يا بُنَيَّ، ماتَ
 أبوكَ فِرْجوتُكَ لِقومِكَ عَامَةً، فأصبحتُ أرجوكَ لِنفسِكَ خاصَّةً، ... " ^{٦١٤}

إنَّ كلمتي: (فِرْجوتُكَ، أرجوكَ)، بينهما جناس تماثل من حيث كونهما فعلين، وإن اختلفا في الزمن،
 فالأول ماض قد تحقق، برجائها أن يحل محل أبيه بعد وفاته أن ينتفع به قومه و وقد حصل، والثاني
 مضارع مستمر، حيث ترجوه لنفسه، بأن يحافظ عليها من التهلكة فيما لا يجدي أو أن يجازف بها
 فيما لا ينفع...!!

ومما وقع بين اسمين، خطاب (زوج) عروة بن الورد وسبيته له: "...وَاللَّهِ لَا يُجَامِعُ وَجْهِي وَجْهَ
 عَطْفَانِيَّةٍ أَبَدًا..." ^{٦١٥}، فبين كلمتي (وَجْهِي، وَجْهَ)، وقد يدخل في جناس الإضافة، فركني التجنيس
 مضافان، الأول لضمير (ياء المتكلم)، والثاني لاسم ظاهر (عَطْفَانِيَّةِ)، وهذا التجنيس أفاد إبراز دلالة
 واضحة، فهي لا تكره زوجها ولا تريد فراق أبنائها، لكنها تكره ذل السبي الذي تواجهه كلما صافح
 وجهها وجوه نساء القبيلة...!!

^{٦١٣} - الأغاني، للأصفهاني: ٥٦/٣. تح/إحسان عباس وآخرين. شعراء النصرانية قبل الإسلام. ص: ٨٩٥. وقد عُرِبَ بسببه إياها

عامر بن الطفيل، انظر ص: ٨٩٧.

^{٦١٤} - بلاغات النساء: لابن طيفور: ص: ١٧٤.

^{٦١٥} - الروض الأنف، للسهيلى: ٣/٣٩٧-٣٩٨-٣٩٩، في خُرُوجِ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى خَيْبَرَ .

جناسُ الاشتقاق:

وقد جعل القرويبي هذا الجنس الاشتقاقي ملحقاً بالجناس: "أَنْ يَجْمَعَ اللَّفْظَيْنِ الْاِشْتِقَاقُ" ^{٦١٦}، وهو أن يرجع اللفظين المتجانسين إلى أصل لغوي واحد، ومجاله المشتقات.

نمثل لذلك بخطاب دعاء (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْدَرِ) لزياد بن أبيه: "أَطْعَمْتُكَ يَدَّ شَبْعَى جَاعَتْ، وَلَا أَطْعَمْتُكَ يَدَّ جَوْعَى شَبِعَتْ" ^{٦١٧}، فالجناس بين كلمات مشتقة من أصل واحد: (شَبْعَى، شَبِعَتْ)، (جَاعَتْ، جَوْعَى)، بينهما أيضاً جناس مغاير، لأن إحدى الكلمتين فعل، والثانية وصف لمؤنث على وزن (فَعْلَى)، وليس الجوع والشبع بمعنيهما الحرفي هما المقصودان هنا، بل إن نفس الكريم الغني اعتادت على العطاء دون مَنٍّ، ونفس الفقير اللئيم اعتادت على البخل، فلو غني الفقير اللئيم، وفقر الغني الكريم، لظَلَّ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، ولكل امرئٍ من زمانه ما تعودا...!!

وكما في قصة (هِنْدِ بِنْتِ ظَالِمٍ) عن زوجها لآسرها، فالجناس وقع بين مجموعة من الأفعال و مجموعة من الأسماء المشتقة منها: بين الفعل والمصدر (أَبْغَضْتُ، بَغْضَى)، وبين اسم الفاعل والفعل المضارع، (نَائِمًا، لِنَائِمٍ، يَنَامُ)، بين اسم المفعول والفعل الماضي (مَقْبُوضَةٌ، فِقْبِضَهَا، قَبِضَ)، (مَبْسُوطَةٌ، بَسَطَ... ..) ^{٦١٨}.

أما (حَوْدُ بِنْتُ مَطْرُودِ العَامِرِيَّةِ) فقالت حين أنقذها العبد: "...فَهَذَا أَجْمَلُ جَمَالًا، وَأَكْمَلُ كَمَالًا" ^{٦١٩}، فأفعل التفضيل والتمييز بعدها يعودان لجذر لغوي واحد، فالأول (جَمَلٌ)، والثاني (كَمَلٌ)، وللتجنيس بين الكلمتين بقيمته الإيقاعية، قيمته التوكيدية التي توصلت لها هذه المرأة بعدما مرت بتجربة عصبية، علّمتها معنى الجمال والكمال الحقيقيتين وقيمتها، وهما قطعاً ليسا في الشكل الظاهر بل في المعاني المخبوءة تحت المظاهر...!!

^{٦١٦} - الإيضاح: القرويبي: ص: ٣٢٧.

^{٦١٧} - خزانة الأدب: للبغدادي: ٦٨/٧ - ٦٩.

^{٦١٨} - الأغاني، للأصفهاني: ٢٤٤/١٦. إحسان عباس وآخرون. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٣٩٦.

^{٦١٩} - الفاخر. للمفضل بن سلمة الضبي. ص: ١٥٧-١٥٨. مجمع الأمثال للميداني ١/ ٢٤٠. المستقصى: للزمخشري: ٢/ ٢٧.

ويأتي خطاب (أميمة)، فقد دخلت على أخي زوجها المقتول وهو يلعب ابنه فقالت: "يا أبا خراش
تَنَاسَيْتَ عُرْوَةَ، وَتَرَكْتَ الطَّلَبَ بِثَأْرِهِ، وَلَهَوْتَ مَعَ ابْنِكَ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ الْمَقْتُولَ مَا غَفَلَ عَنْكَ، وَلَطَلَبَ
قَاتِلَكَ حَتَّى يَقْتُلَهُ...!!!" ٦٢٠

فبين اسم المفعول (مقتول)، واسم الفاعل (قاتل)، والفعل المضارع (يقتل)، تجانس اشتقاق، من
الجذر اللغوي (قتل)، حيث يحمل هذا الجنس الإشعاع الدلالي الواضح الذي يسفر عن مكنون هذه
المرأة، وهو القتل أي الثأر في حالتها هذه، فهي مسكونة به، رغبة فيه أشد من رغبتها في الحياة
نفسها، فلا يجب أن يشغل أحدا شاغل عنه، هذا ما أرادت أن يفهمه المخاطب، وهو المعنى الأول بأخذ
الثأر...!!

الجِنَاسُ المُشَوِّشُ:

يقول عنه الحموي: "إن الرُكنين إذا تجاذبهما نوعان من التجنيس ولم يخلصا لواحد كان الجنس
مشوشا" ٦٢١.

ومنه خطاب (سعدى بنت حصين الطائية)، قالت: "تَكْسُوهُ حُلَّتُكَ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى رَاحِلَتِكَ، وَتَأْمُرُ
لَهُ بِمِئَةِ نَاقَةٍ.. إِنَّهُ الْآنَ يَمْدُحُكَ فَيَذْهَبُ مَدْحُكَ بِهَجَائِهِ وَتَحْمَدُ مَغَبَّةَ رَأْيِي". ٦٢٢.

إن التراكيب التجنيسية الآتية: (حلتك، وتحمله، راحلتك)، (يمدحك، وتحمد)، (تأمر، بمئة)، بينها
تجاذب من أكثر من نوع من الجنس، ففيها زيادة ونقص، و تشابه في الحروف، واختلاف في ترتيبها
أيضا...!

وقيل لـ (حُرَّةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِرِ): ما كانت لذة أبيك ؟ قالت: " شرب الجِرِّيَالِ، وَمُحَادَثَةُ
الرِّجَالِ" ٦٢٣، فبين الكلمتين زيادة واختلاف في ترتيب الحروف.

وكذا في خطاب (أم تابت شرًا) ترثيه: "وَإِذَا ابْنَاهُ لَيْسَ بِغُلُوفٍ، حَشِيٍّ مِنْ صُوفٍ، تَلْفُهُ هُوفٌ". ٦٢٤

٦٢٠ - الأغاني، الأصفهاني: ١٥٩/٢١. إحسان عباس وآخرون.

٦٢١ - خزائن الأدب، للحموي: ص: ٣٦.

٦٢٢ - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٧٤-١٧٥.

٦٢٣ - نهاية الأرب: للنويري: ٢٠/٢.

٦٢٤ - شرح ديوان الحماسة: للمرزوقي: ٤٥/١. الهوف: الريح الحارة المعطشة التي تبيس كل شيء. اللسان: (هوف).

، فبين (عُفُوف) و(صُوف، هُوف)، تجنيس مشوش، باتفاق في بعض الحروف، وزيادة في بعضها الآخر، مع غرابة في اللغة أيضا...!!

وقولها في رثائه أيضا: "ولا سَقَيْتُهُ هُدَيْدًا، ولا أَمْتُهُ ثَنَدًا، ولا أَطْعَمْتُهُ قَبْلَ رِيَّةٍ كَبِدًا"^{٦٢٥}، فبين معظم كلمات هذا الخطاب جناس لا يمكن أن ينحاز إلى أحد أنواع الجناس المعروفة، (هُدَيْدًا، ثَنَدًا، رِيَّةً، كَبِدًا)، فبينما تزيد في حروف تنقص في أخرى، ويتغير ترتيبها، وتتشابه أصواتها في كل.

ومثل ذلك خطاب (امرأة من بني تميم): "مهلاً، فإن المرء من نوكه، يشرب من سقاء لم يؤك" ^{٦٢٦}، فهناك زيادة، واختلاف في ترتيب الحروف وتشابه في الجرس الإيقاعي الذي يشد إلى الكلمة ويلفت إلى المعنى...!!

بالنظر إلى الجناس كمحسنٍ بديعيٍّ في خطاب المرأة النثري في سياق الحرب في الجاهلية، لوحظ غياب الجناس التام، لأنه يحتاج إلى تعمل وفيه نوع من الإلغاز الذي يحتاج إلى تفكر وتدبر وإطالة نظر من المتلقي وهذا مالا يلائم السياق العفوي المرتجل في عمومته، بينما تنوعت أساليب الجناس الناقص بانفتاحاته الدلالية الثرة، ولوحظ أيضا أن دور الجناس لا ينحصر في الحلية اللفظية أو النبض الإيقاعي فقط، بل يأتي في معظمه بين كلمات تمثل مرتكز الدلالة، ومصدر الإشعاع في الخطاب، مما أعان على التمام سدى الخطاب بمضامينه المتشعبة مع السياق..

وهذا هو بالضبط ما يجعل الجناس فاعلا ومتفجرا في السياق، لأن المعنى يستدعيه، والسياق يحتاجه بما فيه من عفوية وتلقائية...! يقول الجرجاني: "...فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا، ومن هنا كان أحلا تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب إلى طلبه.."^{٦٢٧}، وما يعمق الدلالة أيضا هو هذا الإيقاع اللافت إلى المعنى، خاصة إذا تضافر مع السجع، مما يجذب الأسماع إلى الإصغاء، ويفاجئ الأفهام بالإيماء، والنفس بالتشويق والإيلاء، فيتمكن المعنى في ذهن المخاطب وروحه، مع جميل جرس ولطف إيقاع، مما يشكل سيمفونية الموسيقى الداخلية للنص النثري...!

^{٦٢٥} - اللسان: (وضع).

^{٦٢٦} - مجمع الأمثال للميداني: ٣٤٨/١. قالته بعد أن أسرت جندب بن العنبر بن تميم بن عمرو.

^{٦٢٧} - أسرار البلاغة: للجرجاني: ص: ١١.

ونختم بهذا الرأي للدكتور محمد الأمين الخضري: " وإذا كان الشعر يمثل قمة البيان العربي في الإيقاع لاستجابته للنوازع الفطرية المتناغمة مع حركة الكون وجمال الطبيعة بما فيها من التوازن والتناسب، فإن العرب أضفوا على نثرهم من عناصر الإيقاع ما قربه إلى الشعر، ولشدة ولعهم بالإيقاع وإدراكهم لقيمتها الجمالية والتعبيرية لم يكتفوا باستعماله في صياغة الشعر، بل زينوا به كثيرا من أصناف كلامهم المنثور وأكثروا فيه من التوازن والتناسب والازدواج والسجع وغير ذلك من المحسنات التي يمكن اعتبارها من عناصر الإيقاع " ٦٢٨

٦٢٨- انظر: كسر الإيقاع ودلالاته في الفاصلة القرآنية. الدكتور محمد الأمين الخضري، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثالث للعلوم الإسلامية والعربية وقضايا الإعجاز في القرآن والسنة بين التراث والمعاصرة بجامعة المنيا ، المجلد الثالث ص ١١٢٩ وما بعدها. ٦/٤ مارس. ٢٠٠٧.

اِجْتِنَاسُ

فِي (عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

للجناس قيمته المعنوية والإيقاعية في الخطاب، ولكن بشروط، منها ما يذكره الجرجاني على ما ذكر آنفاً، يقول عبد القاهر الجرجاني: "أما التَّجْنِيسُ فَإِنَّكَ لَا تَسْتَحْسِنُ تَجَانُسَ اللَّفْظَتَيْنِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَوْقِعَ مَعْنِيهِمَا مِنَ الْعَقْلِ مَوْقِعًا حَمِيدًا، وَلَمْ يَكُنْ مَرْمَى الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا مَرْمَى بَعِيدًا،....، فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُعْطَى التَّجْنِيسَ مِنَ الْفَضِيلَةِ أَمْرٌ لَمْ يَتِمَّ إِلَّا بِنَصْرَةِ الْمَعْنَى.."٦٢٩

ويقول عبد القاهر الجرجاني في موضع آخر: "فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعا حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه...، ومن هنا كان أحلا تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه.."٦٣٠

الجناسُ النَّاقِصُ "غَيْرُ التَّامِ":

وهو ما تطرق إليه الاختلاف من جهة من الجهات ، وهو على ضرب ٦٣١ منها:

جناسُ التَّدَاخُلِ:

وهو أن يوجد في إحدى الكلمتين حرف لا يوجد في الأخرى، أو بزيادة حرف، وربما جاءت الزيادة في حرفين في بداية الكلمة أو في وسطها، ٦٣٢، ونمثل لما اختلف بحرف في وسط الكلمة بخطاب (الخنساء) توصي بنيتها في القادسية، وهي وصية غنية في تراكيبها عموماً وبأنواع الجناس خصوصاً:

"فَإِذَا أَصْبَحْتُمْ عَدَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَالِمِينَ، فَأَعْدُوا إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ مُسْتَبْصِرِينَ، وَبِاللَّهِ عَلَى أَعْدَائِهِ مُسْتَنْصِرِينَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ الْحَرْبَ قَدْ شَمَرَّتْ عَنْ سَاقِهَا"٦٣٣، وَأَضْطَرَمَّتْ لُظَى عَلَى سِيَاقِهَا"٦٣٤، وَجَلَّتْ نَارًا عَلَى أَوْرَاقِهَا، فَتَيَمَّمُوا وَطَيْسَهَا، وَجَالِدُوا رَئِيسَهَا، عِنْدَ احْتِدَامِ حَمِيسَهَا، تَنْظُرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُلْدِ

٦٢٩ - أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني: ص: ٧-٨.

٦٣٠ - نفسه: ص: ١١.

٦٣١ - المصدر السابق: ٣٥٩/٢.

٦٣٢ - انظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٦٧/٢.

٦٣٣ - شمر ساعده وكشف عن ساقه للاهتمام بذلك الأمر العظيم. اللسان: (شمر).

٦٣٤ - "والسِّيَاقُ: نزع الروح. وساقَةُ الجيشِ: مؤخره.." اللسان: (سوق)

بالنظر إلى الكلمتين: (مُسْتَبْصِرِينَ / مُسْتَنْصِرِينَ)، نجد حرفا واحدا مختلفا بين الكلمتين (باء / نون)، مع توافق باقي حروف الكلمتين؛ ولاشك أن تين الكلمتين هما مرتكز دلالة هذا السياق، إذ لا قيمة للعمل دون بصيرة ووعي، دون معرفة للهدف وإيمان به، تعرفون من هو العدو وما الهدف من لقائه، مما تترتب عليه الكلمة المجانسة الثانية (مُسْتَنْصِرِينَ)، لتؤكد بوصلة الفعل وتحدددها، وأنكم لا تخرجون لغرض دنيوي، أو لقتال عدوٍ شخصي، بل هو عدو الله، وأنتم تستعينون به على قتال عدوه...!!

ونجد الأمر ذاته بين الكلمتين (ساقها/سياقها)، حيث يزيد حرف في الثانية عن الأولى؛ وذلك حين انتقلت لهذا الوصف المصوّر لمشهدية الحرب، ولتكتمل الصورة هنا، نضم الكلمة الثالثة التي تحتفظ مع سابقتها بثبات الحرفين الأخيرين: (أوراقها)، والتي تشكل مع الكلمتين اللتين قبلها متوالية حَرْفِيَّةً، (أي عدد الحروف: خمسة، ستة، سبعة)، في نفس تصاعديّ نحو ذروة المشهد التالي، وهذا أمر لافت جدا في هذه البنية المتجانسة، وهذا الخطاب الشفهيّ الحربيّ، قلّ أن يُرصد مثله في سياقه ومضمونه وأنيته...!!

وهذا ما يلحظ في المتوالية الجناسية التالية، التي تغير حرفان في بدايتها: (وَطَيْسَهَا رَيْسَهَا ، خَمِيْسَهَا)، لكنها متساوية الحروف، ولهذا التساوي دلالته في سياق هذه الحرب، لأنها تدفع بأبنائها في المعركة، بل في وسطها، وأن يمسكوا بِلَابَتَيْهَا، وتريدهم أن يكونوا أندادا لخصومهم بل ويتفوقوا عليهم بلا شك...!!

وهذه المتوالية الثلاثية الأخيرة تتوازن مع المتوالية الثلاثية قبلها، تواليا تصاعديا كما أُشير سابقا...!! و يزيد من قوة تأثير هذا الكلمات المتجانسة بعدها الدرامي، ووقوعها ضمن إيقاع سجعِي عالٍ، يعلي من عمقها الدلالي ويلفت إليه...!!

وتقول (أَسْمَاءُ بِنْتُ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ) في خطابها: "وَأَنَا - مَعْشَرَ النِّسَاءِ - مَحْضُورَاتٌ مَقْضُورَاتٌ"

^{٦٣٥} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤ / ١٨٢٧، أسد الغابة، لابن الأثير: ٧ / ٨٩-٩٠-٩١، الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩. الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي: ١٠ / ٣٨٨-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص: ٢٢٠-٢٢١، وانفرد ابن الجوزي في " صفة الصفوة ٤ / ٣٨٥ " بنسبتها إلى الخنساء النخعية. خزنة الأدب، للبغدادي: ١ / ٤٣٤.

١٣٦، ويُلحظ جناس التداخل في اختلاف حرف في وسط الكلمة (الحاء/القاف) بينما تتفق باقي حروف الكلمتين، وتان الكلمتان هما لبُّ الخطاب وما تعوّل عليه (أسماء) خطيبة النساء الوافدة إلى النبي ﷺ، حيث تريد أن تتحرر من هذا الحصر والقصر المفروضين على المرأة، وتريد أن تتعلم ما يرفع من عملها لتوازي عمل الرجال في الجهاد على وجه التحديد، ومن هنا تتجلى أهمية هذا التجنيس بين الكلمتين في هذا السياق...!!

وفي خطاب (عَفْرَةُ بِنْتُ غِفَارِ الحِمِيرِيَّةِ) المؤيّد لخطاب (خَوْلَةُ بِنْتُ الأَزُورِ)، نجد جناس تداخل في الكلمات التالية (جِسَام/ عِظَام) حيث اختلف الحرفان في بداية الكلمتين، أمّا الكلمتان الأخريان فقد اختلف بينهما حرف في الوسط (لَيْل/خَيْل)، وذلك حين قالت:

" صدقت، ووالله يا بِنْتَ الأَزُورِ نَحْنُ فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا ذَكَرْتِ، وَفِي البِرَاعَةِ كَمَا وَصَفْتِ، لَنَا المَشَاهِدُ العِظَامِ، وَالمَوَاقِفُ الجِسَامِ، وَوالله لَقَدْ اعتَدْنَا رُكُوبَ الخَيْلِ، وَهُجُومَ اللَّيْلِ،... "١٣٧

إنّ مواطن التجنيس في هذا الخطاب لها فاعليتها على صعيد الغرض من الخطاب، الذي لا يوجه له (خَوْلَةُ) وحدها، بل للنسوة الأخريات، أي مخاطبة الجمع من خلال المفرد، والغرض من هذا الخطاب غير المباشر، هو إقناع المخاطب الهامشي المقصود، بموضوع الخطاب، ألا وهو ضرورة التحرك وأخذ زمام المبادرة، وأن هذا ليس بالأمر الغريب على الجميع، لأنهنّ اعتدنه...!! والحقيقة الأكيدة؛ أن ليس كل الأسيرات اعتدن على القتال والالتحام مع العدو، لكن هذا الخطاب الجمعي هو في ذاته وسيلة من سائل الإقناع لتغيير الراهن المذل بإسباغ هذه الصفات البطولية على الكيان الجمعي، الذي تريد منه أن يكون جبهة معها ضد عدوها...!!

ومثل سياق الخطاب السابق يأتي خطاب (أَزْدَةَ بِنْتُ الحَارِثِ) للنساء الحاضرات في تلك المعركة " إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ العَدُوِّ، وَنَحْنُ خَلُوفٌ، وَلَا آمَنُ أَنْ يُخَالِفُوا إِلَيْنَا، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَمْنَعُنَا، وَأُخْرَى أَخَافُ أَنْ يَكْثُرَ العَدُوُّ عَلَى المُسْلِمِينَ فَيَهْزِمُونَهُمْ، فَلَوْ خَرَجْنَا لِأَمْنًا مِمَّا نَخَافُ مِنْ مُخَالَفَةِ العَدُوِّ إِلَيْنَا،

١٣٦- مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١/ ٥٢٥، انظر الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٣٣، الاستيعاب (المطبوع بهامش الإصابة)

٤/ ٢٣٣ .

١٣٧- فتوح الشام. الواقدي: ١/ ٤٧. تأييدا لخطاب خولة بنت الأزور التي وصفت النساء بالشجاعة والإقدام محرضة إياهن على القتال: "...".

وَيَظُنُّ الْمُشْرِكُونَ أَنَا عَدَدٌ وَمَدَدٌ أَتَى الْمُسْلِمِينَ فَيَكْسِرُهُمْ ذَلِكَ وَهِيَ مَكِيدَةٌ. " ٦٣٨

وجناس التداخل وقع بين الكلمتين: (عَدَدٌ وَمَدَدٌ)، واللّتين أعطتا السياق زخمه، ونقلته صوتيا إلى قمة درامية هادئة بهذه (المدال المكررة)، والتي ناسبت سياق التعبئة الذي تقوم به (أَزْدَةٌ)، هذا الجناس يأتي ضمن بيئة صوتية ما في هذا السياق، مما يشكل انزياحا أسلوبيا صوتيا هنا، حيث القيمة الصوتية المسيطرة هي لحرف (الخاء)، والذي يشكل انزياحا موسيقيا لافتا في مواطن الجناس، ولد (الخاء) خصوصية في ذاتها وفي هذه الكلمات المخصوصة التي وردت فيها!..

ويرد جناس التداخل أيضا في خطاب (أُمُّ مُوسَى اللَّخْمِيَّةُ)، تصف إحدى اللحظات الحاسمة في المعركة: " بَيْنَمَا نَحْنُ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ النِّسَاءِ إِذْ جَالَ الرَّجَالُ جَوْلَةً فَأَبْصَرْتُ عِلْجًا يَجْرُ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَخَذْتُ عَمُودَ الْفِسْطَاطِ ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْهُ فَشَدَخْتُ بِهِ رَأْسَهُ وَ أَقْبَلْتُ أَسْلِبُهُ فَأَعَانَنِي الرَّجُلُ عَلَيَّ أَخَذَهُ. " ٦٣٩

هذا الجناس بين (جال/رجال) تداخل بزيادة حرف في بداية الكلمة الثانية على الأولى، وزيادة حرفين في الكلمة الثالثة عن الأولى ، وذلك بين (جَالٌ /جَوْلَةٌ)، وقد زاد حرف (الواو) إضافة لـ(تاء التانيث) في اسم المرة، ويتغير الحرف الأول أيضا في الكلمتين: (عِلْجًا /رَجُلًا)، مع خصوصية سيادية مهيمنة لإيقاع حرف الجيم ، يعطي هذه المتجانسات جرسا لافتا إلى الدلالة التي يتطلبها السياق، وإيقاع الخطر المحيط بهذه المرأة وبمعسكر المسلمين، في توتر درامي متجلجل يأخذنا إليه هذا التواتر في حرف الجيم على مسافات متقاربة!..

٦٣٨ - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٤، ١٥٣، ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣ / ٥٩٦ - ٥٩٧.

سنة ١٤ هـ. في القادسية.

٦٣٩ - الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٤٧٨.

والجيم..صوت مجهور انفجاري، وهو صوت قليل الشدة،^{٦٤٠} قال عنه العلايلي: إنه " للعظم مطلقاً"،^{٦٤١} إن هذه الكلمات المتجانسة التي ورد فيها حرف الجيم، إنما هي وفق منظور بصري أكيد، والجيم نفسها تصنف من الحروف البصرية في المقام الأول...!!^{٦٤٢} .

ويُلاحظ أن هذا السياق الوصفي العفوي قد استغل هذه الصفات الخاصة بحرف الجيم، إضافة إلى ملامسة المنحى الحركي للمسي البصري، حيث إن تدافع النَّفَس الاحتكاكي وميزته الجهورية، تناسب الفعل الحركي في أطراف الصورة، حيث: (جال، جولة، يجر)، أما الميل إلى العظم والضخامة : (الرجال، علجاً، رجلاً)، وبذا تكون هذه الكلمات المتجانسة المرتكزة على حرف الجيم قد عبرت عن سياق اللحظة الموصوفة المتسمة بالحرص، والمصيرية...، خاصة إذا أخذنا بعين الاهتمام المفارقة في الأحجام على المستوى البصري والمعنوي بين المرأة، كامرأة، وبين الرجل الرومي الضخم، وبين وضعها كامرأة مصونة في خدرها ترقب الميدان من حيث هي، وبين حجم العمل الذي تحدثت نفسها وجازفت للقيام به، حيث قتل رجل واستنقاذ آخر، ثم هي قد تحصلت على غنيمة أيضاً...!!

ومنه خطاب (أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ) لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه)، حين فضل المهاجرين مع النبي ﷺ على المهاجرين إلى الحبشة فغضبت (أَسْمَاءُ) وقالت:

" يَا عُمَرُ.. كَلَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْعَمُ جَائِعُكُمْ ، وَيَعْظُ جَاهِلُكُمْ، وَكُنَّا فِي أَرْضِ الْبُعْدَاءِ الْبُعْضَاءِ وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ، وَإِنَّمِ اللَّهُ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَذْكَرَ مَا قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ كُنَّا نُؤَدَى وَنَخَافُ وَسَادُّكَرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ لَا أَكْذِبُ وَلَا أَرْبِغُ وَلَا أَرْبِدُ عَلَى ذَلِكَ .. " ^{٦٤٣}

فجناس التداخل بين الفعلين (أَرْبِغُ / أَرْبِدُ)، حيث يأتيان في بنية خبرية إنكارية حادة، تكثر فيها من القسم والمؤكدات الأخرى، ويأتي هذا الجناس أيضاً موشحاً بالنفي، الذي يعطي للخطاب زخمه وقوته، ويتجلى العمق الدلالي لذين الفعلين، كونهما ميزان عدل في عرض الخصومة على القاضي

^{٦٤٠} - انظر: خصائص الحروف العربية، إحسان عباس:ص: ٦٩. وانظر: الأصوات اللغوية. إبراهيم أنيس،ص: ٢٢

^{٦٤١} - خصائص الحروف العربية، إحسان عباس:ص: ١٠٤، تهذيب المقدمة اللغوية، عبد الله العلايلي(١٩١٤م-١٩٩٦م)، تح/ د.أسعد علي: دار النعمان، لبنان، ١٩٦٨م.

^{٦٤٢} - انظر: خصائص الحروف العربية: ص: ١١١.

^{٦٤٣} - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، ٣ / ٣٣٢، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٢٠٥.

(النَّبِيُّ ﷺ)، وهي تعني أنها وإن كانت غاضبة فإنها لن تخالف الحق، ولن تتزيد، وأنها ستعرض قضيتها بحيادية تامة...!!

جِنَاسُ التَّصْرِيفِ:

وجناس التصريف هو انفراد الكلمة عن الأخرى بحرف، يقول الحموي: "من الناس من يسمي كل ما اختلف بحرف " تجنيس التصريف" سواء كان من المخرج أو من غيره" ٦٤٤

ومن نماذجه ما ذكر وحلّل أنفا من وصية (الخنساء) لبنيتها في القادسية: " فَإِذَا أَصْبَحْتُمْ عَدَا إِنِّ شَاءَ اللهُ سَالِمِينَ، فَأَعْدُوا إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ مُسْتَنْصِرِينَ، وَبِاللهِ عَلَى أَعْدَائِهِ مُسْتَنْصِرِينَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ الْحَرْبَ قَدْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا، وَاضْطَرَمَّتْ لَطَى عَلَى سِاقِهَا، ... " ٦٤٥

ويقع هذا الجناس بين الكلمات التالية: (مُسْتَنْصِرِينَ، مُسْتَنْصِرِينَ)، (سَاقِهَا، سِاقِهَا)، وهي بؤرة دلالة في هذا الخطاب كما أشير سابقا.

ومنه أيضًا خطاب (أَزْدَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ) لتحريض النساء على مساندة جيش المسلمين: " إِنِّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ، وَلَا أَمْنُ أَنْ يُخَالِفُوا إِلَيْنَا، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَمْنَعُنَا، وَأُخْرَى أَخَافُ أَنْ يَكْثُرَ الْعَدُوُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَهْزِمُونَهُمْ، فَلَوْ خَرَجْنَا لِأَمْنًا مِمَّا نَخَافُ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَدُوِّ إِلَيْنَا، وَيَظُنُّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّا عَدَدٌ وَمَدَدٌ أَتَى الْمُسْلِمِينَ فَيَكْسِرُهُمْ ذَلِكَ وَهِيَ مَكِيدَةٌ. " ٦٤٦

ويُرى هذا النوع من الجناس في الكلمات التالية: (نَحْرٌ، نَحْنُ)، (أَخَافُ، نَخَافُ)، (عَدَدٌ وَمَدَدٌ)، ولا شك أن هذا الترادف الصوتي بفعل هذا النوع من جناس التصريف، لهو جدير بصرف النظر نحو هذه الدلالة المتشكلة تصاعديا والمتنامية درامية في هذا السياق.

٦٤٤- خزانة الأدب، للحموي: ص: ٢٩.

٦٤٥- الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧. أسد الغاية، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-٢٨٨-٢٨٩. الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي: ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص ٢٢٠-٢٢١. وانفرد ابن الجوزي في " صفة الصفوة ٤/ ٣٨٥" بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزانة الأدب، للبغدادي: ١/ ٤٣٤، نقلًا عن الاستيعاب.

٦٤٦- بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٣-١٥٤. ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/ ٥٩٦-٥٩٧. سنة ١٤ هـ. في القادسية.

الجناسُ السائلُ: ٦٤٧

هو كون الكلمتين اسمين أو فعلين^{٦٤٨}، قال القزويني: "فإن كان من نوع واحدٍ سُمِّيَ مُمَثِّلًا"^{٦٤٩}، وكذا قال الحمويُّ أيضا: "إذا انتظم ركناه من نوع واحدٍ كاسمين أو فعلين سُمِّيَ مُمَثِّلًا"^{٦٥٠}

يُرى ذلك في خطاب (أُمِّ رِغْلَةَ الْفُشَيْرِيَّةِ)، وقد أرادت أيضا أن يعلمها النبي ﷺ، ما تشارك به الرجال الأجر والمثوبة خاصة في الجهاد، وهي تعدد تلك الأدوار المحورية التي تقوم بها المرأة لتجعل حياة الرجل (ابنا، زوجا، ابنا، أخا..) ومع ذلك فلا حَظَّ لها في الجيش الأعظم، تقول: "إِنَّا ذَوَاتُ الْخُدُورِ، وَمَحَلُّ أُرْرِ الْبُعُولِ، وَمُرَبِّيَاتُ الْأَوْلَادِ، وَمُمَهَّدَاتُ الْمِهَادِ"^{٦٥١}.

فجناس التماثل وقع بين هاتين الكلمتين اللتين هما خلاصة دور المرأة في حياة الرجل: (مُمَهَّدَاتُ الْمِهَادِ)، وكلاهما اسمان مشتقان من جذر لغويٍّ واحد (مَهَدَ)، مما يوحي بنوع من التكرار المؤكد للمعنى..يزيد من إيقاع دلالتيهما أيضا، تلازمهما في التركيب الإضافي، كملازمة فاعلة للمرأة في حياتها، إنها لا تساعد الرجل فقط، بل هي تمهد له حياته، أي تجعلها أسهل وأهون وألين وأطرى، كما يُمهّد الفراش، للرضيع مثلا، هذا البعد التصويري أيضا يضيفي قوة على البعد التجنيسي ويعمق دلالاته، ويجعله مشعا أسلوبيا في هذا السياق...!!

أما السيدة (عَائِشَةُ) زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ فتصف سعد بن معاذ وقد استعد للمعركة تقول: "فَمَرَّ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهِ رِدْعٌ خَلُوقٌ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا فِي الْخَلُوقِ مِثْلَهُ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُشْمِرَةٌ عَنْ ذِرَاعَيْهِ.. وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخَافُ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ مِنْ تَشْمِيرَةِ دِرْعِهِ..."^{٦٥٢}

^{٦٤٧} - ويسمى: تجنيس التماثل أيضا. انظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٧٢/٢.

^{٦٤٨} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ص: ١٠٥.

^{٦٤٩} - الإيضاح، للقزويني: ص: ٣٢٣.

^{٦٥٠} - خزائن الأدب، لابن حجة الحموي: ص: ٣٠.

^{٦٥١} - أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير: ٥ / ٥٨٢، ١، لإصابة في تمييز الصحابة ٤ : ٤٤٩ .

^{٦٥٢} - المغازي للواقدي. ٢ / ٤٧٠-٤٧١، في خبر غزوة الخندق، السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٢٦-٢٢٧-٢٥٢، الروض الأنف،

للسهيلي: ٣ / ٤٣٠-٤٣١، الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٣٨٨ وما بعدها. أسد الغابة، لابن الأثير: ٢ / ٤٦١، الإصابة، لابن حجر:

٢٩٩ / ٤.

فجناس التماثل وقع بين اسمين: (رَدْعُ/ دِرْعُ)، (مُشْمِرَةٌ/ تَشْمِيرَةٌ)، وهتان صورتان بصريتان كانتا موطن التفات السيدة (عَائِشَةُ)، الأولى كانت مثار إعجابها وتعجبها، والثانية كانت مصدر قلقها وارتياحها، فالأولى تتعلق بذلك القميص المعطر المطيب الذي كان يلبسه سعد (رَدْعُ)، وهو لباس زينة وتجميل، لكنه يلبس عليه لباس الحرب (دِرْعُ)، فيبدو تناقضا بصريا من نوع ما، ومثير لحزن على نحو ما، فهذا الفارس يتزيا للحرب ويخرج لها متطيبا، فأية روح للمجاهد ليرتدي للحرب هذا الرداء تحت درعه، ثم وهي تتأمل هذه الصورة، يأتي الموطن الثاني من موطني التجنيس في هذا الخطاب، لينزاح انزياحا دلاليا نحو الاضطراب والقلق، لأنها تفتن إلى أمر ما: الدرع أقصر من اللازم، فهي لا تغطي كامل جسم سعد، وهي قصيرة من جهة أكاماه (مُشْمِرَةٌ/ تَشْمِيرَةٌ)، وقد أصيب من حيث لاحظت..، وإن فالجناس بين هذه الأسماء، بُني عليه بُعد درامي، قد جاء لتحقيق بُعد دلالي لتطور الأحداث ونقل الواقع إلى أفق آخر..!!

ويُرى جناس التماثل الاسمي والفعلي أيضا في خطاب التحسر واللوعة الذي تتلفظ به (خَوْلَةُ بنت الأزور) إبان أسر أخيها، وخوفها من مصيره المجهول، فذهبت للبحث عنه مع خالد بن الوليد، تقول: " يَا ابْنَ أُمِّي لَيْتَ شِعْرِي فِي أَيِّ الْبَيْدَاءِ طَرَحُوكَ..؟ أَمْ بِأَيِّ سِنَانٍ طَعَنُوكَ..؟؟ أَمْ بِالْحُسَامِ قَتَلُوكَ..؟؟ يَا أَخِي أُخْتِكَ لَكَ الْفِدَاءُ، لَوْ إِنِّي أَرَاكَ أَنْقَذْتُكَ مِنْ أَيْدِي الْأَعْدَاءِ، لَيْتَ شِعْرِي أَتَرَى أَنِّي أَرَاكَ بَعْدَهَا أَبَدًا..؟ فَفَدَّرْتُكَ يَا ابْنَ أُمِّي فِي قَلْبِ جَمْرَةٍ لَا يَحْمَدُ لَهْبِهَا وَلَا يُطْفَأُ..! لَيْتَ شِعْرِي لَحِقْتُ بِأَبِيكَ الْمَقْتُولِ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفَعَلَيْكَ مِنِّي السَّلَامُ إِلَى يَوْمِ الْلِقَاءِ .^{٦٥٣}

يُلاحظ هنا أن الجناس المماثل وقع بين فعلين: (أراك/أتري)، وبين اسمين (أخي/أختك)، والنوعان يدوران في فلك العلاقة الأخوية وأزمتهما الراهنة، المنوطة بقضية الأسر، وكأنهما يدوران في فلك واحد، الأخوة والرؤية المتعسرة، وهذه هي قضيتها الكبرى التي حددتها بعد دورانها في هذا الفلك الاستفهامي، والذي نقلها من الخطاب اللغوي إلى مرحلة الفعل لتغيير هذا الواقع المؤلم..!!

وفي خطاب (خَوْلَةُ) لأخيها في اليرموك وقد أراد مواجهة العدو، وقد امتلأت خوفا عليه، فبكت وقالت له: " يَا أَخِي افْعَلْ مَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ وَالْقَ عَدُوَّكَ وَأَنْتَ مُوقِنٌ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَإِنَّهُ لَكُمْ نَاصِرٌ

وَأَنَّ عَدُوَّكَ لَا يُقْرَبُ إِلَيْكَ أَجَلًا يَعِيدًا وَلَا يُبْعَدُ عَنْكَ أَجَلًا قَرِيبًا فَإِنْ حَدَّثَ عَلَيْكَ حَدَّثٌ أَوْ لَحِقَكَ مِنْ عَدُوِّكَ نَائِبَةٌ فَوَاللَّهِ الْعَظِيمِ شَأْنُهُ لَا هَدَأَتْ خَوْلَهُ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ تَأَخَّدَ بِثَأْرِكَ.^{٦٥٤}

ف نجد جناس التماثل بين فعلين: (افعل/تفعل)، بينما جناس الاختلاف بارز ومكثف في هذا الخطاب أكثر من خطابها الأول، وذلك لأنها تخاطبه مباشرة، ثم إن بنية التجانس تتخلق في نسيج بنى أخرى عبر هذا الخطاب، كالتقديم والتأخير، والقسم، والمقابلة، مما يعطي لها قيمة دلالية أكبر في هذا السياق، فنقف أكثر على معاني الخوف المبطن والقلق وراء كل حرف في هذا الخطاب...، وحيث الفعلان (افعل / تفعل)، يضعانه أمام هذا الخيار المصيري الذي تفوضه إليه، وليس مصيره هو وحده بل مصيرها معه...!!

ومن ذلك النوع وصية (الخنساء) لبنيتها في القادسية الواردة سابقا: جناس مماثل بين الأسماء: (عَدُوِّكُمْ / أَعْدَائِهِ)، (مُسْتَبْصِرِينَ / مُسْتَبْصِرِينَ)، (سَاقِهَا / سِيَاقِهَا)، (وطيس/رئيس/خميس) تغير حرفان في البداية، وذلك في قولها:

" فَإِذَا أَصْبَحْتُمْ عَدَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَالِمِينَ، فَأَعْدُوا إِلَيَّ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ مُسْتَبْصِرِينَ، وَيَا لِلَّهِ عَلَى أَعْدَائِهِ مُسْتَبْصِرِينَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ الْحَرْبَ قَدْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا، وَاضْطَرَمَّتْ لَطَى عَلَى سِيَاقِهَا، وَجَلَلَتْ نَارًا عَلَى أَوْرَاقِهَا، فَتَيَمَّمُوا وَطِيسَهَا، وَجَالِدُوا رَيْسَهَا، عِنْدَ احْتِدَامِ خَمِيسَهَا، تَظْفَرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُلْدِ وَالْمَقَامَةِ . " .^{٦٥٥}

وفي خطاب (أزدة بنت الحارث): " إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ، وَلَا آمَنُ أَنْ يُخَالِفُوا إِلَيْنَا، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَمْنَعُنَا، وَأُخْرَى أَخَافُ أَنْ يَكْثُرَ الْعَدُوُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَهْزِمُونَهُمْ، فَلَوْ خَرَجْنَا لِأَمْنًا مِمَّا نَخَافُ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَدُوِّ إِلَيْنَا، وَيَظُنُّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّا عَدَدٌ وَمَدَدٌ أَتَى الْمُسْلِمِينَ فَيَكْسِرُهُمْ ذَلِكَ وَهِيَ مَكِيدَةٌ." .^{٦٥٦}

^{٦٥٤} - نفسه: ١/ ١٦٢.

^{٦٥٥} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧، أسد الغابة، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-٢٨٨-

٢٨٩. الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي: ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص: ٢٢٠-٢٢١، وانفرد ابن الجوزي في "صفة الصفوة ٤/ ٣٨٥" بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزنة الأدب، للبيهقي: ١/ ٤٣٤.

^{٦٥٦} - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٣-١٥٤. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/ ٥٩٦-٥٩٧. سنة ٤هـ. في القادسية.

حيث يظهر: بين فعلين (أخاف، نخاف)، وبين اسمين (عَدَدٌ وَمَدَدٌ)، وكأن الاسمين يأتيان كمعادل موضوعي للفعلين الدالين على الخوف، وأن الاسمين المتجانسين إنما هما مصدر الأمان، إذ كانت خير وسيلة للدفاع هي الهجوم...!!

جِنَاسُ الْإِشْتِقَاقِ:

وقد جعله القزويني ملحقاً بالجناس: " أَنْ يَجْمَعَ اللَّفْظَيْنِ الْإِشْتِقَاقُ"^{٦٥٧}، وهو أن يرجع اللفظين المتجانسين إلى أصل لغوي واحد، ومجاله المشتقات.

ويُسجل في ذلك هذا النموذج الطريف من خطاب هذه (المرأة) التي تَزَوَّجَتْ قَاتِلَ أَبِيهَا، كانت تقول له كُلَّمَا رَأَتْهُ : " لَأَعْدِمْتُ رَجُلًا وَشَحَكَ هَذَا الْوِشَاحَ. " ^{٦٥٨}

فجناس الاشتقاق وقع بين كلمتين أحدهما أصل للأخرى (وَشَحَكَ / الْوِشَاحَ.)، وفي هذا التكرار تأكيد على معنى التعبير من جهة، والغضب المكبوت من جهة أخرى، حتى إنها تغيظه بوصف موطن الجرح وقد شكل ندبة بأنه وشاح، والوشاح مما تتجمل به المرأة، فهذا النقل للمعنى، مع كون الواقع عكسه لهو من مواطن قوة هذا الجنس بين الكلمتين، أضف إلى ذلك هذه الانتشارية و ذلك الشيوع اللذين هما من خصائص حرف (الشين) ، خاصة مع تقارب الكلمتين، له دلالة استمرارية الأثر القبيح والعييب في هذا الزوج وعدم زواله، ولأن الكلمتين إحداهما فعل والأخرى اسم فبينهما جناس مغاير أيضاً...!

وفي خطاب (جُوَيْرِيَّةَ بِنْتِ الْحَارِثِ) في خبر مقتل الجاسوس وقدم النبي ﷺ وتفرق انتلاف اليهود: تَقُولُ " فَسَيءَ أَبِي وَمَنْ مَعَهُ وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا، وَتَفَرَّقَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ قَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَفْنَاءِ الْعَرَبِ ، فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَاهُمْ. " ^{٦٥٩}

^{٦٥٧} - الإيضاح، للقزويني: ص: ٣٢٧.

^{٦٥٨} - البداية والنهاية، لابن كثير: ١٤/٦. فكان يقول لها: لَا عَدِمْتُ رَجُلًا أَعْجَلَ أَبَاكَ إِلَى النَّارِ. .

^{٦٥٩} - المغازي للواقدي: ١/ ٤٠٦. في خبر غزوة المريسيع. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٦٤٥، الروض الأنف، للسهيلى: ٤/

٢٠-١٩. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٦١٠. سنة ٦هـ. في ذكر غزوة بني المصطلق، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/

١٥٩، ٨/ ٤٩. سنة ٦هـ، البدء والتاريخ، المقدسي: ص: ٣٤٨. وانظر في خبرها أيضا: من روضة المحبين ونزهة المشتاقين

لابن القيم الجوزية: ص: ١٤٦-١٤٧. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، للخطيب الغمري: ص: ٢٠٤.

ويأتي هذا الجناس بين كلمتين (وَخَافُوا/خَوْفًا)، حيث الأولى فعل، والثانية اسم، للتأكيد على معنى الفرع والخوف، يزيد من ذلك إلحاقها ذلك بصفة (شديدًا)، ثم يكون ما بعدها مرتكزا دلاليا على حالة الخوف الشديد والرعب، لتتجلى لنا أهمية تين الكلمتين المتجانستين ودورهما في السياق، حيث انتقل بعدهما إلى منحى له أثر واقعي من حيث تغيير موازين القوى على الأرض، من تفرق وتشتت، ثم وقوف قبيلتها فردا في مواجهة النبي ﷺ ، مما جعل الكفة العسكرية ترجح لصالح المسلمين...!!

ويتألق هذا الجناس بين كلمتين الحرف يسيطر عليهما هو حرف (الخاء)، مع خصوصية في حرف الخاء من معاني الخواء والخلو، وهو حرف شعوري من الأصوات الحلقية، التي فيها رخاوة ما عدا الهمزة، وهذا يعني أنها تصدر حفيفا عند النطق بها،^{٦٦٠} ومن معانيه الشعورية السلبية هي الخوف و الفرع^{٦٦١}، وبذا تكون الكلمتان بهذا التكوين الصوتي الخاص بحرف الخاء قد أعطت المصادقية لهذا الخطاب عن حالة بني المصطلق آنذاك...!!

أَمَّا (أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ)، فتوجه خطابها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين فضل المهاجرين مع النبي ﷺ على المهاجرين إلى الحبشة فغضبت (أَسْمَاءُ) وقالت: " يَا عُمَرُ كَلَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْعَمُ جَائِعُكُمْ ، وَيَعْطَى جَاهِلُكُمْ، وَكُنَّا فِي أَرْضِ الْبُعْدَاءِ الْبُعْضَاءِ وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرِبُ شَرَابًا حَتَّى أَذْكَرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. " ^{٦٦٢}

يبرز هذا الجناس في خطاب مشحون بقيم الرفض والاعتراض، وفي تلافيف أسلوب القسم، كنوع من التوكيد لأقسام سابقة عليه،.. "أَطْعَمُ / طَعَامًا ، وَلَا أَشْرِبُ / شَرَابًا..". كنوع من التعزيز لبنية الرفض ، والاعتراض وتأكيد لأقسام سابقة في السياق، و لهذا القسم خصوصيته بعامة وفي هذا السياق ، بخاصة، فهو عموما يأتي متشحا بالنفى، وهو قسم منوط بمادة الحياة البشرية (الطعام والشراب)، وهذا يعطي الموضوع المقسم عليه قيمة الحياة نفسها، أو يتجلى كمعادل موضوعي معنوي لحالة الوجود المادي...!!

^{٦٦٠} - انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ص: ٧٦.

^{٦٦١} - انظر: خصائص الحروف العربية، حسن عباس: ص: ١٧٦.

^{٦٦٢} - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية: ٣ / ٣٣٢، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٢٠٥.

وفي هذا القسم بـ(الطعام والشراب) بُعد آخر أيضاً، يترتب على البعد السابق من كونه مادة الحياة، هو بعد تصويريّ ينحاز إلى بنية تنبيهية إيحائية توازر السرعة والعجلة في إنجاز المُقسَم عليه...!!
وفي سياق التحريض والإخزاء لكل من فرّ أو حاول الفرار من المعركة، يأتي خطاب (أُمَّ أَيْمَنَ) في أحد: "... هَاكَ الْمَغْزَلُ فَأَغْزِلْ بِهِ...!! وَهَلُمَّ سَيْفَكَ...!!":^{٦٦٣}

هذا الجنس المتخلق في بنية الإنشاء (أمر، واسم فعل الأمر) " هَاكَ الْمَغْزَلُ فَأَغْزِلْ بِهِ...!!"، له بنية افتراضية كما يُظن، لكن قابليتها للتصديق والحقيقة قائمة، فالمتلقي في سياق حال الخطاب، وكذلك المتلقي الافتراضي، لا يتوقع أن (أُمَّ أَيْمَنَ)، لا بد أنها كانت تحمل مغزلاً في تلك اللحظة...!!، لكن لافتراض حالة تبادل الأدوار بين الرجل الذي فرض عليه القتال و المرأة غير المكلفة به، أضف إلى ذلك أن هناك استهجاناً أخلاقياً واجتماعياً في كل مجتمعات الأرض، أن تقوم النساء بما يقوم به الرجال، أيما كان ما يقوم به النساء في ذلك المجتمع، وأيما كان دور الرجال فيه، فالرجل يجد في ذلك ما يجرح كبريائه ورجولته، هذه الحال الافتراضية المنفرة والمقيبة للمخاطب هو ما نفت إليها التركيب المتجانس بين (الفعل: اغزّل) و (اسم الآلة: المغزّل)...!!

و(أُمَّ عُمَارَةَ نُسَيْبِيَّةُ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ) المجاهدة المناضلة، تستنطق أخبارها عن يوم أحد، (أُمَّ سَعْدِ) التي ترى جرحاً غائراً على عاتق أمّ عُمَارَةَ، فتسألها: من أصابك بهذا...؟ قَالَتْ: ابْنُ قَمِيَّةَ أَقْمَأَهُ اللهُ.. ثُمَّ تَصِفُ تَلْقِيَهَا لِلضَّرْبَةِ: "... فَضَرَبَنِي هَذِهِ الضَّرْبَةَ وَلَكِنْ فَلَقَدْ ضَرَبْتَهُ عَلَى ذَلِكَ ضَرْبَاتٍ وَلَكِنْ عَدُوَّ اللهِ كَانَ عَلَيْهِ دِرْعَانٌ"^{٦٦٤}

فقول (أُمَّ عُمَارَةَ): "ابْنُ قَمِيَّةَ أَقْمَأَهُ اللهُ.."، يُعَدُّ ذو جمالية خاصة في هذا الجنس تكمن في سرعة بديهة (أُمَّ عُمَارَةَ)، حيث اشتقت من اسمه ما فيه سبة وصغار له، على أن الاسم قد يكون من ألفاظ الاضداد في العربية، من وجه من الوجوه، حيث إنه قد يعني السمين، أو الخصب والنماء...!!

^{٦٦٣} - المغازي، للواقدي: ٢٧٨/١.

^{٦٦٤} - سيرة ابن هشام: ٨٢ / ٢، المغازي للواقدي: ٣٦٨ / ١، البداية والنهاية لابن كثير: ٤ / ٣٤، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤٣.

وبعناية يُنظر إلى هذا التنوع من الجذر اللغوي (ضَرَبَ)، مع خصوصية حرف الضاد الذي يعطي السياق حقه، الحركي، وبعده التصويري لحالة التلوي والمراوغة الفيزيائية بين الأطراف المشتركة والمتلاحمة، بين الفعل الماضي، واسم المرة، وجمع المؤنث السالم، يعزز من وقع هذا الجرس الموسيقي، القيمة الدلالية لأسلوب الالتفات، كما أنها ختمت جملتها هذه بتكرار لا فت لحرف العين بموجياته المختلفة.

ومن نماذجه أيضا: خطاب (أُمُّ سُلَيْمِ ابْنَةَ مِخَانَ) في زواجها بأبي طلحة: "يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا مِثْلُكَ يُرَدُّ، وَلِكِنَّكَ أَمْرٌ كَافِرٌ، وَ أَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ، لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ، فَإِنْ تُسَلِّمَ فَذَلِكَ مَهْرِي لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ...!!!"^{٦٦٥} فجناس الاشتقاق في: (امرؤ، امرأة..، تسلم، مسلمة.)

وكذلك في خطاب (الرَّبِيعِ) لابنها تخبره عن قصتها مع (أَسْمَاءَ بِنْتِ مَخْرِبَةَ) وقد ذهبت تشتري منها عطرا، فتعارفا كابنة قاتل ومقتول، فقالت لها (الرَّبِيعِ) بعد أن رفضت (أَسْمَاءَ) بيعها: "وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَشْتَرِي مِنْكَ شَيْئًا أَبَدًا، فَوَاللَّهِ مَا بِطِيبٍ وَلَا عَرْفٍ، وَ وَاللَّهِ يَا بَنِيَّ مَا شَمَمْتُ عِطْرًا قَطُّ كَانَ أَطِيبَ مِنْهُ وَلَكِنِّي غَضِبْتُ"^{٦٦٦} (بِطِيبٍ/ أَطِيبٍ).

ومثل ذلك خطاب (أُمِّ رِغْلَةَ الْقُسَيْرِيَّةِ)، لرسول الله ﷺ: "إِنَّا ذَوَاتُ الْخُدُورِ، وَمَحَلُّ أُرْرِ الْبُعُولِ، وَمَرْبِيَّاتُ الْأَوْلَادِ، وَمُمَهَّدَاتُ الْمِهَادِ."^{٦٦٧}، فجناس الاشتقاق بين الكلمتين: (مُمَهَّدَاتُ/ الْمِهَادِ)

وفي خطاب (أَزْدَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ): "إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ، وَلَا أَمَنْ أَنْ يُخَالِفُوا إِلَيْنَا، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَمْنَعُنَا، وَأُخْرَى أَخَافُ أَنْ يَكْثُرَ الْعَدُوُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَهْزِمُونَهُمْ، فَلَوْ خَرَجْنَا لِأَمْنًا مِمَّا نَخَافُ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَدُوِّ إِلَيْنَا، وَيَظُنُّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّا عَدَدٌ وَمَدَدٌ أَتَى الْمُسْلِمِينَ فَيَكْسِرُهُمْ ذَلِكَ

^{٦٦٥} - أسد الغابة، لابن الأثير: ٣٦١/٢.

^{٦٦٦} - المغازي، للواقدي: ٨٩/١، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٤٨/٨، ويذكرها صاحب أسد الغابة، في ترجمة عياش بن أبي ربيعة. ٣٠٨/٤، و٩/٧، ١٠، ١٤.

^{٦٦٧} - أسد الغابة، لابن الأثير: ١٥٨٢/٥ لإصابة، لابن حجر: ٤٤٩/٤.

وَهِيَ مَكِيدَةٌ. ٦٦٨ فجناس الاشتقاق نلحظه في الكلمات التالية: (خُلُوفٌ / يُخَالِفُوا / مُخَالَفَةٌ) و(أَخَافُ / نَخَافُ).

الجناس المشوش:

يقول فيه الحموي: " إنَّ الرُّكْنَيْنِ إِذَا تَجَادَبَهُمَا نَوْعَانِ مِنَ التَّجْنِيسِ وَلَمْ يَخْلُصَا لِوَاحِدٍ كَانَ الْجِنَاسُ مَشْوِشًا" ٦٦٩.

ويُلْتَقِطُ مِنْ هَذَا النَّوْعِ مَا خْتَمَتْ بِهِ (الْخُنْسَاءُ) وَصِيَّتُهَا لِئِنِّي فِي الْقَادِسِيَّةِ، كَحَسَنِ عَاقِبَةَ وَخَاتِمَةَ لِمَا أَوْصَتْهُمْ بِهِ مِنْ طَرِيقَةِ الْجِهَادِ وَأَنْ يَتَسَمَّوْا مِنْهُ ذُرْوَتَهُ الْعُلْيَا، وَ أَلَا يَقْتَعُوا بِمَا دُونَهَا، وَالنَّتِيجَةُ: "... تَنْظَرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُلْدِ وَالْمُقَامَةِ ". ٦٧٠

وبين (الكرامة / المقامة) جناس مشوش، لا ينتمي لأحد النماذج المعروفة حكما، بل يتنازعه أكثر من نوع، ويصعب أيضا نسبه لها، فبينما يتفق الحرفان الأخيران، تختلف حروف بداية الكلمة، وعلى أية حال حتى لعدم انتماء هذا النوع من الجناس إلى الأنواع المحددة والمعروفة، فقد انتمى لنفسه وكانت له هذه الدلالة اللافتة في السياق، لأن المتلقي قد يتوقف عند الجرس الموسيقي المتشابه للكلمتين، ويأنس به، ويزيد من هذا الجذب الإيقاعي، اتفاق الكلمتين قبلها في الوزن (بالغُم، الخُلْدِ)، فهما على وزن (فعل)، أضف إلى ذلك اتفاقهما في الإعراب المجرور أيضا، والأهم من ذلك أن هاتين الكلمتين (الكرامة / المقامة)، تأتيان كاستراحة محارب في خاتمة هذه الوصية المفعمة بكل ما جاء فيها وعلى الوجه المخصوص الذي صيغت به، لهذا.. فإن هذا التردد في نسبة الجناس وتشويشة، إنما هو ناجم عن عدم وضوح الخاتمة وتردها بين النصر والنجاة، أو الظفر بالشهادة... وهنا.. حيث تشع دلالة جديدة هي محور لأفق آخر...!!

٦٦٨ - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٣-١٥٤، ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣ / ٥٩٦ - ٥٩٧. سنة ١٤ هـ. في القادسية.

٦٦٩ - خزائن الأدب، للحموي: ص: ٣٦ .

٦٧٠ - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤ / ١٨٢٧، أسد الغابة، لابن الأثير: ٧ / ٨٩-٩٠-٩١. الإصباية، لابن حجر: ٤ / ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩. الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي: ١٠ / ٣٨٨ - ٣٩٦، الفاضل في صفة الأدب الكامل، للشوابع: ص: ٢٢٠ - ٢٢١، وانفرد ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤ / ٣٨٥ " بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزائن الأدب، للبغدادي: ١ / ٤٣٤ .

ومن جناس التشويش أيضا خطاب(أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ) لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، حين فضل المهاجرين مع النبي ﷺ على المهاجرين إلى الحبشة فغضبت (أَسْمَاءُ) وقالت: ^{٦٧١} "...كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْعَمُ جَائِعُكُمْ ، وَيَعْطَى جَاهِلُكُمْ، وَكُنَّا فِي أَرْضِ الْبُعْدَاءِ الْبُعْدَاءِ ،..."

فجناس التشويش وقع بين الكلمات التالية في هذا الخطاب: (جَائِعُكُمْ /جَاهِلُكُمْ، الْبُعْدَاءِ / الْبُعْدَاءِ)، فبين هاته الكلمات تشابه في الجرس الصوتي، وفي الوزن أيضا (فَاعِلٌ، فُعْلَاءُ)، بينما هناك اختلافات وتغيرات في الحروف المكونة لها، ويُلاحظ أنها مع وزن الفاعل وفي خطابها عن المسلمين مع رسول الله ﷺ، تتحدث بصيغة المفرد (جاهل، جائع)، لتدلل على العناية الشخصية المادية والمعنوية التي كان يوليها النبي ﷺ لكل فرد مسلم معه، بينما في خطابها عن وضعهم في أرض الحبشة جاءت بصيغة جمع الكثرة (فُعْلَاءُ)، لتلفت لتلك المفارقة العددية، حيث يشكل المسلمون القلة المستضعفة المهاجرة من الاضطهاد، وهذا له تأثيره، خاصة إذا تحدثنا عن سبب الاضطهاد، وهو الدين الجديد، الذي لم يكن يؤمن به أهل هذا البلد، ومن لا يكرم في بلاده، فمن سيكرمه خارجها إلا ما رحم ربي، وهم في احتياج دائم لأهل هذا البلد، مما يزيد الأمر سوءا، و يظهر مقدار الأذى الذي لحق بهم من جراء هذه الهجرة...!!

إذن.. فهذا الجناس المشوش الوارد في هذا الخطاب، إنما جاء للتعبير عن وجهة نظر المتكلمة عن هذا الخلط وذاك التشويش في المفاهيم وعدم التدقيق في الموازين، وبذا كان له هذا الاندياح والانزياح الدلالي اللافت لمضمون هذا الخطاب !!..

وتقع (خَوْلَةٌ بِنْتُ الْأَزْوَِر) في الأسر فتحرض النسوة على الدفاع عن أنفسهن ومهاجمة الأعداء: قالت: " يَا بَنَاتِ النَّبَّاعَةِ وَالْعَمَالِقَةِ، خُذُوا أَعْمِدَةَ الْخِيَامِ وَأَوْتَادَ الْأَطْنَابِ، وَنَحْمِلْ بِهَا عَلَى هَوْلَاءِ اللَّئَامِ، فَلَعَلَّ اللَّهُ يَنْصُرَنَا عَلَيْهِمْ أَوْ نَسْتَرِيحَ مِنْ مَعْرَةِ الْعَرَبِ." ^{٦٧٢}

يتجه مؤشر الجناس المشوش إلى الكلمتين: (مَعْرَةَ / الْعَرَبِ). بزيادة في أولهما واختلاف في آخرهما، وهنا حيث ينحرف هذا السياق نحو وجهة أخرى مع هذا الجناس المشوش في آخر كلمتين، إذ

^{٦٧١} - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية: ٣ / ٣٣٢، البداية والنهاية. لابن كثير: ٤ / ٢٠٥.

^{٦٧٢} - فتوح الشام، الواقدى: ١ / ٤٧. في فتح دمشق.

يتوقف عندها الخطاب، وهذا له دلالاته التحريضية..، حيث يجاوز الراهن إلى المستقبل الآتي، والمستقبل الآتي مبني على ماض عريق، إنها تضعهن أمام مسؤوليات كبيرة وضخمة، تستلزم هذه التضحيات الكبيرة التي هنَّ على وشك تقديمها قربانا لما فات وعما هو آتٍ أيضا، وأن أي تخاذل منهن أو تفريط أو تهاون واستسلام لضغط اللحظة الراهنة، إنما سيحملن عاره إلى الأبد، وسيُنكس ذلك.. لا رؤوسهنَّ فحسب بل العرب بأجمعهم، الذين سيوجهون إلى هاته النسوة التعبير والسوء..!

وكذلك الأمر نفسه في خطاب (أزدة بنت الحارث) تحرض النسويات معها على القتال وحماية أنفسهن و ظهر المسلمين عبر الاندفاع إلى المعركة، تقول:

" إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ ، وَلَا آمَنُ أَنْ يُخَالِفُوا إِلَيْنَا، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَمْنَعُنَا ، وَأُخْرَى أَخَافُ أَنْ يَكْثُرَ الْعَدُوُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَهْزِمُونَهُمْ،.... " ^{٦٧٣}

إن مرتكز خطاب خولة هي هذه الهواجس والمخاوف التي تحكم الموقف إن تغلب العدو عليهم،

وهذا ما توصلته لإقناع هذه النسوة بالانضمام إليها ،ولذا نجد هذا الخطاب الموازن بين قيم الأمن والخوف ،والفيصل بينهما هو القرار الذي ستتخذه هاته النسوة..،ونرى الجنس المشوش بين كلمتين (أُخْرَى/ أَخَافُ)، على اتفاق في بعض الحروف واختلاف في بعضها على غير انتظام يوجهه لأحد أنواع الجنس المعروفة،و كأن هذا التشويش هو تشويش في الروح والنفس والتردد بين حالين لم تكن تعلم حينها إلام تؤول،وفيما إذا كانت مجازفتها تأخذهم للأمن المنشود أم لا، وإن كانت على يقين من شيء فهو ضرورة التحرك وتقديم الدعم....؟؟

الجناسُ المُغَايِرُ :

يقع هذا الجنس حين تكون إحدى الكلمتين اسما والأخرى فعلا، ^{٦٧٤} ومعظم نماذجه تدخل في (جناس الاشتقاق) فبدا كل جناس تغاير هو جناس اشتقاق أو العكس،ويمكن الرجوع إلى النماذج

^{٦٧٣} - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٣-١٥٤، ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣ / ٥٩٦ - ٥٩٧. سنة ١٤ هـ. في القاسية.

^{٦٧٤} - ويسمى: تجنيس التغاير أيضا. انظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٧٢/٢.

عينها، ومنها الخطابات الآتية: (أسماء بنتُ مُخَرَّبَةَ بِنُ جَنْدَلٍ): " خَرَجْنَا نَغْرُلُ الشَّعْرَ وَنُعِينُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنُدَاوِي الْجَرْحَى وَنُتَاوِلُ السِّهَامَ وَنَسْقِي السَّوِيقَ " ٦٧٥

وتسأل (أُمُّ سَعْدِ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ) (أُمُّ عَمَارَةَ) عن غزوة أحد: ٦٧٦ " يَا خَالَةَ أَخْبِرِينِي خَبْرَكَ. قَالَتْ: فَرَأَيْتُ عَلَى عَاتِقِهَا جُرْحًا أَجُوفَ لَهُ غُورٌ ، فَقُلْتُ : مَنْ أَصَابَكَ بِهَذَا ؟ " ٦٧٧

(أُمُّ سُلَيْمِ ابْنَةَ مِلْحَانَ) في زواجها بأبي طلحة : " يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا مِثْلُكَ يُرَدُّ، وَلَكِنَّكَ أَمْرٌ كَافِرٌ، وَ أَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ ، لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ، فَإِنْ تُسَلِّمَ فَذَلِكَ مَهْرِي لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ...!! " ٦٧٨

من الملاحظ هنا غلبة الجناس على ما عداه على المستوى الموسيقي في خطاب المرأة في

عصر النبوة، ومع ذلك لم يُفطن إلى نماذج تمثل جناس التحريف، المتعلق باختلاف الشكل، في خطاب المرأة المسلمة في عصر صدر الإسلام، فيما تكثر بقية أنواع الجناس الأخرى على حسابه، أما في الجاهلية فأمثلته أبرز وأوقع.

وبالنظر أخيرا إلى الجناس كمحسنٍ بديعيٍّ في خطاب المرأة النثري في سياق الحرب في الجاهلية وعصر صدر الإسلام، لوحظ غياب الجناس التام، وللأسباب ذاتها، لأنه يحتاج إلى تعمل وفيه نوع من الإلغاز الذي يحتاج إلى تفكير وتدبر وإطالة نظر من المتلقي وهذا مالا يلائم السياق العفوي المرتجل في عمومها، بينما تنوعت أساليب الجناس الناقص بانفتاحاته الدلالية الثرة، ولوحظ أيضا أن دور الجناس لا ينحصر في الحلية اللفظية أو النبض الإيقاعي فقط ، بل يأتي في معظمه بين كلمات تمثل مرتكز الدلالة، ومصدر الإشعاع في الخطاب، مما أعان على التمام سدى الخطاب بمضامينه المتشعبة مع السياق..

٦٧٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال. ٩٢/٦. قَوْلُهُ : (بَابُ غَزْوِ النِّسَاءِ وَقِتَالِهِنَّ مَعَ الرِّجَالِ) وَقَعَ فِي هَذِهِ التَّرْجَمَةِ حَدِيثُ الرَّبِيعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ، ١٧٤/٦، الحديث رقم : ٢٨٨٣ .)، ١٧١/٦، في شرح الحديث رقم ٢٨٨٠.

٦٧٦- سيرة ابن هشام: ٨٢ / ٢، المغازي للواقدي: ١ / ٣٦٨، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٣٤، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤٣.

٦٧٧- سيرة ابن هشام: ٨٢ / ٢، المغازي للواقدي: ١ / ٣٦٨، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٣٤، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤٣.

٦٧٨- أسد الغابة، لابن الأثير: ٢ / ٣٦١.

وهذا هو بالضبط ما يجعل الجنس فاعلا ومتفجرا في السياق، لأن المعنى يستدعيه، والسياق يحتاجه بما فيه من عفوية وتلقائية، كما يشير الجرجاني^{٦٧٩}!...!، وما يعمق الدلالة أيضا هو هذا الإيقاع اللافت إلى المعنى، خاصة إذا تضافر مع السجع، مما يجذب الأسماع إلى الإصغاء، ويفاجئ الأفهام بالإيماء، والنفس بالتشويق والإيلاء، فيتمكن المعنى في ذهن المخاطب وروحه، مع جميل جرس ولطف إيقاع، مما يشكل سيمفونية الموسيقى الداخلية للنص النثري..!

^{٦٧٩} - انظر: أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني : ص ١١ .

المَبْنَعُ الثَّانِي:

السَّجْعُ

فِي (العصر الجاهلي)

مدخل

نجد في معاجم اللغة: " سَجَعٌ يَسْجَعُ سَجْعًا: استوى واستقام وأشبه بعضه بعضًا؛ والسجع : الكلام المُقْفَى، والجمع أسجاع وأساجيع؛ وكلام مُسَجَّع. وَسَجَّعَ يَسْجَعُ سَجْعًا وَسَجَّعَ تَسْجِيعًا: تَكَلَّمَ بكلام له فَوَاصِلٌ كفَوَاصِلِ الشِّعْرِ من غير وزن، وصاحبه سَجَاعَةٌ؛ قال ابن جني: سمي سَجْعًا لاشتباهه أواخره وتناسب فَوَاصِلِهِ ومَسْرَهُ على سُجُوعٍ، و سَجَّعَ الكلامَ فهو مسجوعٌ، وَسَجَّعَ بالشَّيءِ نطق به على هذه الهيئة. والأُسْجُوعَةُ: ما سُجِّعَ به..^{٦٨٠}

ويُذكر أَنَّ مَنْ سماه تسجيعة قدامة والزملكاني والمصري والعلوي والمدني،^{٦٨١} وحده ابن الأثير بقوله: "وحده أن يُقال: تَواطؤُ الفَوَاصِلِ في الكلام المنثور على حرف واحدٍ" وخصه بالكلام المنثور^{٦٨٢}، وكذا قال ابن سنان الخفاجي: "ويُحدُّ السجع بأنه تماثل الحروف في مقاطع الفصول"^{٦٨٣}، ومثل ذلك قول القزويني^{٦٨٤}، وعده السكاكي كالقافية في الشعر: "وهي في النثر كما في القوافي في الشعر"^{٦٨٥}.

واختلف موقف الدارسين القدماء من السجع، بين مؤيد ومعارض ولكل حجته، فمن اعترض عليه وكرهه كان لنهي الرسول ﷺ عنه في قوله: "إياكم وسجع الكهان"^{٦٨٦}، ولكن هذه الكراهة على ما يبدو هي فيما يشبهه سجع الكهان لفظاً ومعنى، خاصة في ذلك الوقت مع قرب عهد الناس بمثل هذه القوالب اللفظية، ولمَّا يزالوا متعلقين بها، والدين في أوله^{٦٨٧}،

٦٨٠- اللسان : (سَجَع).

٦٨١- انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب: ١٤٤/٢.

٦٨٢- المثل السائر: لابن الأثير: ١٩٣/١.

٦٨٣- سرُّ الفصاحة: لابن سنان: ص: ١٦٤.

٦٨٤- الإيضاح: للقزويني : ص: ٣٣١.

٦٨٥- مفتاح العلوم: للسكاكي: ص: ٥٤٢.

٦٨٦- اللسان: (سجع).

٦٨٧- انظر: البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٣٦هـ/ ٢٥٥هـ)، تح/درويش جويدي: المكتبة العصرية، بيروت:

د ط، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥، ١/١٧٦-١٧٧.

أما ابن الأثير فيرى أن النهي عن السجع موقوف على سجع الكهان خاصة، ولو كان النهي عن السجع مطلقاً، لاستنكر النبي ﷺ السجع عامة دون ذكر سجع الكهان،^{٦٨٨} ثم إن ابن الأثير يذكر بعد ذلك أن المستنكر هو حكم الكهان في عدم دفع الدية في الجنين بغرة عبد أو أمة وليس السجع في ذاته.^{٦٨٩}

وحدّ جودة السجع هو الحد المعروف من عدم التنطع فيه والمبالغة في إتيانه تعميلاً، فإن جاء عفو خاطر وتلبية للمعنى فهو الأجود...^{٦٩٠} حيث لم يقدر المتكلم المعنى نحو السجع بل قاده المعنى إليه حتى إنه لو تركه لأصاب المعنى عقوق ووحشة^{٦٩١}، وعند ابن الأثير فإن الأصل في السجع الاعتدال في مقاطع الكلام، وهذا الاعتدال مطلوب في كل الأشياء فضلاً عن ميل النفس الفطريّ إليه^{٦٩٢}، ويرى ابن سنان الخفاجي أن المذهب الصحيح في السجع: " أنّ السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنّه لم يقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله وورد ليصير إليه.."^{٦٩٣} ، وبعد.. فإنّ السجع من أوصاف البلاغة في مواضعه، وعند سماحة القريحة به، وسرّ جماله ألا يكون في جميع الكلام، لأن السجع في النثر كالقافية في الشعر، وإن كان بالإمكان الاستغناء عن السجع ولا يمكن الاستغناء عن القافية في الشعر، بل إن الالتزام به عيب وعيب في الفصاحة^{٦٩٤}! فإن خالف السجع هذه الشروط فقد خرج عن حدود الحسن، وصار إلى السماجة والقبح. ويورد الجاحظ مقالة للرقاشي هي رد على من سأله عن تفضيله للسجع: " لم تؤثر السجع على المنشور...؟ قال: إنّ كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا استماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر ما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ

^{٦٨٨} - انظر: المثل السائر: لابن الأثير: ١/١٩٤-١٩٥. وانظر: الطراز: للعلوي: ٣/١٢ وما بعدها.

^{٦٨٩} - انظر: المثل السائر: لابن الأثير: ١/١٩٦.

^{٦٩٠} - انظر: سر الفصاحة: ص: ١٧١، المثل السائر: لابن الأثير: ١/١٩٧.

^{٦٩١} - انظر: أسرار البلاغة، للجرجاني: ص: ١٤.

^{٦٩٢} - انظر: المثل السائر: لابن الأثير: ١/١٩٦.

^{٦٩٣} - سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي: ص: ١٦٥. انظر في شروط السجع أيضاً: المثل السائر: لابن الأثير: ١/١٩٦.

^{٦٩٤} - انظر: نقد النثر: وهب بن منبّه: ص: ١٢١.

من المنثور عُشره، ولا ضاع من الموزون عُشره " ٦٩٥ .

فهذا النص يوضح الوظيفة التي من أجلها يُؤمّ السجع ويُقصد، وكأنما هذا الإيقاع هو لتسهيل الحفظ، وليقلل من تفلته على النسيان، ويحتج ببقاء الشعر وانتقاله عبر الأجيال وما ذلك إلا لوزنه و قافيته، فلم لا يكون للنثر الشيء نفسه...!!؟؟ خاصة مع ملاحظة ضياع أغلب النثر وأجوده، مع أن أجود النثر هو أكثر من أجود الشعر، وهو يريد أن يتخطى بخطابه حدود الزمن، وبالمخاطب حدود الحضور، مع ما يحققه هذا الإيقاع المموسق من جذب للأسماع، وتنشيط للنفوس على الاستماع...!! ولا يكون السجع إلا بتسكين أواخر السجعات وإلا أفسدها الإعراب .

أنواعُ السَّجْعِ:

للسجع أنواع ثلاثة بحسب طول السجعات وقصرها،^{٦٩٦}

وقسّمه يحيى بن حمزة العلوي إلى ثلاثة أنواع:^{٦٩٧} المتوازي. المطرف. المتوازن.

السَّجْعُ الْمُتَوَازِي:

وهو أن تتفق السَّجَّعات في عدد الحروف والوزن والروي.

ونستشهد هنا بثلاثة خطابات لـ (أُمِّ تَابُطَ شَرًّا) يجمعها سياق واحد هو رثاؤه، وهو خطاب متنوع في إطاره، متفرد في لغته، ونورده هنا ليس لأنه متفق مع عنوان هذه الفقرة فقط، بل لهذه الفرادة و الطرافة، فهي بذاتها نكتة لغوية جديرة بالتنبه لها والتوقف عندها؛ تقول: " ولا سَقَيْتُهُ هُدْبِدًا، ولا أَنْمَتْهُ تَنْدًا، ولا أَطْعَمْتُهُ قَبْلَ رِيَّةٍ كَبِدًا. " ٦٩٨ .

في هذا الخطاب هناك سياق معنوي ثقيل على النفس فهو سياق تفجع وفقد، وانكسار ولوعة بلا شك، يعبر عنه سياق لغوي تميز أيضا بموحيات الانكسار والتبدد، وكأنَّ نَفْسًا يتقطع ويتردد في

^{٦٩٥} -البيان والتبيين: للجاحظ: ١/١٧٥ .

^{٦٩٦} - انظر: المثل السائر: لابن الأثير: ١/٢٥٥-٢٥٧، والإيضاح: للقرظيني: ٣٣١-٣٣٢. وسمى المتوازن ترصيعا.

^{٦٩٧} - انظر: الطراز: العلوي: ٣/١٢. الإيضاح: القرظيني: ص: ٣٣٢.

^{٦٩٨} - اللسان: (وضع).

الصدر قبل أن يقرر الانعتاق والتشتت مع هذه الدال المفتوحة...!!

إن هذه السجعات فيها من الانكسار والتأؤد ما في الصدر من أحزان وتفجع ، وما في الروح من ثقل الفقد ومرارة الثكل، فالسجعة الأولى رباعية(هُدْبِدَا)، قد انقسمت في نطقها بفعل الباء المكسورة إلى مقطعين، وكذا في السجعتين التاليتين والمكونتين من ثلاثة أحرف، فصوت الكلمة(هُدْبِدَا)، وهي صفة اللبن الثخين الثقيل يستدعي إلى الذاكرة صوت حركة اللبن في القربة، وصورته في الآنية متخثرا ينقل في حركته إن حركته، فالهاء التي للاضطراب والدال التي للشدة والباء التي للظهور تعطي هذا الانطباع المادي، وهو فعل السقاية نفسه..فما هو الإسقاط المعنوي لهذه الصورة المادية السمعية البصرية التي تخيرتها أم تأبط شرّاً تخيراً فطريا صرفا...!؟؟!

بحسب تصنيف عباس للحروف وفق الحواس الخمس فإن الدال حرف لمسي^{٦٩٩} ، وعلى الرغم من شدة الدال التي تنسب إليه فإن شدته هنا تبلورت من شدة الموقف نفسه وثقله على المتكلم، ولأن هذه الأم الوالهة المبضعة بالفقد تحنّ لكلّ ما لامس ابنها في أكثر مراحل الابن لصوقا بوالدته وهو طفل رضيع، لتنبئنا هذه الدال عن العسر والشدة اللذين تتحرق بهما هذه الأم الثكلى، إن هذه المسافة الفاصلة بين حرف الهاء (من أقصى الحلق من الداخل) وهو بدأ حرف احتكاكي إلى بداية الفم مع حرف الدال ، ثم تكون على مشارف التقدم والبوح مع الباء الشفوية المكسورة التي تخلت عن خصيبتها الانفجارية، والتي تُطبق مع نطقها الشفتان لتنفرج انفراجًا يسيرًا منكسرًا مع الكسرة لتتراجع مرة أخرى إلى موقع الدال المنفرجة المفتوحة كأنّة تفتتح على المطلق ، ونرى هذه السجعة الدالية قد توزعت على المادي (سقاية اللبن، عدم إطعام الكبد) والمعنوي (تخير وقت النوم فلا يكون على نكد)، لكن الكل ينضوي تحت مظلة العناية التي تقدمها الأم لطفلها وهي متعددة ، لكنها كلها بحب الأم وحنوها...! فمع بداية حرف الهاء الشعوريّ المهموس الموحى بالاضطراب والتلاشي^{٧٠٠} الذي ينم عن اضطراب هذه الأم ،إلى هذا التصحر والشدة في الدال، منقسم بالباء التي هي للإبانة والظهور، والسجعة الثانية التي تبدأ بحرف التاء الدال على الوهن و الضعف، ومنكسر بالهمزة المتوسطة من موقع أيضا متأخر في الحلق، هذه التاء الانفجارية التي بدت ملائمة لحال البكاء أو التشكي المتحصل عن حال التنكد والهم وحال الضعف والوهن أيضا، ثم السجعة الثالثة المبتدئة بحرف الكاف الاحتكاكي الانفجاري

^{٦٩٩} - انظر: خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس: منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، ١٩٩٨م، ص: ٦٨.

^{٧٠٠} - انظر: خصائص الحروف العربية: حسن عباس : ص: ١٩٣.

الشديد الذي يناسب حرارة الكبد نفسها ، وهو كالتاء أيضا حرف لمسيّ، كلها تنتهي بالبدال الجافة المفتوحة على عوالم الفقد والشدة والتأزم.. وبذا يكون هذا الإيقاع الداليّ - إن جاز التعبير - ترجمة صوتيّة لفظيّة لما يجيش في صدر هذه الأم الملتاعة..! إن توتر هذا الإيقاع وتموّجه المنكسر جاء أيضا في أسلوب نفي لكل هذه الأمور الثقيلة والمضرة، فهو نفي الإهمال لإثبات العناية والاهتمام..!

وماذا أثمرت هذه العناية المادية والمعنوية...؟؟؟! نراه في تأبينها له في موضع آخر بخطاب يعدّ من غريب اللغة بحق، تقول (أُمُّ تَابِطَ شَرًّا): " وَابْنَاهُ وَابْنُ اللَّيْلِ، لَيْسَ بِزَمِيْنٍ، شَرُوبٍ لِلْقَيْلِ، رَقُودٍ بِاللَّيْلِ، وَوَادٍ ذِي هَوْلٍ، أَجَزَّتْ بِاللَّيْلِ، تَضْرِبُ بِالذَّيْلِ، بِرَجْلِ ٧٠١ كَالثَّوْلِ ٧٠٢"

لقد أفرزت رجلا فارسا، يشن غاراته في الليل، ثم تأتي بجملة صفات منفية: فهو ليس بجبان فسل رعديد، وليس بضعيف يحتاج إلى الاقتيات في منتصف النهار، فيشرب في القائلة، وليس بكثير الرقاد في الليل...، ثم جملة صفات مثبتة تشكل توازنا لفظيا ومعنويا: فهو سريع العدو، يجتاز الأودية المهولة المخيفة، ومن شدة سرعته وقوتها ترى رجليه تضربان وتصفقان في إزراه، ومعه جماعة راجلة يقودها ، وتتبعه كجماعة النحل..؛ كأنما هو يعسوبها..!! ٧٠٣

هذا الجرس المولول المفتوح بـ(وا) التي للندبة، والذي يقع في الروح موقع (الوَيْل) وإن لم تكن أتت بهذه الكلمة التي هي على وزن (فَعْل) أيضا، معتلة العين كما في كل سجعاتها، وإن استثنت سجعين (هول، ثول) لتبديل بالياء واوا، لكن ذلك لم يخلّ بالجرس للسكون في كلٍّ، غير أن صوت الياء الساكنة في وسط الكلمة وما قبلها متحرك بالفتح؛ يوحي بالعمق والتفعر، كما في كلمة ليل لشدة الظلمة ٧٠٤، وكذلك (زَمِيْنٍ، قَيْلٍ)، ويلفت تكرارها لكلمة (ليل) ثلاث مرات على قصر هذا الخطاب وتركيزه، إلى قوة قلب هذا القتيل، وإقدامه، فهو لا يهاب شيئا، ويتحرك في الليل على بصيرة ومعرفة ودراية كأنما يبصر، حيث الظلام يفرض هذا العمى الزمنيّ على الجميع، بينما يشكل نقطة قوة وانطلاق لابنها ، وكأن الياء في هذه السجعات هي للتفعر في عمق الزمن، عمق الظلمة وعمق الظهيرة من

٧٠١ - وفي اللسان: (قيل) : "وليس في الكلام فَعْلَةٌ جاءَ جَمْعًا غَيْرَ رَجُلَةٍ جَمَعَ رَاجِلٍ وَكَمَاءٌ جَمَعَ كَمَاءً".

٧٠٢ - الأغاني، للأصفهاني: ١٢٤/٢١. إحسان عباس وآخرون.

٧٠٣ - انظر في معاني الكلمات؛ اللسان كل في مادته: (زميل، القيل، رقود،) وإصلاح المنطق لابن السكيت: ٩٢/١.

٧٠٤ - انظر: خصائص الحروف، حسن عباس: ص: ١٠٠.

النهار، أي عمق الحرارة، وعمق الجوع ، وعمق الاحتياج أيضا، ورغم ذلك فليس هو هذا الشخص الذي يضعف في مثل هذه الأزمنة الحرجة والموحشة، سواء كانت وحشة مادية أو معنوية...!!

أما السجعة الثانية: (لَيْسَ بِزَمَيْنٍ) هذه الزاي بأزيرها توحى بحال الاضطراب و عدم التوازن والاهتزاز بفعل الخوف ، توأزها صوتيا الميم التي يتضاعف تأثيرها الصوتي بفعل الشدة، والتي تضاعف بدورها معنى الانجماع والتضام^{٧٠٥} لصوت الميم، وتقعر المعنى بفعل الياء ،ليتماس اللسان بمقدمة الفم من خلف الأسنان تماسًا رقيقًا في حياض تام لحرف اللام الذي بدأ مصمتا كالحزن المطبق، و أصوات هذه السجعة تعطي الكلمة صورة سمعية بصرية للشخص الخائف..!

وبعدها تأتي تان السجعتان المتعلقتان بالزمن كما أسلفنا، " شَرُوبٍ لِلْقَيْنِ، رَقُودٍ بِاللَّيْلِ"، يتقدم السجعتين وزنُ (فَعُول) الذي يستدعى للمبالغة، وهو هنا منفيّ، أي: (ليس شَرُوبٍ لِلْقَيْنِ ، لَيْسَ رَقُودٍ بِاللَّيْلِ)، وهو بهاتين الصفتين يخالف معظم الناس، ويتفرد بما يحقق له هذه الميزة بما هو متعارف عليه في وقته...!! " .وَوَادٍ ذِي هَوْلٍ، أَجَزَّتْ بِاللَّيْلِ، تَضْرِبُ بِالذَّيْلِ، بَرَجَلٍ كَالثَّوْلِ ."

وتختار (أَمْ تَأْبَظُّ شَرًّا) لهذه السجعة بداية حرف (الهاء) الذي يوحي بكثير من الاضطراب والعمق، متناسبا تماما مع المعنى الذي تترجمه الكلمة وهو معنى الفزع والاضطراب، يوأزره صوت (الواو) بما فيه من تدافع للهواء في الفم إلى الأمام^{٧٠٦}، وكأن هناك عاصفة هوائية مضطربة تناسب هذا الفضاء العدمي في الوادي والوحشة المهيمنة على المشهد، وفي السجعة التالية، نجد أيضا صوت (الذال) الذي أيضا يدل على الاضطراب وشدة الحركة مما يأتي ترجمة صوتية للحركة السريعة الشديدة، وهذا الصفق للرجلين في الإزار، وصوت الهواء المتخلخل بينهما أثناء الحركة، والفجوة الصوتية التي تمثلها الياء الساكنة، وتأتي السجعة الأخيرة هنا (كالثَّوْلِ) فنلاحظ أيضا بأن النَّفْسَ مع النَّاءِ ، يخرج بشيء من البعثرة، فيسمع له حفيف^{٧٠٧}، تشي به هذه الحركة المنسابة والمنقادة لجماعة النحل في اتجاه خروج الهواء، لتغيب وسط هذا الوادي المجهول في هذا الليل البهيم الحالك مع سكون اللام...!!

فصوت (الها) و(الذال) و(النَّاء) مع(الواو) أيضا كل ذلك أحدث عاصفة هوائية مضطربة

^{٧٠٥} - السابق: ص: ١٠٤.

^{٧٠٦} - المرجع نفسه: ص: ٩٨.

^{٧٠٧} - نفسه: ص: ٦١.

ومندفعة نحو المجهول المظلم ، الذي هو الموت بلا شك !!..

واللافت هنا أن كل هذا الصخب الصوتي في بداية الكلمات المسجوعة ينتهي بلام يسكن معها كل شيء كسكون حياة هذا الفقيد الذي ملأ الدنيا صخبا وضجيجا وحركة، وشغل الناس، ثم يأتي سكون الموت المتمثل في هذه اللام التي تبدو محايدة صوتيا بالنسبة للأصوات قبلها، ليكون لإيقاع سكونها وثباتها في النطق بلا أي تموجات أو نذبذبات أو ترددات دلالتة المعنوية الكبرى في هذا السياق الصوتي المميز..!!

فيلاحظ أن كل سجعة جاءت معبرة صوتيا عن المعنى المراد منها، ومتلائمة مع الصفة المنوطة بها، وذلك حصيلة تضافر مجموع الأصوات المكوّنة لها وليس للصوت الأخير فقط، بل إن هذه الأصوات المكوّنة للسجعة هي التي أعطت هذا الإيقاع المميز لآخر حرف فيها، إذا لحظنا بعين الاهتمام طريقة النطق بحرف اللام الساكنة، الذي يكون بالتصاق اللسان، وهنا تبرز خصيصة معنوية هي لصوق وثبوت هذه الصفات سلبا وإيجابا في هذا المرثي...!!

وتضيف بعض المصادر قول(أَمْ تَأْبَظُّ شَرًّا) بعد ذلك مع بعض الاختلاف في ترتيب الكلام: "وَ ابْنَاهُ لَيْسَ بِعُلْفُوفٍ، حَشِيٍّ مِنْ صُوفٍ، تَلْفُهُ هُوفٌ."^{٧٠٨}، وفي إطار النُدبة أيضا تنفي لتثبت، فابنها شاب قوي العقل والبدن وليس شيخا خرفا ضعيف العقل، ليس أجوف منتفخا بلا قيمة كأنه حشي من صوف، تذروه هذه الريح الحارة وتطير به بلا إرادة منه أو حول أو قوة، ومحصلة ذلك كله أنه شاب قوي ثابت قادر على الغزو والصمود في أشد الظروف قسوة في هذه الصحراء الحارة الشاسعة المدمرة..!!

يسيطر وزن (فُعْل) على سجعات هذا الخطاب، وصوتيا يسيطر حرفا الواو والفاء محدثين هذه العاصفة الهوائية المتشكلة باندفاع الهواء إلى الأمام مع حرف الواو، ويستمر هذا الاندفاع مع حرف الفاء أيضا، ليتشكل لنا هذا المعنى بوضوح من ذين الصوتين، معنى البعثرة والذرو والتطير، إن بعثرة النَّفْس عند خروج صوت الفاء يحاكي الأحداث التي تنطوي على البعثرة والتشتت دونما عنف أو شدة.^{٧٠٩} وهذا يحاكي ما أرادت أن تقوله هذه المرأة مستفيدة مما يوحيه حرف الفاء من معاني الضعف

^{٧٠٨} - إصلاح المنطق لابن السكيت: ٩٢/١. وفي مجمع الأمثال للميداني: ٢٨/٢، العلفوف : الجافي من الرجال المسن، ويضرب للمسّن الخرف، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٤٥/١، لسان العرب لابن منظور .(هيف): الهوف : الريح الحارة المعطشة التي تبيس كل شيء.

^{٧٠٩} - انظر: خصائص الحروف العربية. حسن عباس: ص: ١٣٤.

والوهن، و يقول صاحب اللسان : "والهُوف من قول أم تَابَّطُ شَرًّا : تَلْفَهُ هُوفٌ" ^{٧١٠}، وهذا يعني انفرادها بهذه اللفظة حيث بنت كل سجعاتها على (فُعَل).

ويُرى خطاب آخر لعربيات يصفن خيل آبائهن، ^{٧١١} وسنحاول تناول هذا الخطاب كجملة صوتية متناغمة، إذ موضوع الخطاب والمخاطب واحد وكذلك السياق، على اختلاف المتكلمات الثلاث، ليُرى كيف عبرت السجعات صوتياً، على تنوعها عن المعنى المراد مقدمة ونتيجة: قالت إحداهن : " كان أبي على شَقَاءَ مَقَاءَ، طويلة الأنقاء، تمطَّق أنثياها بالعرق، تمطَّق الشيخ بالمرق" ^{٧١٢} .

فقال الأخرى: " كان أبي على طويلِ بطنها، قصير ظهرها، شديد أسرها، هاديها شطرها يكبُّها حُضْرُها ". فقالت الثالثة: " كان أبي على الكرَّة الأَنُوح، التي يكفيها لبنُ لُقُوح " ^{٧١٣}!

في الخطاب الأول يلتفتنا حرف القاف؛ وهو صوت "شديد مهموس وهو الأكثر شيوعاً، ومجهور وهو أقل شيوعاً". ^{٧١٤}، يقرع السمع وسط هذه السجعات بذبذبات مختلفة الجرس بحسب موقعه وحركته وما يتقدمه من حروف، ولذا صنفه حسن عباس من الحروف السمعية. ^{٧١٥}، التي توحى هنا بالشدة والقوة والفعالية. ^{٧١٦}، ويزيد من فاعلية هذا القرع في السجعة الأولى الشدة مع الفتح في الكلمة، يقويها أيضاً هذا الإتيان (مَقَاءَ)، كل هذا الزخم الصوتي لترجمة الفاعلية والقوة في حركة الفرس حين انطلاقها بالفارس من وسط الميدان، إن السجعة الأولى وهي المهمة، - حيث يعدّ الإتيان نوع من التوكيد هنا- تبدأ بحرف الشين الذي يوحى بالانتشار والتفشي نظراً لبعثرة النَّفْس وانتشاره حين النطق به، ثم هذه القاف الانفجارية يزيد من قوة انطلاقتها هذه الألف اللينة التي للمد حيث تعطي الصورة الحركية

^{٧١٠} - اللسان: (هوف).

^{٧١١} - الفخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٧١-١٧٢. الأمازي للقال، ٢/٢١٩. مجمع الأمثال للميداني: ٢/٤٦٦ وقصة المثل: لا تعلم اليتيم البجاء". المزهر: ٢/٥٤٩.

^{٧١٢} - شقاء: طويلة، ومقَاء: إتيان. الأنقاء: النقي: كل عظم فيه مُح. التمتع: التذوق، وهو إطباق إحدى الشفتين على الأخرى مع صوت يكون بينهما، وفي لسان العرب، مادة: أنث: في صفة فرس: تَمَطَّقَتْ أنثياها بالعرق، تَمَطَّقَ الشَّيْخُ العَجُوزَ بالمرق عَنَّتْ بأنثيها: رَبَلْتِي فَحَدَيْتِي.

^{٧١٣} - انظر اللسان: (نوح، لفتح)، ضيقة مخارج النَّفْس، الأنوح: صفة ذم في الخيل، وهي الكثير الزحير في جريه، اللَّفُوح: الحلوية.

^{٧١٤} - انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، ط١٩٩٩، م٤، ص: ٧٢، و: خصائص الحروف العربية، ص ١٤٥.

^{٧١٥} - انظر: خصائص الحروف العربية حسن عباس: ١٤٠.

^{٧١٦} - نفسه: ص: ١٤٦.

البصرية والسمعية مداها ليكون للهمزة الساكنة قيمتها في انتهاء الحركة، وفعاليتها حيث تشكل مرتكزا لانطلاقة جديد بالاندفاع نفسه، (طويلة الأنقاء) وهذه السجعة بمكوناتها الصوتية تشكل ترجمة بصرية سمعية لحركة الفرس، وما هي عليه من القوة والنشاط، وحيث نتيين وقع حوافر الفرس وسعة المسافة بين الخطوة والخطوة، الأمر الذي كانت نتيجته بلا شك أن أباه نجا بفرس كهذه...!

ويتغير موقع القاف لتصبح في نهاية السجعة، فيخف زخمها و يكاد يتلاشى قرعها، وتصبح و كأنها محشورة في مكانها، لتعطي موحيات الالتصاق التي تفرزها مجمل الأصوات هنا، وحيث العرق السائل من ربلتي فحذي الفرس، والصوت الصادر من احتكاكهما، هو نفسه صوت الشيخ يتمطق بالمرق، بقم خال من الأسنان، يحتك فكه السفلي بالعلوي ليصدرا صوتا مشابها...!! مسبوقة بالراء التي تعطي معنى التكرار والاهتزاز حين النطق بها، والعين الناصعة التي أعطتنا معنى الظهور والنضح المصاحب لسيلان العرق من الجسم، وتلك الميم (مرق) التي هي للتجميع والانضمام مع انطباق الشفتين، ثم التوسع مع انفراجهما، وهو يحاكي صورة أكل أو ارتشاف المرق...!!

وفي خطاب الفتاة الأخرى، إيفاع آخر، يتنامى دراميا، " كَانَ أَبِي عَلَى طَوِيلِ بطنها ،قصير ظهرها، شديد أسرها، هاديتها شطرها يكُبُّها حُضْرُها "، ومع هذا النعت السببي على وزن فعيل (طويل، قصير)، تعطي معنى الامتداد والتقدم للأمام بعمق وليس بسرعة عظيمة، هذا ما يوحيه صوت الياء هنا، إن هذه الفرس طويل بطنها وعنقها، شديدة الخلق، ولها طريققتها الخاصة في العدو (الحُضْر)، وهو ارتفاع الفرس في عدوه مع شدة فيه، وهي طريقة تجعلها عرضة للكبو والتعثر، خاصة مع قوة بنيتها، وبذا كان الخوف من قتل الأب حاضرا، أكثر من الخطاب الأول...!!

إن انتهاء السجعات بهاء الغيبة للمؤنث، أعطاهما هذا الانفتاح والانطلاق، مع الاضطراب والاهتزاز والتكرار الذي يوحي بهما صوت (الهاء) المتعاقد مع صوت الراء الشديد التميز هنا...!!

(الراء) في العربية خصوصيتها، يقول حسن عباس: ". فإن صوت حرف الراء من أصوات الحروف هو أشبه ما يكون بالمفاصل من الجسد. وانطلاقاً من خاصية التمفصل هذه في صوت (الراء) وفي مفاصل الجسد، قد أدخل العربي هذا الحرف في معظم الأعضاء التي تتصل بغيرها بمفاصل غضروفية... وقد قدم العربي الصور الصوتية المماثلة للصور المرئية التي فيها ترجيع وتكرار، وتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، وذلك " حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"، كما قال ابن

جني..^{٧١٧}، وليس أدل على ذلك من هذا الخطاب الذي يعتمد على تتابع الحركة وتكرارها ولهث الأنفاس وتقطعها، وفاعلية الحركة وتجانسها..!

أما الخطاب الثالث: "كان أبي على الكزة الأنوح، التي يكفيها لبنُ لُفُوح."، فهذه الفرس مضطربة ضيقة النفس، تكتفي بشرية من لقوح، كثيرة الزحير أثناء الجري، ضعيفة، وبالتالي فهي ثقيلة الحركة، متقطعة الأنفاس، منقبضة الأعضاء، متشنجة لقلة وصول الأكسجين إلى أعضائها، وهذا كله يجعل هذه الفتاة يائسة من نجاة أبيها، ونلاحظ أن خطابها جاء متأخرا عن خطاب رفيقتها؛ بل ومقتضبا، منقبضا، لخوفها من مواجهة الواقع المتوقع مع فرس كهذه..!

وبناء على ذلك جاءت موسيقى تلك الفتاة على هذا الإيقاع اليائس، فحرف الحاء كما يقول حسن عباس.. "مهموس رخو، يحدث صوته باندفاع النَّفس بشيء من الشدة مع تضيقٍ قليل مرافق في مخرجه الحلقِي، فيحتك النَّفس بأنسجة الحلق الرقيقة، ويحدث صوتٌ هو أشبه ما يكون بالحفيف."^{٧١٨}، ولذا كان هذا الإيقاع الحائِي، استجابة وترجمة لشعور هذه الفتاة واختناقها بما تتوقعه من فقد أبيها، مسبقا بعاصفة هوائية مندفعة نحو الأمام تزيد من حرارة الحاء، وهو متناسب أيضا مع صفة الفرس التي تعاني من الانغلاق وانحباس النَّفس واللهاث، وقد استصحت صفة الكزازة لهذه الفرس والتي تعني أيضا عند صاحب اللسان: "اليُبُسُ والانقباضُ"^{٧١٩} هذا التضيق والاحتكاك والحرارة المصاحبة لخروج حرف الحاء إنما هي متناسبة مع حرارة الموقف، بل وحتى السجعة الأولى (أنوح) تجعل الذهن ينصرف لا شعوريا إلى فعل (النوح) أي البكاء نفسه..!

إنَّ الخطابات الثلاثة متدرجة إيقاعيا، تدرجا متناسبا مع درجة الثقة والأمل في النجاة من المعركة، كله يعتمد على ميزة الفرس ومقوماتها الجسدية، ومن ناحية التركيب اللغوي نلاحظ دور حروف المد الثلاثة السابقة لنهاية السجعة، حيث جاءت على الترتيب (الألف، الياء، الواو)؛ ليكون لها أبلغ الأثر الصوتي في تبليغ المعنى والإقناع به..!!

^{٧١٧} - المرجع السابق: ص: ٦١.

^{٧١٨} - خصائص الحروف العربية حسن عباس: ص: ١٨٣.

^{٧١٩} - اللسان: (كزز).

ف نجد في الخطاب الأول إيقاعا قويا متسارعا نوعا ما، يتناول العنق مع النطق به، شيئا مشابها لانطلاق الفرس وعدوها، ثم تخف درجة الإيقاع في الخطاب الثاني، لتصبح أهدأ وأبطأ إلى حد ما ، فالفرس قوية لكن طريقتها القافزة إلى الأمام قفزات واسعة وسريعة في العدو تميل إلى تعثرها وسقوطها لاختلال توازنها، وبالتالي هلاك فارسها، فكانت مشاعر الخوف أقوى قليلا ، إلى أن نصل إلى الخطاب الثالث المنخفض في مستوى الصوت والصورة، خطاب منحدر في الإيقاع، لانحدار النفس نحو القنوط والجزع، فالفرس ليست في مستوى الحدث، فتأتي الأصوات أشبه ما تكون بالفحيح والنوح ..، وبالتالي فقد نجا الأوليان، وهلك الثالث..!!

وبذا نستطيع أن نقول بكثير من الاطمئنان إلى إن هذا الإيقاع السجعي قد ترجم الحدث على مستوى الصوت والصورة، ليست الصورة البصرية فحسب بل الصورة الشعورية والفكرية للمتكلمة بناء على قراءتها لمعطيات واقعية..، بل وجاءت هذه الترجمة الموسيقية مبشرة بالنهايات التي انتهى إليها كل فارس من الفرسان الثلاثة.. وإبرازا للمستوى الثقافي والدراية بمفردات البيئة وعوامل الانتصار ومعاول الهزيمة والفرس أحدها سلبا وإيجابا..!!

السَّجْعُ الْمُطَرَّفُ :

وهو ما اتفقت السجعات فيه في نوع الحروف وليس في عددها أو وزنها^{٧٢٠}، ولعلنا نمثل لذلك بخطاب زرقاء اليمامة التحذيري لقومها: "يا جديسُ لقد سارتِ إليكم الشَّجرُ، وأنتكم حمير..!!"^{٧٢١}

يُلاحظ في هذا الخطاب أن طرفي السجعتين اتفقا في نوع الحرف (الراء) الصوت اللثوي المكرر المجهور^{٧٢٢}، على اختلاف في وزن الكلمتين، ولأن المقام مقام تحذير من قبل زرقاء اليمامة، وإنكار من قومها لخطابها، نجد لحرف الراء هنا وقعا مؤثرا، من حيث طبيعته الصوتية ومخرجه اللثوي، إذ تميل إلى التردد والتكرار بما يناسب السياق العام للحدث؛ متواشجا في السجعة الأولى (الشَّجْر) مع

^{٧٢٠} - انظر: الطراز: العلوي: ١٢/٣. الإيضاح: الفزويني: ص: ٣٣٢.

^{٧٢١} - التيجان في ملوك حمير، للهمداني: ص: ٣٠٨-٣٠٩. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ١/٦٣٠. الأغاني، للأصفهاني، ٨٥/٢. إحسان عباس وآخرون. قصة المثل "أبصر من زرقاء اليمامة" في العقد الفريد، لابن عبد ربه: ١٣/٣. وانظر مختصر القصة في الروض الأنف، للسهيلى: ١/ ٤٧ - ١٥١. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٢٧٣. وطرفا من بداية القصة في: المغامم المطابة في معالم طابة. مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (٥٧٢٩-٨١١٧/هـ-١٣٢٩م-١٤١٥م) تح/ حمد الجاسر: دار اليمامة، الرياض، ط١، ١٣٩٨/هـ-١٩٦٩م، ص: ١٠٧.

^{٧٢٢} - انظر: علم اللغة العام. (الأصوات). كمال بشر، ص: ١٢٩.

حرف الشين الذي من خصائصه الشيوخ والانتشار والتفشي؛ خاصة مع حركة الشدة المفتوحة، والجيم، الصوت المجهور الانفجاري،^{٧٢٣} الاحتكاكي^{٧٢٤}، غير أن موقعه الوسطي والفتحة خففتا من حدة انفجاره، مما أعطى الزخم الكامل لظهور حرف الراء بخصائصه وذبذباته القوية..!!

أما السجعة الثانية (جمير)، فالحاء المكسورة والميم التي تنضم معها الشفتان، فقد زادت السكون من فاعلية الضم لتعطي للفتحة مداها على حرف الياء، حتى وكأنه يحدث انفجارا وقفزة صوتيه لافتة تحط على حرف الراء المتراقص بطرف اللسان على اللثة..!!

ومع اختلاف وزن السجعتين إلا أن ذلك لم يخلّ بالجرس الموسيقي، لتمائل حركة آخرهما بحرف الراء، على ما في إحياء أصوات السجعة الأولى من اندفاع وبعض القوة، توحى أصوات الكلمة الثانية بما يشبه الارتعاش المشوب بخوف، حيث يظهر السياق أن (الرِّقَاء) اشتبهت أول الأمر في حركة الأشجار، لكنها لما تبينت أنه جيش (جمير)، هلعت، خاصة مع موقف الرفض من قومها..!!

السَّجْعُ الْمُتَوَازِنُ:

وهو ما اتفقت السجعات فيه في عدد الحروف ووزنها واختلفت في الروي^{٧٢٥}، ونمثل له هنا بخطاب (هند ابنة ظالم) لابن مندلة تحذره وتحضه على الهرب: "النَّجَاءُ النَّجَاءُ، فَإِنَّ وِرَاءَكَ طَالِبًا حَثِيثًا، وَجَمْعًا كَثِيرًا، وَرَأْيًا صَلِيبًا، وَحَزْمًا وَكَيْدًا" ^{٧٢٦}

نجد التوازن هنا قد حدث بين هذه السجعات ليس لتمائل حروف أواخرها بل جاء من اتفاقها في عدد الحروف والوزن، ف: "طالبًا حثيثًا، وجمعًا كثيرًا، ورأيًا صليبيًا، وحزمًا وكيدًا"، حيث السجعات كلها على وزن (فَعِيلًا) منصوبا، ويتآزر هذا الإيقاع مع إيقاع آخر مصاحب تتفق عليه الأشطر الأول للسجعات ما عدا السجعة الأولى فهي على وزن (اسم الفاعل)، بينما الباقيات على وزن (فَعْلًا) منصوبا !!.. ولذلك فالقارئ أو المستمع لا يكاد يلحظ أن هذه السجعات غير متفقة الأواخر إلا متأخرا..!!

^{٧٢٣} - انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ص: ٦٩.

^{٧٢٤} - انظر: علم اللغة العام (الأصوات). كمال بشر: ص: ١٢٦.

^{٧٢٥} - انظر: الطراز: العلوي: ١٢/٣. الإيضاح: القزويني: ص: ٣٣٢.

^{٧٢٦} - مجمع الأمثال للميداني: ٢/٢٥٥.

وفي هذا السياق الذي يسيطر عليه الخوف والحذر، والإصرار من قبل المغدور على الأخذ بالثأر، ويقينها من مدى صلابته وعناده، ومعرفتها الوكيدة بالحشود القادمة، يلاحظ استعمال وزن (فَعِيل) في السجعات، سواء للدلالة على المبالغة، أو على ثبوت الصفة فيمن تصفهم، ثم هناك هذه الحروف التي ختمت بها سجعاتها، نستشعر هذا الحفيف، وهذه البعثرة والحيرة والانتشار أو التشتت للطلب مع حرف (الثاء) الاحتكاكي الذي يزيد من فاعليته تكراره ثلاث مرات، هذه الثاء التي تعطي إحساسا بعدم الاستقرار على حال بالنسبة للزوج المغدور حتى يدرك ثأره، وهذه (الراء) التي أيضا من خصائصها التكرار، وهذه (الباء) الشفوية الانفجارية في سياق صوتي يوحي فعلا بالصلابة والعناد، وانتهاء بهذه (الذال) الصلبة القاسية الجافة الانفجارية التي تختتم بها سجعاتها، ومع وزن (فَعِيل) هذا يكون لحرف (الياء) دور تأكيدٍ للنغم والفعل معا، حيث النطق به كالجزء على النواجز، ليعطي هذا العمق الدلالي المؤكّد لمعنى العناد والإصرار من قبل الزوج والخوف والاضطراب من قبل الزوجة الغادرة التي تعشقت آسرها وكهرت زوجها...!!

إذن فهذا السينمفونية الإيقاعية الزاخرة بالتوتر والقلق والخوف والريبة هي بلا شك ترجمة صوتية لهذا السياق بكل ما فيه...!!

ومثل ذلك يلاحظ في خطاب زوج عروة بن الورد: " وَاللَّهِ إِنَّكَ مَا عَلِمْتَ لَضُحُوكَ مُقْبَلًا، كَسُوبٍ مُدْبِرًا... "٧٢٧.

ومن الملاحظ أن أقل أنواع السجع في خطاب المرأة في سياق الحرب هو السجع المطرف، ثم المتوازن، ليكون الأعم الأغلب للسجع المتوازي بسجعاته القصيرة، النموجية...!!

ويُكاد يُرصد في هذا الخطاب اتكاء المرأة على حرفي (اللام والذال) أكثر من غيرها فيما رصدنا من خطابها المسجوع، سواء كان ذلك بالتناوب بينهما في الخطاب الواحد، كما في خطاب جليلة بنت مرة لما طردتها أخت زوجها من المأتم في أعقاب قتل أخيها جساس لزوجها كليب : " ثكل العدد ،

٧٢٧- الأغاني، للأصفهاني: ٣ / ٥٤. انظر: مجالس ثعلب: ٤٥١/٢، نشر الدر: ٨٩/٤. شعراء النصرانية قبل الإسلام: لويس شيخو: ص: ٨٨٩.

وحزن الأبد وفقد حليل، وقتل أخٍ عن قليل ، وبين ذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد^{٧٢٨} ، أو منفردا عند حُرُقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْدِرِ ، أو (الجَمَانَةُ بِنْتِ قَيْسِ) ، لجدها: " وَالْحَرْبُ مَثَلَةٌ لِلْعِبَادِ ، ذَهَابَةٌ بِالطَّارِفِ وَالتَّلَادِ ، وَالسِّلْمُ أَرْخَى لِلْبَالِ ، وَأَبْقَى لِأَنْفُسِ الرِّجَالِ " .^{٧٢٩} ، أو (خَوْدَ بِنْتِ مَطْرُودِ العَامِرِيَّةِ) : " أَلَيْسَ يَمْنَعُ الحَلِيلَةَ ، وَيَرْكَبُ الطَّوِيلَةَ ، وَيَطْلُبُ البَلِيَّةَ ، وَيَكْرِمُ القَبِيلَةَ...!!؟ " ، " قالت: " فَهَذَا أَجْمَلُ جَمَالًا ، وَ أَكْمَلُ كَمَالًا " .^{٧٣٠} ، أو غيرهن .

هذه السجعات التي جاءت منسجمة مع الخطاب الكلي، فلا تنوعات أو تعمل في استقصاء السجعات أو استحضارها، ولم يكن الخطاب الفوري المباشر المتولد من رحم الراهن بقادر على التصنع والتعمل خاصة مع صدق الشعور والانفعال بالقضية موضوع الخطاب !!..

وكأنما هذا السجع بإيقاعاته، يعمل على موسقة العالم الداخلي للمتلقي، وتوقيعه على نحو معين، أو هو تعبير عن العالم الداخلي الغامض للمتكلم ينقله بهذا الإيقاع المخصوص لتمتد نغمة شعورية واحدة بين المتحاورين في الموقف الاتصالي، أليس هذا هو غاية التعبير الأدبي إحداث وحدة شعور بين المنشئ والمتلقي، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة...!!؟؟

إنّ هذا الإيقاع السجعي إنما هو محاولة لاستنفاد الطاقة التعبيرية للصوت لبلوغ المعنى إلى مداه المُستنتق، من خلال الاستفادة من الانسجام والتفاعل بين الأصوات، من حيث المخارج ومن حيث الحركات والسكنات فيها؛ وحيث السجع يقسم الخطاب إلى وحدات أدائية وإيقاعية منفردة مضيضة قيمة معنوية مكتسبة من القيمة الصوتية أو مترتبة عليها ،مما يبرز المعنى المتعلق بها ،وكأنها إذن أداة صوتية لتجسيد المعنى ومتناسبة معه شدة ولينا، همسا وجهرا !!..

إن من أهم الوظائف للجمل السجعية هي تشكيل توازيا يحقق التوازن في التركيب من حيث التوازن في البناء المقطعي، والتكرار الصوتي، مصاحبا للتكرار في النبر والتنغيم عبر المقاطع المسجوعة، ولا شك أن هذا الزخم الموسيقي المتنوع والذي يكتسب خصوصيته أيضا من خصائص الحروف عبر

^{٧٢٨} - الأغاني، للأصفهاني: ٤٠/٥ . تح/إحسان عباس وآخرين. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١ / ٤١٤ .نهاية الأرب: للنويري : ٥ / ٢١٥ ، شعراء النصرانية قبل الإسلام : لويس شيخو:ص: ٢٥٢، معجم أعلام النساء " الدر المنثور" ، زينب العاملي :ص: ٢١٥-١٢٦ .

^{٧٢٩} - نثر الدر: للآبي: ٤/ ٦٣-٦٤ .

^{٧٣٠} - الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي: ١٥٧-١٥٨ ، مجمع الأمثال: للميداني: ١/ ٢٤٠. المستقصى: للزمخشري: ٢/ ٢٧ .

الجهر والهمس والشدة والرخاوة ، متجانسا مع حروف المد أو الحركات الثلاث، يشكل جملا إيقاعية متنوعة ومتغايرة من حيث الطول والقصر فضلا عن التكرارات، مما يرسم مؤشر السرعة والبطء لهذا الإيقاع، كل هذا الحشد الموسيقي ينساب في أذن المخاطب وروحه ليستقر معنى الخطاب في عقله، ليتخذ موقفا منه ، وهي إذن تدرج ضمن استراتيجية الإقناع..!

إنّ تسكين أواخر السجعات يفقد الحروف كثيرا من خصائصها ، ويخفت تأثيرها بناء على ذلك مع غلبة تأثير الأصوات السابقة عليها على وجه العموم ، لكن الملاحظ أن هذا التسكين كانت له دلالاته الإيحائية، وفاعليته في النغم الموسيقي و الإيقاع اللفظي..!!

ولا شك أن السياق العام للموقف الاتصالي يعمق من قيمة الإيقاع المسجوع في الخطاب لما للصوت واللغة غير المنطوقة أيضا من تأثير ..!!

السُّجُوعُ

فِي (عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

مَدْخَلٌ

السَّجْعُ الْمُتَوَازِي:

وهو أن تتفق السَّجَعَاتُ في عدد الحروف والوزن والروي.

ونمثل له بخطاب (أُمُّ رِغْلَةَ الْفُشَيْرِيَّةِ)، وهي امرأة ساقها توقها لعظم الأجر والمثوبة، أن تقف بخطابها عند رسول الله ﷺ، لتسأله عن عمل تبلغ به أجر المجاهدين، ولعلَّ المتلقي لا يجد لهذا الخطاب علاقة مباشرة بسياق الحرب، نعم.. لكن هذا الخطاب يحمل مضامين التوق إلى الجهاد والحرص عليه..، ومعرفة منزلته، والحرص على بلوغها، وقد تخيرته كذروة سنام تريد بلوغها عملا صالحا، وأجرا جزيلا، وهي تنطلق في هذا الخطاب، ليس لأنها لا تجاهد، أو لا تستطيع، بل لأن الجهاد ليس فرضا عليها، وتريد أن تسأل عن عمل مفروض عليها تبلغ به أجر فريضة الجهاد على الرجال، من هنا وُجد أن هذا الخطاب يمسك بطرف من أطراف سياق الحرب، تقول: " ..، إِنَّا ذَوَاتُ الْخُدُورِ، وَمَحَلُّ أُرْرِ الْبُعُولِ، وَمُرَبِّيَاتُ الْأَوْلَادِ، وَمُمَهَّدَاتُ الْمَهَادِ، وَلَا حَظَّ لَنَا فِي الْجَيْشِ الْأَعْظَمِ ، فَعَلِمْنَا شَيْئًا يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " .^{٧٣١}

إن السجعتين المتواليتين اللتين تشكلان انزياحا أسلوبيا نحو السجع المتوازي، هما قولها: "مُرَبِّيَاتُ الْأَوْلَادِ، وَمُمَهَّدَاتُ الْمَهَادِ،.." ، وحيث يشكل هذا الانتقال إلى سجعة (الدال)، انتقالا في المضمون أيضا، فقد صارت (أُمُّ رِغْلَةَ الْفُشَيْرِيَّةِ)، تتحدث عن الأولاد، على وجه الخصوص، ثم انتقلت إلى التعميم ، وهو العناية الكاملة والتامة بكل مفردات حياة الأولاد ، والأزواج، وإذن هو تحول في الصوت، وانتقال في المضمون...!!

إن هذا الانسجام وذاك التوازن بين صوتي وزن (أفعال: أولاد)، و(فِعَال/ مهاد)، إنما مرده إلى اتفاق الحرفين الأخيرين (الألف والدال)، اللذين عليهما معول الخطاب ، وأمانة الدلالة...!!

٧٣١- أسد الغابة، لابن الأثير: دار الفكر: ٦/ ٣٣١. الإصابة، لابن حجر: تح/ علي محمد البجاوي. ٨/ ٢٠٤.

وتبدو السجعة الأولى ممهدة دلاليا، للسجعة الثانية، وهي الأهم، التي تختم بها هذا الانفتاح الموسيقي الذي يشكل انزياحا أسلوبيا كما أشير سابقا...!!

إن صوت (الدال)، صوت شديد مجهور، وهو " أصلح الحروف للتعبير عن معاني الشدة والفعالية الماديتين. " ٧٣٢، وهو حرف حسي لمسي بصري، قد تتغير بعض خصائصه بتأثير الحروف التي يدخل في نسيجها ٧٣٣، وبذا يكون هذا الصوت شديد المناسبة للأدوار الشاقة والمتعبة التي تقوم بها المرأة، في حياتها خاصة أمًا أو زوجة، من جعل الحياة أكثر سهولة، كافيةً بذلك زوجها وأبناءها مؤونة التفكير في تفاصيل الحياة العالقة، لكنها بلا شك تفاصيل تقوم عليها هذه الحياة، وقد لا يدركها الرجل والأولاد إلا إن غابت المرأة أو أهملت فيها، وهي عناية مزدوجة، معنوية، وحسية بصرية ولمسية مادية مباشرة؛ ولذلك تستغرب هذه المرأة ، ألا يوازي أجرها أجر المجاهد في سبيل الله ، إذ المشقة وبذل النفس عنوان للأميرين معًا...!!

يزيد من معنى هذا الخطاب "وَمُمَهَّدَاتُ الْمِهَادِ..". ومن اقترابه من غايته، هذه (الميم)، والمد قبل الدال مع توسط الهاء في الكلمتين، فالميم " .. للانضمام والانجماع، بما يحاكي انضمام الشفتين وانغلاقهما عند التلفظ به. " ٧٣٤، وبما أنها وقعت في بداية الكلمة (مُمَهَّدَاتُ) فإن لهذا الموقع خصوصية، " فإن الشفتين والفكين لا تلبث أن تنفرج عن بعضها بعضا لتكون بذلك أصلح لتمثيل وقائع التوسع والانفتاح والتمدد. " ٧٣٥، ويُلحظ الخصيصتين في هذه الكلمة، لأن الميم الأولى مضمومة والثانية مفتوحة، فأوحت بمعنى الضم والتوسع والانفراج ، وذلك إشارة للدور الأمومي الراعي بلا شك، ثم يأتي حرف الهاء الموحى بالحزن والشجى والتوجع في وسط هذه الكلمة بزيادة في اضطرابه واهتزازه وعمقه بفاعلية حركة (الشدة)، ثم هذا الانعتاق والانطلاق بحضور حرف ألف المد، حاطًا على تصحُّر (الدال)، حيث يوازي تصحُّر وجدان هذه المرأة وتعطشها بعد كل هذا المجهود المبذول ثم لا تساوي أجر جهاد الرجال كما كانت تظن...!!

إنَّ التكوين الحرفي نفسه يتكرر مع نهاية السجعة (المهاد)، الحروف ذاتها (الميم، الهاء، الف

٧٣٢ - خصائص الحروف العربية، حسن عباس ص: ٦٨.

٧٣٣ - انظر: نفسه: ص: ٧٠.

٧٣٤ - خصائص الحروف العربية. حسن عباس ص ١٠٤.

٧٣٥ - نفسه: ص: ٧٨.

المد، الدال)، لكنها تبدو كاستراحة، الفاعل الأكبر في هذا الخفوت النسبي يعود لصوت (الهاء) الذي اختفى منه التشديد، فبهت الشعور بالشدة والاضطراب فيه، وبدا كأنها أخف حدة... لتنتهي هذه الجملة الموسيقية المنزاحة دلاليا بقيمة انزياحها الصوتي، على أمل واعد وهدوء نسبي مع آهة لا تخفى مع الوقوف على حرف (الدال)، وكأنها نهاية نفثة من صدر ملناع...!!

هذا الالتئاع والتأوه هما بوصلة صوتية تأخذنا إلى العالم الشعوري لهذه المرأة، وما يعتلج فيه من عوامل التشوق والظنى على حدٍ سواء، والغاية من ذلك البحث عن الأجر المساوي لأجر المجاهدين...!!

ومع إيقاع دالي آخر نتوقف عند خطاب (أَمِّ جَمِيلِ بْنِ سَعْدِ الدَّارِيِّ) لَمَّا اسْتَشْهَدَ ابْنُهَا قَالَتْ: "يَا بُنَيَّ عَشْتُ سَعِيدًا، وَمَتَّ شَهِيدًا، وَسَلَّكَتُ سَبِيلَ آبَائِكَ، فَرَحِمَكَ اللَّهُ وَأَنْسَ غُرْبَتَكَ وَنَفَعَنِي بِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^{٧٣٦}، ثُمَّ قَرَأَتْ: { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }^{٧٣٧}.

تشكّل هذه السجعة "... يَا بُنَيَّ عَشْتُ سَعِيدًا، وَمَتَّ شَهِيدًا، ..." من حيث هي ضمن الخطاب، انزياحا أسلوبيا في هذا السياق اللغوي، مما يحدو بالمتلقي التركيز على فحوى تين السجعتين اللتين اخترقتا هذا البناء اللغوي، بحرف الدال المفتوح على مدٍ لا متناهي.

تتناهى إلينا تان السجعتان على وزن (فَعِيل)، لتعطينا مبدئيا هذا الترتيب الإيقاعي، الذي يسافر إلى الذهن، بفعل هذه (الدال) المفتوحة والمتسامية، هذا التسامي المخصوص في هذا السياق، تسامٍ ينحاز إلى الترفع على الأوجاع والأحزان وتخطيها، رغم مرارتها، ورغم ثقلها، فنحن لا نصل إلى هذه الانطلاقة مع حرف (الدال) المفتوح، إلا عبر المرور، بهذه الياء المتوسطة التي تعطي معنى التهور إلى الداخل، وكأنها تنتزع نفسها من نفسها، لتصل إلى هذه المرحلة من التسليم والرضا، إنها نفثة تطلقها إلى البدد والشتات، إلى اللاعودة، بل إلى ندمٍ أو أسفٍ على هذه التضحية الكبيرة، منفتحة منفوثة إلى صدر السماء، حيث موطن رحمة الله وجنانه الوارفة...!

فالعيش السعيد هو مقدمة لهذه الخاتمة السعيدة أيضا (الشهادة)، وكأن ما فعله في حياته، هو مقدمة لهذه النتيجة المبهرة، والنجاح اللافت، حين يأتي يوم القيامة يحمل ميسم الشهادة، وتأتي هي

^{٧٣٦} - فتوح الشام، للواقدي: ٢ / ١٣٦. في ذكر فتوح الرها وحران. في فتوح قلعة رأس العين.

^{٧٣٧} - البقرة/١٥٦.

ك(أَمْ الشَّهِيدِ)، وبذا نلمس الفرق الواضح في الإيقاع (الدالي) جرسا وتنغيمًا ودلالة بين السياقين الماضيين، لا بالدلالة الصوتية (للدال) وحدها، بل بما يصاحبها من جرس وتنغيم لحروف الكلمة التي تتواشج معها من جهة ومع غيرها في السياق من جهة ثانية، ومع أغراض الخطاب من جهة ثالثة...!!

أما (خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَِرِ)، التي تعلم بأسر أخيها، فتقرر قرارا صعبا وفيه الكثير من المجازفة وخرق المألوف الذي قد تلام عليه، قررت أن تبحث عنه بنفسها، وأن تنضم سرا ومنتكرة لجيش المسلمين، وأن تخترق صفوف العدو، تلمسا لأخبار أخيها من جهة، وانتقاما منهم من جهة أخرى...، لكن يبدو أن حضورها في الميدان قد شكل خرقا عسكريا لا فتا لصفوف العدو، وألفت الأنظار لهذا الفارس المجهول، فتساءل القوم عنه، وناداه قائد الجيش خالد بن الوليد لكنه لم يجب الأمير، وأدار عنان فرسه ومضى، مما أثار حفيظة خالد ومن شاهد الموقف معه، فذهب إليه خالد وخاطبه قائلا: "ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي لفعلك، من أنت...؟؟ ويا للمفاجأة حينما سمع إجابته: "إِنِّي يَا أَمِيرُ لَمْ أُعْرِضْ عَنْكَ إِلَّا حَيَاءً مِنْكَ لِأَنَّكَ أَمِيرٌ جَلِيلٌ، وَأَنَا مِنْ ذَوَاتِ الْخُدُورِ، وَبَنَاتِ السُّتُورِ...!!"^{٧٣٨}

هذا الخرق الميداني، تشكل خرقا أسلوبيا في بنية هذا الخطاب الحي، خطاب اعتذار مفتتح بخبر إنكاري، مدعم بالنداء، لإظهار التقدير والاحترام والتزامها بالتسلسل القيادي، وأن عدم إجابتها كان له أسبابه الوجيهة، وفي معرض الدفاع عن نفسها، وألا تتهم بما لا يُحمد من التجاوز والجرأة غير المحمودة، بررت نفسها موسيقيا بتين السجعتين، بما هو مرتكز الدلالة هنا، ونبضها الحي...!! فهي في المقام الأول امرأة وما فعلته قد لا يعد مبررا، خاصة وأنها اقتحمت الميدان وفعلت فعلتها دون الاستئذان من أمير الجيش، ولذا فموضوع تين السجعتين، هو أصلها وسترها، وأن ليس من شيمها أن تتصرف على هذه الشاكلة لأنها "مِنْ ذَوَاتِ الْخُدُورِ"^{٧٣٩}، وَبَنَاتِ السُّتُورِ"^{٧٤٠}...!!"

فبين تين الكلمتين اتفاق في الوزن (فُعُول) وهو واحد من صيغ جموع الكثرة، حيث يكون هناك تكثيف عددي ينحاز لصالح المضمون (العفة عن الظهور)، فهي مخبأة خلف الكثير من الخدور، ثم تؤكد على هذا المعنى أيضا، بنسبة نفسها إلى بنات الستور، في إضافة تصويرية لها بعدها الجمالي

^{٧٣٨} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤١ .

^{٧٣٩} - الخُدُور: "سِتْرٌ يُمَدُّ للجارية في ناحية البيت ثم صار كلُّ ما وارك من بَيْتٍ ونحوه خُدْرًا. اللسان: (خدر).

^{٧٤٠} - "سِتْرُ الشَّيْءِ : أَخْفَاهُ؛ وَتَسْتَرُّ أَي تَغْطِي". اللسان: (سِتْر).

لصالح هذا التركيب في الخطاب.. ويؤكد هذا البعد الموسيقي أيضا، البنية النحوية في التركيب الإضافي ، مما يضاعف مقدار التشابه بين السجعتين انحيازًا لمضمونهما!!..

أما بالنسبة للتكوين الصوتي للسجعتين، فالسجعة الأولى تبدأ بحرف الخاء، الذي يخرج هنا منسوبا وغير مخنن، مما بدا مناسبا "لمعاني الرقة والنضارة والليوننة.."^{٧٤١}، وعلينا أن نقرّ أن تلك ليست خصيصة مشهورة في حرف الخاء.. لكن هذه الخاء التي بدأت بها هذه السجعة، إنما تناسب في اهتزازها واضطراب حركتها وذبذباتها وليونتها، حركة الخدر..!!

ثم تأتي هذه الدال المتنازلة نوعا ما عن شدتها وتصحرها، المضمومة والداخلة في نسيج صوتي متآزر مع الواو ليشكل معا عاصفة هوائية مندفعة إلى الأمام تفودهما فيه الخاء في حركتها، وكأنها في حالة تأهب ومواجهة مع المخاطب.. حاطة برفق على ذبذبات وتوترات حرف (الراء) بخاصيته التكرارية المعروفة، سمة تعطيه معنى التأكيد على الدلالة المنوطة بالسياق...!! الذي قد يتحرك بفعل الهواء، أو بفعل الدخول والخروج من خلاله مع رقة فيه.. ومن هنا جاءت ملامة هذه العاصفة الهوائية في وسط الكلمة..!

أما السجعة الثانية، تأتي مفتحة صوتيا بحرف السين، ومعروف ما للسين من صفير وانتشار، ويصف حسن عباس هذا الحرف قائلا: "...حرف السين هو أحد الحروف الصفيرية، صوته المتماسك النقي يوحي بإحساس لمسيّ بين النعومة والملاسة، وإحساس بصري من الانزلاق والامتداد، وإحساس سمعي هو أقرب للصفير. ... على الخفاء والاستقرار، بما يتجافى مع خاصية الانزلاق في صوت السين.."^{٧٤٢}، ويبدو أن أحد معاني الستر والخفاء متعلق بكلمة (ستر)، بمعنى التغطية المتكررة بنسيج ناعم منزلق أملس، حيث خمار المرأة مثلا، يمتد الإحساس بها بفضل الواو المندفعة إلى الأمام لإيصال هذا المعنى للمتلقي، وتأكيدده مرة أخرى بالراء المتكررة الدال هنا أيضا "على الستر والاختفاء" في هذه الكلمة تحديدا.. وعلى النحو الذي هي عليه نهاية كلمة (خدر)..!!

والكلمتان مع خاصية حرف الراء المتحرك في نهايتهما قد يوجزهما هذا التوصيف لكلمة (خدر) التي يذكرها حسن عباس مبررا بها خاصية الاستقرار للراء في هذه الكلمة: "لفظة خَدَر الهودج مثلا

^{٧٤١} - خصائص الحروف العربية. حسن عباس. ص ١٨٣ .

^{٧٤٢} - المرجع السابق: ص: ١١١ - ١١٢ .

(ألقى عليه الستر)، تدل على حدث يبدأ بالإمساك بنسيج فيه رخاوة (للخاء)، ولا يخلو من شدة ممسك (للدال)، لينتهي هذا الحدث بحركة إسدال الستر على باب الهودج (لراء).^{٧٤٣}

أما (عَفْرَةُ بِنْتُ عِفَارِ الحِمِيرِيَّةِ) فتجواب مع خطاب (حَوَلَةَ بِنْتُ الأَزْوَرِ) التي وصفت النساء بالشجاعة والإقدام محرصة إياهن على القتال: "صَدَقْتَ، وَ وَاللهِ يَا بِنْتَ الأَزْوَرِ نَحْنُ فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا دَكَّرْتَ، وَفِي البَّرَاعَةِ كَمَا وَصَفْتَ، لِنَّا المَشَاهِدُ العِظَامِ، وَالمَوَاقِفُ الحِسَامِ، وَ وَاللهِ لَقَدْ اعتَدْنَا رُكُوبَ الخَيْلِ، وَهُجُومَ اللَّيْلِ، غَيْرَ أَنَّ السَّيْفَ يَحْسُنُ فِعْلُهُ فِي مِثْلِ هَذَا الوَقْتِ، وَإِنَّمَا دَهَمْنَا العَدُوَّ عَلَى حِينِ عَفْلَةٍ وَمَا نَحْنُ إِلَّا كَالغَمِّ".^{٧٤٤}

في هذا الخطاب أربع سجعات، تتفق كل اثنتين منها، في جرسها وموسيقاها، الأوليان منها على وزن (فِعال: العِظَامِ، الحِسَامِ)، بينما الأخريان على وزن (فَعْل: الخَيْلِ، اللَّيْلِ).

تعدّ هذه الأسجاع من الفقار القصيرة، المكونة من كلمتين، وهي من أجودها كما أشير سابقاً، خاصة إذا منحت هذا الالتفات الموسيقي في بنية الخطاب، وتأتي متخلقة في بنية خبر إنكاري، مجلّل بالقسم مرتين، ومع هذا الإيقاع الموسيقي يكون تعزيز الدلالة أوقع وأقوى لهذا الخطاب، وهي دلالة التحريض على المشاركة في التخلص من الأسر والثورة ضد الأسيرين...!!

يزيد من قوة هذه اللفتة الموسيقية، تكوين التركيب السجعي ككل، فالسجعة الأولى: (لِنَّا المَشَاهِدُ العِظَامِ، وَالمَوَاقِفُ الحِسَامِ، ..)، المتكئة على ركيزة التقديم والتأخير، تأتي بمقطعيها في توازن تام، بل تماثل دقيق في البنيتين الصرفية و النحوية: (مَفَاعِلُ، فِعالٍ / مَفَاعِلُ فِعالٍ)، وأن تين الصيغتين هما من صيغ جموع التكسير للكثرة، لتعطي بذلك زحماً دلاليّاً يحقق قوة إقناعية إنجازية للخطاب على أرض الواقع...، حيث اعتياد المجافة والمغامرة والقتال، وحيث الإنجازات الكثيرة العظيمة الثابتة، مما يعطي ثقة أكبر لجماعة المخاطبات...!!

أما بالنسبة لأصوات تين السجعتين، فهما سجعتان منتهيتان بالميم، التي هي للجمع والتضام، بفعل ضم الشفتين، خاصة وقد وقعت في آخر الكلمتين الدالتين على معنى الكثرة والعظم والضمامة،

^{٧٤٣} - السابق: ص: ٩٠.

^{٧٤٤} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤٧.

وهذا كما يقول حسن عباس " ..مما يدل على معاني الشدة والغلظة والضخامة.. " ٧٤٥

أما السجعتان التاليتان (رُكُوبَ الْخَيْلٍ، وَهُجُومَ اللَّيْلِ)، فكأنما هما تفسير ترانبي للسجعتين اللتين قبلهما، وتوضيح لهما، فـ"المشاهدُ العظامُ، والمواقفُ الحسامُ"، هما على ما يبدو: "رُكُوبَ الْخَيْلٍ، وَهُجُومَ اللَّيْلِ".

وكالسجعة الأولى، نجد أن هذا التوازن الدقيق في البنيتين الصرفية والنحوية يدعم التعبئة الموسيقية لهذا الخطاب، فالسجعتان متساويتان معنى ومبنى، فكلتاها على وزن (فَعْلٍ) معتلة العين، وقعتا متطرفتين في تركيب إضافي (مضاف إليه)، أضف إلى ذلك جرس وزن (فُعُولٌ: رُكُوبٌ، هُجُومٌ) المنصوبتين على المفعولية، واللتين تعطيان الفعل مداه التأثيري الإقناعي عند المخاطبات، بقدرة المتكلم على الفعل، الذي يتسم بالفخامة والقوة والعظم!..

وبالنسبة للأصوات التي تتألف منها تان السجعتان (الْخَيْلُ، اللَّيْلُ)، فالسجعة الأولى مفتوحة بـ(الخاء) الدالة على الحركة والاضطراب والاهتزاز المتناسب مع حركة الخيل واندفاعها، والثانية بـ(اللام) المشددة التي تشكل فقرة صوتية للأمام، بما يشبه القفز قسرا إلى بهيمية الليل، وما يعطي ذلك من قيم الجسارة والشجاعة!..!!

هذا التأثير الموسيقي يتراكم دلاليا بتأثير (الواو) المتوسطة في الكلمتين السابقتين (رُكُوبٌ، هُجُومٌ)، والذي يعطي القوة والاندفاع للأمام، ثم يأتي دور حرف العلة الآخر الذي يتوسط السجعتين: (الْخَيْلُ، اللَّيْلُ)، (الياء)، الدالّ على التقعر والتغور، ليعطي معنى العمق لهذا الاندفاع والاقترام، منتهيها بحرف (اللام) التي تلتصق في سقف الحلق دونماذبذبة واحدة، لتعطي معنى الثبات والالصوق لهذا الاقترام والاندفاع والشجاعة والإقدام، معززة بقوة وشيوع المصدرين السابقين الفاعلين: (رُكُوبٌ، هُجُومٌ)، لتكتمل دورة الإيقاع الموسيقي لهذه الجمل السجعية، وتستنقر عند اللام الثابتة، لتثبت معها هذه الدلالات المقترحة في الخطاب!..!!

وفي وصية (الْخُنَسَاءِ) لبنيها في القادسية، وهي ترسم لهم خطتها الهجومية في المعركة، وهي هجومية فحسب، مفترضة تفوقا من بنيتها يجعلهم في موقع القوة، أو هكذا يجب أن يكونوا: " .. فَأِذَا أَصْبَحْتُمْ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَالِمِينَ، فَأَعْدُوا إِلَيَّ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ مُسْتَبْصِرِينَ، وَبِاللَّهِ عَلَى أَعْدَائِهِ

مُسْتَنْصِرِينَ، فَاِذَا رَأَيْتُمْ الْحَرْبَ قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا، وَاضْطَرَمَّت لَطَىٰ عَلَىٰ سِيَاقِهَا، وَجَلَّاتِ نَارًا عَلَىٰ
أُورَاقِهَا، فَتَيْمَّمُوا وَطَيْسَهَا، وَجَالِدُوا رَئِيسَهَا، عِنْدَ احْتِدَامِ حَمِيسَهَا، تَنْظَفِرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُدِّ
وَالْمُقَامَةِ" ٧٤٦

السجعتان الأوليان سجعتان صفيريتان انتشاريتان (مُسْتَنْصِرِينَ، مُسْتَنْصِرِينَ)، بفعل صوتي (السين،
والصاد) ، يعطيها هذا الأثر (الميم) المضمومة في بداية الكلمة التي هي للجمع والتضام ، كما أشرنا
سابقا، لتأتي السين الساكنة بما يشبه الجز على الأسنان بما يطيل أمدها الصفيري...!!

وهما سجعتان متساويتان في عدد الحروف، لا يفرق بينهما سوى صوت واحد في كلِّ: (الباء،
النون)، وكناتهما مشتقتان على زنة اسم الفاعل من غير الثلاثي، ومنصوبتان على الحالية، بـ(ياء)
هي علامة جمع المذكر السالم، لكن لهذه (الياء) دورها في دلالة هذا السياق الموسيقي من حيث بُعد
التفعر والعمق، وهما مزيدتان أيضا بحرف (السين)، الذي أعطى للكلمتين معنى العمق والاستقرار، وزاد
من معطياتهما الدلالية، فكلما زاد المبنى زاد المعنى، فـ(الاستبصار والاستنصار)، يفتحان أفق الاستجلاب
من أقصى مدى المعنى، وهو أفق مهم في تبلور الدلالة في هذا السياق، حيث هي تشدذ همهم،
والشدذ معنوي ومادي، بعين البصر، وبعين البصيرة أيضا، ولذا قدمت الاستبصار على الاستنصار،
إنَّ تفتح البصيرة والوعي هو الذي يغير السلوك إيجابيا في هذا السياق، ويدفع للعمل باتجاه المشاركة
الفاعلة في المعركة...!!

ويحمل ذان الاسمان أيضا دلالة الفاعلية والتَّحَاث على الفعل في الوقت نفسه، مما يحوله إلى
عمل جمعيّ، وهذا مهم في سياق تلك اللحظة...!!

و(النون) في كلمة (مُسْتَنْصِرِينَ) هنا تحقق دلالة "الانبثاق" ٧٤٧، وهذا ما يوحيه صوت (الباء)
أيضا في كلمة (مُسْتَنْصِرِينَ) ، وتتفق الكلمتان بعد ذلك في باقي حروفهما الأخيرة...!!

وكان الكلمتين تنقسمان صوتيا ودلاليا مع ذين الحرفين.. لتشرق بعدها (الصاد) بموسيقاها

٧٤٦- الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧، أسد الغابة، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-٢٨٨-
٢٨٩. الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي: ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦، الفاضل في صفة الأدب الكامل، للشوابع: ص: ٢٢٠-٢٢١، وانفرد
ابن الجوزي في " صفة الصفة ٣٨٥/٤" بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزنة الأدب، للبغدادي: ١/ ٤٣٤.
٧٤٧- خصائص الحروف العربية. حسن عباس. ص ١٦٨.

المؤثرة، المعيرة عن الصلابة والشدة والقوة..^{٧٤٨}، لتنتهي السجعتان بهذه النون الساكنة كاستراحة بعد ضجيج وصفير وانبثاق وتغور..!

وتكون هاتان السجعتان ملائمتين ومعبرتين عن معاني الاستنهاض و الاستحثاث والانبثاق و الاندفاع نحو الهدف المنشود، و (الخنساء) بهذا الصفير تريد الوصول سريعا لهدفها من هذا الخطاب وتوصل رسالتها المرجوة منه..!!

أما وقد مهدت (الخنساء) بتلك السجعتين و قرعت جرس الإنذار صفيرا وانبثاقا، تنتقل بالمتلقي إلى بؤرة المعركة، وتثير صخبا موسيقيا بجملة من السجعات المتوازات مبنى ومعنى، والواقعة جميعها جواب لشرط ظرفي زمني.. في قولها: " فَتَيْمَّمُوا وَطَيْسَهَا، وَجَالِدُوا رَيْسَهَا، عِنْدَ احْتِدَامِ خَمَيْسَهَا ، تَظْفَرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُلْدِ وَالْمُقَامَةِ "^{٧٤٩}

فالحروف التي بدأت بها هذه السجعات على الترتيب: (وطيس، رئيس، خميس)، فالراء و الخاء للحركة والاضطراب والاهتزاز، والياء للعمق في الدلالة التي تحملها هذه الأسماء، أما هذا السين التي تنتهي بها هذه السجعات فمع صفيريتها فيها إحساس الانزلاق والامتداد.. و الشدة والفاعلية المادية و المعنوية^{٧٥٠}، قد أضافت إليها الياء هذا المد في خصيصتها الصوتية هذه، وتنتهي ب(هاء) تفيد معنى الاضطراب والحركة أيضا، لتنتقل كل هذه الجمهرة الصوتية مندفعة مع نهاية مفتوحة بحرف اللين (الألف)..!!

ويلاحظ سيطرة كاملة وتامة لأصوات الحروف الاهتزازية الحركية على سجعات هذا المقطع، فهو تعبير موسيقي عن دلالة الحركة والفاعلية والالتحام في الحرب..!

يغلب على أصوات هذا النوع من السجع الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، ما عدا ما لوحظ في خطاب الخنساء..!

^{٧٤٨} - انظر: خصائص الحروف العربية. حسن عباس. ص ١٥٣.

^{٧٤٩} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧. أسد الغاية، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-٢٨٨-

٢٨٩. الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي: ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦، الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص ٢٢٠-٢٢١، وانفرد

ابن الجوزي في " صفة الصفوة ٤/ ٣٨٥" بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزنة الأدب، للبغدادي: ١/ ٤٣٤.

^{٧٥٠} - خصائص الحروف العربية، حسن عباس: ص: ١١٢.

السَّجْعُ الْمُطْرَفُ:

وهو ما اتفقت السجعات فيه في نوع الحروف وليس في عددها أو وزنها. نمثل له بخطاب (خَوْلَةَ بِنْتِ الْأَزْوَِر) لخالد بن الوليد معذرة إليه عن مشاركتها في القتال دون إذنه، ومتجاوزة بمشاركتها المباشرة في القتال دونما عذر المسوغ الشرعي، تقول: "وَأِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ أَنِّي مُحَرَّقَةٌ الْكَيْدِ ، زَائِدَةٌ الْكَمَدِ...!!^{٧٥١}

فتان السجعتان لا تتفقان في وزنهما ، فالأولى على وزن (فَعَل: الْكَيْدِ) بكسر العين، بينما الأخيرة على وزن (فَعَل: الْكَمَدِ) بفتح العين، رغم اتفاق في عدد الحروف، وفي الإيقاع الداليّ لتين السجعتين..! إن هذا النوع من الاتفاق في بعض الجوانب والاختلاف في جوانب أخرى، هو الموقف البيني عينه الذي فيه (خولة) وخالد...، ليكون هذا الانزياح الموسيقي انزياحا دلاليًا أيضا..!!

أما حرف (الكاف) الذي بدأت به تان السجعتان، فهو صوت شديد مهموس. يميل إلى الانفجار القليل^{٧٥٢}، و هو هنا قد أوحى بالاحتكاك والحرارة^{٧٥٣}، نظرا للسياق اللغوي المصاحب، (خَوْلَةَ) تعبر عن لوعتها وحزنها تعبيراً تصويرياً "مُحَرَّقَةٌ الْكَيْدِ" تصويراً يفتح أفق الدلالة على مصراعيه لتخيل نيران الحزن ومرارة القلق واضطراب النفس، كل هذا هو الذي دفعها لتخترق المألوف، وتتجاوز المعروف، نظرا لما يعتمل في روحها من نيران الفراق وقلق على مصير هذا الأخ..!!

وقد لا تعني (الْكَيْدِ) العضو المعروف عينا، بل هو اسم قد يطلق على الجوف كله، أما (الْكَمَدُ) فهو أشدُّ الحزن المكتوم^{٧٥٤}، إن هذه الحرائق، وهذا الحزن إنما يستعران في داخلها، ولا يعلم مقدارهما أحد، لذا فهي تدفع بهذه الحجة عن كل ما بُني عليها من تصرفات قتالية ميدانية..!!

وبذا يكون صوت (الكاف) الشديد الاحتكاكي الانفجاري، متعاضدا مع صوت (الدا) الشديد المتصرح، وإن خفَّتْ خاصيته هذه، نظرا لموقعه مع (الباء) الانبثاقية، و(الميم) المنفتحة، قد شكلت جميعا جوقة

^{٧٥١} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤١ .

^{٧٥٢} - انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ص: ٧٣، علم اللغة العام (الأصوات)، كمال محمد بشر: ص: ١٢٥ .

^{٧٥٣} - انظر: خصائص الحروف العربية، حسن عباس: ص: ٧٢ .

^{٧٥٤} - انظر: اللسان: (كيد، كمد).

موسيقية تنشد إيقاع الحرائق المستعرة والانفجارات المحتملة في روح هذه الأخت، وحرّكتها لوعة مضطربة في ساحة المعركة!!..

ومن هذا النمط ما جاء في خطاب (الْخَنَسَاءِ) تبشر بنبيها بحسن عاقبة الجهاد في سبيل الله، تقول : "..تَظْفَرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُلْدِ وَالْمُقَامَةِ.." ^{٧٥٥}

ومع الكاف الاحتكاكية والراء التي هي للحركة، والقاف الشديدة، والميم التي للتوسع والانفراج، وهو ما يناسب للخلاص والانتهاه من الحرب، فإن هذه الحروف قد خفتت موسيقاها بفضل مجيئها مفتوحة، مما يخفف من حدها..، ومع ذلك فقد انتقلت (الْخَنَسَاءِ) بتين السجعتين إلى منحى موسيقي آخر ينحرف بالدلالة نحو السكينة و الهدوء بعد ذلك الاضطراب الحركي والصوتي الصفيري المستشري في السجعات قبلها، لتكون مرسة هذا الخطاب ومرفاه مع تين السجعتين، "تَظْفَرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُلْدِ وَالْمُقَامَةِ"

يعين على انسجام السجعتين الصوتي، ويرفع من فاعلية الإيقاع، هذا التوازن بين صدري السجعتين (الْغَنَمِ، الْخُلْدِ)، فهما على وزن (فُعَلْ)، غير أن عَجْزهما، يختلف في الوزن (فُعَالَةٌ / فُعَالَةٌ)، لكنه يتفق في الحرفين الأخيرين مما يوحدتهما من هذه الناحية، ويحقق نوعا من الموسقة اللافتة لنهاية هذا الخطاب!!..

السَّحْحُ الْمُتَوَالِنُ:

وهو ما اتفقت السجعات فيه في عدد الحروف ووزنها واختلفت في الروي.

يُنْتَقِطُ ذَلِكَ فِي خُطَابِ (أُمُّ رِغْلَةَ الْقَشِيرِيَّةِ) "...، إِنَّا ذَوَاتُ الْخُدُورِ، وَمَحَلُّ أُرْرِ الْبُعُولِ،" ^{٧٥٦}، فبين الفاصلتين اتفاق في الوزن فهما على وزن (فُعُول) وهو من أوزان جموع الكثرة، وبذا يكون هناك اتفاق في عدد الحروف أيضا، مع اختلاف في حركة الروي، فالأولى (رائية)، أما الثانية فد (لامية)، على

^{٧٥٥} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤ / ١٨٢٧، أسد الغابة، لابن الأثير: ٧ / ٨٩ - ٩٠ - ٩١، الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩، الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي: ١٠ / ٣٨٨ - ٣٩٦، الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص: ٢٢٠ - ٢٢١، وانفرد ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤ / ٣٨٥ " بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزانة الأدب، للبغدادي: ١ / ٤٣٤ .

^{٧٥٦} - أسد الغابة، لابن الأثير: ٦ / ٣٣١، الإصابة، لابن حجر: تح/علي محمد الجاوي: ١٢٤١٢ هـ. ٨ / ٢٠٤، الخدور: جمع خدر، وهو الستر يعد للمرأة في ناحية من البيت البعول: جمع بعول: الزوج، والأزر جمع إزار، وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن يذكر ويؤنث. انظر: اللسان: (خدر، بعول، أزر).

ما بين الصوتين من تناقض في خصائصهما، فبينما (الراء) للاضطراب والحركة والتكرار الذي يتناسب مع حركة الخدر، نجد دلالة اللصوق في اللام، والاندفاع للأمام مع الواو، هذا اللصوق ملائم لعلاقة المرأة بزوجها، لصوق مادي و معنوي، ولكن كل من دين الصوتين كان تعبيراً مناسباً للدلالة المنوطة به في هذا السياق، وبذا يكون هذا الإيقاع المنزاح موسيقياً على سطح هذا الخطاب، قد ساعد على التعبير عن بنيته العميقة، وهذه اللحمة التقابلية بين خفة الستور وحركتها، وبين ثبات العلاقة الزوجية وديمومتها...!!

وهذه (أُمُّ وَرَقَةَ بِنْتُ نَوْفَلِ الْأَنْصَارِيَّةِ)، قالت لرسول الله ﷺ تستأذنه: " يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَدْنَيْتَ لِي فَعَزَّوْتُ مَعَكُمْ، فَمَرَّضْتُ مَرِيضَكُمْ، وَدَاوَيْتُ جَرِيحَكُمْ، فَلَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ." ٧٥٧

يُلاحظ في هذا الخطاب العفوي انحراف أسلوبه في البنية الموسيقية، نحو السجع بين الجملتين (فَمَرَّضْتُ مَرِيضَكُمْ، وَدَاوَيْتُ جَرِيحَكُمْ)، على أن السجعتين مختلفتا الرّوي (مريض، جريح)، ولكن اتفاهما في الوزن، قد عزز من إيقاعهما الموسيقي في نسيج هذا السياق، خاصة مع نهايتهما

المتماثلة بالضمير المتصل لجماعة الذكور المخاطبين...!

ومن الناحية الصرفية، فهما على وزن (فَعِيلٍ)، مع اختلاف في المعنى، ف(مريض)، (فَعِيلٍ) بمعنى (فَاعِلٍ)، بينما (جريح)، في (فَعِيلٍ) بمعنى (مَفْعُولٍ)، أي: مجروح. أما نحوياً فهما منصوبان على المفعول، وإذن فالبنية النحوية والصرفية تعززان معاً المنحى الموسيقي حتى لا يُفطن إلى أن السجعتين غير متماثلتين في الرّوي...!!

و(الضاد) التي تنتهي بها السجعة الأولى، هي: صوت شديد مجهور انفجاري، من حروف الإطباق ٧٥٨، تعطي إحساساً بالامتلاء والضعف أيضاً ٧٥٩، مما يدل على حال المرض هنا...!

أما صوت (الحاء) في (جريح) :فصوت مهموس رخو ٧٦٠، وهو حلقي شعوري، يحدث صوته باندفاع النفس بشيء من الشدة مع تضيقٍ قليل مرافق في مخرجه الحلقي، فيحتك النفس بأنسجة

٧٥٧ - الإصابة، لابن حجر: ٤/٤٨١.

٧٥٨ - انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص: ٤٧، علم اللغة العام (الأصوات)، كمال محمد بشر: ص ١٠٤ وما بعدها.

٧٥٩ - خصائص الحروف العربية، حسن عباس: ص: ١٥٩.

٧٦٠ - انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ص: ٧٧، علم اللغة العام (الأصوات)، كمال محمد بشر: ص: ١٢١.

الحلق الرقيقة، ويحدث صوتٌ هو أشبه ما يكون بالحفيف.^{٧١١} وهو أنسب ما يكون في هذه الكلمة لمعاني الشدة والفعالية والقطع،^{٧١٢} خاصة وقد تضامن صوتيا مع صوت (الجيم)، الانفجاري المجهور^{٧١٣}، الاحتكاكي^{٧١٤} معززا بصوت (الراء) اللثوي الذي من خصائصه التكرار والترديد بما يناسب سياق التوجع، والارتجاج من الحمى التي قد يعاني منها الجريح، لتكون أصوات هذه السجعة، مميزة في سياقها الدال على التوجع والارتجاج والشكوى منتهيا بهذا الفحيح اللافح و الحرارة التي يشتمل عليها هذا المتألم المكلوم!!..

وقد لعب صوتا(الراء و الياء) دورا موسيقيا معبرا في سياق السجعتين، على عدّ أن تماثلهما و تكرارهما هو تأكيد لدالتي الضعف والارتعاش مع (الراء)،و(الياء) اللتين تعمقان هذه الدلالة أيضا تغورا!!..

أما الحروف الانفجارية - الأصلية - في تين السجعتين فجعلت السياق محموما وعلى وشك الانفجار، ولذا فهم بحاجة لمساعدة هذه المرأة للسيطرة على هذه الأوضاع والوصول بها إلى بر الأمان!!..

وعلى الرغم من أن (الكاف)مضافة هنا فإن لصوتها الاحتكاكي الانفجاري تأثيره، خاصة مع تكرارها، وميم الجمع التي أعطت شعور التضام بانطباق الشفتين بها، بل هي تترك اهتزازا تبليغيا ناعما مع هذا الإطباق!!..

ومثل ذلك ما نجده في سياق بحث هذه المرأة عن مساواة الأجر مع الرجال خاصة في الجهاد، حيث خطاب (أَسْمَاءُ بِنْتُ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ): " حَفَظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ، وَعَزَّلْنَا لَكُمْ أَثْوَابَكُمْ، وَرَبَّيْنَا لَكُمْ أَوْلَادَكُمْ؛ فَمَا نُشَارِكُكُمْ فِي هَذَا الْخَيْرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ...؟! ".^{٧١٥}

فمن الملاحظ هذا الإيقاع الموسيقي اللافت، الذي مصدره اتفاق السجعات على (وزن أفعال)،

^{٧١١} - انظر: خصائص الحروف العربية، حسن عباس: ص: ١٨٣.

^{٧١٢} - نفسه: ص: ١٨٩.

^{٧١٣} - انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ص: ٦٩.

^{٧١٤} - انظر: علم اللغة العام (الأصوات)، كمال محمد بشر: ص: ١٢٦.

^{٧١٥} - مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١ / ٥٢٥، انظر: الإصابة، لابن حجر: ٢٣٣/٤. الاستيعاب (المطبوع بهامش الإصابة) (٢٣٣ / ٤ .

مع بنية نحوية مماثلة، وهي النصب على المفعولية، يزيد من قوة هذا الإيقاع الضمير المتصل (كُم) في نهاية كل سجعة، فلا يكاد السامع يلتفت إلا متأخراً إلى عدم تماثل الحرف الأخير في هذه السجعات!!.. وكان لهذا الاتفاق من جهة، وعدم الاتفاق من جهة أخرى علاقة بالمضمون الجدلي للخطاب، ويأتي تعبيراً موسيقياً عن حال الخوف والرجاء، بين الأخذ والرد لأطروحة هذا الخطاب!!..

ومثل هذه الجدلية من زاوية أخرى، نجد هذا الصراع الذي ينازع نفس (أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ) غضبا ورفضاً لأطروحة تفترض أفضلية المهاجرين مع النبي ﷺ على المهاجرين إلى الحبشة، فازدواجية هذا الطرح وتذبذبه، تمثلاً موسيقياً بهذه السجعات غير المتفقة على الصعيد الصوتي وإن اتفقت في وزنها الصرفي (فَاعِلٍ): ..كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْعَمُ جَائِعَكُمْ ، وَيَعْطَى جَاهِلَكُمْ^{٧٦٦}

ومن ذلك ما نلاحظه في خطابين لـ (خَوْلَةَ بِنْتِ الْأَزْوَري)، الأول بعد معرفتها بأسر أخيها، فتذهب للبحث عنه مع خالد بن الوليد، فصارت تقول: " يَا ابْنَ أُمِّي لَيْتَ شِعْرِي فِي أَيِّ الْبَيْدَاءِ طَرَحُوكَ..؟ أم بَأَيِّ سِنَانٍ طَعَنُوكَ..؟؟ أم بِالْحُسَامِ قَتَلُوكَ...؟؟!!^{٧٦٧}

والثاني في معركة اليرموك وقد أراد (أخوها ضرار) مواجهة العدو، وقد امتلأت خوفاً عليه، فبكت وقالت له: "يا أخي افعل ما تريد أن تفعل والحقّ عدوك وأنت موقن بالله تبارك وتعالى فإنه لكم ناصرٌ وأنّ عدوك لا يقربُ إليك أجلاً بعيداً، ولا يبعدُ عنك أجلاً قريباً، فإن حدثَ عليك حدثٌ أو لحقك من عدوك نائبةٌ فوالله العظيم شأنه لا هدأت خولة على الأرض أو تأخذ بئارك.^{٧٦٨}

ومن ذلك النمط خطاب (عَفْرَةُ بِنْتُ عِفَارِ الْحَمِيرِيَّةِ) ترد على خطاب (خَوْلَةَ بِنْتِ الْأَزْوَري)، التي وصفت النساء بالشجاعة والإقدام محرصة إياهن على القتال: " صَدَقْتِ، وَوَاللهِ يَا بِنْتَ الْأَزْوَري نَحْنُ فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا ذَكَرْتِ، وَفِي الْبِرَاعَةِ كَمَا وَصَفْتِ،...."^{٧٦٩}

أول ما يلاحظ في هذا الباب ندرة السجع في خطاب المرأة النثري في صدر الإسلام عنه في خطابها الحربي في العصر الجاهلي ، وأن أغلب هذا السجع النادر هو في عصر الفتوحات الإسلامية وليس

^{٧٦٦} - زاد المعاد في هدي خير العباد: ٣ / ٣٣٢، البداية والنهاية. لابن كثير: ٤ / ٢٠٥.

^{٧٦٧} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤٢.

^{٧٦٨} - نفسه: ١ / ١٦٢.

^{٧٦٩} - نفسه: ١ / ٤٧.

في عصر النبوة الأول، مما يشكل انزياحا أسلوبيا يعود إلى إيقاع العصر الجاهلي، غير أننا نلمس فيه تصنعا إلى حدّ ما، وهو يختلف في جمالياته وقوة إيقاعه وتنوع سياقاته، عن العصر الجاهلي الذي يفوقه في ذلك كله.

وفي إطار العصر نفسه، عصر صدر الإسلام، يلحظ تفاوت في أنواع السجع، فأشحّه هو السجع المطرّف، وأكثره المتوازن ، وبينهما المتوازي.

المَبْنَعَةُ الثَّلَاثُ :

الطُّبَاقُ وَالْمُقَابَلَةُ

أولاً: الطُّبَاقُ

فِي (العصر الجاهلي)

مدخل

للطباق والمقابلة في معاجم اللغة معانٍ مختلفة عن تلك التي في أكناف كتب البلاغة.. وفي معجم لسان العرب، نجد في معنى المطابقة ما يأتي: طَبِقَ كلُّ شيءٍ ما ساواه، وتَطَابَقَ الشَّيْئَانِ: تساوَيَا، والمُطَابَقَةُ المُوَافَقَةُ، والتَّطَابُقُ: الاتِّفَاقُ، وطَابَقْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِذَا جَعَلْتُهُمَا عَلَى حَدِّ وَاحِدٍ وَأَلزَمْتُهُمَا.^{٧٧٠} أما في كتب البلاغة، فإن حدَّ المصطلح كان مشوشاً ومربكاً في بداياته، شأنه في ذلك شأن معظم المصطلحات فهما وتسمية.. ومختلطا بمفهوم الجنس تارة والمجاز تارة أخرى^{٧٧١}، ثم كان من مسمياته التضاد والتكافؤ، والطباق والمطابقة والمقاسمة..^{٧٧٢}!!

ومع ذلك فالطباق عند مجملهم هو أن تجمع بين الشيء وضده في الكلام، كأن يأتي الجمع بين السماء والأرض، الليل والنهار، الكفر والإيمان... إلخ، نقرأ هذا عند كثير من البلاغيين!..^{٧٧٣} وفي كتاب البديع لابن المعتز يسميه (المطابقة)، وهو يعتمد على مقولة الأصمعي (١٧٥هـ) يقول: "قال الخليل - رحمه الله - يقال طابقت بين الشئيين إذا جمعتهما على حدو واحد.."^{٧٧٤}، ويذكر مثل ذلك الحموي في خزنة الأدب.^{٧٧٥}

وهناك من يرى بأن التطبيق معنوي في استحضر المعنى وضده، ولا قيمة في ذلك للألفاظ^{٧٧٦}، ويدخله السكاكي أيضا في المحسنات المعنوية يقول: "أما المعنوي فمنه المطابقة، وتسمى الطباق،

^{٧٧٠} - انظر: اللسان: (طبق).

^{٧٧١} - انظر: العدة: لابن رشيق: ٥/٢ وما بعدها. كتاب الصناعيتين: للعسكري: ص: ٣٠٧.

^{٧٧٢} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب: ٢/٢٥٢. وعن تخليطه بمفهوم الجنس، انظر مثلا: خزنة الأدب: للحموي: ص: ٦٩-٧٠. وسماء قدامة (التكافؤ) في كتابه: نقد الشعر. أبو الفرج قدامة بن جعفر: ص: ١٤٧-١٤٨.

^{٧٧٣} - انظر: العدة: لابن رشيق: ٥/٢، كتاب الصناعيتين، للعسكري: ص: ٣٠٧. المفتاح: للسكاكي: ص: ٥٣٣. خزنة الأدب:

للحموي: ص: ٦٩. سر الفصاحة: لابن سنان: ص: ١٩١. المثل السائر: لابن الأثير: ٣/١٤٤.

^{٧٧٤} - البديع لابن المعتز: ص: ٣٦.

^{٧٧٥} - خزنة الأدب: ص: ٦٩.

^{٧٧٦} - انظر: أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ص: ٢٠.

والتضاد أيضا، وهي الجمع بين المتضادين، أي متقابلين في الجملة^{٧٧٧}، ويشير إلى أن ذلك يكون بين لفظتين "اسمين أو فعلين، أو حرفين".^{٧٧٨}

أنواعُ الطَّباقِ: ^{٧٧٩}

يقف البحث عند القسمين الرئيسيين للطباق: طباق الإيجاب وطباق السلب.

أولاً: طباقُ الإيجاب :

طباق الإيجاب: وهو أن يجمع بين الشيء وضده.^{٧٨٠} وهو الذي يكون بذكر المعنيين المتضادين في لفظتين موجبتين مثبتتين أي غير منفيتين.

ومن نماذجه في خطاب المرأة النثري في سياق الحرب، ما كان بين اسمين، وهذه (فَاطِمَةُ بِنْتُ الخُرَشُبِ) في حرب داحس والغبراء، وقد أسرت أو خطف، فتوجه خطاب مواجهة ومساءلة يجول بين فضاءي النصح والتلويح بالوعيد لآسرها تقول: "مَا تُرِيدُ يَا قَيْسُ..؟ أَيْنَ عَزَبٌ ^{٧٨١} عَقْلُكَ...؟ أَتَرَى بَنِي زِيَادٍ مُصَالِحِيكَ وَقَدْ ذَهَبَ بِأَمِّهِمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ النَّاسُ مَا شَاءُوا..؟! " ^{٧٨٢}

ويأتي هذا الطباق تحت مظلة الاستفهام، بأداتين هما: (أين، الهمزة)، الهمزة للتصور، أما الأولى للاستفهام عن المكان، وإن كان مجازيا؛ لأن العقل ليس شيئا محسوسا، ولكن هناك تواز بينها وبين بنية الطباق التي أتت للإشارة للمكان ممثلا في الاتجاهين (يمينا / شمالا)، أي في كل مكان وكيفما كان، لتأتي هذه البنية الطباقية متوازية مع بنية بعدها في المعنى، الذي يتجه نحو: (التطويح والتهويم

وعدم الثبات) وهو قولها "فَقَالَ النَّاسُ مَا شَاءُوا..؟!".

^{٧٧٧} - الإيضاح، للقرظيني: ص: ٢٨٨.

^{٧٧٨} - انظر: نفسه : ص: ٢٨٨-٢٨٩.

^{٧٧٩} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب: ٦٨/٣ و ٢٥٦/٢. وما بعدها. الإيضاح، للقرظيني: ص: ٢٩٠-

٢٩١. البلاغة العربية في ثوبها الجديد: بكرى شيخ أمين: ٤٣/٣-٤٤

^{٧٨٠} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب: ٢٥٧/٢.

^{٧٨١} - عزب : ذهب. اللسان : (عَزَبَ).

^{٧٨٢} - أمثال العرب. المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي أبو العباس: ص: ٩٠، الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام: ص:

٧٢، جمهرة الأمثال، العسكري: ٣٤١/١-٣٤٤، ٢/٢٦٥، الأغاني، للأصفهاني: ١٧/١٨٣-١٩٨، إحسان عباس وآخرون،

الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٤٤٩، و أيضا : شعراء النصرانية قبل الإسلام: ص: ٩٢٦.

أما (سُعدَى بنتُ حُصَيْنِ الطَّائِيَّةُ) أمُّ أوس بن حارثة بن لأم الطائي، فتسعى لأن يستحق ابنها أن يسود قومه، وتعيّنه لئلا يضيع مآثر من قبله: " أرى أن تردَّ عليه ماله، وتعفو عنه، وتحبوه، وأفعل مثل ذلك فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه " ٧٨٣

إن هذا الطباق بين (المدح /الهجاء) هو طباق بين (الحضور /الغياب)، بين (الجمال /القبج)، بين (الحياة /الموت)، فالمهجو يموت بالهجاء وتسلب منه كل مكارمه، ويراق ماء وجهه في مجتمع تلعب الكلمة فيه دور الخصم والحكم، والمدح هو مقوم الحياة والخصب والنماء للممدوح، وذلك على كافة المستويات، النفسية والفكرية والاجتماعية، والأهم هو الامتداد التاريخي لحالتي المدح والهجاء ، اللذين يذلان قوما ويعزان آخرين، يصطنعان المجد أو يمحيانه...!!

إذن فقيمة الطباق هنا هي قيمة التجدد تقابل قيمة الامحاء والاندثار، هذا الانحراف الأسلوبي بالطباق جاء في نسيج خبر توكيدي في بنية القصر (لا/إلا)، أو نفي لإثبات، يزيد من عمقها هذا البعد الاستعاري في قولها (يغسل)..!! ومن ثم فهناك فلسفة السعي وراء الجمال والهروب من القبج، اصطناع المجد والانتفاض على الذل بكل وسيلة وبأي ثمن...!!

وهذه (رَوْحُ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ النَّمِيرِيِّ)؛ وقد أسلم الزوج وبقيت زوجته على الشرك، وقد أرغمها أهلها على مفارقتها وعدم الدخول في دينه، فطلقها فلما أرادت الرحيل أتى عليها فأجابته قائلة: " أَتْنَيْتَ بِحَسَبِكَ وَفَضْلِكَ وَأَنْتَ وَاللَّهِ إِنْ كُنْتَ لَدَائِمِ الْمَحَبَّةِ، كَثِيرِ الْفَقِيَّةِ، قَلِيلِ الْإِلْيَةِ، مُعْجِبِ الْخُلُوةِ، بَعِيدِ النَّبْوةِ ، وَ لِأَنَّ تَكُونَ أَيْمَتِي فِي حَيَاتِكَ ، أَهْوَنُ مِنْهَا عَلَيَّ لِمَمَاتِكَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي لَا أُرِيحُ إِلَى حُضْنِ زَوْجِ بَعْدَكَ. " ٧٨٤

هذا السياق سياق نوعي، حيث الحرب العقدية، تعكس ظلالها على العلاقات الاجتماعية، تهدم بيوتا، وتشرد أسرا، وتفرق محبين رغما عنهم، كحال هذا الزوج مع زوجته، فقد دخل الزوج في الإسلام ، بينما رفضت قبيلة الزوجة أن تدخل في هذا الدين الجديد، وأرغمتها على الفراق والطلاق، هذه الزوجة آثرت أن تفارقه لتحفظ عليه حياته، رغم حبها الشديد له، تنحو بخطابها نحو تأويليًا، هدفه التخفيف من وقع هذا الفراق على نفسها وعلى هذا الزوج، وتأتي في سبيل ذلك بكلمتين متطابقتين

٧٨٣- بلوغ الأرب، للنويري: ٨٣/١ - ٨٤، الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٤٦٩. خزنة الأدب، للبيгдаي: ٤/ ٤٤٤. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي: ص: ١١٨.

٧٨٤- بلاغات النساء: لابن طيفور: ص: ١٠١، الأغاني، للأصفهاني: ١٤/ ٥٥. إحسان عباس وآخرون.

هما بؤرة هذا التأويل، كاستراتيجية تضامنية مع هذا الزوج، الكلمتان هما قولها: (حَبَاتِكْ/ مَمَاتِكْ)، في سياق لغوي شرطي، يحاصر هذا الموت وتلك الحياة بشروطه الخاصة، تعاضد قوة الحياة وتدفع إليها بصيغة التفضيل (أَهُونُ)، التي تنزل بردا وسلاما على ذين القلبين المكومين بالفراق، فهي ترى أن فراقه وهو حيٌّ يرزق، أهون عليها من أن تفارقه ميتا، فهاتان الكلمتان المتطابقتان انفتحتا دلاليا على عوالم من الوجد المخفي ، يلفت إلى هذا الطباق أيضا وقوعه في مفصل موسيقي سجي يطفو على سطح هذا الخطاب..!!

ومن الطباق ما يكون بين فعلين، كهذا الخطاب المقتضب المباشر من (هند بنت عتبة) لوحشي: "إِيهِ أَبَا دَسْمَةَ، إِشْفِ وَ اشْتَفِ".^{٧٨٥}، وذان فعلا أمر، أحدهما موجه للمخاطب نفسه، أي اشف نفوسنا، واشف نفسك، في محاولة منها لإحداث توازن ما يحقق لها أهدافها، إن هذا التلميح من (هند) له دلالة خطيرة، (أنا/أنت)، تقابل (السيدة/ العبد)، هذا التناظر الواقعي تحاول نفيه نظريا في هذا الخطاب، أو معادلته بإحداث اصطفا من نوع معين، ومن طرف خفي تلمح إليه..!!

وبالتالي فإن بنية الطباق هنا التي تشكل حلقة مغلقة على الذات والآخر بشكل مطابق، إنما تتفجر من خلال سياق محفز للوصول إلى غاية فعلية على ساحة الواقع وهي الثأر والانتقام، بمحاولة خلق دافعية ذاتية لدى أداة القتل (وحشي) توازي ما لديها من رغبة متعطشة للانتقام، وجاءت هذه البنية أيضا في سياق لغوي تحفيزي، بنية إنشائية مفتوحة باسم فعل أمر أيضا، بمعنى (زدي)، وأسلوب إنشائي آخر هو النداء (أبا دسمة) كنية وحشي، وإذن تصبح هذه البيئة الإنشائية أرضية خصبة لتفجير دلالات التعزيز للثأر والانتقام، فتصبح هذه البيئة اللغوية مرآة موازية للبيئة النفسية المنتجة للخطاب..!!

هذه حكاية يرويها عمرو بن معديكرب، هو طرف فيها وشاهد عليها، عن (امرأة تسبي)، وفي الطريق يقتتل أبوها وأخوها ضد سابيها ويموت الثلاثة أمام عينيها ولأجلها، كلهم فارس لا يشق له غبار، وتوول إلى معديكرب، فتطلب أن يتركها، فيأبي، فتقول له: " .. فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَأَعْطِنِي سَيْفًا

^{٧٨٥} - السيرة النبوية لابن هشام: ٦٢ / ٣. والروض الأنف: للسهيلي: (وَيُهَا أَبَا دَسْمَةَ اشْفِ واسْتَشْفِ) ٣ / ٢٤٣. زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية: في فتح مكة. ٣ / ٣٥٦.

وَرُمَحًا، فَإِنْ غَلَبْتَنِي فَأَنَا لَكَ، وَإِنْ غَلَبْتُكَ قَتَلْتُكَ...!!^{٧٨٦}

إن هذه (المرأة) تعرض صفقة موازنة وعادلة، وتقف نداءً لمعديكرب، هذا التوازن العقلي والنفسي ، أفرز خطاباً لغويًا موازيا أيضا، تحمله بنية الشرط، وهذه الندية أظهرتها البنية المنتسجة في بنية الشرط، نعني الطباق بين الفعلين (غَلَبْتَنِي/ غَلَبْتُكَ)، وليس هذا مطلباً فجاً أو متعجباً أو متهوراً، بل هو طلب ينغرس في بيئة قبلية وبعديّة تتسم بالمنطقية والحجاجية المقنعة، أولاً هي تختبر صدقه بمطلبها، ولذلك فهي تشكك فيه بأسلوب شرط قبلي(فإن كنت صادقاً)، وجوابه: (فأعطني سيفاً ورمحاً..)، وفي هذا النسق الشرطي بنية طباق خفية بين الطرفين (متسلح/غير متسلح)، وأدوات المعركة هذه هي الضمان لصدقه، وهي تعرف ما يعنيه ذان السلاحان،(السيف/الرمح) فالسيف للالتحام المباشر والقريب، والرمح للطعن من المسافات البعيدة، وهذا يعني تمرسها في القتال، بل وأن لديها استراتيجية قتالية ما في عقلها، وهناك نسق مستمر في بنية الشرط تلعب (الفاء) دوراً حيويًا في ربط هذا النسيج ببعضه، فما يترتب على هذا الإمداد والتكافؤ في السلاح، هي نتيجة المعركة التي يقوم عليها هذا التضاد وهي عنصر الغلبة وماذا يكسب الغالب من المغلوب..؟؟ يفرزها لنا هذا النسق الشرطي المكوّن من فعلي الشرط المتقابلين: (فإن غَلَبْتَنِي/ وإن غَلَبْتُكَ) مع ربط فعلي الشرط بالعطف بالواو، وتأتي النهاية العادلة مع جواب الشرط(فأنا لك/ قتلتك)، وهنا تقابل لا يلمح للوهلة الأولى أيضاً، فامرأة في حجمها يموت أهلها في سبيل الدفاع عنها واستنقاذها ليس بالهين عليها أن تسلم نفسها مهزومة لهذا الرجل، فاستحوذها عليها إنما هو عليها أشد من القتل، وبالتالي فهو قتلها له مقابل قتلها إياه..(قتلي إياك/ قتلك لي) ..لتتحول المعركة إلى معركة وجود وعدم بالنسبة إليها..!! هو إيقاع تحدٍ ودفاع عن النفس حتى آخر نفس ، فهي لا تعطي إعطاء الدليل، وفي الوقت نفسه هناك دلالة أخرى في ثققتها بنفسها وقدراتها القتالية، وهي فلسفة حياة إذن تكمن خلف هذا الطباق الموجب..!!

ومن الطباق ما يكون بين حرفين، كقول (الْجَمَانَةُ بِنْتُ قَيْسٍ)، لجدتها حين اختلف مع أبيها على الدرع: " إِنْ كَانَ قَيْسُ أَبِي فَإِنَّكَ يَا رَبِيعُ جَدِّي، وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ حَقِّ الْأَبُوَّةِ عَلَيَّ إِلَّا كَالَّذِي يَجِبُ عَلَيْكَ مِنْ حَقِّ الْبُنُوَّةِ لِي."^{٧٨٧}،(علي/ لي)، إن هذا الطباق يأتي متغلغلاً في تركيب بنية التوازنات الدقيقة

^{٧٨٦} - نهاية الأرب: للنويري: ٢/ ١٩٣-١٩٤ .

^{٧٨٧} - نشر الدر: للآبي: ٤/ ٦٣-٦٤ .

والموقف الحرج الذي تفقه بين متناقضين هما (الأب/الجد)، من حيث وقوفهما على طرفي نقيض، في حرب مستعرة على الأبواب، وفي وسط هذا الوضع المتفجر تأتي بنية الطباق الحرفي (علي/لي) ضمن جملة من هذه التوازنات، التي تحاول خلقها لكي لا تخرج الأمور عن السيطرة، ومن ضمنها التوازن المحوري، ولذا هي تريد أن تعرف، ويعرف الآخرا (الجد/الأب)، حقيقة موقفها وموضعه بالتحديد...، إن عليها حقا لأبيها، ولها حق على جدها، ولا تريد أن يُخترم أحدهما، وكأنها تريد أن تكون رمانة الميزان...، ومن هنا تنبثق الرؤية الدلالية للطباق...!!

ثانياً: طباق السُّلب :

"وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي..^{٧٨٨}، ومن نماذجه ما وقع في حكاية ترويتها (ماوية) مَوْلَاةٌ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وهي حكاية أسر (خُبَيْبُ)، وقد سألتها حديداً ليصلح بها شأنه فبعثتها مع ابنها، ثم خشيت عليه من نعمة خبيب، فأسرت خلفه، فسمعت خبيب يمازح الفتى ، كيف أن أمه لم تخش عليه، وهي تسمع ، فقالت: " يَا خُبَيْبُ إِنَّمَا أَمْنُكَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَأَعْطَيْتُكَ بِإِلَهِكَ، وَلَمْ أُعْطِكَ لِتَقْتُلَ ابْنِي..".

وخرجوا به ليقتل على أعين الناس، فقالت تصف الجموع التي تتفرج " .إِمَّا مَوْثُورٌ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَشَافَى بِالنَّظَرِ مِنْ وَتَرِهِ وَإِمَّا غَيْرُ مَوْثُورٍ فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ " ^{٧٨٩}.

وقد جاءت في سياق سردها بفعلين أحدهما مثبت والآخر منفي، (وَأَعْطَيْتُكَ / لَمْ أُعْطِكَ)، ثم اسمين على الإيجاب و السلب أيضا (مَوْثُورٌ / غَيْرُ مَوْثُورٍ)، إن هذا الطباق بين الفعلين فيما يخص العطاء إنما هو انحياز لجهة القوة التي تمثلها من جهة ، فهي القيمة على شؤون هذا الأسير، وقد أحسنت إليه فهنا طباق بين (الضعف/ القوة)، وهي تذكره بهذا، وانحياز لجانب الثقة بالله، وثقة باحترامها لإلهه، خاصة بعدما رأت وسمعت من آي إعجاز سردتها في غير موضع، ولكنها كأم لا تملك إلا هذه اللهفة حتى مع الأمن، فكيف مع احتمال الخطر...، وهذا الإثبات والنفي إنما يصوران حالة التردد التي تعيشها في تلك اللحظة، ولكن خطابها هذا إنما تأتي بعد أن اطمأنت على ابنها، ففيه نوع من التقاط الأنفاس ومحاولة تصحيح الموقف...!!

^{٧٨٨} - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: احمد مطلوب: ٢٠٥٨/٢.

^{٧٨٩} - المغازي للواقدي: ٣٥٩/١. في غزوة الرجيع.

وفي الطباق الآخر، (مَوْتُورٌ / غَيْرُ مَوْتُورٍ)، وهو يحمل إشعارات دلالية عدة، من ناحية نجد في هذه البنية الطباقية، هذا التصنيف وهذه القراءة النافذة المعلّلة لتوجهات الناس وأهدافهم في مجتمع مشرك، ومحتقن بالثأر، ومعبأ بالنعمة من هذا الدين وممن قتل أحبّتهم، فالكل خرج ليتفرج، لكن دوافعهم مختلفة، وأهدافهم متباينة، ومن ناحية أخرى نفاجاً بهذه المحاولة التفسيرية لهذا التصنيف، فهي كراوية لا تكتفي بالسرد المحايد، بل تتغلغل لتكشف عن خبايا النفوس، وما يحركها، وما يتكشف عنها من تناقضات، فالموتور يخرج لـ " يَتَشَافَى بِالنَّظَرِ مِنْ وَثْرِهِ " ، وأما غير الموتور " فَهُوَ مُخَالَفٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ " ، وفي كل فرجة مجانية مبهجة لا يريد أحد من هؤلاء تفويتها...!! وفي الموضعين شكّل هذا الطباق بؤرتي تفجر على سطح النص وفي عمقه الدلالي أيضاً..!

وبعيدا عن تراكم الأمثلة بين يدي هذا النوع من الطباق يسوق البحث هذه القصة القصيرة التي ترويها هذه الزوجة الأسيرة لآسرها، وقد سألتها آسرها عما تظنه بزوجها الآن...؟؟ إنها (هَندُ بنتُ ظالمٍ)، قالت: "ظنني به والله أنه لن يدع طلبك حتى يطالع القصور الحمر، وكأنني أنظر إليه في فؤارس من بني شيبان يذمرهم ويذمرونه، وهو شديد الكلب، سريع الطلب، يزيد شدقاؤه كأنه بغير آكل مزار" ٧٩٠، فطمها لأنه ظن أنها تحب حجرا، فقالت: "والله ما أبغضت ذا نسمة قط بغضي له، ولا رأيت رجلا قط أحزم منه نائما ومستيقظا، إن كان لنتام عينه وبعض أعضائه حي لا ينام، وكان إذا أراد النوم أمرني أن أجعل عنده غسّا مملوعا لبنا، فيينا هو ذات ليلة نائم وأنا قريبة منه أنظر إليه إذ أقبل أسود سالح إلى رأسه، فنحى رأسه، فمال إلى يديه، وإحداهما مقبوضة، والأخرى ميسوطة، فأهوى إليها فقبضها، فمال إلى رجله وقد قبض واحدة، ويسط الأخرى، فأهوى إليها فقبضها، فمال إلى العس، شربه ثم مجة، فقلت: يستيقظ فيشرب فيموت، فأستريح منه، فانتبه من نومه، فقال: علي بالإناء، فناولته، فشمة فاضطربت يده، حتى سقط الإناء فأهريق.. " ٧٩١

نسوق هذه القصة القصيرة لنتلمس متانة التماسك النصي بالعوامل المختلفة، وحركية الطباق

٧٩٠- الأغاني، للأصفهاني: ٢٤٤/١٦. إحسان عباس وآخرون، العقد الفريد، لابن عبد ربه: ١٢٩/٦ و ٣٤٩/٣. الكامل

في التاريخ، لابن الأثير: ٣٩٦/١.

٧٩١- نفسه.

وإشعاعاته وتفجراته الدلالية فيه، هذا الطباقي المتشكل سلبيًا وإيجابيًا بين اسم وحرف وفعل، ونكاد نلحظ للوهلة الأولى تأثير هذا التوتر الأسلوبي على بنية النص ودلالته، على المستوى: الحركي، الزمني، المكاني، اللوني، الخلو والامتلاء ماديا ومعنويا...!!

وتتمثل بنية الطباقي في الأسماء: طباق إيجاب-اسم فاعل- (نائما/مستيقظا)، اسم مفعول: (مقبوضة/مبسوطة)، وفي الأفعال: طباق سلب، فعل مضارع(لتنام/لا ينام)، طباق إيجاب، فعل ماض: (قبض/بسط).

إن هذا القبض والبسط يشكلان إيقاعا حركيا، له دلالاته المعنوية في علاقتها المتوترة بهذا الزوج، بين مد وجزر، هو أيضا إيقاع ينسجم مع لحظة السكون المشحونة بالترقب النابض بمشاعر متناقضة من الخوف والأمل، والأسر والخلص، وبالتالي هي متوازية مع إيقاع نبض القلب الفعلي، فهي صورة حركية بصرية موازية لصورة إيقاعية سمعية متمثلة في نبض القلب...!!

وهذه الصورة موازية لصورة أخرى ممتدة على ساحة هذا المشهد بل ومسببة له، هي مشهدية النوم واليقظة، المندسة في المشهد الزمني المتضمن لأحداث، إنها موازية لليل في سكونه، ومضادة للنهار في حركيته وفاعليته، إنه توازٍ آخر من حيث: (النوم/اليقظة)، (الليل/النهار)، (النوم/اليقظة)، (الموت/الحياة)، وصورة معنوية تنبسط على هذا المشهد حيث (الكراهية/الحب)، (العبودية/الحرية)، وهي مواجهة مصيرية مستترة بين (أنا/هو)، فبنية التضاد والطباقي والتقابل هنا قائمة على شبكة من العلاقات النصية. وهي تدور في فلكين لونيين أيضا مستوحيين من الليل والنهار (أسود/أبيض)، وكأنها في هذا الموقف المأزوم والمحتد، لا يوجد سوى ذين المتناقضين اللذين يجسدان كافة المتناقضات الأخرى وقد يكونان خلاصة لهما أيضا...!!

ويتحد الطباقي بالجناس في هذا النص ليشكلا إيقاعا موسيقيا لافتا، بل ولتجسد هذه الصورة الحركية المتولدة من تلاحم وتلاحق وتناقض الأفعال المنسجمة، إنها جملة انفعالية مموسقة لعبت الأصوات فيها دورا إيحائيا بفعل الطباقي، وهو نص يعتمد في سرده على توصيف الحركات الجسدية، وما يترتب على تلك الحركات من قيم الموت والحياة، السعادة والشقاء، البغض والحب، الأسر والانعتاق، نص ترويه أسيرة محبة لآسرها عن زوجها الذي تبغضه، وكأن كل هذه الطاقة النفسية المكبوتة بفعل الزواج والأسر الاجتماعي الأكبر، انفجرت في صورة تعبيرية مفعمة ومعبرة عن كل ذلك العالم السري

المتستر بعباءة الزواج، طاقة روحية ولفظية حررها الأسر.. ياله من موقف فريد من نوعه يتكى على مجموعة من المتضادات اللفظية والمعنوية..!!

الطَبَاقُ الخَفِيُّ :

وهناك ما يُشار إليه على أنه (طباق خفي)، وذلك حين يتعلق معنيان أحدهما بالآخر تعلق السببية واللزوم^{٧٩٢}، كخطاب (عُفَيْرَةَ بِنْتِ عَفَّارٍ) لأخيها: "لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ الْعَدْرَ ذِلَّةٌ وَعَارٌ، وَلَكِنْ كَاثُرُوا الْقَوْمَ فِي دِيَارِهِمْ، فَتَنْظَرُوا أَوْ تَمُوتُوا كِرَامًا"^{٧٩٣}

إن الظَّفَرِ تقابله الهزيمة وليس الموت الذي يقابله الحياة، لكن الموت متسبب عن غلبة العدو والهزيمة، وبذا يكون التقابل في المعنى دون اللفظ المباشر، وعلى كل فهو سياق لافت حيث تأتي بنية هذا الطباق متفرعة عن أسلوب نهبي (لا تفعل)، ثم توكيد (إن) ثم استدراك (لكن)، ثم أمر (كاثروا) والوشيجة التي تربط هذه البنى كلها هي العطف ، تتصدره (الفاء) بمشاركة (الواو/ أو)..!!

ومثل ذلك خطاب (هِنْدِ بِنْتِ ظَالِمٍ) لابن مندلة تصف زوجها: "ما نام حجر قط إلا وعضو منه حيّ"، حيّ أي مستيقظ.^{٧٩٤}

بين يدي النماذج المقروءة، وهذه المثبتة في هذا المبحث لوحظ غلبة طباق الإيجاب على طباق السلب بصفة عامة، وكأنما طباق الإيجاب فيه نوع من المهادنة المراوغة في الخطاب، أو حيث تتسلل هذه البنية الطباقية في نسيج النص ، كحجر في بحيرة، تحدث صدى من الدوائر المنفتحة على دلالات مستهدفة دونما كثير من الضجيج والصخب، بينما تعلق نبرة المواجهة وتحقق صدامية من نوع ما مع طباق السلب الذي يعلن النفي فيه صراحة، ويبدو أن المرأة في هذا السياق لا تسعى إلى مواجهة من هذا النوع ، على الأقل على مستوى أسلوب الطباق..!!

إن بنية هذا الأسلوب (الطباق والمقابلة) يأتي ضمن بنية أعم وأشمل تلتقط أنفاسها في إطار

^{٧٩٢} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: حمد مطلوب: ٢/٢٥٨.

^{٧٩٣} - نهاية الأرب: للنويري: ١٥/ ٢٦٢ . أعلام النساء: ٣/ ٢٩٧-٢٩٩. وأيضا: الأغاني، للأصفهاني: ١١/ ١١٤، إحسان عباس وآخرون. التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه : ص: ٣٠٨-٣٠٩. الكامل في التاريخ: لابن الأثير: ٢/ ١١٨ .

^{٧٩٤} - الأغاني، للأصفهاني: ١٦/ ٢٤٤، إحسان عباس وآخرون، العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٦/ ١٢٩، ٣/ ٣٤٩، الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٣٩٦.

السياق الكلي، سياق اللغة و سياق الحرب، و سياق الحرب هذا نابض متحرك، بعيد عن الاستاتيكية سواء النفسية أو اللغوية، وهذا الخطاب في معظمه هو خطاب مقتضب إلا بعضه، وبالتالي فإن البنية النسقية للتركيب المتضمن على الطباق والمقابلة أيضا تخضع لشروط هذا السياق الاتصالي المحدد...!!

فمعظم هذا الطباق قد جاء ضمن نظام جملي، وليس في نسق متراكم ، فلا نجد بنية مكرورة ممتدة، بل تأتي بين لفظين في جملة فيكون الطباق، أو جملتين متمفصلتين في بناء ذاك الخطاب فتكون بنية التقابل..، ولكل فاعليته ونبضه المناسب أو المتفجر دلاليا في السياق، وهذا الانحراف داخل السياق هو الذي يعطي لهذا الأسلوب قيمته الانشطارية المتشظية، التي تعطي للنص توتره وترتفع بمعدل نبضه نحو ذروة دلالية معينة خاصة مع تلاحمه مع بنى بديعية أو بيانية أخرى.. !!

ولعل رأي الحموي في ذلك يلخص الفكرة، يقول: " والذي أقول أن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس لها كبير أمر، ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد وهو شيء سهل ، اللهم إلا أن ترشح بنوع من أنواع البديع وتشاركه في البهجة والرونق ، كقوله تعالى: "تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي".^{٧٩٥}

وبالتالي فإن تأثير هذه البنية المتضادة إنما هو تأثير موضعي نظرا لنسبة انتشاره في نص الخطاب^{٧٩٦}، والنظر إليها كوحدة مغايرة للبنية التركيبية لنظام الخطاب الكلي...!!

إن أي بنية تركيبية ذات سمت أسلوبية إنما قيمتها في تواجدها مع النظام الداخلي والخارجي للنص، لتبث فاعليتها من خلاله...!!

^{٧٩٥} - خزائن الأدب: للبغدادي: ص: ٧١.

^{٧٩٦} - انظر: علم الأسلوب والنظرية البنائية. صلاح فضل. دار الكتاب المصري. القاهرة. ط. ١. ٢٨٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م، ١٠ / ١٩٦٦.

الطباق

فِيهِ (عَصْرُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

أولاً: طباق الإيجاب :

طباق الإيجاب: وهو أن يجمع بين الشيء وخصمه. ^{٧٩٧} وهو الذي يكون بذكر المعنيين المتضادين في لفظتين موجبتين مثبتتين أي غير منفيتين.

من نماذج هذا النوع من طباق الإيجاب ما كان بين فعلين، سيقا في خطاب معتمد على رؤيا زوج حنظلة (جَمِيلَةٌ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سَلُولٍ) قَالَتْ: "رَأَيْتُ كَأَنَّ السَّمَاءَ فُرِجَتْ فَدَخَلَ فِيهَا حَنْظَلَةٌ ثُمَّ أُطِيقَتْ، فَقُلْتُ: هَذِهِ الشَّهَادَةُ". ^{٧٩٨}

إن بؤرة التطور الدرامي هنا، هي تفسير هذه الرؤية، لأنه على أساس ذلك تغيرت مجريات أمور كثيرة، فقد أولت هذه الرؤيا بأنها (الشَّهَادَةُ) !!..

لقد كانت فتاة في مقتبل العمر تزف إلى زوجها، الذي طلب إذنا عسكريا (من القائد الأعلى) لإتمام الزواج، وكلما همَّ بالمغادرة تعلقت به، واستبقته إلى جانبها، أنسا به من جهة، ولإرهاصات هذه الرؤيا من جهة أخرى، فقلبها يحدثها بأن هذا هو آخر عهدا به، لكن دون أن تثير قلقه، أو تطلعه على مكونات نفسها، فلا يرى منها إلا ما يحب، وهي في ذلك راضية محتسبة، حتى صاح المنادي، أن حي على الجهاد، حينها فقط لم تحاول أن تثنيه أو تعوقه، لكنها أرسلت إلى شهود كي تعلمهم أنه قد دخل بها، ولهذا دلالاته المتعددة والمتنوعة..!

يأتي هذا الطباق الموجب بين فعلين (فُرِجَتْ فَدَخَلَ فِيهَا حَنْظَلَةٌ ثُمَّ أُطِيقَتْ)، وهما فعلا ماضيان مبنيان للمجهول، حيث كل شيء مبهم خلف ذلك الانفراج والإطباق، ثم يسكن كل شيء، إلا تدابير هذه الزوجة على أرض الواقع، إن هذا الطباق يتحرك بين عالمين، عالم الواقع وعالم المشاهدة، واللذين قد يشكلان متضادين على رقعة الخطاب، هذا الواقع المتأرجح بين متناقضين صارخين في هذا السياق (الحياة/ الشهادة)، واختزالهما بين فعلي (الانفراج والإطباق) أمر لافت في هذه الرؤيا..!!

^{٧٩٧} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: ٢٥٧/٢.

^{٧٩٨} - المغازي للواقدي: ١/ ٢٧٣، السيرة النبوية لابن هشام: ٧٥/٢، الروض الأنف، للسهيلى: ٣/ ٢٥٨-٢٥٩، تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٥٢٣، زاد المعاد في هدي خير العباد: ٣/ ١٧٩. البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ٢١.

يُلحظ هذه الخفة في الانفراج والدخول، فحرف العطف (الفاء) ينبؤنا بذلك، بينما الإطباق كان على مهل، لأنه يأتي بعد حرف العطف (ثم) ...!

وفي حكاية (أسماء بنت مخرّبة بن جندل) مع (الرّبيع بنت مَعُوذ بن عفراء)، وقد جاءت تشتري منها عطرا، فلما عرفتها رفضت أن تبيعها، وقالت لها: ^{٧٩٩}

" حلقى، وَإِنَّكَ لِابْنَةُ قَاتِلِ سَيِّدِهِ؟ "قالت الرّبيعُ : لا وَلَكِنْ ابْنَةُ قَاتِلِ عَبْدِهِ!.." فطباق الإيجاب وقع بين اسمين: (عبد/سيد).

وهو تقابل في البنية اللغوية التي تفضح هذا التناقض النفسي والاجتماعي والعقدي رغم ما يقال من إسلام أسماء، ويظهر بوضوح هذه الأنفة والترفع من الطرفين المتناقضين على بعضهما، ولكل واحدة منهما عذرها، ف (أسماء) ترى في (الرّبيع) ابنة القاتل العبد، أمّا (الرّبيع) فترى أن الإسلام يجب ما قبله وليس من حق أسماء أن تتفاخر وتتعالى عليها بما كان في الجاهلية، وحيث قيم الإسلام، الدين الجديد تجعل الناس سواسية كأسنان المشط.

وتضطر (أزدة بنت الحارث) إلقاء قارب نجاة لنفسها ولهاته النسوة اللاتي معها، لأن تستشعر الخطر الشديد من بقائهن حيث هنّ بلا حراك، تقول: "إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ، وَلَا آمَنُ أَنْ يُخَالِفُوا إِلَيْنَا، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَمْنَعُنَا، وَأُخْرَى أَخَافُ أَنْ يَكْثُرَ الْعَدُوُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَهْزُمُونَهُمْ، فَلَوْ خَرَجْنَا لِأَمْنًا مِمَّا نَخَافُ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَدُوِّ إِلَيْنَا، وَيَظُنُّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّا عَدَدٌ وَمَدَدٌ أَتَى الْمُسْلِمِينَ فَيَكْسِرُهُمْ ذَلِكَ وَهِيَ مَكِيدَةٌ." ^{٨٠٠}

تحققت بنية الطباق في هذا الخطاب التحريضي، بين فعلين (آمن، أخاف، لأمنًا، نخاف) ، بتكرار يدور بين متناقضين من أسباب الخوف واصطناع الأمن...!!

وبين اسمين (المسلمين/المشركون)، وكلاهما يقف على طرفي نقيض، وعلى تكرار ذلك في هذا الخطاب، فإن هذا الطباق يلعب دورا محوريا في إقناع المخاطبات بما يجب عليهن فعله وتقديمه من

^{٧٩٩} - المغازي. للواقدي: ١/٨٩. الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٨/٢٤٨. ويذكرها صاحب أسد الغابة، في ترجمة عياش بن أبي ربيعة: ٣٠٨/٤، و٩/٧، ١٠، ١٤.

^{٨٠٠} - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٣-١٥٤، ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/ ٥٩٦ - ٥٩٧. سنة ١٤هـ. في القاسية.

النصرة والفدائية التي يحتاجها المسلمون في تلك اللحظة، فليس الأمر منوطا بزواج أو أخ أو ولد، ولكنه منوط بهذه العقيدة التي يجب أن تحمي وتسان من اعتداءات أعداء الله، والطريقة الوحيدة في ذلك السياق أن يعملن على نصرته المسلمين ودعمهم، وهو الوقت الملائم لتتخلى كل منهن عن مخاوفها وهواجسها...!!

إن مفردتي الأمن والخوف هنا ليستا طباقا لفظيا فحسب، بل هما الركيزة التي اتخذتها (أزدة) في خطابها الإقناعي هذا، حيث الخوف على الأعراس من جهة، ومن هزيمة المشركين للمسلمين من جهة أخرى، هزيمة ستتسبب في حرمان هاته النسوة من الأمن، والخوف مما سيفعل بهن العدو من الإذلال...!!

وبعد فإن هذا الخطاب بني على مجموعة من المتواليات المنطقية الحجاجية التي تبني المقدمات على النتائج، ولا شك أن بنية الطباق متشكلة على سطح هذا الخطاب، لكنها متخلقة في جوفه المستعر بتناقضات كثيرة وكبيرة..!

وهذه (أُمُّ ثَلَاثَةِ شُهَدَاءٍ) استشهدوا ، وبلغ ذلك أهم، فقالت: "مُقبِلِينَ أُمُّ مُدْبِرِينَ؟" فقيل لها : بل مقبلين ، فقالت: الحمد لله ، نألو والله الفوزَ ، وحاطوا الذمارَ ، بنفسِي هم وأبي وأمي^{٨١١}.

هذا الطباق ينزاح نحو قيم مغنوية متضادة من الشجاعة والجبن، حيث الإقبال يشكل فضيلة الشجاعة والثقة والإيمان، بينما الإدبار يغرق في الجبن والرذيلة والضعف، ويتضح مدى التسليم لقضاء الله عند هذه الأم المحتسبة.. "فما تأوهت ولا دمعت لها عين"، و التي من أولوياتها السؤال عن مفخرة تربيتها لهم، وتحليهم بفضيلة الإقدام إلى آخر لحظة، وهذا ما يهون موتهم عليها..!

ومما يعزز من قيمة هذا الطباق وحيويته في هذا السياق هي البنية اللغوية التي تماهى في نسيجها، بين بنية إنشائية باستفهام مقدر، وبنية تصويرية حيث ينزاح نحو التعبير الكنائي، فالإقبال والإدبار ليسا حركتين فيزيائيتين بل هما قيمتان تجسدان هيكلاً ضخماً من القيم الدينية والأخلاقية والاجتماعية، وحيث هي تاريخ يجب أن يكون مستقبلاً أيضاً...!!

^{٨١١}-مُسْكِنُ الْفُؤَادِ عند فقد الأحبة والأولاد، الشيخ زين الدين العاملي: ص: ٧٣. وعن جويرية بن أسماء : أن ثلاثة أخوة شهدوا (تَسْتَرُّ) ، استشهدوا..

وفي وصية (الخنساء) لبنيتها في القادسية قالت: "يَا بَنِيَّ... إِنَّكُمْ أَسَلَمْتُمْ طَائِعِينَ، وَهَاجَرْتُمْ مُخْتَارِينَ، وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَبَنُورِجُلٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنْتُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مَا خُنْتُ أَبَاكُمْ، وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، وَلَا هَجَنْتُ حَسَبَكُمْ، وَلَا عَبَّرْتُ نَسَبَكُمْ، وَقَدْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ فِي حَرْبِ الْكَافِرِينَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدَّارَ الْبَاقِيَةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الْفَانِيَةِ..."^{٨٠٢}

إنّ مواطن الطباق في هذا الخطاب ظاهرة للعيان، ومتجلية في بنيته المتشكلة عبر جملة من التراكيب المتنوعة بين إنشاء وخبر، نفي وإثبات، ومتناغمة مع إيقاع الجمل السجعية الواردة فيه..!

أما هذه الطباق، فكلها اسمية: (رَجُلٌ وَاحِدٌ/امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ)، (لِلْمُسْلِمِينَ/ الْكَافِرِينَ)، (الْبَاقِيَةُ/ الْفَانِيَةُ)، إن الجملة الطباقية الأولى (رَجُلٌ/ امْرَأَةٌ)، على الرغم من بساطة بنيتها السطحية ومباشرتها، فإن لها بعداً دلالياً، قد ينفذ إلى البعد التصويري الكنائي أيضاً، فتأكيدها المغلظ المشدد في بنية خبرية إنكارية، قد يفهم من هذا الطباق أنّ هناك من يدفع ضد هذه الحقيقة وبقوة، ولكن لم يكن ذلك مرام الخنساء، إنها تريد تذكيرهم بأصلهم وأمجادهم، وطهارة أنسابهم وأحسابهم، وأنها عملت جاهدة لذلك، فلطالما كان الأمر منوطاً بالمرأة في هذا الصدد، كي تكون ظاهرة الذيل، فلا تجلب العار لنفسها أو لعائلتها وقبيلتها...!!

هذا التذكير التأكيدى اللافت في هذه البنية، إنما هو لتدفعهم لأن يعملوا بهذا الأصل النقي الطاهر الذي لم يخالطه شائبة من دنس، والأحرار أبناء الأحرار، لهم شواهد من نُبل، وآيات من شجاعة، تريد أن تراها في هذه المعركة الحاسمة الفاصلة.. وبذا يكون لبنية الطباق قيمتها في تعميق هذه الدلالة واللفت إليها...!!

تذكير آخر يحمله الطباق التالي.. إنه تذكير بالهدف، (لِلْمُسْلِمِينَ/ الْكَافِرِينَ)، فالقتال ليس على الأحساب و الأنساب، أو مآثر القبائل، أو لثارات دفيئة، إنه جهاد، إنها حرب الله على أعدائه، يخوضها المسلمون تحت راية التوحيد، ضد (المشركين)، ومن هنا يكون لهذه البنية الطباقية مساحتها الدلالية الفاعلة في هذا السياق...!!

^{٨٠٢} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧، أسد الغابة، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١، الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-٢٨٨، الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي: ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦، الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص: ٢٢٠-٢٢١، وانفرد ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤/ ٣٨٥ بنسبتها إلى الخنساء النخعية. خزنة الأدب، للبغدادي: ١/ ٤٣٤.

وتختم بتذكير ثالث، بالعاقبة المنتظرة من هذا القتال: (الدارالباقية/خير من/ الدار الفانية)، يأتي هذا الطباق في بنية التفضيل، فالمفضل هي الدار الباقية، والمفضل عليه هي الدار الفانية، واسم التفضيل (خير)..!

ويتبرعم هذا الطباق في ظل إماحة كنائية، حيث يعبر عن الحياة الدنيا بالدار الفانية، بينما يعبر عن الآخرة بالدار الباقية.

هذا التضاد بين دلالتى: البقاء/ الفناء، وفي ثنايا خطاب تحريضي كهذا، يحمل ما حمله من وصف ناري لهذه الحرب المتلظية المستعرة، التي تريد (الخنساء) من أبنائها أن يكونوا في جوفها، وهو خطاب يحتاج منها بلا شك إلى معادل موضوعي يوازن كفة الرعب الفظيعة التي صورت بها الحرب و طيسها، ولذا تذكرهم ذلك بقولها: " وَاعْلَمُوا أَنَّ الدَّارَ الباقيةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الفانيةِ،.. " فليس أفضل من شاطئ أمان، ومرسى راحة على ضفة أخرى، حيث تهدأ الأصوات وتخضع، حيث البقاء الأزلي، وحيث كل تلك التضحيات والآلام هي من الماضي الذي قد لا يذكر، وإن ذكر فلذكره حلاوة لا تضاهي، تذهب مرارتها وتبقى حلاوتها، بقاء لذة العمل الصالح وإن جهدت به، وفناء عذاباتك فيه وإن أشقتك، وبذا يكون هذا الطباق في هذا السياق هو بلسم جراحات، ومحو عذابات في جنات خالداً!..

ثانياً: طباقُ السُّلبِ:

"وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي.."^{٨٠٢}

في بؤرة هذا الخطاب المتأجج بالغضب والمستعر بالثأر بين (أسماء بنتِ مُخَرِّبةِ بنِ جندلٍ) و(الرَّبِيعُ بنتُ مُعوذِ بنِ عفرَاء) تتخلق بنية الطباق، بين فعلين متضادين ومنفيين أيضاً (لا أبيعك / لا أُشترِي)، حيث النفي، له دلالة مقاطعة الآخر وإقصائه، ونفيه خارج كل حدود التعامل أو الحياة بأسرها لو أنها قدرت، حتى لو كان هذا النفي والإقصاء حسبما يتيحهما مجال الخطاب أو التعامل، كهذا السياق الذي برزت فيه بنية النفي صارخة مجلجلة، سياق اقتصادي، عمليتي بيع وشراء، تختلف ابنة القتيل مع ابنة القاتل، فتنهار هذه العملية، وتصبح هي الهدف الرمزي المجسد للتناقض الصريح بين طرفي العملية الاتصالية، وعلى هذا المنحى الاقتصادي تقوم عملية إسقاط القيم والمعتقدات وتاريخ

^{٨٠٢} - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: ٢٥٨/٢.

الثأر، ويحدد هذا الطباقي فيها شكل العلاقة المستقبلية بين ذين الطرفين، بناء على قيمهما القبلية، قالت (أسماء): " وَاللَّهِ لَا أُبِيعُكَ شَيْئًا أَبَدًا. فقالت (الرَّبِيعُ): وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أُشْتَرِي مِنْكَ شَيْئًا أَبَدًا،...^{٨٠٤}

وهذا التضاد في البنية اللغوية التي تفضح هذا التناقض النفسي والاجتماعي والعقدّي رغم ما يقال من إسلام أسماء، ويظهر بوضوح هذه الأنفة والترفع من الطرفين المتناقضين على بعضهما، ولكل منهما عذرها ، فأسماء ترى في الربيع ابنة القاتل العبد، أما الربيع فتري أن الإسلام يجبُّ ما قبله وليس من حق أسماء أن تتفاخر وتتعالى عليها بما كان في الجاهلية، وحيث قيم الإسلام الدين الجديد تجعل الناس سواسية كأسنان المشط.

الطباقي الخفي:

وهناك ما يُشار إليه على أنه (طباقي خفي)، وذلك حين يتعلق معنيان أحدهما بالآخر تعلق السببية واللزوم^{٨٠٥}، ومن نماذجه:

لَمَّا رَأَتْ (ذَرْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ) الرِّجَالَ يَفْرُونَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ، وَقَفَتْ فِي وُجُوهِهِمْ صَارِخَةً فَقَالَتْ: " قَبِّحَ اللَّهُ وَجْهَ عَبْدِ نَظَرَ إِلَى أَمِيرِهِ ثَابِتًا وَهُوَ مُنْهَزِمٌ عَنْهُ"^{٨٠٦} (ذَرْعَةُ)، التي كانت ترد على خطاب خالد بن الوليد، وقد ظنت أنه فرّ من القتال، لذا انهزم الجند، فلما خبرها أنه ثابت قالت له ذلك!

وما لوحظ أنه طباقي خفي، إنما تبلور في قولها: "ثَابِتًا / مُنْهَزِمٌ"، لأن الثابت ضده غير الثابت أو المتزلزل وليس المنهزم الذي ضده المنتصر مثلاً...!!

وكذلك في خطاب (أَزْدَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ)، الذي رُصد فيه هذا النوع من الطباقي الخفي: "إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ، وَلَا آمَنُ أَنْ يُخَالَفُوا إِلَيْنَا، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَمْنَعُنَا، وَأُخْرَى أَخَافُ أَنْ يَكْثُرَ الْعَدُوُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَهْزِمُوهُمْ،...."^{٨٠٧}

^{٨٠٤} - المغازي للواقدي: ١/٨٩. الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٨/، ويذكرها صاحب أسد الغابة، في ترجمة عياش بن أبي ربيعة: ٤/٣٠٨، و٧/٩، ١٠، ١٤، والحكاية ترويهما الربيع بنت مَعُوذِ بْنِ عَفْرَاءَ، حين ذهبت تشتري عطرًا من أسماء، وقد قتل أبو الربيع والد أسماء، فقالت لها أسماء لما عرفتها: "وانك..."

^{٨٠٥} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: ٢/٢٥٨.

^{٨٠٦} - فتوح الشام، الواقدي: ١/١٩٦.

^{٨٠٧} - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص: ١٥٣-١٥٤، ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/ ٥٩٦ - ٥٩٧. سنة ١٤هـ. في القادسية.

حيث ذكرت (العُدُو)، ووضده الصديق أو الحبيب، وهو على تضاد هنا مع (المُسْلِمِينَ)، الذين ضدهم المشركين كما ذكرت في موطن آخر من خطابها هذا، ولذا كان بين الكلمتين طباق خفي...!!

إن لفظة (العدو)، هنا ذات مدلول لافت، ففيها تذكير بما يعتمل في الصدور ضد هذا الدين و أهله، وفيها عموم الكراهية و النفور، وإن هي إلا عداوة تلك التي يُقاتل المسلمون ويُحاربون عليها من قِبَل هؤلاء القوم...!!

من خلال استعراض النماذج السابقة، يُرصد تفاوت في تواترها بين أنواع الطباق الثلاثة: طباق الإيجاب، طباق السلب، الطباق الخفي...!

فهناك غلبة نسبية لطباق الإيجاب على طباق السلب بصفة عامة، وكأنما طباق الإيجاب فيه نوع من المهادنة والمصالحة في الخطاب، حيث تتداح هذه البنية الطباقية في نسيج النص، محدثة دوائر دلالية مستهدفة دونما كثير من الضجيج والصخب، على عكس طباق السلب الذي يفترض نوعا من المواجهة والصدامية، حيث يعلن النفي فيه دون مواربة...!!

وبين يدي هذا النوع من المحسنات لوحظ انحسار رقعته على مساحة هذا الخطاب، وكأن المرأة المسلمة وصلت إلى مرحلة من التصالح مع نفسها ومحيطها، فلم تعد في حالة من الصدام والمواجهة والتناقض لدرجة انعكاس ذلك على خطابها، حتى وإن كان في سياق يعد من سياقات التناقض والمواجهة، وهو السياق الحربي، مما يشكل لفتاً، لهذا الأمر، ولأمر آخر وذلك حين مقارنة خطابات الطباق والمقابلة في هذا العصر بنظيرتها في العصر الجاهلي، سيتضح أن هناك تفوقاً عددياً ونوعياً لصالح العصر الجاهلي...!!

ومع ملاحظة سمة الاقتضاب العامة في هذا الخطاب، فإن البنية النسقية للتركيب المتضمن على الطباق والمقابلة أيضاً تخضع لشروط هذا السياق الاتصالي المحدد...!!

وكنظيره الجاهلي.. فمعظم هذا الطباق قد جاء ضمن نظام جملي، وليس في نسق متراكم ممتد،

فلا نجد بنية مكرورة ممتدة، بل تأتي بين لفظتين في جملة فيكون الطباق، أو جملتين متمفصلتين في بناء ذاك الخطاب فتكون بنية التقابل...، ولكلٍ فاعليته ونبضه الخاص، هُدوعاً أو صخباً، انسياباً أو تفجراً، وهذا الانحراف هو الذي يعطي هذه القيمة الأسلوبية الانشطارية المتشظية، التي تعطي للنص

توتره وترتفع بمعدل نبضه نحو ذروة دلالية معينة خاصة مع تلاحمه مع بنى بديعية أو بيانية أخرى.. !!

ولعل رأي الحموي في ذلك يلخص الفكرة، يقول: " والذي أقول أن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس لها كبير أمر، ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد وهو شيء سهل ، اللهم إلا أن ترشح بنوع من أنواع البديع وتشاركه في البهجة والرونق ، كقوله تعالى: {تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي } " ^{٨٠٨}

وبالتالي فإن تأثير هذه البنية المتضادة إنما هو تأثير موضعي نظرا لنسبة انتشاره في نص الخطاب ^{٨٠٩}، والنظر إليها كوحدة مغايرة للبنية التركيبية لنظام الخطاب الكلي...!!

وتثبت هذه الخطابات النسوية في سياق الحرب مرة أخرى أن أي بنية تركيبية ذات سمت أسلوبية إنما قيمتها في تواجدها مع النظام الداخلي والخارجي للنص، لتبت فاعليتها من خلاله...!!

^{٨٠٨} - خزانة الأدب، للحموي: ص: ٧١. والآية من سورة آل عمران/ ٢٧.

^{٨٠٩} - انظر: علم الأسلوب والنظرية البنائية، صلاح فضل: دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧. ١/ ١٩٦.

ثَانِيًا: الْمُقَابَلَةُ

فِي (العصر الجاهلي)

مدخل

تعرف المقابلة لغويا : قابل الشيء بالشيء مقابلة وقبالا، أي عارضه، والمقابلة نفسها هي المواجهة والتقابل.^{٨١٠}، أما بلاغياً فيعرفها العسكري: "المقابلة إيراد الكلام ثم مقابلته في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة"^{٨١١}، وفي العمدة لابن رشيق الذي عقد لها فصلا غير المطابقة قال فيه: "وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب؛ فيعطي أول الكلام ما يليق به آخرا، ويأتي في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه، وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة"^{٨١٢}، وكلام ابن رشيق هذا يعني أن المقابلة أعم وأشمل من الطباق.

وبذا تكون المقابلة قد استقرت على انفصال وتباين عن المطابقة، بتوسع وترتيب في المفردات المتقابلة، ويفرق البلاغيون بين النوعين في تصنيفاتهم.^{٨١٣}

أنواع المقابلة:

تقسم المقابلة عدة تقسيمات، يعتمد أحدها على عدد المتقابلات في الكلام.^{٨١٤}، وهناك تقسيمات أخرى أقل شهرة مما ذكر،^{٨١٥} ويورد البحث بعض نماذج من خطابات المرأة في سياق الحرب مما يشتمل على المقابلة، ويشير إلى ما ينداح من دلالات نتاج هذا الأسلوب.

فمن مقابلة اثنتين بائنتين خطاب عربية تصف فرس أبيها، فقالت: "كان أبي على طويل بطنها، قصير ظهرها، شديد أسرها، هاديها شطرها، يكبها حضرها"^{٨١٦}.

^{٨١٠} - انظر: اللسان: (قبل).

^{٨١١} - كتاب الصناعتين: للعسكري: ص: ٣٣٧.

^{٨١٢} - العمدة : لابن رشيق: ١٥/٢.

^{٨١٣} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية: أحمد مطلوب: ٢٨٨/٣

^{٨١٤} - انظر: كتاب الصناعتين: للعسكري: ص: ٣٣٧ وما بعدها.

^{٨١٥} - انظر: معجم المصطلحات البلاغية: أحمد مطلوب: ١٩١/٣-١٩٢.

^{٨١٦} - الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٧١-١٧٢. الأمالي للقالبي: ٢/٢١٩. مجمع الأمثال: الميداني: ٢/٢٤٦ وقصة المثل: "لا تعلم اليتيم البكاء". المزهري: ٥٤٩/٢.

فالتقابل بين (طويلٍ بطنُها، قصيرٍ ظهرُها) على الترتيب: (طويلٍ / قصيرٍ) (بطنُها/ ظهرُها)، هي ليست مقابلة معجمية^{٨١٧} فجّة، نعم.. هي مقابلة استثمارتها هذه الفتاة ولم تختلقها، ولم تذهب بها بعيدا عن معناها الأصلي بشكل من الأشكال، ولكن استثمارتها هذه الفتاة ولم تختلقها، ولم تذهب بها بعيدا عن معناها الأصلي بشكل من الأشكال، ولكن هل تبعد بذلك عن أداء دور دلالي في هذا السياق...؟؟، إن هذا التقابل يكشف عن عيوب في صفة هذه الفرس ترشحها لعدم إنجاز مهمتها، والنجاة بفارسها، إن هذا التناقض و ذلك التقابل في الشكل هما تقابل للمهمة الموكلة إليها، فطول البطن مع قصر الظهر يضيق على الفارس مقعده عليها ، ويجعله مرشحا للسقوط في أي لحظة، خاصة مع تضافر صفة أخرى فيها ،أنها عظيمة البنية، ونصف هذه البنية ذاهب لتكوين عنقها، فهذا الخل و ذلك التناقض في التركيب، خلل في الأداء، وهو صورة بصرية واقعية لم تتجاوزها لغيرها، ولم تضاف عليها ما عداها، ومع ذلك نجحت في لفت أنظارنا إلى هذه الصور بإيقاعها التقابلي، وأن نحتمل معها كل المخاطر التي تترتب على تكوين تقابلي كهذا، فهذه البنية المتقابلة المتوترة على سطح النص وعلى المستوى المعجمي، قد أخذتنا إلى البنية العميقة للنص حيث تكمن الدلالة و تنداح في هذا الخطاب...!!

إن هذه الفرس بهذه الصفات تتحرك بين فلكين (زمني ومكاني)، ونعني بهما: زمان المعركة/ زمان ما بعد المعركة، مكان المعركة (الميدان)/ خارج مكان المعركة (خارج الميدان)، وهنا تقابل بين دائرتين أيضا: دائرة الخطر/ دائرة الأمان.

يعمل ذان البعدان (الزمني والمكاني) في خلفية هذا الخطاب، والعلاقة بينهما شديدة التوتر والتقابل في هذا النص، فالمكان هو ميدان الصراع حيث تدور المعركة، وحيث يجب أن تغادره هذه الفرس، لكن هل ستتفق حركتها الزمنية مع الزمن المنشود والمطلوب للمغادرة والنجاة...؟؟ لتتولد هذه اللحظة الحرجة بين الواقع والأمنية، أو بين ما هو كائن والأمل فيما سيكون...! ليحل تقابل معنوي آخر متمثل في الخوف والرجاء. إن التقابل هنا في اللفظ و المعنى.

^{٨١٧}-انظر: بناء الأسلوب في شعر الحداثة- التكوين البيديعي- محمد عبد المطلب: دار المعرف، القاهرة. ظ. ٢، ١٩٩٥م. ص:

وهذا خطاب (سُعدى بنت حُصين الطائيّة) أم أوس بن حارثة بن لأم الطائي، وقد أراد معاوية بشر بن أبي خازم لهجائه لهم فقالت له: "يا بُنَيّ، مات أبوك فرجوتك لقومك عامّةً، فأصبحتُ أرجوك لنفسك خاصّةً، وزعمت أنك قاطع رجلًا هجاك، فمن يحمو ما قاله غيره؟ قال: فما أصنع به؟ قالت: تكسوه حُلتك، و تحمله على راحلتك، وتأمُر له بمئة ناقةٍ. قال: ففعل ما أمرته به فقالت له: إنه الآن يمدحك فيذهب مدحك بهجائه وتحمدُ معبّة رأيي." ^{٨١٨}

هذه بنية تقابلية مغروسة في لبنة الرجاء (رجوتك) عبر سياق خبري متكئ على استهلال إنشائي ممثل في بنية النداء (يا بُنَيّ)، مما يشكل أداة تنبيه للخبر المُساق من هذه الأم لابنها، خيار من شأنه أن يحيط أجواء هذا الخطاب بالتلطف و التودد اللذين يستلآن عناد هذا الابن الغضوب والمندفع بهون وروية، لتكوّن أرضية مقنعة وملائمة تقف عليها مشورتها..!

إن هناك بنية تقابلية بين (مات أبوك فرجوتك لقومك عامّةً) // (فأصبحتُ أرجوك لنفسك خاصّةً)، تقابل بالمعنى بين (مات) التي تعني المضي أو (الأمس)، وبين (أصبحت)، ثم بين (قومك/ نفسك)، (عامّة/ خاصة)، إن هذا التقابل بين (النفس/ الجماعة) لا يعبر عن أزمة عائلية أو موقف شخصي فحسب، بل يتكشف عن أزمة وجود، وراهن عالق بين المجد السابق والامحاء اللاحق، ومدار ذلك كله ومحوره هو المخاطب، الذي ورث الرياسة والسيادة، وعليه أن يكون في مستوى الحدث، وقد حُوصِر بين طريقيين، بين غضبه الذي أعماه وتستعر ناره في جوانحه فيسعى للانتقام، وبين هذه المصلحة العامة والخاصة التي تحاول أمه أن تذكره بل تردعه بهما..!! وكأن الزمن قد توقف وعلق بين تين الفاصلتين المتقابلتين، تقابلا زمنيا ومكانيا، ووجوديا..!!

ويعلو نبض التوتر حين يضطر لتقبل فكرة أن عند الخصم مفتاح النجاة وعليه أن يحتال للظفر به، وترسم له والدته خارطة الطريق " تكسوه حُلتك، و تحمله على راحلتك، وتأمُر له بمئة ناقةٍ"، يطيعها لتأتي الخاتمة التي تستنقذ مجد هؤلاء القوم عامّةً، وتاريخ المخاطب ومستقبله بخاصة، قالت: "إنه الآن يمدحك فيذهب مدحك بهجائه وتحمدُ معبّة رأيي"، فتقابلية المدح والهجاء تدور ضمن جدلية (الحياة/ الموت) الفردي والعام، ومكمن الخطورة فيهما، ليس من حيث هما قولان فقط، بل من حيث هما فعل جمعي يؤسسه فرد (الشاعر) وتنساق له الجماعة سلبا أو إيجابا..!!

ولننظر في خطاب (زوج عروة بن الورد) التي تحتال لمفارقتها والانفصال عنه، وترك أبنائها عنده، لا كراهة فيهم، بل للتخلص من ذل الأسر، وشهادتها في حقه تنطق بهذا: "والله إنك ما علمت لضحوكٍ مُقبلاً، كسُوبٍ مُدبراً، خَفِيفٌ على مَتْنِ الفَرَسِ، ثَقِيلٌ على العَدُوِّ.."^{٨١٩}

إن بنية التقابل هنا ممهد لها ببيئة نصية مزروعة بجملة مؤكدات لافتة: (القسم، إن، ما، لام التوكيد)، ثم جملة من السمات الموزعة بين المادي والمعنوي، معبر عنها بأسماء وأوزان نابضة مما أعطى هذه البهجة والحراك والفاعلية الإيقاعية للبنية التقابلية في النص، ولنتأمل هذه الثنائية من التماثل والتقابل في هذه الجملة التقابلية: (لضحوكٍ مُقبلاً) / (كسُوبٍ مُدبراً)، هناك تماثل في الصياغة النحوية والصرفية، في صيغتي: (فِعُول، فاعل من غير الثلاثي)، وهناك تقابل معنوي ولفظي بين الجملتين، فد (ضحوك) ليست مقابلة لـ (كسوب)، بل يقابلها (عبوس)، لكن التأويل يحيلنا إلى التقابل بين عالمين (داخل المنزل / خارج المنزل)، هذا التوزيع والتنوع الانفعالي يعطيان لكل حال لبوسها وما يناسبها، فالبشاشة عند الأهل والتلطف والتودد لهم في المنزل، تقابلها حال الجدية والصلابة حين الكد وطلب الرزق خارج المنزل، وهنا لفتة لطيفة، حيث يجد الزوج والأب من الراحة والأريحية داخل منزله، ويؤدي واجبه المعنوي من الناحيتين، حيث لا تؤثر قسوة الحياة، والكد والجهد في طلب الرزق سلبي على معاملته، بل حتى على أسارير وجهه، والأهم الترجمة الحرفية لهذا التقابل على أرض الواقع، هو أنه لا يذلها كونها أسيرته، والألطف من ذلك هو هذا التقدير والإحساس من عند الزوجة، وكونها أسيرة لا يجعلها تحفه حقه أو تنكر ما هو عليه من مكارم الأخلاق، أو أن تتهمه بالتقصير تجاهها، إن هذه البنية التقابلية هي بين حالين: البشاشة حال الإقبال / الصرامة والجدية حال الإدبار، وهي بنية لغوية مختزلة تكشف عن واقع الحياة اليومية التي تحياها معه دون تكلف أو تصنع، إنها بنية أخلاقية موازية والتي تشكل شخصية الزوج والأب، الذي يتمتع بالكياسة والدأب على رزق عياله..!

والجملة التقابلية الثانية هي بين حالين أيضاً، أو بين صورتين؛ بينهما تماثل في الصياغة النحوية والصرفية، وتقابل على المستوى المعجمي والدلالي: "خَفِيفٌ على مَتْنِ الفَرَسِ، ثَقِيلٌ على العَدُوِّ،..."، فد (خفيف / ثقيل) بينهما تضاد، ولكن (الفرس / العدو) بينهما تضاد افتراضي، حيث افتراض أن الفرس هو صديق الفارس المخلص، وهو رديفه ومشاركه في المعركة وهناك هذه الصلة والجاذبية بينهما،

^{٨١٩} - الأغاني، للأصفهاني: ٣ / ٥٤، انظر: مجالس ثعلب: ٢ / ٥١، نشر الدر: للآبي: ٤ / ٨٩، شعراء النصرانية قبل الإسلام: لويس شيخو: ص: ٨٨٩.

ونادرا ما يفترقان، بينهما صلة حياة وأمان، وهي لذلك علاقة تتميز بالخفة، فلا يثقل أحدهما على الآخر، لا ماديا ولا معنويا، وهذه الخفة هي أيضا سمة إيجابية في التركيبة الجسمانية لهذا الزوج، وهي من مستلزمات الفارس، وسبب لنجاته وفرسه، وهي تركيبة مقابلة و مناقضة تماما لما بين الإنسان وعدوه، فكلاهما ثقيل على الآخر عموما، ولكن ثقل عروة على عدوه يعني ما يتميز به من فتك وقوة وشجاعة وإقبال، لأنه يتميز بالخفة والخبرة، فبين الإنسان وعدوه، علاقة إهلاك وموت وغدر !!..

وبين الجمل المتقابلة في هذا الخطاب تناسب لطيف، بين (ضحك مقبلا، خفيف على متن الفرس)، وبين: (كسوب مدبرا، ثقيل على العدو)، فالتركيبان الأولان بينهما جامع من الإقبال والبشر والمحبة والحياة والأمان، وفي التركيبين الأخيرين الجدية والحزم، وكسب الرزق، كما حصد رؤوس الأعداء والتفوق عليهم، حيث يحتاج كلاهما للقوة والكد !!..

وتورد لنا كثير من المصادر محاورات بين (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ) والقاتحين أو غيرهم، فيروي المدائني هذه المحاورة المختزلة، قيل لابنة النعمان بن المنذر في أي شيء كانت لذة أبيك قالت: "فِي الشَّرَابِ وَمَحَادَثَةِ ذَوِي الْأَلْبَابِ". قيل فصفي لنا ما كنتم فيه فيه قالت: "أَطِيلُ أَمْ أُوجِزُ؟" قيل أوجزي. قالت: "أَصْبَحْنَا وَالنَّاسُ يَغِطُّونَنَا، فَلَمْ نُمْسِ حَتَّى رَحِمْنَا عَدُوَّنَا." ٨٢٠

يشي نمط هذا الخطاب عن نوع من الفضول للتعرف على حياة الملوك، ومحاولة النفاذ لأدق التفاصيل في يومياتهم، ويظهر كم الضغط الذي تتعرض له حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ لخضوعها لهذا الاستجواب المتعدد والمتنوع على ما أثبتته لنا الكتب المتنوعة، ومع ذلك فرباطة جأشها، وحكمة أجوبتها، وبلاغة ردودها كل ذلك جعلها محط عناية المؤرخين والأدباء على السواء !!..

إن الناظر لجواب (حُرْقَةَ) عن السؤال الأول عن لذة أبيها قد لا يلتفت إلى حال التقابل، لكن المتأمل في البنية العميقة للنص يتفق له النفاذ لهذا البعد الدلالي، تقول: "فِي الشَّرَابِ وَمَحَادَثَةِ ذَوِي الْأَلْبَابِ".، التقابل بين الشراب الذي من أهم عيوبه و مخاطره أنه يذهب بالعقل، ويفقد الإنسان رشده، وهنا قمة الغفلة والتهويم بعيدا عن الواقع وقضاياها وكأنها حالة هروبية للتخفف من أعباء الحكم

ومشاكله ومسؤولياته، أما الحال المقابلة فهي تمثل قمة الصحو واليقظة والتنبيه، في محادثة ذوي العقول
والمعرفة والعلم...!!

يفرز هذ الخطاب في بنيته العميقة تقابلا آخر مضمرًا بين مُتعتين: متعة الجسم، ومتعة الروح
والعقل...!! وعلى ما بين الحالين من تقابل بينهما تناسب من وجه آخر، وهو تحقيق التوازن بين
حالين نقيضين: حال الجد وحال الهزل...!

ويزيد من فاعلية هذا التقابل تضامن هذه السجعات في هذا الخطاب المقتضب، لتشكلا معا إيقاعا
لا فتا تحتفظ به الذاكرة وتنساق له النفس...!

وحين سئلت (حُرْقَةَ) عن صفة حالهم وملكهم، يبدو أن لديها الكثير لتقوله فتخير السائل /
المخاطب، فيطلب الإيجاز "أَطِيلُ أَمْ أُوجِزُ؟" ويطفو على سطح هذا الإيجاز التقابلي توتر ويرم
ملحوظ، ويُدخل هذا الخطاب في التقابل لأنه يتجاوز التضاد بين كلمتين ليكون بين حالين...!

أما جواب (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْدِرِ) فلم يجد سوى بنية التقابل لتوضيح البون الشاسع بين
حالهم في الماضي وحالهم الآن، كان جوابها: "أَصْبَحْنَا والنَّاسُ يَغْبِطُونَنَا، فَلَمْ نُمَسِّ حَتَّى رَجِمْنَا
عَدُونًا"، حالان تمثلهما هذه البنية التقابلية، الماضي/الحاضر، العز/الذل، الغنى/الفقر.

يبدو الزمن مختزلا بطريقة لافتة في هذا الخطاب التقابلي، حتى كأنه لم يكن، وحتى كأن ما حدث،
حدث بين عشية وضحاها، كلمحة بصر، أو كطرفة عين، وهي إشارة إلى سرعة زوال النعيم...!!

وفي معرض محاورة أخرى قالت (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْدِرِ) لزياد بن أبيه تدعو له بعد أن
أجزل لها العطاء: "أَطَعَمْتُكَ يَدٌ شَبَعَى جَاعَتٌ، وَلَا أَطَعَمْتُكَ يَدٌ جَوَعَى شَبَعَتْ" ^{٨٢١}

إنَّ هذا الخطاب المبني على التقابل يحمل أيضا بعدا حكْمياً، هو خلاصة البنية التقابلية العميقة،
الغنى والفقر ليسا اختزالا منصفا لهذه البنية التقابلية القائمة على التصوير لحالين متناقضين ينسبطان
على رقعة هذا الخطاب...!

إنّ هذه البنية التقابلية تحفزّ الذهن وتثيره للتساؤل: ما الفرق بين عطاء اليد الشعبي التي جاءت، واليد الجوعى التي شبعت...؟؟؟ الفرق في كمّ العطاء ونوعه وعاقبته، فاليد الشعبي على المعنى المجازي تترجم بأن صاحبها غنيّ، تقابلها اليد الجوعى التي تعني بأن صاحبها كان فقيراً، والغني تعود على العطاء ، وعلى أن يده (آلة العطاء) ممدودة للغير دون النظر في حجم العطاء ، وإن خسر ما عنده، والقصاص في ذلك شهيرة وكثيرة، وتقابلها حال الفقير الذي يده أيضاً ممدودة لكنها (آلة الأخذ)، والقبض، لا البسط ، وكما يقول المتنبي " لكل امرئ من زمانه ما تعودا.."، فمن اعتاد على العطاء والكرم يبقى كذلك وإن افتقر، ومن تعود على الأخذ والقبض يبقى كذلك وإن أصابه الغنى، ويظلّ ينظر لما يعطي، ويحرص على ما في يده خوفاً من فقده، ونظراً لحاله فهو يرى كل عطاء منه كثيراً، لأنه غير معتاد على مراودة الأموال والتصرف كمن عاش حياته منعماً مترفاً، فهو يرى كل عطاء قليلاً، فليس من الوارد أن يعير الغني بالعطاء الكثير، لكن من المحتمل أن ينظر الفقير محدث الغنى إلى كل قرش على أنه بلا عوض فيعير بالقليل وينظر فيه...!! وهذا ما يشكل تقابلاً بين الحالين مقدمة ونتيجة، على الأقل كما تراه (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِرِ) سليلة الملوك وحفدتهم التي اضطرت أن تأخذ عطاء من فاتح غازٍ...!! فهل يحمل خطابها هنا نوعاً من التعريض، أم أنه دعاء صرف، بنية خالصة في الشكر...؟؟!!

إنّ بنية التقابل هنا تكشف عن سلاح فتاك وفاعل، سلاح الكلمة الذي يسيطر على العقول والقلوب، ويوجه الأسلحة، وتثبت أن الرأي قبل شجاعة الشجعان، هو أول وهي في المقام الثاني، على ما يتطلبه إبداء الرأي من شجاعة أدبية وقوة نفسية، ومواجهة تعتمد عليها أمور كثيرة، مبرزة قوة في الفكر وذكاء في الذهن، ودراية بأمور الحرب والناس، وتكشفت عن موقف المرأة ودورها في معالجة تناقضات الحياة ونقاطها المفصلية بما في ذلك أثناء الحرب، وما قبلها وما بعدها، وقدرتها على استلهاً الحكمة وغرسها في منابثها في آن، استناداً إلى معرفة قبلية مستقاة من العالم الخارجي ومضيغة إليه.

ومن الملاحظ في خطاب المرأة الجاهلية في سياق الحرب، أن البحث عن بنية نسقية تتواتر فيها البنية التقابلية والطباقية على نحو ما أمر نادر نظراً لطبيعة الخطاب المختزلة من جهة، ومن جهة أخرى قد تكون البنية التقابلية منبسطة على مجمل الخطاب، الذي لا يتعدى الجملتين، أو يخلق بؤرة توتر على سطح ذلك الخطاب إن طال قليلاً، مما يفرز بنية إيقاعية موازية ومؤكدة للمعنى...!!

إنَّ حالة التقابل إنما تمثل حالة من التداعي الذهني، فذكر النقيض يستدعي ذكر نقيضه الآخر، وبالتالي هناك نشاط ذهني ومعنوي داخلي، يماثله أو يكون صورة عنه هذا السياق اللغوي المخصوص لإحداث مفارقة لافتة للخطاب ومعبرة عن المتكلم، وقد تقدم تفسيراً أو نصاً أو تهديداً أو مواجهة، بحسب السياق الخاص في السياق الحربي الكلي.

وفي المجمل نستطيع القول إنَّ الطباق والمقابلة يشحنان النص الأدبي بقيم السلب والإيجاب ويحدثان هذا الصدام مع المألوف والراكد، ويقدمان على إثارة ذهن وتحفيزه تجاه متناقضات الوجود الفكري والعاطفي وغيرهما، وهذا الإيقاع الحركي يحرك ذهن القارئ، من جهة و يؤثر على عواطفه من جهة ثانية، ويرسخ بهذا الإيقاع المعنى ، ويوجه المخاطب بحسب توجهات الخطاب من جهة ثالثة.

المُقَابَلَةُ

فِي (عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

من خطابات المرأة المسلمة في سياق الحرب وفي عصر صدر الإسلام ما يشتمل على بنية المقابلة، وما تشير إليه من اندياحات دلالية في الأسيقة المتنوعة داخل سياق الحرب ، وهنا نتلمس تأثير هذه البنية على الخطاب في بنيته السطحية والعميقة، وتأثيره على العالم الخارجي المحيط بسياق الاتصال، وتعبيره عنه في آن..!

فمن مقابلة اثنين باثنين، خطاب (أُمِّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ) ، بعد استشهاد ابنها:

" وَاللَّهِ لَا أَبْكِي عَلَيْهِ حَتَّى يَفْدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْأَلُهُ فَإِنْ كَانَ ابْنِي فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكُ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ ابْنِي فِي النَّارِ بَكَيتُهُ ، لَعَمْرُ اللَّهِ فَأَعَوْلْتُهُ فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَدْرٍ جَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَرَفْتُ مَوْجِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَبْكِيَ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: لَا أَفْعَلُ حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكُ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فِي النَّارِ بَكَيتُهُ فَأَعَوْلْتُهُ."^{٨٢٢}

هذا سياق فريد من نوعه، فيما بعد الحرب، لا نستطيع تصنيفه ضمن المتعارف عليه من التصنيفات، فهذه امرأة توجل لوعتها، وحرزها، بل وتوجل أي انفعال ، ولا يُدري كيف تفعل هذا...؟!، توجل كل شيء حتى ترى مكان ابنها، على الرغم من عدم اختلاف اثنين على مصيره، فهو شهيد، لقي حتفه بسهم في ساحة المعركة، قبل أن يبدأ القتال، فكان أول شهيد، ومع ذلك كل ما فعلته هو لزيادة التأكيد وليس الشك في مصيره، ولزيادة التأكيد وحدها أجَلَّتْ حتى الانفعال، حتى الحزن، حتى التعبير بالبكاء، والسبب تذكره في هذه البنية المتقابلة التي تنقلنا إلى مساحة أرحب ينداح بها الأسلوب في هذا الخطاب، حيث لم يعد سبب من أسباب الدنيا يستحق الحزن، وإن كان فقد فلذة كبد، أو تشرذم قطعة من الروح، الأهم أن يكون ذلك في مرضاة الله، " فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكُ عَلَيْهِ/ وَإِنْ كَانَ فِي النَّارِ بَكَيتُهُ "

إن هذه البنية التقابلية المتعلقة على ما دونها في مستوى هذا الخطاب، إنما وضعت الميزان القسط، والحكم العدل الذي لا تقبل هذه الأم بحكم سواه، كفتان لا غير: كونه في الجنة، كونه في النار، وإن كانت ستبكي فستبكي وتعول أيضا، لسبب وجيه، ليس لأنه قُتل، بل لأن ذلك كان على غير

^{٨٢٢} - المغازي للواقدي: في مقتل حارثة بن سراقة. ٩٤/١، البداية والنهاية، لابن كثير: ٣/ ٢٧٤-٣٢٨-٣٢٩، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، باب المغازي: ١٠٦/٦. الحديث رقم: ٢٨٠٩. وفيه إيضاح عن نسب أم حارثة .

ما يرضي الله، ومآله إلى النار، إنه سبب وجيه حقاً، أما غير ذلك، أن يكون قد قُتل و رُزق الشهادة، فلا بكاء ولا عويل، إنها البشارة بحسن الخاتمة والسعادة الأبدية، وما عسى أُمُّ أن ترجو لابنها خيراً من ذلك...!!

ولنتأمل هذه التحفة الشعورية الفريدة والتي تعطي كل ما فعلته هذه الأم ميزته الخاصة: "يا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَرَفْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي..". لنعلم مقدار هذه التضحية التي تشهد عليها رسول الله ﷺ...!! دافعة الشك باليقين، فقد ينكر عليها أحدهم حزنها لفقد ابنها، فهو إذن إسهاد احترافي..!

إنَّ البنية الأفقية التي قام عليها هذا المد التقابلي العامودي، لهي الدعامة الأساس لهذا الانزياح الأسلوبى في هذا الخطاب، هذه البنية التحتية التي عمادها هذا السياق اللغوي المعتمد على الخبر الإنكاري، ثم بنية التقابل نفسها المتخلقة في أسلوب الشرط الذي يعطيها فاعليتها وتوازنها...!!

ومن هذا النمط خطاب (جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ) تَقُولُ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَتْ: "جَاءَنَا حَبْرُهُ وَمَقْتَلُهُ وَمَسِيرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسِيءَ أَبِي وَمَنْ مَعَهُ وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ قَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَفْنَاءِ الْعَرَبِ ، فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَاهُمْ." ٨٢٣

وموطن الجملة التقابلية هو قولها: "...، وَتَفَرَّقَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ قَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ..". وَتَفَرَّقَ/ اجْتَمَعَ، عَنْهُمْ/ إِلَيْهِمْ. وهذا السياق اللغوي الذي يتأثر إيجاباً ببنية مصاحبة هي بنية التقديم والتأخير، يأتي متسقاً مع سياق الواقع الجديد المهدد، والذي يقرب كل شيء رأساً على عقب، وكنتيجة للقوة القادمة مع الدين الجديد (قوة السيف)، ومع الانتصارات التي حققها هذا الدين والتي انتشرت انتشار النار في الهشيم، تخلخت التحالفات القائمة ضد هذا الوافد الجديد، وتفرقت بعد اجتماعها، لأن توازن القوى على أرض الواقع كان قد تغير، ويميل ميلاً كاملاً لصالح النبي ﷺ والدين الجديد، مما يعطي هذا التقابل اللغوي ترجمته الحرفية للواقع المعيش، وفيه إعادة ترتيب الواقع وفق تركيبة جديدة...!

٨٢٣- المغازي للواقدي: ١/ ٤٠٦، في خبر غزوة المريسيع، السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٦٤٥، الروض الأنف، للسُهيلي: ٤/ ٢٠-١٩. تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢/ ٦١٠. سنة ٦هـ. في ذكر غزوة بني المصطلق. البداية والنهاية. لابن كثير: ٤/ ١٥٩. ٨/ ٤٩. سنة ٦هـ. البدع والتاريخ، المقدسي: ص: ٣، وانظر في خبرها أيضاً: من روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم الجوزية: ص: ١٤٦-١٤٧، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٠٤.

وفي تركيب تقابلي آخر قوامه الجملة الاسمية، من مقابلة اثنين باثنين وصية الخنساء لبنيها في القادسية: " يَا بَنِيَّ ..، إِنَّكُمْ أَسْلَمْتُمْ طَائِعِينَ، وَهَاجَرْتُمْ مُخْتَارِينَ، وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَبَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنْتُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مَا خُنْتُ أَبَاكُمْ، وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، وَلَا هَجَنْتُ حَسَبَكُمْ، وَلَا غَبَّرْتُ نَسَبَكُمْ، وَقَدْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ فِي حَرْبِ الْكَافِرِينَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدَّارَ الْبَاقِيَةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الْفَائِيَةِ،..."^{٨٢٤}

فقول (الخنساء): "... إِنَّكُمْ لَبَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنْتُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ،..."، هو محل التقابل في بنية الخطاب، وهو تقابل له وجاهته، فتقابل اللفظ هنا يوازيه توافق في المعنى، فدلالة ذلك طهارة وسمو ونقاء هذا الأصل الكريم الذي ينحدر منه هؤلاء الأبناء، فقد جمعوا العز من طرفيه، و أمسكوا الكرم من لا بتيه، وعليهم ألا يفرطوا في ذلك، هذا هو المطلوب منهم، أن يحافظوا على هذه المكتسبات التي صنعها لهم الآباء!..

إن تخير التعبير بالجملة الاسمية المثبتة، تبيين قيمته من الناحية الأسلوبية حينما تستكمل خطابها بعد ذلك بسيل من النفي المتوالي عبر جمل فعلية ماضية، هذا النفي الذي يتساقق دلاليا مع الجملة التقابلية المثبتة قبله، ويعطيها بهجتها وألقها الأسلوبية!..

وفي سياق الدعوة إلى الدخول في الإسلام، والحرب على الشرك، يأتي خطاب (أم سليم ابنة مِحَان) حين طلب أبو طلحة الزواج بها، كان رجلا جيدا بالنسبة لها، ولكن كان فيه عيب واحد يحول دون هذا الأمر، بل يجعله مستحيلا، ننتبينه من خطابها التالي:

" يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا مِثْلَكَ يُرَدُّ، وَلَكِنَّكَ امْرُؤٌ كَافِرٌ، وَ أَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ، لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ، فَإِنْ تُسَلِّمَ فَذَلِكَ مَهْرِي لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ...!!"^{٨٢٥}

إن التقابل الاسمي بين اثنين في قولها: " لَكِنَّكَ امْرُؤٌ كَافِرٌ، وَ أَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ..."، هذا التقابل الذي يتوسط نفيين، بينما يتحلق بذاته في بنية استدرابية بـ(لَكِنَّكَ)، تعطي البعد الاحتمالي وتفتح نافذة

^{٨٢٤} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧. أسد الغابة، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-٢٨٨-٢٨٩. الوافي بالوفيات، للصفدي: ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦، الفاضل في صفة الأدب الكامل، للوشاء: ص: ٢٢٠-٢٢١، وانفرد ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤/ ٣٨٥ بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزنة الأدب، للبغدادي: ١/ ٤٣٤. ^{٨٢٥} - أسد الغابة، لابن الأثير: ٢/ ٣٦١.

الأمل لهذا الخاطب، ولأم سليم نفسها، التي ترى في هذا الرجل ما يستحق المحاولة، ولكن هذا الاستدراك هو أيضا يعطي احتمالا مزدوجا آخر، هو عدم القبول به، لتأتي بنية الشرط التي ختمت بها خطابها ثمارها بعد ذلك كله...!!

تصف (أُم سَنَانِ الْأَسْلَمِيَّةُ) الظروف الاقتصادية والمناخية الشديدة والعسرة التي كانت إبان الإعداد والتجهيز لغزوة تبوك، وانعكاس ذلك على أحوال الناس، وردود أفعالهم على ذلك، فعلى المستوى الاقتصادي، بادرت النساء بالتبرع بما يملكنه من حُلِيٍّ، بينما على الصعيد المناخي القاسي بحرارته الشديدة قد فرض على الناس حب الإقامة، وليس السفر، فكيف بالتوجه إلى الحرب والقتال...؟! ، تقول: "... وَالنَّاسُ فِي عُسْرَةٍ شَدِيدَةٍ وَحِينَ طَابَتْ الثَّمَارُ، وَأَحْبَبْتُ الظَّلَالَ، فَالنَّاسُ يُحِبُّونَ الْمُقَامَ، وَيَكْرَهُونَ الشَّخُوصَ عَنْهَا عَلَى الْحَالِ مِنَ الزَّمَانِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بِالْإِنْكِمَاشِ وَالْجِدِّ..."^{٨٢٦}

فهنا جملة متقابلات، بل هو سياق تقابلي بالجملة بين حالين رئيسين: حال الدعة وحال العسرة، ولكن أحدها صريح واضح، و الآخر مستنتج من سياق الخطاب..!

فالأول هو ما يسمى بمقابلة المعنى، في قولها: " وَالنَّاسُ فِي عُسْرَةٍ شَدِيدَةٍ / وَحِينَ طَابَتْ الثَّمَارُ، وَأَحْبَبْتُ الظَّلَالَ، .. " فما يقابل حال العُسْرَةِ هو حال الرخاء، لكنها لا تأتي بها صريحة، بل تغرسها في بنية كنائية تعطيها سمنا أسلوبيا خاصا: "... وَحِينَ طَابَتْ الثَّمَارُ، وَأَحْبَبْتُ الظَّلَالَ...!!"

أما الوجه التقابلي الآخر فهو قول (أُم سَنَانِ) صريحا: "... فَالنَّاسُ يُحِبُّونَ الْمُقَامَ، / وَيَكْرَهُونَ الشَّخُوصَ .."، وتأتي القيمة المعنوية للظعن والإقامة، من تذييلها "عَلَى الْحَالِ مِنَ الزَّمَانِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، .."، أي على هذه الحال المخصوصة التي وصفتها، مما يعطي الشدة والعسرة وكراهة الخروج مداها الأبعد، وكراهته المطلقة، وتصور هذا البلاء العظيم، لدرجة الفتنة في هذا الخروج لذاك الوجه...!!

وهناك حال أخيرة تشكل نوعا من التقابل مع ما قبلها، "... وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بِالْإِنْكِمَاشِ وَالْجِدِّ..."، إنها تقابل حال الدعة والرخاء السابقة: " وَحِينَ طَابَتْ الثَّمَارُ، وَأَحْبَبْتُ الظَّلَالَ..."، فبينما توافرت الخيرات، وطابت الثمار، وأحب الناس الظلال هربا من حرارة الشمس اللاهبة

^{٨٢٦} - المغازي للواقدي: ٣/ ٩٩٢، في تجهيز غزوة تبوك، مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١/ ١٦٤. وترجمتها في: الطبقات الكبرى، لابن سعد: ١٠/ ٢٧٦-٢٧٧.

بكل تأكيد، نجد الحال المقابلة لذلك، هي العزوف عن ذلك كله، والعيش في التقدير الاختياري، فيما يشبه سياسة التقشف التي تطبقها بعض الدول في الأزمات الاقتصادية الكبرى..!

وبكل تأكيد فإن هذه البنية التقابلية في هذا السياق الإخباري السردية، والمتخلقة في رحم الأسلوب التصويري، قد أضفت الحيوية لهذا الخطاب، وارتادت به آفاق دلالية، فتحت نافذة على حياة المجتمع و الناس، وخياراتهم، وابتلاءاتهم الإيمانية في معاشهم كما في أرواحهم، وفي بذلهم المادي، كما في صمودهم المعنوي والروحي، وبحق كانت غزوة العسرة..!!

وفي خطاب (خَوْلَةَ بِنْتِ الْأَزْوَارِ) لأخيها (ضرار) في اليرموك وقد أراد مواجهة العدو، وقد امتلأت خوفا عليه، فبكت وقالت له: "يا أخي افعل ما تريد أن تفعل والحق عدوك وأنت موقن بالله تبارك وتعالى فإنه لكم ناصر، وأن عدوك لا يقرب إليك أجلاً بعيداً، ولا يبعد عنك أجلاً قريباً، فإن حدثت عليك حدث أو لحقك من عدوك نائبة فوالله العظيم شأنه لا هدأت خولة على الأرض أو تأخذ بئارك" ^{٨٢٧}

إن الإرباك النفسي والعاطفي، وروح القلق التي تتلبس وجدان هذه الأخت الملتاعة على أخيها، تفضحها بنية التقابل المنسابة في بنى تركيبية نابضة وفاعلة، فمن أنواع الإنشاء (نداء، أمر)، إلى بنية خبرية إنكارية بمؤكدات متنوعة، وحينما يعلو نبض توترها و ترددها بين الخوف والرجاء، تتخلق بنية التقابل مزروعة عبر أسلوب التقديم والتأخير في خمسة مواطن على رقعة هذا الخطاب المختزل، اثنين منها مُتَسَجِّين في بنية المقابلة ذاتها..، هذا التآزر بين هذه البنى التركيبية المتنوعة، هو الذي أعطى هذه الدلالات وضوحها وعمقها ورسوخها، بل وصدقها أيضاً.. وشكل دعامة أساس تتبلور عليها بنية التقابل..!

ويأتي خطاب آخر لـ (خَوْلَةَ بِنْتِ الْأَزْوَارِ) في سياق السخرية والهزء ببطرس قائد الروم الذي أسر النسوة العرب، وأعجب بخولة فأبت عليه ذلك، فلما غلبهم جيش المسلمين، فر بطرس بعد أن قال: "انطلقني إلى أخيك فقد وهبتك له"، فقالت له (خَوْلَةُ): "لَيْسَ هَذَا مِنْ شَيْمِ الْكِرَامِ، تُظْهِرُ لَنَا الْمَحَبَّةَ وَالْقُرْبَ ثُمَّ تُظْهِرُ السَّاعَةَ الْجَفَاءَ وَالتَّبَاعِدَ ..!!" ^{٨٢٨}، ويبدو أن (خَوْلَةَ) لا تترك تأرها أبداً ولا آخر لحظة..!!

^{٨٢٧} - فتوح الشام، للواقدي: ١ / ١٦٢ .

^{٨٢٨} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤٩ .

وفي سياق معركة اليرموك نفسها، يسجل الواقدي إعجابه بشجاعة النساء حينئذ، حيث استشاط بطرس غضبا من النسوة المسلمات، اللاتي نزلن مقاتلات شرسات في أرض المعركة، فقد ذكر أنهن قتلن ثلاثين فارسا من الروم، فلما نظر بطرس إلى ذلك غضب غضبا شديدا وترجل وترجلت أصحابه نحو النساء، والنساء يحرض بعضهن بعضا ويقلن: "مُتَنَ كِرَامًا وَلَا تَمْتَنَ لِنَامًا".^{٨٢٩}

هذه بنية تقابلية متشبهة من (الأمر/النهى)، لا فضول ولا زيادة، ولا حشو، كل هذا يتناسب مع الموقف الاتصالي في سياق الحرب التعبوي التحريضي و المأزوم في تلك اللحظة..!

وبين (الأمر والنهي)، تتفتق قيم البطولة و الشهامة والتضحية والفداء، وكأن الحياة و الممات يُختزلان بين معادلين موضوعيين هما هذا الأمر و ذاك النهي، و لا شيء آخر بينهما..!

وبين متقابلين في الشكل (الأمر، النهي)، هناك اتفاق على كليهما في المضمون، على الموت بكرم، وعدم الموت على اللؤم، مما يحمل المتلقي على الانفتاح على دلالات كل منهما، ويواجه نفسه تلقائيا بنوع خياراته في الحياة..!!

إنّ هذه البنية التقابلية في اختزالها، وموطنها من سياق الحرب، أشبه ما تكون بشعار، يختصر كل القيم والمبادئ و المعتقدات التي تؤمن بها هاته النسوة، وتلك التي لا تؤمن بها، أي ما هو على طرفي نقيض من حيث تفق هاته النسوة، بل هي تحمل الرؤية الشاملة لهنّ و هنّ يحضن بعضهن بعضا على القتال، منظور شامل لما يجب أن يعشن عليه، أو يمتن من أجله..!!

أما (أسماء بنت عميس)، فتقول في خطابها عن هجرتهم إلى الحبشة ومعاناتهم النفسية والمادية: ".. وَكُنَّا فِي أَرْضِ الْبُعْدَاءِ الْبُعْضَاءِ.."^{٨٣٠}، والأخرى معادل موضوعي يفهم من السياق نفسه، ويقدر ب: (وأنتم في أرض القرباء الأحباء). مقابلة بين حالين إحداها مذكورة في السياق والأخرى يستدعيها الذهن قسرا لضرورة إتمام السياق اللغوي والمعنوي من قبل المتلقي في الموقف الاتصالي، ولا ضرورة لأن يصرح به، أو أن يعمل ذلك متعمدا، بل هو استدعاء عفوي يحدث في سياق العملية الاتصالية، وهو من باب التلميح المفهوم، الذي قد لا يجد المتكلم ضرورة لذكره مباشرة..!!

^{٨٢٩} - السابق: ٤٨ / ١.

^{٨٣٠} - زاد المعاد في هدي خير العباد: ٣ / ٣٣٢، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٢٠٥.

وكما ذكر آنفا عن الطباقي، يذكر هنا من انحسار المقابلة كمحسن بديعي من على رقعة الخطاب النسوي في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، وأكثرها فاعلية هو ما كان في عصر الفتوحات الإسلامية..!

ويُلاحظ أيضًا أن هذه المقابلات قصيرة النَّفس في هذا السياق، فمعظمها إن لم يكن جُلّها من مقابلة اثنين باثنين، في نسق جُملي، لا في بنية نسقية تتواتر اطرادًا في هذا السياق الحربي،

وكما هي البنية التقابلية في خطاب المرأة الحربي في العصر الجاهلي، تكون في عصر صدر الإسلام، فقد تكون البنية التقابلية منبسطة على مجمل الخطاب، الذي لا يتعدى الجمليتين، أو يخلق

بؤرة توتر على سطح ذلك الخطاب إن طال قليلا، مما يفرز بنية إيقاعية موازية ومؤكدة للمعنى..!!

وفي خطاب المرأة المسلمة كما في خطاب المرأة الجاهلية، تشكل حالة التقابل نوعا من التداعي الذهني، فذكر النقيض يستدعي ذكر نقيضه الآخر، وبالتالي هناك نشاط ذهني ومعنوي داخلي، يماثله أو يكون صورة عنه هذا السياق اللغوي المخصوص لإحداث مفارقة لافتة للخطاب ومعبرة عن المتكلم، وقد تقدم تفسيراً أو نصحا أو تهديدا أو مواجهة، بحسب الموضوع الخاص في السياق الحربي الكلي.

والخلاصة بين العصرين تبدو واحدة.. الطباقي والمقابلة يشحنان النص الأدبي بقيم السلب والإيجاب ويحدثان هذا الصدام مع المألوف والراكد، ويقدمان على إثارة الذهن وتحفيزه تجاه متناقضات الوجود الفكري والعاطفي وغيرهما، وهذا الإيقاع الحركي يحرك ذهن القارئ، من جهة و يؤثر على عواطفه من جهة، ويرسخ بهذا الإيقاع المعنى ، ويوجه المخاطب بحسب توجهات الخطاب .

الفصل الثالث

البنية التصويرية وإبداع الدلالة

مدخل

أهمية الصورة الشعرية في إبداع الدلالة

يُعدُّ الخيال من الوظائف العقلية العليا، والتي يتمتع بها الإنسان بصفة عامة، وتعد من أهم مميزات المبدعين بخاصة، وبه أيضا يتفاوت إنجازهم الفني، والتجربة الفنية تعتمد فيما تعتمد في شبكة علاقاتها المتعددة والممتدة على الفكر والخيال.

والخيال هو منبع الإبداع، وكلما كان خصبا وثرًا، كان توليف عناصره مبها ومفاجئا، يخلق بنا في عوالم الدهشة، ويخلق عالما افتراضيا معبأ بفلتات هذا الخيال، ومعبرا عن التجربة الفنية، ولأن الأدب أدواته اللغة، فإننا على مستوى الخيال، ننتظر صورة لغوية نابضة بالخلق والإبداع ومغذاة بكل ما من شأنه أن يعطيها إشراقتها وصيرورتها الفنية ..، إن طموح التكوين التصويري الجيد يكون منصبا وموجها نحو إنتاج دلالة ذات صلة فورية بالتجربة الفنية، إنها تخليد فني للزمان والمكان والشعور، وهي تعميم للبنية الجمالية في الخطاب، وبها جانب إبلاغي للدلالة..!

الصورة الأدبية هي البؤرة التي تتكثف فيها التجربة الإبداعية، وحين تشظيها نقديا تشع جوانب عدة تسقطها على مرايا الفكر والروح، لأنها انعكاس أو نتاج لهما.

ولطالما كانت هذه الصورة الأدبية الفنية محور اهتمام النقاد قديما وحديثا، فقديما كانت الصورة القرآنية، والتصوير في الحديث النبوي، محط الاهتمام. أما في الأدب فقد كانت واردة جدا في الحديث عن تمايز الشعراء وطرافتهم والحكم على موهبتهم، وفي الحديث عن الموازنات وعن السرقات الشعرية، وفق ثقافتهم ومفاهيمهم الموضوعية والنقدية آنذاك، وهو حديث أيضا لم يتجاوز الإشارة إلى الطبيعة و الوظيفة الفنية لهذه الصورة.. وعن مدى التناسب الذي ينتظم مفردات هذه الصورة^{٨٢١}

^{٨٢١} - انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور: المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٩٢،

والحقيقة أنه على المستوى اللغوي فإن ما يعطي لهذه الصورة قيمتها مدى خرقها للتعبير المعياري عن الأشياء مما يشكل انزياحا جماليا في هذا التعبير اللفظي...!

وتعدُّ الصورة حاملا للفكرة وموضحة لها في آن، وليست حلية تقوم على مناورة لفظية بغية استقطاب السمع والنظر..! وبذا فالحديث عن الصورة ليست غايته البحث أو الربط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، أو المعنى القريب والمعنى البعيد، أو إدراك لوجه شبه، بل هو تغور في التركيب بغية الوصول إلى المعنى الجمالي والفكري لهذه الصورة ومدى إيضاحها لتجربة المبدع، وإدهاش المتلقي في آن، دون أن تنفصل عن شبكة العلاقات داخل الخطاب...!!

هذا المتلقي الذي يستقبل الصورة، ويسهم في إنتاجها بما تثيره فيه من صور ذهنية تطفو كاستجابة لوعيه بنفسه وبالحياء من حوله، هذه الصورة التي تقدم له إدراكا جديدا للحياة بمنظوماتها المختلفة...! يقول هنري موشينيك: " يبدو أن ما يطلق عليه تسمية صورة هو في الآن ذاته، الأكثر دلالة بالنسبة لرؤية معينة إلى العالم والأكثر بعدا عن الضبط...^{٨٣٢}

يعد الحديث عن الصورة الفنية كإيحاء وكمصطلح أمرا معقدا جدا، وفي معرض حديثه عن صعوبة تحديد تعريف لمصطلح الصورة الفنية يقول فرانسوا مورورا: " الصورة بمعناها الأسلوبية تمثل لعلاقة لغوية بين شيئين...^{٨٣٣}، ثم يذهب إلى متابعة مقولة النقاد في الأطراف التي تشملها الصورة، يقول: " .. فمن النقاد من يطلق تسمية الصورة على الطرفين المقربين، ومنهم من يخص بهذه التسمية الطرف المصوّر، ومنهم من يشير باسم الصورة إلى محسن بعينه...^{٨٣٤}.

ويرى فرانسوا مورورا أن الصورة: " طريقة في الكلام"^{٨٣٥}، وإلى ذلك يذهب الدكتور جابر عصفور فيراها: " طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير"^{٨٣٦}، وأيا كان هذا التأثير فإنه لا يغير من طبيعة المعنى أو

^{٨٣٢} - البلاغة، المدخل لدراسة الصور البيانية، فرانسوا مورورا، تر/محمد الولي، عائشة جريب: أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠٣ م. ص: ١٧.

^{٨٣٣} - نفسه.

^{٨٣٤} - نفسه.

^{٨٣٥} - نفسه: ص ١٩.

^{٨٣٦} - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. جابر عصفور: ص ٣٢٣.

يخلق معنى جديدا، بل هي تقدم طريقة أخرى لعرض المعنى، وحتى لو حذفنا هذه الصورة فإن المعنى الأصلي لا يختل أو يختفى^{٨٣٧}، ولكن بهجة ما تزول وإشراقه ما تنطفئ...!!

وبعد.. فإن للصورة الفنية أنماط كثيرة ومتنوعة توقف عندها النقاد قديما وحديثا، ولكن هذا المبحث يتوقف على أنماط الصورة التي حملها خطاب المرأة وعبرت عن تجربتها في سياق الحرب متوقفين عند (الصورة التشبيهية. الصورة الاستعارية. الصورة الكنائية) بوصفها صورا شعرية، وهي ما قد يدخل ضمن الاستراتيجية التلميحية، فكيف تجلّت هذه الصورة، وما أبعادها؟؟ وهل عبرت عن رؤية المرأة وأبعاد تفكيرها، والدلالات التي أمت إليها؟؟ هل نقلها بالفلسفة أم أن هذه الصورة كانت عدسة لاقتة تسجيلية ومقاربة لمحسوس الأشياء بكل ما للكلمة من معنى.. ومقاربة هذا البحث هي مقاربة لهذا الخطاب وليست حكما نهائيا عليه...!!؟؟

المَبْنَعَةُ الْأَوَّلُ:

الصُّورَةُ التَّشْبِيهِيَّةُ

فِي (العصر الجاهلي)

مدخل

التشبيه في اللغة: الشَّبَهُ والشَّبَهُ والشَّبِيه: المَثَل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء الشيء: ماثله ، والتشبيهُ: التمثيل.^{٨٣٨}، وهذا يعني أن اللغويين بداية لم يميزوا بين التشبيه والتمثيل، نجد ذلك أيضا عند بعض البلاغيين القدامى كالزمخشري وابن الأثير، بل إن ابن الأثير كان قد نعى على من فرق بينهما إذ إنهما باب واحد ولا فرق بينهما في الأصل اللغوي، بينما يختلف موقف المتأخرين الذين فرقوا بينهما.^{٨٣٩}

لكن الجرجاني في أسرار البلاغة ميز بين التشبيه والتمثيل، يقول: "اعلم أن الشئيين إذا شُبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما: أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج إلى تأويل، والآخر: أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأويل"^{٨٤٠}، والأول هو التشبيه المعروف، والثاني هو التشبيه التمثيلي أو التمثيل .

ومصطلح التشبيه شأنه شأن كثير من المصطلحات التي كانت ترد في كتب القدماء دون أن يرد لها تعريف محدد، أو حد تضبط عليه، وهذا أمر طبعي في نشأة العلوم، لكن مع تنبه العلماء لهذا المصطلح وتعمقهم في المنحى البلاغي ، ظهرت حوله دراسات كثيرة، وتعريفات تناولته من جوانب شتى، ولعلنا نكتفي بذكر بعضها الذي استقر عليه الحد عند المتأخرين منهم، كتعريف ابن الأثير، يقول: " أن يثبت للمشبه حكما من أحكام المشبه به"^{٨٤١}، أو كما قال القزويني: "التشبيه الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى"^{٨٤٢}، مخرجا إياه عن نطاق الاستعارة والكناية، ولتحقيق أغراض بلاغية متعددة ومختلفة.

ومؤدى تلك التعريفات واحد، إذ كلها ينصب على أن التشبيه هو " ربط شئيين أو أكثر في صفة

^{٨٣٨}-اللسان:(شبه).

^{٨٣٩}- انظر:معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: ١٦٦/٢.

^{٨٤٠}- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ص: ٩٠.

^{٨٤١}- المثل السائر، لابن الأثير: ٢/٢٨٣.

^{٨٤٢}- الإيضاح، للقزويني : ص: ١٨٨.

من الصفات أو أكثر، لكن البلاغيين اختلفوا في هذه الصفة أو الصفات ومقدار اتفاقهما واختلافهما.."

٨٤٣

ويبدو أن الميل، أو الانتصار للتشبيه لم يكن لأسباب فنية فقط، بل لطبيعة فكرية تشيع في عصر من العصور حيث هيمنة المنطق، والربط العقلي المتدرج بين الأشياء، وحيث العقلية التي تستريب من إلغاء الحدود المميّزة بين الأشياء في العالم الواقعي، حينها يسمح بحركة محدودة للخيال، لا تتجاوز الإطار المذكور، يشيع ذلك بلا شك في العصور الكلاسيكية، أما الاستعارة التي تخترق العوالم وتلغي الحدود، وتعطي هذا التماهي بين الأشياء، حيث الخيال سيد الموقف البلاغي والتعبيري، نجده عند الرومانسيين المحلّقين خارج المنطقي والمألوف.^{٨٤٤}

ويتوقف هذا المبحث عند بعض نماذج التشبيه المستلة من خطاب المرأة في سياق الحرب، التي تشكل صورة، ويتفحص مدى استلهاام المرأة للتجربة في ذاتها، ومدى تمثيل تلك الظواهر التشبيهية لسياق الحرب خاصة ولسياق حياة المرأة وظروفها بعامّة..!

ومن أنماط الصورة التشبيهية ما ورد في خطاب (أمّ الشنفرى) في صفة الولد الذي تتمنى:^{٨٤٥}
بل أريدهُ ذا نجدة ، سريعا في العِدّة، لا تتنيه الرعدة، ولا تحويه الشدّة، كأسدٍ ذي لبْدَة^{٨٤٦}

إن موطن الصورة التشبيهية في قولها (كأسدٍ ذي لبْدَة)، هاء الغائب في (أريده) هي المشبه، والمشبه به (أسدٍ ذي لبْدَة)، بأداة تشبيه بارزة هي (الكاف)، وطرفا التشبيه هنا حسيّان هنا، ومع أن أركان التشبيه حاضرة ما عدا وجه الشبه، إلا أن ذلك لا ينقص من القيمة المعنوية لهذه الصورة، إن هذه الصورة التي ترمي إلى تزيين المشبه وتحسينه، إنما تخلقت في رحم الضعف والإهانة اللذين تشعر بهما وتعيشهما (أمّ الشنفرى)، وهي صورة تحقق معادلا موضوعيا لحالة الهزيمة والأسر بأقوى وأكبر وأخطر وأشرف ما تعرف من السباع، وهو ليس سبعا أو أسدا صغيرا، بل هو تام التكوين في أقوى مراحل حياته، والدليل أنه " ذي لبْدَة "، صورة هذا الأسد في قمة عنفوانه، تعطيه اللبدة صورة بصرية مكبرة، مما يجعله مهيبا من فرائسه، وهو سيد بينما هي أمة أسيرة، هذه المقابلة المعنوية من بسط

^{٨٤٣} - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: ١٧٠/٢.

^{٨٤٤} - انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. جابر عصفور: ص: ١٩٩.

^{٨٤٥} - تمثال الأمثال: العبدري: ١/ ٣٢٢.

^{٨٤٦} - واللّبْدَة الشعر المجتمع على زبرة الأسد؛ والشعر المترابك بين كتفيه. وفي المثل: هو أمتع من لبْدَة الأسد، لسان العرب لابن منظور. "لبد".

السيادة والشرف والقوة والنفوذ والجمال، هي خلاصة هذه الصورة المستقاة من البيئة، وهي الخلاصة لجملة الصفات المعنوية قبلها والتي جعلت من صورة الأسد إطارا لها...!!

صورة أخرى منتزعة من حال غزو وأسر مريرين، حين أغار عمرو بن الهبولة العسائي وكان الحارث غائبًا، فغنم وسبى، وكان فيمن سبى (أم أناس بنت عوف بن محلم الشيباني) امرأة الحارث بن عمرو، فقالت لعمرو في مسيره: "إني لأرى ذات ودك، وسوء درك، كأني قد نظرت إلى رجل أسود أدلم، كأن مشافره مشافر بعير آكل مرارًا قد أخذ برقبتيك" ^{٨٤٧} ولو دققنا النظر في مفردات هذا التشبيه لوجدنا التالي:

أداة التشبيه: كأن، التي تدخل على المشبه ^{٨٤٨}، المشبه: حال (أم أناس) وهي في الأسر، المشبه به: (أم أناس) في الروية، في نوع من التجريد، أما وجه الشبه فهو الصورة المنتزعة من الرؤيتين مجتمعتين، وهي إيقاع الرهبة والرعب المتحصلة من المبالغة في وصف الناقة والزوج، وبذا يكون هذا التصور أقرب إلى التشبيه التمثيلي.

في هذا الخطاب تنتقل بنا (أم أناس) إلى فضاء افتراضي، يأخذ بأيدينا إلى مكان آخر، وزمن آخر، ومعايير سياقية أخرى، توسع مشهدية الأمل بهذا الخطاب المغروس في بنية التوكيد، مرة أخرى كمعادل موضوعي لحالة الأسر والحصار، بل وتغيير قواعد اللعبة، ببناء عالم مقابل له أبعاد مكانية وزمانية، وله شخوصه أيضا، وفاعليته التي تنتهي بالنصر...!!

هذا العالم.. حيث تمتد (أم أناس) برويتها فيه لتحاصر الخصم، وتصوغ صورة من المتقابلات في بنية تشبيهية بأداة التشبيه (كأن)، هذه المتقابلات هي: (أم أناس) الأسيرة في الواقع / (أم أناس) المترقبة في عالم من رؤى مؤكدة، الزوج / الغازي، راحلة الزوج / راحلة الغازي..!

وتفتتح (أم أناس) صورة هذا الروية بصورة للناقة التي تطارد الغازي، فهي: "... ذات ودك، وسوء درك..."، (فأم أناس) تصور الناقة على أنها مكتنزة دهنًا، والغاية من ذلك أن لها همة على المسير، والنتيجة أنها تدرك من تطلبه بسوء، وهي بلا شك صورة مفزعة ومهددة، ومبالغة في الإفزاع

^{٨٤٧} - الأغاني، للأصفهاني: ٣٨٢/١٦. السيرة النبوية لابن هشام: ٥٨٧ / ٢. خزنة الأدب: للبغدادي: ٢٨٤/١٠. الإكمال، ابن ماکولا: ص: ١١٣/١، وكذلك ذكر في الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١ / ٣٩٥، في قصة يوم اليرقان .
^{٨٤٨} - انظر: علم البيان. عبد العزيز عتيق: ص: ٧٨.

والتهديد، تصف راكب هذه الراحلة بما يزيد عن وصفها للناقة نفسها، " .. كَأَنِّي قَدْ نَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ أَسْوَدَ
أَدْلَمَ، كَأَنَّ مَشَافِرَهُ مَشَافِرُ بَعِيرٍ أَكَلَ مُرَارًا " وكتوكيد للمصير الشنيع لهذا الخاطف السارق " قَدْ أَخَذَ
بِرَقَبَتِكَ " لتنتهي الرؤية الحلم كما تشتهي وتتمنى..!

لقد اختارت (أم أناس) الحجم الضخم والسرعة المبرقة للتعبير عن الناقة ككل، ولكنها أيضا
اختارت بداية تعبيراً لونياً عن الزوج ككل (السواد) المؤكد بصفة أخرى تدل على السواد أيضاً: (أدلم)،
لا تخترق هذه اللوحة الحالكة سوى أسنان الحارث الظاهرة بوضوح من تكشيرته، إذ تقلص شفتاه إلى
أعلى كأنه قد أكل من نبات المرار، وهما ليستا شفتين عاديتين، فقد تضاعف حجمهما كثيراً، حتى
لكنهما مشفراً بعير على غير العادة..!!

ومع ملاحظة أداة التشبيه (كأن) في صدر هذه الصورة إلا أن ما بعدها جاء استعارة مكنية على ما
يبدو..!! يقول صاحب اللسان: "والمشْفَرُ للبعير: كالشفة للإنسان، وقد يقال للإنسان مشافر على
الاستعارة .. " .^{٨٤٩}

إن هذه إذن صورة غاضبية فاتكة مفترسة، اختارت (أم أناس) هذا الموضع (الشفاه) لتضاعف
حجمه وتبرزه ناتئاً على مساحة الصورة اللونية المسطحة لكي تعطي فاعلية الافتراض والانقراض،
وبقياس السرعة كوحدة كمية بين المسافة والزمن، اللذين تتراءى فيهما هذه الصورة، فإن الصورة
النهائية، هي توحد صورة الناقة وراكبها، ليغدوا بنية كلية واحدة، تنماهى حدودها وتفصيلها بفعل
سيطرة اللون الأسود على الصورة، فلا يبرز سوى هذا الكيان الضخم بهذه الأشفار المكشرة، كمبالغة
في الحجم، ولأنها من بيئة بدوية فإن الجميع يعرف كيف هو البعير حين يغضب، وكيف لا ينسى تأره
أبداً ولذا ضرب المثل به في الحقد..!!

ومن تلك التفاصيل تتخلق لنا صورة بصرية تهويلية في المقام الأول، يسيطر عليها الحجم واللون
الأسود بدلالته في السياق، ممزوجة بمذاق مر، كانطباع عن نبات (المرار)، ليعطي هذه الوظيفة
الدالية للصورة التشبيهية وهي استنقاذ نفسها وفل عزيمة هذا الغازي المتعطرس لتشتيت انتباهه
عنها..، وهو ميكانيزم دفاعي لغوي له هذا الإسقاط النفسي المرير على المخاطب..!!

وهذه الرؤية التي يتقاسمها البصر كما البصيرة هي حلقة في متتالية من الرؤى، و(أم أناس) تتخذ التجريد وسيلة لهذا كله، حيث تنشطر على نفسها لتصبح هي المشبه والمشبه به في آن...!!
وبعد..إنها صورة كلية مركبة، لا من حيث مفردات الصورة وتفصيلها فحسب، بل من حيث دمجها البعدين التشبيهي والاستعاري معا...!!

إننا لا نستطيع إدراك هذه الصورة بكل تجلياتها إذا فصلنا ما هو تشبيهي عما هو استعاري لتداخلهما وتضافرهما معا في تشكيل المفهوم الكلي لهذه الصورة بأبعادها اللغوية والفنية والنفسية والفكرية والسياقية، ولذا ينبغي هنا عدم فصلهما لأنهما معا يشكلان مظهرين للأداة نفسها، ونعني بها: الصورة. ٨٥٠

وقد تتحول المرأة إلى عدسة تصويرية راصدة، يعينها على ذلك حبها الإيغال في التفاصيل، وحذر فطري فرضته عليها ظروف بيئتها، وذاكرة تصويرية فريدة، تربط مفردات الصورة البصرية ببعضها بشبكة من العلاقات التشبيهية من ذلك خطاب (حَنْظَلَةَ بِنْتِ أَخِي زُرَّارَةَ بْنِ عُدْسِ)، التي وقعت في الأسر، واعتدي عليها، ثم تمكنت من الهرب ، وعادت لتنذر قومها، ولا شك أن موقفا كهذا يحتاج إلى قوة جسمية تتضافر مع القوة النفسية لتمتكن المرأة من تمالك نفسها، وليس ذلك فحسب فهي تتعالى على آلامها لتحقق دماء قومها، فلما وصلت ديارها، حدثت رأس القوم (عمها) ووصفت له القوم، والطريف في هذا الوصف، أنه يبدو كشيفرة مفهومة وغير مختلف عليها، بل هي مصداق لما هو مختزن من صفة القوم عند العم، فكانت تصف وهو يسمي القوم والأشخاص، وهذا تمثيل لما يسمى بالمعرفة المشتركة ، ولنورد بعض ما قالت: حنظلة بنت أخي زرارة بن عدس :

قالت: أخذني أمس قوم لا يريدون غيرك ولا أعرفهم.

قال: أخبريني، أي قوم هم؟!

قالت: قَوْمٌ يُقْبَلُونَ بِوَجْهِهِ الطَّبَّاءِ وَيُدْبِرُونَ بِأَعْجَازِ النِّسَاءِ...!!

قال: أولئك بنو عامر فصفهم لي.

قالت: وَرَأَيْتُ رَجُلًا قَلِيلَ الْمَنْطِقِ إِذَا تَكَلَّمَ اجْتَمَعَ الْقَوْمُ كَمَا تَجْتَمِعُ الْإِبِلُ لِفَحْلِهَا..

قال: ذلك مالك بن جعفر وابناه عامر وطفيل.

قالت: وَرَأَيْتُ رَجُلًا جَسِيمًا كَأَنَّ لِحِيَّتَهُ مُحَمَّرَةً مُعْصِفَةً.

قال: ذاك عوف بن الأحوص.

قالت: وَرَأَيْتُ رَجُلًا لَا يَقُولُ كَلِمَةً إِلَّا وَهِيَ أَحَدٌ مِنْ شَفْرَةٍ.^{٨٥١}

قال: ذاك عبد الله بن جعدة بن كعب.

قالت: وَرَأَيْتُ شَابًا شَدِيدَ الْخَلْقِ، كَانَ شَعْرَ سَاعِدَيْهِ حَلَقَ الدَّرْعِ يَعْذُمُ الْقَوْمَ بِلِسَانِهِ عَظْمَ الْفَرَسِ الْعَضُوضِ.

قال: ذَلِكَ عُتْبَةُ بْنُ بَشِيرِ بْنِ خَالِدٍ.

قالت: وَرَأَيْتُ شَابًا طَوَالًا حَسَنًا، إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَنْصَتُوا لَهَا ثُمَّ يُؤَلُّونَ إِلَيْهِ كَمَا تُؤَلُّ الشُّؤُلُ إِلَى

فَحْلِهَا.^{٨٥٢}

قال: ذَلِكَ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ.

أول ما يلاحظ في خطابها، هو أنها ساقطت صفة القوم مجملة، ثم فصلت، "قومٌ يقبلون بوجوه
الظباء ويدبرون بأعجاز النساء..!!"، ومن المسلم به أن المشبه هنا هم (القوم)، والمشبه به (وجوه
الظباء في الإقبال، أعجاز النساء في الإدبار)، بجامع الحسن المعروف في كل، تسوقه تشبيها مؤكدا
حيث استغنت عن أداة التشبيه، على أنها لم تجاوز الواقع في هذا الوصف..!

وثانيا: هي تشبه اجتماع القوم حول هذا الرجل كاجتماع الإبل لفحلها، وهي تريد أن تعطيه صفة
القيادة، وتعطيهم صفة الانقياد والطاعة، ومرة أخرى صورة تشاهدها هذه المرأة مرارا وتكرارا في
حياتها اليومية.

وثالثا: نصادف هنا صورة تشبيهية لونية أداها (كأن)، حيث تشبه لون لحيته باللون الأحمر
المعصر.

ورابعا: هي تشبه كلام الرجل في حديثه وحزمه ومعالجته للأمور ونفاذ كلمته فيمن حوله، بحد
الشفرة المسنون، بجامع المضاء والقطع في كل، وأتت بهذه الصورة في إهاب أسلوب استثناء أصفى

^{٨٥١} - الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/٤٤٤-٤٤٥، الأغاني، للأصفهاني: ٦٩/١١، أيام العرب في الجاهلية: علي الجاوي، أبو
الفضل إبراهيم: ص: ٣٤٤.

^{٨٥٢} - الأغاني، للأصفهاني: ١١/٦٨ - ٦٩. إحسان عباس وآخرون. يؤلون: يسرعون. وذلك في ذكر مقتل خالد بن جعفر بن
كلاب.

طرافة على هذ الصورة المؤكّدة، حيث تغيب أداة التشبيه.

وخامسا: وأول ما تلاحظه في أحد الرجال، هو شعر ساعديه الذي تشبّبه بحلق الدرع، حيث الاستدارة والتداخل والمتانة، وحيث لا يظهر الساعد من تحته إلا لَمَّا، مستخدمة في عقد التشبيه الأداة (كأن).

وصورة أخرى لهذا الشاب القوي العظيم الخلق، لكنها صورة تتفلت نحو البعد الاستعاري في تشبيهه مؤكّد، حيث العذم: هو العض، والعض لا يكون باللسان، بل بالأسنان، "يَعْذُمُ الْقَوْمَ بِلِسَانِهِ عَذْمَ الْفَرَسِ الْعَضْوُضِ". وهذه من الأقوال المشهورة آنذاك والمتعارف عليها، والمعنى أنه يلومهم لوما عنيفا بلسانه، كأنما يقطعهم عضا بأسنانه، وهو في ذلك يشبه الفرس العضوض، وهي صيغة مبالغة على وزن (فعلول)، أي كثيرة العض، والوجه بينهما هو الغلظة والفجاجة، وما يضيفي هذا الرونق الإضافي على هذه الصورة حضور التركيب البديعي، حيث الجنس الذي أعطى إيقاعا صوتيا ومعنويا مؤكّدا، فله فضل آخر في جمالية هذه الصورة.

قالت: وَرَأَيْتُ شَابًا طَوَالًا حَسَنًا، إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَنْصَتُوا لَهَا ثُمَّ يُؤَلُّونَ إِلَيْهِ كَمَا تُؤَلُّ الشُّوْلُ إِلَى فَحْلِهَا. ٨٥٣

و(حَنْظَلَةٌ) تريد - في تشبيهه مرسل - أن تصور طاعة القوم وشوقهم واندفاعهم خفافا سراعا نحو هذا الشاب (الطوال الحسن)، فلم تجد في مخيلتها غير الإبل (الشُّوْل) التي تتجه مندفعة بكل غريزتها إلى فحلها.

وفي اللسان نتعرف إلى (الشُّوْل) من الإبل وهي: "الناقَةُ التي تشوّلُ بذَنبِها لِلِقَاحٍ وَلَا لِبَنٍ لَهَا أَصْلًا.."^{٨٥٤}، فهي خفيفة الحركة، لا حمل ولا رضاع ولا لبن، وتشوّل بمعنى (ترفع)، وبذا يمكن لنا أن نتصور ما رأته هذه السيدة من إقبال هؤلاء القوم...!!

يلحظ في جملة تشبيهات (حَنْظَلَةٌ) المنحى الحسي في طرفي التشبيه، وهذا الاتكاء على مألوفات التكوين البيئي والخبرة الشخصية المبنية عليها، فهناك الظباء، والإبل في أكثر من موضع وبغير صورة،

^{٨٥٣} - المصدر السابق. العذم: أصله العض، وعذمه بلسانه يَعْذُمُهُ عَذْمًا: لَامَهُ وَعَنْقَهُ. يُؤَلُّونَ: يسرعون. الشُّوْل: جمع شائلة وهي التي خَفَّ لَبْنُهَا وارتفع ضرعها. انظر: اللسان كل في مادته. وذلك في ذكر مقتل خالد بن جعفر بن كلاب.
^{٨٥٤} - اللسان: (شول).

ومن الأدوات الشفرة الحادة، والدرع، ومن الألوان الأحمر والعصفر، وهذا أمر بدهي في تكوين مفردات الصورة، ويستشهد (فرانسوا مورورا) بمقولة (ميشيل لوكيرن) حول الصورة، حيث يقول: "إن الصورة هي عنصر محسوس يقتنصه الكاتب من خارج الموضوع الذي يعالجه ويستخدم ذلك العنصر لأجل توضيح قوله أو لأجل التمكن من حساسية القارئ بواسطة الخيال"^{٨٥٥}

وفي هذا الشريط التصويري المكون من ستة خطابات، نجد أداة التشبيه حاضرة مناصفة بين (الكاف، كَأَنَّ) في أربعة منها، وهذا يدل على مستوى العقل في مقارنة الأشياء، مقارنة لا تجعلها نفسها، ولعل وظيفة الوصف هنا هي وظيفة تعريفية تبليغية لا مسوغ فيها لجعل الأشياء متماهية في بعضها دون تمييز بينها، فتضيق الغاية الحقيقة من هذا الحوار...!!

وأخيراً... قد يبدو الرابط بين المشبه والمشبه به في الأمثلة الواردة عقدا منطقيا فقط، في الجمع بين شئيين متناسبين، وهذا غير صحيح، لأن هذا المسار الفكري من شأنه الغض من القيمة النفسية والفكرية لهذه التشبيهات، لن نجازف بالقول بوجود أبعاد فلسفية بعيدة الغور، فهذا لي لعنق الصورة التشبيهية، ولكن هذا الإشراق التصويري، الذي يبرق بشكل فطري في ذهن المرأة لينساب في خطابها، إنما هو نبضة في فلك وجودها، وقطعة من خريطة فكرها وحياتها، تترك لدى المتلقي أثرا واضحا لامرأة قد تخلق تمثالا حيا لكل حبة رمل في صحرائها، وتشف عن يقظة وتنبه فني مخصوص في هذا السياق الحذر بالتحديد، حيث يتجلى ما هو أكثر من التشبيه والربط بين المشبه والمشبه به، إنه ربط بين المرأة وفلكها الوجودي، من عادات وتقاليد ومعارف، ومواقف وانفعالات، ومن استجابة فطرية للمواقف تشف في كثير من الأحيان عن عقلية ناضجة وحس بالمسؤولية عالٍ وفريد، لعبت دورا محوريا في تغيير مسار الأحداث لصالح قومها وبني جلدتها.

^{٨٥٥} - البلاغة. المدخل لدراسة الصور البيانية، فرانسوا مورورا، ص: ١٨.

الصورة التشبيبية

ففي (عصر صدر الإسلام)

وفي هذه الوجيزة تحاول هذه الدراسة تقصي التركيب التصويري التشبيهي في خطاب المرأة النثري عبر سياق الحرب في صدر الإسلام، ومدى فاعلية التجربة فيه، ومضامين هذه الصورة التشبيهية في سياقاتها المختلفة بخاصة، وضمن السياق الأب (الحرب) بعامة، ومدى تأثيره أو تأثيره في تجربة المرأة في هذا المضمار، ومدى تعبيره عن خصوصية موقف المرأة، ورؤيتها لنفسها و موقفها من الوجود حولها، بل واستلهاها ذلك كله في تشكيل هذه الصورة الفنية !!..

وهذه بعض نماذج من الصورة التشبيهية:

بلغ (حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ) خبر استشهاد زوجها مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ، فقالت نادبة إياه: " وَأَحْزَنَاهُ..!!"، ويقال أنها قالت: " وَأَعْقَرَاهُ..!!" ٨٥٦!! ٨٥٧

في سياق ما بعد الحرب، تأتي فجيرة (حَمْنَةَ)، وفجيعتها تتخطى مصابها في رجل هو زوجها، على الرغم من فداحة الخطب، وأي زوج كان هذا (مصعب) حنوا ورافة ومحبة، ودينا وتقوى، ومع ذلك فهي تحتسبه شهيدا، وتبتلع غصتها، لكن ما لا تستطيع تجاوزه، هو أثر فقدته وغيابه من حياة بنيه وتركهم أيتاما، هذا ما قالته لرسول الله ﷺ حينما سألها عن سبب قولها ذلك، قالت: " يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتُ يُتَمِّ بَنِيهِ فَرَأَعْنِي ". ٨٥٨

ورغم أننا لا نشكك في خطابها هذا، فله وجاهته، لكن تعقيب النبي ﷺ عليها ينقلنا نحو دلالة احتمال آخر مشروع، خاصة وقد بلغها أن خالها وأخاها قد استشهدا فاسترجعت، وما صرخت إلا حين سمعت باستشهاد زوجها، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلزَّوْجِ مِنَ الْمَرْأَةِ مَكَانًا مَا هُوَ

^{٨٥٦} - في اللسان: "من عَقَرَ إذا بقي مكانه لا يتقدم ولا يتأخر فرعًا أو أسفًا أو خجلًا، وأصله من عَقَرَتْ به إذا أَطْلَتَ حَبْسَهُ، كَأَنَّكَ عَقَرْتَ راحلته فبقي لا يقدر على البراح.. والعقيرة: الرجل الشريف يُقْتَلُ". ومن هنا كانت صورة تشبيهية أكثر منها استعارية إذ لا نقل للمعنى هنا..!

^{٨٥٧} - المغازي، الواقدي: ٢٩١/١ - ٢٩٢، أخت أم المؤمنين (زينب بنت جحش)، وأخوها عبد الله بن جحش، تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢ / ٥٣٢، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٤٦٦. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٣ / ٥٦، كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد: ١٠ / ٢٢٩. ترجمتها في: أسد الغابة، لابن الأثير، تح/ علي محمد عوض و عادل أحمد عبد الواحد. ٧ / ٧١ - ٧٢ الإصباة، لابن حجر: ٤ / ٢٦٦. مسكن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد، للشيخ زين الدين الأحسائي: ص: ٧١.

^{٨٥٨} - المغازي. الواقدي: ٢٩١/١ - ٢٩٢، كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد: ١٠ / ٢٢٩. البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٤٦ - ٤٧. ترجمتها في: أسد الغابة، لابن الأثير: ٧ / ٧١ - ٧٢ الإصباة، لابن حجر: ٤ / ٢٦٦، تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٢ / ٥٣٢. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٣ / ٥٦، مسكن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد: ص: ٧١.

لأحدٍ . " يدلل على ذلك، أن النبي ﷺ لم يخبرها باستشهاد زوجها إلا بعد خبر خالها وأخيها، لعلمه أن ذلك مما سيفجعها أكثر من غيره، وجاء تعقيبه تأكيداً على هذا المنحى..!

وإذن ففجيعتها مضاعفة، في الزوج كزوج، وهو من هو مكانة في حياة الزوجة، وفيه كآب، ترى حسرة فقده في عيون بنيه، فيذكرها ذلك فقده كل حين..!!

بداية .. يلاحظ هذا البناء اللغوي المختزل، المنزاح نحو البنية التصويرية المنفتحة على مرايا متعكسة من الدلالات، حيث تبدو صورة نهائية تبني عليها مشهدين ضخمتين جداً، ما قبل هذه الصور، و ما بعدها.. عوالم تداخل وتتسع..!!

هذا البناء اللغوي، المتجلل بفجيرة الموت، المتلبس بمهابة الفقد، المقهور بالفناء، جاء في أسلوب النداء، وما يسمى بالندبة خاصة، ف" كلُّ شيءٍ في نِدائه (وا) فهو من باب النُّدْب " ^{٨٥٩}، الألم والحسرة على فراق هذا الزوج عبرت عنه أداة النداء (وا) الموكلة بهذه المعاني، مع المنادى المركب من (عقر، الف المد، هاء السكت) مبالغة في محاولة إيصال هذا الشعور بالمرارة ليتجاوز حدود الوجود ربما..!!

لقد شعرت بالثقل، وبالتضعض، وكأنها قد سقطت من علٍ وحبست حيث هي، فما تمثل في ذهنها سوى صورة تلك الناقة التي ضُربت قوائمها فخرت لا تقوى على حراك، ولا نهوض، فصاحت: " وَأَعْقَرَاهُ.. "، بجامع العجز في كلِّ.

لنا أن نتخيل هذه الصورة البصرية السمعية المدوية، فمن الناحية البصرية، هناك هذا الجمل الشامخ الواقف، وعلى حين غرة، تباغته ضربة مجهولة من مكان مجهول، على قوائمه فتقطعها جميعاً، وصورة الدم الغزير يطير بقوة الضربة، ويتطيار القوائم - إن طارت - وينتشر على مساحة ما حوله، ثم وسريعا، صورة هذا السقوط المدوي لكل جسم الجمل، وصوت ارتطامه القوي بالأرض ودوامة من الغبار والتراب كهالة فوقه، وصوت الجمل يتحشرج ألماً، ثم صوت سقوط الدم أو القوائم، إن قُطعت، وهي صورة سمعية هنا.. ثم... سكون الموت/العجز..!!

وينتهي هذا المشهد، نهاية مفاجئة، بصورة مؤلمة، حيث هذا الجمل الذي هو مصدر القوة

والفاعلية، وحيث هو أس حياة العربي ومفخرته، به بياهي، وبه يسافر، وبه يحارب، وبه يتزين في حياته، وإذا هو الآن خاز لا يستطيع حراكا...!!

فهي إذن صورة تشبيهية مزدوجة، عن زوجها الشهيد الذي يعد معادلا موضوعيا للجمل، وصورة لعجزها وضعفها وتضعفها بعد قطع القوائم فلا حول لها ولا قوة وهي على حالها تلك، وقد فقدت زوجها...!

وهي إذن مفارقة بين صورتين، إحداهما المذكورة في السياق، وهي الجمل المعقور، لكنها تستدعي صورة افتراضية أخرى وموازية، هي صورة الجمل قبل العقر، لتكتمل المشهدية بها...!

ولكن.. الأمر لا يتوقف عند هذا، وماذا بعد العقر، على سواء من وجوه الصورة هنا، فقد الزوج/عجزها بعد فقده، هي ما يشبه حال الجمل المعقور، لكن الحياة لا تتوقف، ومسؤولياتها لا تأخذ نفساً من راحة، وماذا عن البنين واليتم وألم الفقد وهشاشة الحياة بعد فقدان دعائمها الأساس...!!؟؟

إن قطع الرجلين يترك الثقل متراكما وكأن زوجها هو سعيها في هذه الحياة الدنيا، وهو مصدر حركتها وفك وجودها وحامل أثقاليها..، فالعقر على التشبيه بالناقة التي قطعت قوائمها فحبسها عن الحياة كما يجب أن تكون...!.

وأخيرا.. قد تنزاح الدلالة التصويرية إلى أفق آخر محتمل، لكن احتمالياتها مرتبطة أيضا بهذا الحدث، باستشهاد الزوج نفسه، وحيث قد تنظر المرأة لنفسها في لحظة الفاجعة والمصيبة وقد ذهلت عن نفسها، وخرجت من جلباب صبرها، فلا ترى في شهادة هذا الزوج، وحسرتها لفقده، سوى صورة امرأة مشؤومة قد جنت بشؤمها على زوجها...!!^{٨٦٠}

ويروي صاحب الطبقات الكبير، أنها قالت: "يأخزيها ..!!"^{٨٦١} وهنا أيضا صورة تشبيهية، شبيهت فقدها لزوجها وعوزها المادي والمعنوي بعده، بمال المعيشة المسلوب الذي يحفظ للإنسان

^{٨٦٠} - في اللسان (عقر): "هما صفتان للمرأة المشؤومة أي أنها تعقر قومها وتخلقهم أي تستأصلهم، من شؤمها عليهم... والعقيرة: الرجل الشريف يُقتل. "

^{٨٦١} - كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد: ٢٢٩/١٠.

كرامته وبقائه المادي والمعنوي أيضا، بجامع الضياع في كلِّ، وكأنها تقول: واسلباه وضياعاه، وافجعتاه
 كأنما سلبت ونهبت.^{٨٦٢}

أما (فَاطِمَةُ بِنْتُ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ)، فقد تزوجت عقيل بن أبي طالب، وهي لاتزال موجوعة
 مفجوعة لقتل ذويها في الجاهلية وعلى شركهم، فقالت لعقيل: " يا بني هاشم لا يُحِبُّكُمْ قَلْبِي أَبَدًا، أَيْنَ
 أَبِي أَيْنَ أَخِي أَيْنَ عَمِّي، كَأَنَّ أَعْنَاقَهُمْ أَبَارِيقُ فِضَّةٍ...!!!؟؟ " ^{٨٦٣}

في سياق ما بعد الحرب، وعودة وشائج العلاقات وأواصرها بين أهل مكة، ودخولهم في الإسلام،
 وبعد زواجها هذا، لسبب ما، تحاول إغاضة هذا الزوج ونبش الماضي الذي ليس فيه ما يشرف، وهو
 سياق غريب يكشف عن علاقة غير سوية بين زوجين، بينهما هذا التاريخ المشوب والغريب، وقد
 صادفنا سياقًا مشابهًا لهذا، تلك المرأة التي تزوجت قاتل أبيها، وظلت تعيره بجرحه من أبيها دائما..!
 الأغرب أن (فَاطِمَةُ بِنْتُ الْوَلِيدِ) قد لا تجد عندها بعد الإسلام ما تفتخر به، لتعود بالفخار لأهلها
 من أهل الجاهلية والشرك والإيذاء لرسول الله ﷺ.. ولا بأس عندها بذلك..!!

ففي هذا التركيب اللغوي، الذي تنشأ فيه هذه الصورة التشبيهية، والذي يعكس بوضوح تلك البنية
 العاطفية لا يخبئ منها شيئًا، نلاحظ بنى أسلوبية لافتة، فالتقديم و التأخير في بنية هذا الخطاب
 واضحة، كما أن بنية النداء، وبنية الاستفهام الإنشائي البارزة، بنفسها وبتأخيرها عن رتبته، وبتكرارها
 أيضا، ثم هذا النشر تردفه بالطي (أبي، أخي، عمي) / الضمير المتصل (هم) في أَعْنَاقَهُمْ) ، كل هذا
 يضيفي الفاعلية والحيوية في السياق ويمهد لتألق الصورة التشبيهية فيه كخاتمة و خلاصة بل وتعليل
 لحالة الكراهية لبني هاشم..!!

أما تفاصيل هذه الصورة التشبيهية، فنلاحظها وقد شبّهت أعناقهم بأباريق الفضة تلالوا وبريقا
 وطولا وجمالا، بجامع الحسن في كلِّ، تلفت إلى هذه الصورة التشبيهية بأداة مركبة هي: (كَأَنَّ) ، يزيد
 من جمال هذه الصورة التشبيهية بعدها الكنائي، فالأعناق هنا ليست سوى الفاعل والأصل والحسب
 والنسب والرفعة والأمجاد التي حققوها كابرًا عن كابر، ورغم إسلامها لم تستطع تجاوز هذا الثأر الذي
 يطفح عند كل فاصلة أو زاوية، لا يمنعها دينها الجديد من ذكر آباءها وأجدادها والمفاخرة بهم، ففي

^{٨٦٢} - انظر في هذا المعنى: لسان العرب: (حرب).

^{٨٦٣} - العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٤ / ٨..

النهاية هم آباؤها وأجدادها، ويبقى الآخرون قتلهم، من كانوا..؟ ويبقى من واجبها ألا تنسى قتلة الأُحبة ..!!

تُلْتَقَط هذه الصورة من سجل غزوة حُنَيْن، تأتي في معرض رواية لـ(أُمِّ عُمارة) لأحداث ذلك اليوم: " .. وَوَقَفْتُ هَوَازِنُ حَلْبِ نَاقَةٍ فَتَوَّحَّحْتُ^{٨٦٤} ثُمَّ كَانَتْ إِيَّاهَا .. " ^{٨٦٥}.

تبرز هذه الصورة في إهاب بنية حالية تشكل انزياحا ملحوظا في سياق الخطاب ككل، وهي مصداق تمثيل طرفي التشبيه، فوقفة هوازن تنزف قتلاها وكرامتها وقوتها العسكرية، هي وقفة الناقة الممتلئة الضرع تحلب، على فارق في النتيجة والتلقي، فالصورة الأولى مشؤومة، والثانية متفائلة حيث القوت والغذاء والصغير (الفصيل) الذي يرجى أن يكبر ويكون نافعا، يكبر به القطيع ويزيد به الخير على الجميع، والحال الأخرى هي الصورة السوداء لكل ما مثلته هذه الصورة من تفاؤل ونماء، حيث يتحول الحلب إلى استنزاف وتعب، وقلة وصغر وضعة وخسائر فادحة لا تعوض..!!

إنَّ هذه الصورة ثنائية الأبعاد، إنما هي انعكاس لحال المعسكرين، حيث المعسكر المنتصر، يرى فيما حدث وكأن ناقة فتوح تدر عليهم الخير من كل وجه تفاؤلا، أما المعسكر المهزوم فيرى هذا الاستنزاف والهدر والخسارة والتضييع..تشاؤما !

هذه الصورة التشبيهية، هي نتاج التفوق العسكري الذي أنجزه المسلمون على أرض المعركة، وقد تفازت هوازن على كل وجه، واستحر فيهم القتل والأسر من المسلمين، حيث صورت هروب هوازن من المواجهة واستحار القتل فيهم، حتى صاروا هذرا بالناقة التي يدرُّ ضرعها درًّا عظيما، أدى إلى اتساع إحليلها بفعل هذا الحلب المستمر، وهي حالة ملازمة للناقة مدار الحليب حين حلبها بقوة، وتؤكد هذه الحالة التشبيهية من هزيمة هوازن واضمحلال قواهم بفعل المسلمين فيهم، بقولها: " ثُمَّ كَانَتْ إِيَّاهَا "، لتعطي دلالة تشابهه الحاليين: (هوازن خائرة القوى المُقْتَلَّة) (ب)الناقة الفتوح حال الحلب (الغزير) بجامع غزارة الدر في كل.

وهذه(أُمِّ تَمِيمِ) زَوْجُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، تنقلنا إلى قلب الحدث، وكأنها بمفهوم اليوم، مراسلة حربية، تصف أرض المعركة، وتنقل لنا صورة حيّة عنها، قالت (أُمِّ تَمِيمِ):

" كُنْتُ فِي جَمَاعَةٍ نُسُوَةٍ مِنْ مَدْحَجٍ وَعَغِيرِهِمْ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ وَالْخَيْلُ تَطِيرُ بِنَا طَيْرًا حَتَّى أَشْرَفْنَا

^{٨٦٤} - والفتوح من النوق: الواسعة الإحليل. "وناقة فيأحة إذا كانت ضخمة الضرع غزيرة اللبن" اللسان، مادة (فيح).

^{٨٦٥} - المغازي، للواقدي: ٩٠٣/٣.

عَلَى الْعَبْرَةِ وَالْقِتَالِ وَنَظَرْنَا الْأَسِنَّةَ وَالصَّوَارِمَ تَلُوحُ فِي الْقِتَالِ كَأَنَّهَا الْكَوَاكِبُ ، وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ حِسٌّ يُسْمَعُ ،
قَالَتْ: فَأَنكَرْنَا ذَلِكَ وَقُلْنَا أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ وَقَعَ بِهِمْ عَدُوَّهُمْ. ^{٨٦٦}

لاشك أن الذهن ينتقل مباشرة إلى بؤرة الصورة لأنها كالعلم اللائح في بنية هذا الخطاب، حيث
هذه اللفظة الأسلوبية في قولها: " الأسِنَّةَ وَالصَّوَارِمَ تَلُوحُ فِي الْقِتَالِ كَأَنَّهَا الْكَوَاكِبُ "، ولا شك أيضا أن
هذه الصورة تستدعي إلى الذهن بيت بشار بن برد: (بحر الطويل)

كَأَنَّ مَنَارَ النَّفْعِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ. ^{٨٦٧}

هذا التناص بين الصورتين على ما بينهما من فرق، غريب، حيث قيل بأنه ليس من المؤلف
تشبيه السيوف والصوارم بالكواكب، و أن بشار بن برد (٨٩٦هـ-١٦٧هـ) أسبق ما يكون إليها، بينما
 نجد صورة هذه المرأة قد ولدت إبان حروب الردة، في خلافة أبي بكر الصديق مباشرة بعد وفاة النبي
الكريم ﷺ ، مما يعني أن هذه الصورة - إن صحت نسبتها - سابقة على ولادة (بشار) بعشرات
السنين!!.. بينما صاحب كتاب (فتوح الشام)، الذي نقل عنه هذا الخطاب، (١٣٠هـ-٢٠٧هـ) حسب
رواية تلميذه ابن سعد صاحب كتاب (الطبقات الكبير). ^{٨٦٨}، توضع هذه الملاحظات برسم هذه الصورة!!..

تلتقط هذه الصورة أنفاسها، في سياق سرد إخباري، بين خبرين ابتدائيين، الأول مثبت، والآخر
منفي، وتختتم بخبر إنكاري، " كُنْتُ فِي جَمَاعَةٍ نُسُوَةٍ مِنْ مَذْحِجٍ وَعَبْرِهِمْ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ وَالْحَيْلُ تَطِيرُ
بِنَا طَيْرًا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى الْعَبْرَةِ وَالْقِتَالِ وَنَظَرْنَا الْأَسِنَّةَ وَالصَّوَارِمَ تَلُوحُ فِي الْقِتَالِ كَأَنَّهَا الْكَوَاكِبُ ، وَمَا
لِلْمُسْلِمِينَ حِسٌّ يُسْمَعُ ، قَالَتْ: فَأَنكَرْنَا ذَلِكَ وَقُلْنَا أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ وَقَعَ بِهِمْ عَدُوَّهُمْ. " ^{٨٦٩}، ويلفت أيضا ، هذا
التكرار للفظ (القتال)، وهذا التقديم والتأخير في بنية الخبرين الأخيرين: المنفي والإنكاري!!..

ثم تشرق هذه الصورة .. حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى الْعَبْرَةِ وَالْقِتَالِ وَنَظَرْنَا الْأَسِنَّةَ وَالصَّوَارِمَ تَلُوحُ فِي الْقِتَالِ
كَأَنَّهَا الْكَوَاكِبُ ..، حيث المشبه: الأسِنَّةَ وَالصَّوَارِمَ، المشبه به: الْكَوَاكِبُ ، أداة التشبيه المركبة: كَأَنَّ،
ووجه الشبه صورة منتزعة من عدة صفات على التمثيل، هذه الصفات نلتقطها من جملة التركيب
الصوري هنا، ونحتاج أن نتوسع هنا، لتكتمل جوانب الصورة، أي ما قبل تركيب التشبيه نفسه، وذلك
حين قالت: " وَالْحَيْلُ تَطِيرُ بِنَا طَيْرًا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى الْعَبْرَةِ وَالْقِتَالِ .."، فالتركيب الأول " وَالْحَيْلُ تَطِيرُ
بِنَا طَيْرًا "، على تراوح بين الكناية والاستعارة، هذا الطيران يتناسب مع الإشراف من على ساحة

^{٨٦٦} - فتوح الشام، الواقي: ١ / ١١٦. في حروب الردة ومعركتهم مع جيلة بن الأيهم . وفتح قنسرين.

^{٨٦٧} - ديوان بشار بن برد (٨٦٩هـ-١٦٨هـ)، تح/ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: وزارة الثقافة، الجزائر، د. ط، ٢٠٠٧م. ١ / ٣٣٥.

^{٨٦٨} - انظر: مقدمة محقق كتاب المغازي ، للواقدي: ص: ٩٠.

^{٨٦٩} - فتوح الشام، الواقي: ١ / ١١٦. في حروب الردة ومعركتهم مع جيلة بن الأيهم . وفتح قنسرين.

المعركة، حيث تتجلى قيمة التمرکز العالي هنا لتنداح دلالات التصوير من منظور مختلف، فيما لو كان الناظر مساوياً أو منخفضاً عن منظور الصورة..!

هذا الإشراف من علي، وكأنك تلتقط صورة من مسقط رأسي، يلتقط صورة علوية مشوية، في سياق كهذا، ليست مشوية لعدم فهم أو إدراك الرائي فحسب، بل لأنه يلتقط هذه الصورة بمعطيات جيولوجية طبيعية حية، وحيث هذه الصورة البصرية الحركية السمعية، تتكون وتتضح بحسب تلك العوامل المصاحبة، أو تنطمس بها، لتفتح دلالات القلق والاضطراب/ لعدم تبين مصير المجاهدين المسلمين وموقفهم العسكري داخل ميدان القتال نفسه، ويبقى المشهد نفسه.. معلقاً بـ(حتى تكتمل أو تنجلي الصورة)، لأن الغبرة تغطي المشهد أو تعميه، وتلونه بكدورة لونية تطمس ماعداها لتنبسط هذه الصورة اللونية الكدرة على عموم المشهد..!!

تأتي أهمية هذه الصورة اللونية الكدرة، ومن إسقاط رأسي، حيث يتعالى الغبار ويتكثف، تأتي أهميتها من حيث تمهيدها للصورة المركزية الأساس في هذه البنية التصويرية، وهي صورة الأسنة والصوارم تلوح مخترفة حجب الغبار الكثيف المغبر والمتكثف بين الحين والحين.. وفي الأسنة نفسها صورة مجازية، علاقتها الجزئية، حيث ذكرت الجزء وأرادت الكل وهو الرماح..

وجملة (تلوح) لها وجاهتها في بناء هذه الصورة، إذ تشي بمعنى الظهور المؤقت، بين الحين والحين، وهذا ما يعطي الإيقاع الحركي، والضوئي انعكاسه على مجمل الصورة، حين يخترق هذا البريق الذي للأسنة والصوارم كدورة الغبار المظلم، معطياً لا إيقاعاً لونياً فحسب بل إيقاعاً حركياً أيضاً، ولكن على غير تمييز لمن هذه السيوف والصوارم والأسنة، للعدو أو للمسلمين..!

ولنا أن نكمل مشهد هذه الصورة وهذا الحراك اللوني الحركي الضوئي بإسقاط رأسي، بملاحظة هذا كله نظراً لنوع السلاح أيضاً، فالصوارم التي هي السيوف، والأسنة التي هي الرماح، لها فاعلية ووقع مختلف، بالنظر لحجمها وشكلها وطريقة استعمالها، فالسيوف التي تكون في اليد وينفتح بها الباع تارة، أو ينضم بها الذراع تارة أخرى، تختلف عن الرماح التي هي للاشتباك عن بعد، ولا يظهر للرائي البعيد منها سوى رأسها الصقيل الحد المدبب، والتي يُرمى بها عن بعد، فحركة السيف قد تشبه حركة المنحنى المدبب الضيق نوعاً ما و المتداخل ارتفاعاً وهبوطاً، بينما الرمح حركته أفقية خطية مستقيمة حيناً، أو بمنحنى منفتح كبير حيناً آخر، وذلك بحسب موقع العدو والمسافة منه، وإذا أضفنا تفصيلاً أخرى لفسيقساء هذه الصورة، أن هذا الحراك البصري اللوني الضوئي السمعي الحركي، هو حراك متبادل متداخل مشتبك ومشتجر بين الطرفين، لنا أن نتمم هذا المشهد المهيب الذي كانت هاته

النسوة قد أشرفن عليه، من هذا العلو الذي كنّ فيه، جغرافيا، وأيضا من على علو آخر هو هذه الخيول السابحات الطائرات المتحفزات والمشاركات في لهاث المشهد الكلي..!

ومن كل هذه التفاصيل يمكن تشكيل وجه الشبه الذي يتخلق فيها على نحو غريب، بين مشبهين حسيين، حيث هيئة الأسنة والصوارم البيضاء اللامعة المتلاوحة المتساقطة في الغبار الكثيف المسود، تشبه هيئة الكواكب المتهاوية من السماء في الليل وحركتها في ظلامه..، ووجه الشبه هو هيئة تزواج وتمازج صورة الظلام بالبياض والإشراق معا في تناوب لوني راقص وحركة دائبة متنامية..!!

وتقع (عَفْرَةُ بِنْتُ عِفَارِ الحِمِيرِيَّةِ) في الأسر مع مجموعة نسوة ومعهن أيضا (خَوْلَةُ بِنْتُ الأَزُورِ)، التي تحاول استثارة حماستهن للتحرر من الأسر، فتجيبها (عَفْرَةُ) إلى هذا وتؤيدها، وتختتم خطاب تأييدها بصورة تشبيهية بليغة:

" صدقت، ووالله يا بنت الأزور نحن في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت، لنا المشاهد العظام، والمواقف الحسام، ووالله لقد اعتدنا رُكوب الخيل، وهجوم الليل، غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت، وإنما دهمنا العدو على حين غفلة وما نحن إلا كالغنم."^{٨٧٠}

تتنشأ هذه الصورة في بنية خبرية إنكارية تحريضية في سياق الحرب، محكومة بالتقديم والتأخير من جهة، وبالإيقاع الذي توفره السجعات المنبسطة على مساحة الخطاب من جهة أخرى، ومن بنية إثبات ينتمي إليها هذا الخطاب بمجمله، تتخلق الصورة التشبيهية في بنية قصرية بأسلوب الاستثناء المفرغ: "وما نحن إلا كالغنم".

هذه البنية التركيبية بين النفي والإثبات بأسلوب القصر، تقوي دلالة التشبيه وتركزها، فالمشبه (نحن)، والمشبه به (الغنم)، بأداة تشبيه بسيطة هي (الكاف).

لكن ما وجه الشبه..؟؟ ولم الغنم تحديدا..؟؟ للغنم طبيعة مسالمة ومنقادة، ليست من الحيوانات المشاكسة أو المتمردة، أو المفترسة، ولها طبع المسايرة أيضا، حيثما يقودها الراعي تنقاد، لا تفكر في وجهتها بوجوده.. وبالنسبة لهاته النسوة فقد وقعن في الأسر دون مقاومة تذكر وانقذن انقياد الغنم..!! والغنم.. لأنها سريعة الفزع، والتفرق عند الخوف والفرق، بل والضياح لمجرد فقدها لبوصلة راعيها، فهي ليست ماهرة في معرفة الاتجاهات..!!

والغنم.. لأن معظمها يميل إلى سواد اللون، وهذا يشبه لباس المرأة بعامة، خاصة وهي ذاهبة إلى الحرب، فليس من المفروض أن تكون متفضلة متبذلة..!!

^{٨٧٠} -فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤٧. ترد على خطاب خولة بنت الأزور التي وصفت النساء بالشجاعة محرضة إياهن على القتال.

لهذا كله كانت الغنم.. لشبه معنوي في السليقة، وشبه حركي، وشبه لوني، وشبه في الحجم الضئيل نسبيا، فشبهت ضعف النسوة وتفرقهن ووقوعهن في الأسر، بالغنم الخائف المتشئت لغياب راعيه، بجامع الضعف و الفرار والسواد، وهنا تقبيح للمشبه، و نقد لأذع وتعريض بتصرف هاته النسوة واستسلامهن لأسريهن وعلى ذلك ألا يطول أبدا، كل هذا بهدف تحريضهن على القتال...!!

وبعد.. فأول ما يلحظ في هذا المبحث، الصورة التشبيهية، هو ندرة نماذجه في خطاب المرأة في عصر صدر الإسلام، ككل، وأن نماذجه الفاعلة كانت في عصر الفتوحات الإسلامية، ونلاحظ أيضا هذا المنحى الحسي في طرفي التشبيه في هذه النماذج القليلة، مع استلهاام واضح لمفردات البيئة، والخبرة الشخصية المبنية عليها، فهناك، الإبل، والغنم، ومن الألوان الأبيض والأحمر والأسود، وتبدو بساطة هذه التشبيهات، والمركب منها كان ما صورته (أم تميم) زوج خالد بن الوليد.

وفي هذا الشريط التصويري المقتضب، نجد أداة التشبيه حاضرة (الكاف، كأن) وهذا يدل على مستوى العقل في مقارنة الأشياء، مقارنة لا تجعلها نفسها، ولعل وظيفة الوصف هنا هي وظيفة تعريفية تبليغية لا مسوغ فيها لجعل الأشياء متماهية في بعضها دون تمييز بينها، فتضيع الغاية الحقيقية من هذا الخطاب...!!

ويؤكد ثانية... أنه قد يبدو الرابط بين المشبه والمشبه به في الأمثلة الواردة عقدا منطقيا فقط، غايته الجمع بين شيئين متناسبين، وهذا إجحاف لهذه التشبيهات على بساطتها، لأن هذا من شأنه تجاهل القيمة النفسية والفكرية لهذه التشبيهات، هل سنفترض وجود أبعاد فلسفية في هذه التشبيهات.. قطعاً لا...!!، فهذا لي لعنق الصورة التشبيهية، ولكن هذه الومضة التصويرية، التي تومض بعفوية في ذهن المرأة وتنتال في خطابها، إنما هي دفقة من شعورها، وقبسة من خريطة فكرها وحياتها، تشف عن يقظة وتنبيه فني مخصوص في هذا السياق، حيث يتبلور ما هو أكثر من التشبيه والرابط بين المشبه والمشبه به، إنه ربط بين المرأة وفلكها الوجودي، من عادات وتقاليد ومعارف، ومواقف وانفعالات، ومن استجابة فطرية للمواقف تشف في كثير من الأحيان عن عقلية ناضجة وحس بالمسؤولية عال وفريد، هذه الاستجابة التي غيرت قواعد اللعبة في كثير من الأحيان، وقلبت الموازين إلى حيث تريد هذه المرأة...!!

المَبْنَعَةُ الثَّانِيَّةُ:

الصُّورَةُ الْإِسْتِعَارِيَّةُ

فِي (العصر الجاهلي)

مدخل

يذكر صاحب (اللسان) أن أصل الاستعارة مأخوذ من العارية، حيث تنتقل الأشياء من شخص لآخر، يقول: والعارية والعارء: ما تداولوه بينهم؛ وقد أعاره الشيء وأعاره منه وعاوره إياه. والمعاورة والتعاور: شبه المداولة والتداول في الشيء يكون بين اثنين؛ واستعاره الشيء واستعاره منه: طلب منه أن يعيره إياه؛ واستعار فلان سهماً من كنانته: رفعه وحوّله منها إلى يده؛^{٨٧١} وبذا تكون الاستعارة تفيد معنى الانتقال والتحول بين شيئين أو أمرين.

والاستعارة كمفهوم، هي علاقة لغوية تقوم على المقارنة، شأنها في ذلك شأن التشبيه، لكنها تعتمد على الاستبدال أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة وبذا يتوحد طرفا الاستعارة ليكونا طرفاً واحداً لعلاقة مشابهة صحيحة عقلاً بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي^{٨٧٢}، هكذا كان جوهر التفكير البلاغي القديم حتى القرن الخامس وما بعده في النظرة إلى الاستعارة.^{٨٧٣}

لقد أشرنا عند الحديث عن التشبيه بأن له القدر المعلى عند البلاغيين ردحا من الزمن، ولم تحظ الاستعارة باهتمام مكثف حتى جاء عبد القاهر الجرجاني واقفاً جانباً كبيراً من جهوده لإظهار القيمة الفنية والعقلية للاستعارة، في افتتاح لا يختلف عليه اثنان.

يقول الإمام عبد القاهر الذي جعل الاستعارة مع التشبيه والتمثيل، أساس محاسن الكلام: " .. فإن هذه أصول كبيرة، كأن جُلَّ محاسن الكلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها.."^{٨٧٤}

والاستعارة عند الجرجاني، تحتاج لنشاط ذهني في فهمها، كما نشط المبدع في إبداعها، وأن

^{٨٧١} - انظر: اللسان (عرا، عور، غير).

^{٨٧٢} - انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور: ص: ٢٠١ وما بعدها.

^{٨٧٣} - انظر تفصيل ذلك في: مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين (دراسة تاريخية فنية)، أحمد عبد السيد الصاوي: منشأة المعارف، الإسكندرية، د. ط، ١٩٨٨ م.

^{٨٧٤} - أسرار البلاغة: للجرجاني: ص: ٢٩.

أبعادها لا تظهر إلا بالتأني والتلطف ، يقول الجرجاني : " ... هذا وفي الاستعارة - بعدُ - من جهة القوانين والأصول، شغل للفكر، ومذهب للقول، وخفايا ولطائف تُبرز من حُجبها بالرفق والتدرج والتلطف والتأني".^{٨٧٥}

ويورد عبد الجرجاني تعريفا للاستعارة: "الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي تدل الشواهد على أنه اختُص به حين وُضع، ثم يستعمله الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية"^{٨٧٦}، وإنما يكون هذا الانتقال لإفادة " التشبيه والمبالغة والاختصار".^{٨٧٧}

وهذا النقل الذي يذكره عبد القاهر الجرجاني هو غير ما نفعل على رقعة الشطرنج، فيقع حجر مكان حجر فقط ، بل هو نقل فيه معنى ادعاء أن المستعار له هو ذات المستعار منه، إذ عنده كيف تكون ناقلا الاسم عن معناه وقاصدا معناه في الوقت ذاته؟ مما يوقع في استحالة منطقية، لا يحلها سوى استبعاد فكرة النقل من مفهوم الاستعارة، وتأكيد فكرة الادعاء.^{٨٧٨} يقول: "... أن ليست الاستعارة نقل اسم عن شيء إلى شيء، ولكنها ادعاء معنى الاسم للشيء".^{٨٧٩}، ويؤكد ذلك في موضع آخر: " .. فقد تبين من غير وجه أن الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم للشيء، لا نقل الاسم عن الشيء..".^{٨٨٠}

وفي إطار الاحتجاج على من يقولون بحرفية (النقل)، يقول : "...، وإطلاقهم في الاستعارة أنها "تقل للعبارة عما وضعت له."، من ذلك فلا يصح الأخذ به، وذلك أنك إذا كنت لا تطلق اسم (الأسد) على (الرجل) إلا من بعد أن تدخله في جنس الأسود من الجهة التي بيننا، لم تكن نقلت الاسم عما وضع له بالحقيقة، لأنك إنما تكون ناقلا، إذا أنت أخرجت معناه الأصلي من أن يكون مقصودك، ونفقت به يدك. فأما أن تكون ناقلا له عن معناه ، مع إرادة معناه فمحال متناقض".^{٨٨١}

^{٨٧٥} - أسرار البلاغة: للجرجاني: ص: ٨٩.

^{٨٧٦} - نفسه، ص: ٣٠ و ٢٣٨.

^{٨٧٧} - نفسه، ص: ٢٤٠.

^{٨٧٨} - انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. جابر عصفور: ص: ٢٢٥ .

^{٨٧٩} - دلائل الإعجاز، للجرجاني: ص: ٤٣٤.

^{٨٨٠} - نفسه، ص: ٤٣٧.

^{٨٨١} - نفسه، ص: ٤٣٥.

وبذا يكون مفهوم عبد القاهر الجرجاني للاستعارة في جوهره كمفهوم سابقة ومعاصريه، فالحدود بين المستعار منه والمستعار له يجب أن تكون واضحة وأن يبقى كلاهما متمايزين عن بعضهما، حيث العلاقة بينهما هي محض ادعاء بأن هذا هو ذلك، وإن الاستعارة ليست إلا ترجمة حسنة للمعنى، لا تغييره ولكنها تفيد التأكيد عليه.^{٨٨٢}، ولذلك فهو يقول: "والاستعارة أبلغ من الحقيقة"^{٨٨٣} نظرا لهذا التأكيد والمبالغة.

وبعد... فالاستعارة عنده هي استعارة معنى أولاً لا استعارة لفظ، يقول: "لا يستعار اللفظ مجردا عن المعنى، ولكن يستعار المعنى، ثم اللفظ يكون تبع المعنى"^{٨٨٤}، وذلك في إطار معارضته لنظرية القائلين بأن المعاني مطروحة في الطريق، وأن المزية للفظ، كالجاحظ في كتابه الحيوان، وابن الأثير في كتابه (المثل السائر) وغيرهما!!..

ولكن الفكر النقدي الحديث يذهب لأبعد من ضرورة الربط العقلي المنطقي بين طرفي الاستعارة، بل يرى من موجبات الاستعارة الجيدة تحقيق التماهي والوحدة بين الطرفين، وطريقة من طرق ابتكار واكتشاف العلائق الحرة الناتجة من هذه الوحدة، والاستعارة هي ما يلجأ إليه المبدع لبلورة تفاعله مع الحياة، ولإعادة تنظيم علاقات الكون والوجود ومحله من ذلك كله.^{٨٨٥}

إذن... فإن الاستعارة الأصيلة هي التي يتفاعل طرفاها، اللذان يفقدان جزءا من هويتهما الأصليتين ومعنيهما، ليكتسبا معنى جديداً في السياق الاستعاري، الذي يتداخل في سياق نسيج العمل الأدبي ككل ويتفاعل معه لإنتاج هذا المعنى الجديد،^{٨٨٦} فتصبح الاستعارة كما يقول ريتشاردز: "عبارة عن فكرتين لشئيين مختلفين، تعملان معا، خلال كلمة أو عبارة واحدة تدعم كلتا الفكرتين، ويكون معناها - أي الاستعارة - محصلة تفاعلها"^{٨٨٧}

^{٨٨٢} - انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: جابر عصفور: ص: ٢٢٦.

^{٨٨٣} - دلائل الإعجاز: للجرجاني: ص: ٤٣٢.

^{٨٨٤} - نفسه، ص: ٤٤٣.

^{٨٨٥} - انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. جابر عصفور: ص: ٢٠٥.

^{٨٨٦} - نفسه، ص: ٢٢٦ - ٢٢٧.

^{٨٨٧} - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. جابر عصفور: ص: ٢٢٧.

ومرة أخرى حتى وإن سلمنا بأن الاستعارة لا تخلق المعنى، بقدر ما تعيد تقديمه، ففي إعادة التقديم وجاهة، فإن المعنى الذي يُلقى بطريقة عادية مألوفة لن يكون له الوقع نفسه إن قُدم بطريقة تجعل الفكر يعمل على الوصول إلى المعنى المطلوب بإدراكه من خلال صورة تضيء الطرفاة والجدّة على المعنى، الذي ليس بمعنى الكلمة الأولى صرفاً، وليس بمعنى الكلمة الثانية خالصاً، بل تضيف مدركاً جديداً مُستقى من تفاعل اللفظين الأصليين، المستعار منه والمستعار له، في طرفاة تضيء البهجة والحيوية على المعنى والمتلقي في آن، وهي أيضاً إشراقة فكرية لها سحرها الخاص...!!، فهي تحقق وظيفتها ثلاثية الأبعاد: الإخبار، الإمتاع، التأثير.^{٨٨٨} وهذا اختزال لكل ما ذُكر سابقاً عن الاستعارة.

وعلى خلاف التشبيه الذي يمكن وصفه بالغيرية ولا يحقق العينية، حيث يوقع الائتلاف بين الأشياء المختلفة، دون أن يلغي الحدود بينها، مما يجعله مميّزاً للاستعارة، التي تهيمن على واقع الأشياء، وتلغي الحدود بينها لتجعل المستعار له عين المستعار منه.^{٨٨٩}

قسم البلاغيون الاستعارة إلى أقسام عدّة، وجعلوا لها تفرّعات كثيرة، ولكن المشهور منها :

الاستعارة المكنية: وهي التي لا يظهر فيها المشبه به، بل تظهر لازمة من لوازمه كدليل عليه. الاستعارة التصريحية: هي ما يصرح فيها بلفظ المشبه به،^{٨٩٠}

ولأن المبدع يقتنص صوره من عالمه الخارجي ويؤلف بينها على نحو من خياله ، حيث ينزع عنها كل ماهية عينية لها، فإن هذه الصور تنطبع بطابع حواسه التي ينفّث بها على عوالم ما يرى في الواقع، وما لا يرى إلا في الخيال، وكأنما يشكل بصوره جسر عبور بين عالمين أو عوالم عدة...، هذه الصور التي تكون أشبه شيء بتجربته، ومرآة لتصوره الذهني والنفسي عنها...!!

وينحو بعض النقاد إلى توزيع الصور الشعرية وفقاً لأنواع الحواس، والصور على مستوى الحواس تنقسم تنازلياً إلى: الصورة البصرية، الصورة السمعية، الصورة الشمية، الصورة الذوقية، الصورة اللمسية، والدراسة ستتبع ما أتيج لها من صور في هذا الإطار مع الإشارة إلى الاستعارتين المكنية و التصريحية، وأحياناً تتراسل الحواس، أو تتداخل فيما بينها في تشكيل بنية الصورة مما يشكل امتداداً

^{٨٨٨} -انظر: علم الأسلوب والنظرية البنائية: صلاح فضل: ٢٧٧/١.

^{٨٨٩} -انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. جابر عصفور: ص: ١٧٥-١٧٦.

^{٨٩٠} - نفسه: ١٥٥/١.

وعمقا لدلالة الصورة، وهذا ما يجعل من تصنيفها على أنواع الحواس المحددة أمرا عسيرا، لذا يتم هنا تناول الصورة بكلّيتها، وبكل أنواع الحواس فيها دون تصنيف محدد...!!

وستتوقف الدراسة عند بعض الصور الاستعارية واندياحاتها الدلالية، ومنها:

الاستعارة المكنية:

يُتوقف عند الخطاب المميز الذي قالته (تَمَاضُرُ بِنْتُ عَمْرُو بْنِ الشَّرِيدِ) في يوم النفراوات، الأول لأبنائها: "أيزوركم خالكم فتحرموه وتوثقوه؟!" ، والثاني مبني عليه وموجه لأخيها الحارث بن عمرو: "إِنَّهُ لَيُرِيْبُنِي اِكْبِنَانُكَ وَقَرُوبُكَ ، فَلَا يَأْخُذَنَّ فِيكَ مَا قَالَ زُهَيْرٌ،..."^{٨٩١}

إن مركز التوتر والانزياح التركيبي هو هذه الكلمة البدوية المتفجرة "اِكْبِنَانُكَ"، التي تشبه كثيرا لفظة "اكتئاب" كمصطلح نفسي في عصرنا الحاضر، لكن كيف هي من حيث البعد التصويري...!!؟؟

بعد موقف التشكيك من زوجها وأولادها في أخيها، تنظر إليه وتقرأه، وبلغه هذا العصر، تقرأ لغة جسده، فتري رجلا قد انكفاً على نفسه حتى كأنه قد تغصن، وانصدم صدمة نفسية حتى عزف عن الكلام، وكأنه قد أصيب باكتئاب تخشبي، كما يقول علماء النفس المحدثون، فلا تراه إلا وقد "اِكْبَانٌ"، وتبالغ في هذ الصفة فتقول: "اِكْبِنَانُ"، وبمراجعة معاجم اللغة قد نستنتج أن "التكبن" هو التيبس والتقبض في الأشياء، ف"وَكَبْنُ الدَّلْوِ: شَفْتُهَا، وَقِيلَ: مَا ثَنِي مِنَ الجِلْدِ عِنْدَ شَفَةِ الدَّلْوِ فَخُرَزَ،... وَالكُبْنُ الخُبْزُ لِأَنَّ فِي الخُبْزِ تَقْبُضًا وَتَجْمَعًا."^{٨٩٢}، لكنها استعارتها لما هو نفسي...!!

وهذه صورة بصرية لكنها ذات بعد نفسي متغور، وهذه الصورة تشف عن عمق وصدق العلاقة بين ذين الأخوين، ورغم مجاهدتها كي لا يصيب أخاها إيذاءً جسديّ بعدم ربطه و توثيقه، إلا أنها لم تهمل الجانب النفسي، وظلت تسبره، ولم تكن بحاجة كبيرة لذلك، فإن نظرتها الثاقبة قد أوصلتها إلى أنه قد جرح جرحا نفسيا بليغا، وأنه قد انكسر انكسارا كبيرا، فتمثل لها وقد أوثق وانكفاً بصورة شفة الدلو التي قد ثني حولها الجلد وخُرز وتيبس، ولاشك أن صورة تقبض أخيها وتيبسه وجموده هي التي استدعت هذ الصورة من ذاكرة المرأة، فقرنت بين ما هو مجرد بما هو حسي، وخلقت بينهما هذا الرابط

^{٨٩١} - الأغاني: الأصفهاني: ٥/١١، إحسان عباس وآخرون. تمثال الأمثال: العبدري: ٣٣٤ / ٢، بلوغ الأرب: للنوري: ١/١١٩.

^{٨٩٢} - اللسان: (كبن).

التصويري الاستعاري الكنائي..!

والطريف أنه مع كل ذلك، فيبدو أن كل ما كان يفكر فيه هذا الأخ، هي الطريقة التي يستطيع بها أن يندر قومه..!!

صورة أخرى نستلها من خطاب(زرقاء اليمامة) تحذر قومها: "يَا جَدِيسُ.. لَقَدْ سَارَتْ إِلَيْكُمُ الشَّجَرُ وَأَتَتْكُمْ حَمِيرٌ.. رأيت في الشجر رجلا معه كتف يأكلها ونعل يخصفها" فكذبوها " ٨٩٣

في سياق هذا الخطاب تشكل واحدة من جملة توترا واضحا على بنية النص السطحية، وتنوعا يشكل انزياحا تركيبيا، يذهب بعيدا بالمنحى الدلالي، بما في هذه الجملة من تصوير استعاري، في قول الزرقاء: "لَقَدْ سَارَتْ إِلَيْكُمُ الشَّجَرُ.. "

في أفق نظر(الزرقاء)، بدا لها شيء غريب، ومستحيل الحدوث، لكنها ساقته في جملة خبرية مؤكدة ب(لقد) لأنها تعرف حجم الإنكار الذي ستعرض له، حيث لا شجر يسير، لكنها بعد التحقيق والتدقيق، استنتجت - عقلا- بأن القادمين هم جيش (حمير)، ولكن هذه الصورة البصرية الصادمة، كانت وسيلتها للتمهيد للحدث الجلل، والأمر الذي يشرع لفنائهم جميعا، فكان لهذه الصورة بعدها الدلالي التمهيدي لهذا الحدث المروع، وهذه الصورة كانت فعلية لأن العدو كان يتموه بالشجر، مخافة أن تراه (الزرقاء) التي كانت ترى الأشياء على مسيرة ثلاثة أيام، لكنها بلا شك خدعة لم تنطل على (الزرقاء) التي ترجمت هذه الصورة ترجمة فورية على ضوء الأحداث السياسية والحربية التي تعيشها القبيلة..!!

تتشكل هذه الصورة البصرية عبر مكوناتها النوعية: الحركة، الحجم، الشكل، أما لو فندناها بمكونات الاستعارة: المستعار: السير، المستعار له: الشجر، المستعار منه: الإنسان، حيث حذف الإنسان وأشارت إليه بلازمة من لوازمه وهي السير، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية حيث أضفت الحياة على ما لا يعقل وهو (الشجر).

^{٨٩٣} - التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه: ص: ٣٠٨-٣٠٩، تاريخ الرسل والملوك: للطبري: ١/٦٣٠. الأغاني: للأصفهاني: ٢/٨٥، إحسان عباس وآخرون، قصة المثل "أبصر من زرقاء اليمامة" في العقد الفريد: ٣/١٣، وانظر مختصر القصة في الروض الأنف، للسهيلى: ١/٤٧ - ١٥١.

وجاء خطاب (وجزة بنت الخطيم) في أعقاب هزيمة منكرة وقتلى كثر من بني الضباب - قبيلتها
 الأم- منهم أخواها (أبو لطيفة)، فتعالى صياح بنات وجزة وبكاؤهن، فقالت لهن: " اسكُتْنَ ، فوالله لئن
 كَانَ ظَنِّي "ببني عمرو وهم الضباب" لبيبتنَّ اللَّيلةَ في بني جعفر نوح كثير" ^{٨٩٤}

إن النسق التركيبي ينحرف نحو التركيب التصويري ليحدث انزياحا دلاليا تصاعديا نحو أفق درامي
 في إطار هذا السياق الحساس والمشحون بتوتر عاطفي يتساق مع هذا التوتر اللغوي، إن المشهدية
 المتكونة في قولها (بيبتنَّ نوح) تشكل خرقا دلاليا ولغويا في آن، حيث يرخي بعدا استعاريا كنائيا، هذا
 ما نراه في تحقيق نسبة البيوتة للنوح، وبهذا تكون قد شخصته، و جعلت النوح الذي هو اسم يطلق
 على النساء حيث يجتمعن للحزن ^{٨٩٥}، شخصا يقيم بين ظهرائي القوم وبيبت عندهم ، وكأنما يأنس
 بهم، ويأمنهم...!!

وقد ينظر إليه على أنه من قبيل المجاز العقلي، حيث أسندت البيات إلى النوح بينما يجب أن يسند
 إلى بني جعفر...!

والمفارقة أيضا، في أن (النوح) وهو القيام بالبكاء والاستمرار فيه مع علو الصوت، هو ضد (البيات)
 الذي يعني السكون والأمان الافتراضيين على أقل تقدير...!!

(النوح) ليس مشهدا سمعيا تسافر فيه أصوات الباكيات خلف أفق الصبر وتُسمع جنبات الكون
 فقط، بل هو مشهد بصري أيضا لأن التناوح هو التقابل من أولاء النسوة للقيام بفعل النوح نفسه. ^{٨٩٦}
 وبهذا يجتمع لهذه الصورة بعدان، بصري وسمعي ليعطيا هذا الزخم الدلالي المضاعف من خلال
 عمليتي التكثيف والاختزال، خاصة وقد جاءت في سياق تركيبى اعتمد التقديم والتأخير في ظل أسلوب
 شرط مكتنف بالذکر والحذف...!

وعلى المستوى الدلالي تفرز لنا هذه الصورة السياقية دلالات عدة، منها: أن هذه الصورة تحديدا
 جاءت لقلب دلالة الأشياء، وعكس موازين القوى، حيث كانت هذه المرأة في الكفة المهزومة الثكلى،

^{٨٩٤} - أيام العرب في الجاهلية: علي الجاوي، أبو الفضل إبراهيم: ص: ٣٠٦ " يوم هراميت"

^{٨٩٥} - انظر: اللسان: (نوح).

^{٨٩٦} - نفسه .

وهي تريد أن ترفع المعنويات، بأن من انتصروا لن يناموا هائنين، ولكن صاحبهم هو النوح والحزن الذي سبببت معهم ، لأن بني الضباب سيثأرون سريعا وقبل أن يطلع الصبح... وهكذا كان..!

ومما تتضافر الحواس فيه لتكوين الصورة: صورة سمعية، ذوقية بصرية، لمسية، حركية، ليمتلئ المخاطب بها، ما ورد في خطاب عربية تصف فرس والدها قالت ^{٨٩٧}: " كان أبي على شقاء مقاء، طويلة الأنفاء، تمطّق أنثياها بالعرق، تمطّق الشيخ بالمرق " ^{٨٩٨}

بالرغم مما يوحي به الخطاب من البعد التشبيهي لأول وهلة، خاصة في مقارنتها بين فعلي التمطّق، بقولها " تَمَطَّقُ أَنْثِيَاها بِالْعَرَقِ، تَمَطَّقُ الشَّيْخَ بِالْمَرَقِ"، فإن البعد الاستعاري الكنائي واضح أيضا، حيث يتجلى الانزياح الدلالي بنسبة التمطّق لأنثيي الفرس، وهما ريلتا فخذيهما، وقد نضحتا بالعرق جراء الجري السريع والشديد..!

إنّ أول صورة مستدعاة من مخزون الذاكرة لصورة الفرس هذه، هو ذاك الشيخ العجوز الذي تحانت أسنانه وتساقطت، وأصبح فضاء فمه أملس، لا يسيغ إلا السوائل وإن اشتهى غيرها، وتخص بذلك المرق، لشبوع النكهة المُستلذذة فيه، خاصة إذا طبخ باللحم، تجول هذه المرققة الحارة أو الدافئة في فضاء فمه الخالي ويتطعم بها ويتمطّق، فتسمع من ذلك طقطقة وتنطعا أنسا بهذا المذاق.

إن هذه صورة فريدة، جامعة لعديد من مستويات الحواس فيها، وبشكل مختزل ، يلتقطه الفكر وتستشعره الغريزة ، دونما ثقل في البناء التركيبي..!

فهناك صورة حركية لمسية حرارية سمعية بصرية، تلتقطها عدسة هذه الفتاة، ويمثلها الجري لدى الفرس مع احتكاك ريلتي الفخذ الملساوين، تقارب صورة حركة فم الشيخ والمرق في فضاء فمه الخالي من الأسنان وصورة سمعية هي طقطقة وتنطع صوت المرق في فم الشيخ بصوت الاحتكاك بين ريلتي فخذ الفرس الناضحتين بالعرق الغزير، وللسمع خصوصية الهيمنة اللاإرادية، يعني أن الإنسان يتحكم في بصره، أو في تذوقه، أو في لمس الأشياء، لكنه مرغما يسمع كل صوت، فللصورة السمعية إذن هذه الخصوصية المهيمنة..!!

^{٨٩٧} - الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٧١-١٧٢. الأماي للقالبي: ٢/٢١٩. مجمع الأمثال: الميداني: ٢/٢٤٦ وقصة المثل: "لا تعلم اليتيم البكاء". المزهري: ٢/٥٤٩.

^{٨٩٨} - التمطّق: التذوق، وهو إطباق إحدى الشفتين على الأخرى مع صوت يكون بينهما ، وفي لسان العرب، مادة: أنث: في صفة فرس: تَمَطَّقَتْ أَنْثِيَاها بِالْعَرَقِ، تَمَطَّقُ الشَّيْخَ الْعَجُوزَ بِالْمَرَقِ عَنَّتْ بِأَنْثِيَاها: رَيْلَتِي فَخَذِيها.

أما على مستوى الصورة اللمسية، فالأسطح الداخلية للمساء في كليهما هي صورة لمسية، وهذا الاحتكاك بين السطحين في كلِّ هو صورة حرارية، وصورة الحركة بين منفرجين، انفراج طبقتي الفم، وربلتي الفخذين هي صورة بصرية، بل صورة التمتق المجملة هي بصرية سمعية، ثم تأتي باقي الصور بالتداعي من تلك الصورتين... أضف إلى ذلك هذا الأنس وهو انفعال نفسي يتمثل في أنس الفرس بالجري السريع كما أنس العجوز بالمرق !!! وهي صورة طريفة أيضا ذات حس فكاهي لأن صورة الشيخ الذي يتمطق بالمرق إنما هي صورة طريفة أيضا.

وهنا صورة ذهنية نتقفاها في خطاب (سعدى بنت حصين الطائية) أم أوس بن حارثة بن لأم لابنها، حيث صورة المدح الذي يغسل الهجاء، وذلك في إطار الاستعارة المكنية، حيث شخصت المدح، لأنها جعلته شخصا يقوم بالغسل، أما الهجاء، فقد صورته كالثوب الذي يُغسل، قالت: " أرى أن تردَّ عليه ماله، وتعفو عنه، وتحبوه، وأفعل مثل ذلك فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه .^{٨٩٩}

وتخاطبه مرة أخرى بصورة لونية فيها مفارقة النور والظلمة، تنحو فيها عليه باللائمة لفعله: " قبح الله قوماً يسودونك، أو يقتبسون من رأيك،...^{٩٠٠}، حيث صورت اهداءهم به بالاستضاءة بالنار، ثم حذفت النار ورمزت إليها بشيء من لوازمها وهو الاقتباس منها على سبيل الاستعارة المكنية، فهي صورت الأخذ من الرأي بالاقتباس من النار.

وتصادفنا هذه الصورة الذوقية في إطار بنية الاستعارة التصريحية، في خطاب (سلمى) زوج صخر بن الشريد بعد أن أصيب فمرض مرضاً طويلاً، وقد جاءت امرأة تسأل زوجته: كيف بعلك؟ قالت: " لا حيٌّ فيرجى، ولا ميتٌ فيُنسى، لقد لقينا منه الأمرين.^{٩٠١}

فقول (سلمى): " لقينا"، تشكل خرقاً على مستوى التركيب والدلالة، حيث تجعل المخاطب يظن- وبشكل بدهي- أن الملقى هو كائن حي، على أقل تقدير، لكنه يفاجأ بأن هذا الملقى، هو (الأمرين) !!! وأن ذلك يشكل صدمة للمخاطب، لكنه صدمة أيضاً للمتكلم قبله، الذي كان يظن أن ما

^{٨٩٩} - بلوغ الأرب. للألوسي: ٨٣/١ - ٨٤ . الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١ / ٤٦٩. خزنة الأدب: للبغدادي: ٤ / ٤٤٤. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: للتحالبي: ص: ١١٨.

^{٩٠٠} - بلوغ الأرب، للألوسي: ١ / ٨٤ . خزنة الأدب، للبغدادي: ٤ / ٤٤٥.

^{٩٠١} - العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٥ / ١٤٩، التعازي و المراثي، للمبرد: ص: ٩١. الأغاني: للأصفهاني: ٥٦ / ١٥، إحسان عباس وآخرون.

سيلاقيه من هذا الشخص/الزوج إنما هو أمر مغاير لواقع الحال معه، وهذا يبرر حالة البرم والشكوى من قبل الزوجة...!!

ولذا..فإن(سلمى) تشبه مرض زوجها وعجزه وتجرحها ذلك بالمذاق المر الذي لا يستساغ بجامع المرارة المنفرة في كل، وأن ذلك يحاصرها من كل جهة، فهو يلاقيها، فهي ليست مرارة مادية تصيب اللسان كحاسة تذوق وتعكر المزاج للحظات، بل هي تغرق في وحل من المرارة، فكلها يستشعر هذه المرارة، وهي أيضا أينما ذهبت تلاقيها، تتمثل في الإيذاء البصري من رؤية زوجها ممددا وضعيفا وثقيلا على الروح والعين، وثقيلة مزة خدمته والقيام على شؤونه...!!

و(سلمى) تتخفى خلف(نا) الدالة على الفاعلين، وتذكر معاجم اللغة أن الأمرين هما: الصبر والخردل، وجعل الحُرُوفَةَ والحِدَّةَ التي في الخردل بمنزلة المرارة، مع غلبة الصفة في الصبر أكثر، والأمران أيضا: أي الشرِّ والأمر العظيم^{٩٠٢}.

في هذه الصورة البصرية ، تخرج (نساء بني عبيس) على العادة للرعي، هن اللواتي حفظن خريطة تلك المراعي كراحة اليد، وإذا توتر على سطح تلك الرقعة من المرعى، رقعة كانت منبسطة، وإذا نتوءات بصرية تملؤها، فتسرع النسوة ببعث الأخبار إلى رجال القبيلة، وتحذيرهن بخطاب بلاغي رفيع المستوى ويمنتهى الهدوء والدقة، ودونما جلبة، قلن: " إِنَّا لَنَرَى حَرَجَةً مِّنْ عِصَاةٍ أَوْ غَابَةٍ رِّمَاحٍ بِمَكَانٍ لَّمْ نَكُنْ نَرَى بِهِ شَيْئًا " ^{٩٠٣} في صورة تصويرية استعارية مركزة لا يبرز منها سوى المشبه به، اختزال يناسب السياق التحذيري السريع..!

وهذا المشبه به، متعدد في نظر هاته النسوة، فتارة تبرز هذه الصورة البصرية في شكل: "حَرَجَةً مِّنْ عِصَاةٍ"، أو تكون "غَابَةً رِّمَاحٍ" ، وليس بينهما بعد أو تغريب، والذي أثار في أنفسهن العجب وغرز الشك والريبة هو ما أوضحه في ختام الخطاب "بِمَكَانٍ لَّمْ نَكُنْ نَرَى بِهِ شَيْئًا"، وبالقوة الربط ودقة الملاحظة وحسن التصرف ، فقد ربطن المقدمات بالنتيجة فأرسلن رسل التحذير زرافات ووحدانا على ما تذكر كتب التأريخ...!!

^{٩٠٢} - انظر: اللسان.(مزر).

^{٩٠٣} - الأغاني ، للأصفهاني: ١١ / ٥٨ .إحسان عباس وآخرون. تمثال الأمثال، للعبدي : ٢ / ٣٣٤.

وفي هذا التركيب التصويري نشير إلى أن رتبة المشبه به الأول و الثاني هي (مفعول به)، والأول جاء مع (من) الجارة التبعية، والثاني بتركيب إضافي، ولذا نجد أن حجم الصورة الأولى مقطوع بـ(من) التبعية، ومع التدقيق تبدت صورة أكبر وأعم، وجاء التشبيه موازيا لحجم الإحساس بالخطر فكانت غابة رماح، بتركيب إضافي، لإبراز جوهر العظمة والكثرة في كل، فالشوك تحول إلى رماح، ومجموعة من الشجر تحولت إلى غابة!!..

يُلحظ دقة هذين التركيبين في التعبير عن هذه اللحظة المليئة بالارتباك والتوتر بفعل الصدمة والمفاجأة، الذي يجعل الرائي غير مدرك لحقيقة الصورة وأبعادها لأول وهلة.

وكلتا الصورتين مُستلтан من روح الحياة البدوية وعمقها الدلالي، فـ "حَرْجَةٌ مِنْ عِضَاةٍ"، وهي تعني بعض من الشجر الكثير الملتف، في هذه البقعة. أما نوع الشجر: العضاة: كل شجر له شوك، وقيل هو أعظم الشجر. ٩٠٤ .

فكثافة العدو والتفافه مع بروز أسنة الرماح، بدت كشجر العضاة كثير الشوك، أما الغابة: فقد سميت كذلك لأنها تُغَيَّبُ ما فيها وتستره^{٩٠٥}، كما هؤلاء القوم برماحهم الكثيرة المغيبة في أوساطهم ومع ذلك فمن طولها برزت حتى بدت في نظر الرائي (غابة رماح) لها أطراف كأطراف الأجمة^{٩٠٦}، ثم إن الرماح الطويلة المرتفعة بأسنتها إلى السماء، تميل وتتحرك مع الريح كما رؤوس الأشجار!!.. وفي الصورتين هناك معنى التربص المستشف من التكتل والتخفي و الالتفاف، أي عدم الانتشار حتى لا يلفتوا نظر بني عبس!!..

في إطار هذا النوع من الاستعارة أيضا، نصادف هذه الصورة الذهنية، حيث شكلت عدولا في التركيب، في خطاب (فَاطِمَةَ بِنْتِ الْخُرْشُبِ) في حرب داحس والغبراء، وقد اختطفها قيس والد (الْجَمَانَةَ

٩٠٤ - اللسان: (غيب).

٩٠٥ - انظر: نفسه.

٩٠٦ - نفسه.

بنت قَيْسٍ)، فقالت له ^{١٠٧}: "ما تريد يا قيس : " أَيْ قَيْسُ، ضَلَّ حِلْمُكَ، أَتَرْجُو أَنْ تَصْطَلِحَ أَنْتَ وَبَنُو زِيَادٍ، وَقَدْ أَخَذْتَ أَمَّهُمْ، فَذَهَبَتْهَا يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ مَا شَاءُوا !!!؟ "

فعلى مستوى التركيب نجد هذه الصورة قد انغرست بين بنيتين إنشائيتين، (النداء، الاستفهام)، ثم تبزغ هذه الصورة : " ضَلَّ حِلْمُكَ".

فقد رأت أن سوء تصرفه، وعدم تقديره للأمر هو خروج عن سداد الرشد، وبالتالي فقد صرحت بالمشبه به، وهو هنا ضلال العقل، وحققت نسبة بين أمرين مجردين هما في قولها (ضَلَّ حِلْمُكَ)، حيث الضلال، الذي هو ضد الهداية، نسب إلى العقل، فالعقل ضالٌّ، وعلى مستوى الدلالة فهي تريد رده بهذه الصورة، خاصة وأنه سيد قومه وليس من سمات السيادة والرئاسة الطيش والتصرفات غير المسؤولة، وبالفعل نجحت في تغيير موقفه، وإقناعه بإطلاق سراحها ومن معها من النسوة.. فالانزياح التركيبي أدى إلى انزياح دلالي وقلب الأحداث على أرض الواقع!!
وبعد....

فمن خلال ملاحظة البنى التصويرية الاستعارية، في خطاب المرأة في سياق الحرب، هو تداخل الحواس في تكوينها على تنوع وتماء بين جميع الحواس (بصرية، سمعية، شمية، ذوقية، لمسية)، كما لوحظ هذا التوتر الذي يحدثه هذا النوع من التصوير على بنية الخطاب، من ناحية الانزياح اللغوي والدلالي وتأثير ذلك على المتلقي، وأن هناك تنوعاً في علاقة المستعار له والمستعار منه، فقد يكونان عقليين، أو أحدهما حسيًا والآخر عقليًا والعكس، والملاحظ أيضا أن معظم هذه الصور هي صور التقطتها واختزلتها هذه المرأة من واقع حياتها، فلا تهويم ولا تغريب، ولا فلسفة وراء تلك الصور أبعد من فلسفة هذه العلاقة التكوينية بين المرأة ومحيطها حيث يتحد كلا من الذات والموضوع في إنتاج الصورة وتقديمها!!..

ولعل البعد الاستعاري لا يبرز كثيرا في خطاب المرأة الحربي، لأنه في عمومها خطاب مأساوي تراجمي، وآخر ما يبحث عنه المتكلم والمتلقي في سياق شفهي كهذا هو لغة إشارية معمية تحتاج لكثير من أعمال العقل وإشغال الفكر.

^{١٠٧} - أمثال العرب، المفضل الضبي: ص: ٩٠، الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام: ص: ٧٢، جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ٣٤١/١ - ٣٤٢، ٢/ ٢٦٥، المستقصى للزمخشري: ٦٢/٢. الأغاني، للأصفهاني: تح/ علي محمد الجاوي: ١٧/ ١٩٣ - ١٩٨. الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ١/ ٤٤٩. و أيضا: شعراء النصرانية قبل الإسلام: ص: ٩٢٦.

الصورة الاستعارية

في (عصر صدر الإسلام)

كيف قاربت المرأة في عصر صدر الإسلام البنية التصويرية الاستعارية، واستدعتها في سياق الحرب..؟؟ وما عمق هذا الاستدعاء وتأثيره على خطابها، ومدى تعبيره عن الدلالات المنوطة بهذا الخطاب..؟؟

الاستِعَاةُ الْمَكْنِيَّةُ :

هنا صورة حركية تتخلق في سياق معركة أُحُد، حينما انكشف الناس عن النبي ﷺ، وقفت (أُمُّ أَيْمَن) وزوجها وابناها ينافحون عنه، حينها لم يكن عند (أُمِّ أَيْمَن) سلاح، فأمر النبي ﷺ أحد الفارين أن يعطيها ترسه، ففعل، وصارت تترس عن النبي ﷺ، حتى وقع بينها وبين أحد المشركين اشتجار، فعاونها ابنها عليه، فقتلته، وفي معرض روايتها لهذه اللحظة الفارقة في سياق المعركة، قالت في ختامها وتوضيحا لمصير المعتدي المشرك : " حَتَّى أَوْرَدْتُهُ شَعُوبًا " ٩٠٨

فقد صورت المنية (شُعُوبًا)، بالمكان البعيد الذي يرسل إليه أحدهم، أو يُذهب إليه به، فحذفت المكان ورمزت إليه بشيء من لوازمه وهو الإتيان أو الذهاب، أو أخذ أحدهم إليه، بجامع التفريق والبعاد في كل، حيث المكان بعيد ويفرق بين الناس، والمنية هي مبالغة في هذا التفريق والتشتيت..!!

ولا شك أن هذه الصورة على بساطتها وعفويتها، بل وتداولها حينئذ، إلا أن لها في هذا السياق ومن هذه المرأة وقعا خاصًا؛ فالسياق الكلي الذي كانت تجري فيه أحداث المعركة، كان سياقًا خاصًا، تفار منه الشجعان من الجنود، وهرب منه المقاتلون حتى إنهم لم يستحيوا من رسول الله ﷺ وقد كُشف، ثم تنبري هذه المرأة، تخذل الفارين، وتنبجس عن نفسها نصرًا وإيثارا وتفدية، ومن صدق نية وعمق إيمان، حتى تناور هذا الرجل، وتشاجر، وتستعمل ما أوتيت من سلاح ضده، ثم تتمكن من قتله، لهو شأن عظيم، فقبل قليل لم تكن سوى امرأة تغزل، وتخرق السقاء، وتمرض الجرحى، والآن هي في وسط الميدان وتفعل كل هذا..!!

٩٠٨- المغازي للواقدي: ١/٢٧٠. وأُمُّ أَيْمَن: هي أُمُّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ.. وفي حديث طلحة: فما زِلْتُ واضِعًا رِجْلِي عَلَى خَدِّهِ حَتَّى أَرَزْتُهُ شَعُوبًا؛ شَعُوبًا: من أَسْمَاءِ الْمَنِيَّةِ، غَيْرَ مَصْرُوفٍ، وَسُمِّيَتْ شَعُوبًا، لِأَنَّهَا تَفَرَّقُ .. . اللسان: (شعَب).

إذن.. تلك صورة الفخر بنصرة الله ورسوله ﷺ، وأنها استطاعت أن تفعل ذلك وتعتز به في غير رياء، فقد قتلت أحد المشركين المعاندين لله ولرسوله ﷺ...، ومن هنا تأتي أهمية هذه الصورة في هذا السياق المخصوص!!..

و تنبثق لنا هذه الصورة البصرية في غلالة من حلم، وفي إهاب الاستعارة المكنية، وهو ما ورد عن رؤيا (جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ) قبل إسلامها، قَالَتْ: "رَأَيْتُ قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِثَلَاثِ لَيَالٍ كَأَنَّ الْقَمَرَ يَسِيرُ مِنْ يَثْرَبَ حَتَّى وَقَعَ فِي حِجْرِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُخْبِرَهَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... " ٩٠٩

فالقمر الذي يسير، قد أضفت عليه من سمات الكائن الحي الذي يمتلك إرادة السير وأدواته، و يمتلك تحديد وجهته وغايته، قد شخصته على هذا النحو الحي النابض..! وفي هذه الصورة أيضا مفارقة لونية، حيث ضوء القمر، وظلمة الليل، وهي مفارقة تحيل إلى الهداية والضلالة، الأولى ممثلة في شخص رسول الله ﷺ، والثانية ممثلة لبني المصطلق.

وفي خطاب (أُمِّ سَنَانِ الْأَسْلَمِيَّةِ) تصف الوضع الاجتماعي والاقتصادي إبان التجهيز لغزوة تبوك، وقد أصاب الناس من العسر ما يكفي لثنيهم عن هذا الوجه، وتذكر الطريقة الإدارية الحكيمة التي قاد بها النبي ﷺ هذه الأزمة، تقول: " وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بِالْإِنْكِمَاشِ وَالْجِدِّ... " ٩١٠

وفي هذه الصورة البصرية الحركية بعد كنائي للوهلة الأولى، يحيلنا إلى سياسة التقشف التي تبناها النبي ﷺ ولكن بإحالة الصورة إلى منحي آخر قد يتكشف لنا فيها بعدها الاستعاري المنحاز للمعنى ذاته أيضا، هذا إذا نظرنا إلى أن المنكماش هو الثوب أو الجلد إذا تغضن، فالمستعار له هم الناس جميعا آنذاك، والمستعار منه هو صورة الثوب المشمر أو الجلد المنكماش، وهذا الجمع مقابل الأفراد، بين طرفي الاستعارة، له بعد دلالي للمبالغة في هذه الصفة المطروحة عن الوضع نفسه، وهي صورة بصرية بإحالات نفسية أيضا، حيث هذا الانكماش أو التغضن إنما هو نتاج مجاهدة للنفس

٩٠٩- المغازي للواقدي: ١ / ٤١٢ .

٩١٠- المغازي للواقدي: ٣ / ٩٩٢، في تجهيز غزوة تبوك. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١ / ١٦٤، وترجمتها في: الطبقات الكبرى، لابن سعد: ١٠ / ٢٧٦-٢٧٧،.. "الكنش: الرجل السريع الماضي.. معنى قولهم قد تكمّش جلدُه أي تقبّض واجتمع وانكمّش في الحاجة، معناه اجتمع.. " اللسان: (كَمَشَ).

وكبح لجماعها في متطلبات الحياة البسيطة، هو انكماش يأتي كمعادل موضوعي لحالة المدد التي يحتاجها المجاهدون، وفيها أيضا مشاركة جمعية عامة ، فالكل يصنع النصر أو يشارك في الجهاد على هذا النحو.. وبذا تكون هذه الصورة أعطت انطبعا نابضا عن الوضع آنذاك!!..

وفي حسرة ما بعدها حسرة، يأتي خطاب (أُمِّ سُلَيْمِ بِنْتِ مِلْحَانَ) في فتنة مقتل الخليفة عثمان بن عفان، يصلها الخبر ، فتقول: " أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَحْلُبُوا بَعْدَهُ إِلَّا دَمًا ."^{٩١١}

تتنسج هذه الصورة البصرية الحركية المتكئة على المفارقة اللونية، في بنية خطابٍ لغوية إنكارية، تعززها بنية نفي لإثبات، أو القصر هنا، ولا شك أن لبنية الفعل المضارع تأثيرها، حيث دلالاته على الاستمرار والتجدد، ملاءمة ومناسبة لفعل الحَلْبِ نفسه، الذي يأتي متقطعا، ومستمرًا في آن... وهكذا هي الفتنة!!..

أما بنية الصورة فتتجسد في تصويرها الفتنة بمقتل الخليفة بالناقاة أو الشاة التي تحلب ، على عدم ذكر للناقاة، ولا يكون حليبها إلا دما، على ما في هذه الصورة من تشاؤم ، إلا أنها قراءة واضحة لما يترتب عليه هذا الحدث ومن سعوا فيه متوهمين فيه منفعة لهم، ولكنهم كمن ألقح الناقاة أو الشاة إشارة إلى تلاقح الأحداث، ثم أنتجت فتنة، والحليب الذي يرجى نفعه انقلب إلى ضرر مطلق.. ، هذه الصورة المبنية على متناقضات مفزعة حيث يأتي كل شيء خلاف المتوقع، يتجلى أيضا في صورة التناقض اللوني، فالحليب الأبيض الناصع، إنما هو دم أحمر عبيط، والفرح المتوقع باللقاح والنتاج، يتحول إلى مآتم وموت متدفق بلا انتهاء..، ثم هناك هذا التعمد في استجلاب الحليب بالحلب، تقابله صورة التعمد في استجلاب الفتنة والسعي الجاد فيها!!.. وهي صورة بدوية من واقع البيئة تأتي عفوا الخاطر ومن عمق تفاصيل حياة المرأة اليومية!!..

وفي معرض خطاب تحريضي للنسوة للمشاركة في المدد والدعم للمسلمين، وإقناعهن بذلك تقول (أَزْدَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ): " إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ ،...".^{٩١٢}

^{٩١١} - البداية والنهاية، لابن كثير: ١٩٥/٧.

^{٩١٢} - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص ١٥٣-١٥٤، ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣ / ٥٩٦ - ٥٩٧. سنة ١٤ هـ. في القادسية. النَّحْرُ: الصَّنَدُ. اللِّسَانُ: (نَحَرَ).

في صدر هذا الخبر المؤكد تأتي هذه الصورة الحركية، حيث تصور (أزدة) العدو وتشخصه ككتلة آدمية واحدة، لها نحر (صدر)، تُستقبل به، وهو موضع قتله والخلص منه، وإن كانت لا تذكر المستعار منه الإنسان صراحة هنا، وتشكل (في) هنا بُعداً معمّقا لدلالة الظرفية المكانية (النحر) في تشخيص هذا العدو، مع النظر إلى كون الجمع والإفراد بين: (الرجال/ العدو)، وكأنها تومئ من طرف خفي لهاته النسوة، عن مدى قوة هذا العدو واتحاده ضد المسلمين، وأن عليهن أن يفعلن مثل هذا لكي يشكلن قوة ضاربة لصالح المجاهدين... هؤلاء المجاهدون الذين يضحون بأنفسهم، ويستقبلون العدو في صدره، مواجهة وقتالا مميتا، وأقل ما يقدم لهم هو حماية ظهرهم وإعطائهم الطمأنينة على نساتهم وذويهم، ليتفرغوا لهذا المركب الصعب والخطر في تلك النقطة الحرجة من المعركة..! وبذا تكون هذه الصورة قد عملت على دعم المعنى التحريضي الذي بُني عليه الخطاب..!!

وحينما وقعت (خَوْلَةٌ) والنسوة في الأسر، صارت تحرضهن على الخلاص والقتال، فهجمت (خَوْلَةٌ) أمامهن فأول ما ضربت رجلا من القوم على هامته بالعمود فتجندل صريعا والتفت الروم ينظرون ما الخبر، فإذا هم بالنسوة وقد أقبلن والعُمد بأيديهن فصاح بطريق: يا ويلكن ما هذا..؟؟ فقالت (عَفْرَةٌ): "هَذِهِ فَعَالُنَا فَلَنَضْرِبَنَّ الْقَوْمَ بِهَذِهِ الْأَعْمَدَةِ وَلَا بُدَّ مِنْ قَطْعِ أَعْمَارِكُمْ، وَأَنْصِرَامِ آجَالِكُمْ يَا أَهْلَ الْكُفْرِ."^{٩١٣}

إنها صورة حركية يفرزها سياق محموم، لاهت، من قلب القتال والمواجهة، وفي سياق لغوي خبري مؤكد، يأتي خطاب (عَفْرَةٌ) منزاها إلى التركيب السوري، المتجلي في الاستعارة المكنية، حيث صورت الأعمار والآجال بالحبيل أو بالشجرة أو النبات الذي يصرم.^{٩١٤} أو بما يقطع على وجه العموم..! فالمستعار له (الأعمار، الآجال) معنوي، والمستعار منه (النبخل، الحبل) حسي، وهي صورة تأتي في سياق خطاب التهويل والترويع للخصم، فيما يشبه الحرب النفسية، بعد استعمال عنصر المفاجأة في الهجوم غير المتوقع من قبل النسوة، ويتبين من هذه الصورة مدى القوة النفسية التي كانت عليه هاته النسوة والقدرة على المواجهة على كافة مستوياتها وأنواعها..!

ومع ملاحظة بساطة هذه الصورة إلا أنها تكشف عن دلالات وأبعاد في سياقها هذا، فالتأكيد كان على الاجتثاث والقطع النهائيين، وليس أقل من ذلك، هذه الصورة توضح إذن.. الإصرار والعزيمة على

^{٩١٣} - فتوح الشام. الواقدي. ١ / ٤٨ .

^{٩١٤} - " .. الصَّرْمُ: القطع البائن وصَرَمَ النَّخْلَ والشَجَرَ والزرع يَصْرِمُهُ صَرْمًا واصْطَرَمَهُ: جَزَّهُ... وقوله عز وجل: إن كنتم صارمين؛ أي عازمين على صَرْمِ النَّخْلِ". اللسان: (صرم).

القضاء المبرم على هؤلاء القوم، لأن البديل الآخر هو الموت المحقق بل ما هو أبشع منه لهاته النسوة ..، يدعم هذه الصورة بنيتان: الأولى بنية الخبر الإنكاري المؤكد التي افتتح بها هذا الخطاب، والثانية: هي بنية التقديم والتأخير التي اختتم بها ، فقد أخرجت جملة النداء على ما سواها للتخصيص بالذم والاحتقار هنا...!!

هذه (أُمُّ خَلَدِ الْأَنْصَارِيَِّّةِ) في يوم بني قُرَيْظَةَ، وقد جاءت باكية على ولدها ،فليمت على انتقابها رغم حزنها، ضربت صفحا عن موت الولد وقتله، وانبرت تخاطب هؤلاء اللانمين قائلة: " إِنْ قُتِلَ خَلَدٌ فَلَنْ أُرْزَأَ حَيَائِي. "٩١٥

خبر يأتي في بنية أسلوب الشرط يحمل قيمة خلقية كبيرة ورسوخا على مرتكزات لا تنتزع رغم النوائب، فقدت هذه المرأة ولدها ومع ذلك تبقى محافظة على حشمتها، مع أن السياق العام والمزاج الاجتماعي يسوغان لها بعض التجاوزات ومنها إظهار الجزع بالتخلي عن النقاب، وليس عن الحجاب، لكنها ترفض هذه الفسحة من التجوز وترد بكل حزم، ناظرة إلى أفق أبعد وأرحب، فلا شيء، حتى فقد ابنها قد يدفعها للتخلي عن وقارها، ولا أن تجزع وابنها في هذا السبيل، وذلك في قولها: " إِنْ قُتِلَ خَلَدٌ فَلَنْ أُرْزَأَ حَيَائِي. "

صورت (أُمُّ خَلَدِ) حياءها بالإنسان العزيز، وأضفت عليه من قيم الإنسانية الحياة والموت، وأضفت عليه من قيم العلاقات البشرية، هذه المعزة الخاصة التي تجعلها إن فقدته فقد رزئت به ، وكأنها تتكلمه، على سبيل الاستعارة المكنية...!! وهي تعني بذلك أنها لن تضيف على ثكلها ثكلا، وإلى حزنها أحزانا، وإن كانت قد فقدت عزيزا واحدا لن تفقد الأعز عندها وهو حياؤها، إنها تعبر عن فقد ابنها بالقتل، ولكنها تعبر بالرزق لفقد حياؤها وسترها، في هذه البنية الشرطية استنكار لمن توقع منها أن تكشف وجهها، والذي رأت في هذا المقدار هتكا لحياؤها، لا بل قتلا له، على سبيل المبالغة في إظهار قيمة الحياء من نفسها، وأن لا شيء يبهر التنازل عنه أو التخلي عن التحلي به...!

٩١٥- أسد الغابة، لابن الأثير: ٢ / ١٨٠. و ٤ / ١٩٦، مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ١ / ٢٧٢. الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٤٤٧. مُسَكِّنُ الْفُؤَادِ عند فقد الأحبة والأولاد، الشيخ زين الدين العاملي: ص: ٧٢.

وبعد فهذه امرأة مؤمنة، تصدر عن نفسها وطبعها وما تربت عليه، لكنها أيضا تقف بذلك على أرضية إيمانية صلبة، إذ الحياء شعبة من الإيمان، وسممة المؤمن الحق.. إنه حيي، وأقصى حيائه ألا يقارف ذنبا استحياء من الله تعالى!!..

تتكثف اللغة التصويرية الحركية اللونية والاستعارية بخاصة في وصية (الْخَنَسَاء) لبنيتها في القادسية، تقول: " فَأِذَا أَصْبَحْتُمْ عَدَاً إِنَّ شَاءَ اللَّهُ سَالِمِينَ، فَأَعْدُوا إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ مُسْتَبْصِرِينَ، وَيَا اللَّهَ عَلَى أَعْدَائِهِ مُسْتَبْصِرِينَ،... فَأِذَا رَأَيْتُمْ الْحَرْبَ قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا، وَاضْطَرَمَّت لَطَى عَلَى سِيَاقِهَا، وَجَلَلَتْ نَارًا عَلَى أَوْرَاقِهَا، فَتَيَمَّمُوا وَطَيْسَهَا، وَجَالِدُوا رَئِيسَهَا، عِنْدَ احْتِدَامِ خَمِيسِهَا، تَظْفَرُوا بِالْغَنَمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الْخُلْدِ وَالْمُقَامَةِ"^{٩١٦}

هذه البنية التصويرية، جاءت محكومة ببنية لغوية، تراتبية، هي بنية الشرط: " فَأِذَا رَأَيْتُمْ الْحَرْبَ قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا، وَاضْطَرَمَّت لَطَى عَلَى سِيَاقِهَا، وَجَلَلَتْ نَارًا عَلَى أَوْرَاقِهَا، فَتَيَمَّمُوا وَطَيْسَهَا، وَجَالِدُوا رَئِيسَهَا، عِنْدَ احْتِدَامِ خَمِيسِهَا، ..."، فقيمة هذه المواجهة مرهونة بشروط ظرفية، ساقتها كمقدمة، ثم ما يترتب عليها أو يرتبط بها هو في الجزء الأخير من الخطاب..، لتشكلا معًا كفتي ميزان، أو ليأتي الجواب كمعادل موضوعي للشرط: إذا كانت الحرب على هذه الكيفية، فكونوا أنتم على تلك الكيفية!!.. وتدعم هذه الصور الاستعارية أيضا بنى إبقاعية تحكم فواصلها ومفاصلها، معتمدة على السجع تارة، وعلى الجناس تارة أخرى، مما جعل الصور تتأرجح في هذه البنى وتتضوع فيها!!..

ومع (الْخَنَسَاء) نتصفح سجل صورها الحية في هذا الخطاب، صور لا تزال تحتفظ بطزاجة اللحظة، ووهج المعركة، وكأن دهرًا لم يمر عليها، وكأن أدنا لم تستهلكها، وفؤادا لم يعيها، فلم تفضّ دهشة تلقيها، ولم تفتّر رعشة الذهول عن أهوال تغشيتها، ولنلتقطها تواليًا، فالصورة الأولى:

" فَأِذَا رَأَيْتُمْ الْحَرْبَ قَدْ شَمَّرَتْ^{٩١٧} عَنْ سَاقِهَا"، فقد صورت الحرب وقد اشتد القتال فيها بحال الإنسان الذي يجد في طلب أمر، فيشمر له ساقه، للسرعة في إنجازهِ والقيام به، والساق تحديدا لأن عليها

^{٩١٦} - الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤ / ١٨٢٧. أسد الغابة، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١، الإصابة، لابن حجر: ٤ / ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩، الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي: ١٠ / ٣٨٨ - ٣٩٦، الفاضل في صفة الأدب الكامل، للشوابع: ص: ٢٢٠ - ٢٢١، وانفرد ابن الجوزي في " صفة الصفوة ٤ / ٣٨٥ " بنسبتها إلى الخنساء النخعية. خزنة الأدب، للبغدادي: ١ / ٤٣٤. ^{٩١٧} - "وقلصت قميصي: شمَّرته ورفعته؛ وأكثر ما يقال فيما يكون إلى فوق "، اللسان: (شمَّرَ)، وهو الجد في العمل.

قوام الجسم، وهي التي تنهض به، فذكرها هنا تحيل على دلالة بشاعة الحرب واستعارها وشدها بل وفظاعتها، لأن جدها هذا هو فعل القتل والإبادة لمن فيها..! كما أن التشمير^{٩١٨} نفسه فيه دلالة الإرادة، وكأنها تنسب الإبادة والقتل للحرب نفسها، مشخصة إياها في إهاب المحارب أو القائد الفاعل الأمر في المعركة؛ وهي صورة بصرية حركية.

الصورة الثانية:

" وَأَضْطَرَمَّتْ^{٩١٩} لَظَى عَلَى سِيَّاقِهَا^{٩٢٠}،.."، تشكل هذه الصورة ذروة تصويرية درامية مترتبة على الصورة الأولى ومتطورة عنها، حيث تتبلور شدة الحرب وجدها في حصد الأرواح، حتى وكأنها هذه النار العظيمة الحمراء شديدة التأجج والإحراق، إذ تنزع الأرواح، وأنها لعظمها تمتد وتتوسع وتنتشر حتى تغادر القلب، قلب المعركة حتى لتصل إلى (سياقها) أي مؤخرة الجيشين منها، حيث أبعد نقطة عن المركز، وهي صورة تهويلية مرعبة مخيفة، يزيدا هذا التأكيد فهي تحمر وتشتعل حتى تكون لها خالصا محضاً^{٩٢١}، صورة بصرية لونية حركية لحركة النار وانتشارها، و سمعية لصوت التلهب نفسه، ولا شك أن (الْخَسَاء) هنا تتناص شكلا ومضمونا مع قوله تعالى: { كَلَّا إِنَّهَا لَظَى. نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى. }^{٩٢٢}.

الصورة الثالثة:

وتصل إلى ذروة أبعد، حينما تصور هذه الحرب في صورة النار التي تعم كل شيء فتغطيه و تعميه وتخفيه "وَجَلَّلَتْ^{٩٢٣} نَارًا عَلَى أَوْرَاقِهَا^{٩٢٤}"، أي على أحداث السن منهم، فأرعبتهم وأخافتهم وربما جعلتهم يفرون من المعركة، أو قضت عليهم، لقلّة خبرتهم بها ..!!

^{٩١٨} - "شَمَّرَ سَاعِدَهُ وَكَشَفَ عَنْ سَاقِهِ لَلْاهْتِمَامِ بِذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ... فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، إِنَّمَا يَرِيدُ بِهِ شِدَّةَ الْأَمْرِ كَقَوْلِهِمْ: قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ،.. ثُمَّ قِيلَ لِلأَمْرِ الشَّدِيدِ سَاقٌ؛ وَسَوْقُ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ وَسَوْقُهُ: حَوْمَتُهُ، وَقَدْ قِيلَ: إِنْ ذَلِكَ مِنْ سَوْقِ النَّاسِ إِلَيْهَا. اللِّسَانُ: (سَوْقٌ).

^{٩١٩} - "ضَرِمَتْ النَّارُ وَتَضَرَمَتْ وَأَضْطَرَمَّتْ: اشْتَعَلَتْ وَالتَّهَيَّبَتْ". اللِّسَانُ: (ضَرَمٌ)، اضْطَرَمَّتْ نَارُهُمْ تَشْبِيهًا بِحُمْرَةِ النَّارِ؛ وَكَثِيرًا مَا يُطْلَقُونَ الْحُمْرَةَ عَلَى الشَّدَّةِ". اللِّسَانُ (حَمْرٌ).

^{٩٢٠} - .. وَالسِّيَاقُ: نَزَعُ الرُّوحِ. وَسَاقَةُ الْجَيْشِ: مُؤَخَّرُهُ.. اللِّسَانُ: (سَوْقٌ).

^{٩٢١} - انظُر: اللِّسَانُ: (لَظَى).

^{٩٢٢} - المعارج/١٥.

^{٩٢٣} - .. وَجَلَّلَ الشَّيْءُ تَجْلِيلًا أَيْ عَمَّ... وَالْجَلَّلُ مِنَ الْأَضْدَادِ يَكُونُ لِلْحَقِيرِ وَاللَّعِظِيمِ؛ أَيْ غَطَّاهَا. اللِّسَانُ (جَلَّلَ).

^{٩٢٤} - .. وَالْوَرَقُ: الدُّنْيَا... وَوَرَقُ الْقَوْمِ: أَحْدَاثُهُمْ... الغَازِي إِذَا لَمْ يَغْنَمْ فَهُوَ مُورِقٌ". اللِّسَانُ (وَرَقٌ).

وماذا بعد..نجده في التركيب التالي: " فَتَيَّمُوا وَطَيْسَهَا، وَجَالِدُوا^{٩٢٥} رَيْسَهَا^{٩٢٦}..",هما صورتان تأتيان في أمرين يحيلان إلى بعد كنائي:

فالأمر الأول، بمعنى: كونوا في المركز منها، حيث شدة الضرب والطرده، حيث يثبت أولو الخبرة والقوة والشكيمة من المقاتلين، والأمر الثاني: أي كونوا حيث يكون القائد الرئيس، أو المقاتلون المجادلون الأقوياء، وهناك حيث يجب أن يثبتوا، وأن يبرهنوا على جدارتهم وشجاعتهم وقوتهم..، وحينما تواجهون هذا الرئيس القائد وتقضون عليه، فبالمفاهيم العسكرية، ينهار الجيش، وقد أصيب في القلب منه.. وكلتا الصورتين تحيلان إلى صفة الشجاعة والمواجهة والثبات !!..

وعند وصولهم إلى تلك النقطة المركزية في المواجهة، يحدث الاحتكاك المباشر بالأقران، عندها يحتدم الجيش، يغلي وترتفع حرارته بفعل ذلك القتال المتلطي المستعر..، أو كما تقول: "عِنْدَ اخْتِدَامِ^{٩٢٧} خَمِيسِهَا": صَوَّرَتْ اشْتِجَارَ الْجَيْشِينَ واقترابهما من بعضهما وشدة القتال، بالحجر المُحمى بالنار أو بالشمس، وهذه صورة بصرية لمسية حرارية، وهي صورة صوتية أيضا على تفسير لكلمة (احتدم) بأنها صوت التهاب النار واستعارها وذلك من اصطراخ الجيشين عند التقابل والتلاحم من جهة، وصوت اصطلام السيوف والرماح والدروع وأدوات الحرب الأخرى مجتمعة من جهة أخرى!!..

هذه الجولة المربعة الفظيعة المخيفة التي تأخذنا الخنساء إليها، وكأنها مراسل صحفي متخف، يلتقط الصور من كل مكان ليوثق بها الحدث، من قلب المعركة إلى أطرافها القصية، ثم عودة إلى مركزها، ومن المقاتلين في المقدمة والقلب، إلى المقاتلين على أطراف الجيش، ومن المقاتلين المخضرمين، إلى الأحداث المبتدئين، لا شك أنها صور نابضة وثقت تلك البشاعة والأهوال التي عليها هذه الحرب!!..

إنها صور ملتقطة من زوايا وأبعاد مختلفة، تشكل رؤية أفقية في تراكم طبقي، و تناوب لوني أو صوتي أو حركي، عبر انكماش أو توسع، في مركزها أو في أطرافها، والغريب أنها في النهاية لا

^{٩٢٥} - "والجلد القوة والشدة.. وِجَلَدْتُ بِهِ الْأَرْضَ أَي صرعته. والجلد من الإبل: الكبار التي لا صغار فيها؛ فتصبر على الحر والبرد؛.. وِجَالِدُنَاهُمْ بِالسِّيُوفِ مُجَالِدَةً وَجَلَادًا: ضاربناهم...".اللسان(جَلَدَ).

^{٩٢٦} - "والرئيس: سَيِّدُ الْقَوْمِ، .. وَالرَّأْسُ الْقَوْمُ إِذَا كَثُرُوا وَعَزُّوا ". اللسان(رَأْسَ).

^{٩٢٧} - " الخدْمُ شِدَّةُ إِحْمَاءِ الشَّيْءِ بِحَرِّ الشَّمْسِ وَالنَّارِ،.. صوت التهابها ".اللسان(حدم).

تحدث عن أسلحة مع كل هذا الاحتشاد السوري، وكان هذه الحرب إنما قوامها القوة النفسية و القدرة على المواجهة، بعد ذلك يكون لكل سلاح فاعليته...!!

إن ذلك كله فعال حركي، حركة الجيوش، حركة اللون، حركة الحرارة، حركة في الوسط، حركة على الأطراف، حركة الرؤساء الكبار في هذا المركز، حركة الشباب المتحمسين وفاعليتهم حولهم...، وهكذا تستمر هذه الحركة الدؤوب، طحن رحي من نار...!!

إن الصورة اللونية و الحرارية الملهبة المحرقة هما المسيطرتان على أجواء هذه الصور الحربية (الخنسائية)، وكان فيها تذكيراً من طرف ما إلى النار التي ستصطلي كل من سيقصر عن بذل النفس في سبيل الله، أو الفرار من هذه المواجهة الحامية، وإن كانت هذه إلا نار الدنيا...!!

ويبدو من خطاب (الخنساء) هذا مدى إمامها بوقائع الحرب عامة، وهذه الحرب على وجه الخصوص، خاصة مع عدو محنك وماهر، له باع طويل في ممارسة الحروب، وله نظامه الخاص المتقدم فيها، وتشكيلاته العسكرية الدفاعية والهجومية المدروسة والمدرّب عليها...!

ومع البعد التشبيهي في بعض المفردات فرادي، فإن حضورها في نسيجها التركيبي يمنحها بعدها الاستعاري، والأمر الآخر هو هذا الإسناد إلى الحرب، بوصفها قادرة على الفعل هو ما يعمق دلالة هذه الاستعارة ويعطيها أبعادها، لكن المهم في ذلك كله هو السياق الذي أنتج هذا الخطاب وأعطاه فاعليته، وانزياحه...!

فالصورة في ذاتها ليس فيها تغريب بلغة عصرها، وإن كان فيها قوة في السبك والاستحضار، وليس فيها هذه الأبعاد الماورائية، أو الفلسفية، ففك شفرتها اللغوية يصل بك إلى الدلالة، لكن تبقى بداعة الصورة وإدهاشها وطرافتها تدين في المقام الأول إلى بداعة التركيب اللغوي، والخيال المتناوب في مفاصل الحواس المختلفة.. بما يحقق هدفها التهويلي المنوط بدلالاتها القريبة، لكن لم يكن ذلك سوى مطية لدلالاتها الأبعد وهي التحريض على الشهادة والقتال والصمود والثبات حتى آخر قطرة دم، لا لأجل مجد شخصي، أو مكسب دنيوي، بل من أجل غاية أخروية منوطة بشهادة، أو بنصر كليهما في مرضاة الله، وهذا التهويل لشناعة الحرب وبشاعتها، في عرف علم النفس، هو التهيئة العكسية، حيث يهول من الأمر لدرجة يهون بعدها كل أمر...!!

وبعد.. فالحرب التي أُسند إليها كل تلك الفعال.. ليست سوى هؤلاء المجاهدين الذين يستعرون نارا محرقة لأعداء الله ورسوله...!!

الاستعارة التصريحية:

وفي سياق خطاب تحريضي للنسوة للمشاركة في المدد والدعم للمسلمين، وإقناعهنّ بذلك تقول (أزدة بنت الحارث): " إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ، ...".^{٩٢٨}

إن هذا الخطاب التحريضي، يأتي عبر سياق مواجهة، وتحدي، ومعركة فناء وموت محقق، وعلى الجميع- بما في ذلك النساء- أن يكونوا كتلة واحدة ضاربة لهذا العدو، وعلى سبيل التحفيز من جهة، واستثارة حماسهن وشفقتهن على الرجال من جهة ثانية، تأتي هذه الصورة الاستعارية التصريحية، التي تصرح فيها بالمشبه به وهم (الرجال)، وذلك في قولها: " إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، .."، ومن المفهوم أن المشبه به هي أداة الحرب (سيوف، رماح..) التي ستغرس في صدر هذا العدو، والصدر حيث العضو الأضعف (القلب)، ليكون التعجيل بالفناء والقتل ..، ولا شك أن هذا الخبر المصدر بحرف توكيد تأثيره على إيقاع الصورة والإقناع بها..! والطريف أن هناك استعارة مكنية، تلازم هذه الاستعارة في بنية لغوية مضغوطة ومختزلة بلا حشو ولا فضول بينهما..!

يبلغ (خولة بنت الأزور) نبأ وقوع أخيها في الأسر، بين يدي الأعداء، فتصاب بألم وحسرة، وبلاء عظيم نستشعره من خطاب التفجع واللهفة و الحيرة، تقول:

" يَا ابْنَ أُمِّي لَيْتَ شِعْرِي فِي أَيِّ الْبَيْدَاءِ طَرَحُوكَ..؟ أَمْ بِأَيِّ سِنَانٍ طَعَنُوكَ..؟؟ أَمْ بِالْحُسَامِ قَتَلُوكَ..؟؟
يَا أَخِي أَخْتِكَ لَكَ الْفِدَاءَ، لَوْ إِنِّي أَرَاكَ أَنْقَذْتُكَ مِنْ أَيْدِي الْأَعْدَاءِ، لَيْتَ شِعْرِي أَتَرَى أَنِّي أَرَاكَ بَعْدَهَا أَبَدًا..؟
فَقَدْ تَرَكْتُ يَا ابْنَ أُمِّي فِي قَلْبِ أَخْتِكَ جَمْرَةً لَا يَخْمَدُ لَهَيْبِهَا وَلَا يُطْفَأُ...!".^{٩٢٩}

في هذا التركيب اللغوي تنتصب بنية الصورة الاستعارية باسقة، لتشكل انعطافة أسلوبية لافتة، في بيئة قبلية ممهدة حتى تصل إلى ذروتها بهذه الصورة، بيئة زاخرة بالأسلوب الإنشائي على تموجاته،

^{٩٢٨} - بلاغات النساء، لابن طيفور: ص ١٥٣-١٥٤، ويذكر القصة صاحب: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/ ٥٩٦-٥٩٧. سنة ١٤ هـ، في القادسية. النحر: الصندر. اللسان: (نحر).

^{٩٢٩} - فتوح الشام، الواقدي: ١/ ٤٢.

بين نداء، وتمني، واستفهام، ويتعدد وتنوع في كلِّ، وبينه إيقاعية، بين سجع وجناس، والتفات وتوكيد، كل هذه العوامل مجتمعة أعطت لهذه الصورة زخمها وجلالها، لا لغرابة في الصورة وندرته، بل لموضعها وصدقها النابع من طبيعة السياق والعلاقة الإنسانية والأخوية المميزة بين (خَوْلَة) وأخيها ..!

هنا حيث حذف المشبه وهو حزنها وألمها على أخيها وصرحت بالمشبه به (الجمرة) في استعارها وبالغت في صفة هذه الجمرة بعدم الانطفاء، بجامع التسعر والاحتراق في كلِّ..!

ويأتي تركيب هذه الصورة في هيئة نكرة (جَمْرَة)، موصوفة بجملتين فعليتين منفيتين، الأولى مبنية للمعلوم، والثانية مبنية للمجهول ولذلك وقع في تعميق دلالة الصورة وترسيخها: (لَا يَحْمَدُ لَهْبُهَا، وَلَا يُطْفَأُ).

لكن لماذا جمرة، لماذا ليست نارا مثلا..!!؟؟!! إن النار المشتعلة ظاهرة بائلة للعيان، يراها القريب والبعيد، ويهب للنجدة ، وهذا قد يسرّع بانطفائها، والنار حركة إلى الخارج، بينما الجمرة، تميل إلى الكمون، والاشتعال الوئيد، فتعمل عملها في الخفاء، بعيدا عن العيون، وعن الاحتراقات اللافتة، فهي تستعر وتحرق ما حولها، اشتعالها وئيد، وانطفائها كذلك، وتحسبا لذلك وتقوية لحالة الاشتعال و الحرق الوئيد النافذ إلى الداخل، تؤكد عليه، بإضفاء صفة الخلود والديمومة لهذا الاشتعال: (لَا يَحْمَدُ لَهْبُهَا، وَلَا يُطْفَأُ)، وفي نفي الإطفاء بفعل مبني للمجهول للتعمية والتهويم والتغيب لعدم القدرة على الفعل...!!

وبين الفاعل (لهيب)، ونائب الفاعل الضمير المستتر (هو)، علاقة حضور وغياب، طفو وغرق، ظاهر وباطن..!!؟؟

وإنها (جَمْرَة)، لكنها تتحول إلى لهيب في غفلة من هذا الوجود، وهذا الكمون في الجمرة ينفث على دلالة أخرى أيضا، هي ألا أحد كائنا من كان بمقدوره ملامسة قسوة ما تشعر به وحرارته نتيجة هذا الأسر لأخيها، لأنها وحدها تحترق به، ويفريها حرقا على مهل ودون انتهاء..!

....ويعد

فمن خلال ملاحظة التصوير الاستعاري في خطاب المرأة في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، لوحظ فرادة التصوير الذي يحدث هزة تنزاح بها بنية الخطاب ، انزياحا لغويا ودلاليا وتأثير ذلك في

المتلقي، وأن هناك تنوعا في علاقة المستعار له والمستعار منه، فقد يكونان عقليين، أو أحدهما حسيا والآخر عقليا والعكس، والملاحظ أيضا غلبة الاستعارة المكنية على التصريحية، وأن معظم هذه الصور هي جمع والتقاط وإعادة توزيع وتصنيف لمفردات البيئة، بعلائق جديدة، تستقي أصولها من عالم الواقع، ولكنها ترتشف ظلالها وإيماءاتها من عالم الخيال، في تزوج بديع...!!

إنّ هذه الصور قريبة، وإن تعقّدت البنية اللفظية المعجمية ، نتيجة العلاقات الجديدة بين المستعار منه والمستعار له كما في وصية(الخنساء) مثلا، لكن لا تهويم ولا تعقيد، ولا فلسفة وراء تلك الصور أبعد من فلسفة هذه العلاقة التكوينية بين المرأة ومحيطها حيث يتحد كلٌّ من الذات والموضوع في إنتاج الصورة وتقديمها كسابقته المرأة الجاهلية، وإن كانت المرأة الجاهلية أكثر تنوعا وأغزر في إنتاج الصور عبر خطابها، على ندرة الصور فيه أيضا...!!

لعل البعد الاستعاري لا يبرز كثيرا في خطاب المرأة الحربي، لأنه في عمومته خطاب مأساوي تراجيدي، وآخر ما يبحث عنه المتكلم والمتلقي في سياق شفهي كهذا ، هو لغة إشارية معمية ، تحتاج لكثير من إعمال العقل وإشغال الفكر، وهو السبب ذاته الذي علّنا به انحسار المد التصويري من رقعة خطاب المرأة الجاهلية، أضف إلى ذلك بعد خطاب المرأة المسلمة في عمومته عن الغرابة، وميلها للنقل الحرفي والواقعي للأحداث وهو تحول نحو التوثيق، وهو سبب أقوى لمباشرة لغة الخطاب وسبب في وضوحها...!!

المَبْحَثُ الثَّالِثُ:

الصُّورَةُ الكِنَائِيَّةُ

فِي (العصر الجاهلي)

مدخل

يقول ابن منظور: "الكنى: جمع كُنْيَة من قولك كَنَيْتُ عن الأمر، وَكَنَوْتُ عنه، إِذَا وَرَيْتُ عنه بغيره، والكناية: أَنْ تتكلم بشيء وتريد غيره، وَكَنَى عن الأمر بغيره يَكْنِي كِنَايَةً: يعني إِذَا تكلم بغيره مما يستدل عليه..."^{٩٣٠}

ومن الناحية البلاغية، فقد مرت الكناية كمصطلح ومفهوم بما مرت به بقيّة المصطلحات والمفاهيم حتى استقرت على مفهومها المتعارف عليه عند المتأخرين، ولا يختلف المفهوم البلاغي للكناية عن المفهوم المعجمي لها، فيعرفها القزويني أنها: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ"^{٩٣١}، ولذا فالكناية تتأرجح بين عالمين، عالم الحقيقة وعالم المجاز!..

و" نجد في النحو التاريخي لنيروب^{٩٣٢} التحديد التالي للكناية: "إنها انتقال من تمثيل إلى تمثيل آخر يرتبط محتواه بعلاقة تجاور مع التمثيل المُعطى."^{٩٣٣}

فهي إذن علاقة بين تمثيلين لعلاقة تجاور بين المعنيين، وبذا فهي ليست لفظ يحل مكان لفظ، بل هي تكنية للمعنى عن المعنى، هذا ما يقوله الجرجاني: "أنه لا يكنى باللفظ عن اللفظ، بل يكنى بالمعنى عن المعنى."^{٩٣٤}

وانتهى تصنيف البلاغيين لها إلى أقسام ثلاثة: ^{٩٣٥}

١- كناية عن صفة: وهي التي يطلب بهل الصفة نفسها، والمقصود بها الصفة المعنوية.

٢- كناية عن موصوف: وهي التي يطلب بها الموصوف ذاته.

^{٩٣٠} - اللسان.(كُنْيَة).

^{٩٣١} -الإيضاح، للقزويني: ص: ٢٧٣.

^{٩٣٢} - البلاغة. المدخل لدراسة الصور البيانية، فرانسوا مورورا: ص: ٦٢.

^{٩٣٣} - نفسه.

^{٩٣٤} - دلائل الإعجاز، للجرجاني، ص: ٤٤٣.

^{٩٣٥} - انظر: الإيضاح، للقزويني: ص: ٢٧٣. وما بعدها.

٣- كناية عن نسبة: ويراد بها نسبة أمر إلى أمر آخر أو نفيه عنه، تخصيص الصفة بالموصوف.

وتأتي الكناية لحل أزمة أخلاقية إن جاز التعبير، وترقى بأسلوب التعبير على أساس هذا المعيار الأخلاقي بعدم ذكر ما يستقبح ذكره أو يفحش قوله، محترمةً وعي المتلقي وفكره، وكذلك فيما يستعظم من الأمور أو ذكر ذوي المقامات الرفيعة، فتأتي الكناية عنهم تنزيهاً لهم عن التناول المباشر، أو أن تقوم الكنية مقام الاسم فيشتهر بها لعلاقة ما يقيمها المجتمع بين الاسم والمسمى...!!^{٩٣٦}

ولعل في قرب التعبير الكنائي من الواقع ما يحدث نوعاً من القرب إلى النفس أيضاً، من حيث محبة النفس لما يشاكلها في بعض الأحيان، ولذا فمن سمات الكناية هذا النزوع اللغوي الطبيعي في التعبير عن الأشياء^{٩٣٧}، وقد تقوم الكناية مقام التعريض، دون أن تحمل المتكلم عواقب التصريح، وأن فيها إجمالاً وإيجازاً، مع مبالغة لطيفة بالتركيز على إبراز المعنى المراد على نحو ما...!!

والحقيقة أن هذا التأرجح للكناية بين الحقيقة والمجاز وضعها موضع محاكمة وتساؤل، فما هو المثير في الكناية كأسلوب أدبي؟ وما أهميته ما دامت أعظم الكنايات لا تخترق حاجز الدهشة، ولا تعيد تشكيل مفردات العالم في أرواحنا ومن حولنا، ولا تحدث هذه اللذة من الصدام مع الواقع و المألوف...؟، فهي إن جاز التعبير أسلوب مسالم ومهادن، مما جعلها كأسلوب ومفهوم موضع موازنة دائمة مع الاستعارة، هذه الموازنة التي كانت تنتهي دائماً بتصنيف الكناية في منزلة أدنى من الاستعارة ناظرين لطبيعة علاقة المجاورة الزمانية والمكانية بين المعنى الكنائي والمعنى الحقيقي...!!^{٩٣٨}

ويؤكد كلاود لويس هذا المعنى في موازنته بين دوري المجازات الكنائية والمرسلة وبين الاستعارة، وأن تلك المجازات: "تحتزم الكون وتعتمد على اختصار الخاصيات الموضوعية وعلاقاتها، في حين أن الاستعارة "تسخر من التجربة في العمق وتقيم بين الأشياء تشابهات جزئية لا تصادق

عليها"^{٩٣٩}

^{٩٣٦} - انظر: اللسان. (كئي).

^{٩٣٧} انظر: الأسلوب الكنائي "نشأته. تطوره. بلاغته". محمود السيد شيخون. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة. ط. ١. ١٣٩٨هـ/

١٩٧٨م، الأثر البلاغي للأسلوب الكنائي، ص: ٨٧ وما بعدها.

^{٩٣٨} - انظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية: محمد الولي: ص: ١٥٢.

^{٩٣٩} - البلاغة. المدخل لدراسة الصور البيانية. فرانسوا مورورا: ص: ٦٤.

الأمر ذاته يؤكد مولينو وتأمين عن طبيعة العلاقات في المجاز والكناية: " إن هذه المجازات تقوم على علاقة جاهزة سلفا، وهي لا تتطلب مجهودا من الشاعر لكي يبدعها ولا من المتلقي لأجل تأويلها.."^{٩٤٠}

إن بساطة الإنتاج وبساطة التلقي والعلاقة السهمية الخطية بين المعنى والمعنى المُكْنَى عنه هي التي تجعل الكناية حيث هي، مندسة في أسلوب الخطاب قلما يُنتبه إليها، خاصة إذا تعودتها الأذن وشاع استعمالها، شأنها في ذلك أيضا شأن غيرها من الأساليب الأدبية، ولذا يقول ميشيل لوكيرن: "إن الوحدة المعجمية المكونة للكناية أو المجاز المرسل لا نشعر بها إلا في حالات خاصة ونادرة جدا، بوصفها غريبة عن المتشاكلة الدلالية، في حين أن الاستعارة عكس ذلك.."^{٩٤١}

إن حالة الصدام والمواجهة، وخلق علاقات، أو إعادة ترتيبها، وخلخلة أخرى، وهذا الاختزال المتفجر بالدلالات في الاستعارة، وذاك الإشراق اللافت فيها، لا نكاد نلاحظه في الكناية كثيرا!!

إذن.. هل نُخرج الكناية من زمرة الأساليب التصويرية، ونتخلى عنها حيث لا ضرورة لها..؟؟ وهل هي أسلوب استاتيكي يثقل البناء الأسلوبي ويعيق ديناميته وانسيابيته ونموه الدلالي..؟؟ لا شك أن هذا يبدو حكما تعسفيا غير مقبول ، فالكناية .. وإن كانت لا تمنحنا ما تمنحنا إياه الاستعارة مثلا، إلا أنها أسلوب تعبيرى له طابعه الخاص وتأثيره وأصالته، وله جماليته اللافتة في كثير من المفاصل خاصة الجيدة منها..، ويكفي ما ورد من كنايات خلّابة في أسلوب التعبير القرآني، وما ورد منها في الحديث الشريف، يدل على شرفها فتكون في النظم كواسطة العقد، يؤمها الفكر وتندش لها العقول، لا يذوي حسنها، ولا يذهب رواؤها على تقادم السنين وبُعد الإنشاء والتكوين!!

ويعد..

فأهمية الكناية وجماليتها هما كونها تعطينا هذه الصورة الجميلة عوضا عن الكلمات التقريرية المجردة، وبشكل أدق " تطرح الشيء الملموس وسيلة للتمكن من الشيء المجرد"^{٩٤٢}

^{٩٤٠} - الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية. محمد الولي: ص: ١٥٠.

^{٩٤١} - البلاغة. المدخل لدراسة الصور البيانية. فرانسوا مورورا: ص: ٦٣.

^{٩٤٢} - الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية. محمد الولي: ص: ١٥١.

وللكناية وجوه من الكشف والتحقيق، على الصعيد اللغوي والدلالي، وتحمل كثيرا من مفاهيم زمانها وفلسفته في الوجود، بما يحمل من عادات وتقاليد، من نجاحات وإخفاقات، ومن رؤية كاملة أو مشوهة لهذا الوجود، تنفق أو نختلف معها، لكنها تبقى ابنة شرعية للغة زمانها وفكره وبوصلة لأحاسيسه ومدركاته...!! فكيف هي الكنايات التي صورتها المرأة في خطابها عبر سياق الحرب..؟

كِنَايَةٌ عَنْ صِفَةٍ :

وهي التي يطلب بها الصفة ذاتها، ونمثل لذلك بخطاب (الخمراء بنت ضمرة)، حيث تجد نفسها في سياق مواجهة مع عمرو بن هند وقد أراد إحراقها بعد حرق قومها وقد سألتها عن صفة زوجها: " هُوَ وَاللَّهِ طَيِّبُ الْعِرْقِ، سَمِينُ الْعِرْقِ، لَا يَنَامُ لَيْلَةً يَخَافُ، وَلَا يَشْبَعُ لَيْلَةً يُضَافُ، يَأْكُلُ مَا وَجَدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا فَقَدَ. " ٩٤٣

هذا خطاب مبني بكليته على البعد الكنائي الذي اتخذته مطية لإيصال رسالتها، ومركبًا لدلالاتها، والتي من أهمها إثبات مجمل المكارم والفضائل التي يتخلق بها زوجها من جهة، والتعريض بالمخاطب من جهة أخرى، على محمل أنه لا يتحلى بأي منها، و يتضاعف مفعول هذه الدلالات لأنها افتتحت خطابها بأسلوب قسم يؤكد كل ما يأتي بعده، ويزيد من فاعلية هذه الكنايات هذا الإيقاع المميز، وهذا السياق الموسيقي بين المتقابلات والمتجانسات، تحتويه هذه السجعات الخفيفة الرشيقة العفوية، وهذا التوازن التركيبي الدقيق في تقسيم الفقر، وبعد فهو: " طيب العرق، سمين العرق، " على ما فيهما من بعد تصويري استعاري، إلا أن فيهما بعدا كنائيًا أيضا، على عدّ أن الأولى كناية عن طيب الأصل، والثانية عن الكرم..!

ويلاحظ هذا التراوح في تركيب الكناية بين النفي والإثبات التي تخلق هذه التوازنات النفسية

الدقيقة في التركيب النفسي والأخلاقي لهذا الزوج :

- لا ينام ليلة يخاف: كناية عن صفة الشجاعة.
- ولا يشبع ليلة يُضَافُ: كناية عن صفة العفاف وهي من صفات السادة.

٩٤٣- قصة المثل " صارت الفتيان حُما" في مجمع الأمثال: للميداني: ١/٤٢٧-٤٢٨. المُنْمَقُ فِي أَخْبَارِ، محمد بن حبيب البغدادي: ص: ٢٩٠. الأغاني ، للأصفهاني: ٢٢/١٣٤. تح/ إبراهيم السعافين وبكر عباس. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي: ص: ١٠٧ .

- يأكل ما وجد: كناية عن صفة القناعة والعفاف أيضا.
- ولا يسأل عما فقد : كناية عن صفة الكرم والبذل والحياء .

وقولها لما همَّ بحرقها: "وأنت والله لا تقتل إلا نساءً أعاليها تُدِيّ، وأسافلها دُمِيّ، والله ما أدركتَ ثأراً ولا محوتَ عاراً" ^{٩٤٤} "...نساء أعاليها تُدِيّ، وأسافلها دُمِيّ"، هما كنيتان تتعلقان بدور المرأة وما يشغلها في حياتها، وهي الولادة والإرضاع وليس لها في الحرب من شأن، وهي تعرّض وتعير عمرو بن هند بقتل النساء فليس بهن يُدرك الثأر !!..

ويلاحظ استعمالها لصيغتي الجمع " تُدِيّ، دُمِيّ " للدلالة على الغلبة والكثرة، مما يعني الانغماس الكامل للمرأة في هذا الدور، الأمر الذي يضاعف الدلالة من كل وجه...!!

ولعل من أهم الملاحظات على هذا الخطاب هو الانفتاح المغامر على مضامين التحدي و المواجهة، هي امرأة لم تعقد لسانها رهبة الموقف، والوقوف على شفير أعظم وأخطر تجربة يمر بها كائن حي فضلا عن البشر، إنها تجربة الإبادة، وليس فقط الموت، ثم تجد من نفسها هذا المحل من البلاغة، وهذا الموطن من الفصاحة، وهذا الشّعيب من الجزالة، لتجاوب عن سؤال لن يلومها أحد لو سكتت عنه في مثل هذا الموقف، لكن المسألة أبعد من ذلك، إنها مواجهة أكبر مما يبدو ، حيث هلك الجميع من الرجال، وأصبحت هي الوجه واللسان ، وقد تخيرها عمرو بن هند ليتم بها قَسَمَهُ في القتلى المئة، وقد أعجب بها عقلا ومنطقا، وشجاعة وخلقا ، حتى باتت كل خشيته من أن تلد مثلها، ولذلك قرر التخلص منها سريعا، لأن أمثالها يشكلون خطرا عليه...!!!

إنها تجربة الحياة مقابل محاولة الإبادة والموت، وفلسفة الحضور مقابل فلسفة الإلغاء والغياب التي يحاول هذا المعتدي أن يفرضها...!!

ويتجلى الأسلوب الكنائي في خطاب (أمّ الشنفرى) في صفة الولد الذي تتمناه: "سريعا في العدة، لا تثنيه الرعدة، ولا تحويه الشدة" ^{٩٤٥}

^{٩٤٤} - قصة المثل "صارت الفتيان حُما" في مجمع الأمثال: للميداني: ١/٢٧-٢٨، المُنَمَّقُ فِي أَخْبَارِ فَرَيْشٍ، محمد بن حبيب البغدادي: ص: ٢٩٠، الأغاني ، للأصفهاني: الأصفهاني: ٢٢/١٣٤. تح/ إبراهيم السعافين وبكر عباس، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: للتعاليبي: ص: ١٠٧ .

^{٩٤٥} - تمثال الأمثال : العبدري: ١/ ٣٢٢.

حيث سافت صفة الولد الذي تريد بعبارات غير مباشرة، "سريعا في العدة": كناية عن السرعة في الجهورية في الحرب، وفي النجدة والمروعة، "لا تتنيه الرعدة": كناية عن الشجاعة والإقدام وثبات الجنان، "ولا تحويه الشدة": كناية عن سعة الحيلة والقدرة على التخلص من المآزق.

ولكي نتعرف على تأثير أسلوب الكناية، علينا أن نسوق هذه الكنايات في أسلوب تقرير مباشر فماذا لو أنها قالت: أريد ولدا سريعا في العدو للنجدة، شجاعا، داهية، ولا ينقص عن ذلك ما عبرت عنه بأسلوب الكناية، غير أن الإشراق في أسلوب الكناية كسرت رتبة التلقي، وهنا حيث يلعب هذا الانزياح دوره على السياق اللغوي والدلالي...!!

وقد يُلحظ في هذه الكناية بعدا استعاريا كنايةا تشخيصيا، خاصة في قولها "لا تتنيه الرعدة، ولا تحويه الشدة"، وأن هذه الكناية أيضا جاءت في أسلوب نفي لإثبات، مما أعطى زخما لهذا الانزياح التصويري في خطابها...!!

أضف إلى ذلك فإن هذه الكنايات التي ساققتها (أمّ الشنفرى)، إنما تكشف لا عن السمات التي تتمناها كل أمّ في ولدها، ولا عن مجمل ما هو مطلوب من هذه الصفات في زمنها فحسب، بل ما تريده وتحتاجه (أمّ الشنفرى) على وجه الخصوص، بل وفي وضعها المخصوص كونها أسيرة عند والد ابنها...!!

أما (أمّ جليحة)، فتفجع في عمرو، حيث يأتيها قتلته حاملين قميصه، مبشرين بقتله، شامتين به وبها، فتقول: "عطر وريح عمرو،: .. وَاللَّهِ لَإِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَمَا وَجَدْتُمْ عَائَتَهُ وَافِيَةً، وَلَا حُجْرَتَهُ جَافِيَةً، وَلَرْبَّ ضَبِّ قَدْ احْتَرَبْتَهُ، وَ تَدِي قَدْ افْتَرَبْتَهُ، وَمَالٍ قَدْ افْتَرَبْتَهُ".^{٩٦}

ويُلحظ هذا البناء الكنائي الذي أقامت عليه خطابها التفجعي، في كنايتين بأسلوب النفي وثلاث

بأسلوب الإثبات، على التوالي، وهذه الكنايات هي :

- لَمَا وَجَدْتُمْ عَائَتَهُ وَافِيَةً: أي طويلة، كناية عن نظافته وعنايته.

^{٩٦} - جمهرة الأمثال: للميداني: ١٦/٢. زهر الآداب: للحصري: ٧٩٦/٢. خزنة الأدب، للبغدادي: ١٠/٣٨٥. بلاغات النساء لابن طيفور، وقد نسبه لجنوب أخت عمرو بن الكلب ص: ٢١٩، ونسبه لامرأة مجهولة في وصف رجل ص: ١٢٢، الأغاني، للأصفهاني: تح/ إبراهيم السعافين وبكر عباس. ١٠/٢٣. أم جليحة امرأة من فهم.

- وَلَا حُجْرَتُهُ جَافِيَةٌ: الحُجْرَةُ: بالضم، موضع عقد الإزار، وجافية: التي تجفو عنها الثياب فلا تلتصق، وهي كناية عن الهيف و دقة الخصر.
- وَلرُبِّ ضَبٍّ قَدْ احْتَرَشَهُ: أي اصطاده بطريقة خادعة. أي هو ذو مكر وحيلة ودهاء.
- وَثَدِي قَدْ افْتَرَشَهُ، كناية عن القوة والبطش والشجاعة.
- وَمَالٍ قَدْ افْتَرَشَهُ، أي جمعه، كناية عن الغنى والسعة.

المدهش في هذه الكنايات مجتمعة، أنها تشكل في تضامها لوحة فسيفسائية لشخص عمرو ، مظهرًا ومخبرًا، تصوره مع نفسه، ثم مع أعدائه ومع أهله، في تسلسل مذهل وغريب، نتكلم عن امرأة مفجوعة، يلقى عليها قميص حبيبها مضرجا بالدم ، ولا تشمُّ منه سوى عطره ورائحة جسده...!! بل هي تحدد موقعه على خريطة الوجود، في دائرته الصغرى والكبرى...!!

فيما يخص نفسه هناك كنایتان لهما مظهر خارجي وصفة معنوية هما: النظافة والعفة عن الطعام، أمّا ما يخص النظافة فأيتها أن ينظف الإنسان ما لا يراه الآخرون منه، فلا تباهي في ذلك، بل لأن النظافة صفة أصيلة فيه، وشيمة من شيم الكرام جعلت رائحته الطيبة تعلق بروحها وحواسها، وهي أول ما تتذكره منه...!! وكل هذا الخطاب عن النظافة، منادح من صرختها الأولى " عطر وريح عمرو"، وكان الكناية بعدها هي تفسير لهذا العطر والريح الطيب...!!

وأما ما يخص "حجزته الجافية"، فهي أيضا كناية عن صفة ضمور الخصر ودقته، أما الصفة المعنوية المقصودة فهي : العفة عن الطعام الكثير، وهي من الصفات المُنَوّه بها كثيرا عند العرب، وهي أيضا من شيم الكرام.. ثم إنها أيضا من سمات الفارس أن يكون أهيف خفيفا على ظهر فرسه...!!

أما الكنایتان التاليتان فهما مظهران للقوة النفسية والجسدية والفكرية، فالأولى قولها " ولرُبِّ ضَبٍّ قَدْ احْتَرَشَهُ" كناية عن الدهاء والختل في الصيد، وخصت الضب بالذكر، لأن له طريقة مخصوصة في الصيد، وقيل (الاحتراش) لصيد الضب خاصة، وتكون بالحيلة حيث يحرك الصياد يده عند حافة الجحر، ليظنها الضب حية، فيخرج ذنبه لضربها فيصيده.^{٩٤٧}

والكناية الثانية هي عن الصيد أيضا لكنه اصطیاد البشر، وهي إذن كناية عن صفة الشجاعة والبطش والتفوق النفسي والجسدي، في قولها: "وثدي قد افترشه"، والصورة الأخيرة لهذا الفارس الصائد،

^{٩٤٧} - وانظر في معنى الاحتراش: خزنة الأدب، للبغدادي: ١١/٦٢٤.

وهو يعتلي صدر فريسته البشرية، حيث تتجلى شجاعته ويطشه وتفوقه الجسدي والنفسي، وفي اللسان: اقْتَرَشَه إِذَا صرَعَه^{٩٤٨}، والافتراش نفسه يوحي بالراحة وبالتمكن، فالى هذه الدرجة هناك إحساس عارم بأن هذا هو مكانه الطبيعي حيث يعتلي كل أعدائه ويرغمهم ويكرهم ويذلهم.

أما القطعة الأخيرة في فسيفساء هذه الصورة الكنائية فهي قولها: "وَمَالٍ قَدْ اقْتَرَشَه" كناية عن صفة الغنى والجد وحسن التدبير، لأن الافتراش هو تجميع المال، وورد في اللسان: "الْقَرَشُ: الجمع والكسب والضم من ههنا وههنا يضم بعضه إلى بعض. وقيل هو الكسب للعيال خاصة." ^{٩٤٩} فهو بار بأهله، وعنده هذا الحس العالي بالمسؤولية والالتزام..!

وهكذا تكتمل صورة عمرو كما تراها (أمٌ جُلِيحَةٌ)، وكما تريد أن تقدمها للعالم، بل كما تريد أن تنتصر له وتقتص ممن قتلوه لأنه لو لم يكن على ما كان عليه لم يكن هدفاً لثأرهم ولا مرمى لسهامهم ولا كان قتله فخراً لهم ومن أعظم منجزاتهم... وبذا تتأزر هذه الكناية مع أسلوب تبليغي آخر، هو التعريض بهؤلاء القتلة..!

وبعد... فلا ننسى حجر زاوية مهم في هذه اللوحة هو تصديرها للكنايات الثلاث الأخيرة بـ (رَبِّ) التي تفيد معنى الكثرة...!!

ماذا حققت هذه الكناية على صعيد اللغة والدلالة...؟؟ أتراها لو قالت: هو نظيف، أهيف دقيق الخصر، ماهر في الصيد، فارس قوي، وهو قادر على اكتساب المال، أتراها تحدث التأثير نفسه، وتكون قد أوصلت المعنى والفكرة التي تريد...؟؟!! الجواب ..كلا قطعاً، لأن هذه المراوحة اللطيفة المتمثلة في هذا الانزياح نحو الكناية هو الذي أبهج الأسلوب، وأشرق بالدلالة، إن التأليف والاختيار لعبا دورا بارزا في تعميق هذه الدلالة وترسيخها بهذا التصوير الكنائي الجميل، الذي تضافر مع فواصل سجعية موقّعة، يزيد من روعتها هذه التجنيسات الموائمة، والتوازن التركيبي الدقيق...! وعلى كلِّ.. فإن كلمتها الأولى جرت مجرى المثل بعدها..!!

^{٩٤٨} - اللسان : (فرش).

^{٩٤٩} - نفسه : (قرش).

على أن بعض هذه الكنايات قد تُقرأ من زاوية أخرى، فتكون الأولى عن حادثة سنه، والثانية صغر حجمه وضعفه، والثالثة عن لهوه ولعبه واصطياده للضبا...!!

ومن ذلك أيضا خطاب (حُرْقَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِرِ): "قالت: "أَصْبَحْنَا وَالنَّاسُ يَغْبِطُونَنَا فَلَمْ نُمْسِ حَتَّى رَحِمْنَا عَدُوَّنَا".^{٩٥٠}، وقولها: "كُنَّا أَهْلَ بَيْتٍ طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيْنَا وَمَا عَلَى الأَرْضِ أَحَدٌ أَعَزُّ مِنَّا، فَمَا غَابَتْ تِلْكَ الشَّمْسُ حَتَّى رَحِمْنَا عَدُوَّنَا...."، "أَطْعَمْتُكَ يَدٌ شَبَعَى جَاعَتٌ، وَلَا أَطْعَمْتُكَ يَدٌ جَوَعَى شَبَعَتْ"^{٩٥١}، وأيضا ما قالته (سَلْمَى) زوج عروة بن الورد: "وَاللَّهِ إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ لَضُحُوكَ مُقْبِلًا، كَسُوبٍ مُدْبِرًا، خَفِيفٌ عَلَى مَثْنِ الفَرَسِ، ثَقِيلٌ عَلَى العَدُوِّ، طَوِيلُ العِمَادِ، كَثِيرُ الرَّمَادِ، رَاضِي الأَهْلِ وَالجَانِبِ، فَاسْتَوْصِ بِبَنِيكَ خَيْرًا"^{٩٥٢}، وفيها كناية عن صفة عموم النفع في الإقبال والإدبار، وعن كرم الأصل، والكرم.. وقد كثرت نماذج الكناية من هذا النوع في خطاب المرأة الجاهلية في سياق الحرب.

كِنَايَةٌ عَنِ المَوْصُوفِ:

فمن نماذج الخطابات الممثلة لهذا النوع، الذي ذُكرت فيه الصفات ولم يُذكر الموصوف، ما جاء في خطاب عربية تصف فرس أبيها دون أن تذكرها صراحة في الكلام، تقول: "كان أبي على شقاء مقاء، طويلة الأنقاء، تمطق أنثياها بالعرق، تمطق الشيخ بالمرق"^{٩٥٣}.

ولا شك بأن في هذا الأسلوب الكنائي الذي يغيب فيه ذكر الموصوف صراحة إنما يحتوي على

كثير من التشويق والتطلع والتحفيز للذهن كيما يتعرف على هذا الموصوف الغائب أو يتكهن بها أو

على أقل تقدير النَّهْمَ للمزيد من صفاته...!!

^{٩٥٠} - بلاغات النساء: لابن طيفور: ص: ١٦٦.

^{٩٥١} - خزائن الأدب: البغدادي: ٦٧/٧ - ٦٨.

^{٩٥٢} - الأغاني: للأصفهاني: ٣ / ٥٤. انظر: مجالس ثعلب: ٤٥١/٢، نثر الدر: للآبي: ٨٩/٤. شعراء النصرانية قبل الإسلام: لويس شيخو: ص: ٨٨٩.

^{٩٥٣} - الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٧١-١٧٢. الأمالي للقالبي: ٢/٢١٩. مجمع الأمثال: الميداني: ٢/٢٤٦ وقصة المثل: "لا تعلم اليتيم البكاء". المزهري: للسيوطي: ٥٤٩/٢.

وهذه (كَبَشَةُ) بنت عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب في يوم شعب جبلة: قالت: "وَيْلُكُمْ يَا بَنِي عَامِرٍ اَرْفَعُونِي فَوَاللَّهِ إِنَّ فِي بَطْنِي لَعَزَّ بَنِي عَامِرٍ " ٩٥٤،

إنه لموقف عصيب تمر به هذه المرأة، فهي حبل على وشك الولادة وتجد القوم في شغل عنها، والمكان يضيق بهم وهي لا تقوى على المدافعة، فتصيح بهم، وتلفت انتباههم بخطابها "وَيْلُكُمْ يَا بَنِي عَامِرٍ اَرْفَعُونِي فَوَاللَّهِ إِنَّ فِي بَطْنِي لَعَزَّ بَنِي عَامِرٍ"، تكني بذلك عن موصوف هو ابنها!!..

أما (خُودَ بِنْتِ مَطْرُودِ الْعَامِرِيَّةِ)، فقد تزوجت رجلا سيذا وسيما جسيما، وكان هذا غاية ما تريد، حتى أنها لم تستمع لنصيحة أختها الشعثاء بعدم الزواج منه حيث قالت: "تَرَى الرَّجَالَ كَالنَّخْلِ وَلَا تَدْرِي مَا الدَّخْلُ" فذهبت مثلا، وفعلا في أثناء ظننها إلى قبيلة زوجها، هوجمت ووقعت في الأسر، وفرَّ زوجها عنها، ولم يستنقذها إلا عبد أسود تتقحمه العين، فأعجب بها، وأراد الزواج منها، فقالت: "أَلَيْسَ يَمْنَعُ الْحَلِيلَةَ، وَيَرْكَبُ الطَّوِيلَةَ، وَيَطْبُبُ البَلِيَّةَ، وَيُكْرِمُ القَبِيلَةَ..!!؟" ٩٥٥

إن هذه الكنايات هي عن موصوف غير مذكور صراحة في الكلام، هذا الموصوف إنما هو العبد الذي ذكرته بجملة من الصفات التي تعرفنا به بما يشتمل عليه روحا وفكرا وفعالا، أي من ناحية التركيب الأخلاقي إن جاز التعبير، ولكن أيضا هذه الصفات كانت محط عناية المتكلمة من منظور تجربة خاصة، أفرزت هذه الرؤية المخصوصة..! وهي تعلمت أن تتجاوز المنظر إلى المخبر، خاصة فيما يخص الزواج والارتباط. لأن خياراتها الأولى كادت أن ترمي بها في ذل العبودية والأسر إلى منتهى عمرها، هي السيدة الجميلة الجليلة النبيلة..!

ولننظر إلى هذه الصور المتلبسة إهاب الكنايات، ومدى تعبيرها عن الموصوف من جهة، وعن التجربة من جهة أخرى:

- أَلَيْسَ يَمْنَعُ الحَلِيلَةَ: الحليلة هي الزوجة، وفيها كناية عن موصوف بالغيرة على الحرمات. ونرى أنها قد ابتدأت بالكناية عن حماية الزوجة أولا، نظرا لأن ذلك أول ما صدمها وأذاها من زوجها .

٩٥٤- الأغاني، للأصفهاني: ٩٦/١١: إحسان عباس وآخرون. وقد كانت حاملا بعامر بن الطفيل، فصفوا القسي على عواتقهم ثم حملوها حتى أورثوها بالفتنة، وزعموا أنها ولدت عامرا يوم فرغ الناس من القتال.

٩٥٥- الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي: ص: ١٥٧-١٥٨، مجمع الأمثال، للميداني: ١/٢٤٠. المستقصى: للزمخشري: ٢/٢٧.

- وَيَرْكَبُ الطَّوِيلَةَ: كناية عن موصوف وهي الناقة أو الفرس الطويلة، وفيها كناية عن نسبة أيضا، حيث طول الفرس وتمكن الفارس من ركوبها يعني بالتالي نسبة الطول إلى الفارس.
- وَيَطْلُبُ النِّيْلَةَ: كناية عن موصوف بالشجاعة، والبليّة هي المصيبة وهي كناية عن الثأر والحرب، هذا يعني أنه لا يسكت عن ضيم ولا يخاف من مواجهة.
- وَيُكْرِمُ الْقَبِيلَةَ: كناية عن كرم الفعال الموصوف، التي تعود على القبيلة بالعزة والكرامة.

وفق قاعدة التأليف و الاختيار، نجد أن هذه الكنايات المسجوعة قد اختزلت التجربة وقدمتها بشكل دينامي فاعل جدا، حيث اختارت التعبير بالفعل المضارع الذي يعني استمرارية الحدوث و التجدد، بما يحقق الفاعلية والحركة والحياة التي دبت في روح (خَوْدٍ) وعقلها، إنما تمثلها هذه العبارات الموقّعة...!!

كان بإمكان (خَوْدٍ) أن تولّف وتختار تعبيراً تقريرياً مباشراً لإعلامنا بما استخلصته من تجربتها المريرة تلك، لكنها اختارت التعبير الكنائي الذي يمنح هذه التجربة بعدها التصويري والإيحائي الذي ينطبع في روح المتلقي كما نبع من روح المتكلمة...!!

إن هذه التجربة المزدوجة التي عاشتها (خَوْدٍ) وجعلتها تتعرف على معادن الرجال والناس عموماً، من خلال موقفين أحدهما لزوجها السيد الجميل الجبان، والآخر للعبد القبيح الشجاع، جعلتها توازن بين قيم الجمال والقبح من منظور آخر..

إن موقف العبد البطولي ورجولته وشجاعته غيرت معايير (خَوْدٍ) في القبح والجمال، ومكنتها من ترسم رؤية جديدة ترى بها الحياة وتحكم بها على الوقائع، وتعينها على تحديد خياراتها على أساسها...!!، وما الكنايات التي ساقتها إلا قاعدة جديدة استخلصتها من تجربة مرة أليمة...!!

وبذا يُلاحظ أن خطاب المرأة الجاهلية الكنائي في سياق الحرب لم يكن مغرباً ولا معقداً ولا خارجاً عن الأمور التي يتسنى لها الطموح آنذاك في الشكل والمضمون، وظلت تدور في فلك الصورة النمطية التي هيمنت على العقل الجمعي في عصرها، وفي كافة أغراض الخطاب الكنائي...!!

كما لوحظ شيوع بل غلبة كناية الصفة على ما عداها، وتكاد تغيب الكناية عن الذات، ومع ذلك فقد تبين اقتدار المرأة وملكتها التصويرية في هذا النوع من البيان، وقد انثال منها عفو الخاطر مما

أعطاه مزية إضافية في هذا السياق، انثيالاً أبرز ما للكناية نفسها من وجوه الجمال ولطافة التلميح دون التصريح...!!

وفي المجمل يُلاحظ أن البنية التصويرية (الصورة التشبيهية، والصورة الاستعارية، والصورة الكنائية) المتخلقة في سياق الحرب -رغم قلتها- إلا أنها منفتحة دلالياً ومشعة في هذا الخطاب اللغوي المعبر عن سياق الحرب، وهو خطاب تصويري منسجم مع هذه المرأة روحاً وعقلاً، وممثلاً لأبعاد نفسية واجتماعية، مادية ومعنوية، لا تصطرخ فيه الأسلحة، بقدر ما تستل نسيج تكوينها من تمخض معطيات البيئة والثقافة المحلية مع خصوصية هذه المرأة، لتنتج لنا صورة إبداعية، في غير تكلف، وبغير عناء أو كثير جهد، إذ هي في معظمها صور قريبة المأخذ، وإن كانت رائقة السبك ومبهجة بانزياحاتها المتشكلة في بنية الخطاب السطحية والعميقة، لا يختلف في ذلك كونها صورة تشبيهية أو استعارية أو كنائية، على تداخل بين، وتجاذب في الخطاب بين المباحث الثلاث، فقد تلبس الصورة، ويتنازعها أكثر من مبحث...!

الصُّورَةُ الْكِنَائِيَّةُ

فِي (عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ)

يسلط هذا المبحث الضوء على أسلوب الكناية في خطاب المرأة المسلمة، كيف هي الكنايات التي ساقتها المرأة المسلمة في خطابها في سياق الحرب؟

كِنَايَةٌ عَنْ صِفَةٍ :

وهي التي يطلب بها الصفة ذاتها، ونمثل لها بالخطابات الآتية:

يُلتمس هذا النوع في خطاب (أَسْمَاءَ بِنْتِ عَمَيْسٍ) لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، بشأن خطابه الذي يطرح فيه أحقية المهاجرين مع النبي ﷺ بالفضل على مهاجري السفينة أو الحبشة، وفي معرض احتجاجها لعكس أطروحة هذا الخطاب المقابل ونقضها، تعمد إلى الأسلوب التصويري الكنائي، مما يشكل انزياحا في رقة التركيب اللغوي ويترك أثره على بعده الدلالي، وفي معرض المقابلة بين الحالين ، تقول : " .. كَلَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْعَمُ جَائِعُكُمْ ، وَيَعْظُ جَاهِلُكُمْ ، وَكُنَّا فِي أَرْضِ الْبُعْدَاءِ الْبُغَضَاءِ " ٩٥٦

إنّ هذا الخطاب المفتوح بالرفض، المكلل بالمؤكدات المؤيدة لحالة المواجهة، تعرض فيه حالين متقابلين، هما الحالان ذاتهما اللذان يطرحهما الخطاب الأول، ولكن على النقيض منهما، حيث اختلف ترتيبهما، ليكون لصالح أهل السفينة المهاجرة إلى الحبشة، هل تقول ذلك جزافا، أم عندها حجة منطقية تدعم بها طرحها...؟؟!

فالحجة الأولى التي تدفع بها، هي كون المهاجرين إلى المدينة مع رسول الله ﷺ ، وهذا وحده كاف كل الكفاية، إذ هم مع مصدر التشريع على الأرض، والذي يأخذ مباشرة عن الله، فعندهم هذه الطاقة الروحية والحضور في حضرة الله هذه الطمأنينة التي يفترق أهل السفينة إليها حيث هم...!

أضف إلى ذلك هذه الأدوار المتنوعة التي يقوم بها النبي ﷺ ، ويقدمها إليهم، وهي تشير إليها إلماحا في قولها: " .. يُطْعَمُ جَائِعُكُمْ ، وَيَعْظُ جَاهِلُكُمْ .. "

٩٥٦- زاد المعاد في هدي خير العباد: ٣/ ٣٣٢. البداية والنهاية، لابن كثير: ٤/ ٢٠٥.

تان كنايتان مشتملتان على حراك داخلي وخارجي، وممتدتان إلى دلالات مادية ومعنوية، فالصورة الكنائية الأولى تنزاح للتعبير عن صفة الاحتواء المادي (الإطعام المادي)، أما الصورة الكنائية الثانية، فتعبر عن صفة الاحتواء المعنوي (الوعظ والعلم)، وهما كنايتان تصفان حال المسلمين ممن بقوا مع رسول الله ﷺ، والأخرى كناية عن الخلو منهما والوعظ تحديدا لما فيه من اللين والتوجيه والترفق وربما العذر، وليس كما هو الحال وهم في الحبشة يُنهرُون ويُزجرون ويُلامون على الدين دونما رافد معنوي هو وجود الرسول ﷺ، وأيضا دونما رافد أو احتواء حسي، حيث كل احتياجاتهم الحياتية معلقة بهؤلاء الغرباء..!

وعلى هذا.. فإن الكنايتين الأوليين، هما برسم الكناية الأخيرة التي تختزل فيها وضعهم كمغتربين في الحبشة، تحت مظلة النأي التي يرزح تحتها هؤلاء المهاجرون: "وَكُنَّا فِي أَرْضِ الْبُعْدَاءِ الْبُعْدَاءِ" ، حالة تقابلية، حيث الأهم فيها، وجوهر هذه الصورة هي مركزية وجود الرسول ﷺ حيث القرب والحب ، بينما البعد والبغض كانا في المقلب الآخر، حيث الغربة والكربة..!!

وعن بسط الكناية على دلالة أرحب ستكون عندنا كنايتان متقابلتان ، تصفان حال الامتلاء والخلو المادي والمعنوي، أو هو خلو وامتلاء معاكس- إن جاز التعبير- في تقابل يشع بالدلالة إلى مداها الأبعد..!!

وفي غزوة حُنين يأتينا خطاب (أُمَّ عُمَارَةَ) لأحداث ذلك اليوم، وما فعلته بصاحب الجمل وبالجمل ذاته، حينما ضربت عرقوبيه لتعيقه عن إيذاء المسلمين والهجوم عليهم، وتنزاح بخطابها أسلوبيا نحو صورة كنائية توضح بها صفة هذا الجمل وهو يفارق الحياة، وقد أثخنه بالجراح من ضربها، تقول: "الْجَمَلُ يُخْرِخِرُ يَنْصَفَقُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ" ^{٩٥٧}. عن صفة منازعة الروح، وهي كناية تعتمد على الانحياز لحاستي البصر والسمع، مع إدراك لحجم الجمل..!

الصورة الأولى صورة سمعية، فالخرخرة صوته وقد سقط ^{٩٥٨} يحشرج، وفي صوت الكلمة ما يحيل إلى هذا المعنى حيث الاختناق والاحتباس الذي يعطيه حرف الخاء من مخرجه، يزيد من ذلك تكراره

^{٩٥٧} - المغازي: للواقدي: ٩٠٣/٣.

^{٩٥٨} - انظر: اللسان. (خرر).

،وتتضاعف قيمته الصوتية أيضا من تضافه مع حرف (راء) مكررا أيضا، وهو حرف يدل على التكرار والترديد بنفسه^{٩٥٩}، كل هذا يعطي دلالة الحشجة والاختناق ،ويمهد للصورة الكنائية التالية، وهي : تصفقه ظهرا لبطن، التصفق حركة في الإبل عموما في الثقلب على الجانبين، والصفق: الجنب، وهي حالة لعسر المخاض عند الناقة على وجه الخصوص^{٩٦٠}، ولكن المبالغة هنا هي أن هذه الحركة لا تتم على الجانبين كما هو معتاد، ولكنها استدارة كاملة لكامل الجسم، ظهرا لبطن، وكم هي صعبة للجمل ، مع ضخامته وتركيبه الجسماني ليفعل ذلك، إلا في حالة واحدة ، هذ هذه وقد ذهل عن نفسه واعتصره الألم حتى صار ينازع ويضرب بنفسه في كل وجه، في شقلبة عنيفة ولافتة، فيما يشبه الدرجة، مع كل ما تثيره هذه الحركة من ضجيج وجلبة، ومن غبار متطاير، ومما يخرج من فم البعير وهو يحشرج، والدم النازف بغزارة، إنها صورة مريعة، ومؤلمة، بحجم ألم الذي سببه للمسلمين لكنها في تلك اللحظة، وبالنسبة لهذه المرأة التي كانت تحاول الانتصار لدينها، كانت لحظة فرح و قد استطاعت أن تعرقل هذا الجمل عن إيذاء المسلمين، حتى أصبح حجم الأذى الواقع على الجمل هو غاية في ذاته..! وبذا تكون هذه الصورة قد انزاحت نحو التعبير الكنائي عن حالة هذا الجمل وهو ينازع ويموت، وشتان بين قولنا : ينازع ويموت، عن أن تقول هي : ".. يُخْرَجُ يَتَصَفَّقُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ"!!

وتأتي كناية أخرى في هذا السياق، عن صفة تشرد وتشردم هوازن بعد الهزيمة المنكرة التي أوقعها بهم المسلمون، تقول: ".. فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ هَزِيمَةً كَانَتْ مِثْلَهَا ، دَهَبُوا فِي كُلِّ وَجْهِ"!! كناية عن صفة التمزق والضعف والتشتت، ويعمق دلالتها أسلوب التوكيد بالقسم..!!

وفي السياق نفسه - أي من قلب المعركة- يأتي خطاب (أُمُّ عُمَارَةَ نُسَيْبَةَ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ) تصف لحظة من لحظات المعركة يَوْمَ أُحُدٍ: ".. وَالِدَوْلَةَ وَالرَّيْحَ لِلْمُسْلِمِينَ ."^{٩٦١}

^{٩٥٩} - خصائص الحروف العربية، حسن عباس: ص: ٩٠ .

^{٩٦٠} - انظر: اللسان: (صفق).

^{٩٦١} - سيرة ابن هشام: ٢ / ٨٢، المغازي للواقدي: ١ / ٣٦٨، البداية والنهاية، لابن كثير: ٤ / ٣٤، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء للخطيب العمري: ص: ٢٤٣ .

هذه اللحظة مهمة جدا في سياق المعركة، إذ بعدها تنقلب الأوضاع، مما يجعل هذه اللحظة الموصوفة لحظة مفصلية يؤرخ لها، وخطابها هذا كناية عن صفة الغلبة والنصر اللحظية التي كان عليها المسلمون قبل أن يخالفوا التعليمات، فتلحق بهم هزيمة منكرة...!!

تأتي أهمية هذه الصورة الكنائية من المفارقة التي تحدثه مع الواقع الصادم بعدها، لتشكل معادلا موضوعيا مناقضا للأحداث بعدها..! حيث صورة النصر والتفوق العسكري، والريح التي تكتسح ما و من أمامها، إلى المقلب الآخر الواقع المستجد حيث الهزيمة والضعف والتشردم للمسلمين...!!

وهذه (أُمُّ رِعْلَةَ الْقَشِيرِيَّةُ)، عبر خطابها الطموح لإيجاد عمل توازي به والنسوة أجر الرجال خاصة في الجهاد في سبيل الله، تقدم لمسألتها بتوصيف لأدوار النساء، منحازة إلى تصوير كنائي، مدعوم بإيقاع سجعى، و تجنيسي، يلفت إلى الدلالات المنوطة بهذا الخطاب: " .. إِنَّا ذَوَاتُ الْخُدُورِ، وَمَحَلُّ أُرْرِ الْبُغُولِ، وَمُرَبِّيَاتُ الْأَوْلَادِ، وَمُمَهَّدَاتُ الْمِهَادِ."^{٩٦٢}

فقول (أُمُّ رِعْلَةَ) في الكناية الأولى في خبر طلبي مؤكد بـ (إِنَّ) يوازرها صيغة جمع الكثرة (فُغُول): " إِنَّا ذَوَاتُ الْخُدُورِ " كناية عن صفة الخفر والستر، وبناء عليه هي لم تطلب الخروج للجهاد، وإنما طلبت عملا يوازي هذا الأجر..!

الكناية الثانية : " وَمَحَلُّ أُرْرِ الْبُغُولِ " كناية عن صفة الاستمتاع للزوج. وفيها رقي واضح للتعبير عن العلاقة الزوجية، وتأتي جمالية هذه اللمحة التصويرية الكنائية من منطلق أن الإنسان يشتمل على إزاره وحده لا يشاركه فيه أحد، وتخصيص الزوجة وزوجها بهذا له وحده ، وهو لها ، يعني مدى الالتزام بالعفة والطهارة...!!

الكناية الثالثة : "وَمُمَهَّدَاتُ الْمِهَادِ"^{٩٦٤}. كناية عن صفة الرعاية و العناية والاهتمام التي تقدمها مجتمعة للزوج وللولد خاصة، مما يمهد لحياة سهلة، وهي خلاصة دورها ، أن تجعل حياتهم وثيرة ومريحة وسهلة...!!

^{٩٦٢} -أسد الغابة ، لابن الأثير: دار الفكر: ٦ / ٣٣١. الإصابة، لابن حجر: تح/علي محمد الجاوي: ٨ / ٢٠٤ .

^{٩٦٣} - " والأزُرُ مَعْقِدُ الْإِزَارِ، وَالْإِزَارُ: الْعِفَافُ الْلسَانُ: (أزر).

^{٩٦٤} - " والمهادُ الْفِرَاشُ. وقد مَهَّدْتُ الْفِرَاشَ مَهْدًا: بَسَطْتُهُ وَوَطَّأْتُهُ. يقال للفرّاشِ: مَهَادٌ لَوَثَارَتِهِ. " اللسان: (مهد).

ولهذه الكنايات مجتمعة وجاقتها في هذا الخطاب المُسائل والمطالبِ بجزيل الأجر وعظيم المثوبة للنساء على هذه الأدوار التي لا توازي أجر المجاهدين...!!

وَحَرَجَتْ (أُمَّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ) قلقاً على مصير الرسول ﷺ، فرأت النبي ﷺ سالماً، فقالت: "أَمَا إِذْ رَأَيْتُكَ سَالِمًا ، فَقَدْ أَشَوْتُ الْمُصِيبَةَ." ٩٦٥

في هذا الخبر الإنكاري المقتضب، المراعي للسياق العام لما بعد الحرب، تعبر هذه المرأة تعبيراً تصويرياً ينزاح إلى الكناية، للتعبير عن صفة السلامة وعدم القتل لرسول الله ﷺ حيث أشوت المصيبة أي أنّ الإصابة وقعت ولكن لم تصب في مقتل. ٩٦٦

يكشف هذا السياق اللغوي هذه اللفظة والمحبة والفدائية التي يتمتع بها المجتمع المسلم، تجاه النبي ﷺ كشخص وكرسول، وأن الاهتمام بسلامته هو اهتمام صادق لا تشويه شائبة من أي مطامع أو مطامح غير إلهية التوجه...!!

أَمَّا (خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَري)، فتعلم بأسر أخيها، لكنها تقرر ألا تقف مكتوفة اليدين، بينما مصير أخيها على كف شيطان من الأعداء، الذين سيسعدون بتعذيبه ثم قتله، لما له من إنجازات بطولية، زادت من نعمة العدو عليه، فتقرر قراراً صعباً وفيه الكثير من المجازفة، وخرق المألوف الذي قد تلام عليه، قررت أن تنضم سرا ومنتكرة لجيش المسلمين، لكنها كانت لافتة جدا في ميدان القتال، مما نبه إليها المعسكرين على السوء، أما معسكر المسلمين، فقد بهرهم وأرادوا التعرف عليه، ناداه القائد فلم يجب، وبالتأكيد لم يجب لئلا يفضح أمره، ويعرف بأنه امرأة وليس رجلاً، مما أثار حفيظة خالد ومن شاهد الموقف معه، فذهب إليه خالد وخاطبه قائلاً: "ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي لفعلك، من أنت...؟؟" ويا للمفاجأة حينما سمع إجابته: "إِنِّي يَا أَمِيرُ لَمْ أُعْرِضْ عَنْكَ إِلَّا حَيَاءً مِنْكَ لِأَنَّكَ أَمِيرٌ جَلِيلٌ، وَأَنَا مِنْ دَوَاتِ الْخُدُورِ ، وَبِنَاتِ السُّنُورِ،...!!" ٩٦٧

فهذه النسبة، بين البنات والسنور إنما جاءت تعبيراً عن صفة العفة والطهارة و التحصين، وإظهاراً للعزلة التي يفرضها الالتزام بالستر والخدر، ومن زاوية أخرى فإن هذه الصورة تأتي كمعادل موضوعي

٩٦٥ - المغازي للواقدي: ١ / ٣١٧.

٩٦٦ - والشئى: إخطأ المقتل. اللسان: (شوا)

٩٦٧ - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤١.

مناقض لحالة خروجها الآن، وهي تريد أن تثبت من المفارقة المبسوطه في تلافيف هذه الصورة، أن سلوكها هذا إنما هو خروج لا عن إلف المجتمع والتقاليد العسكرية، بل هو خروج عن إلفها هي أيضا، فهي معتادة على التستر والتخدر، وليس على الظهور و التكشف...!!

وتبرر (خَوْلَةَ بِنْتِ الْأَزْوَِر) لخالد بن الوليد معذرة إليه من تدخلها في المعركة دون إذنه،

ومتجاوزة بمشاركتها المباشرة في القتال دونما عذر المسوغ الشرعي، تقول: ".وَأِنَّمَا حَمَلْنِي عَلَى ذَلِكَ أَنِّي مُحَرَّقَةُ الْكَبِدِ ، زَائِدَةُ الْكَمَدِ...!!"^{٩٦٨}

وهما كنايةتان تفضيان لمضمون واحد تقريبا، وهو كناية عن صفة الحزن المضاعف الشديد، فهذا ما أخرجها عن إلفها، وعن إلف المجتمع العام والعسكري على حدٍ سواء، إنما كان هذا التأجج لنار الحرقه التي تفتت في كبدها وأحشائها، في الخفي من أعضائها، حتى انفجرت قتلا وقتصا للأعداء في ساحة المعركة.. ولا شك أن للإيقاع الدالي القاطع المتصحر دلالاته هنا، خاصة وقد تناسج مع إيقاع آخر هو الجناس بين الكلمتين...!!

(أُمُّ تَمِيمِ) رَوْجُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، تنقل لنا لحظة حرجة أخرى من المعركة، حيث يعلو صوت القلق والخوف ممزوجا بالترقب والحذر وقد أردن هي والنسوة وضع حد لهذه المشاعر القاتلة، فبادرن بالذهاب للنظر عن كتب على سير المعركة..، تقول:

" كُنْتُ فِي جَمَاعَةٍ نُسُوَةٍ مِنْ مَدْحَجٍ وَعَيْرِهِمْ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ وَالْخَيْلِ تَطِيرُ بِنَاءً طَيْرًا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى الْغَيْبَةِ وَالْقِتَالِ وَنَظَرْنَا الْأَسِنَّةَ وَالصَّوَارِمَ تَلُوحُ فِي الْقِتَالِ كَأَنَّهَا الْكَوَاكِبُ ، وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ حِسٌّ يُسْمَعُ، قَالَتْ: فَأَنكَرْنَا ذَلِكَ وَقُلْنَا إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ وَقَعَ بِهِمْ عَدُوهُمْ. " ^{٩٦٩}

إن الصورة الأولى التي تصادفنا هنا هي صورة الخيل التي لا تكاد ترى، ولا تكاد حوافرها تلامس الأرض من فرط سرعتها، تقول: "وَالْخَيْلُ تَطِيرُ بِنَاءً طَيْرًا" كناية عن صفة السرعة الشديدة ، حتى وكأنها تطير، وللوهلة الأولى قد تبدو صورة تشبيهية، للخيل بالطيور، لكن جملة الصفة (تطير)، تحيلنا إلى

^{٩٦٨} - السابق.

^{٩٦٩} - المصدر نفسه: ١ / ١١٦. في حروب الردة ومعركتهم مع جيلة بن الأيهم . وفتح قنسرين.

بعد استعاري ربما، لكن الواقعية في إثبات صفة الطيران ومقارنته لمفهوم السرعة القصوى يجعلنا نستقر عند المعنى الكنائي.

هذه السرعة المفرطة للخيل، تحيلنا إلى البعد الكمي الذي يقيس المسافة بالزمن، وتأثير ذلك على مجريات الأمور، هذه السرعة القصوى هي معادل خارجي موضوعي مقترح في هذا الخطاب، لموازاة السرعة الداخلية النفسية، حيث النبض العالي والتوتر والقلق والخوف على النفس وعلى الدوي وعلى المسلمين كافة، بسرعة خارجية مفترضة مكانها ساحة القتال، حيث الاصطلاء و الاصطلام ووقع

النصال على النصال والاحتدام، حيث تنعدم المسافة ويتوه الزمن...!!

وبعد.. فإن لتلك السرعة هدف وليست سرعة عبثية، إنها بهدف الاطمئنان على حال المسلمين كهدف قريب، وتقديم العون لو لزم الأمر كهدف متوسط، واتخاذ تدابير أمنية وعسكرية لحماية أنفسهم لو كان موقف المسلمين قد بلغ من الحرج حد الهزيمة..!

إذن... فهي صورة تتكشف عن أبعاد أكثر مما تبدو عليه بساطتها التركيبية، أو قريبا التصويري، لكن واقعها النفسي والميداني يعطيها هذا الزخم الدلالي المتنوع...!!

وحين وصول هاته النسوة إلى ساحة المعركة لسبب ما ، لا تذكره (أم تميم) صراحة، بل تكني بصفة عنها وهي الغبرة : " الغبرة والقتال " ، كناية عن مكان المعركة، ربما ذلك للتهويل منها ، من جهة، وللتمهيد للصورة التي تليها، لأن الغبرة تغطي ساحة المعركة، فلا يبدو منها شيء، لا من المهزوم، ولا من المنتصر...؟؟؟ ولذا فالصوت هو الدليل لهاته النسوة اللاتي يحكمن من خلاله على وضع المسلمين داخل ميدان القتال، ووضعهم العسكري فيه، ولذا تأتي الكناية الثالثة:

"وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ حِسٌّ يُسْمَعُ،.. كناية عن الذهول والصدمة التي قد تصيب الإنسان بالوجوم والسكوت، أو الانكسار والضعف، وهي كناية هدفها التعبير عن صفة الهزيمة المحتملة للمسلمين وتفوق العدو عليهم...!!

ثم ماذا...؟؟

" فَأَنكَرْنَا ذَلِكَ وَقُلْنَا أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ وَقَعَ بِهِمْ عَدُوُّهُمْ.": فالأولى كناية عن الصدمة وعدم التصديق، والثانية: كناية عن صفة التأكد من هزيمة المسلمين، وانتصار عدوهم عليهم... يظهر هذا من تلك الصياغة اللغوية المخصوصة التي تنحاز إلى مضامين الخبر الإنكاري وسبكه..!

أما (عَفْرَاءُ بِنْتُ عِفَارِ الْحَمِيرِيَّةِ)، وقد تحمست لتحريض القائد لهن بالدفاع عن أنفسهن والثبات على ذلك، فقالت له للتأكيد على النصر، ولتعطيه الثقة في تنفيذ ما أمرهن به :

" أَيُّهَا الْأَمِيرُ.. وَاللَّهِ لَا يُفْرِحُنَا إِلَّا أَنْ نَمُوتَ أَمَامَكَ، فَلَنَضْرِبَنَّ وُجُوهَ الرُّومِ، وَ لَنُقَاتِلَنَّ إِلَى أَنْ لَا تَبْقَى لَنَا عَيْنٌ تَطْرِفُ، وَاللَّهِ مَا نُبَالِي إِذَا رَمَيْنَا الرُّومَ كُلَّهُ. " ٩٧٠

يبدو هذا الخطاب كله قائما على البنية التصويرية الكنائية، مما يشكل انزياحا ذهنيا نحو مضامينه المطروحة، وإن كانت كنايات قد لا يفطن إليها، لتعاطيها مع المؤلف من الخطابات العامة، لكن السياق هنا هو ما يمنحها ألقها وزخمها وهالتها الخاصة..!

فتلك الكنايات السابقة على تواليها في الخطاب: (وَاللَّهِ لَا يُفْرِحُنَا إِلَّا أَنْ نَمُوتَ أَمَامَكَ / فَلَنَضْرِبَنَّ وُجُوهَ الرُّومِ / وَ لَنُقَاتِلَنَّ إِلَى أَنْ لَا تَبْقَى لَنَا عَيْنٌ تَطْرِفُ، / وَاللَّهِ مَا نُبَالِي إِذَا رَمَيْنَا الرُّومَ كُلَّهُ.)، إنما تنتج دلالة مترادفة، ولا بأس بذلك، فقد أدى ذلك إلى تراكم الدلالة وتعزيزها، متناسجة ومتواشجة في أسلوب خبري إنكاري يفيض بالمؤكدات..!!

وهي دلالة مصنفة بالتساوي بين طرف نقيض: النسوة المجاهدات/ الروم الأعداء، وبالتناوب المترتب والمترتب، حتى بدت الكنايتان الأخيرتان مبالغة توكيدية للكنايتين الأوليين:

النسوة المجاهدات: " وَاللَّهِ لَا يُفْرِحُنَا إِلَّا أَنْ نَمُوتَ أَمَامَكَ ، وَ لَنُقَاتِلَنَّ إِلَى أَنْ لَا تَبْقَى لَنَا عَيْنٌ تَطْرِفُ،...." الروم الأعداء : "فَلَنَضْرِبَنَّ وُجُوهَ الرُّومِ ، وَاللَّهِ مَا نُبَالِي إِذَا رَمَيْنَا الرُّومَ كُلَّهُ."، والكل هو خطاب يخص موقف المرأة من نفسها ومن قضيتها الآنية، المواجهة والاستبسال في مقارعة الأعداء وقتلهم، وهي كنايات عن صفات تأتي على النحو التالي:

الكناية الأولى: عن صفة الفدائية والفرح بالموت/ الشهادة، وعن صفة التأييد المطلق للقائد.

الكناية الثانية: عن صفة الإصرار على القتال حتى الموت (توكيد للكناية الأولى.)

الكناية الثالثة: عن صفة الشجاعة والمواجهة، يدل على ذلك استقبال العدو وضربه على وجهه، وفيها شجاعة أدبية بلا شك!!..

الكناية الرابعة: عن صفة الاقتحام والقضاء المبرم على الأعداء!!..

وكل هذه الكنايات تدور في فلك النصر التي تذهب إليها هاته النسوة على بصيرة من أمرهن،

وقد ذهبت بالكناية الأولى إلى مداها، حتى جعلت الموت عرساً، أو مناسبة سعيدة مفرحة، لا مواربة في ذلك ولا خداع نفس ولا أمانى معلقة، أو إرادة هشة مترددة، إنه العزم الأكيد، والإصرار الشديد اللذين يؤمّن إلى حيث يريدان.. في تكرار للدلالة بكنائيات متتابعة..!

أما (الخنساء) في وصيتها لبنيها في القادسية، فإنها لا تمنحهم أي عذر على التقصير، على أن ذلك أمر مستبعد، وغير وارد على قائمة الاحتمالات، لأنها لا تقبل منهم أقل من أن يكونوا في المقدمة، رأس حربة في نحر العدو بمجمله، وفي قلب رئيس الجيش تحدياً، ويهربوا الأحداث حوله، حين تكون المعركة نارا مستعرة متأججة متعازمة، تخفي ما تحتها، وقد جللتها لعظمتها وتصاعدها، تريد منهم أن يكونوا في قلب ذلك كله، لا تراجع، لا خوف، لا استسلام، ولا قبول بأنصاف الحلول، أو انصاف الانتصارات، أو أنصاف المواجهات، والسبب تذكره وتوضحه دون مواربة، بل وتؤكد عليه:

"يَا بَنِيَّ... إِنَّكُمْ أَسَلَمْتُمْ طَائِعِينَ، وَهَاجَرْتُمْ مُخْتَارِينَ، وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَبَنُورَجُلٍ
وَاحِدٍ، كَمَا أَنْتُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مَا خُنْتُ أَبَاكُمْ، وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، وَلَا هَجَنْتُ حَسَبَكُمْ، وَلَا غَيَّرْتُ نَسَبَكُمْ،
وَقَدْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ فِي حَرْبِ الْكَافِرِينَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدَّارَ الْبَاقِيَةَ خَيْرٌ
مِنَ الدَّارِ الْفَانِيَةِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.. " ٩٧١

٩٧١- الاستيعاب، لابن عبد البر: ٤/ ١٨٢٧. أسد الغابة، لابن الأثير: ٧/ ٨٩-٩٠-٩١. الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٧-
٢٨٨-٢٨٩. الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي: ١٠/ ٣٨٨-٣٩٦. الفاضل في صفة الأدب الكامل، للششاء: ص: ٢٢٠-
٢٢١، وانفرد ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤/ ٣٨٥ بنسبتها إلى الخنساء النخعية، خزنة الأدب، للبغدادي: ١/ ٤٣٤.

فقولها: " إِنَّكُمْ أَسَلَمْتُمْ طَائِعِينَ، وَهَاجَرْتُمْ مُخْتَارِينَ،.. " كناية عن صفة الاختيار الإرادي، وبالتالي فعليهم تحمل تبعات هذا القرار، ومن أهم تبعاته، هو الجهاد في سبيل الله، ووقوفهم هذا الموقف في رضا من الله ورسوله ﷺ.

وقولها: " إِنَّكُمْ لَبَنُورَجُلٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنْتُمْ بَنُو امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مَا خُنْتُ أَبَاكُمْ، وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، وَلَا هَجَنْتُ ٩٧٢ حَسَبَكُمْ، وَلَا غَبَرْتُ ٩٧٣ نَسَبَكُمْ،.. " .

تبدو كنايات هذا الخطاب عجيبة في تراتبيتها و مبناها المتعالق والمتواشج، فالناظر إليها لأول وهلة قد لا يفتن إلى هذه البنية المنطقية فيها، لكن المتأمل يلحظ أن هناك تخلقا فيه نوع من التناسب بين المقدمة والنتيجة؛ فقد يسأل سائل : ما علاقة طهارة النسب وعفة الخنساء ورفعها لرؤوس زوجها وأهلها وذويها بهذا الموقف القتالي...!!!؟؟؟؟

هناك علاقة المقدمة بالنتيجة، فأبناء الكرام النجباء، أفعالهم كريمة نجبية، ورثوا المجد وعليهم المحافظة عليه، والإضافة إليه، أمجادا من صنع أيديهم؛ فهذه الكنايات هنا هي عن صفة العفة منها وطهارة نسبهم ؛ وهذا يؤدي إلى طهارة أفعالهم وسمو مآثرهم الماضية والمتوقعة، وساحة هذه المعركة تحديدا هي مجالهم الحقيقي لإثبات ذلك...!

كِنَايَةٌ عَنْ مَوْصُوفٍ :

فقد ذكرت الصفات ولم تذكر الموصوف، ومن ذلك ما جاء في وصية الخنساء:

وَاعْلَمُوا أَنَّ الدَّارَ الْبَاقِيَةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الْفَانِيَةِ،.. " وقولها: " تَظْفَرُوا بِالْغُفْمِ وَالْكَرَامَةِ، فِي الخُدِّ وَالْمَقَامَةِ".

ف " الدَّارَ الْبَاقِيَةَ "، كناية عن موصوف: الجنة. أو الآخرة.

و " الدَّارِ الْفَانِيَةِ " كناية عن موصوف وهي الحياة الدنيا.

٩٧٢ - "الهجنة من الكلام: ما يعينك. والهجين: العربي ابن الأمة لأنه معيب، وقيل: هو ابن الأمة الراعية ما لم تحصن، فإذا حصنت فليس الولد بهجين."، ويقال: يقال: امرأة هجان وناقاة هجان أي كريمة. " اللسان: (هَجَنَ) .وهي من ألفاظ الأضداد.
٩٧٣ - غَبَرَ: مكث وذهب. " وهي من ألفاظ الأضداد. و"غَبَرَ الشيء: لَطَخَهُ بِالْغُبَارِ."، اللسان: (غَبَرَ)

وقولها: " تَظْفَرُوا بِالْغُفْمِ وَالْكَرَامَةِ، " كناية عن موصوف وهو : النصر أو الشهادة.

" فِي الْخُلْدِ وَالْمُقَامَةِ، " كناية موصوف وهو الخلود في الجنة .

وتخير(الخنساء)لهذا الأسلوب التصويري قريب المتناول-خاصة بعد صورها التهويلية المركبة الاستعارية منها والتشبيهية، وبعد ذلك الجرس الرنان للسجعات المتجانسات، هذا يعد بذاته التفاتة هادئة بعد ذلك الضجيج والصخب الهادر والنيران المشتعلة، كما أنه تشويق وترغيب وتنبية إلى صفات ما ينتظرهم حيث هم ذاهبون، دون تقرير مباشر لا يهز الوجدان، ولا يحرك الذهن ولو قليلا...!!

إن هذه المتطابقات المعنوية واللفظية هنا، إضافة لاستعمالها للفظين من ألفاظ الأضداد استعمالا لافتا، هي من عوامل دعم الدلالة واللفت إليها أيضا، وكأنها تفرع جرس إنذار خاصة في ذلك السياق المأزوم الذي قد يشرد فيه الإنسان عن هدفه أو يحيد عنه، وكأنها تقول: ما وجعكم إلا ساعة، وما نزعكم إلا قطرة، وما زمنه إلا طرفة، في مقابل ذلك المدّ غير المتناهي من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال، وماذا ستخسرون في دنياكم الفانية، بقدر ما تكسبون في أخراكم الخالدة...!!!

للكناية وجوه من الكشف والتحقيق، على الصعيد اللغوي والدلالي، وتحمل كثيرا من مفاهيم زمانها وفسفته في الوجود، تبتد في المرأة وقد تزيت بمفاهيم عصرها، ومستلهمة خريطة دينها الجديد وجدانيا وفكريا، متمكنة أيضا على موروثها وما يحمل من عادات وتقاليد، من نجاحات وإخفاقات، ومن رؤية كاملة و مصححة لهذا الوجود، وفق قيم الدين الإسلامي ومعاييره، هذا ما يبقها وفيّة لانتمائها ومعبرة عنه، تبقى ابنة شرعية للغة زمانها وفكره وبوصلة لأحاسيسه ومدركاته...!!

وبعد..

فأهمية الكناية وجماليتها هي كونها تعطينا هذه الصورة الجميلة عوضا عن الكلمات التقريرية المجردة، وبشكل أدق " تطرح الشيء الملموس وسيلة للتمكن من الشيء المجرد"^{٩٧٤}

يُلاحظ - كروية عامة- في هذا السياق التصويري بمباحثه الثلاثة (التشبيه، الاستعارة، الكناية)، انحسار المد التصويري في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، تماما كمنظيره في العصر

^{٩٧٤} - الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، محمد الولي: ص: ١٥١.

الجاهلي، على تفاوت ينحاز كثرة وتنوعا إلى خطاب المرأة الحربي في العصر الجاهلي، وأن هذه الصورة تستجمع نفسها لما في شتات هذا الخطاب !...!

كما يلحظ أيضا أن المرأتين كانتا مرأتين عاكستين لتفاصيل بيئتهما، بلقطات أفقية مرة، ورأسية مرة أخرى، بتناوب لحواسها المختلفة التي تنفتح بها على هذه التجربة المخصصة، وحيث تتخذ مواقفها من نفسها والوجود بعفوية، وتلقائية تماما كخطابها الشفهي، بلا تغور أو فلسفة أو لي لعنق الصورة، وإن كان كل ذلك هو ترجمة لكل ما نشأت عليه من عادات وتقاليد وقيم، وبعد ذلك تجلى في قيم الدين الجديد بأفقه اللامحدودة، ظاهرة وباطنة، مادة ومعنى، بأوامره ونواهيه وتوجيهاته، خاصة ذاك المفهوم المحوري الجديد الذي فرض نفسه على هذا السياق، وهو مفهوم الشهادة، وهو المفهوم الجوهري الذي فتح أفق الاختلاف بين موقف المرأتين بين العصرين في سياق الحرب !..!

الختامة

لقد حاولت هذه الدراسة مقارنة خطاب المرأة النثري في سياق الحرب وفق المنهج الأسلوبى، وذلك بناءً على الفرضية التي تبناها البحث بدايةً، وهي خصوصية وضع المرأة في ظل سياق متفجر كالحرب، وخصوصية خطابها الذي يفرزه هذا السياق، وفي سبيل ذلك جاءت هذه الدراسة في تمهيد و ثلاثة فصول:

أ/ بدايةً استعرض هذا التمهيد مفهوم الخطاب، آخذاً هذا المفهوم من طرفيه: التراثي، والحداثي، وهذا البحث يتبنى مقولة كون الخطاب كلمة أو أكثر، وعدّه وحدة تواصلية لها شروطها، فلا نظر للكلمة ولا لنوع العبارات اللغوية أو حجمها. كما أنّ ربط الخطاب بالسياق يُعين أيضاً على التوسّع في تحليل الخطاب من نواحيه التوزيعية وما يحمل من دلالات المعاني مستفيداً من كل ما يُقدّمه السياق من معلومات.

ب/ كما توقّف التمهيد عند المصادر المتنوعة لخطاب المرأة النثري في سياق الحرب، وعند أنماط هذا الخطاب النثري النسوي في سياق الحرب، كما ألمح هذا التمهيد أيضاً إلى تغيرات العصر وضرورة الرسالة المحمدية، وتأثير الإسلام كعقيدة وشرعية على خطاب المرأة المسلمة في سياق الحرب، وما أفرزه من مفاهيم جديدة تناسجت في خطاب المرأة المسلمة وتناقلت فيه، وأهمها مفهوم (الجهاد)!!

أمّا فصول البحث الثلاثة، فيشتمل كلٌّ منها على ثلاثة مباحث، على النحو الآتي :

- الفصل الأول: البنية التركيبية وتشكيل الدلالة : التقديم و التأخير، الخبر والإنشاء، الالتفات.
- الفصل الثاني: البنية الإيقاعية وتأکید الدلالة: الجنس، السجع، الطباق و المقابلة.
- الفصل الثالث: البنية التصويرية وابداع الدلالة: الصورة التشبيهية، الصورة الاستعارية، الصورة الكنائية.

في فصل (البنية التركيبية وتشكيل الدلالة) هناك (أسلوب التقديم والتأخير) وفيه: حيث نلاحظ مدى الفاعلية التي أضفاها هذا التقديم و ذاك التأخير من مضاعفة المعنى المنوط بالعبارة المعنية، ولفت الانتباه إلى مقاصدها من خلال هذا الأسلوب اللغوي.

يُلاحظ عند المرأتين غلبة تقديم المتعلقات وخاصة الجار والمجرور على باقي أنماط التقديم والتأخير الأخرى، ويليه المفعول به (الضمير المتصل تحديداً) في خطاب المرأة المسلمة ليلعب ذلك دوره الدلالي من خلال ذلك الانزياح في التركيب اللغوي.

أما في (الأسلوب الخبري): الذي يُلاحظ امتداده وانتشاره على مساحة الخطاب الكلي في سياق الحرب عند المرأتين، وحيث ينبثق عن تلك التلوينات والإيماءات والظلال والاندياحات الدلالية المدهشة، المتساوقة والمعبرة عن النبض الحي لسياق الاتصال بكل معطياته وتشعباته، ومبرزة كل أنماط التواصل والتفاعل الإنساني من خلال هذا الأسلوب الثر، بلغة آسرة جذابة خاصة في العصر الجاهلي، خرجت بهذا الخطاب معبراً به ومُنزاحاً عن نمطية إلى أغراضه الإخبارية المشعة... والتي تتساوى فيه المرأتان على غلبة الخطاب الإنكاري على مجمل خطابتهما الخبرية، كما لوحظ فيه أيضاً غلبة ورود الخطاب بالجملة الفعلية؛ فإن هذا السياق الحربي الفاعل والحيوي يحتاج إلى كثير من الجمل الفعلية التي تدل على التجدد والحدوث خاصة فيما يتعلق بزمن الحال أو الاستقبال، أو تلك التي تُعنى بتأكيد وقوع الحدث مستعملةً الفعل الماضي، ولأن هذا السياق سياق متفجر وفاعل فإن ورود الجمل الاسمية التي تدل على الثبوت و الاستقرار جاء في معظمه فيما يتعلق بالثوابت الغريزية في بنية الشخصية سلباً أو إيجاباً، أو بالحكم والأمثال التي تدل على استخلاص التجارب وديمومة تأثيرها وانسحابها على الزمن دون كثير تغيير، حتى وإن كانت قد وردت بأخطاء في الصياغة خاصة في الأمثال، يتجلى ذلك في خطاب المرأة الجاهلية أكثر خاصة فيما يتعلق بإبراز الصورة النمطية للمخلص أو العدو...!!

أما المرأة المسلمة، فورود الجمل الاسمية التي تدل على الثبوت و الاستقرار جاءت شاحبة الحضور وضاخرة في هذا السياق أيضاً، خاصة مع ما تحول إليه خطاب المرأة المسلمة في مجمله، فصار خطاباً إخبارياً يميل إلى الرواية الإخبارية والنقل لأحاديث وروايات عن النبي ﷺ، ما جعله أُلصق بالزمن (ماض، مضارع، أمر)، ومع ذلك فيُلاحظ طفوا للخبر الإنكاري، بشكل ملحوظ، حيث يكون السياق سياق مواجهة، مع المشركين من جهة أو مع المشككين، من جهة ثانية، أو للتعامل مع واقع ضخم ومحير وقوي من جهة ثالثة، مما يدفع بالمرأة لتخير خطابٍ صدامي يتناسب وخرج هذه الحرب الجهادية...!!

وفي مبحث (الأسلوب الإنشائي)، وبالنظر إلى المبحث الأول فيه: (أسلوب الأمر)، فنجد عند المرأة الجاهلية قد خرج إلى أغراض متنوعة دلاليًا ولغويًا، وأقل منها عند المرأة المسلمة، التي لعلها كانت تميل لإنجاز مهامها بنفسها، أو لعلها تحتال في خطابها باستعمال أساليب خيرية توصلها لمبتغاها دونما أن تكون في صدام استعلاء بإصدار الأوامر...!! وهكذا نلاحظ استعمالاً أقل لأسماء الأفعال في خطاب الأمر عند المرأتين، ووروداً أكثر لفعل الأمر المباشر بأغراضه البلاغية المتنوعة التي خرج إليها وفق السياقات المختلفة التي اندرج فيها...!!

وفي هذا النوع من الآفاق الدلالية التي يرتادها أسلوب الأمر، أو اسم فعل الأمر، نجد المرأة في سياق منفوح على تجربتها المتكاملة تستخلص منها مخارج وحلول تقدمها للخروج من مأزق، أو كما يعبر عنها اليوم، وضع استراتيجية إنهاء الأزمة، أو رسم خارطة طريق أو تسوية ما، وهي في كثير من الأحيان تحترم المخاطب، وتحتوي غضبه، خاصة في سياق النزاعات الحرجة، حيث الغليان سيد الموقف، وآخر ما يريده أحد الأطراف أن يقترح عليه أحدهم حلا غير الذي يراه، ولذلك فهي تقدم نصيحتها في لبوس من الحكمة، وتلتمس لها وسائل الإقناع...!!

وبالنظر إلى مجمل الخطاب النثري النسوي في سياق الحرب في العصرين الجاهلي والإسلامي ؛ يُلحظ انكماش الخطاب بـ (أسلوب النهي)، على رقعة هذا الخطاب بعامّة، وهو انكماش له دلالاته بلا شك، فعلى الرغم من أن هذا السياق سياق مواجهة، ويفترض التحدي و القوة، على الصعيدين النفسي والجسدي، إضافة إلى العقلي، فإن هذا الأسلوب لا يحضر بقوة؛ لأن المرأة - على ما يبدو - لم تكن تدير معركتها باستراتيجية توجيهية بأسلوب (النهي) إلا لَمَمًا، هل لإيمانها بتعنت المخاطب وعناده، فتلجأ لأسلوب أكثر مهادنة، أم للسبب نفسه فهو لن يسمع لها...!!؟؟ أم لأن خطاب المرأة في واقع حياتها اليومية ومعاملاتها لم يكن مرتكزا على هذه الطريقة في التعبير، تهذيبا، أو خوفا، أو مهادنة، أو عادةً وعُرفاً...، أو أيًا كان السبب...!!؟؟

أمّا المرأة المسلمة فيبدو أنها لم تكن مشغولة كثيرا آنذاك بما تنهى هي عنه، فعندها مساق آخر تتعلم هي فيه عن المنهي عنه، أقصد على مستوى العقيدة والتشريع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ؛ كان هناك هذا الميل الإخباري السردى العام المسيطر على رقعة هذا الخطاب النسوي وقتذاك...!!

وبمقارنة ورود دين الأسلوبين (الأمر/ النهي) في خطاب المرأة النثري في سياق الحرب، ويوصفهما يقعان عند طرفي نقيض، ومتقابلين، فإن الأمر يفوق النهي عند المرأتين، وأنها معا جاءا معبرين عن حال الحرب وشروطها من تحضيض وتحذير واستنكار وتوبيخ... إلخ

وعلى صعيد أسلوب (الاستفهام) نلاحظ أن الاستفهام بانزياحاته الأسلوبية، وبأغراضه الدلالية التي خرج إليها في هذا السياق قد كشف اللثام لا عن جماليات أسلوبية، ولا عن قدرة على انبثاق المعاني والدلالات فحسب، بل أماط اللثام عن مواءمة لافتة بين النص والسياق، وأمكن من النفاذ إلى عالم المرأة بمواقفها المتنوعة وعواطفها المتشكلة والمشرّبة بوهج واقعها، وجاء امتدادا لتاريخ فكري واجتماعي وأعراف وعادات وتقاليد انطوت عليها هذه النفس وتداخلت في نسيج تكوينها أيضا!!.. ونلاحظ أن معظم الاستفهامات كانت بالهمزة أو (ما)، وأكثر أغراضه ورودا هو الاستنكار!!..

وبينما تتمدد مساحة خطاب الاستفهام على رقعة أكبر في العصر الجاهلي، نلاحظ تنوعا أكبر في ورود أدوات الاستفهام على رقعة الخطاب النسوي في عصر صدر الإسلام، من ذاك المرصود في خطاب المرأة النثري في العصر الجاهلي، كما كان الاستنكار هو أكثر أنواعه ورودا، نجد في العصر الإسلامي أكثر أغراضه ورودا هو التحضيض!!..

وموضوع استفهام المرأتين لم يكن، استفهاما فلسفيا أمام أطروحات الوجود، وأسئلته الشائكة، وحيرة هذه الذات المفردة التائهة إزاء هذا الكون الضخم، أو ما شابه، بل كان استفهاما يصب في سياق الحرب الفوري والآتي، يتحرك نحو دلالة خطية سهمية بين المستفهم والمستفهم عنه، بأداة مذكورة أو محذوفة مفهومة من السياق، تشكل به لفتا دلاليًا لموضوع الاستفهام، ومتناميًا نحو ذروة بلاغية يخرج إليها حسب الأغراض المتنوعة التي تفرضها شروط التواصل والتداول في السياق حينها!!..

وحينما نصل إلى (أسلوب التمني) نلاحظ استجابة حيية من المرأتين مع هذا الأسلوب، حيث رصد البحث أن استجابة المرأة المسلمة لهذا الأسلوب (التمني) هي ذات الاستجابة التي سجلتها المرأة الجاهلية، وهي استجابة تنحاز لضرورات السياق الحربي كما يُعتقد...، هذا السياق الحربي الذي فرض على المرأة في خطابها الشفهي هذا واقعا لغويا معادلا، قد يكون أي شيء إلا العيش والتحليق في دنيا الأمان والخيالات..، وعلى الرغم من هذا فقد أصر البحث على أن يدون هذه النصوص على ندرتها ليثبت بها هذه المفارقة والتفاوت والتباين في أسلوب المرأة بانزياحاته الأسلوبية، وليظهر واقعيتها،

بل واستجابتها المباشرة والفورية لضرورات الحرب التي لن تُحل بالأمنيات مهما طابت وجمّلت...!!
وعلى ندره خطاب (التَّمَنِي)، يُلاحظ أمرًا جديرًا بالملاحظة وهو غياب أداة التمني الأصلية إلا مَمَّا...!!
إنّ تقلص أسلوب التمني في رقعة الخطاب النسوي لهو ظاهرة بذاتها، جديرة بالملاحظة، وزعيمة
بالمقارنة مع غيرها من الظواهر الأسلوبية في خطاب النثر النسوي في سياق الحرب...!!

وعند استعراض نماذج (أُسْلُوبِ النَّدَاءِ) استرعت الانتباه بعض الانزياحات الدلالية النوعية التي
خرج إليها النداء وفق السياقات المتعددة التي انساب من خلالها، على اختلاف استعمالات أدوات النداء
المختلفة، وكان أكثرها استعمالا (يا) عند المرأتين، ثم (أي) التي خرجت لأفئد التحبب والتودد...!!

كما استدعت المرأة الجاهلية المنادى (أبتاه، أمّتاه) مما شكّل بؤرة انزياح دلالي في الخطاب، ومن
الاستقراء العام كان أكثر الأغراض تداولاً هو التحذير عند المرأة الجاهلية، أما المرأة المسلمة فقد
انسابت نداءاتها في سياقات نوعية منبثقة من السياق الأصل (سياق الحرب/ الجهاد)، ولفتت إلى تلك
الدلالات المنوطة بها، التي أعطتها زخمها وتنوعها وثرأها، التي أنبأت بدورها عما يجيش في صدر
المرأة من انفعالات، وما يلفت نظرها وتهتم به في هذا السياق المخصوص، ولم يبرز عندها غرض
باقي الأغراض الأخرى، لكن غرضاً لافتاً بزز وتكرر ألا وهو (التَّفْذِيَةُ)، واختص بها الخطاب الموجه
لرسول الله ﷺ، وتحت مظلة النداء يلحظ تنامي ظاهرة لافتة، وهي: رفع شعارات القومية والعروبة على
غير المتوقع من هاته النسوة كما تقول (خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَارِ): "يَا بَنَاتِ التَّبَاعَةِ وَ الْعَمَالِقَةِ..."، أو
قولها: "يا بناتِ حِمِيرٍ بَقِيَّةَ تَبِع..".^{٩٧٥}، وقولها: "يَا بَنَاتِ التَّبَاعَةِ قَدْ جَاءَكُمْ الْفَرْجُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ".^{٩٧٦}

وفي الفصل الثاني: (الْبِنْيَةُ التَّصْوِيرِيَّةُ وَتَأْكِيدُ الدَّلَالَةِ) وعلى مستوى المبحث الأول (أُسْلُوبِ

الْجِنَاسِ) لوحظ الآتي: غلبة الجناس على ما عداه في المستوى الموسيقي في خطاب المرأة في عصر
النُّبُوَّة، ومع ذلك لم يُفطن إلى نماذج تمثل جناس التحريف، المتعلق باختلاف الشكل، في خطاب المرأة
المسلمة في عصر صدر الإسلام، فيما يكثُر بقية أنواع الجناس الأخرى على حسابها، أما في الجاهلية
فأمثلته أبرز وأوقع.

^{٩٧٥} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤٧ .

^{٩٧٦} - فتوح الشام، الواقدي: ١ / ٤٩ .

بالنظر إلى الجنس كمحسنٍ بديعيٍّ في خطاب المرأة النثري في سياق الحرب في الجاهلية وعصر صدر الإسلام ، لوحظ غياب الجنس التام، ولأسباب ذاتها، لأنه يحتاج إلى تعمل وفيه نوع من الإلغاز الذي يحتاج إلى تفكر وتدبر وإطالة نظر من المتلقي وهذا مالا يلائم السياق العفوي المرتجل في عوممه، بينما تنوعت أساليب الجنس الناقص بانفتاحاته الدلالية الثرة، ولوحظ أيضا أن دور الجنس لا ينحصر في الحلية اللفظية أو النبض الإيقاعي فقط ، بل يأتي في معظمه بين كلمات تمثل مرتكز الدلالة، ومصدر الإشعاع في الخطاب، مما أعان على التمام سدى الخطاب بمضامينه المتشعبة مع السياق..

أما على مستوى بنية (أسلوب السجع) :فمن الملاحظ أن أقل أنواع السجع في خطاب المرأة الجاهلية في سياق الحرب هو السجع المطرف، ثم المتوازن، ليكون الأعم الأغلب للسجع المتوازي بسجعاته القصيرة، النموذجية..!!

هذه السجعات التي جاءت منسجمة مع الخطاب الكلي ، فلا تنوعات أو تعمل في استقصاء السجعات أو استحضارها، ولم يكن الخطاب الفوري المباشر المتولد من رحم الراهن بقادر على التصنع و التعمل خاصة مع صدق الشعور والانفعال بالقضية موضوع الخطاب ..!!

وكانما هذا السجع بإيقاعاته، يعمل على موسقة العالم الداخلي للمتلقي ، وتوقيعه على نحو معين، أو هو تعبير عن العالم الداخلي الغامض للمتكلمة تنقله بهذا الإيقاع المخصوص لتمتد نغمة شعورية واحدة بين المتحاورين في الموقف الاتصالي، أليس غاية التعبير الأدبي إحداث وحدة شعور بين المنشئ والمتلقي، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة..؟؟؟؟

إنّ هذا الإيقاع السجعي إنما هو محاولة لاستنفاد الطاقة التعبيرية للصوت للبلوغ بالمعنى إلى مداه المستنطق، من خلال الإفادة من الانسجام بين الأصوات وتفاعلها، من حيث المخارج و الحركات والسكنات فيها؛ وحيث السجع يقسم الخطاب إلى وحدات أدائية وإيقاعية منفردة مضيضة قيمة معنوية مكتسبة من القيمة الصوتية أو مترتبة عليها، مما يبرز المعنى المتعلق بها ، وكأنها أداة صوتية لتجسيد المعنى ومتناسبة معه شدة ولينا، همسا وجهرا ..!!

ولا شك أن السياق العام للموقف الاتصالي يعمق من قيمة الإيقاع المسجوع في الخطاب لما للصوت واللغة غير المنطوقة أيضا من تأثير ..!!

أما عند المرأة المسلمة؛ فأول ما يلاحظ في هذا الباب، ندرة السجع في خطاب المرأة النثري في صدر الإسلام عنه في خطابها الحربي في العصر الجاهلي ، وأن أغلب هذا السجع النادر هو في عصر الفتوحات الإسلامية وليس في عصر النبوة الأول، مما يشكل انزياحا أسلوبيا يعود بالخطاب الموسيقي ثانية إلى إيقاع العصر الجاهلي، غير أننا نلمس فيه تصنعاً إلى حدّ ما، وهو يختلف في جمالياته وقوة إيقاعه وتنوع سياقاته، عن العصر الجاهلي الذي يفوقه في ذلك كله.

وفي إطار العصر نفسه، عصر صدر الإسلام، نلاحظ تفاوتاً في أنواع السجع، فأشحّه هو السجع المطرّف، وأكثره المتوازن ، وبينهما المتوازي.

وعلى مستوى بنيتي (أسلوب الطّباقِ والمُقابِلة)؛ فإن بنية هذا الأسلوب تأتي ضمن بنية أعم وأشمل تلتقط أنفاسها في إطار السياق الكلي، سياق اللغة و سياق الحرب، و سياق الحرب هذا نابض متحرك، بعيد عن الاستاتيكية سواء النفسية أو اللغوية، وهذا الخطاب في معظمه هو خطاب مقتضب إلا بعضه، وبالتالي فإن البنية النسقية للتركيب المتضمن على الطباق والمقابلة أيضاً تخضع لشروط هذا السياق الاتصالي المحدد...!!

ومن الملاحظ في خطاب المرأة الجاهلية في سياق الحرب، أن البحث عن بنية نسقية تتواتر فيها البنية التقابلية و الطباقية على نحو ما أمر نادر نظراً لطبيعة الخطاب المختزلة، ومن جهة أخرى قد تكون البنية التقابلية منبسطة على مجمل الخطاب، الذي لا يتعدى الجملتين، أو يخلق بؤرة توتر على سطح ذلك الخطاب إن طال قليلاً، مما يفرز بنية إيقاعية موازية ومؤكدة للمعنى...!!

أما في خطاب المرأة المسلمة، فمن خلال استعراض النماذج موضوع الدراسة، فيُرى تفاوت في تواترها بين أنواع الطباق الثلاثة: طباق الإيجاب، طباق السلب، الطباق الخفي..!

فهناك غلبة نسبية لطباق الإيجاب على طباق السلب بصفة عامة، وكأنما طباق الإيجاب فيه

نوع من المهادنة والمصالحة في الخطاب، حيث تنداح هذه البنية الطباقية في نسيج النص، محدثة دوائر دلالية مستهدفة دونما كثير من الضجيج والصخب، على عكس طباق السلب الذي يفترض نوعاً من المواجهة والصدامية، حيث يعلن النفي فيه دون مواربة...!!

وبين يدي هذا النوع من الإيقاعات لوحظ انحسار رقعته على مساحة هذا الخطاب، وكأن المرأة المسلمة وصلت إلى مرحلة من التصالح مع نفسها ومحيطها، فلم تعد في حالة من الصدام والمواجهة والتناقض لدرجة انعكاس ذلك على خطابها، حتى وإن كان في سياق يعد من سياقات التناقض والمواجهة، وهو السياق الحربي، مما يشكل لفتا لهذا الأمر، ولأمر آخر وذلك حين مقارنة خطابات الطباق والمقابلة في هذا العصر بنظيرتها في العصر الجاهلي، سيتضح أن هناك تفوقا عدديا ونوعيا لصالح العصر الجاهلي...!!

ومع ملاحظة سمة الاقتضاب العامة في هذا الخطاب، فإن البنية النسقية للتركيب المتضمن على الطباق والمقابلة أيضا تخضع لشروط هذا السياق الاتصالي المحدد...!!

وكنظيره الجاهلي.. فمعظم هذا الطباق قد جاء ضمن نظام جملي، وليس في نسق متراكم، فلا نجد بنية مكرورة ممتدة، بل تأتي بين لفظتين في جملة فيكون الطباق، أو جملتين متمفصلتين في بناء ذاك الخطاب فتكون بنية التقابل...، ولكل فاعليته ونبضه الخاص، هدوءا أو صخبا، انسيابا أو تفجرا، وهذا الانحراف هو الذي يعطي هذه القيمة الأسلوبية الانشطارية المتشظية، التي تعطي للنص توتره وترتفع بمعدل نبضه نحو ذروة دلالية معنوية، خاصة مع تلاحمه مع بنى بديعية أو بيانية أخرى..!!

وفي الفصل الثالث والأخير (البنية التصويرية وتأكيد الدلالة) وفي المبحث الأول منه: (الصورة التشبيهية) فأول ما يلحظ في جميع تشبيهات المرأتين، هو ندرة نماذجها في خطاب المرأة في العصرين، الجاهلي وعصر صدر الإسلام، ككل، و سيطرة المنحى الحسي على طرفي التشبيه، وهذا الاتكاء على مألوفات التكوين البيئي والخبرة الشخصية المبنية عليها، فهناك الظباء، والإبل في أكثر من موضع وبغير صورة عند المرأة الجاهلية ويزيد الغم عند المرأة المسلمة، ومن الأدوات الشفرة الحادة، والدرع والرماح والسيوف والخناجر، ومن الألوان الأحمر والعصفر والأسود والأبيض، وهذا أمر بدهي في تكوين مفردات الصورة...! وتبدو بساطة هذه التشبيهات بعامة، والمركب منها كان ما صورته (أم تميم) زوج خالد بن الوليد.

وفي هذا الشريط التصويري المقتضب، نجد أداة التشبيه حاضرة (الكاف، كأن) وهذا يدل على مستوى العقل في مقارنة الأشياء، مقارنة لا تجعلها ذاتها، ولعل وظيفة الوصف هنا هي وظيفة تعريفية

تبليغية لا مسوغ فيها لجعل الأشياء متماهية في بعضها دون تمييز بينها، فتضيع الغاية الحقيقية من هذا الخطاب...!!

وفي مبحث (الصورة الاستعارية)؛ لوحظ من خلال استعراض الخطاب التصويري الاستعاري للمرأتين في سياق الحرب، هذا التوتر الذي يحدثه هذا النوع من التصوير على بنية الخطاب، من ناحية الانزياح اللغوي والدلالي وتأثير ذلك على المتلقي، وأن هناك تنوعا في علاقة المستعار له والمستعار منه، فقد يكونان عقليين، أو أحدهما حسياً والآخر عقلياً والعكس، مع اتكاء موضوعي ولوني على تفاصيل البيئة، والملاحظ أيضا غلبة الاستعارة المكنية على التصريحية.

وإنَّ معظم هذه الصور هي جمع والتقاط وإعادة توزيع وتصنيف لمفردات البيئة، بعلائق جديدة، تستقي أصولها من عالم الواقع، ولكنها ترتشف ظلالها وإيماءاتها من عالم الخيال، في تزوج بديع...!! وتلك الصور..هي صور قريبة، وإن تعقدت البنية اللفظية المعجمية، نتيجة العلاقات الجديدة بين المستعار منه والمستعار له كما في وصية (الخنساء) مثلا، لكن لا تهويم ولا تعقيد، ولا فلسفة وراء تلك الصور أبعد من فلسفة هذه العلاقة التكوينية بين المرأة ومحيطها حيث يتحد كلُّ من الذات والموضوع في إنتاج الصورة ، وإن كانت المرأة الجاهلية أكثر تنوعا وأغزر في إنتاج الصور عبر خطابها، على ندرة الصور فيه أيضا...!!

ولعلَّ البعد الاستعاري لا يبرز كثيرا في خطاب المرأة الحربي في العصرين، لأنه في عموم خطاب مأساوي تراجيدي، وآخر ما يبحث عنه المتكلم والمتلقي في سياق شفهي كهذا هو لغة إشارية معيَّنة تحتاج لكثير من أعمال العقل وإشغال الفكر، و هو السبب في انحسار المد التصويري من رقعة خطاب المرأتين ، أضف إلى ذلك بُعد خطاب المرأة المسلمة في عمومها عن الغرابة، وميلها للنقل الحرفي والواقعي للأحداث، وهو تحوُّلٌ نحو التوثيق وتلك علّة أقوى لمباشرة لغة الخطاب وسبب في وضوحها...!!

كما يلحظ أيضا أن المرأتين كانتا مرأتين عاكستين لتفاصيل بيئتهما، بلقطات أفقية مرة، ورأسية مرة أخرى، بتناوب لحواسها المختلفة التي تنفتح بها على هذه التجربة المخصصة، وحيث تتخذ مواقفها من نفسها والوجود بعفوية، وتلقائية تماما كخطابها الشفهي، بلا تغور أو فلسفة أو لي لعنق الصورة، وإن كان كل ذلك هو ترجمة لكل ما نشأت عليه من عادات وتقاليد وقيم، وبعد ذلك تجلى في قيم الدين

الجديد بآفاقه اللامحدودة، ظاهرة وباطنة، مادة ومعنى، بأوامره ونواهيه وتوجيهاته، خاصة ذاك المفهوم المحوري الجديد الذي فرض نفسه على هذا السياق، وهو مفهوم الشهادة، ذاك المفهوم الجوهري الذي فتح أفق الاختلاف بين موقف المرأتين بين العصرين في سياق الحرب ..!

وفي مبحث(الصورة الكنائية): رُصد أن خطاب المرأتين الكنائي في سياق الحرب لم يكن مغربا ولا معقدا ولا خارجا عن الأمور التي يتسنىها الطموح آنذاك في الشكل والمضمون، وظلت المرأتان تدوران في فلك الصورة النمطية التي هيمنت على العقل الجمعي في عصريهما، وفي كافة أغراض الخطاب الكنائي..!

كما لوحظ شيوع بل غلبة كناية الصفة على ماعداها، وتكاد تغيب الكناية عن الذات، ومع ذلك فقد تبين اقتدار المرأة وملكتها التصويرية في هذا النوع من البيان، وقد انثال منها عفو الخاطر مما أعطاه مزية إضافية في هذا السياق، انثيالا أبرز ما للكناية نفسها من وجوه الجمال ولطافة التلميح دون التصريح..!

يلحظ في هذا السياق التصويري بمباحثه الثلاثة بعامة(التشبيه، الاستعارة، الكناية)، انحسار المد التصويري في سياق الحرب في عصر صدر الإسلام، تماما كنظيره في العصر الجاهلي، على تفاوت ينحاز كثرة وتنوعا إلى خطاب المرأة الحربي في العصر الجاهلي، وأن هذه الصورة تستجمع نفسها لهما في شتات هذا الخطاب ...!

في هذه النماذج المنتقاة من خطاب المرأة(الجاهلية/ المسلمة) في سياق الحرب، يتضح أنّ هذا الخطاب تولّد استجابة لطاقة الموقف الاتصالي، وما تفرضه ضرورات السياق المصاحب، وأن هذه الخطابات كانت إفرارا حقيقيا لسياق الحرب، أفضت فيه المرأة بطاقة شعورية مضاعفة في سياق لغوي معبر..!!

ويُلحظ أيضًا.. وجود الذات الذكورية المفردة ، بصفات النمطية في العصر الجاهلي، حيث يبرز دور المخلص (زوجا ،أبا ، ولدا...) أو الذات الجمعية (القبيلة أو الأحلاف)، بينما يُلحظ بوضوح اختفاؤها في العصر الإسلامي، حيث المرأة تروي عن نفسها ، وفعالها أو مرئياتها ورؤيتها حول ما يقع من أحداث، بل وأصبحت في كثير من الأحيان مرويّا عنها، وعن بطولاتها وشجاعتها، وفعالها في الحرب، وبذا غابت الصورة النمطية الذكورية فريّة أو جماعية..!

وبينما كانت الأعراف والتقاليد تلعب دورها في الحد من مشاركة فعليّة للمرأة الجاهلية في الحرب ، ونزول الميادين، تجدُّ المرأة المسلمة لتجدَ لنفسها مخارج شرعية لفعل ذلك، بل تتوسله قدر المستطاع، لأن الهدف ليس القتال ، وإنما الجهاد الذي يختلف جملة وتفصيلا عما كان في الجاهلية.

يرصد هذا الاستقراء أيضا من خلال تلك الخطابات المتنوعة، نزول المرأة المسلمة إلى معترك الجهاد الفعلي الجسدي، وبالتالي تكثر في خطابها مفردات الالتحام والقتل ومسميات الأسلحة، يدفعها إلى هذا الطريق إيمانها بقضيتها الجهادية، وطمعها الدائم في الشهادة، مع بعض التلميحات لبعض المطامع الدنيوية في حُلَيّ أو غيرها من الأمور أحيانا قليلة..!!

ومما ساعد على بروز دور المرأة المسلمة من الناحية العسكرية، هو التقييد لمفهوم الجيش النظامي، بأسسه الحربيّة و العسكريّة، ويكل ما لذلك من مفاهيم وأبعاد، عمل بدوره على تنظيم مشاركة المرأة وفاعليتها، ووضوح الأدوار التي من واجبها القيام بها، بخلاف مفاهيم الغزو والكر والفر والغارات المتعارف عليها في المنازعات القبليّة أفرادا وأحلافًا، ناهيك عن اختلاف الأهداف العسكريّة بين العصرين، مما يجعل كل شيء مختلفا، وبالتالي انعكس ذلك على دور المرأة وجعله أكثر بروزا و اختلافًا، حيث المرأة الجاهلية أقصى ما تخافه هو أن تكون سبيّة أحيذة أسيرة تجلب بذلك العار لنفسها ولقبيلتها، فيكون استرجاعها همّ الليل والنهار، بينما المرأة المسلمة غاية مناهها أن تنال الشهادة في مشاركتها تلك ، فتنال الشرف والعز والفخار..!!

من الملاحظ أيضا الدور النمطيّ الذي تقوم به المرأة في الحرب، وهو رد الفارين من المعركة، أو تحميسهم للبقاء فيها والصمود في الميدان، بما تقدمه من دعم لوجستي توفره المرأتان لمن هم في ساحة المعركة، مع حماية للخطوط الخلفية، وكفاية الرجال عبء تحمل التفكير في انتهاك الأعراس، أو غيره، وذلك في العصرين، وإن تشابهت الأدوار ولكن هناك اختلاف في لغة الخطاب بين العصرين بل بين المراحل الثلاث إن جاز التعبير (العصر الجاهلي، عصر النبوة، عصر الفتوحات في زمن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.) .

وكذلك يبدو أن دور المرأة في الجاهلية في معظمه دور حيلة والتفاف ، بينما دور المرأة في الإسلام دور مواجهة وزحاف، إلا ما ظهر بعد ذلك في عصر الفتوحات الإسلامية.

وعلى صعيد المعجم اللغوي مفردات وتراكيب.. نجد تفاوتاً وفجوة بين لغة المرأة في العصر الجاهلي ولغتها في صدر الإسلام، فلغة المرأة الجاهلية؛ أنيقة الهيئة، جميلة الجرس، موقعة الموسيقى، معطرة الحواشي، ترفل في إهاب عصرها، بكل ما للكلمة من معنى حيث استغرقت الغرابة بعض الخطابات، حتى يشعر المتلقي بالحصر والمحاصرة الفكرية واللغوية، بل والعجز، الذي يعتقد معه، أنها لغة أخرى كتبت بحروف عربية على قدر ما فيها من صعوبة واستغلاق، وقد يبلغ التعقيد مداه كما مر بنا في خطابات (أُمِّ الشَّنْفَرَى) تُوَبِّئُ وَلَدَهَا..!!

ويبدو أن وحدة الهدف، ووحدة العقيدة، ووحدة المنهج، أثرت كثيراً على بناء الخطاب النسوي الإسلامي، يتبلور ذلك انحساراً لكل تلك الإيقاعات والهسهسات، أو الجلجات، خاصة في عصر النبوة، حيث يبدو الخطاب النسوي رائقاً، واضح اللُّغة، بعيداً عن الجرس الموسيقي اللافت، وإنْ غلب عليه الجنس بشكل ملحوظ عن باقي الأنواع الأخرى..، ليعود ذلك الإيقاع للظهور فيما يشبه اللغة الملحمية في عصر ما بعد النبوة، عصر الفتوحات الإسلامية، حيث تدل النماذج التي بين أيدينا، على ذلك..! وكلتا اللغتين في العصرين يغيب عنهما العنصر التصويري بمستوياته المتوخاة في هذا الدرس..

والخطاب النثري النسوي في سياق الحرب، هو خطاب متسق مع موضوعه ومعبر عنه أيضاً، و يأتي منسجماً مع النمط الشفهي الخاص للخطاب، وكما هي مقولة أرسطو في معرض حديثه عن الأسلوب الخاص بكل نوع من الكتابة و الحديث.

ويُلاحظ أن المرأة في كلا العصرين (الجاهلي و صدر الإسلام) استجابت بكل عفوية لمتطلبات عصرها وكانت ابنة بيئتها، منسجمة مع مفاهيمها الاجتماعية، وعاداتها الجاهلية، أو تعاليم دينها الجديد، كلاتهما كانتا مستعدتين للتضحية والفداء في سبيل ما تؤمنان به ، وتذهبان في مساندته إلى آخر رمق..!!

ورصد هذا البحث أن هناك نسبة وتناسبا في الكم ، من حيث اشتغال المرأة ببعض أساليب الخطاب، وليس في نوع اللغة، التي تنحاز نوعياً لصالح المرأة الجاهلية، فهناك توجهات نحو الأسلوب الخبري بعامة في الخطابين، بل وحتى في الميل إلى الخبر الإنكاري على حساب أغراض الخبر الأخرى، وهذا ما نجده في باقي تفاصيل الخطاب الموزعة على البابين بفصولهما المتعددة، وبتفاصيلها، فمثلاً

انحسار أسلوب التمني عند المرأتين، ضخامة أسلوب الالتفات، تراجع النهي، وكذا في باقي التفاصيل الأخرى، نلاحظ هذ التوازن الكمي في الخطاب الحربي!!

هذا كله وغيره يدل على هذا الحضور المميز والفاعل الذي سجلته المرأة في تاريخ الإنسانية، وأحدثت به انعطافات تاريخية في سير المعارك التي شاركت فيها، كانت في كثير منها سيدة الموقف والقرار، وخواتيم الأحداث تعطيها ميزة القدرة على إدارة الأزمات بمفهوم العصر الحالي ، شخصية واضحة قوية، نابضة ، لا نملك إلا أن نحترم هذه المشاركة، سواء اقتنعنا ببعض جوانبها، أو اختلفنا معها، يبقى وجهها مشرقا، وعبيرها متضوعا، وراية حروبها مرفوعة في أحلك الأزمنة، أهدتنا شموسا نستضيئها بعد كل تلك السنوات، وتعاقب الأجيال وتغيرات الأحوال..

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

ثَبَتُ الْمَصَادِيرِ وَالْمَرَاجِعِ

أولاً: المصاحم:

١. الإحكام في أصول الأحكام. سيف الدين الآمدي: أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي (٥٥١هـ-٦٣١هـ/١١٥٦م-١٢٣٣م)، تح/سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.
٢. أخبار الوفادات من النساء على معاوية بن أبي سفيان، العباس بن بكار الضبي (١٢٩هـ-٢٢٢هـ)، تح/سكينة الشهابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.
٣. أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تح/محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٤. أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين ابن الأثير محمد بن علي الجزري (ت ٦٣٠هـ) دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٥. أسرار البلاغة، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)، تح/محمود محمد شاكر: مطبعة المدني، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
٦. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، تح/علي محمد البجاوي: دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٧. الإصابة في تمييز الصحابة (ومعه الاستيعاب في أسماء الأصحاب للفقهاء الحافظ القرطبي المالكي: (٣٦٣هـ - ٤٦هـ)، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر (٧٧٣هـ - ٨٥٢هـ)، دار الكتاب العربي: بيروت، د.ت، د.ط.
٨. إصلاح المنطق، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن السكيت (١٨٦هـ - ٢٤٤هـ)، تح/أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون: دار المعارف، ط٤، القاهرة، د.ت.
٩. الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، تح/علي محمد البجاوي، إشراف: محمد أبو الفضل إبراهيم: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، ١٩٩٣م.
١٠. الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأموي القرشي الأصفهاني (٢٤٨هـ - ٣٥٦هـ)، تح/إحسان عباس وآخرين: دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
١١. الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، المعروف بابن الحائك (٢٨٠هـ - ٣٣٤هـ) د.ط، د.ت.
١٢. الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، الأمير الحافظ ابن ماکولا: أبو نصر علي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن علكان بن دلف بن أبي دلف (٤٢١هـ - ٤٧٥هـ)، تح/عبد الرحمن بن يحيى المعظمي اليماني - أمين مكتبة الحرم المكي - دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م.

١٣. الممتع في صنعة الشعر، عبد الكريم النهشلي (ت ٤٠٥ هـ): تح/ عباس عبد الساتر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ م.
١٤. الأماي، أبو علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن سليمان (مولى عبد الملك بن مروان) (٢٨٨ هـ - ٣٥٦ هـ)، ويلييه ذيل الأماي والنوادر لأبي علي القالي، دار الكتب العلمية: بيروت، د.ت، د.ط.
١٥. أمثال العرب، المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي أبو العباس (ت ١٧١ هـ)، تح/ إحسان عباس: دار الرائد العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.
١٦. الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (ت ٧٣٩ هـ) منشورات محمد علي بيضون: دار الكتب العلمية: بيروت، د.ط، د.ت.
١٧. البدء والتاريخ، طاهر بن مطهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية: بورسعيد، د.ط، د.ت.
١٨. البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ). تحقيق ونشر مكتبة المعارف: بيروت، د.ط، ١٤١٠ هـ. / ١٩٩٠ م.
١٩. بديع القرآن، عبد العظيم بن عبد الواحد بن أفر بن عبد الله بن محمد المصري، المعروف بابن أبي الإصبع المصري (٥٨٥ هـ - ٦٥٤ هـ)، تح/ حفني محمد شرف: نهضة مصر، د.ت. د.ط.
٢٠. البرهان في علوم القرآن. الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥ هـ - ٧٩٤ هـ) تح/ أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
٢١. بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار نوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام، الإمام أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (٢٠٤ هـ - ٢٨٠ هـ)، تح/ بركات يوسف هبود: المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م.
٢٢. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكري الألوسي البغدادي (١٢٧٢ هـ - ١٣٤٢ هـ)، تح/ محمد بهجت الأثري: دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.
٢٣. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٣٦ هـ - ٢٥٥ هـ)، تح/ درويش جويدي: المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
٢٤. تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ هـ - ٨٠٨ هـ) دار الكتب العلمية: بيروت، ط ١، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.
٢٥. تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم: دار المعارف، القاهرة، ط ٦، د.ت.

٢٦. التعازي والمرثي، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (٢١٠هـ - ٢٨٦هـ) تح/ محمد الديباجي: دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
٢٧. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني (٧٤٠هـ - ٨١٦هـ): مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م.
٢٨. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) محمد فخر الدين الرازي (٥٤٣هـ / ٦٠٦هـ) دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٢٩. التلخيص في علوم البلاغة، للإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب (٦٦٦هـ - ٧٣٩هـ)، تح/ عبد الرحمن البرقوقي: دار الفكر العربي، بيروت، ط٢، ١٩٣٢م.
٣٠. تمثال الأمثال، لأبي المحاسن محمد بن علي العبدري الشيبني (ت ٨٣٧هـ) تح/ د. أسعد نبيان، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
٣١. تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، ط١، حيدر آباد، ١٣٢٧هـ.
٣٢. التيجان في ملوك حمير، وهب بن منبه ابن كامل بن سيج بن ذي كبار أبو عبد الله الأبنواوي، اليماني الذماري الصنعاني (٣٤هـ - ١١٤هـ)، تحقيق ونشر: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، تقديم د. عبد العزيز المقالح: صنعاء، ط١، ١٩٧٩م.
٣٣. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للشيخ أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٣٠هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم: دار المعارف، دط، ١٩٨٥م.
٣٤. الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، لابن الأثير. تح/ مصطفى جواد، جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق، دط، ١٩٥٦م.
٣٥. جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تح/ أحمد عبد السلام، أبو هاجر محمد بن سعيد بن بسيوني زغول: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
٣٦. خزنة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) المطبعة الخيرية: القاهرة، ط١، ١٣٠٤هـ.
٣٧. خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣٠-١٠٩٣هـ) تح/ عبد السلام محمد هارون: مكتبة الخانجي. القاهرة. ط٤. ١٩٩٧/١٤١٨.
٣٨. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٢٢هـ - ٣٩٢هـ)، تح/ محمد علي النجار: دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت، د.ط.
٣٩. دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) ، تح/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

٤٠. ديوان بشار بن برد (٥٦٩-١٦٨هـ)، تح/ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: وزارة الثقافة، الجزائر، د. ط، ٢٠٠٧م.
٤١. ديوان الشنفرى، عمرو بن مالك (ت ٧٠هـ)، جمعه وحققه وشرحه د. إميل بديع يعقوب: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
٤٢. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام. للإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي (ت ٥٨١هـ)، تح/ مجدي بن منصور بن سيد الشورى: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٤٣. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء: ياسين بن خير الله الخطيب الغمري (١١٥٧-١٢٣٢هـ)، تح/ حسام رياض عبد الحكيم: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٤٤. زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (٦٩١هـ، ٧٥١هـ) تح/ شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
٤٥. زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ/ ١٦٠١م)، تح/ صلاح الدين الهواري: المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
٤٦. سر الفصاحة، لأبي محمد سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت ٤٦٦هـ)، تح/ داود غطاشة الشوابكة: عمان، دار الفكر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
٤٧. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م): مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ط، ١٤٢٢هـ.
٤٨. السيرة النبوية لابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣هـ)، تح/ طه عبد الرؤوف سعد: مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة، د. ط، د. ت.
٤٩. شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، تح/ أحمد أمين، عبد السلام هارون: دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٥٠. شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي (ت ٦٤٣هـ)، تح/ إميل بديع يعقوب: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٥١. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد بن نشوان الحميري (ت ٥٧٣هـ) أشرف عليه: عبد الله عبد الكريم الجرافي، عالم الكتب، بيروت، د. ت.
٥٢. الصاحبى في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (٣٢٩هـ-٣٩٥هـ)، تح/ عمر فاروق الطباع: مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٥٣. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي الفلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م): تح/ محمد حسين شمس الدين: دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
٥٤. صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦ هـ)، دار ابن كثير: دمشق، ط ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
٥٥. صفة الصفوة، لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن عبيد الله ابن الجوزي (٥١٠ هـ - ٥٩٧ هـ)، تح/ محمود فاخور، محمد رواس قلعه جي: دار المعرفة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
٥٦. الطبقات الكبرى محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٠٣ هـ)، تح/ علي محمد عمر. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.
٥٧. الطراز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليميني (ت ٧٠٥ هـ)، تح/ عبد الحميد هندراوي: المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
٥٨. العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م)، تح/ د. محمد التونجي: دار صادر، بيروت، ط ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.
٥٩. العمدة، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (٣٩٠ هـ - ٤٥٦ هـ)، تح/ محمد محي الدين عبد الحميد: دار الجيل، بيروت، ط ١، د. ت.
٦٠. عيار الشعر، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ)، تح/ عبد العزيز بن ناصر المانع: دار العلوم، ط ١، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
٦١. عيون الأخبار أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري (ت ٢٧٦ هـ)، تح/ لجنة بدار الكتب المصرية: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٦ م.
٦٢. غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة للشيخ أبي أسحق المعروف بالوطواط، صححه محمد الصباغ: دار الطباعة، القاهرة، ط ١، ١٢٨٤ هـ.
٦٣. الفاخر للمفضل بن سلمة الضبي (ت ٢٩١ هـ)، تح/ عبد العليم الطحاوي، محمد علي النجار: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١، ١٩٧٤ م.
٦٤. الفاضل في صفة الأدب الكامل. أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء (ت ٣٢٥ هـ)، تح/ يحيى وهيب الجبوري: دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م.
٦٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ)، تح/ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
٦٦. فتوح الشام. أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، تح/ عبد اللطيف عبد الرحمن: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

٦٧. القاموس المحيط، للفيروز أباذي، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.
٦٨. الكافية في الجدل، أبو المعالي الجويني: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف النيسابوري (ت ٤٧٦ هـ)، تح/فوقية حسين محمد: مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، دت.
٦٩. الكامل في التاريخ، لأبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف (بابن الأثير ٦٣٠ هـ)، تح/أبي الفداء عبدالله القاضي، يوسف الدقاق: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٠٧، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م.
٧٠. كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ/٣٣٨ م)، تح/ عبد المجيد قطامش: دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م.
٧١. كتاب البديع، عبد الله بن المعتز، (ت ٢٩٦ هـ)، تح/إغناطيوس كراتشكوفسكي: دار المسيرة، بيروت، ط٣، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م.
٧٢. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ)، تح/علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط١، ١٣٧١ هـ/١٩٥٢م.
٧٣. الكتاب، سيبويه: بشر بن عمرو بن قنبر (ت ١٨٠ هـ)، تح/عبد السلام هارون: مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.
٧٤. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي (ت. بعد ١١٥٨ هـ / بعد ١٧٤٥ م)، تح/ لطفى عبد البديع: القاهرة، الهيئة العلمية للكتاب، د.ط، ١٩٧٢م.
٧٥. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ هـ/٥٣٨ هـ) تح/عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي: مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨م.
٧٦. لسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبة بن منظور (٦٣٠ هـ / ٧١١ هـ) تح/ عبد الله علي كبير وآخرون: دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م.
٧٧. المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ضياء الدين بن الأثير (٥٥٨ هـ/٦٣٧ هـ)، تح/ أحمد الحوفي، بدوي طبانة: دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، د.ت.
٧٨. مجالس ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠ هـ - ٢٩١ هـ)، تح/ عبد السلام هارون: دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٠م.
٧٩. مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت ٥١٨ هـ/١٢٤ م)، تح/ قصي الحسين: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٨٠. مختصر تاريخ دمشق لابن عسك، للإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور (٦٣٠هـ، ٧١١هـ)، تح/ نسيب نشاوي: دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٨١. المزهري في علوم اللغة وأنواعها. عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (٨٤٩هـ - ٩١١هـ)، تح/ محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم: دار التراث، القاهرة، دط، دت.
٨٢. المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (٧٩٠-٨٥٠هـ)، تح/ محمد سعيد: دار ابن الهيثم، القاهرة، دط، ١٤٢٦م / ٢٠٠٥م.
٨٣. المستقصى في أمثال العرب، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ / ١١٤٤م): طبع بإعانة وزارة المعارف للتحقيقات العلمية والأمور الثقافية للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: د/ محمد عبد المعيد خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن الهند، ط ١، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.
٨٤. مُسَكِّنُ الْفُؤَادِ عِنْدَ فَقْدِ الْأَحْبَةِ وَالْأَوْلَادِ، الشهيد الثاني الشيخ زين الدين علي بن محمد الجبعي العاملي (٩١١هـ - ٩٦٥هـ). تح/ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث: بيروت، د. ط، د. ت.
٨٥. معجم أعلام النساء، المسمى (الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور)، زينب بنت علي بن حسين فواز العاملي (ت ١٣٣٢هـ)، تح/ منى محمد زياد الخراط، مكتبة التوبة، الرياض، ط ١، ١٤٢١هـ.
٨٦. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (٣٢٩هـ - ٣٩٥هـ)، تح/ عبد السلام محمد هارون: دار الفكر، دط، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
٨٧. المعونة في الجدل، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (٣٩٣هـ - ٤٧٦هـ): تح/ علي بن عبد العزيز العميريني: منشورات مركز المخطوطات والتراث، الصفاة، الكويت، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
٨٨. المغازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي (١٣٠هـ - ٢٠٧هـ)، تح/ مارسدن جونز: عالم الكتب، د. م، ط ٣، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
٨٩. المغانم المطابة في معالم طابة، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (٧٢٩هـ - ٨١٧هـ / ١٣٢٩م - ١٤١٥م)، تح/ حمد الجاسر: دار اليمامة، الرياض، ط ١، ١٣٩٨هـ / ١٩٦٩م.
٩٠. المفتاح، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكّاكي (٦٢٦هـ) تح/ عبد الحميد هندواوي: دار الكتب العلمية، بيروت، دط، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

٩١. المفصل في علم العربية، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ويليه كتاب (المفضل في شرح أبيات المفضل)، للسيد محمد بدر الدين أبي فراس النعساني الحلبي: دار الجيل: بيروت، ط ١، د.ت.
٩٢. من نثر الدر، للوزير الكاتب أبي سعيد منصور بن الحسين الآبي (ت ٤٢١هـ) اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها: مظهر الحجى، منشورات دار الثقافة، دمشق، دط، ١٩٩٧م.
٩٣. المُمَقُّ فِي أَخْبَارِ قُرَيْشٍ: محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م)، تح: خورشيد أحمد فارق: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الهند، الدكن، ط ١، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
٩٤. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) تح/محمد الحبيب خوجة: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨١م.
٩٥. نثر الدر، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي (ت ٤٢١هـ)، تح: خالد عبد الغني محفوظ: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
٩٦. نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر (٢٦٠هـ - ٣٢٧هـ) تح/ محمد عبد المنعم خفاجي: دار الكتب العلمية، دط، دت.
٩٧. نقد النثر، أو (البرهان في وجوه البيان. أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، (٣٣٥هـ)، المنسوب خطأ لقدامة بن جعفر (٣٣٧هـ)، تح/ طه حسين، عبد الحميد العبادي: وزارة المعارف العمومية، مطبعة الأميرية، القاهرة، دط، ١٩٤١م.
٩٨. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تح/ مفيد قمحية وجماعة: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
٩٩. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦هـ). تح/ نصر الله حاجي مفتي أوغلي: دار صادر، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
١٠٠. نوادر المخطوطات (أسماء المغتالين من الأشراف، وأسماء من قتل من الشعراء، وأسماء من غلبت كنيته على اسمه، وكنى الشعراء وألقابهم)، لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ) تح/ عبد السلام هارون: دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
١٠١. الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، باعتناء جاكين سوبله، علي عمارة: دار النشر فرانز شتايز، شتوتغارت، دط، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

ثانياً: المراجع العربية:

١. استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي ظافر الشهري: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط٢٠٠٣، ١م.
٢. الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، محمد الولي: دار الأمان، الرباط، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
٣. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د.حسن طبل: دار الفكر العربي، القاهرة، دط، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
٤. الأسلوب الكنائي (نشأته. تطوره. بلاغته)، محمود السيد شيخون: مكتبة لكرليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
٥. إشكالات النص (دراسة لسانية نصية)، جمعان بن عبد الكريم: النادي الأدبي، الرياض، والمركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
٦. الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١٩٩٩، ٤م.
٧. الأصول. دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة تمام حسان عالم الكتب. القاهرة، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
٨. الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي (١٣١٠هـ - ١٣٩٦هـ): دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.
٩. أيام العرب في الجاهلية. محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. المكتبة العصرية. بيروت. دت.
١٠. بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل: سلسلة عالم المعرفة، الكويت، د. ط١٩٩٢م.
١١. البلاغة العربية في ثوبها الجديد. علم البيان، علم المعاني، علم البديع. د. بكري شيخ أمين. دار العلم للملايين، بيروت. ط٧. ٢٠٠١م.
١٢. بناء الأسلوب في شعر الحدائث (التكوين البديعي)، محمد عبد المطلب، دار المعرف، القاهرة، ط٢. ١٩٩٥م.
١٣. تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص. عبد القادر شرشار. اتحاد الكتاب العرب. دمشق. د. ط٢٠٠٦م.
١٤. تحليل الخطاب الروائي (الزمن - السرد - التبئير)، سعيد يقطين: المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
١٥. التركيبات الوظيفية قضايا ومقاربات، أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

١٦. جمالية الخبر والإنشاء، دراسة جمالية بلاغية نقدية، حسين جمعة: اتحاد الكتاب العرب. دمشق، دط، ٢٠٠٥م.
١٧. خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، ١٩٩٨م.
١٨. الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمادي: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨م.
١٩. دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
٢٠. دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا). د. ميجان الرويلي. د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٣، ٢٠٠٢م.
٢١. شعراء النصرانية قبل الإسلام، الأب لويس شيخو، دارالمشرق، ط٤، د.ت.
٢٢. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٢م.
٢٣. علم الأسلوب والنظرية البنائية، صلاح فضل، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١٤٢٨، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
٢٤. علم البيان، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، دط، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٢٥. علم الدلالة، أحمد مختار عمر: عالم الكتب، القاهرة، ط٦، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
٢٦. علم اللغة الاجتماعي، مفهومه وقضاياها، صبري إبراهيم السيد: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، ١٩٩٥م.
٢٧. علم اللغة العام (الأصوات)، كمال محمد بشر: دار المعارف، القاهرة، ط٧، ٢٠٠٣م.
٢٨. علم المعاني (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني) د. بسيوني فيود: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
٢٩. قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص)، أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، دط، ٢٠٠١م.
٣٠. لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٦م.
٣١. اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان: عالم الكتب، القاهرة، ط٦، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
٣٢. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر وفريق عمل: عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

٣٣. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
٣٤. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون: المكتبة الإسلامية، استانبول، ط٢، دت.
٣٥. مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين (دراسة تاريخية فنية)، أحمد عبد السيد الصاوي: منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، ١٩٨٨م.
٣٦. المنجد في اللغة والأدب والعلوم، الأب لويس معلوف (١٨٦٧م-١٩٤٦م): بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ط١٩، ٢٠٠٠م.
٣٧. الموسوعة العسكرية، الهيئمة الأيوبي وآخرون: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ط، ١٩٨١م.
٣٨. موسوعة النحو والصرف، إميل بديع يعقوب: دارالعلم للملادين، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
٣٩. النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٢، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.
٤٠. النص والخطاب والاتصال، محمد العبد: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية المترجمة:

١. الاتصال والسلوك الإنساني، برنت روبن: تر/نخبة من أعضاء قسم الوسائل وتكنولوجيا التعليم: جامعة الملك سعود، الإدارة العامة للبحوث، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
٢. البلاغة، المدخل لدراسة الصور البيانية، فرانسوا مورورا، تر/محمد الولي، عائشة جريز: أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٣م.
٣. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان: تر/عبد الحليم النجار: دار المعارف، القاهرة. ط٥. دت.
٤. الخطاب الروائي، ميخائيل باختين: تر/محمد برادة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.
٥. الخطاب، سارة ميلز: تر/يوسف بغول: منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة متنوري، قسنطينة، د.ط، ٢٠٠٤م.
٦. الشفاهية والكتابية، والتر.ج. أونج، تر/حسن البنا عز الدين، مراجعة/ محمد عصفور: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
٧. علم النص مدخل متداخل الاختصاصات. تون. أ. فان ديك: تر/سعيد بحيري: دار القاهرة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م.

٨. قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، تر/ محمد الولي ومبارك حنون: دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٨م
٩. لسانيات النص عرض تأسيسي، كيرستن آدمتسيك: تر/ سعيد حسن بحيري: مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.
١٠. اللغة. فندريس، تر/ عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص: لجنة البيان العربي، القاهرة، دط، ١٩٨٥م.
١١. مدخل إلى علم لغة النص، فولفجانج هاينه ديتر فيهفجر: تر/ سعيد بحيري: مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.
١٢. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. أ. ي. فنسك (١٨٨٢م-١٩٣٩م)، تر/ محمد فؤاد عبد الباقي: مكتبة بريل، ليدن، دط، ١٩٣٦م.
١٣. ميشيل فوكو (مسيرة فلسفية)، أوبير دريفوس وبول رابينوف: تر/ جورج أبي صالح، وشروح / مطاع صفدي: مركز الإنماء القومي، بيروت، دت، دط.
١٤. النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بو جراند، تر/ تمام حسّان: عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
١٥. النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي، فادن دايك، تر/ عبد القادر قنيني: أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، دت، دط.
١٦. نظام الخطاب، ميشيل فوكو: تر/ د. محمد سبيلا: دار التنوير، بيروت، دط، ٢٠٠٧م.

رابعاً: الدومريّات

- ١- إشكالية المصطلح النقدي (الخطاب والنص) د. إبراهيم عبد الله، مجلة آفاق عربية، بغداد، السنة الثامنة عشرة، آذار، ١٩٩٣م.
- ٢- الحد بين النص والخطاب، ربيعة العربي، مجلة علامات، المغرب، ع٣٣، ٢٠١٠م.
- ٣- الحدود في النحو، علي بن عيسى الرمانى (٢٩٦هـ-٣٨٤هـ) تح/ بتول قاسم ناصر، مجتراً من مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ع١٤/ج٢٣، دت.
- ٤- كسر الإيقاع ودلالاته في الفاصلة القرآنية، الدكتور محمد الأمين الخضري، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثالث للعلوم الإسلامية والعربية وقضايا الإعجاز في القرآن والسنة بين التراث والمعاصرة بجامعة المنيا، المجلد الثالث، ٤/٦ مارس، ٢٠٠٧م.

- ٥- نحو نظرية عربية في أفعال الكلام، محمود نحلة: مجلة الدراسات اللغوية (فصلية محكمة تصدر عن مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية)، الرياض، ع ١/ج ١، محرم - ربيع الأول ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، أبريل - يونيو .
- ٦- النص: ممارساته وتجلياته، منذر عياشي: مجلة الفكر العربي المعاصر، ع/٩٦-٩٧-١٩٩٢م.

خامساً: الرّسائلُ الجامعيّةُ:

- ١- تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية (دراسة في الأسس النظرية)، صفاء صنكور جبار: رسالة ماجستير: جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الإعلام، ١٩٩٦م